

# المركز الثقافي وسياسات المتحف



معهد التاريخ والآثار ودراسات الشرق الأدنى

الفرع الثالث

نظّم هذا المؤتمر بناءً على الدور الأكاديمي الهامّ الذي يضطلع به معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية في تنمية مجتمعه، ليرز مدى أهميّة تطوير عمل مرصد اتحاد بلديات الفيحاء ليغطّي موضوع الرصد الثقافي، لما لهذا المجال من دور حيويّ في فهم الذات الثقافيّة. إن تنظيم مؤتمر علميّ حول هذا الموضوع وحول موضوع المتاحف يتطلب تعاضد الكثير من المؤسّسات الثقافيّة الفاعلة في هذا الحقل.

لقد تلاقّت جامعة البلمند مع الجامعة اللبنانية في هذا العمل وقد جمعتهما هموم معرفيّة مشتركة في موضوع الثقافة والرصد الثقافيّ والعمل المتحفّي. تشكّل هذه التجربة التشاركيّة بين الجامعتين تجربة واعدة لا سيّما أنّها تؤمّن جواً من التواصل المعرفيّ الأكاديميّ الهامّ بين الصروح العلميّة.

كما ساهمت في هذا العمل منظمة اليونسكو، وزارة الثقافة، والمؤسّسات الثقافيّة المحليّة، مؤسّسة العزم والسعادة ومؤسّسة الصفديّ. وتشكّلت كوكبة من الخبرات لتفعل أعمال هذا المؤتمر من خلال توزّعها، وفق اختصاصاتها، في محاور أردنا من خلالها التغطية الممكنة لموضوع الثقافة، ولأهميّة دور المرصد الثقافيّ والمتاحف في مجتمعنا المحليّ والوطنيّ.

المعهد  
التقني  
وسياسات  
البيئة

# المركز الثقافي وسياسات الشرق

أعمال المؤتمر التشاركي

بين

الجامعة اللبنانية

معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثالث

وجامعة البلمند

معهد التاريخ والآثار ودراسات الشرق الأدنى

طرابلس - لبنان

١١-١٣ كانون الثاني ٢٠١٢

إعداد وتحرير

عاطف عطيه و مها كيال



الفهرسة أثناء النشر/ إعداد مكتبة جامعة البلمند

المرصد الثقافي وسياسات المتاحف : أعمال المؤتمر التشاركي بين الجامعة اللبنانية- معهد العلوم الاجتماعية- الفرع الثالث وجامعة البلمند، طرابلس- لبنان، ١١-١٣ كانون الثاني، ٢٠١٢ / إعداد وتحرير عاطف عطية و مها كيال.  
٥٠٠ ص. رسوم.  
يحتوي مراجع هامشية.

ISBN 978-9953-452-59-3

١. المتاحف- مؤتمرات. ٢. الملكية الثقافية- مؤتمرات. ٣. الذاكرة الجماعية- مؤتمرات.
٤. إدارة المتاحف- مؤتمرات. أ. عطية، عاطف. ب. كيال، مها. ٠٦٩.

صورة الغلاف: زاوية من المعرض الإثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند

الضبط اللغوي: الأنسة لولو صبيعة

جميع الحقوق محفوظة ٢٠١٣، منشورات جامعة البلمند

أنجزت شركة أكسيليريت ش.م.ل. إخراج وطباعة هذا الكتاب في شهر حزيران ٢٠١٣

# توطئة

[1]

تبلورت فكرة البحث في موضوع مؤتمر المرصد الثقافي وسياسات المتاحف مع تنامي الإحساس بالحاجة الملحة إلى تطوير دور مرصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء، الذي ينشط منذ أكثر من عشر سنوات في رصد الواقع المدني لمدينة الفيحاء، طرابلس، الميناء والبدّاوي.

استطاع هذا المرصد أن يؤدي دوراً جوهرياً، رغم إمكانياته المتواضعة، في إغناء المعارف حول هذه المدن الثلاث، وهو ما زال يتطلع لتطوير ذاته حتى يتمكن من القيام بدور محوري، ليس فقط في عمليّة الرصد والتشبيك مع المؤسسات العامّة والخاصّة لجمع المعلومات، بل، أيضاً، لينطلق في تحليلها حتى تساند واقعياً رؤى الخطط الاستراتيجية لهذه المدن، ويمهد لرسم سياسات تنميتها، ورصد تحولاتها التنمويّة زمنياً؛ ناهيك، طبعاً، عن دوره في إغناء البحث الأكاديمي والمعرفي لطلاب الجامعات والباحثين العلميين المهتمين بمدن الاتحاد.

تمثّلت أولى تطلّعات المرصد في مجال تنمية قدراته، في إبرامه بروتوكولات تعاون مع المؤسسات الجامعيّة العاملة في نطاق الاتحاد. ولقد تم، في سياق هذا التوجّه، توقيع

بروتوكول تعاون أكاديمي بينه وبين معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية ممثلاً بعميده د. فردريك معتوق، ومديره د. عاطف عطية، وممثل أساتذته د. ماهر مرعي، والمنسقة لمتابعة سير هذا التعاون د. مها كيال.

بناءً على هذا التعاون، وبناءً على الدور الأكاديمي الهام الذي يضطلع به معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية في تنمية مجتمعه، نظم هذا المؤتمر ليرز مدى أهمية تطوير عمل مرصد اتحاد بلديات الفيحاء ليغطي موضوع الرصد الثقافي، لما لهذا المجال من دور حيوي في فهم الذات الثقافية وفي المساهمة بتنميتها من خلال رسم سياسات تتوافق وخصوصياتها المحلية.

وعندما تنادينا في المعهد لعقد مؤتمر حول المرصد الثقافي وسياسات المتاحف أدرنا مدى الحاجة إلى تعاضد الخبرات المحلية والعربية لتعميق قراءتنا لهذه التوجهات، خصوصاً وأتينا نتطلع لمتاحف تكون حيزاً ثقافياً دينامياً في حراكه يطال أكثر ما يطال الواقع المعيش.

لا بدّ من القول بأننا محظوظون لاستجابة المؤسسات الأكاديمية والثقافية لهذا النداء التشاركي المعرفي الذي يغني العلم والخبرات، وينمي التواصل الإيجابي البعيد عن أنانية الحدود الضيقة والتبصر المعرفي المحدود. وقد تلاقت معنا جامعة البلمند، التي تجمعها وإيانا هموم معرفية مشتركة في موضوع الثقافة والرصد الثقافي والعمل المتحفي. إن هذه التجربة التشاركية بين الجامعتين هي تجربة واعدة خصوصاً لأنها تؤمن جواً من التواصل المعرفي الأكاديمي الهام، بين صروحنا العلمية.

كما تلاقينا ومنظمة اليونيسكو التي تعتبر المؤسسة العالمية الرائدة في تبيان أهمية الرصد الثقافي، وتبيان أهمية الحفاظ على التنوع الإنساني وحمايته، من خلال حفظ تراثه المادي واللامادي، ومن خلال تبيان دور الثقافة في عملية التنمية وفي رسم السياسات التنموية.

أمّا تلاقينا مع وزارة الثقافة فعائد طبعاً لدورها العضوي مع موضوع هذا المؤتمر.

وإذا كنا محظوظين بمشاركة المؤسسات الثقافية الدولية والوطنية فإننا لا ننسى أبداً دور المؤسسات الثقافية المحلية، مؤسسة العزم والسعادة ومؤسسة الصفدي، ودعمهما الفعلي والدائم وغير المشروط، لتوجهاتنا الأكاديمية في معهد العلوم الاجتماعية مع إيمانها بأننا

نعمل لمصلحة العلم والمتعلمين ولمصلحة إتمام القدرات المعرفية في محيطنا.

وكما كان غنى التعاقد الأكاديمي مع المؤسسات الثقافية، كذلك كان حظنا مع الباحثين الأكاديميين المتخصصين. فلقد تشكلت كوكبة من الخبرات لتفعل أعمال هذا المؤتمر من خلال توزعها، وفق اختصاصاتها، في محاور أردنا من خلالها التغطية الممكنة لموضوع الثقافة، ولأهميّة دور المرصد الثقافيّة والمتاحف في مجتمعنا المحليّ والوطنيّ.

### أسباب الاهتمام بالمتاحف والمرصد

يفتقد لبنان، حتّى الآن، المرصد الثقافيّة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى متاحف الحياة اليومية التي هي شبه نادرة، وإن كان ثمة محاولات متواضعة لإنشاء هذا النوع من المتاحف، مثل: محاولة مؤسسة دبانة في صيدا، متحف الصابون في صيدا أيضاً (مصنبة عوده)، متحف البيت الريفي (le Musée de Terbol) (تربل، زحلة)، متحف الحرير في بسوس (Musée de la Soie - Bsous) وغيرها...

### لماذا ربط المرصد بالمتاحف؟

الاهتمام بإنشاء متحف الحياة اليومية يعني حكماً أننا نتّجه أكثر لعالمنا المادّي واللامادّي الثقافيّ الذي نتلمّس من خلاله، ليس فقط التاريخ المعيش والفن لحقبة تاريخيّة معيّنة، بل وأبعد من ذلك، نستحضر الكثير من معالم ثقافتنا الحاليّة.

إنّ التاريخ المعيش هو إنعكاس لجذورنا التي ما زالت واضحة المعالم في بنيتنا الثقافيّة، لأنّنا، كشعب، ما زلنا محكومين بالكثير من ثقافة الأجداد، من خلال طقوسنا وعاداتنا وأنماط حياتنا على الصعد المجتمعيّة كافّة، الفكرية، والدينيّة، والسياسيّة...

المرصد، إذًا، أساس لجمع المادّة ودراستها وتحويلها لموضوع متحفّي هادف بدلالاته، لا لفهم التاريخ ووعي دلالات تحولاته فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك، لقراءة تركيبة مجتمعاتنا الحاليّة. فالمرصد لا بدّ من أن يرتبط بشبكة علميّة تساهم بجمع مادّته وتحليلها، هذه الشبكة غالباً ما تتكوّن من جامعات ومعاهد، ومراكز أبحاث مهمّة، وباحثين يعملون على بلورة ثقافة الحياة اليومية وإظهارها.



متحف العادات والتقاليد: كمجال ثقافي لفهم الذات المجتمعية والتعبير عنها مع علمنا بأهمية المتحف كمكان توثيقي لعالمنا المادي واللامادي، إلا أننا واعون أنّ أهمية المتاحف الجديدة في العالم اليوم، خصوصاً التي تتأسس بعد تجارب تاريخية وعلمية كثيرة وكبيرة في هذا المجال، لا تقتصر على جمع التراث المادي واللامادي ودراسته وتوثيقه فحسب، بل هي تهتمّ أيضاً بتوثيق التواصل الثقافي بينها وبين مجتمعاتها الحديثة والمعاصرة؛ هذا التواصل الذي يمكن المنتمي لأي ثقافة أن يجول دوماً بين المعالم الأساسية التي هيأت تركيبته الثقافية. فالتجوال هذا هو الذي يمكن أبناء المجتمع المحلي من وعي الذات بدلاً من وراثتها فقط من خلال العادات والتقاليد وأنماط السلوك الواعية واللاواعية، والممارسات اليومية المفكر فيها أو العفوية...

يعني هذا، في كلّ الأحوال، أنّ المتاحف في صورتها التقليدية ما عادت تفي بالاحتياجات التي تتطلبها مناهج الميزوغرافيا Muséographie وغاياتها.

لا شك أنّ التراث المديني والريفي في لبنان لم يحز بعد على الاهتمام الكافي كثقافة معيشية لها أهميتها على مستوى التكوين الثقافي اللبناني، وذلك رغم تنوع أنماط الحياة اليومية فيه، من أنواع الغناء والرقص والموسيقى، إلى تلاوين الطعام وأشكال اللباس، وصولاً إلى أدوات العمل والتسليّة والحماية من الأخطار الطارئة، وانتهاءً بفنون العمارة، وغيرها.

### متحف الحياة اليومية: المجال الثقافي التواصلي مع الآخر

من خلال ما تقدّم، تظهر أهمية متحف الحياة اليومية، كوسيلة حضارية بامتياز، للتواصل مع الآخر، مع السائح الذي يهّمه من زيارته، ليس فقط الراحة والاستجمام، بل الثقافة أيضاً. فالمتحف كمجال ثقافي مادي ولا مادي دائم، وكمقرّ ثقافي عامّ للدراسات والندوات والمحاضرات وعرض الأفلام.. هو مكان هام في حياة المدينة والريف على حدّ سواء.

### الرصد الثقافي وبناء المتاحف والتشارك المؤسّساتي

إنّ تنظيم مؤتمر علمي حول موضوع الرصد الثقافي وحول موضوع المتاحف يتطلّب، على المستوى المعرفي وعلى المستوى الخبراتي، كما على المستوى العملي المستقبلي،

تعاقد الكثير من المؤسسات الثقافية الفاعلة في هذا الحقل، أكانت مؤسسات عامة أم خاصة، محلية، وطنية أم حتى إقليمية أو عالمية؛ وهو أمر توفرت ظروف تأمينه، كما سبق وذكر، لتفعيل أعمال هذا المؤتمر.

### مُحاور مؤتمر المرصد الثقافي وسياسات المتاحف

امتدّ المؤتمر على مدار ثلاثة أيام: الأربعاء والخميس ١١ و١٢/٠١/٢٠١٢، في مبنى معهد العلوم الاجتماعية (الفرع الثالث)، والجمعة ١٣/٠١/٢٠١٢ في مبنى جامعة البلمند.

#### في المحور الأوّل

تمّ الحديث عن أهميّة الرصد الثقافيّ من منظور تشاركيّ، وعن الطرق الأكاديمية التي يتمّ من خلالها رصد الثقافة المعيشة، لنطلع بعدها على واقع رصد اللباس المتّزم لفهم كيفية قراءة دلالاته ومؤشّراته وتحوّلاته زمنياً.

المتحدّثون: د. مها كيال، د. سميح شعلان، د. عاطف عطية

#### في المحور الثاني

تمّت مقارنة كيفية رصد الموسيقى لفهم أبعادها الاجتماعية/الثقافية، وكيفية الرصد الثقافيّ من خلال الفيلم الاتوغرافيّ، وتمّ التحدّث عن الوثائق ودورها في الرصد الثقافيّ.

المتحدّثون: د. هيفاف ياسين، د. حنان غازي، د. سعاد سليم، د. عبد الغني عماد.

#### في المحور الثالث

تمّ تناول واقع الرصد الثقافيّ للواقع الافتراضيّ، كما مناقشة مناهج وتقنيات الرصد النوعيّ.

المتحدّثون: د. نديم منصور، المهندس عاطف نوار، و د. يوسف كفروني.

#### المحور الرابع

تناول المحاضرون ضمنه اتّفاقيّة اليونيسكو في الحفاظ على التراث اللاماديّ، كما تمّ التحدّث عن الذاكرة وأدوارها المتنوّعة في حفظ التراث وفي وعي الذات.

المحاضرون: د. طعمه- ثابت، د. ساري حنفي، د. علي بزي، د. نادر سراج.

### المحور الخامس

تمّ الحديث عن تجربة مرصد اتحاد بلديات الفيحاء وعن التطلّعات لتطويره ليطال البعد الثقافيّ، كما تمّ التحدّث عن دور المرصد في رسم الاستراتيجيّات والسياسات الثقافيّة والتنمويّة.

المحاضرون: المهندسة ديمّا حمصي، د. مارلين حيدر نجار، د. مصباح رجب.

### المحور السادس

تمّ التحدّث عن تجارب خبرات في تأسيس المتاحف وإدارتها وتطويرها كما تمّ التحدّث أيضاً عن ذاكرة حرفيّة لمدينة بحريّة.

المحاضرون: د. الحبيب بن يونس، د. نادين بنايوت هارون، د. جان توما.

### المحور السابع

تمّ البحث في قضايا المتحف: أنواع المباني المختارة لتكون متاحف في لبنان وطرق ترميمها، كما تمّ التحدّث عن المادة المتحفية وكيفية وقايتها، وقدّمت تجربة واقع المتاحف الشعبيّة في مصر.

المحاضرون: المهندس فادي هندي، د. سماح صرارفي، د. سرية عبد الرازق.

### المحور الثامن

تضمّن مقاربات متنوّعة للمتحف ومجاله، لدور المجتمع المحليّ في بناء أو تفعيل بناء متاحفه، ولدور الذاكرة كرافعة تنمويّة.

المحدّثون: د. ماغي المعلوف، د. نزيه كبارة، والأستاذ جان حجار.

### الجلسة الختامية

خصّصت لإدارة نقاش حول مقترحات لبناء شراكة مؤسّساتيّة مستقبلية تعمل على تنمية الرصد الثقافيّ من خلال التشبيك بين مختلف المؤسّسات التي تهتمّ بشؤون وشجون الثقافة بشكل أو بآخر.

أدار النقاش وصاغ المقترحات: د. علي الموسوي.

# كلمات الافتتاحية



كلمة منسقة المؤتمر  
دكتورة مها كيال

حضرة راعي هذا المؤتمر رئيس الجامعة اللبنانية ممثلًا  
بحضرة عميد معهد العلوم الاجتماعية د. فردريك معتوق؛

حضرة رئيس بلدية طرابلس الدكتور نادر غزال؛  
حضرات أصحاب السعادة، والسيادة أو من يمثلهم؛

حضرات الأساتذة الزملاء والضيوف؛

أيها الحضور الكريم؛

صباح الخير

أودّ في البدء أن أرحّب بهذا الحضور المميّز بأطيافه المتنوّعة، لمناقشة موضوع حضاري،



تشكل، وما زال يتشكل، من سيرورة تراكمات المعارف الثقافية بتلاوينها المادية واللامادية.

هذه الثروة الإنسانية المشتركة المتمثلة في الثقافات المتنوعة، ما زالت تفاجئنا بحيوية نشاطها، وما زالت تضعنا أمام تحديات اكتشاف مصادر ومعارف وابتكارات إنسانية جمّة، كما أنّها ما زالت تعتبر الوسيلة الأمثل التي نستطيع من خلالها أن نطل على إشكاليات وأساليب تنمية الانسان وتحسين نوعية عيشه وتطوير ملكاته المعرفية والابداعية وفق منطق التنمية المستدامة.

لن أطيل الكلام في هذا الموضوع، فالكلام سيطول عنه حكماً طوال أيام المؤتمر. ما أتمنى الإشارة إليه هو أننا نطمح أن يوصلنا عملنا الأكاديمي هذا إلى وضع أسس عملانية تترجم الدور الفعلي لصروحنا العلمية في علاقاتها مع بعضها بعضاً محلياً، وطنياً، وإقليمياً، وفي علاقاتها مع المنظمات المحلية والدولية والمؤسسات العامة والخاصة التي تعنى بالشأن الثقافي، سواء لجهة صونه كترات، أو لجهة وعيه كأساس لوضع السياسات التنموية، أو لجهة استخدامه كأداة لتطوير الابداعات الفردية وتنميتها.

نحن نؤمن بأن الفكر والعمل التشاركي هما من أهم الأسس التي نستطيع أن نصل من خلالها لمراكمة المعارف والقدرات مهما تنوعت الاهتمامات، ونحن نؤمن أيضاً بضرورة صون التراث مع العمل على رسم السياسات الثقافية التي تطل كل فرد في المجتمع لتؤمن له قدرات العطاء والابداع.

إسمحوا لي، في ختام هذه الكلمة، بأن أشكر كل من ساهم في تنظيم وفي تفعيل أعمال هذا المؤتمر، وهم كثر، الأمر الذي يعكس التزاماً ورغبة في التعاضد وفي العمل، واسمحوا لي بأن أشكر أيضاً كل من سيساهم في ترجمة توصيات هذا المؤتمر عملياً.

دام تعاوننا لما فيه من مصلحة للمعرفة والانماء الثقافي، ودمتم جميعاً في عطائكم وفي طموحاتكم التنموية لما فيها من مصلحة لأوطاننا ومناطقنا.



كلمة مدير معهد العلوم الاجتماعية

دكتور عاطف عطيه

أيها الأصدقاء الأعزّاء،

إسمحو لي بأن أرحّب بكم أجمل ترحيب وأحرّه، ضيوفاً أعزّاء ومتعاونين ومشاركين في عقد هذا المؤتمر الهام؛ المؤتمر العلمي الخامس الذي يقيمه معهد العلوم الاجتماعية في طرابلس، والمؤتمر العربي الثاني الذي يجمع خيرة الخبراء في التراث الشعبيّ وفي بناء آليات الحفاظ على عناصر الثقافة الشعبيّة؛ الخبراء الذين قدموا من مصر العربيّة ومن تونس الأحرار ومن مناطق لبنانيّة متعددة، اضطلعوا جميعاً، وما زالوا، في مهامّ وطنيّة تعمل على الحفاظ على موروثاتنا الشعبيّة، وعلى المؤسّسات التي عليها حفظ هذا التراث من أي مصدر كان، من تقاليدنا ومن أزيائنا وصور طعامنا ومن موسيقانا الشعبيّة وأهازيجنا، ومن كلّ ما يعبر عن مسيرة حياتنا المادّيّة واللامادّيّة لتكون منطلقاً لنا، وزاداً نهل منه لتغذية حاضرنا ولتطلع منه إلى مستقبلنا بخطى المتّصل والواثق والمعترّز، لأن من لا ماض له لا حاضر يثق به ولا مستقبل يتطلّع إليه.

أيها الأصدقاء الأعزّاء،

ما نقوم به، اليوم، يمثّل الترجمة الأولى لبروتوكول التعاون مع بلدية طرابلس واتّحاد بلديات الفيحاء؛ وهو البروتوكول الذي ينصّ على المشاركة في كلّ ما يسهم في تقدم المدينة التي نحبّ ونعتزّ بالانتماء إليها. وكان قد سبق أن أنشأ اتّحاد بلديات الفيحاء مرصد البيئة والتنمية لمعرفة كلّ ما له علاقة في تنمية مدن الاتّحاد وفي رفع شأنها المدنيّ.

أمّا المرصد الثقافيّ، فهو الحصيلة الأولى المأمولة من هذا التعاون الذي لا يمكن أن يثمر من دون الرعاية والمشاركة مع مؤسّسات رسميّة، ومدنيّة غير حكوميّة تقدم ليس فقط الدعم المادّيّ لإنجاح هذا المشروع المأمول الذي ما كان له أن يرى النور لولا مشاركة المؤسّسات الداعمة: مؤسّسة الصفدي، وجمعيّة العزم والسعادة، وجامعة البلمند، وبلدية طرابلس؛ ولولا المشاركة المعنويّة والبحثيّة التي أعطت زخماً لهذا المؤتمر، وكرّست النشاط المميّز،

لمعهدنا معهد العلوم الاجتماعية، وأضفت على نشاطات جامعتنا الوطنية توجهات بحثية وحفريات ميدانية طالت وتطول مجالات متعددة من ممارساتنا العملية نتمنى أن تزداد وتزدهر، تتلاقى فيها الخبرات مع القدرات والمعارف المتخصصة.

من هنا، أيها السادة، جاءت مشاركة وزارة الثقافة باعتبار اهتمامها الرئيس بالشأن الثقافي، عموماً؛ وباعتبار اهتمامها بإنشاء المتاحف التي عليها حفظ التراث على أي وجه كان. كما جاءت مشاركة منظمة اليونسكو العالمية لتؤكد على دورها في حفظ التراث الثقافي في كل المجتمعات الإنسانية، واهتمامها بإبراز التنوع الإنساني في عمليات الإنتاج الثقافي، وتركيزها على دور الثقافة في عملية التنمية.

أيها الأصدقاء الأعزاء،

إذا كان معهدنا يعتزّ بالتعاونين معه والمشاركين في أعمال هذا المؤتمر الذي لا يمكن له أن يقوم بدون هذا التعاون والمشاركة، فإن انعقاده ما كان ليحصل لولا التعاون والمشاركة اللذين قدّمهما الزملاء الأساتذة الباحثون الذي صرفوا الجهد والوقت وتكبّدوا مشاق الانتقال من مصر وتونس إلى لبنان، ومن الجنوب والبقاع وبيروت والجبل، ومن مناطق متعددة من الشمال، لتكون لهم كلماتهم في ما يمكن أن يكون عليه الرصد والمرصد الثقافيّين، وفي ما يمكن أن يكون عليه النظر الى موروثاتنا الثقافية، وإلى ما كانت عليه، ولحظ التغييرات، واستشراف المستقبل من خلال ما كان عليه الماضي وما هو عليه الحاضر.

أيها الأصدقاء الأعزاء،

إنّ اعتزاز معهدنا لا يمكن أن يوصف أو يحدّد للتعاون التامّ بين منسّقة هذا المؤتمر الزميلة مها كيال، وفريق الباحثين فيه والزملاء الأساتذة والموظّفين، يحدوهم الاخلاص في العمل والاجتهاد، فإذا أصابوا كان لهم شكران وأجران، وإذا أخطأوا كان لهم الشكر والأجر، ومن لا يعمل ولا يجتهد لا شكر له ولا أجر إلاّ الغياب في متاهات النسيان. وهو تعاون موصول باهتمام لا محدود ورعاية متميّزة بالحماس والتشجيع من عميد المعهد د. فردريك معتوق، ومتابعة متواصلة ودعم لا يحدّه حدّ إلاّ مدى القدرة على الدعم والعطاء من قبل حضرة رئيس الجامعة اللبنانية د. عدنان السيد حسين الذي نفتقد حضوره معنا اليوم لانشغاله الضاغط.

فإليكم جميعاً مؤسسات رسمية ومدنية وباحثين ومسؤولين وأسمى آيات الشكر والتقدير. والسلام عليكم.



## كلمة جامعة البلمند دكتور جورج ن. نحاس

الزملاء الكرام

يسرني أن أشارك في افتتاح أعمال هذا المؤتمر باسم جامعة البلمند، سيما أن العلاقة بين الجامعة اللبنانية وجامعة البلمند علاقة وثيقة قائمة على الاحترام المتبادل وعلى الثقة بأن التعاون بين القطاعين العام والخاص، في مجال التعليم العالي، هو السبيل الأنجع لإعطاء هذا التعليم دوره الوطني الفاعل. يتميز التعليم العالي بأن أهدافه تذهب إلى أبعد من آنية تأهيل الأفراد ليطال إشكالية النهوض بالوطن على أكثر من صعيد.

لذلك يجعلنا موضوع هذا المؤتمر «المرصد الثقافي وسياسات المتاحف» تتأمل في موضوعين هاميين جدًا على الصعيد الجامعي هما الثقافة التي تبني الأشخاص كأدوات نهوض في المجتمع الإنساني، والمتاحف كأماكن تواصل جدلي بين المستقبل الذي نصوغ والماضي الذي نستلهم. فالإنسان، بشكل طبيعي، مشدود بين موروث تشهد له المتاحف على أنواعها وثقافة يعايشها، تمده إلى المستقبل. يقف الإنسان من الموروث مواقف مختلفة تذهب من الرفض إلى التماهي الجامد، ويقف من الثقافة مواقف مختلفة تذهب من التنبّي الأعمى إلى الرفض المطلق مرورًا بالتجاهل. أين نحن اليوم من الحاجة الملحة إلى بلورة صيغ إنسانية المنحى تعتمد الفكر النقدي والحر في مقاربة الشائين كوجهين لعملة واحدة؟

قد تكون المؤسسة الجامعية اليوم على مفترق طرق هام مع تطوّر التقانات، ووسائل الاتصال، والغياب العملي للمسافات. هذا المفترق يقوم على التساؤل حول دور المؤسسة الجامعية في توضيح الموقف من الثقافة ومن التراث معًا، بخلق جو من الجدلية بينهما. فالطالب مدعو أن يسائل الثقافة لا أن يرفضها، وأن يقوم التراث لا أن يستعبد له. وهذان الأمران لا يتمان إلا من خلال نظرة متجددة لماهية التعليم العالي، وبرامجه، وحضوره المجتمعي.



من هنا كان موضوع هذا المؤتمر موضوعاً بغاية الأهميّة إذ يضع نصب أعيننا إشكاليّة حقيقيّة تتمثّل بتهميش الثقافة وتشويهها من جهة، وبالتعبّد للماضي أو تجاهله الكلّي من جهة أخرى. فأن نقيم مرصداً للثقافة يسمح لنا بدراسة الحالات الثقافيّة وتطويرها هو أمر ملخّ. كذلك هو أمر اعتماد سياسة للمتاحف تجعل منها أمكنة تواصل وتعلّم.

وإذ أشكر الجامعة اللبنانيّة، ممثّلة بمسؤوليها، على إطلاق فكرة هذا المؤتمر وعلى دعوتنا للمشاركة به، أتمنّى للمؤتمّرين الخير ولبلدنا الازدهار.

مع شكري.



## كلمة جمعيّة العزم والسعادة دكتور عبد الاله ميقاتي

معالي رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور عدنان السيد حسين  
ممثلاً بالعميد الدكتور فريدريك معتوق،  
سعادة رئيس البلدية، ممثلي الهيئات الداعمة،  
الزملاء الأساتذة الكرام، الطلاب الأعزّاء،  
أيها الحضور الكريم؛

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛

يسرّني أن أتحدّث إليكم في هذه الصبيحة الثقافيّة المميّزة باسم جمعيّة العزم والسعادة  
الاجتماعيّة، وأن أنقل إليكم تحيّات دولة الرئيس نجيب ميقاتي الذي يتمنّى لهذا المؤتمر  
كلّ النجاح والتوفيق وتحقيق الغاية التي عقد من أجلها.

لقد دأبنا في جمعية العزم والسعادة الاجتماعية مع عدد من المؤسسات الزميلة من مدينة  
طرابلس على التعاون ودعم المؤتمرات والندوات الثقافيّة والعلميّة، كالتّي ينظمها زملاؤنا  
اليوم في معهد العلوم الاجتماعيّة - الفرع الثالث - في الجامعة اللبنانيّة، بغاية تعميم  
الأبحاث وإفادة المجتمع من كلّ الإنتاج الفكريّ والثقافيّ والعلميّ. ويأتي مؤتمرنا هذا  
العام ليحمل عنواناً تحديّتيّاً مهمّاً حول المرصد الثقافيّ وسياسة المتاحف.

إنّ النقاش الثقافيّ لا يمكن أن يعطي نتائجه المثمرة إلاّ من خلال مجتمع وجيل مثقّف،  
ليتمّ رصد المواقف الثقافيّة الجريئة ومواجهة ما تتعرّض له الثقافة من التهميش، كما أنّ  
المرصد الثقافيّ يتناول الحديث عن كلّ ما يتعلق بالمجال الثقافيّ من: كتب، ومقالات،  
ومنشورات وقصائد وأشعار ونصوص أدبيّة وعلميّة، وموسيقى وفن، وحقوق الإنسان،  
وتشريع وقانون وخلافه.

لا شكّ في أنّ الأهميّة الثقافيّة لأيّ مرصد ثقافيّ تعتمد على إقامة مساحة ثقافيّة معرفيّة بعيدة كلّ البعد عن التعصّب والحزبيّة والفئويّة. ولقد شهدت منطقتنا العربيّة حركة ناشطة للفكر العلميّ والثقافيّ، وذلك في عصر الحضارة الإسلاميّة. وكانت هذه الحركة سبباً ومنطلقاً للحضارة الغربيّة في مجالات علميّة وثقافيّة متعدّدة. فقد ترجمت المنجزات العلميّة في مجالات الطبّ والصيدلة والفلك والرياضيات وغيرها إلى لغات عديدة.

وفي هذا المجال تتجلّى عبارة الرصد الثقافيّ من خلال المعرفة، وليس فقط من خلال نشر الانتاج وتوزيع الجوائز. بل كلّ ذلك يشكل خطوات متكاملة لا غنى عنها تشخيصياً ودعمًا وتحليلاً لأيّ أعمال انتاجيّة وثقافيّة هامّة ومؤثّرة في حياة المجتمع والشعوب.

إنّ الشراكة الثقافيّة مع المؤسّسات هي دليل تعاون لرصد الحركة الثقافيّة في لبنان والعالمين العربي والإسلامي، وذلك من خلال شدّ أواصر التعاون بين الإدارات الرسميّة ممثّلة بوزارة الثقافة، ومنظّمات دوليّة مثل اليونيسكو، وأخرى عربيّة معروفة. ونحن في مدينة طرابلس ومنذ سنوات عديدة نتعاون في جمعيّة العزم والسعادة الاجتماعيّة مع الجامعة اللبنانيّة، الجامعة الأمّ، مركزياً وإقليمياً، ولعلّ إنشاء «مركز العزم لأبحاث البيوتكنولوجيا» هو خير شاهد على مثل هذا التعاون، كما أنّ إنشاء مركز العزم الثقافيّ - بيت الفنّ - يشكل شاهداً آخر على اهتمام أهل العزم بالأمر الثقافيّ. كما أنّنا نتشارك في دعم مؤتمرات الجامعة اللبنانيّة بالتعاون مع مؤسّسات ثقافيّة زميلة، حيث يصادف هذا المؤتمر أن تكون المشاركة مع جامعة البلمند، التي هي قيمة حضاريّة علميّة وثقافيّة على مستوى الشمال ولبنان، ومع مؤسّسة الصفدي وبلدية طرابلس المؤسّستين اللتين اعتدنا على مشاركتهما والتعاون معهما دعمًا لأمر الثقافة في مدينة العلم والعلماء.

أما بالنسبة إلى سياسة المتاحف في بلادنا، فلا بدّ من القول إنّ الخطوة الأولى تبدأ من رصد وتجميع الانتاج الفكريّ والعلميّ من خلال المكتبات في المدارس المملوكيّة والمكتبات التراثيّة في بلدية طرابلس - قصر نوفل - رغم التعدي غير الحضاريّ الذي تعرّضت له كتبها في أحداث ٧٥-٩٠، كما من خلال مكتبة الرابطة الثقافيّة، ومكتبة المنى في مؤسّسة الصفدي ومجمّع العزم التربويّ.

وإذا كانت المتاحف هي الرصد الفعليّ لنماذج حضاريّة وتراثيّة وحديثة، ثقافيًا وأدبيًا وعلميًّا، فإنّنا في لبنان ما زلنا نحتاج الى الكثير لتطوير هذه السياسة، سواء من خلال وزارتي الثقافة والسياحة أو من خلال الانتاج التراثي والحرفي المحلي، وبلدنا غنيّ جدًّا

في هذا المجال، حفاظًا على تراثنا العريق وتخليدًا له مدى الأجيال.

ولا بدّ من القول إنّ المتاحف على أنواعها ليست أحجارًا وأسمًا وديناصورات وعظامًا قديمة تمّ اكتشافها من باطن الأرض، بل باتت تعبّر عن فكر وفلسفة اجتماعيّة تتجلى بإقامة متاحف الأزياء التراثيّة، والأسلحة القديمة، والكتب والمخطوطات على أنواعها، والرسوم واللوحات والمنحوتات والصور الفوتوغرافيّة و متاحف الشخصيّات لمشاهير العالم في مجالات السياسة والاقتصاد والفنّ والجمال، بالإضافة إلى الشخصيّات الروحيّة، وقدايمي الحكّام والملوك والأمراء، حيث باتت هذه المتاحف تشكل ركيزة ثقافيّة وحضاريّة تميّز كل بلد عن الآخر بما شهدته من أحداث على مرور الزمن، كما باتت المتاحف وسيلة للتواصل بين الحضارات والمجتمعات على مدى الأجيال.

أختم بالقول إنّ المرصد الثقافيّ المتعدّد الوجوه، وسياسات المتاحف هما تعبير حضاريّ راق، يجب أن يتلازم مع مفهوم التحديث في مجالي الاتّصالات والانترنت والتكنولوجيا الحديثة، ومن أهميّة الانتقال من الجيل الورقيّ إلى الجيل الالكترونيّ مواكبة لتطوّرات العصر، بدءًا من الربع الأخير للقرن العشرين ومبتكرات القرن الحادي والعشرين السريعة والمتلاحقة.

وفّقنا الله وإياكم لكلّ خير وشكرًا لحسن استماعكم، كما أشكر كلّ من ساهم وعمل على إقامة هذا المؤتمر، وبيدنا في العزم ممدودة إليكم لمزيد من الانتاج الفكريّ والثقافيّ والحضاريّ، عسى أن يشكل هذا المؤتمر وما سينتج من توصيات، لبنة أساسيّة في تقدّم لبنان، وشماله بالتحديد، نحو إقامة مرصد ثقافيّ، ومتحف يليق بعراقة أهله وسعيهم الدؤوب من أجل تنمية ثقافيّة مستدامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





## كلمة مؤسّسة الصفدي أستاذة سميرة بغدادية

معالي رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور عدنان السيد حسين؛  
حضرة الدكتور عاطف عطية مدير معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثالث؛

أيها الحضور الكريم،

إسمح لي بدءًا بالتوجّه بالشكر إلى الجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعية لتحريك قضايا تنمويّة ملحة، وحثّ مختلف الفرقاء من رسميين، قطاع خاصّ ومجتمع مدنيّ، جامعات ومتخصّصين محليين وأخوة عرب، للوقوف معًا أمام تحديات التنمية بكلّ مجالاتها وأبعادها. بالأمس كان مؤتمر المدينة العربيّة، واليوم مؤتمر «المرصد الثقافيّ وسياسات المتاحف»، وما أحوجنا اليوم إلى وقفة تفكير جدّية ومسؤولية أمام مسؤوليّتنا جميعًا تجاه قضية الثقافة سيّما وأننا اليوم في ظلّ المتغيّرات المحليّة، العربيّة والعالميّة وفي ظلّ حالة الانسلاّب الثقافيّ لدى مجتمعاتنا العربيّة، وفي ظلّ إهمال بعض الحكومات والسلطات المحليّة وخاصّة في لبنان للبعد الثقافيّ، لما له من تأثير أساس في نهوض وتطوير مجتمعاتنا.

لن أقف على مفهوم الثقافة بشموليّة مدلولاته المادّيّة، اللغويّة، الفكريّة، القيميّة والابداعيّة، بل أحببت الوقوف بدءًا على ما أوحاه لي عنوان المؤتمر «المرصد الثقافيّ وسياسات المتاحف». عنوان جامع وطموح شامل ومتخصّص وكان مخطّطي المؤتمر يضعوننا أمام مسؤوليّة مشتركة للالتزام بسيرورة processus سياسة ثقافيّة مبنية على استراتيجيات واضحة. فالرصد هو الخطوة الأولى التي تركز عليها السياسات الصائبة، والرصد أيضًا قد يعيد إلينا الأمل لأننا نملك إرثًا غنيًا بحاجة إلى استثماره ونفض غبار الإهمال عنه. والرصد يساعدنا على اكتشاف الطاقات الكامنة واستنهاضها، وما أحوجنا اليوم إليه.

أما القسم الآخر من عنوان المؤتمر، فيدعوننا إلى أن نكون عملائين وأن نبدأ باتّباع سياسات للمتحف، والأهم أن نبدأ من مكان ما خاصة أن غنى الموروث لدينا لا يستهان به. فلنبدأ. نعم لنبدأ بالمتاحف لما لأهميّة وشموليّة أبعاد هذا المرفق الثقافيّ، فالمتاحف هي مراكز الاشعاع الثقافيّ وليست فقط مراكز لتجميع الآثار.

لا يوجد سياسة للمتاحف في لبنان على ما أعتقد، وإذا وجدت فهي خجولة ومحصورة ضمن جدران وزارة الثقافة. ولن ألوّم هذه الوزارة لأنها لا تعتبر في لبنان من الوزارات الأساسيّة مع الأسف، فميزانيتها خجولة لا تساعد على إرتقاء وتطوير هذا المرفق الحيويّ. وإذا استثنينا المتحف الوطنيّ في بيروت، فغالبية المتاحف الموجودة في متاحف صغيرة أو خاصّة كمتحف الجامعة الأميركيّة، متحف عجائب البحار، متحف جبران، متحف صيدا، متحف جبيل الأثريّ، متحف قصر بيت الدين، متحف الحرير وغيرها.

أما طرابلس، المدينة الغنيّة بتراتها التاريخيّة، فلا يوجد فيها متحف يليق بعراقتها وأصالتها وهي من أولى المدن الفينيقيّة التي عاصرت حضارات متنوّعة عربيّة وعربيّة وكان إشعاعها الثقافيّ والاقتصاديّ يطال محيطها العربيّ والمتوسّطيّ. وهي تشهد اليوم حالة تراجع لم يسبق لها مثيل!

أقول هذا لأننا نعرف جميعاً كيف أنّ الخطط المدينيّة في غالبية المدن الغربيّة والعربيّة التي شهدت تطوّراً ملحوظاً على المستوى الاقتصاديّ والرفاه الاجتماعيّ، أدركت أنّ التنمية الثقافيّة هي رافعة أساسيّة للنمو الاقتصاديّ. وعملت على عنصر الجذب من خلال مقوّمات كامنّة لديها، أو حتّى أبدعت في إيجاد عنصر الجذب والتمايز لتكون مقصدًا سياحيًا على المستوى المحليّ والعالميّ وقادرة على توفير العديد من فرص العمل لسكانها.

فصناعة الثقافة في أوروبا توفر ٥ ملايين فرصة عمل حسب تقرير ineum consulting ٢٠١٢. وكيف أنّ السياسات الثقافيّة جعلت من مدينة ليفربول المدينة المنكوبة إقتصاديًا في الثمانينات، بعد تراجع صناعة المعادن Métallurgie فيها ونسبة بطالة بلغت ٢٠٪ بين سكّان بلغ عددهم أقل من ٥٠٠,٠٠٠ ساكن، كيف أنّ هذه البطالة تراجعت في ٢٠٠٧ إلى ٥٪، إضافةً إلى أكثر من مليون زائر سنويًا ونزوح سكّانيّ إيجابيّ بحيث زاد عدد سكّانها إلى ٤٣٥,٠٠٠ نسمة.

إضافةً إلى أن ميزانية الثقافة في مدينة ليون تشكّل ٢٠٪ من ميزانية بلديتها وذلك لتحقيق ٣ أهداف:

- أولاً: ليون مدينة الإبداع
- ثانياً: ديمقراطية الثقافة لتكون بمتناول الجميع
- ثالثاً: تعزيز والاهتمام بالإرث الثقافي

هذا من دون أن ننسى الأجندة ٢١ للثقافة التي انبثقت في مؤتمر قمة الأرض في الريبو ١٩٩٢ والتي اعتبرت التحدّيات الثقافية رافعة للتنمية المحليّة والتي اعتمدتها البلديات والسلطات المحليّة في مؤتمر برشلونة في ٨ أيار ٢٠٠٤ كنهج لسياسات الدمج الاجتماعي والتي تبنتها العديد من المدن كمونريال وكيبيك في كندا والأمثلة عديدة لا يتسع المجال لذكرها...

وقبل أن أختتم لا بدّ من التركيز على أن الثقافة ليست رافعة للتنمية الاقتصادية والتطور المدني، بل أنها أيضاً مكوّن أساس للاندماج الاجتماعي والشعور بالانتماء والمواطنة الفاعلة. فالتحدّيات أمامنا كبيرة والمسؤوليّة كبيرة ولكنّها ليست مستحيلة إذا تضافرت وتكاملت جهود كلّ الفرقاء واللاعبين المعنيين من هيئات رسمية إلى قطاع خاصّ ومجتمع مدنيّ. المهمّ أن نضع خارطة طريق ونمضي معاً لتحقيقها.

وأخيراً أتمنّى لهذا المؤتمر النجاح لعله يشكل الخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل...  
شكراً السماعكم ودمتم.



## كلمة مكتب اليونسكو الاقليمي للتربية في الدول العربية

- بيروت

مهندس جوزيف كريدي

يشرفني أن أشارككم اليوم في افتتاح مؤتمر «المركز الثقافي وسياسات المتاحف» هذه المتاحف التي ترعى ملكية العالم الثقافية وتشريحها للناس، وهي ملكية غير عادية، تتمتع بوضع خاص في التشريعات الدولية كما تتمتع بحماية القوانين الوطنية، وهي بشقيها المادي والمعنوي، جزء من تاريخ العالم الطبيعي وتراثه الفكري والثقافي. ومن ناحية أخرى كثيراً ما توفر الملكية الثقافية الأدلة الأساسية والشواهد المادية التي تستند إليها مجالات معرفية متعددة مثل علم الآثار والعلوم الطبيعية. وهي بذلك تعدّ من الاسهامات الهامة لبنع المعرفة، وعنصراً جوهرياً في تعريف الهوية الثقافية على الصعيدين: الوطني والدولي.

ومن أجل الحفاظ على الممتلكات الثقافية، أقرت منظمة اليونسكو عام ١٩٧٠ الاتفاقية بشأن التدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة إلى جانب اتفاقية اليونيدروا لعام ١٩٨٥.

أما في العام ٢٠٠١، فقد وضع الإعلان العالمي بشأن التنوع الثقافي الذي اعتمده منظمة اليونسكو، التنوع الثقافي في مصاف «التراث المشترك للإنسانية» باعتباره ضرورياً للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة إلى الطبيعة. ويؤكد الإعلان أيضاً على أنّ الدفاع عن التنوع الثقافي هو واجب أخلاقي ملزم، لا ينفصل عن كرامة الإنسان. ومن ثم كان اعتماد اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي في عام ٢٠٠٣ التي مثلت الخطوة الحاسمة الأخرى من الجهود التي طالما بذلتها اليونسكو من أجل التنوع الثقافي رداً على ما يتعرض له التراث الحي غير المادي من تهديدات ناجمة عن عمليات العولمة المعاصرة والتحويلات الاجتماعية التي لم يسبق لها مثيل.

ورغم أنّ مصطلح «التراث الثقافي غير المادي» هو مصطلح جديد نسبياً، فإن المفهوم

قديم قدم الإنسانيّة. فالتراث الثقافيّ غير المادّيّ يشمل طائفة عريضة من أشكال التعبير بدءاً بالتقليديّ وانتهاءً بالمعاصر من الريفيّ حتّى الحضريّ.

إنّ الهدف الرئيس من الاتّفاقيّة ليس «حماية التراث الثقافيّ غير الماديّ» وإنّما القصد منها هو صون هذا التراث. فالحماية تعني بناء حواجز حول شكل معيّن من أشكال التعبير وعزله تاليّاً عن سياقه وماضيه والحدّ من وظيفته أو قيمته الاجتماعيّة. أمّا الصون فيشمل أيضاً الحفاظ على طابعه الحيّ وعلى قيمته ووظيفته.

إنّ تعزيز الدور المحوريّ للثقافة، وبصورة أخصّ وعلى وجه التحديد التراث الحيّ، في العمليّات الرامية إلى تحديد التنمية المستدامة، مسألة تدافع عنها اليونيسكو بحماس، ولا سيّما في إطار أهداف الأمم المتّحدة الانمائيّة للألفية. وإنّني على اقتناع راسخ بأنّ الحفاظ على التراث ليس ضرباً من ضروب الترف بل هو ضروريّ من أجل الاستجابة الفعالة للتحديّات المعاصرة.

وبالإضافة إلى ذلك، ينبغي أن يستغلّ التعليم النظاميّ التراث الثقافيّ عبر فتح المتاحف للطلّاب لجعل التعليم المدرسيّ أوثق صلة بالطلّاب، فيعزّز في الوقت ذاته الهوية والتفاهم واحترام التنوّع الثقافيّ.

ومن هنا أنتهز الفرصة لأضيء على نشاطات عدّة قام بها مكتب اليونيسكو الإقليميّ في بيروت مع المدارس بالتعاون مع وزارة التربية واللجنة الوطنيّة اللبنانيّة لليونسكو والمديريّة العامّة للآثار من أجل تعزيز مفهوم التراث عند الشباب اللبنانيّ وأؤكد لكم استعداد مكتبنا للتعاون ومواصلة العمل معكم من أجل النهوض بالأهداف والاستراتيجيّات التي تحدّدونها.

وفي الختام، أتقدّم بخالص الشكر والتقدير لرئيس الجامعة اللبنانيّة على رعايته هذا المؤتمر ولمعهد العلوم الاجتماعيّة، الفرع الثالث، ممثلاً بالدكتورة مها كيال، على حسن تنظيم هذا المؤتمر.

آملين لكم كلّ النجاح وشكراً.



## كلمة رئيس بلدية طرابلس ورئيس اتحاد بلديات الفيحاء دكتور نادر غزال

معالي رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور عدنان السيد حسين؛ ممثلاً بعميد معهد العلوم  
الاجتماعية الدكتور فرديك معتوق،

السادة العمداء،

السادة ممثلي الجمعيات المشاركة والداعمة،

السادة المحاضرين،

أيها الحضور الكريم،

أيها الطلاب الأعزاء.

بدءاً يسعدني ويشرفني أن أقف بين يديكم الآن لأتحدث عن أمر مهم جداً لنا وهو مرتبط  
بالثقافة ومرتبطة بالمتاحف. وإن كان لي من قول في هذا الأمر، فأقول إن سياسة المتاحف  
هي جزء لا يتجزأ من رصد ثقافة المجتمع. فكما نعلم جميعاً المتاحف هي رصد لتاريخ  
سابق، بغض النظر إن كان هذا التاريخ هو تاريخ مرتبط بالأحفير والآثار أو تاريخ لطريقة  
عيش سابقة، وبالتالي هو انعكاس لماضٍ نسعى أن نتعلم منه وأن نطوره لغد أفضل.

من هذا المنطلق أقول، حين تبوأنا هذه المسؤولية، مسؤولة رئاسة بلدية طرابلس واتحاد  
بلديات الفيحاء، كان لزاماً علينا أن نضع بين أعيننا هدفين يتماشيان معاً جنباً إلى جنب.  
أما الهدف الأول وأسميناه في حينها تاء التطوير والهدف الثاني تاء التراث. فنحن على  
يقين بأنه لا تطوير إن لم يكن هناك تراث يعتمد عليه ويستقى منه كي نتقدم نحو المستقبل.  
ومن هنا كان اهتمامنا بهذا المرصد الذي هو الآن مرصد بيئي، اجتماعي، وتنموي،  
ونأمل أن يصبح مرصداً ثقافياً ومتنوع الاستخدامات. ذلك بأن تلك المراصد هي أداة

من أدوات سبر واقع المجتمع، وهي أداة من أدوات التحضير والتشخيص لبناء استراتيجية بعيدة المدى.

ونحن في الاتحاد، بعد أن قمنا بصياغة استراتيجية أسمىناها الفيحاء ٢٠٢٠، كان من ضمن أدواتنا، والدكتورّة مها عاشت هذه التفاصيل معنا تماماً، هذا المرصد وسنسعى، إن شاء الله، إلى تطويره ليشمل كلّ الأمور التي ذكرت آنفاً.

كذلك الأمر أقول إنّه حين نتحدّث عن التطوير، وهي التاء الثانية في محور العمل الاستراتيجي، لا بدّ لنا من التحدّث عن الأفراد. فالتطوير، كما يعلم الجميع، من أبرز تكويناته، تطوير الفرد. أمّا الحديث عن تطوير الفرد فيجربنا حكماً للحديث عن الثقافة.

فإذا أردنا أن ننطلق بإنسان من مستوى معين إلى مستوى آخر، لا بدّ لنا من الرجوع إلى خلفيته وإلى ثقافته، وهنا يأتي دور المرصد الثقافي.

بطبيعة عملي، قبل أن أكون في هذا المركز، وهذه المهمّة، كان اختصاصي إدارة التغيير. وفي إدارة التغيير نتحدّث عن الاستراتيجيات، كما نتحدّث عن الاعداد القيادي، ولكن أيضاً نتحدّث في نهاية المطاف عن إدارة تغيير الأفراد. ولنغيّر الأفراد هنالك منهجية علمية لا بدّ من أن نمرّ من خلالها للنجاح بهذا التغيير. فإذا تحدّثنا عن تغيير السلوك، وهو من مهمّات إدارة التغيير، لا بدّ من أن نتحدّث عن تغيير المواقف.

الكلّ يعلم أنّ السلوك ليس هو إلا انعكاس لموقف معيّن، وإذا أردنا أن نتحدّث عن تغيير المواقف، لا بدّ من أن نطالع خلفيات هؤلاء الأفراد والتي على أساسها تمّ بناء مواقفهم التي نحن بصدد تغييرها. وإذا رجعنا إلى الخلفيات وجدناها مرتبطة بالثقافة. فالثقافة، بحسب علمنا المتواضع، هي مجموعة من السياسات والعادات والمبادئ. قد تكون محكيّة وقد تكون غير محكيّة، ولكنّها في النهاية تشكل لنا المواقف وتشكل لنا الأداء السلوكي الذي نحن بصدد تغييره. هذا الجانب يؤكّد مرّة ثانية على أهميّة المرصد الثقافي كي نستطيع فعلاً أن نتعلّم الخطوات التي يجب أن ننطلق منها بهدف تغيير الفرد نحو ذلك التطوير الذي ذكرت آنفاً.

في واقع المدن لدينا ما يسمّى بالانكليزية *cultural integrity*، و *cultural intensity*، الذي هو الشموليّة في الثقافة والعمق في الثقافة. وهنا يأتي التحدي الذي نواجهه في المجتمع، لا أتحدّث فقط عن طرابلس أو مدن الفيحاء، إنّما المجتمع برمّته في كلّ لبنان ولا أريد أن أخرج عن الحدود الجغرافية للبنان.

أقول نحن في مرحلة تصحّر ثقافيّ وفي مرحلة جفاف خلقيّ وهذا يقودنا إلى أهميّة سير فعلية لمعالم الثقافة، ذلك الإرث الذي ورثناه ولعلنا إلى حدّ ما نحفظ به ولم نستفد منه. وهنا يأتي الدور للحديث عن المتاحف، كما ذكرت في بدء الحديث، ولن أطيل، كلنا يجب أن يزور المتاحف ليطلع على آثار وصور ورسوم، لكن كم منّا يزور المتحف لينظر إلى الخلفية، خلف هذه الآثار، وخلف هذه الصور وخلف الرسوم. أين الفلكلور، أين الموسيقى، أين التقاليد، أين الطعام، فكما نعلم حتىّ الطعام هو جزء من ثقافة المجتمعات، لذلك أقول لا بدّ من أن نؤسّس متاحف تنطلق انطلاقاً شموليةً لتكون، كما يقال بالفرنسيّة .centre d'interprétation

لم لا تكون متاحفنا نقاط جذب للغريب لدخول المدن. وبالتحديد عندنا لدخول مدن الفيحاء. وأظنّ أنّ هذا التوجّه قد يكون سياسة لمحور استراتيجيّ مهمّ لتمنية مدننا. فلنسعّ جميعاً لأن ننشئ ولو متحفًا واحدًا يكون نقطة جذب لثقافة المدينة التي يجب أن نعتزّ بها.

لا أريد أن أطيل، أتمنّى للمداخلات وللنقاشات كلّ نجاح، كما أتمنّى للتوصيات أن تكون عمليةً وتنفيذيةً. فنحن على كامل الاستعداد في بلدية طرابلس وفي اتحاد بلديات الفيحاء على التعاون الدائم. ونحن، كما سبق وذكر في بدء اللقاء، لدينا بروتوكول تعاون مع المعهد، ونحن حريصون على تعزيز هذا التعاون مع المعهد ومع كل شركاء النجاح في هذه المدينة.

وشكرًا لكم.





## كلمة عميد معهد العلوم الاجتماعية

دكتور فردريك معتوق

ممثلًا راعي المؤتمر رئيس الجامعة اللبنانية

دكتور عدنان السيد حسين

باسم حضرة رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور عدنان السيد حسين، أفتتح هذا المؤتمر العلمي المخصّص لـ «المرصد الثقافي وسياسات المتاحف» الذي يقيمه الفرع الثالث لمعهد العلوم الاجتماعية في مطلع هذا العام منوهاً بالمؤسسات المتعاونة مع الجامعة اللبنانية في هذا الإطار، أعني جامعة البلمند، مؤسّسة الصفدي ومؤسّسة العزم والسعادة، وبلديّة الفيحاء، والمشاركة في المؤتمر، وأعني وزارة الثقافة واللجنة الوطنية لليونيسكو.

فالكل مشارك ومتعاون ومكتاتف، وهذا بحدّ ذاته دليل عافية. فالتعاون على العلم هو تعاون على الخير والتعاون على الخير يفضي بنا جميعاً إلى مجتمع أفضل من دون أيّ شك. أمّا بعد، فإنّ ميزة هذا المؤتمر، على المستوى العلمي تكمن في موضوعه الذي يشير إلى تبلور شكل جديد من الوعي عندنا.

حيث إنّه عندما نتكلّم على مرّقب ثقافيّ ومتحف، فهذا يعني أنّنا غادرنا معرفياً مدار الكميّ لندخل مدار النوعيّ. هذا يعني أنّنا نرغب في أن تصبح تجارب الماضي الخاصّة بنا أثرًا بعد عين، على المستوى الفكريّ، مع الاحتفاظ بالماضي كموضوع، لا كجوهر.

صحيح أنّ الغربيّين قد سبقونا في هذا المجال، حيث إنّ باحثيهم قد شرعوا منذ عصر الأنوار في القرن الثامن عشر، برصد وتحليل وتقويم كلّ ما يتعلّق بمعطياتهم وتجاربهم الثقافيّة والعلميّة، الأمر الذي سمح لهم بتجاوز هذا المستوى باتجاه باراديجمات (نماذج إرشاديّة) جديدة.

وصحيح أنّنا تأخّرنا بالنسبة إليهم، وحتّى بالنسبة إلى اليابانيّين والصينيّين الذين كانوا ذات يوم في وضعيّات مشابهة لتلك التي نحن فيها؛ لكنّنا بدأنا نصحو وبدأنا نؤمن بالعلم والرصد العلميّ والتحليل المنهجيّ، وبدأنا نبتعد عن ذاتنا الجوهرية تكتيكياً لندرك ذاتنا الموضوعية استراتيجياً.

وبذلك بدأنا نرغب في إدراك حياتنا وظاهراتها الاجتماعيّة والثقافيّة إدراكاً برّائياً، يسعى لفهمها، ويتخطى معاشتها البحتة.

بدأنا نتوق لفهم الممارسات كما بدأنا نتوق لممارسة المعاني. بدأنا نتحوّل ونحن نحول نظرنا إلى العالم الذي يحوط بنا. بدأنا نشغف بالمعرفة، بعدما كنّا نكتفي بحفظها. بدأنا نعشق الدلالات، بعدما كنا نقف عند أبواب صورها وأصنامها. بدأنا نبتكر بعدما كنّا نقلد. بكلمة خطوة خطوة، أخذ العلم يحرّرنّا.

وخطوة خطوة، بدأنا ننتقل من الفكر التعليميّ إلى الفكر العلميّ. وهنا تحديداً تكمن أهميّة هذا المؤتمر الذي يشكل بحدّ ذاته ظاهرة اجتماعيّة جديدة. فيتمنّى حضرة رئيس الجامعة اللبنانيّة، له ولجميع المشاركين فيه، أعمالاً مثمرة وأبحاثاً زاهرة.

عشتم،

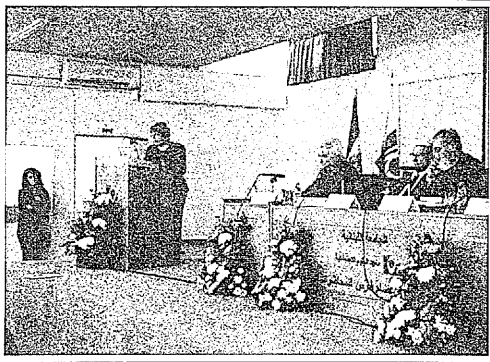
عاشت الجامعة اللبنانيّة.

عاش لبنان.

المحور الأول

## المرصد الثقافي

### وأهميّة الشراكة المؤسّساتيّة



رئيس الجلسة

الدكتور شبيب دياب  
(رئيس الجمعية اللبنانية لعلم الاجتماع)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

المرصد الثقافيّ وسياسات المتاحف بين حفظ التراث والتنمية المستدامة

المحاضرة د. مها كيال (الجامعة اللبنانية)

المحاضرة الثانية

المأثورات الشعبيّة .. وقضيّة الموضوع

المحاضر د. سميح شعلان (عميد المعهد العالي للفنون الشعبيّة، أكاديمية الفنون، مصر)

المحاضرة الثالثة

لباس المرأة من التقليد الاجتماعيّ إلى التعبير عن الهوية.

المحاضر د. عاطف عطيه (الجامعة اللبنانية)



## المركز الثقافي وسياسات

### المتاحف بين حفظ التراث والتنمية المستدامة

د. مها كيال<sup>(١)</sup>

"علينا أن ننمي ونؤكد ونحترم بشكل مطلق خصوصية التمايزات الثقافية. فنحن لا نستطيع أن نلتقطها جميعها لنصهرها في بوتقة واحدة ومن ثم نقدف بها في الهواء، لأنها حين تسقط سنحصل على عجينة بيتزا عليها كل أنواع الخضار. علينا أن نحافظ على نكهة العجين والبنندورة، ما يعني أن نحترم تنوع مذاق الثقافات المختلفة." فرانكو دراغون<sup>(٢)</sup>

## ملخص

تعتبر هذه الورقة قراءة تحليلية لموضوع مؤتمر المرصد الثقافي وسياسات المتاحف. هدفها تبيان واقع أهمية رصد الثقافة من أجل حماية التراث ومن أجل تفعيل عملية التنمية المستدامة. هي تحاول إظهار أن مشروعاً كبيراً كهذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال عمل مؤسساتي تشاركي جاداً، له استراتيجية وأهدافه وأساليبه في تفعيل استمرارية عمله.

توضح هذه الورقة، في الوقت عينه، مدى ضرورة بناء أو تطوير عمل المؤسسات الموجة القيام بعمل كبير بهذا الحجم، مثل المرصد الثقافي، المتاحف والمراكز الثقافية. هذا البناء أو التطوير الذي لا بد من

(١) الدكتورة مها كيال: أستاذة الأنتروبولوجيا في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية، مستشارة محلّية في استراتيجية تنمية مدن الفيحاء. maha.kayal@gmail.com

DRAGONE Franco : né à Cairano, village de Campanie (Italie), en décembre 1952. Metteur en scène et homme (٢) d'affaires, il se fait connaître en signant de nombreux spectacles pour le Cirque du Soleil. Depuis 2001, il assure son rôle de chef d'entreprise et directeur artistique au sein de sa propre société de spectacles et d'événements. [http://fr.wikipedia.org/wiki/Franco\\_Dragone](http://fr.wikipedia.org/wiki/Franco_Dragone)

السعي لتشبيكه مع مراكز الأبحاث والجامعات، ليطمّ تنامي أعمال الجمع والتوثيق والتصنيف مع أعمال البحث والتحليل. وكلّها تعدّ من الأمور الجوهرية سواء لفهم الهوية الثقافية أو سواء لتحفيز ديناميّة إبداعات تحولاتها من خلال السياسات التنموية التي يتمّ التخطيط لها على المستوى المحليّ، الوطنيّ وحتى الإقليميّ والعالميّ.

## مقدمة

بعيداً عن ادّعاء تحميل الثقافة أكثر ممّا تحتمل في تفسيرها للواقع الاجتماعيّ للفرد أو للجماعة، ومع إدراك دورها في تشكيل السمات الأساسية في كينونة الفرد والجماعة الاجتماعية، سنبدأ مقاربتنا لموضوع الثقافة، لنبرز أهميّة رصدها وأهميّة وعي أدوارها في فهم غنى الإنسان الحضاريّ وفي معرفة كيفية تنمية قدراته.

## الثقافة في صدارة اهتمام المؤسسات العالمية والمحلية

أطلقت الأمم المتّحدة في العام ٢٠٠٠ نداءً من أجل الحفاظ على التنوّع البيئيّ والإنسانيّ لتوريثه كرأس مال طبيعيّ وثقافيّ لأجيال المستقبل<sup>(٣)</sup>. وتابعت اليونسكو Unesco برامجها للحفاظ على الرأسمال الثقافيّ الماديّ واللاماديّ الذي أنتجته البشرية عبر التاريخ، والذي يعد ثروة للبشرية جمعاء. فكان إعلانها العالميّ، عام ٢٠٠١، بشأن التنوّع الثقافيّ، تلاه إعلان إسطنبول لوزراء الثقافة في الموضوع نفسه، ومن ثم جاءت اتفاقية اليونسكو بشأن تنوّع أشكال التعبير الثقافيّ في عام ٢٠٠٥<sup>(٤)</sup>.



FESTIVAL  
INTERNATIONAL  
DE DIVERSITÉ  
CULTURELLE



UNESCO: Diversité culturelle et biodiversité pour un développement durable. Table ronde de haut niveau organisée. (٣) conjointement par l'UNESCO et le PNUE le 3 septembre 2002 à Johannesburg (Afrique du Sud) à l'occasion du Sommet mondial pour le développement durable. UNESCO 2003

[www.unep.org/civil\\_society/PDF.../Diversite\\_Culturelle\\_et\\_Biodiversite.pdf](http://www.unep.org/civil_society/PDF.../Diversite_Culturelle_et_Biodiversite.pdf)

UNESCO : Convention sur la protection et la promotion de la diversité des expressions culturelles. Octobre 2005. (٤)

<http://www.unesco.org/new/fr/culture/themes/cultural-diversity/diversity-of-cultural-expressions/the-convention/convention-text>

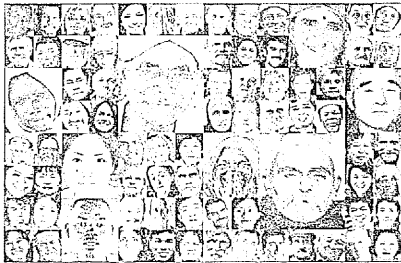
رَكَرت اللجنة الثقافية في منظّمة المدن والحكومات المحليّة المتّحدة (CGLU) أمر صياغة الموقف السياسي للمنظمة، خلال مؤتمر شيكاغو ٢٠١٠، حول الثقافة التي تمّ اعتبارها الرافعة الرابعة للتنمية المستدامة. تبنّى المكتب التنفيذي، في ما بعد، وفي السنة نفسها (٢٠١٠)، في مكسيكو، هذا الموقف السياسي من الثقافة سيّما وأنّ لهذه الأخيرة مكانتها الهامة في السياسات العامة، بما في ذلك السياسات المتعلقة بالتعليم والاقتصاد، والبيئة، والاتّصالات والتماسك الاجتماعي والتعاون الدولي. فالعالم، ومن منظور هذه السياسة، لا يصنع فقط من خلال التحدّيات الاجتماعية، الاقتصادية أو البيئية. فالإبداع، المعرفة، التنوّع والجمال، كلّها أيضاً من الأسس التي لا غنى عنها في عمليّة التنمية الواعدة. من أهداف وثيقة منظّمة المدن والحكومات المحليّة المتّحدة نذكر:

- تجديد فهم دور الثقافة.

- إيجاد روابط جديدة بين مختلف قطاعات المجتمع؛ بتنوّعاتهم الثقافية.

- التعرّف إلى الثقافة باعتبارها أحد أهم أسس التنمية في المجتمع.

إنّ هذا الاهتمام الواعد وهذه الرؤية المتطوّرة لأهميّة رصد الثقافة بتلاوينها الإنسانية من قبل اليونيسكو، وإنّ هذا الفهم الجديد لدور الثقافة في رسم السياسات المحليّة من قبل منظّمة المدن والحكومات المحليّة المتّحدة (CGLU) يأتيان لتغذية مفهوم التنمية المستدامة بعيد يضاف للأبعاد الاقتصادية، والبيئية، والاجتماعية للتنمية. فالتنمية الثقافية المتعدّدة الروافد الإنسانية هي أيضاً ضرورية لمستقبلنا البشريّ المشترك، وهي التي ستعيد للثقافات



lewebpedagogique.com<sup>(٥)</sup>

المحليّة قيمة تكسبها قدرة النماء في مجتمعات تغيّرت متطلباتها في التعاطي مع تراثها الثقافي، بعد أن أصبحت هذه الأخيرة مهدّدة من نظام العولمة وثقافة الآحادية التي أضحت تعيّب تلاوين كثيرة من هذه الثقافات المتنوّعة بل وباتت تشكّل أيضاً خطراً كبيراً على بقائها.

## الثقافة من الممارسة إلى الوعي ومن الوعي إلى السياسات التنموية الواعدة

إنّ الإنسان في حاجه دائمة إلى الانتماء لثقافة يفهم دلالاتها، ويتمثل بها، فتصبح له الهوية الذاتية التي تشكلت من خلال تراكم تجارب نظام حياة الأسلاف اليومية. أما الارتباط بالثقافة، فهو ارتباط متأصل، لا واع في غالبيته، تقليديّ، تخيليّ، ملتصق بالإنسان كطبيعة ثانية وصفها بورديو بالهايتوس<sup>(٦)</sup>. هذه الطبيعة قادرة على التطور الذي ينتج عادة من خلال تفكير ثقافيّ ومن خلال تواصل ثقافيّ أيضاً.

والتواصل الثقافيّ يبدأ في المجتمع نفسه، من خلال تخطيّ أفراده واقع ارتباطهم الثقافيّ التقليديّ، ليتعاطوا مع ثقافتهم من باب التفكير في الذات الثقافية التي تؤسّس للتواصل المنفتح على ثقافة الآخر وفق المنطق المعرفي نفسه، حتّى يتمّ التعمّق في فهم الثقافات الإنسانية بالمعنى الشموليّ للكلمة، وحتّى يتمّ فهم خصوصية تجاربها ومعارفها الحياتيّة، هذا الفهم هو الذي يعمّق التنمية الثقافية المستدامة.

لهذا كلّ، كان لا بدّ من تجميع ودراسة العادات والتقاليد التي تمثل ذاكرة المعاش، والمشاهد، والتجارب، التي تدار وتنظم بشكل طبيعيّ، من دون إدراك، داخل الجماعة<sup>(٦)</sup>. إنّ تجميع هذه التجارب وفهمها، وبالتالي وعيها، يحوّل ممارستها من حالة الممارسة اللاواعية المتعبّنة لذاتها، لحالة الممارسة الواعية لدلالاتها ووظائفها، والمتقبّلة لدلالات ومعانٍ ووظائف ثقافة الآخر بتجاربها المختلفة<sup>(٧)</sup>. وتعدّ مرحلة تجميع التراث وفهمه ووعيه المرحلة الأساسية الضرورية لرسم السياسات التنموية وفق منطق التنمية الثقافية المستدامة.

ويتطلّب فهم التراث ووعيه، بدلالاته المعاشة أو المتخيّلة، بعد أن مرّ المجتمع بمراحل التفكير والتهميش لهذا الأخير في سيرورة تحركاته، إعادة الاتصال بالذاكرة الجماعية، لجمع الدلالات وفهم المعاني ولكتابة التاريخ المعيش اللاماديّ، والماديّ الضروريين لرسم السياسات التنموية.

(٦) La rupture dans les modes de pensée: Comment l'anthropologie permet-elle d'envisager une reformulation des messages liés à l'eau ? <http://www.ethno web.com/articles.php?action=show&numart=196>

(٧) مها كيال، ٢٠١٠: الثقافة والتواصل من أجل التنمية الثقافية المستدامة: تطلعات في تفعيل دينامية تواصل ثقافتنا المدنية (طرابلس نموذجاً)، مؤتمر «Traduire et communiquer la culture» colloque international، جامعة الجبلان.

## الثقافة الوطنية والثقافة المناطقية وثقافة الجماعات الاجتماعية في المجتمع

إن الحديث عن ثقافة العولمة وخطرها على الثقافات المحليّة يقودنا حكمًا لتحديد قصدنا بحدود ما نسمّيه بالثقافات المحليّة، هل هي الحدود الوطنية، أم الحدود المناطقية في الوطن؟ وإن دخلنا أكثر في الخصوصيّات الثقافية نقول ماذا بعد في مسألة ثقافة الجماعات الاجتماعية؟

إنّ هذه القضايا تثير حتّى يومنا هذا الكثير من النقاشات العلميّة، كما النقاشات السياسيّة، لما لها من أبعاد قد تصل لحدود تغطيتها حركات انفصاليّة في الوطن. رغم هذه المخاطر في تحديد الحدود المجاليّة لخصوصيّة الثقافة، إلّا أنّه لا يمكن أن نتجاهل مخاطر الهوية الوطنيّة على خصوصيّات وتمايزات الهويّات المناطقية في الوطن، وحتّى على خصوصيّات هويّة الجماعات الاجتماعية فيه. فكما أنّ الدخول في نسبيّة الثقافة إلى الميكرو في المجتمع قد تغطّي وتبرّر بعض الحركات الانفصاليّة فيه، هناك أيضًا في تبني الثقافة الوطنيّة الجامعة مخاطر عدّة من أهمّها:

١- عدم فهم التمايزات المناطقية والجماعية للجماعات الاجتماعية، وبالتالي إقصاء الكثير من المعارف الإنسانية باسم الفلكلور الوطنيّ.

٢- عدم معرفة رسم سياسات تنمويّة تتوافق وخصوصيّات التمايزات الثقافية المناطقية والجماعية للجماعات الاجتماعية. لا ننسى أنّ الثقافة هي برجة ذهنية لجماعة اجتماعية، وأنّ السياسات الوطنيّة التي لا تستطيع فهم تمايزات هذه البرجة، لن تحقّق النجاح نفسه حين تطبيقها على أساس مركزيّة القرار التنمويّ.

إنّ النقاش في قضية الثقافة الوطنيّة ونسبيّة تمايزاتها المناطقية والجماعية من الصعب حسمه على المستوى النظريّ وحتّى السياسيّ، لكن، ورغم هذه المعضلة، نحن نشهد اليوم تنامي لا مركزيّة السياسات التنمويّة بشكل كبير لأسباب متعدّدة، أبعادها اقتصاديّة (تنمية القطاعات الحرفيّة التقليديّة) أو سياحيّة (الارتكاز على خصوصيّات ثقافية معيّنة لتنشيط السياحة) أو فنيّة (تنشيط فنون غنائيّة شعبيّة معيّنة) أو ... أو ...

لقد بين هذا التنامي في لا مركزيّة السياسة الثقافية الوطنيّة الكثير من كنوز الثقافة الإنسانية، كما ساهم في تنمية العديد من مناطق الأطراف في مجالات عدّة.



## استراتيجية تنمية مدن الفيحاء والبعد الثقافي

إنّ استراتيجية تنمية مدن الفيحاء، التي تمّ العمل عليها بين ٢٠٠٨ و ٢٠١١، أعطت بدايةً للبعد البيئي، الاقتصادي، المدني، الاجتماعي (وخصوصاً موضوع الفقر)، كما وللحراك المدنيّ *mobilité urbaine*، الأهميّة المتقدّمة عن غيرها من الأبعاد المجتمعيّة، في عملية رصد الواقع المجتمعيّ في مدن الفيحاء. لكنّ منهجيّة العمل البيئمنهجيّ *interdisciplinaire* التي تمّ اعتمادها في عملية التشخيص، وفي عملية بناء المشاريع التنمويّة ضمن هذه الخطّة، قد أظهرت مدى الحاجة إلى فهم موضوع الفقر من خلال بنية وتكوين مجتمع هذه المدن، أي من خلال الإحاطة بالحياة الاجتماعيّة وهذا يعني حكماً التطرّق للبعد الثقافيّ وفهم تفاعلاته مع الواقع الاجتماعيّ، الاقتصاديّ البيئيّ والمدنيّ. ما نريد أن نقوله هو أن إعطاء البعد الثقافيّ مجاله في المشاريع التنمويّة في مدن الفيحاء، يعود لوعينا الكامل أنّ لهذا البعد أهمّيته الكبيرة في عملية التغيير التنمويّ الواعد. ولإدراكنا أنّ المشاريع الثقافيّة التي تمّ اقتراحها، ضمن الخطّة الاستراتيجيةّ الحاليّة، لا تشكّل إلاّ الأسس التي من المفترض أن تستتبع، خلال سيرورة مشروع التنمية المستدامة لمدن الفيحاء، بخطةٍ أوسع، تُرسم خلالها المحاور التي من المفترض أن تعتمدها السياسات الثقافيّة لتنمية هذه المدن.

الثقافة من خلال شراكة بينمناهجيّة (*Interdisciplinarité*) وعبرمناهجيّة (*Transdisciplinarité*) وتعاون مؤسّساتيّ (*Coopération institutionnelle*):  
الرؤية، المهمّة والطموح

عندما نتحدّث عن الثقافة، وعن أهميّة إعطائها قيمتها الفعلية في عملية رصد التراث وفي عملية رسم السياسات التنمويّة في المجتمع، مهما كبرت أو صغرت تركيبته المحليّة، فإننا نتطلّع لتنفيذ عمل ضخم يتطلّب الكثير من الجهد المؤسّساتيّ المتنوع، خصوصاً في بلدان العالم الثالث، التي لم تول الثقافة بعد أهمّيته التنمويّة. من المؤسف القول إنّ موقعنا من هذا الحراك في كلّ المناطق اللبنانيّة، وفي كلّ المؤسّسات العامّة والخاصّة فيها، ما زال حراكاً ضعيفاً. ولهذا التأخر عوامل عدّة، من أهمّها:

١- تناثر العمل الثقافي المؤسّساتي العام والخاص، وعدم تأطيره ضمن استراتيجية واضحة الرؤية، والمراحل والأهداف القريبة والبعيدة المدى.

٢- فقر في الموارد البشرية التي لديها المعرفة في إدارة هذا الحراك الثقافي التنموي.

٣- ضعف في تنوع المؤسّسات الثقافية وفي الامكانيات المادّية المتاحة لها لتنمية قدراتها ودورها على الصعيد المحلي والوطني.

٤- عدم استغلال مجال حيوي وهام على الصعيد الاقتصادي ونعني به الصناعة الثقافية التي يمتلك لبنان دعائم كبيرة لها من الممكن تمهيتها، إن في مجال الميديا والفن بأنواعه، أو في مجال السياحة الثقافية وكل ما تتطلبه من بناء لبنى تحتية أساسية ولبنى تواصل ثقافي.

يبين هذا الواقع في لبنان، وأظنّ في مختلف بلداننا العربيّة، مدى أهميّة تنمية شراكة مؤسّساتيّة يمكنها أن تحقّق توازناً بين نظم المؤسّسات الثقافية العامّة والخاصّة من أجل بناء استراتيجية ثقافية على مستوى الوطن والمناطق، تضع رؤية ثقافية واضحة، لها مراحلها الزمنية، ولها أساليبها التكوينية لعملها المستدام وفق طموح مستقبليّ يكون المسؤول عن توجيه بناء السياسات الثقافية في لبنان.

وإذا كنّا قد بيّنا أهميّة بناء الشراكة المؤسّساتيّة بين مؤسّسات القطاع العام والخاص، فإنّه من الضروريّ أيضاً السعي لـ:

حراك معرفيٍّ ومشاركة فعّالة لأساتذة وباحثين وطلاب الجامعات في مقاربة الثقافة وفق منطق البينمنهجّيّ L'interdisciplinarité (تتطلب هذه المعرفة فتح حوار وتبادلاً للمعارف والتحليلات والمناهج بين تخصصين أو أكثر. وهي تقضي بتداخل هذه الاختصاصات لإغناء هذه المعارف ولتعميق تحليلاتها) العبرمنهجّيّ La transdisciplinarité (هي المعرفة التي تعتبر علومًا متنوّعة من دون الاهتمام بالحدود الفاصلة بينها)<sup>(٨)</sup>.

إنّ هذا الحراك يتطلّب الكثير من النقاشات الأكاديميّة سواءً على:

(٨) محمد فاضل رضوان، ٢٠٠٦: نحو تكاملية المعرفة: قراءة نظريّة وتطبيقية في المقاربة البينمنهجية، المصدر: مجلة رؤى تربوية، العدد ٣١. <http://www.alhadhariya.net/dataarch/alwalyalbahthy/index51.htm>.

المستوى النظري، من خلال:

- ١- فهم الثقافة بتركيبها البنيوية في المجتمع، وبأدوارها، كما وبواقع ديناميّتها خصوصاً في عصر العولمة وتحوّلاته السريعة في هذا المجال.
  - ٢- بناء أطر نظريّة لمقاربة الثقافة المحليّة وفهمها مع وعي لتمييزات تركيبها زمنيّاً ومكانيّاً.
  - ٣- بناء المفاهيم التي تساعد على تحليل معطياتها.
  - ٤- تطوير المقاربات العلميّة في إنتاج واستخدام المعرفة بشكل عامّ والمعرفة الثقافيّة خصوصاً من خلال دعم وتطوير العلاقات بين الباحثين في مجال العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.
  - ٥- بناء المؤشّرات التي تساعد على رصد التحوّلات الثقافيّة ميدانيّاً.
- ترتكز هذه المقاربة النظريّة، وفق منطق البيمنهجيّ، أو العبر منهجيّ، على نظام بحث يتخطّى قدرات الفرد وقدرات فرع تخصصي بعينه، وحتىّ أحياناً قدرات مؤسّسة أكاديميّة. إنّ وعي هذا التوجّه المعرفيّ هو الذي أعاد النظر في تركيبة النظام الجامعيّ، في الغرب بدءاً، وفي جامعاتنا اليوم، ليحوّله للمعرفة البيمنهجيّة على مستوى الإجازة والماسر والدكتوراه خصوصاً.

المستوى التطبيقيّ، من خلال:

- ١- وضع منهجيّات جمع الثقافة ميدانيّاً
- ٢- تطوير وابتكار أدوات وتقنيّات البحث الميدانيّ لتعزيز مناهج بحث الأعمال الحقلية.
- ٣- اعتماد النظم والبرامج التي تساعد على جمع التراث الثقافيّ، وعلى تصنيفه كما وفي تنظيمه.
- ٤- الارتكاز على المؤشّرات الثقافيّة في عمليّة جمع التراث لرصد تحوّلاتها الاجتماعيّة.

أهميّة إيجاد شبكة علائقيّة بين الجسم الأكاديميّ، المرصد الثقافيّة، المتحف، المنظّمات الوطنيّة والعالميّة، والهيئات والمؤسّسات الثقافيّة العامّة والخاصّة إنّ إيجاد شبكة علائقيّة بين الجسم الأكاديميّ والمنظّمات والمؤسّسات الثقافيّة من أهمّيّتها تعزيز نشر المعرفة في العلوم الإنسانيّة المتعدّدة بين الباحثين وبين المؤسّسات

الأكاديميّة، من جهة، وبين مؤسّسات المجتمع الأوسع من أجل استثمار الفوائد الفكرية في مقارنة الثقافة في مجالات نموّية أوسع كالمجالات الاجتماعيّة، الاقتصاديّة، البيئية، الفنيّة، ....

إنّ هذا النمط من الترابط الأكاديميّ / المجتمعيّ هو الذي ينمّي سهولة الوصول واستخدام المعارف المكتسبة من البحوث العلميّة داخل وخارج الصروح الأكاديميّة.

الشراكة مع المراصد الثقافيّة المطلوب توفيرها مناطقيّاً وطنياً وحتى إقليمياً المرصد، للتذكير، هي بنى مؤسّساتيّة عامّة أو خاصّة وجدت لرصد مجال معيّن بشكل منهجيّ وثابت. أمّا الهدف من إنشائها، فهو إنتاج معلومات ذات قيمة عالية تستخدم الأهداف التي أنشئت من أجلها.

تقوم المراصد على مبدأ الشراكة بينها وبين مؤسّسات في القطاع العام والخاص، وبين هيئات مدنيّة، كما بين المؤسّسات البحثية التي تؤمّن لها مراقبة دائمة ومنهجية للمجال المرصود.

تشكّل المرصد، وفق هذا المبدأ التشاركيّ، أحد اللاعبين الأساسيين في فهم وفي تحليل الاشكاليّات المجتمعيّة وفق مؤشّرات علميّة محدّدة ومتفق عليها، تتمّ متابعة تأثيراتها وتغيّراتها في المجتمع.

وبما أنّ المرصد لا بدّ من أن تبنى وفق أهداف محدّدة، وبما أنّنا نفتقر حتى الآن للمراصد الثقافيّة في مجتمعنا، فإنّ طموحنا في هذا المجال هو توفير مراصد ثقافيّة محليّة، ووطنية وحتى إقليميّة تأخذ بالاعتبار الأهداف الآتية:

١- تحديد نطاق المراقبة الثقافيّة لعملها (الحدود المحليّة للمراقبة، وميادينها الثقافيّة)<sup>(٩)</sup>

(٩) لقد حدّد المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصاديّة في فرنسا (INSEE) الميادين الثقافيّة، بالآتي: المنشورات، الطباعة، الاستنساخ، الإنتاج السمعيّ والبصريّ (سينما، فيديو، راديو وتلفزيون) وتأثيره في إنتاج الثقافة الجماهيرية أو ما يحلو تسميتها أيضاً بالثقافة الاستهلاكية التي يتمّ اكتسابها من خارج نظام الثقافة التقليديّة في المجتمع، الفنون المسرحية (النشاطات الفنيّة، الخدمات وكل الأنشطة المتصلة بها)، التراث (الإنتاج المادّي، واللامادّي، العمراني، إدارة الإرث الثقافي)، التسليّة والترفيه.

Institut national de la statistique et des études économiques (INSEE) : Définition du secteur culturel

[http://www.insee.fr/fr/themes/document.asp?ref\\_id=12054&page=synthese/syn0802/definitions.htm](http://www.insee.fr/fr/themes/document.asp?ref_id=12054&page=synthese/syn0802/definitions.htm)

أمّا اليونيسكو فإنّها تعطي للواقع الثقافيّ المعيشي أهمية أكبر عند تحديدها للميادين الثقافيّة. لهذا فإنّها تعتبر اللغة، وسيلة التعبير عن التقاليد وعن التراث غير المادّي، من الميادين الثقافيّة، كذلك فنون الأداء (موسيقى، رقص، مسرح تقليديّ)، والممارسات الاجتماعيّة والطقوس والتظاهرات الاحتفاليّة، والمعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون، والمعارف المرتبطة بالحرف التقليديّة.

[http://portal.unesco.org/culture/fr/cv.php-URL\\_ID=29911&URL\\_DO=DO\\_TOPIC&URL\\_SECTION=201.html](http://portal.unesco.org/culture/fr/cv.php-URL_ID=29911&URL_DO=DO_TOPIC&URL_SECTION=201.html)

٢- تأمين شراكة مؤسّساتيّة بين المرصد وبين مؤسّسات القطاع العام والقطاع الخاص، والهيئات المدنيّة (الجمعيات الأهليّة) المعنيّة بالشأن الثقافيّ وبالمجالات التي سيتمّ رصدّها بشكل خاص.

٣- تأمين البيانات المتاحة (الإحصائيّة والأبحاث النوعيّة) أو السعي لتأمينها.

٤- تبادل المعلومات بينها وبين شركائها، من خلال توفير البيانات الضروريّة والمتنوّعة الهامة لكلّ منهما من أجل تطوير عمل المرصد والشركاء في آن، وتحقيق الأهداف التنمويّة المتبتغة من عملهما.

٥- الدعم اللوجستيّ والمادّيّ بين الشركاء والتشارك في الاهتمامات البحثيّة الخاصة بالواقع الثقافيّ الذي يتمّ رصده، من خلال مؤشّرات ثقافيّة محدّدة، يتمّ وضع توصيفها المفاهيميّ وتبع تحوّلاتها المجتمعيّة.

٦- تأمين المعطيات التي تساعد على رسم سياسات تنمويّة ثقافيّة محليّة ووطنية وفق منطق التنمية المستدامة.

عند الاطّلاع على أهميّة دور المرصد بشكل عام، ومن ضمنها المرصد الثقافيّة، يتبيّن لنا حجم العمل الذي ينتظرنا على هذا الصعيد، خصوصاً وأنّ جوهرية مهام هذه المرصد، ليس فقط في رصد وفي تحليل المعطيات الثقافيّة، سواء على مستوى المناطق أو الوطن، ولكن أيضاً على مستوى تأمين المعطيات الضروريّة لرسم السياسات الثقافيّة.

الكلّ يعلم أنّنا نعاني عدم وجود سياسات ثقافيّة واضحة المعالم على مستوى المناطق اللبنانيّة، كما على مستوى الوطن، كما أنّنا نعاني أيضاً ضعفاً في تمويل المؤسّسات الثقافيّة العامّة كما الخاصّة. فالبعد الثقافيّ لم يأخذ بعد مجاله في عمليّة التنمية، ولم يتمّ الإدراك بعد أنّ الإنسان، سواء كان فرداً أو جماعة اجتماعيّة، هو ليس تركيبة اقتصاديّة/ اجتماعيّة فحسب، بل هو أيضاً معارف موروثة، وهو مبادئ وقيم ودلالات رمزيّة ومعتقدات لا يمكن فهمها والتعاطي التنمويّ معها إلا من خلال الثقافة المبنية على أساس قرارات سياسيّة تنمويّة البعد.

### المتاحف كمجال للتواصل الثقافيّ

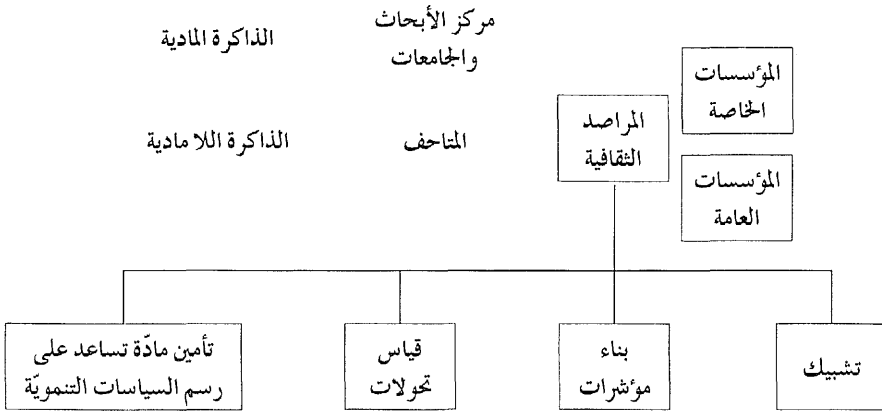
توازي أهميّة تأسيس وتفعيل متاحف على أنواعها دور تأسيس المرصد الثقافيّة في عمليّة رسم السياسات الثقافيّة بهدف التنمية المستدامة.



## خلاصة

- إنّ التشبيك بين المؤسّسات الثقافيّة التي لها دورها في رصد التراث وتحليله وفهمه، هو إذاً أمر له أهداف استراتيجيّة متعدّدة، من أهمّها:
- حفظ التراث وفق مناهج أكاديميّة محدّدة تبني ديناميّاتها من منطلق التطوّر المعرفيّ، المنهجيّ والتقنيّ في مجال الحفظ، التصنيف، الدراسة، ...
  - تطوير طرائق التواصل الثقافيّ بين المجالات الأكاديميّة والثقافيّة المتنوّعة في المجتمع.
  - تشكيل بنى معرفيّة وعملائيّة أساسيّة يركز عليها لرسم السياسات التنمويّة الثقافيّة في المجتمع.
  - تشكيل تنوّع مؤسّساتيّ متناغم في العمل الثقافيّ، متناسف في ديناميّات تطويره لمصلحة الثقافة وسياساتها، كما لمصلحة المجتمع وتواصله مع تراثه من جهة ومع الآخرين، من خلال هويّة ذاتيّة واعية لأهميّة تطوير ديناميّتها وواعية، في الوقت عينه، لأهميّة التواصل الثقافيّ مع الآخر.

## رصد



## المراجع

- رضوان؛ محمد فاضل، ٢٠٠٦: نحو تكاملية المعرفة: قراءة نظرية وتطبيقية في المقاربة البنمناهجية. المصدر: مجلة رؤى تربوية، العدد ٣١.

<http://www.alhadhariya.net/dataarch/alwayalbahthy/index51.htm>

- كيال؛ مها، ٢٠١٠: الثقافة والتواصل من أجل التنمية الثقافية المستدامة: تطّعات في تفعيل دينامية تواصل ثقافتنا المدنية (طرابلس نموذجًا) مؤتمر جامعة الجنان.

Colloque international «Traduire et communiquer la culture»

- HABERBÜSCH Sophie 2009: La rupture dans les modes de pensée: Comment l'anthropologie permet-elle d'envisager une reformulation des messages liés à l'eau? Le portail de l'anthropologie.

<http://www.ethno-web.com/articles.php?action=show&numart=196>

- Institut national de la statistique et des études (INSEE) (S.D.): Définition du secteur culturel.

[http://www.insee.fr/fr/themes/document.asp?ref\\_id=12054&page=synthese/syn0802/definitions.htm](http://www.insee.fr/fr/themes/document.asp?ref_id=12054&page=synthese/syn0802/definitions.htm)

- UNESCO (S.D.): Définition du patrimoine culturel immatériel- ou patrimoine vivant.

[http://portal.unesco.org/culture/fr/ev.php-URL\\_ID=29911&URL\\_DO=DO\\_TOPIC&URL\\_SECTION=201.html](http://portal.unesco.org/culture/fr/ev.php-URL_ID=29911&URL_DO=DO_TOPIC&URL_SECTION=201.html)

- UNESCO 2003: Diversité culturelle et biodiversité pour un développement durable. Table ronde de haut niveau organisée conjointement par l'UNESCO et le PNUE le 3 septembre 2002 à Johannesburg (Afrique du Sud) à l'occasion du Sommet mondial pour le développement durable. UNESCO.

[www.unep.org/civil\\_society/PDF/..Diversite\\_Culturelle\\_et\\_Biodiversite.pdf](http://www.unep.org/civil_society/PDF/..Diversite_Culturelle_et_Biodiversite.pdf)

- UNESCO 2005: Convention sur la protection et la promotion de la diversité des expressions culturelles. Octobre.

<http://www.unesco.org/new/fr/culture/themes/cultural-diversity/diversity-of-cultural-expressions/the-convention/convention-text/>

[http://fr.wikipedia.org/wiki/Franco\\_Dragone](http://fr.wikipedia.org/wiki/Franco_Dragone)

## مواقع الصور

<http://www.google.com.lb/imgres?imgurl=http://lewebpedagogique.com/clubunescomolierévillanueva/files/2009/02/personnes2.jpg&imgrefurl=http://lewebpedagogique.com/clubunescomolierévillanueva/2009>

### Logos:

[cultural-engineering.com](http://cultural-engineering.com)

[cities-localgovernments.org](http://cities-localgovernments.org)

[courrierinternational.com](http://courrierinternational.com)

[apwn.fr](http://apwn.fr)

[lafayette1834.wordpress.com](http://lafayette1834.wordpress.com)

[unesco.org](http://unesco.org)





## المآثورات الشعبية .. وقضية الموضوع

د. سميح شعلان<sup>(١)</sup>

### ملخص

تأتي هذه الدراسة من واقع اهتمام هذا الملتقى والذي يبحث في الصيغة المثلى لإنشاء مرصد ثقافي يُعنى بمفردات الثقافة الشعبية، ولأنّ هذا التوجّه العلميّ يستوجب تحديد منطلقات أساسية تعين على توجيه المسار في الاتجاه الصحيح. ومن هذه المحدّات:

- ١- الحيز الجغرافي للجمع الميدانيّ واختيار الجماعات الممثّلة.
- ٢- اختيار الاخباريين الممثّلين لكلّ جماعة.
- ٣- القائمون على عمليات الجمع الميدانيّ.
- ٤- طرق وأدوات وآليات الجمع الميدانيّ.
- ٥- فهرسة المادة الميدانية وأرشفتها وتحديد محرّجاتها.

وهذه الورقة عندما تتبنّى إلقاء الضوء على قضية الموضوع في المآثورات الشعبية، فهي بذلك تستكمل محدّات المسار العلميّ والمنهجيّ لإنشاء المراصد الثقافية وهو المحدّد الأهم، الذي ينطلق من التساؤل المهم: ماذا نجمع؟؟؟

(١) الدكتور سميح شعلان: عميد المعهد العالي للفنون الشعبية، أكاديمية الفنون، مصر، أستاذ العادات والمعتقدات والمعارف الشعبية، له العديد من الكتب والدراسات في هذا المجال. samceh\_shallan@hotmail.com

وانطلاقاً مما سبق سوف تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن التراث النظري لقضية موضوعات المأثورات الشعبية. ووضع ضوابط لتعريف كل موضوع منها بحيث يسهم ذلك التعريف في وضع ملامح للموضوعات وفروعها، وداعياً لتقسيمها على النحو الذي تدعو هذه الدراسة إليه. كذلك فإننا في هذا السياق العلمي لن نتنازل عن محاولة الكشف عن طبيعة التداخل بين موضوعات المأثورات الشعبية ومدى ما يمثله ذلك من مشكلات تخصّ عمليات الجمع والتوثيق، وما تقدّمه هذه الورقة من حلول. وهذه الدراسة عندما تبنّى تصنيفاً وتوصيفاً بعينه لموضوعات المأثورات الشعبية، فإنها تنطلق من تبنّيها هذا إلى ما يدعو إليه الواقع الميداني لهذا التصنيف، والذي نرى أنه يشير إلى مجموعات رئيسة تدرج تحتها موضوعات تفصيلية وهي:

١- مجموعة: الإبداعات الأدبية الشعبية

٢- مجموعة: العادات والمعتقدات والمعارف الشعبية

٣- مجموعة: فنون الأداء الشعبي (الموسيقى - الرقص - فنون المحاكاة)

٤- مجموعة: فنون التشكيل الشعبي والثقافة المادّية.

لعلنا بهذا المسعى العلمي نكون قد وضعنا لبنة تسهم في بناء صرح المرصد الثقافي بصورة علمية دقيقة وصحيحة تكشف عن ملامح الهوية الثقافية للشعوب.

## مقدّمة

تأتي هذه الدراسة استجابة لاهتمام هذا الملتقى والذي يبحث في الصيغة المثلى لإنشاء مرصد ثقافي يُعنى بجمع وتوثيق مفردات الثقافة الشعبية، ولأنّ هذا التوجّه العلمي بوصفه - في الوقت ذاته - توجّهاً وطنياً يسعى للكشف عن ملامح العقل الجمعيّ والمستوى الفكريّ الذي يوجّه هذا العقل في اتجاه معيّن من السلوك والمعتقدات، والإبداعات بكلّ أشكالها وأنواعها الأدبية والتشكيلية والموسيقية والحركية. ولأنّ ذلك كذلك، فإنّ أتباع قواعد وأسس منهجية منضبطة أمر لازم وحتميّ يعيّن على ضبط الرؤية وسلامة الفهم ودقة التناول. إذ إنّ التعرّض لثقافة الشعوب من حيث كونها المعبر الأمين لفهم التغيّرات التي تطرأ على طبائع الناس وميولهم، وهو الأمر الذي نستطيع به الكشف عن اتجاهات هذا التغيّر ومؤثراته وسرعته وحدّته وملاحمه العامّة، ذلك الذي يمكن من خلاله وضع أطر تنمويّة لكلّ بلد من البلدان العربيّة مبنية على فهم عميق ودقيق لما يجري بين الناس وتوجّهاتهم العقلية والوجدانية.

ولعل ذلك التوجّه الراصد لمفردات حياة الناس يعين في الوقت ذاته على الوقوف على المشتركات العربيّة التي يمكن أن تساهم في خلق مناخ مناسب من الاتّصال المفقود بين المؤسّسات المعنيّة بأمر الثقافة في هذه البلدان.

كذلك فإنّ هذا الرصد الثقافيّ للملامح الثقافيّات الشعبيّة يعين على البحث في الكيفيّة التي يمكن من خلالها استدعاء ما يجب استدعاؤه من تلك الثقافة وإعادة بثّه بين الناس والحرص على بقائه وتداوله لأنّه يمثّل خصوصيّة وهويّة تؤكّد الذات الوطنيّة وتدعم الالتفاف حولها، ويعمل ذلك في الوقت نفسه على درء خطر الذوبان في ذات الآخرين من خلال الانبهار بثقافتهم المهيمنة.

وليس معنى ما سبق لا يدعو إلى الكشف عن الملامح السلبية في بعض مفردات الثقافات المحليّة للشعوب العربيّة، إذ إنّ هذا الكشف يؤدّي إلى فهم الأسباب التي دفعت بالناس إلى اللجوء إلى مثل هذه الأفكار، وهو ما يمكن أن يفيد في التوجيه نحو إزالة تلك الأسباب لتزول معها الأفكار التي ارتبطت بها وتأسّست على وجودها.

انحازت هذه الدراسة لمصطلح المأثورات الشعبيّة كترجمة للمصطلح الإنجليزيّ Folklore، وهي الترجمة التي اعتمدها مجمع اللغة العربيّة. وليس معنى هذا الانحياز أننا نتجاهل المصطلحات العربيّة الأخرى كالثقافة الشعبيّة أو الموروثات الشعبيّة أو التراث الشعبيّ. لكننا في هذا المقام لن نتوقّف كثيراً عند الفروق الجوهرية وغير الجوهرية بين تلك المصطلحات لأنّ ذلك سوف يشغلنا عن مهمّة هذا البحث في الوقوف على ملامح موضوعات هذا العلم.

وهذه الدراسة عندما تتبنّى موضوع بحثها بوصفه أحد المنطلقات الأساسيّة التي نرى لزوم البحث فيها جميعاً، كلّ منها بصورة منفردة وهو الأمر الذي يفيد في وضع القواعد التي تعين على توجيه المسار الصحيح لعمليّات الرصد الميدانيّ.

وعندما تتبنّى هنا إلقاء الضوء على قضية الموضوع في المأثورات الشعبيّة، فإننا بذلك نستكمل المسار العلميّ والمنهجيّ لإنشاء المراصد الثقافيّة الشعبيّة؛ وهو المحدّد الأهم الذي ينطلق من التساؤل المهم... ماذا نجتمع؟؟

وانطلاقاً ممّا سبق سوف نستعرض خلال هذه القراءة البحثيّة ما يلي:

- المنطلقات الأساسيّة لإنشاء المراصد الثقافيّة الشعبيّة؛

- التراث النظريّ لقضية موضوعات المأثورات الشعبيّة؛

مقترح بموضوعات المأثورات الشعبيّة، وتفنيد المبررات التي دعت إلى هذا الاقتراح، ومقارنته بما جاء عند رواد هذا المجال.

لعلنا بهذا المسعى العلميّ نكون قد وضعنا لبنة تسهم في بناء صرح المرصد الثقافيّ بصورة علميّة دقيقة وصحيحة، تلقي الضوء على بعض ملامح الهوية الثقافيّة للشعوب العربيّة.

أولاً: المنطلقات الأساسيّة لإنشاء المرصد الثقافيّة الشعبيّة

لأنّ المرصد الثقافيّة الشعبيّة معنيّة بتتبع انتشار العناصر الثقافيّة بين المجتمعات المحليّة، من حيث المدى الواسع الذي تتحرّك فيه، أو القطاع الضيق الذي تنحصر عنده، كلّ ذلك يتحدّد بناء على تفاعل بين الإنسان والمكان الذي يحيا فيه، ليعمل ظرف المكان، في هذا المعنى، على الاسهام المباشر في تحديد ملامح ثقافة الإنسان.

وبناءً على هذا الغرض العلميّ فإنّ اللجوء إلى تحديد منطلقات أساسيّة تسعى للإجابة عن تساؤلات منطقيّة، عند الشروع في البدء في إنشاء المرصد الثقافيّة الشعبيّة، أمر لازم وحتميّ. هذه التساؤلات التي تنحصر في ما يلي:

١- ماذا نرصد؟

٢- أين تتمّ عمليّات الرصد؟

٣- من هم القائمون على الرصد؟

٤- ما هي الأدوات المنهجية والتقنيّة التي تعين على عمليّات الرصد؟

٥- ما هي الطريقة التي يمكن اتّباعها لتوثيق وحفظ الموضوعات التي تمّ رصدها ميدانيّاً؟

٦- ما هي المخرجات التي يمكن للمرصد الثقافيّة أن تقدّمها للمهتمين والمشتغلين

والمشغلين بهذا المجال وأيضاً لجموع الناس كصيغة من صيغ إعادة البتّ والتذكير؟

هذه الدراسة، في حينها هذا، لن يتسنّى لها الوقوف عند هذه التساؤلات بالبحث

المتعمّق، وسنكتفي هنا بإطلالة مركّزة عند كلّ تساؤل في نقاط محدّدة. وسنكتفي في هذه

الورقة البحثيّة بإفصاح المجال بصورة أكثر لقضية الموضوع في المأثورات الشعبيّة، وفي ما

يلي نستعرض المنطلقات الأساسية لإنشاء المرادف الثقافية الشعبية.

#### ١- تحديد الحيز الجغرافي للجمع الميداني واختيار المجتمعات المحلية الممثلة:

يأتي تحديد الحيز الجغرافي والمجتمعات الممثلة لهذا الحيز في مقدّمة العمل على إنشاء المرادف الثقافية الشعبية، وذلك انطلاقاً من أن ذلك التحديد تتأسس عليه المجموعة الأخرى اللازمة للإنشاء. إذ إن السعي بعمليات رصد موسّعة للمعمور المصريّ أو اللبنانيّ بشكل عام، تختلف عن اقتصار عمليات الرصد على قطاع بعينه من هذا المعمور كالدلتا المصريّة أو الجنوب اللبنانيّ، أو غيرهما من القطاعات التي تبدو من الوهلة الأولى أنّها تحتفظ لمجتمعاتها المحليّة ببعض التجانس الثقافيّ النسبيّ، قياساً على المعمور الواسع الذي يمكن أن يحوي قطاعات ذات ملامح ثقافيّة متميزة، وفقاً لطبيعة الظروف الجغرافيّة التي قد تدعو إلى قدر كبير أو قليل من التمايز.

يلتزم القائمون على إنشاء المرادف الثقافية، وضع قواعد تحدّد مجتمعات الجمع الميدانيّ، بحيث تكون المجتمعات المختارة ممثّلة لغيرها من المجتمعات المتماثلة معها في الظروف نفسها. إذ إنّه من غير المعقول أو الميسّر أو متاح أن تتمّ عمليات الجمع الميدانيّ في جميع المدن والقرى والتوابع في أي معمر كبير أو قطاع منه. ولذا لزم الأمر إلى اللجوء لمعايير بعينها، تضمن للمشروع النجاح في الكشف عن مدى التمايز والتشابه بين تلك المجتمعات المختارة في ما يتعلّق بالمفردات الثقافية الشعبيّة، التي ينحاز الأفراد بكلّ مجتمع إليها؛ وفق الظروف المختلفة أو المتشابهة التي تدعوهم إلى هذا الانحياز.

وفي ما يلي تصوّر للمعايير الضابطة للمجتمعات الممثلة للمعمور المقصود بعمليات الرصد (الجمع) الميدانيّ:

- أ- يتمّ اختيار تلك المجتمعات الممثلة وفقاً لكثافة الأعمار.
  - ب- تنوّع النشاط الاقتصاديّ للسكان.
  - ج- تنوّع التوصيف الإداريّ للمجتمعات المختارة ما بين المدن الكبرى والأحياء التي تضمّها، والمدن الصغرى، والقرى الأم، والتوابع.
  - د- تنوّع الأصول العرقيّة للمجتمعات المختارة (إن وجد).
  - هـ- تنوّع الديانات والملل (إن وجد).
- وتضبط هذا الاختيار وتحدّده، قاعدة أساسية تستوجب تحديد عدد المجتمعات التي

يتم اختيارها وفق تلك المعايير، بناءً على النسبة المقدرة لكل فئة مختارة من المجتمعات، قياساً على المجتمع الكبير الذي تنتمي إليه. فإذا كانت المجتمعات التي يشغل سكانها بالعمل الزراعي - على سبيل المثال - تمثل نسبة ٨٠٪ من المعمور المصري - مثلاً - يتم اختيار مجتمعات زراعية تمثل تلك النسبة، وإذا كانت تلك المجتمعات الزراعية تحتوي في داخلها على تنوعات من حيث اختلاف الديانة أو الملة أو اختلاف كثافة السكان، أو الأصول العرقية، يتم وضع ذلك في الاعتبار حسب نسب أعدادها بالمجتمعات الزراعية. وهكذا.. إذ إن الدقة في اختيار المجتمعات الممثلة لغيرها يعين كلّ العون في الوصول إلى أهداف المراد الثقافية المعنية بفهم طبيعة الظروف التي تدعو الناس في كل مجتمع من المجتمعات إلى الاختيار من بين البدائل الثقافية؛ البديل المناسب لتلك الظروف.

## ٢- القائمون على الرصد:

إنّ العملية التنظيمية للقائمين على عمليات الرصد لا تقل أهمية بأي حال عن تحديد أماكن الجمع، وموضوعاته، وأدواته، ومخرجاته. وسوف نعرض في هذا المقام لتصور حول هذا التنظيم. هذا التصور الذي يحتاج إلى إطلالة أكثر اتساعاً ومناقشة أكثر دقة وفي ما يلي عرض للتنظيم الإداري للمشروع:

أ- مدير المشروع: وهو الذي يقوم مع الخبراء في وضع الاستراتيجيات وتحديد المسؤوليات وإيجاد الحلول لعلاج السلبيات.

ب- الخبراء: ويتم اختيارهم وفق تنوع اختصاصهم في مجال المآثرات الشعبية، بحيث يستطيع كل منهم إفادة المشروع من خلال خبرته في تخصصه الدقيق. والخبراء يجتمعون مع مدير المشروع بشكل دوري (أسبوعي) للنظر في ما يخص عمليات الجمع وغيرها من الأمور التي ترتبط بالمشروع.

ج- مساعدا الخبراء: وهم من يتولون تنفيذ توجيهات الخبراء حسب تخصصاتهم والمتابعة اليومية لعمليات الجمع والتوثيق، وفق القواعد التي يراها كل خبير.

د- الجامعون الميدانيون: والذين يتم اختيارهم من خريجي الجامعات من تخصصات مباشرة أو ذات صلة بالمآثرات الشعبية (كأقسام الأنثروبولوجيا والاجتماع، وعلم النفس والتاريخ والآثار). وتتولى إدارة المشروع والخبراء وتدريبهم على عمليات الجمع والأدوات المنهجية والتقنية التي سوف يلجأون إليها في عمليات الجمع الميداني.

٥- أمين المكتبة.

و- الخدمات المعاونة.

### ٣- الأدوات المنهجية والتقنية:

لا يغيب عن المتخصصين في مجال الأنثروبولوجيا والفولكلور أنّ عمليات الجمع الميدانيّ تستوجب اللجوء إلى أدوات منهجية بعينها؛ يمكن من خلالها ضبط عمليات الجمع بصورة علمية دقيقة. ومن تلك الأدوات دليل العمل الميدانيّ، والملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، والإخباريون. فضلاً عن الأدوات التقنية ككاميرات التصوير الفوتوغرافيّ والفيديو، وأجهزة الصوت، وأيضاً الكمبيوتر المحمول.

غير أنّنا في هذا المقام سوف نشير إلى أهميّة تجهيز أدلة العمل الميدانيّ والتي توجّه الجمع الميدانيّ في اتجاه موضوع بعينه والبحث عن عناصره التفصيليّة من خلال أسئلة موجهة للجامعين بالميدان للتنبه لوجود تلك العناصر والكشف عنها. والدليل يفيد كذلك في توحيد عمليات الجمع من المجتمعات التي تمّ تحديدها. كذلك فإنّ الدليل يعين الجامع في الميدان على شحذ همّة الإخباريين في الإدلاء بمعلوماتهم حول الموضوع. فضلاً عن تتبّع جمع المادّة الميدانيّة وفق التسلسل المنطقيّ لعناصر الموضوع المراد رصده من الميدان. وفي هذا الإطار أيضاً يجدر بهذه الدراسة أن تنوّه بأهميّة اختيار الإخباريين وفق طبيعة الموضوع، فإذا كان توجّه الجمع الميدانيّ ناحية موضوعات الأدب الشعبي من أغان وحكايات وسير شعبية وفوازير ونكات وأمثال، فإنّ ذلك يتطلّب التوجّه مباشرة لأصحابها أي إلى حافظيها والذين يستطيعون روايتها والإدلاء بمعلومات حولها. وإذا كان الجمع الميدانيّ يتعلّق بموضوعات العادات الشعبيّة، فإنّ اختيار الإخباريين يجب أن يضع في الاعتبار الحصول على معلومات تفصيليّة من خلال تنوع الإخباريين من حيث نوعهم (ذكر - أنثى)، وأعمارهم وانتمائهم الطبقيّ، ودرجاتهم التعليميّة، بحيث تبين التنوعات الاجتماعيّة داخل كلّ مجتمع محليّ مدى انحياز كلّ فئة منها لمفردات ثقافيّة بعينها، والتي يمكن أن تميّز بها عن غيرها من الفئات الأخرى في المجتمع نفسه، ويكمن أحد أغراض الرصد في فهم طبيعة الانتشار والانتقال إلى عناصر العادات الشعبيّة بين أفراد المجتمع الواحد. كذلك فإنّ الجمع الميدانيّ لموضوعات الموسيقى الشعبيّة وفنون الغناء يتّجه في الأساس إلى أصحاب هذا الأداء الإبداعيّ... وهكذا.

أما في ما يتعلّق بالطرق والأدوات والأساليب التي يجب اتّباعها في عمليّات الحفظ والتوثيق، فإنّ هذه الدراسة لن تتعرّض لها وستترك الفرصة سانحة للمختصّين في هذا المجال ليدلّوا بدلّوهم الأكاديمي في هذا الموضوع، والذي يحتاج إلى قواعد علميّة تجعل للمادّة التي يتمّ رصدها من الميدان واقعاً توثيقياً يسهّل حفظها وتوثيقها واستدعاءها بصورة ميسرة.

### ثانياً: موضوعات المآثرات الشعبيّة

هذه الدراسة عندما تنشغل بقضية الموضوع في المآثرات الشعبيّة، فإنّ هذا الانشغال ينطلق من الحاجة الملحة لدى الباحثين في مجال المآثرات الشعبيّة إلى تحديد موضوعات هذا العلم، حيث إنّ ذلك يعين عوناً كبيراً في فهم طبيعة هذا العلم وأهدافه من خلال القاعدة الأساسيّة التي ينطلق منها، ويؤسّس عليها منهاجها العلميّ في رصدها ورؤيتها وتحليلها. ولأنّ كلّ العلوم الإنسانيّة منها والبحثة تنطلق في توجهاتها من خلال تحديد موضوعاتها التي تعنى بها، فإنّ علم الفولكلور (المآثرات الشعبيّة) قد سار في هذا المسار. فقد اهتمّ علماء هذا المجال، منذ النصف الأوّل من القرن العشرين، بوضع تصنيفات سوف نستعرضها، لنسعى من خلال هذا الاستعراض إلى الوقوف على مدى التطوّر الذي لحق بها من جرّاء التطوّر الذي لحق بالعلم نفسه. وإنّ هذه الدراسة عندما تختار تصنيفات بعينها من بين التصنيفات الكثيرة التي ظهرت لعلماء هذا المجال، فإنّ هذا الاختيار قد تمّ - من وجهة نظرنا - بالمنطق الأقرب إلى الواقع الميدانيّ كما نراه وكما خبرناه.

### ١- محاولات التصنيف الأوروبيّة والأميريكيّة:

سنستوقّف هنا عند محاولتين من محاولات التصنيف الأوروبيّة عند كلّ من ريتشارد فايس، وأيضاً بويكارت Peuckert ولاوفر Louffer. والتي سوف نخضع كلّ منهما للمناقشة.

#### أ- تصنيف ريتشارد فايس:

وفي ما يلي رؤيته لموضوعات المآثرات الشعبيّة وفق التصنيف التالي:  
- الوحدة العمرانيّة (القرية - المدينة - الكفر... إلخ).



- المباني والمسكن.
- الحياة الاقتصادية والثقافة المادية.
- الغذاء.
- الأزياء.
- العادات والاحتفالات.
- الألعاب والرياضة.
- التمثيل والرقص.
- الموسيقى والغناء.
- اللغة والتراث اللغوي.
- المعتقدات والمعارف.
- القانون والطابع القومي<sup>(٢)</sup>.

يتضح من خلال هذا التقسيم لموضوعات المأثورات الشعبية اتساع رؤية «فايس» حيناً لتلك الموضوعات وتجاهله حيناً آخر لموضوعات هامة منها. إذ حرص هذا التصنيف على التفريق بين موضوعات الثقافة المادية والمباني والمسكن وكذلك الأزياء الشعبية، والذي يخالف فهمنا للثقافة المادية الشعبية، والتي هي كل ما تراه العين وتلمسه اليد ويؤدي الاستعانة به وظيفة نفعية لا تخلو من جمال يجعل استخدامها مقبولاً ومريحاً، ويخلق حالة من المنافسة في الاقتناء في ما يتعلق بالمنتجات الحرفية على سبيل المثال. وبناءً على هذا الفهم، فإن اعتبار مصطلح الثقافة المادية بعد مصطلحاً ملائماً لضم كل العناصر الشعبية التي تنتمي إلى الجانب المادي من المأثورات الشعبية. وهو الأمر الذي تنبه له بويكارت ولاوفر في التصنيف الذي سوف نعرض له بعد قليل.

كذلك فإن لجوء هذا التقسيم إلى اعتبار الغذاء موضوعاً مستقلاً يدعو أيضاً إلى المراجعة. إذ إن الغذاء باعتباره سلوكاً جماعياً يحدّد صوراً من صور الفعل الاجتماعي الذي يحدّد اللائق وغير اللائق. والقواعد الحاكمة لآداب الطعام والشراب يمكن أن تنتمي في هذه الحالة إلى العادات الشعبية. أما القواعد المعرفية المتعلقة بنقل خبرات طهي الطعام،

WEISS Richard: Volkskunde der Schweiz, Zurich, 1946, pp. XVFF.

(٢)

نقلا عن محمد الجوهري، ٢٠٠٠: علم الفولكلور، الجزء الأول، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب السابع عشر، الطبعة الثالثة، القاهرة، ص ٥٩.

والمقادير المناسبة لخلط عناصره، ومراحل صنعه، جميعها تنتسب إلى المعارف الشعبية. وهو الأمر الذي سوف يبرر انحيازنا إلى ضمّ العادات والمعتقدات والمعارف الشعبيّة إلى تصنيف واحد حيث الاقتراب الواضح في ما بين ثلاثتها، وهو ما سوف نعرض له عند استعراض رؤية هذه الدراسة لموضوعات المأثورات الشعبيّة.

كما أنّ حرص هذا التصنيف على الفصل بين موضوع التمثيل والرقص والموسيقى والغناء يحتاج إلى إعادة نظر، حيث إنّ الموضوعات الأربعة في ما بينها تداخل مباشر بوصفها صوراً من صور الأداء الشعبيّ الذي يؤدّي بغرض الامتاع والاستمتاع من خلال حالة الإبداع الذي يصاحب هذا الصنف من صنوف المأثورات الشعبيّة. فضلاً عن أن تلك الأنواع الشعبيّة تصاحب بعضها البعض حال الأداء. إذ إنّ لا رقص بلا موسيقى وفي الأغلب يصاحب الموسيقى غناء، وقد يدفعان إلى أداء راقص وأحياناً يصاحبان الأداء التمثيليّ كما هو الحال في الأراجوز مثلاً.

وإذا كانت العادات الشعبيّة تكتسب دوماً قوة معيارية تدعو الأفراد إلى الالتزام بما قرّره الجماعة من سلوك، ومن خلال ما يلقاه المقصّر من عقاب نظير تقصيره في الالتزام، فإنّ القوانين العرفية بذلك هي قواعد الالتزام، وضامن الالتزام. ومن هنا فإنّ انضمام القوانين العرفية إلى العادات الشعبيّة أمر نراه طبيعياً، على غير ما رأى «فايس» في تصنيفه. غاب عن هذا التصنيف وكثير من التصنيفات الأخرى كالاهتمام بفنون التشكيل الشعبيّ بوصفها صيغة خاصّة من صيغ الإبداع، والتي يمكن رصدها في الرسوم الجدارية وأيضاً الوحدات الزخرفية في مختلف موضوعات الثقافة المادّية، وهو الأمر الذي دفع بنا إلى دمجها مع موضوعات الثقافة المادّية حيث العلاقة المباشرة بين الفرعين من فروع المأثورات الشعبيّة، وهو ما سوف نوضّحه بعد قليل.

#### ب- تصنيف بويكارت ولاوفر:

ظهر هذا التصنيف إلى الوجود في كتاب العالمين الألمانيّين عن الفولكلسكسندة الألمانيّة. والذي حدد تسعة موضوعات رئيسة هي:

- المعتقدات الشعبيّة.
- العادات والتقاليد.
- التراث القصصي والشعبيّ.

- الحكاية الخرافية.
- الحكايات الفكاهية القصيرة.
- الأغنية الشعبية.
- اللغز.
- المثل.
- الثقافة المادية، وتضمّ العناصر الفرعية التالية:
  - ١- البيت وأجزاؤه وزينته
  - ٢- الأثاث والأدوات المنزلية
  - ٣- الأواني
  - ٤- الأدوات
  - ٥- آلات الموسيقى واللعب والرقص
  - ٦- أدوات العمل الزراعي، وتربية الماشية... إلخ
  - ٧- الأشغال اليدوية النسائية
  - ٨- الأزياء
  - ٩- أدوات الاحتفال بالعيد
  - ١٠- الفنون الشعبية<sup>(٣)</sup>

يلاحظ في هذا التقسيم ما يلي:

- اتّسع الاهتمام بموضوعات الأدب الشعبيّ وعدم ضم الموضوعات الفرعية للابداعات القولية الأدبية ضمن موضوع واحد هو الأدب الشعبيّ.
- التجاهل التام لموضوع المعارف الشعبية والذي يمثّل جانباً هاماً من موضوعات المأثورات الشعبية.
- الاهتمام بالآلات والأدوات المصاحبة للفعل الموسيقي الشعبي والرقص والألعاب، من دون الالتفات لتلك الابداعات نفسها بوصفها صيغاً من صيغ فنون الأداء الشعبي.

(٣) WILL-ERICK Peuckert und Ottolouffer, Volkskunde, Quellen und Forschungen Seit 1930: Inder Reihe: Wissenschaftliche (٣) Forschungsberichte, Geisteswissenschaftliche Reihe, Herausgegeben Von Prof. K. Hann, Bd. 14, Bern.

نقلًا عن محمد الجوهري، ٢٠٠٠: علم الفولكلور، مرجع سابق، ص ٥٩.

غير أنه من الملاحظ كذلك في هذا التقسيم درجة من الاقتراب إلى الواقع الميداني لموضوعات المأثورات الشعبية.

### ج- تصنيف ريتشارد دورسون:

يعدّ هذا التصنيف من أهمّ التصنيفات التي تقترب اقتراباً شديداً من الواقع الميداني لموضوعات المأثورات الشعبية، كذلك فإنها من خلال ما سوف نلاحظه قدرتها على إدماج كثير من العناصر التفصيلية للموضوعات في موضوعات رئيسة أربعة، تدرج تحتها وتبعتها كثير من التفرعات التي تتبع كلّ موضوع رئيس، وتلك الموضوعات هي:

١- ميدان الأدب الشفاهي (أو الأدب الشعبي).

٢- الحياة الشعبية المادية (أو الثقافة المادية).

٣- العادات الاجتماعية الشعبية (ضمنها المعتقدات الشعبية).

٤- فنون الأداء الشعبي (الموسيقى الشعبية، الرقص، الدراما)<sup>(٤)</sup>.

وملاحظتنا على هذا التصنيف تنحصر في ما يلي:

تجاهل موضوع المعارف الشعبية كأحد الموضوعات الهامة من المأثورات الشعبية كما سبق أن أشرنا عند استعراض التصنيف السابق. ولعلّ هذا التجاهل يشير إلى عدم التنبّه إلى خصوصية المعارف الشعبية كمعبر عن الخبرات الحياتية للجماعات الإنسانية التي تمكنهم من الوقوف على حصيلة معرفية يستطيعون من خلالها تلبية احتياجات حياتية ملحة، كالمعرفة حول طرق علاج الإنسان والحيوان، والمعارف المرتبطة بطرق الزراعة، والصيد، والطهي، وتربية الحيوانات والطيور وغيرها.

عدم التنبّه لمجال فنون التشكيل الشعبي، بوصفه فناً شعبياً له ملامح خاصة وأدوات معينة، وصيغ متفرّدة في التعبير، الأمر الذي يمكن معه ادماجها مع موضوعات الثقافة المادية، من دون تجاهلها على النحو الذي بدا من خلال هذا التصنيف.

يحبس لهذا التقسيم التنبّه إلى تجميع فنون الأداء الشعبي في كتلة موضوعية واحدة، وهو ما يتسق مع المدى الذي تقترب به تلك الفنون من بعضها البعض، إذ إنّها تتمّ بقدر هائل من التداخل وتحرك إلى متلقيها في حالة من الإبداع والإمتاع، كما سبق الإشارة منذ قليل.

(٤) ريتشارد دورسون، ١٩٧٢: نظريات الفولكلور المعاصرة، ترجمة حسن الشامي ومحمد الجوهري، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص ١٦-٣١.

## ٢- محاولات التصنيف العربيّة

اهتمّ العلماء العرب في مجال المأثورات الشعبيّة بتصنيف موضوعات هذا المجال، إيماناً منهم بأنّ ذلك يعدّ خطوة أساسيّة في الاتجاه الصحيح للدراسات العلميّة. وسوف تستعرض هذه الدراسة رؤية كلّ من محمد الجوهري، وعبد الحميد يونس، في هذا الإطار. ويأتي اختيار هذه الدراسة لهما انطلاقةً من الدور المحوريّ الذي قام به كلّ منهما في خلق مناخ علميّ منضبط في مجال الدراسات الشعبيّة في الوطن العربيّ، والذي جذب الكثير من الباحثين والتلامذة الذين ساروا على نهجها وانحازوا إلى رؤيتهما التصنيفيّة لموضوعات هذا العلم.

وفي ما يلي سنعرض لتصنيف كلّ منهما:

## أ- تصنيف محمد الجوهري:

حرص محمد الجوهري في تصنيفه على تحديد موضوعات رئيسة أربعة للمأثورات الشعبيّة، وهو ما استقرّ عليه العالم الأميركيّ ريتشارد دورسون. يشير الجوهري إلى ذلك في كتابه علم الفولكلور فيقول: «أول نقاط الالتقاء بين تصنيفنا وتصنيف دورسون أنّه رباعيّ، بمعنى أنّه يقسم ميدان التراث الشعبيّ إلى أربعة أقسام رئيسة، كما فعلنا نحن بشكل مستقلّ وقبلة بنحو عامين. ولكنّه يختلف في تعيين مضمون هذه الأقسام»<sup>(٥)</sup>.

تنحصر الموضوعات الأربعة في ما يلي:

١- المعتقدات والمعارف الشعبيّة

٢- العادات والتقاليد الشعبيّة

٣- الأدب الشعبي

٤- الثقافة المادية والفنون الشعبيّة<sup>(٦)</sup>

يعدّ هذا التقسيم الرباعيّ تطوّرًا قد طرأ على رؤية الجوهري نفسه لموضوعات المأثورات الشعبيّة. إذ أنّه كان قد طرح تقسيمًا سداسيًا عام ١٩٦٩ في مقدّمة الجزء الأوّل من دليل العمل الميدانيّ<sup>(٧)</sup> كان على النحو التالي:

(٥) محمد الجوهري، ٢٠٠٠: علم الفولكلور، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٦) محمد الجوهري، المرجع السابق، ص ٦١.

(٧) محمد الجوهري وآخرون، ١٩٧٠: الدراسة العلميّة للعادات والتقاليد الشعبيّة، مكتبة القاهرة الحديفة، القاهرة، ص ٢٨، ص ٢٩.

١- العادات الشعبيّة

٢- المعتقدات الشعبيّة

٣- المعارف الشعبيّة

٤- الأدب الشعبيّ

٥- الفنون الشعبيّة

٦- الثقافة المادّيّة

يفسّر صاحب هذا التصنيف انحيازه إلى التقسيم الرباعيّ من خلال إدماجه لموضوعات المعارف الشعبيّة مع المعتقدات الشعبيّة في قوله: «المعارف لا يمكن أن تنفصل عن المعتقدات لأن هذا التقسيم بين المعتقد والمعلومة ليس قائماً بشكل واضح دائماً في ذهن الإنسان الشعبيّ... ولذلك فإنّ الاقتراب الشديد بين النوعين الذي قد يصل إلى حدّ الامتزاج الكامل، يررّ في رأينا إدماج الموضوعين حفاظاً على وحدة المادّة المدروسة من التشويه».

يطيب لنا في هذا المقام أن نوّكّد على صحّة ما أشار إليه الجوهري، غير أنّنا في الوقت ذاته ندفع بتصور آخر يدعو إلى دمج موضوع العادات الشعبيّة مع الموضوعين: المعتقدات والمعارف، لأنّ الأفكار الاعتقاديّة لدى الناس تدفعهم في الأغلب الأعم إلى سلوك جماعيّ، إذ إنّ الاعتقاد في أولياء الله الصالحين مثلاً يدعو أفراد الجماعة إلى اتّباع صور متعدّدة من الاحتفال بمولدهم، تلك الصور التي تعدّ عادات سلوكيّة يتّفق عليها الناس ويمارسونها، كذلك فإنّ الاحتفال بميلاد الطفل ما هو إلا ترجمة لمعتقدات الفصل بين الوليد وعالم الغيب الذي كان يعيشه والكائنات الغيبية التي كان يعيش معها. ومن هنا وجبت الإشارة إلى الاقتراب الشديد بين العادات والمعتقدات الشعبيّة. فضلاً عن الاقتراب الواضح بين العادات والمعارف الشعبيّة، إذ إنّ معارف الناس حول طرق الزراعة وتربية الحيوان وعلاجه وغيرها تدعو إلى القيام بقواعد سلوكيّة تبنى على تلك المعارف وتوّكّد الحاجة إليها. كلّ ذلك ما دعا هذه الدراسة نحو إدماج ثلاثتها في موضوع واحد من الموضوعات الرئيسيّة للمأثورات الشعبيّة. وهو ما سوف نعرض له بعد قليل.

أما في ما يتعلّق بدمج موضوع الفنون الشعبيّة مع الثقافة المادّيّة، فلعلّ ذلك يصدّق على فنون التشكيل الشعبيّ التي تقترب بل تندمج اندماجاً أقرب إلى التمام مع موضوع

الثقافة المادّية. إلا أنّ بقيّة فنون التعبير كالموسيقى والرقص والدراما بوصفها صيغاً إبداعية أدائية عروضية، يتشارك في أدائها مؤدّون لها ومستمتعون بها. فهي على ذلك ليست من جنس الثقافة المادّية ودرجة الاقتراب بها لا تدعو إلى ضمّها في كيان موضوعي واحد. وهو الأمر الذي سوف نعالجه في مقترح هذه الدراسة لموضوعات المأثورات الشعبيّة.

ب- تصنيف عبد الحميد يونس:

اختر عبد الحميد يونس ستة موضوعات رئيسة صنف بها المأثورات الشعبيّة، على

النحو التالي:

١- العادات والتقاليد والطقوس

٢- الأدب الشعبيّ

٣- الغناء والموسيقى والرقص

٤- الدراما الشعبيّة

٥- الطبّ الشعبيّ

٦- الفنون والحرف الشعبيّة<sup>(٨)</sup>

والملاحظ في هذا التصنيف السداسي ما يلي:

١- تجاهل المعارف الشعبيّة

٢- الفصل بين الغناء والموسيقى والرقص والدراما الشعبيّة، رغم الاقتراب الشديد بينها جميعاً، الأمر الذي كان يستدعي ضمّها في موضوع واحد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

٣- اعتبار الطبّ الشعبيّ أحد الموضوعات الرئيسة من موضوعات المأثورات الشعبيّة. رغم حقيقة وضعه وموقعه الميداني كأحد فروع المعارف الشعبيّة في جانبه العلاجيّ الإيجابيّ كالعلاج بالأعشاب، وعلاج الكسور والبثور وغيرها. وكأحد أفرع المعتقدات الشعبيّة في الجانب الاعتقاديّ منه، والتمثلة في حالات العلاج بالزار، واللجوء إلى العرافين، وأولياء الله الصالحين، والاستعانة بالتمائم والأحجية والرقى والتعاويذ لدرء خطر الأمراض والوقاية منها.

(٨) عبد الحميد يونس، ١٩٧٩: التراث الشعبيّ، دار المعارف، سلسلة كتابك، العدد ٩١، القاهرة.

ولعل ذلك الفهم هو الذي دفع بنا إلى ضمّ العادات والمعتقدات والمعارف الشعبية في موضوع رئيس واحد كما سنعرض في مقترح هذه الدراسة.

٤- اهتمام التصنيف بالحرف الشعبية من دون الإشارة للثقافة المادّية، رغم كون الحرف جانباً هاماً من تلك الثقافة التي تحوي على كلّ ما هو مادّي في المأثورات الشعبية.

٥- اتفق هذا التصنيف مع أغلب التصنيفات في وضع الأدب الشعبي كنوع رئيس مستقلّ.

٦- مقترح اليونيسكو:

تقترح اتفاقية اليونيسكو لعام ٢٠٠٣ بشأن التراث غير المادّي خمسة مجالات عريضة أو رئيسة تضمّ المفردات التفصيلية لهذا التراث وهي:

أ- التقاليد الشفاهية وأشكال التعبير الشفهيّ

ب- فنون وتقاليد أداء العروض

ج- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات

د- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون

هـ- المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية

عندما نتصدّى لهذا المقترح بالتحليل والوقوف على مدى اتّساقه مع الواقع الميدانيّ، نجد أنفسنا، ومن خلال ما سبق أن عرضنا من مقترحات، مضطّرين إلى القول إنّ التطوّر الذي لحق بأفكار علماء هذا المجال من حيث رؤيتهم لموضوعات المأثورات الشعبية قد تعرض لردة واضحة، وخلق غير مبرّر، وافتقار لتتبع الواقع الميدانيّ، وعدم قراءة واعية للتراث النظريّ لتصنيف موضوعات المأثورات الشعبية. وفي ما يلي طرح للملاحظة حول هذا المقترح:

١- حرصت الاتفاقية في الأساس على الفصل بين ما هو مادّي من الثقافة الشعبية وما هو غير مادّي. وانحازت إلى ما هو غير مادّي لتحديد موضوعاته على النحو الذي رأيناه. ولم يكن هناك مبرّر واضح لهذا الفصل التعسفيّ. إذ إنّ ثقافة الناس كلّ متداخل يؤثر الجزء منه في الجزء الآخر، بحيث يعبر هذا التأثير والتداخل عن إرادة الناس وحاجاتهم وتجليات إبداعاتهم. فالمسكن مثلاً بوصفه ثقافة مادّية يحدّد كثيراً



من ملامح حياة ساكنيه، والتي يصعب فهمها وتأمل معانيها. معزل عن الوقوف كثيراً على شكل المسكن وفراغاته وخامات بنائه وزخارفه وطلائه وغيرها، والتي يتفاعل من خلالها الإنسان مع اختياراته تلك.

٢- كذلك اقتصر اهتمام هذا المقترح على المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية، وليس بالحرفة نفسها والمنتج الحرفي الذي هو سلعة متداولة بين الناس، تؤدّي دوراً وظيفياً هاماً في حياتهم، وتحدّد في الوقت ذاته صيغاً سلوكية، وأفكاراً اعتقادية، ورموزاً تعبّر بها الجماعة عن نفسها وعن علاقة أفرادها ببعضهم البعض وعلاقتهم بجماعتهم. فالأرياء الشعبية على سبيل المثال لا يتوقّف الاهتمام بها بوصفها حرفة تلحق بها مهارات خاصّة، بقدر ما ينصبّ الاهتمام بها في تعبيرها الأمين عن أفكار الناس التي يتفاعلون من خلالها برموز خاصّة مع غيرهم من الناس. والأرياء في الوقت نفسه تحمل سمات وملامح البيئة التي تنتشر بين أفرادها.. هذا على سبيل المثال ما يدعوننا إلى انتقاد هذا التوجّه.

٣- إنّ هناك خلطاً واضحاً ورؤية مضطربة في تكوين أجناس متشابهة في وحدة واحدة، وهذا ما نلاحظه في ما جاء تفسيراً لموضوع التقاليد الشفاهية وأشكال التعبير الشفاهي حيث يقول المقترح: «يشمل مجال التقاليد الشفاهية وأشكال التعبير الشفاهي، مجموعة متنوّعة هائلة من الأشكال المحكيّة، منها الأمثال والفوازير والحكايات وأغاني الأطفال، وقصص البطولات والأساطير والأغاني، والقصائد الملحمية والتعويذات والصلوات والأناشيد والأغاني المسرحية أو الأداء المسرحي وغير ذلك».

٤- يلاحظ في هذا النصّ أنّ المقصود بالتعبير الشفاهي هو الأدب الشعبي أو الأدب القولي الذي هو شفاهي بالقطع، مثله في ذلك مثل بقية موضوعات المأثورات الشعبية التي تتحرّك عبر الزمان والمكان ومن إنسان لإنسان بصورة شفاهية. غير أنّه في نهاية النصّ يشار إلى الأداء المسرحي بوصفه أدباً شفاهياً، إلّا أنّه في حقيقة الوجود الميداني يعدّ بوصفه فناً أدائياً يتبع موضوع فنون وتقاليد أداء العروض.

٥- أما في ما يتعلّق بموضوع الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات، فالواضح هنا عدم القدرة على فهم أنّ الاحتفالات هي من حيث أدائها في المحيط

الاجتماعي الذي تؤدي به ممارسة اجتماعية. كذلك فإن الطقوس بوصفها صيغة احتفالية تركز على فكرة أو أفكار اعتقادية شعبية كطقس الزار مثلاً. وبناء على ذلك الفهم فإن هذا التصنيف لم يتنبه لموضوع المعتقدات الشعبية، كالأفكار التي تدور حول الكائنات فوق الطبيعية، والأولياء والقديسين والتفاوت والتشائم وغيرها. وأكتفي هنا بالطقوس الاحتفالية للبعض القليل منها.

والحقيقة التي تطرحها هذه الدراسة حول هذا المقترح أنه لم يأت بإضافة حقيقة تضاف إلى علم المأثورات الشعبية وتسعى لتطوير أدواته في فهم موضوعاته، بقدر ما أربكت الرؤية المنهجية المنضبطة.

#### ٤- تصنيف هذه الدراسة:

وبناءً على كل ما سبق يجدر بهذه الدراسة أن تضع تصوورها حول موضوعات المأثورات الشعبية منطلقة في تصوورها هذا من ركائز أساسية تركز عليها، واضعة في الاعتبار أن هذا المقترح كغيره من المقترحات يظل مقترحاً خاضعاً للنقد وقابلًا للإضافة والحذف والاحلال والاستبدال، ليكون الفيصل دائماً هو الواقع الميداني وملامح حياة الناس والتغيرات التي تطرأ على تلك الحياة كاستجابة ملائمة لحاجات الناس المتغيرة. وسوف نعرض في ما يلي مرتكزات هذا التصنيف:

١- يمكن أن يضم الموضوع الرئيس الواحد موضوعين أو ثلاثة يجمع بينها قدر متوفّر من التقارب والتداخل كما هو الحال بالنسبة إلى موضوع العادات والمعتقدات والمعارف الشعبية.

٢- التأكيد على التداخل بين جميع موضوعات المأثورات الشعبية، وأن فصلها عن بعضها البعض أو ضمها في موضوع واحد يتأسس على المدى الذي تقترب به أو تبتعد.

٣- تحديد واضح لتعريف كل موضوع من موضوعات المأثورات الشعبية، الأمر الذي يسهل معه وضع ملامح مقترح التصنيف وفي ما يلي تعريف مختصر لتلك الموضوعات.

٤- الأدب الشعبي.. هو ذلك الابداع القولي الشفاهي الذي يتم إلقاءه وتداوله

بين الناس في حالة من الابداع تؤدّي إلى الاستمتاع أو التأمل. وقد يؤدّي بصورة احترافية في بعض الأحيان وهو يحمل معاني ودلالات ورموزاً تكشف عن طبيعة انشغالات الناس بالحياة التي يتعايشون معها. وعندما يغيب عن ذاكرة الناس صاحب هذا الابداع أكد ذلك على ملكيتهم له ورضاهم وقبولهم لمضامين أفكاره وهو ما يدعوهم لتبني هذا الابداع الأدبي والعمل على انتشاره في ما بينهم واستقراره واستمراره عندهم.

٥- العادات الشعبية .. هي ذلك السلوك الجماعي الذي تتفق كل جماعة على أهميّة التزام أفرادها بتنفيذه، ويلقى المقصّر في الأداء عقاباً من الجماعة، يتناسب مع مدى الجرم الذي يترتب على عدم التنفيذ. ويتخذ كل فرد مكانته بين أفراد جماعته من خلال المدى الذي يلتزم به. كما يؤكّد هذا المدى في الالتزام على رضا الفرد وقناعته وقبوله للانتساب لجماعته. كما أنّ العادة الشعبية تركز على تراث يغذيها ويؤكّد على حاجة أفراد الجماعة إليها من خلال الوظائف التي تؤديها لهم. كما أنّ العادة تسعى دومًا للتوافق مع طبيعة الزمان الذي تتحرّك فيه، والمكان الذي تتحرّك إليه، والبشر الذين تتحرّك بينهم.

٦- المعتقدات الشعبيّة .. هي الأفكار والتصورات والمفاهيم التي تنتشر بين الناس، وتختفي في صدورهم، ويؤدّي الخيال الفردي دوراً هاماً في صياغتها وفي حدتها عند كل فرد من أفراد الجماعة. وهي تنتشر انتشاراً واسعاً بين جميع المجتمعات البشرية تلبية للاحتياجات المشتركة بين البشر، من خلال وحدة الاحتياج البشري. غير أنّها تتخذ صوراً تناسب مع الظروف المحيطة بكل جماعة.

٧- المعارف الشعبيّة .. تنطلق المعرفة الشعبيّة عند كل جماعة إنسانية من خلال التجارب والخبرات الحياتية التي تدعو كل جماعة للاستمسك بتلك الخبرات الحياتية، والعمل من خلالها على تسيير أمور الحياة وتسييرها، وتجاوز معوقاتها.

٨- فنون الأداء الشعبي (الرقص - الموسيقى - الدراما) .. هي تلك الصيغ الابداعية الفنية التي يؤدّيها فرد أو جماعة، وتخلق قدراً ملائماً من متعة الأداء والاستجابة، وقد تحتاج وسيطاً تؤدّي من خلاله، ويتمّ أدائها غالباً في مناسبات احتفالية تدعوها إلى الوجود.

٩- فنون التشكيل الشعبي.. هي تلك الفنون الزخرفية والتصويرية التي تعبر عن رموز ودلالات تسعى الجماعة من خلالها على بث مفاهيم بعينها لأفرادها ولغيرهم، وتتخذ صوراً مختلفة من خلال خامات أدائها ووسائط ظهورها، وهي تعبر عن أفكار مبدعيها التي لا تبتعد بأي حال عن إرادة وقبول مستقبليها ومستخدميها.

١٠- الثقافة المادية.. هي كل ما تراه العين وتلمسه اليد، ويؤدي وظائف حياتية ملحة عند أفراد كل جماعة، وقد يقوم أفراد المجتمع بتصنيعها من واقع خبرتهم، أو يقوم على تجهيزها محترفون في أدائها وصناعتها، وتأتي شعبيتها من خلال تداول استخدامها.

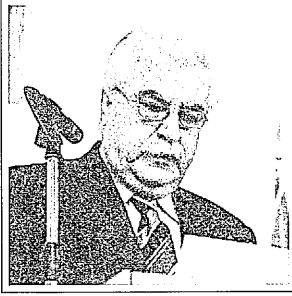
ومن واقع كل ما سبق فإن هذه الدراسة تقترح أن تنحصر موضوعات المأثورات الشعبية في هذا التصنيف المقترح، والذي يتبع كل موضوع من تلك الموضوعات مفردات تفصيلية عديدة.. وفي ما يلي عرض لها:

- الأدب الشعبي
- العادات والمعتقدات والمعارف الشعبية
- فنون الأداء الشعبي (الرقص - الموسيقى - الدراما)
- فنون التشكيل الشعبي والثقافة المادية

وبعد، فإن هذه الدراسة تدعو الباحثين والمهتمين والمهمومين بهذا المجال العلمي، للتأمل الموضوعي لفكرة إنشاء المراصد الفولكلورية، بوصفها توجهاً وطنياً يتخذ من العلم وسيلة يمكن بها الكشف عن ملامح الهوية للشعوب العربية.

## الهـرـاجـع

- الجوهري؛ محمد، ٢٠٠٠: علم الفولكلور، الجزء الأول، دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب التاسع عشر، الطبعة الثالثة، القاهرة.
- إدوراد وليم؛ لين، ١٩٩٨: المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر نور، الطبعة الثالثة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
- أمين؛ أحمد، ١٩٩٨: قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية، دراسة وتعليق محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- ريتشارد دورسون، ١٩٧٢: نظريات الفولكلور المعاصرة، ترجمة حسن الشامي ومحمد الجوهري، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- شعلان؛ سميح، ٢٠٠٢: الخبز في المأثورات الشعبية، دراسة في الأطالس الفولكلورية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
- شعلان؛ سميح، ٢٠٠٧: العادات والتقاليد الشعبية، المنهج والنظرية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
- شكري؛ علياء، ١٩٩٨: التراث الشعبي في المكتبة الأوروبية، الطبعة الثالثة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- صالح؛ رشدي، ١٩٧٣: الأدب الشعبي، الطبعة الثالثة، دار النهضة المصرية، القاهرة.
- عثمان؛ سعاد، والجوهري؛ محمد، ١٩٩٠: دراسات في الأنثروبولوجيا الحضارية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- المكاوي؛ علي، ١٩٨٢: المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعي، دراسة ميدانية على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط، رسالة ماجستير، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- WEISS Richard, 1946: Volkskunde der Schweiz, Zurich, pp. XVFF. PEUCKERT Will-Erick und LAOTEER Otto, 1930: Volkskunde, Quellen und Forschungen Seit. Inder Reihe: Wissenschaftliche Forschungsberichte, Geistesuissenschaftliche Reihe, Herausgegeben Von Prof. K. Hann, Bd. 14, Bern.



## لباس المرأة

### من التقليد الاجتماعي إلى التعبير عن الهوية

د. عاطف عطية<sup>(١)</sup>

#### ملخص

تبحث هذه الورقة في ظاهرة اللباس في ثباته وتغيره باعتباره من جملة العناصر التي تشكل التقاليد والعادات الاجتماعية في المجتمع اللبناني.

واللباس، كعنصر أساس من الأزياء الشعبية في أي بلد من البلدان، يخضع للتغيرات المرتبطة بالتطور الاجتماعي والاقتصادي، وخاضع لتصورات العصر ولبنية المعرفة المرتبطتين بالواقع الاجتماعي - التاريخي لكل مجتمع ولعمليات التفاعل والاختلاط المعرفيين اللذين يفتحان على عمليات تناقظ تطول مختلف مناحي الحياة. هذه التصورات والعمليات تجعل من العناصر الثقافية، ومنها عنصر اللباس، حرة في توجيهها وفي انتقالها من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر، مجاور أو بعيد. ولا يحكم هذه التوجهات إلا متانة العناصر الثقافية والقدرة على التأثير، أو تخضع لعمليات تأثر تسهم في إضعاف العناصر الثقافية غير القادرة على الثبات أو التأثير.

في حماة عمليات التفاعل هذه، يمكن للثقافة أن تستنهض عناصرها كافة للدفاع عن العناصر الثقافية الضعيفة في عمليات المواجهة للمساعدة على الثبات والاستمرار باسم الأصالة والحفاظ على الهوية، أو باسم التشريع الديني، أو باسم الحضارة التليدة.

(١) الدكتور عاطف عطية، مدير معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثالث. له مؤلفات عديدة في سوسولوجيا المعرفة والدين والسياسة.  
«Atef Attieh» atefattich@gmail.com

هنا يظهر تأثير العامل الديني في إضفاء نوع من الثبات على اللباس للمسلمات مع التساهل في النظر إلى لباس المسلم بحسب تحديد مكان العورة في الجسد؛ ومع ترك الأمر على الغارب بالنسبة إلى غير المسلمات اللواتي لا يحدّ خضوعهن للموضة إلا مقتضيات الحشمة التي تطول حدودها هنا أو تقصر هناك لارتباطها بالتقاليد والأعراف، من جهة؛ ولخضوعها لظروف المكان والزمان، من جهة ثانية.

إلا أنّ الحفاظ على ما يقتضيه التشريع الديني في مسألة اللباس لم يسلم من تغييرات العصر، ومما تفرضه الموضة باعتبارها العنصر المؤثر في ثقافة الاستهلاك. فظهرت، لذلك، أشكال متعدّدة من اللباس الذي يتفرّع من اللباس الشرعيّ من دون أن يتطابق معه، وإن حافظ على تغطية ما يريد الشرع تغطيته من جسد المرأة. ولكن التغطية هذه، جاءت على عكس ما يريده الشرع ويرتضيه. فظهرت المحبّبة في شوارع المدينة وفي الأرياف، على أشكال متعدّدة لم يحظ شكل اللباس الشرعيّ إلا بالجزء اليسير منها. واختلاط الأشكال هذا، جاء ليزيد من مواصفات أزمة الثقافة عندنا؛ الثقافة الهجينة التي تأخذ ما يبقّي على الشكل مع ركوب مركب العصرية، ومع ما يدلّ على التمسك بالهوية من الخارج، وفي الظاهر المستحدث؛ وتأثر المضمون بما تفرضه مقتضيات العصرية بوسائلها الحديثة من تكنولوجيا اتصال وإعلام، إن كان على مستوى علاقة المرأة مع جسدها أو مع الرجل..

هنا يمكن التساؤل: كيف يمكن الكلام على متحف لباس المدني باعتبارها فولكلوراً، وهو ما يزال متداولاً في حياتنا اليومية، وبمفعول رجعيّ استبدل الحجاب بالنقاب اجتهاداً في تلبية الواجب الشرعيّ؟ كيف يمكن جعل اللباس حاجة مجتمعية وعنصرًا ثقافيًا متنوعًا في إطار الوحدة وبعيدًا عن الوجهة الأيديولوجية؟

## مقدمة

البحث في ظاهرة اللباس عند المرأة، في ثباته وتغيّره، يتناول في الدرجة الأولى العلاقة بين المجتمع والدين؛ المجتمع باعتباره مصدر العادات والتقاليد التي تعبّر عنها تجليات متعدّدة في السلوك اليوميّ، وفي ممارسة الحياة العمليّة، ومنها ظاهرة اللباس وتغيّراته المرتبطة بظروف العصر، وباعتبارات المكان والزمان؛ والدين باعتباره يفرض أشكالاً متعدّدة في اللباس، على المرأة التقيّد بها، ومنذ بدء التكليف؛ وهي الأشكال التي تدخل ضمن محدّدات اللباس الشرعي الذي يطول تغطية الرأس وكامل الجسد مع إظهار الوجه والكفّين، وإن كان ثمة اجتهادات تتجاوز ذلك إلى تغطية الوجه بالكامل مع أجزاء الجسد كافة بحيث لا يظهر منه شيء. في هذا المبدأ الشرعيّ، لا إمكان للتغيير. فيدخل، لذلك، إطار الثبات الشرعيّ.

## الضرورة المجتمعية

اللباس، مجتمعيًا، يدخل في عملية تغيير مستمرة، وإن كان يتعرّض هذا التغيير لعمليات مقاومة، تشتدّ وترتخي، عند كلّ جديد، وعند كلّ مفترق. فيحتلّ ما هو جديد مكانًا له، أولًا؛ ومن ثمّ، يتوسّع على حساب ما كان قبله. وينتظر بالتالي إخلاء مكانه لما سيأتي، وهكذا... الجديد مكان القديم مع بعض من الرفض والتذمّر والشكوى إلى الله من الغضب الآتي، ثم التسليم بما هو مفروض مع توقّع جديد آخر، ومع التسليم الذي لا بدّ له بإمكانات التغيير.

في مواجهة هذا التغيير، يستعمل المجتمع مفاهيمه الخاصّة للتعبير عن مخالفة التقاليد والعادات والأعراف المتعلّقة باللباس. من هذه المفاهيم، العيب، والفلتان على حلّ الشعر، وغيرها، مقابل مفهوم الحرام المستعمل للتدليل على كلّ ما يخالف الشرع ويتجاوزّه. ومقياس الحرام ثابت بثبات القواعد الشرعيّة في اللباس. أمّا مقياس العيب فنسبيّ على قدر نسبة العادات والتقاليد. وبما أنّ العادات والتقاليد متغيّرة بتغيّر الظروف والأحوال، فإنّ مقياسها متغيّر بتغيّرها. وبالتالي، العيب متغيّر مقابل ثبات الحرام. العيب متغيّر بتغيّر أحوال المجتمع بديناميّته المستمرة، والحرام ثابت بثبات الشرع المرتبط بالعقيدة الدينيّة، من ناحية؛ وبنظرة الفقهاء ذات الأساس الثابت في استنباط الاحكام الشرعيّة من الدين، من جهة ثانية.

## الالتزام واللباس

تنظر هذه الورقة إلى الحجاب باعتباره تكليفًا شرعيًا، كما تنظر إلى لباس المرأة الشرعيّ باعتباره أيضًا، تكليفًا شرعيًا. ولا حاجة هنا إلى الدخول في مناقشة هذا الأمر. وتعامل معه على أنّه واجب شرعيّ لتتوصّل إلى معرفة كيفية التعامل مع هذا الواجب مجتمعيًا. كما تحاول أن تظهر المؤثرات المجتمعية وعمليات التثاقف والاختلاط وضغوط وسائل الاعلام والتكنولوجيا والاتّصالات الحديثة على لباس المرأة وأشكاله وأنواعه والأجزاء المتممة له من أنواع الزينة وصنوف التبرّج. وبمعنى آخر، تحاول أن تظهر التجليات المنبثقة من العلاقة بين التغيّرات المجتمعية وما هو ثابت دينيًا، في كلّ ما يتعلّق بلباس المرأة؛ وهو اللباس الذي عليها أن تلبسه بما يجعلها:

- إمّا أن تكون ملتزمة بالشرع فتلبس ما يرتضيه؛



- وإما أن تتبع أزياء العصر فتخالف الشرع؛  
 - وإما أن توفق بين مقتضيات الموضة والالتزام الشرعيّ.  
 وعلى هذه الاعتبارات الثلاثة، ثمة من تلتزم، و ثمة من تخالف، و ثمة من تجدد نفسها في المساحة الممتدة بين الالتزام والمخالفة لتتقدم، بذلك، مشهداً شرعياً مطعماً بالعصرنة، ظهر على شكل تغيّرات في أشكال الحجاب وألوانه، وفي أشكال اللباس وأنواعه أظهر أكثر مما عليه أن يخفي، وقدّم للمشاهد أكثر مما يرضيه الشرع، وأفرغ المعنى العام للحجاب واللباس الذي توّسل الشرع إبلاغه، وهو إخفاء مكان من الفتنة، وإفراغ المشهد الذي يمكن أن تكون عليه المرأة من أيّ نوع من أنواع الإثارة مخافة إيقاظ الشهوة، واجتهاداً في إخفائها.

## الثقافة واللباس

من نافل القول، هنا، التأكيد على أنّ اللباس عنصر أساس في ثقافة أيّ بلد من البلدان. وباعتباره كذلك، فهو يخضع للتغيّرات التي يفرضها التطوّر الاجتماعيّ - الاقتصاديّ في أيّ مجتمع. لذلك حافظ الإسلام على الطراز العام الخاص باللباس الذي كان سائداً في الجاهليّة الوثنيّة، وإن أدخل عليه بعض التعديلات مراعاة للاعتبارات الدينيّة المستجدة. وفي زمن الفتوحات وجد العرب أنفسهم وجهاً لوجه مع أغلبيّة غير عربيّة بحضاراتها المتباينة ونظم لباسها المختلفة<sup>(٢)</sup>. من هنا، ومع التفاعل الثقافيّ الذي نشط مع ظهور الإسلام وانتشاره، صار للإسلام زيّه، ومنذ عقود الأولى؛ وهو الزيّ الذي كان، وما يزال، يتأثر بتطوّرات العصر وبنبته المعرفيّة العامّة المرتبطتين بالواقع الاجتماعيّ التاريخيّ لكلّ مجتمع، ولعمليّات التفاعل والاختلاط المعرفيين اللذين يؤثران ويتأثران بعمليّات الثقافة التي تطول مختلف مناحي الحياة. وتجعل من العناصر الثقافيّة، ومنها عنصر اللباس، حرّة في توجّهها وفي انتقالها من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر، مجاور أو بعيد. ولا يحكم هذه التوجّهات إلاّ متانة العناصر الثقافيّة وقدرتها على التأثير، أو هشاشتها وعدم تماسكها فتخضع لعمليّات تأثر تسهم في إضعاف العناصر الثقافيّة غير القادرة على الثبات أو التأثير. لذلك انطلق الإسلام من تنويعات في اللباس، وحتىّ اختلافات في بلاد المغرب

والأندلس. إلاّ أنّها انتهت جميعاً لصالح الزيّ الإسلاميّ، أو ما يسمّى إيديولوجيا اللباس الإسلاميّ، على حدّ تعبير ي. ستيلمان، وهي الإيديولوجيا التي أطلق عليها رولان بارت اسم "منظومة الألبسة"<sup>(٣)</sup>.

في حمأة عمليّات التفاعل هذه، يمكن للحضارة، وهنا الحضارة العربيّة الإسلاميّة، أن تستنهض عناصرها كافة، ومنها العنصر الدينيّ، للدفاع عن العناصر الثقافيّة الضعيفة في عمليّات المواجهة للمساعدة على الثبات، والاستمرار باسم الأصالة والحفاظ على الهوية، وباسم التشريع الدينيّ، أو باسم الحضارة التليدة.. أو للتأكيد على العلاقة الإيجابيّة بين الزي باعتبارها شرعيّاً، من ناحية؛ وحامياً لمن ترتديه في عصر طغت عليه المادّة، وكثر فيه الاختلاط، من ناحية ثانية؛ أو لعدم التعارض بين الحجاب والعمل وحرية الحركة خارج المنزل<sup>(٤)</sup>، من ناحية ثالثة.

هنا يظهر تأثير العامل الدينيّ في إضفاء نوع من الثبات على لباس المسلمات مع التساهل في النظر إلى لباس المسلم، ذكراً كان أو أنثى، بحسب تحديد مكان العورة في الجسد؛ ومع ترك الأمر على الغارب بالنسبة إلى غير المسلمات اللواتي لا يحدّ خضوعهن للموضة إلاّ مقتضيات الحشمة التي تطول حدودها هنا، أو تقصر هناك لارتباطها بالتقاليد والأعراف والعادات، من جهة؛ ولخضوعها لظروف المكان والزمان، من جهة ثانية؛ ولعلاقة كلّ ذلك، في حال المخالفة، وفي أيّ محطة من محطات المخالفة، بمفهوم العيب. إلاّ أنّ هذا التخصيص لم تحظ به المرأة غير المسلمة إلاّ في العصور الحديثة، أي منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. إذ إنّها كانت تخضع، وخصوصاً في عهد المماليك والعثمانيين، لمعايير اللباس نفسها التي كانت تخضع لها المرأة المسلمة حسب ما يقتضيه الشرع الإسلاميّ، وحسب ظروف العصر ومقتضياته المجتمعيّة<sup>(٥)</sup>.

وإذا كانت معايير اللباس الشرعيّ مطبّقة على جميع النساء، فإنّ الحرص على تمييز المسلمات عن غيرهن كان سائداً. بموجب قانون "الغيار" الذي كان يفرض على غير المسلمات ارتداء ألبسة ذات ألوان محدّدة بالإضافة إلى بعض المتمّمات (الأكسسوارات)

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥.

(٤) أنظر لأهميّة الحجاب في حماية المرأة، حنان ضيا، ٢٠٠٥: الحجاب الجديد ودلالاته الرمزيّة، دبلوم دراسات عليا في الانترنت بولوجيا، معهد العلوم الاجتماعيّة، بيروت، ص ٨٢؛ ١٠٤؛ والتجامل لتحسين الوضع، ص ١٠٥؛ والتوفيق بين التحجّب والعمل، ص ١٠٣.

(٥) يوسف جميل نعيمة، مجتمع مدينة دمشق، الجزء الثاني، دار طلاس، دمشق، ص ٦٤.

التي ترمز إلى دين بعينه<sup>(٦)</sup>. والحقّ أنّ هذا التمييز ما كان ليحصل لولا الغزو الغربيّ لبلاد المسلمين<sup>(٧)</sup>، ولولا الفوضى وعدم الاستقرار الناشئين عن الحروب مع الجوار غير المسلم. وكثيراً ما كان يضمحلّ هذا التمييز، ويصل إلى حدّ الاختفاء في أيام الهدوء والاستقرار، وخصوصاً لدى المقتدرين الذين كانوا يشتركون في التمييز بالمال من الولاة والمتنفذين<sup>(٨)</sup>. ما يعني أنّ جلّ طموح غير المسلمين هو الاقتداء بسلوك المسلمين على الأوجه كافة، ومنها وجه اللباس لأنهم كانوا يعتبرون أن ما يفرض عليهم من ملابس كان إهانة لهم<sup>(٩)</sup>، عليهم إزالتها بشتّى الطرق ليماثلوا مع غيرهم من المسلمين لا ليزيدوا في الابتعاد عنهم. إلا أنّ هذا الوضع بدأ بالتحوّل مع نهاية القرن التاسع عشر نتيجة لتأثير الامتيازات الأجنبية ونظام الملل العثمانيّ اللذين أعطيا للدول الأوروبية حقّ التدخّل في شؤون السلطنة العثمانية والتصرّف بحريّة مع رعاياها غير المسلمين<sup>(١٠)</sup>. وصل هذا الأمر إلى تخلي غير المسلمين عن اللباس الخاص بهم، وبدأوا يقلّدون اللباس الأوروبيّ، ويرتدون الألبسة الخاصّة بهم من دون التقيّد باللباس الشرعيّ الإسلاميّ، وإن كان قد شكّل هذا اللباس في الماضي، وبالنسبة إليهم، ذروة الطموح إلى ارتدائه. إلا أنّ توفّر البديل، مع تراخي رقابة الدولة، أبدل طموح التماثل مع أزياء المسلمين والمسلمات إلى طموح التماثل مع أزياء الأوروبيين ذكوراً وإناثاً.

ما يمكن استنتاجه ممّا تقدّم، أنّ الألبسة، والأزياء بشكل عام، تنتمي إلى حقل يتجاوز الفرض الشرعيّ، بل يمكن اعتبار الفرض الشرعيّ متماشياً مع الحقل المجتمعيّ ومعبراً عنه، وباعتباره لاحقاً للمجمعيّ، وليس العكس. لذلك فهي مرتبطة، أي الأزياء والألبسة، بالتقليد الاجتماعيّ والعادات والأعراف. وهذا ما يكون مشتركاً بين جميع الناس، بصرف النظر عن الانتماء الدينيّ. وهذا، أيضاً، ما فرض قانون "الغيار" الذي لم يستطع أن يميّز بين ألبسة المسلمين وغيرهم إلا بالألوان.

(٦) نعيمة، المرجع نفسه، ص ٦٢٤-٦٢٥.

(٧) أنظر للتفصيل:

ستلمان، تاريخ الأزياء العربية، مذكور سابقاً، ص ١٥١-١٥٤.

(٨) أنظر في هذا الخصوص:

نعيمة، ١٨٣٠-١٨٥٦: مجتمع مدينة دمشق، مذكور سابقاً، ص ٦٢٥-٦٢٦. "ورفعت القيود عنهم في عهد إبراهيم باشا المصري، وأعلنت المساواة التامة في تنظيمات السلطان عبد المجيد". المرجع نفسه، ص ٦٢٨.

(٩) ستلمان، تاريخ الأزياء العربية، مذكور سابقاً، ص ١٦٧.

(١٠) للتفصيل حول نظام الملل العثمانيّ والامتيازات الأجنبية، أنظر:

مسعود ضاهر، ٢٠٠٩: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية في لبنان، ١٦٩٧-١٨٦١، الطبعة الرابعة، دار الفارابي، بيروت، ص ٢٨٣-٣٠٥، ٣٣٧-٣٥١.

## التشريع الديني والموضة

وإذا كان لتأثير العامل الديني مكانه الراسخ في عملية تحديد أشكال اللباس ومدى ملاءمته لما يتطلبه الشرع، فلا بدّ من تحديد ما جاء به الشرع في هذا المجال لمقارنته مع ما ترتديه المرأة في الممارسة اليومية وفي سلوكها العمليّ.

في سؤال عن حكم الحجاب وما هي أوصافه، يمهد المفتي يوسف القرضاوي بقوله إنّ المجتمع الإسلاميّ... «يقوم على رعاية الفضيلة والعفاف والتصوّن في العلاقة بين الرجل والمرأة ومقاومة الإباحية والتحليل والانطلاق وراء الشهوات». ومن أجل سدّ الذرائع إلى الفساد وإغلاق الأبواب التي تهبّ فيها رياح الفتنة كالحلوة والتبرّج، يكون اللباس الشرعيّ هو الذي يجمع الأوصاف التالية؛

- أن يغطّي جميع الجسم عدا ما استثناه القرآن الكريم في قوله: «... إلا ما ظهر منها»؛

- ألا يشف الثوب ويصف ما تحته؛

- ألا يحدّد أجزاء الجسم ويبرز مفاتنه، وإن لم يكن رقيقاً شفافاً؛

- ألا يكون لباساً يختصّ به الرجال.

ويتابع الشيخ القرضاوي قوله: «ومن فضل الله أن هناك مسلمين ومسلمات يقفون صامدين أمام الغزو الزاحف، يلتزمون آداب الإسلام في اللباس والحشمة ويتمسّكون بدينهم، ويتعاليمه القويمة، سائلين الله عزّ وجلّ أن يكثر هؤلاء ويزدادوا ليكونوا قدوات صالحة في مجتمعاتهم، ورمزاً حيّاً لآداب الإسلام وأخلاقه ومعاملاته»<sup>(١١)</sup>.

تستبطن هذه الفتوى الخطورة التي يتعرّض لها اللباس الشرعيّ كما يقرّه الإسلام، وتظهر أثر عمليّة التناقف في تغيير وجهة اللباس لدى المسلمين والمسلمات إلى غير وجهته الشرعيّة. وإذا أفتى المفتي القرضاوي، رئيس الاتّحاد العالميّ لعلماء المسلمين، بإظهار الوجه والكفين، فإنّ الشيخ محمد صالح المنجد، يعتبر أنّ «زيّ المرأة الشرعيّ هو الذي يغطّي رأسها ووجهها وجسمها كاملاً». والحجاب الشرعيّ هو حجب المرأة ما يحرم عليها إظهاره أي: سترها ما يجب عليها ستره، وأولى ذلك وأوله: ستر الوجه؛ «لأنّه محلّ

الفتنة ومحلّ الرغبة“. ويستند في قوله هذا إلى فتاوى قدمها الشيخ صالح الفوزان: «الصحيح الذي تدلّ عليه الأدلة: أنّ وجه المرأة من العورة التي يجب سترها، بل هو أشدّ المواضع الفاتنة في جسمها؛ لأنّ الأبصار أكثر ما توجه إلى الوجه. فالوجه أعظم عورة في المرأة»<sup>(١٢)</sup>.

وعلى أيّ حال، يعتمد المفتون في فتاويهم على الآية: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن»<sup>(١٣)</sup>.

ويقول الشيخ علي جمعة محمد في جواب عن بيان الحكم الشرعيّ في الحجاب، إنّ حجاب المرأة المسلمة فرض على كلّ من بلغن سنّ التكليف، وهو السنّ الذي ترى فيه الأنثى الحيض. وهذا الحكم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. ويستند علي جمعة، بالإضافة إلى الآية السابقة، إلى الآية التي تقول: «يا أيّها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهن»<sup>(١٤)</sup>.

أمّا بالنسبة إلى لبس المرأة للبنطلون فلا يجوز، حسب أحد المفتين، «لا يجوز للمرأة لبس ما يصف جسمها لضيقه، أو رفته؛ لما في ذلك من الفتنة للرجال، والقدوة السيئة للنساء». وينبه على أنّ البنطلون (الجينز) و«التي شيرت» من ملابس الإثارة والإغراء، لأنّها تحدّد حجم الأعضاء وتستر ما فيها من عيوب؛ ولذا لا يجوز للمرأة لبسها إلّا على سبيل الإغراء والإرضاء لزوجها فقط. وليس لها أن تبدو بها أمام الرجال أو النساء ولما في ذلك التبرّج والفتنة وهتك الحياء<sup>(١٥)</sup>.

لم تكن الاستجابة لدواعي الموضة حكراً على التفاعل الثقافيّ مع الغرب الأوروبيّ في العصور الحديثة، بل كانت موجودة منذ وجود الأزياء. والرقابة على الأزياء، لتبقى ضمن ما يحدده الشرع كانت الشغل الشاغل للفقهاء منذ أزمنة قديمة. ففي القرن الرابع عشر الميلاديّ كانت ألبسة النساء تستجيب لدواعي الموضة بحيث ارتفعت حواف الأكمام إلى ما دون المرفقين ما استدعى تدخّل القاضي ابن الحاج بالتنديد والشجب<sup>(١٦)</sup>.

(١٢) هل يشترط لبس المرأة للثياب، ELShabab.com

(١٣) سورة النور ٣١.

(١٤) سورة الأحزاب ٥٩.

(١٥) Elshabab.com

(١٦) سنيلمان، تاريخ الأزياء العربية، مذكور سابقاً، ص ١١٦.

وكانت تتعرض من تلبس القميص ذات الأكمام الفضفاضة للعقاب<sup>(١٧)</sup>. كما ظهر التأثير بالموضة الوافدة من خلال تنوع أغطية الرأس من الإزار والنقاب والقناع إلى اللثام والبرقع. وكان عدم ارتداء النقاب في العصور الوسطى دليلاً على عدم الاحتشام وخرق قواعد السلوك العامة<sup>(١٨)</sup>.

من هذه الفتاوى جميعاً، نلمس حرص الفقهاء على عزل المرأة، وبالتالي عزل الفتنة. ولم يأت الزي، حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية إلا للقيام بهذه الوظيفة. ولكن، وكما نستشف من إحدى الفتاوى السابقة أنّ للمرأة الحق في أن تلبس ما تشاء لإرضاء زوجها. ونجد أنّ اللباس لدى المرأة له وظيفتان؛ الأولى، خارجية تتعلق بحجب الفتنة كلياً عن كل من حولها، وجزئياً عن محارمها؛ والثانية، الإباحة الكلية المفتوحة على كل الاحتمالات أمام زوجها، وزوجها فقط. وهنا، يتحوّل الثبات في لباس المرأة الشرعيّ أمام الخارج إلى النسبية في العلاقة مع الداخل، وداخل العلاقات الزوجية تحديداً. ويعود التقاطع في النسبية يظهر بين ما يقرّه الشرع، وما يسلم به المجتمع، وإن كان ما يقرّه المجتمع بين الموافق عليه اجتماعياً والمعيب، يتحوّل إلى ما يقرّه الدين من صنوف الحلال والحرام ليس على مستوى العلاقات مع الخارج فحسب، بل أيضاً، على المستوى الداخلي في العلاقة بين الزوج والزوجة.

## اللباس بين الديني والديني

إذا كان لباس المرأة الشرعيّ فرضاً على المسلمة باعتباره شرعة إلهية وتقيداً بسنة الرسول وإجماع الأمة، فإنّ الالتزام بهما (الفرض والوصية) أو عدم الالتزام، تصرّف إنسانيّ تجاه ما هو إلهيّ أو مقدّس.

وهنا لا بدّ من التساؤل عن كيفية الالتزام أو عدمه؟ وعن العوامل المؤثرة في عملية الالتزام أو عدمه؟

لا شكّ في أنّ المسلمة التي عليها أن تستجيب لمتطلبات الشرع في كلّ ما يتعلق باللباس تعيش في زمن ما وفي مكان ما. والزمان والمكان يخضعان لعوامل محدّدة، كما يؤثّران في عوامل أخرى. فالتطور الاجتماعي والاقتصادي، ومستوى التعليم، والنظرة إلى الدين،

(١٧) المرجع نفسه، ص ١١٥.

(١٨) أنظر في هذا الخصوص للتفصيل:

المرجع نفسه، ص ١١٨-١٢٠، ص ٢٠٠.

ودور العقل في هذه النظرة، وتحديد الأولويات المعرفية، تؤدّي دورها في تحديد أنواع السلوك الإنساني، وفي ممارسة الحياة العملية، ومنها مسألة اللباس. ومن المهم، هنا، التأكيد على أنّ التقاليد الاجتماعية المتلائمة مع الأوامر الدينية تسهّل عمليّات التوافق بين ما يقرّه الدين وما يقرّه المجتمع. ويظهر ذلك من خلال تجاوز المحجّبات الرغبة بغير المحجّبات، وإن كنّ غير ملتزمات باللباس الشرعيّ. وصارت الرغبة بالمحجّبة للزواج تعادل الرغبة بغير المحجّبات إن لم ترد عنها. والمشهد الذي كان مألوفاً سابقاً، وهو مشهد الأم المحجّبة وابنتها السافرة والمتزّمة بالموضة قد خفّت وطأتها ليحلّ محلّه مشهد مغاير: إما الأم وابنتها محجّبتان، أو البنت محجّبة والأم سافرة. وهذا يدلّ على تغيّر نمط العلاقة المحتملة بين الشاب والفتاة التي التزمت الحجاب، وأبقت على كلّ شيء له علاقة بالموضة، حتّى في شكل الحجاب ولونه وطريقة وضعه، ما جعل إمكانية ابتداء جديدة تظهر في التوفيق بين مقتضيات الشرع الدينيّ وضرورات العيش في قلب العصر، وحسب مقتضيات الموضة. وإذا كان الحجاب واللباس الشرعيّان متزامنين مع أنماط محدّدة من السلوك؛ منها الفصل بين الجنسين، وتدبير أمور الزواج بين الأهل أو من هنّ مختصّات بذلك، من الخاطبة إلى اهتمامات الأهل والأقارب، فإنّ التغيّر في مظاهر الحجاب واللباس تزامناً أيضاً مع الاختلاط. فظهرت إمكانيّات متعدّدة للقاء بين الجنسين. كما أتيحت فرص لبناء علاقات تحت أنظار الأهل أو من ورائهم، أو بتجاهل منهم. وساهمت وسائل الاتّصال الحديثة وأماكن اللقاء المتاحة، وإن عن بعد، بدءاً، في تجاوز مسألة الحجاب وأشكال اللباس وما ترمزان إليه من صنوف الفصل، إلى أشكال غير مسبوقه من الوصل. وأضحت هذه المظاهر في حالات يمكن تجاوزها، أو انعدم تأثيرها لعجز في قدرتها على الحماية عند التواصل مع الآخرين، من ناحية؛ ولدخول اللباس الممّوض (على الموضة) في جملة الوسائل الموحية بالتساهل والمنفتحة على إمكانيّات اللقاء والتعارف وبناء العلاقات مع الجنس الآخر، إن كان بشكل مباشر في الأمكنة العامّة أو من خلال البلوتوث أو أرقام الهواتف أو الدخول الى عالم الفيس بوك والتويت وكلّ المنافذ المتاحة عبر الانترنت. وآخر ما يهمّ في هذا المجال معرفة الأهل أو عدم معرفتهم، طالما أنّ التواصل المباشر هو أحد الإمكانيّات الكثيرة المتاحة. وإذا حصرنا مجال الاهتمام باللباس فحسب، فإنّ من المهمّ الربط بين اللباس التقليديّ والنقيّد التام بمقتضيات الشرع. وأكثر ما يظهر هذا التلاؤم من خلال ما تقدّمه وثائق

المحكمة الشرعية حول تركات الرجال والنساء طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. تبين هذه الوثائق ما كان على مبعوث الحاكم الشرعي أن يسجل في وثائقه من الأغراض التي يتركها المتوفى أو المتوفاة، وخصوصاً ما يتعلق بوجودات المنزل والألبسة التي كان يرتديها الرجال والنساء داخل المنزل وخارجه.

هنا، كان على مبعوث المحكمة الشرعية أن يفصل الوصف في أسماء الألبسة وأنواع القماش واللون. وهذا ما يتيح لنا الاطلاع على التفاصيل الدقيقة المتعلقة بلباس المرأة والرجل على السواء. وتسمح لنا بالتعرف إلى أسماء وقطع الألبسة التي تلبسها المرأة، الظاهرة منها والمخفية. وتبين لنا أن ثمة تناغمًا وانسجامًا بين ما ظهر وما استتر من هذه الألبسة. وكلها تفصح في قناعة تامة، واعية ولا واعية، عن وظيفة اللباس ودوره في إخفاء معالم الجسم وفي الحرص على طمس كل ما يمكن أن يتميز أو يبرز منه في السكون والحركة. يساعد على ذلك تصميم أصيل يبدأ من الداخل بصدرية ذات أزرار كثيرة تمنع إبراز أي نتوءات إلى الخارج وشتان فضفاض ينتهي بزمتين متبنتين عند القدمين يمنعان انحساره من الجهتين ولو على قدر عقدة الأصبع. وبعد ذلك يأتي المتان والعباءة والزنار والقمطة والحجاب وغيرها من الألبسة التي تدخل جميعها ضمن خانة الألبسة الشرعية من حيث وظيفتها، ومن حيث استجابتها إلى ما يفرضه الشرع<sup>(١٩)</sup>.

### الثابت والمتغير في مسألة اللباس

إن الائتلاف بين ما يفرضه الشرع، وما يوصي به المجتمع في دينامية علاقاته الاجتماعية، بعاداته المتغيرة والثبات النسبي لتقاليد<sup>(٢٠)</sup>، يصل إلى المفترق الذي يبدأ فيه الحراك المجتمعي في حالة من البعد عن الأحكام الثابتة للتشريع الديني، وللأسباب التي تم ذكرها سابقًا والمتعلقة بعناصر الثقافة والاختلاط بمؤثرات غير محكومة بالتشريع الديني في ما يتعلق باللباس، وإن كانت محكومة بالعادات والتقاليد والأعراف وأمور الحشمة ومقتضيات العيب. فالمسيحيات مررن بأوقات سبقت حيث لبسن الثياب التقليدية التي

(١٩) للتفصيل حول أصناف الألبسة التي ترتديها المرأة كما ظهرت في وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، انظر: أحمد شعبان، ١٩٨٨: أدوات المنزل واللباس، مذكرة جدارة في الأثروبولوجيا، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث، طرابلس.

(٢٠) حول سهولة تغير العادات وثبات التقاليد النسبي، انظر:

عاطف عطيه، ١٩٩٢: المجتمع، الدين والتقاليد، جروس برس، طرابلس، ص ٢٤-٣٠.



لا تفرق فيها بين لباس إسلامي ولباس مسيحي، إلا في الألوان، وفي أوقات بعينها.. حتى المرأة المسيحية كانت ترتدي الحجاب الذي لا يختلف في طريقة ارتدائه عن المرأة المسلمة في الريف، وإن اختلف بعض الشيء عن حجاب المرأة المسلمة في المدينة. وما أزال أذكر، أنا المسيحي، أن جدتي كانتا تضعان حجابين، القمطة المشدودة على الرأس و«اللتمة» السوداء المشدودة تحت الذقن. ولا أذكر أنني رأيت إحداهما، أو أي امرأة من عمرهما، في القرية، بدون غطاء من هذين، أو من أحدهما، على الأقل. ولا أذكر أن خرجت والدتي من المنزل من دون غطاء على رأسها.

وإذا أصاب التغيير لباس المسيحيات لانتفاء الرادع الشرعي، ولتغير الموضة، وللتأثر بما تنشره رياح التغيير القادمة من الخارج، والقبول بما تفرضه وبما يمكن أن يُقبل من دون تخديش للعادات والتقاليد والحياء العام، ومن دون خرق للحد الفاصل بين المقبول والعيب، فإنّ هذا التغيير ما لبث أن أصاب المسلمات، إن كان في طريقة اللباس أو شكله<sup>(٢١)</sup>. فأبعده ذلك عن اللباس الشرعي في اللحظات التي ابتعد فيها الغطاء عن الرأس والنقاب عن الوجه. وتغير شكل اللباس، ما ظهر منه وما استتر، من جراء التأثر بالإعلان وبما تعرضه واجهات المحالّ من الألبسة المنتجة في أهمّ دور الأزياء العالميّة، وبما يظهر على شاشات السينما من أصناف الموضة ومن المنتجات الاستهلاكية التي تهتم المرأة والرجل على السواء. كلّ ذلك ترافق مع نمط حياة حديثة ابتعدت عمّا هو موروث. فظهر الاختلاط وبدأ تبادل الزيارات العائلية. وانفتحت النفوس على حضور الحفلات الموسيقية، والرقص في الصالات المغلقة. وبدأ الجديد يحلّ محلّ القديم في أمور الحياة كافة<sup>(٢٢)</sup>. في مقارنة سريعة بين لباس المرأة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولباسها في النصف الثاني من القرن العشرين، تبيّن أنّ الثابت الوحيد هو اللباس الشرعيّ مع بعض التعديلات التي تتناول الشكل وأنواع القطع التي تلبسها المرأة<sup>(٢٣)</sup>. فظهر الفستان ذو الأكمام الطويلة الذي يغطّي اليدين حتى الكفين، ويصل إلى ما فوق القدمين. واختفى

(٢١) حول تأثر المرأة غير المسلمة بالأزياء الأوروبية، وانتشار الألبسة الأوروبية بين المسلمات نتيجة التفاعل الثقافي بين الأوروبيين والعالم الإسلامي، بالإضافة إلى تأثير الإرساليات الأجنبية، وما لهذه الأزياء من دلالة على المكانة الاجتماعية الرفيعة للمتأثرين بها، انظر: ستيلمان، تاريخ الأزياء العربية، مذکور سابقاً، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٢٢) حول هذه التغيرات التي أصابت مدينة طرابلس منذ النصف الأوّل من القرن العشرين، انظر الرواية المتعنة: خالد زيادة، ١٩٩٥: حارات الأهل، جادات اللهب، دار النهار للنشر، بيروت.

(٢٣) للمقارنة مع ألبسة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وألبسة أواخر القرن العشرين، انظر: علا الغوراني، ٢٠٠١-٢٠٠٢: الزبي والزينة بين الأمس واليوم، مذكرة جدارية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث، طرابلس.

الشتان ذي الزمات حول الكاحلين ليحلّ محلّه السروال الطويل الواصل إلى الركبتين مع بدايات في تصغير مساحته حتّى وصل إلى أضيّق رقعة ممكنة مع تقدّم الزمن وتأثير الموضة<sup>(٢٤)</sup>. وظهرت التنورة والكنزة والمعطف بدل المتان والعباءة.

وبان شعر الرأس بألوانه المتغيرة وأشكاله المصقّفة بدل الحجاب. ومن ثمّ جاء البنطال الفضفاض والضيّق والملتصق بالجسم ليستنفر حماة السلوك الشرعيّ دعا هؤلاء إلى تحريم ارتدائه وذكروا بأنّ هذه التغييرات حرام وتدعو إلى الفحش وارتكاب المعاصي.

ما تغيّر في شكل اللباس وفي وجهته، ترافق، على اختلاف بين، مع اللباس الشرعيّ من دون أن يخلي أي منهما المجال الكامل لمصلحة الآخر. وكان هذا الوضع واضح التأثير بالعوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... والدينية أيضاً. والتأثير هذا، وفي المجتمع الأبويّ التقليديّ والمستحدث<sup>(٢٥)</sup>، يظهر أكثر ما يظهر في سلوك المرأة وفي أشكال لباسها، إمّا افتتاحت نتيجة التطوّرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية واستثارتها بالأولوية في مسار التقدّم العام؛ ولنا في قاسم أمين وكتابه تحرير المرأة وقوله إنّ بدء تحرّرها يُستهلّ بنزع الحجاب<sup>(٢٦)</sup>، ونشاط هدى شعراوي، أبرز الأمثلة على ذلك؛ أو عودة إلى سير السلف الصالح والى الأصول واستئناف النهوض حسب ما يقول الدين، فيحظى السلوك الدينيّ بالأولوية ويطغى ما يقرّه الدين وما يقوله الشرع على أيّ شيء آخر.

## مقتضيات العصر وضغوط الموضة

من المهمّ التأكيد، هنا، أنّ الحفاظ على ما يقتضيه التشريع الدينيّ في مسألة اللباس لا يسلم من تغييرات العصر ومن ضرورات الموضة. فالتشريع الدينيّ يحكم بما هو ثابت على ما هو متغيّر. واللباس ضرورة اجتماعية متغيرة، ومتأثرة بظروف إنسانية متعدّدة العناصر، كما هي متأثرة، في الوقت نفسه، بمقتضيات الشرع الدينيّ، من ناحية؛ وضغوطات التقاليد والعادات، من ناحية ثانية. فيظهر المشهد التالي: ثقافة العصر المتميّزة بالاستهلاك، الإعلام

(٢٤) تقول ستيلمان في هذا الخصوص إنّ عملية التغيير شملت الأبواب الداخلية والخارجية مع بعض التوفيق بين مقتضيات التقليد وعناصر الحداثة. إلا أنّ ذلك لم يشمل بلدان العالم العربيّ إلا منذ فترة قصيرة. أنظر:

ستيلمان، تاريخ الأزياء العربية، مذكور سابقاً، ص ٢١١.

(٢٥) للتفصيل حول خصائص ومميزات المجتمع الأبويّ التقليديّ والمستحدث، أنظر:

هشام شرابي، ٢٠٠٤: المجتمع الأبوي، دار نلسن، الطبعة الرابعة، بيروت، السويد، ص ٢٣-٤٥.

(٢٦) أنظر في هذا الخصوص:

قاسم أمين، ١٨٩٩: تحرير المرأة، مصر، طبعة ثانية، ١٩٠٥، ١٦٦ ص.

الدائم لهذا التوجّه، التّأثّر بكلّ ما هو جديد، اقتداء المغلوب بالغالب؛ مقابل السلوك المبنيّ دينياً بما لا يتعارض مع الشرع، والمتأثّر بما ترتضيه العادات والتقاليد والأعراف التي تستقي توجّهاتها من سيرورة المجتمع وضوابطه المتأثّرة بالدين وتشريعاته، وإن كان يتوسّل ضوابط التوجّه من مصادر متعدّدة لا يكون الدين إلّا واحداً منها. ويظهر ذلك في ملاحظة الفروقات بين ما يقوله الدين ويمارسه المجتمع، بين الدين الرسميّ والدين الشعبيّ، بين ما يرفضه الشرع الدينيّ وما يسكت عنه المجتمع أو يتجاهله<sup>(٢٧)</sup>.

ظهر ذلك في أوضح صورته في مسألة اللباس. لقد تداول الناس أشكالاً متعدّدة من اللباس الذي يتفرّع من اللباس الشرعيّ من دون أن يتطابق معه، وإن حافظ على تغطية ما يريد الشرع تغطيته من جسد المرأة من دون الاهتمام بعملية الستر والإخفاء. فجاءت هذه الأشكال على عكس ما يريده الشرع ويرتضيه. فظهرت المحجّبة في شوارع المدينة والأرياف على أشكال متعدّدة لم يحظ شكل اللباس الشرعيّ إلّا بالجزء اليسير منها. واختلطت الأشكال. فدخل هذا السلوك في إطار ممارسة الطقوس التي تبتعد عن الشرع الدينيّ بقدر ما تقترب من الاجتماعيّ. وظهر الدين، هنا، على أنّه وسيلة أساسية لإضفاء الشرعية على هذه الطقوس، على ما يقول نور الدين طوالب في كتابه القيم، الدين والطقوس والتغيّرات<sup>(٢٨)</sup>. وعليه، جاء اللباس الشرعيّ المطعم بالحدائث أكثر إثارة من اللباس العصريّ في أشكاله المختلفة والمحتشمة الذي ارتضته السافرات من المسلمات وغيرهنّ.

لقد ظهر في دراسة عن نوعية الملابس المفضّلة لدى عينة في بلدة مرياطة، شمال لبنان<sup>(٢٩)</sup> أنّ الأزياء المستوردة لا تتناسب مع الواقع الشرقي بنسبة ٥٤٪ من آراء الباحثين من الذكور والإناث مقابل ١٦٪ يقولون العكس و ٣٠٪ أحياناً. كما اعتبر ٧٨٪ من الباحثين أنّ تقليد الأزياء الغربيّة لا يحسّن الذوق الجماليّ. ورأي هؤلاء بالأزياء اليوم أنّها سيئة بنسبة ٤٤٪ ولا بأس بها بنسبة ٢٤٪ ومخالفة للدين بنسبة ٣٪ وجيدة بنسبة ٢٧٪. أمّا رأي هؤلاء بالموانع والمحرمات الدينيّة فقال ٤٩٪ منهم بأنهم يكتون الاحترام الكبير لها و ٤٣٪ احترامهم متوسط و ٧٪ ضعيف. وفي ما يتعلّق بقبول كلّ ما هو جديد وإن

(٢٧) حول الفرق بين الدين الرسميّ والدين الشعبيّ، أنظر:

Paul GUILLAUME, 1968: La formation de l'habitude, coll. Sup. PUF, Paris, p. 212.

(٢٨) أنظر للتفصيل حول ملوك المجتمع بما يتعارض مع الدين:

نور الدين طوالب، ١٩٨٨: الدين والطقوس والتغيّرات، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، ص ٨٧-٩٧.

(٢٩) الغوراني، الرّي والزينة، مذكور سابقاً، ص ٨٠-٨٤، ٩١-٩٩.

كان مخالفاً لما هو سائد، أجاب ٨٢٪ بالفرض المطلق و ٧٪ أحياناً و ١٪ دائماً. أما بالنسبة إلى نمط اللباس المعتمد فقد أجابت الإناث بأن ٣٩٪ منهن يرتدين البنطلون و ٢٦٪ البنطلون والتنورة مقابل ١٠٪ التنورة و ٢٠٪ العباءة (الشرعية). وفي المناسبات كان الفستان هو الغالب بنسبة ٣٩٪ والتايبور بنسبة ٢٧٪ والعباءة بنسبة ١٦٪. أما في ما يتعلق بتوزع الإناث في ارتداء البنطلون فقد صرحت ٤٧٪ منهن بارتدائه دائماً و ٢٧٪ بارتدائه أحياناً و ٢٥٪ بارتدائه نادراً. وقد صرحت ٦٧٪ منهن بأنهن نادراً ما يرتدين العباءة، وأن ٦٩٪ منهن يرتدين الحجاب، والسبب في ارتدائه ديني بنسبة ٨٩٪. هذه النسب تدل على تأثر الإناث بالموضة مع الاحتفاظ بمقتضيات الحشمة وارتداء الحجاب.

وقد صرحت ٦٧٪ من الفتيات المحجبات في البلدة نفسها، بأنهن لا يرتدين اللباس الشرعي. وأن ٣٣٪ منهن يقمن علاقات صداقة مع الذكور. و ٨٠٪ منهن يراعين اللباس الشرعي من حيث ستر الجسم. و ٥٥٪ منهن يراعين الموضة في نوع اللباس، وأن ٥٧٪ منهن يداومن على الصلاة، و ١١٪ على الصيام، و ٨٨٪ منهن يصافحن الرجال. ومنهن ٣٦٪ اطلعن على أمور الشريعة و ٦٠٪ على بعض الأمور فقط. و ٤١٪ يدعين غيرهن لارتداء الحجاب و ٤٩٪ منهن يؤيدن الاختلاط و ٧٢٪ منهن يقلن بحرية ارتداء الحجاب لمن يردن بدون ضغط أو جبر و ٤٧٪ منهن يتبرجن و ٤٩٪ منهن مع الاختلاط في المناسبات الاجتماعية<sup>(٣٠)</sup>. وقد ذكرت الباحثة في تحليلها أن تأثير المنطقة المختلطة طائفيًا كان من الأسباب الرئيسة التي جعلت النساء يتوجهن هذا التوجه.

تدل هذه الأرقام على أن ثمة فرقاً بين اعتماد اللباس الشرعي والالتزام الديني من حيث هو معرفة ووعي بشؤون الدين، وممارسة ما يتناسب مع هذا الوعي والمعرفة<sup>(٣١)</sup>. فظهر لذلك، وكأن اللباس الشرعي تعبير حسّي عن سلوك يفصح عن انتماء إلى هوية، وإلى التعبير عن هذه الهوية للتمييز، أولاً بأول، مقابل الآخر المختلف دينياً أو حضارياً، أو حتى انتماءً سياسياً. لذلك تحوّل الزي الإسلامي إلى مؤشر للتعاطف مع الحركات الإسلامية، وهو شبيه للجينز في دلالاته على الحدائث والعيش في العصر<sup>(٣٢)</sup>. إلا أن ذلك لم يمنع ملاحظة الفرق

(٣٠) أميرة حيدر، ٢٠٠٧-٢٠٠٨: الحجاب بين الالتزام والموضة، مذكرة جدارة، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث، ص ٥٧-٦٨.

(٣١) حول إحساس المحجبات بما يفرضه الدين وما يتطلبه المجتمع، وبما يجعل أمور الدين تتعايش مع متطلبات الحياة، أنظر:

أميمة عامر، ٢٠٠٣-٢٠٠٤: الحجاب عند المرأة بين النظرية والتطبيق، دبلوم دراسات عليا في علم الاجتماع، معهد العلوم الاجتماعية بيروت، ص ٧٤-٧٥.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

بين المتتميات بالهوية إلى الإسلام، على أيّ مذهب كنّ، والمتزمات دينياً اللواتي يراعيهنّ الشرع في كلّ سلوك عمليّ يمارسهنّ. كما ليس من الصعب التفريق بين المتزمات دينياً لدى الجماعة الإسلامية والمتزمات دينياً لدى التيار السلفيّ المتعدّد الفروع وملتزمات جمعية المشاريع؛ وتمييزهنّ عن المتزمات لدى حزب الله أو غيره من التنظيمات، هذا على الأقلّ في لبنان. فأصبح، لذلك، من الممكن القول أنّ تعدّد مصادر الموضة في الألبسة الحديثة تبعها تعدّد آخر في مصادر الموضة لدى المحجّبات واللابسات الألبسة الشرعيّة؛ فثمة اللباس الشرعيّ التقليديّ بالإضافة إلى اللباس الخليجيّ والماليزيّ والأندونيسيّ والشادور الإيرانيّ والأفغانيّ. كما ثمة النقاب والحجاب والألوان الداكنة والغامقة والفاخرة. بالإضافة طبعا إلى الأزياء الحديثة التي لا تختلف عن مثيلاتها إلاّ بالحجاب والأردية المتلصقة بالجسم لتكون بديلاً عن إظهار أقسام منه لا تتورّع الأزياء الحديثة عن إظهارها. وكما أنّ ثمة فرقاً في الألبسة وأشكالها وألوانها وطرق النظر إليها، كذلك ثمة فرق في النظر إلى الزينة والتبرّج انطلاقاً من مفهوم الشرع لها. فظهرت من المبحوثات في الدراسة السابقة من شبّهنّ التبرّج بالزنى، إلى جانب التصريح بعدم القدرة على الخروج من المنزل من دونه «وخاصّة مكياج العيون وذلك تماشياً مع البيئة الاجتماعية التي نعيش فيها والتي طرأ عليها تطوّر كبير في هذا المجال»<sup>(٣٣)</sup>. هذا ما يمكن وضعه في مجال التفريق بين اهتمامات الدين الرسميّ وممارسة الدين الشعبيّ، أو الفرق بين ما تفصح عنه الشريعة وما يمارسه المجتمع فعلاً.

## بين هذا وذاك

اختلاط الأشكال هذا، جاء ليزيد من مواصفات أزمة الثقافة عندنا؛ الثقافة الهجينة التي تأخذ ما يبقى على الشكل مع ركوب مركب العصرية، ومع ما يدلّ على التمسك بالهوية من الخارج، وفي الظاهر المستحدث، وتأثر المضمون بما تفرضه مقتضيات العصرية بوسائلها الحديثة من تكنولوجيا اتصال وإعلام، إن كان على مستوى علاقة المرأة مع جسدها، أو مع الرجل. وظهر الأمر في إطار التحليل وكأنّ المرأة عندنا تعيش حالات من التناقض بين التعبير عن انتمائها الدينيّ والحضاريّ باعتماد مظهر اللباس الشرعيّ وبجزء منه فحسب، وهو الحجاب، والتخليّ عن المضامين الأخرى التي تعطي للباس الشرعيّ

(٣٣) ستيلمان، تاريخ الأزياء العربية، مذكور سابقاً، ص ٢٢٠.

قيمته ودوره في ستر الجسد وإبعاد الفتنة. أمّا ما هو مستتر، أو ما ستر على غير محارمها، فهو ارتداء آخر ما صنعتته دور الأزياء الأجنبية والمحلية في أجزائها الخارجية والداخلية. وكان للأجزاء الخارجية أن تظهر، خارج إطار المحارم، إمّا على وجهها القريب من الوجه الشرعي في الشارع وفي أماكن اللقاء المختلطة والعامّة، أو على وجهها المغرق في العصرية المخالفة للشرع في الحفلات المخصّصة للنساء في مناسبات عامّة، أو على شواطئ البحر المسوّرة، وهي على آخر طراز وموضة؛ وللأجزاء الداخلية أن تظهر في المخادع الحميمة في علاقات الحلال. وإذا كانت هذه مفتوحة على رغبة الزوجين ورضاهما، فإنّ تداول الأجزاء الأولى يكون على صعيد البيت والشارع بما هو مستوحى من مقتضيات الشرع، ومن موجبات العادات والتقاليد.

فظهر، لذلك، اللباس على تنوعات من الأزياء والألبسة لا يوحد بينها إلاّ غطاء الرأس عند المحجّبات منهنّ بأشكاله المستديرة والمرفوعة، والأيدي حتّى الكفّين، مع استثناءات قليلة، على تكاثر، تحجّب الجسد كلّ بلا استثناء. بذلك، دخل الزي الإسلامي، حسب ي. ستيلمان، في إطار الموضة<sup>(٣٤)</sup>. وإذا كان لباس المرأة المسلمة، على ما تقول ستيلمان، «مجرّد موضة جديدة في عالم الأزياء وليس لها أيّ علاقة بالحجاب التقليديّ القديم، وإنّما تعدّ أزياء حديثة تأثّرت بالحجاب التقليديّ في المجتمعات الإسلاميّة إبان العهد الغابرة»<sup>(٣٥)</sup>، فإنّ هذا القول يجانب الصواب لأنّ الزي الإسلاميّ يمثّل استمراريّة الماضي في الحاضر تجسيداً لثبات القول الشرعيّ في هذا المجال، إن كان من ناحية الحجاب، أو ما يقوم مقامه، أو من ناحية ستر الجسد، وإن جاء هذا الستر مخالفاً لما قرّره الشرع في أمور الستر ووظائفه. وما يزال اللباس الشرعيّ الإسلاميّ بتنوعاته المختلفة مترامناً، في أيامنا هذه، مع سفور وكشف مناطق متفاوتة من الأجساد يطول مسلمات ومسيحيّات معاً. هذا التنوع في أشكال الألبسة، بالإضافة إلى التنفّن في إظهار تقاسيم الجسد والتبرّج، زاد من استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة بما يرضي الثقافة الاستهلاكيّة، وبما لا يرضي التشريع الدينيّ لانتفاء الوظيفة التي أعطاهها للباس، ما دفع بالقائمين على شؤون الالتزام الدينيّ إلى

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٢٢١.

(٣٥) ظهرت إعلانات في مدينة طرابلس، لبنان، تحاكي الإعلانات الحديثة نشرتها إحدى المنظّمات الإسلاميّة في المدينة فيها رسومات إناث يرتدين الزي الإسلاميّ المصري، وبأوضاع أنثويّة بارزة. ويقول الإعلان بالخطّ العريض لتسهيل قراءته، هذا ليس بحجاب. ويدعو إلى الالتزام باللباس الإسلاميّ كما يحدّده الشرع.

إلقاء المواعظ ونشر الإعلانات<sup>(٣٦)</sup> التي تعبّر عن البعد عما يرتضيه الشرع في مسألة لباس المرأة، من ناحية؛ وعن وجوب طمس كل معالم الجسد التي تخالف توجّهه، من ناحية ثانية.

### موقع اللباس في الثقافة الشعبيّة

هنا يمكن التساؤل: إذا كان من مستلزمات الثقافة الشعبيّة إحياء التراث وترسيخه في الذاكرة الشعبيّة، كيف يمكن الحديث عن متغيّرات اللباس وثوابته من دون التأكيد على أهميّة الثقافة وتأثيرها في توجّه اللباس وفي شكله وفي ما يرمز إليه. ففي زمن رسوخ الثقافة العربيّة الإسلاميّة كانت المثال الذي على بقية الثقافات أن تقتدي بها، وإن كانت هذه الثقافات تستوي في الغالب الأعمّ على العنصر الدينيّ. إلا أنّ التوجّه المجتمعيّ الجامع كان الدافع الأساس للعمل على الاندماج الثقافيّ في ما خصّ اللباس. وفي حال التحوّل انتقل موقع الغلبة إلى الثقافة الوافدة، فأثّرت في التوجّه الثقافيّ العامّ بحيث صارت الثقافة الأصليّة متأثرة بعد أن كانت مؤثرة. وتحوّل المثال إلى موقع مغاير لم يؤثر في غير المسلمين، على الأقلّ في شكل اللباس وعناصره فحسب؛ بل وصل التأثير إلى المسلمين، ذكوراً وإناثاً، فاعتمدها إمّا بالكامل، أو بأشكال هجينة لا هي بالأصيلة ولا الحديثة؛ أو رفضوها بالكامل، وعادوا بالأزياء إلى مصادرها الأوّليّة، وإن كان يجمعهم مع معتمدي الأزياء الهجينة الامتثال إلى ما يقرّه الشرع وإظهار إرادة التعبير عن الهوية. وإذا كان على الثقافة الشعبيّة أن تعمل على بناء متاحف للأزياء العربيّة باعتبارها فولكلوراً، فكيف يمكن القيام بهذه الخطوة، وهذه الأزياء في قسم كبير منها ما تزال متداولة في حياتنا اليوميّة، ومفعول سلفيّ أعاد إحياء النقاب والبرقع إلى جانب الحجاب، اجتهاداً وتوغلاً في تلبية الواجب الشرعيّ؟ وهل الزيّ الإسلاميّ، والحجاب منه بوجه خاصّ، استمرّ وما يزال مستمرّاً تلبيةً لفرض شرعيّ؟ أم تجاوز ويتجاوز ذلك إلى تلبية حاجة ثقافيّة، ومنها على الخصوص الحاجة السياسيّة، في عالم تتخبّط فيه القضايا الحضاريّة والسياسيّة والدينيّة وتوجّهات المصالح؟ وبالتالي:

كيف يمكن جعل اللباس حاجة مجتمعيّة وعنصرًا ثقافيًا متنوعًا في إطار الوحدة، داخلاً وخارجاً، وبعيداً عن الوجهة الأيديولوجيّة؟

(٣٦) ظهرت إعلانات في مدينة طرابلس، لبنان، تحاكي الإعلانات الحديثة نشرتها إحدى المنظّمات الإسلاميّة في المدينة فيها رسومات إناث يرتدين الزيّ الإسلاميّ العصري، وبأوضاع أنثويّة بارزة. ويقول الإعلان بالخطّ العريض لتسهيل قراءته، هذا ليس بحجاب. ويدعو إلى الالتزام باللباس الإسلاميّ كما يحدّده الشرع.

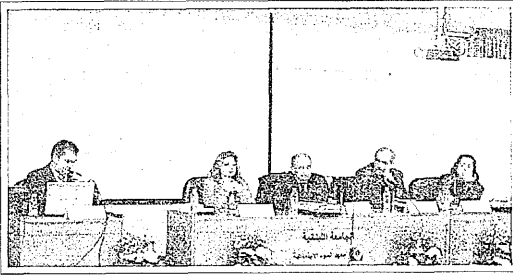
## المراجع

- القرآن الكريم، سورة النور وسورة الأحزاب.
- أمين؛ قاسم، ١٩٠٥: تحرير المرأة، الطبعة الثانية، مصر.
- جميل نعيسة؛ يوسف، ١٩٩١: مجتمع مدينة دمشق، جزءان، دار طلاس، دمشق.
- حيدر؛ أميرة، ٢٠٠٧-٢٠٠٨: الحجاب بين الالتزام والموضة، مذكرة جدارة، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث.
- زيادة؛ خالد، ١٩٩٥: حارات الأهل، جادات اللهو، دار النهار للنشر، بيروت.
- ستيلمان؛ ي.، ٢٠١١: تاريخ الأزياء العربية، ترجمة صديق محمد جوهر، منشورات كلمة، أبو ظبي.
- شعبان؛ أحمد، ١٩٨٨: أدوات المنزل واللباس، مذكرة جدارة في الأنتروبولوجيا، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث، طرابلس.
- شرابي؛ هشام، ٢٠٠٤: المجتمع الأبوي، دار نلسن، الطبعة الرابعة، بيروت، السويد.
- ضاهر؛ مسعود، ٢٠٠٩: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية في لبنان، الطبعة الرابعة، دار الفارابي، بيروت.
- ضيا؛ حنان، ٢٠٠٥: الحجاب الجديد ودلالاته الرمزية، دبلوم دراسات عليا في الأنتروبولوجيا، معهد العلوم الاجتماعية، بيروت.
- طوالي؛ نور الدين، ١٩٨٨: الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت.
- عطيه؛ عاطف، ١٩٩٢: المجتمع، الدين والتقاليد، جروس برس، طرابلس.
- عامر؛ أميمة، ٢٠٠٣-٢٠٠٤: الحجاب عند المرأة بين النظرية والتطبيق، دبلوم دراسات عليا في علم الاجتماع، معهد العلوم الاجتماعية، بيروت.
- الغوراني؛ علا، ٢٠٠١-٢٠٠٢: الزي والزينة بين الأمس واليوم، مذكرة جدارة، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الثالث، طرابلس.
- GUILLAUME Paul, 1968: La formation de l'habitude, coll. Sup. PUF, Paris.
- Elshabab.com



المحور الثاني

# مواضيع وطرائق في خدمة الرصد الثقافي



رئيس الجلسة

الدكتور ماهر مرعي  
(الجامعة اللبنانية)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

الموسيقى في بعدها الاجتماعي؛ وجه من أوجه الرصد الثقافي  
المحاضر د. هيف ياسين (الجامعة الأنطونية)

المحاضرة الثانية

الفيلم الاتنوغرافي والتسجيلات السمعية/ المرئية للثقافات بين القراءة والكتابة  
المحاضرة د. حنان غازي (الجامعة اللبنانية) قدمت عرض PowerPoint خلال المؤتمر

المحاضرة الثالثة

الوثائق ودورها في التاريخ المعاش  
المحاضرة د. سعاد سليم (جامعة البلند)

المحاضرة الرابعة

الذاكرة الجماعية، تجربة مركز إحياء التراث الوثائقي في طرابلس  
المحاضر د. عبد الغني عماد (الجامعة اللبنانية)



## الموسيقى في بعدها الاجتماعي؛ وجه من أوجه الرصد الثقافي

د. هيف ياسين<sup>(١)</sup>

### ملخص

سيتناول البحث بعض التسجيلات الموسيقية الغنائية المحلية في طرابلس؛ ليصار إلى تحليلها موسيقياً؛ ثم ربط النص الأدبي بموسيقاها؛ للوصول إلى الاجابة عن تساولين:

الأول: هل هذه الأغاني هي طرابلسية المنشأ؟ هل ملحنوها ومؤدوها هم طرابلسيون في الأساس؟

الثاني: هل أتت من جغرافيات قريية؛ ومن ثم طوّعت مع بعض الطرابلسيين بتصرف لتناسب بيئتها الاجتماعية الجديدة؟

### مقدمة

تميّزت مدينة «طرابلس» اللبنانية الشمالية تاريخياً، باحتوائها رصيلاً من الأغاني الشعبية الخاصة بها، المنظوية تحت مُسمى «الأهازيج»<sup>(٢)</sup> الشعبية من حيث قلبها

(١) دكتوراه في علم الموسيقى (موسيقولوجيا)، أستاذ محاضر في كلية التربية الجامعة اللبنانية، وفي الجامعة الأنطونية المعهد العالي للموسيقى. مدير عام ومؤسس بيت الموسيقى في جمعية النجدة الشعبية اللبنانية. باحث وموسيقى وملحن ومخترع آلة السنطور المشرقي، وله ثلاثة إصدارات: اليوم غزل ٢٠٠٨ - اليوم عشق ٢٠١١ - اليوم وكتاب بدنا نغني ٢٠١٣.

(٢) الأهازيج أو الأهزوجات ومفردها أهزوجة هي قالب موسيقى شعبيّ مغني يتألف من لازمة متكررة تتواتر بين مجموعة من المقاطع.

الموسيقيّ، والتي كانت قد لاقَت رواجًا في مختلف زوايا هذه المدينة. وقد تناوب على ترداد هذه الأهازيج الكثيرون من أبناء البلد إنانًا كانوا أم ذكورًا ولفترّة طويلة، ممن تعلموها على قاعدة المشافهة<sup>(٣)</sup> التّقليديّة المتواترة من جيل إلى جيل. لكنّ اليوم، ومع الأسف، يتوجّه هذا الإرث التاريخي، الثّقافي والاجتماعيّ الكبير للانحسار شيئًا فشيئًا لعدد من الأسباب...

يرصد هذا البحث مجموعة من «الأهزوجات» (الأهازيج) التي سُجّلت في طرابلس<sup>(٤)</sup> في مطلع التسعينات من القرن الماضي بأصوات سيّدات طرابلسيات كنّ في العقد السّابع والثّامن من عمرهنّ وما فوق، طارحًا إشكاليّة يمكن لها أن تُقارب من ثلاثة جوانب، نحدّدها كالآتي:

- هل هناك حقًا مفهوم كامل لأهزوجة طرابلسيّة بنظامها الموسيقيّ ولحنها ونصّها الأدبيّ؟
- أم هناك تماهٍ لهذه الأهازيج مع نظيراتها أخريات لها في بوتقة ثقافيّة أخرى متشابهة معها؟
- وهل هذا التّماهي هو على صعيد النّص الموسيقيّ (اللّحن) ونظامه فقط؟ أم على صعيد النّص الأدبيّ؟ أم على صعيد الاثنين معًا؟
- وللإجابة عن هذه التساؤلات، كان لا بدّ من القيام بسلسلة دراسات على أصعدّة عدّة من هذه الأهازيج الطّرابلسيّة من وجهتيّ نظر:

#### الأولى موسيقيّة تحليليّة

تشتمل على دراسة النّظام الموسيقيّ الخاصّ بها (ماهيته، مسافته، سلّمه... انطلاقًا من المقاربة المقاميّة الرّباعيّة الخاصّة بتران فان كيه<sup>(٥)</sup> وعلى تحليل ونمذجة هذا الرّصيد على قاعدة المنهجية السّيميائية المقاميّة التحليليّة الخاصّة بنداؤ أبو مراد<sup>(٦)</sup>

(٣) المشافهة هي منهجية تعليمية موسيقية تقليدية، مبنية على نقل المعرفة الموسيقية (لا سيما الرّصيد الموسيقي) من النّم إلى الأذن تلقينيًا.

(٤) تسجيل ميدانيّ قامت به مها كيال في طرابلس.

(٥) إذ ينسكل السّلم جانبا بنويًا من مقاربة المغامات. راجع:

- Tran Van, Khé, « Les « Modes » en Afrique et en Asie », in Bulletin du CEMO, No 7-8, Paris, 1971.

- MEEÛS, Nicolas, Théorie modale: Moyen Âge et Renaissance, Paris, Université Paris-Sorbonne, www.crlm.paris4.sorbonne.fr/modalite.html , 2005.

Abou Mrad, Nidaa, « La singularité stylistique de 'Abd al-Hayy Hilmī (1857-1912) », Revue des Traditions Musicales des Mondes Arabe et Méditerranéen, no 6 (2012), Baabda (Liban), Éditions de l'Université Antonine, 2012a

لإيضاح حركة الصيغة اللحنية للنص الموسيقي (اللحن)، وللوصول إلى لب هذه الألحان التي يمكن لها أن تختزل على شاكلة خطوط نووية مقامية في المستوى العميق؛

### والثانية اجتماعية وانثروبولوجية

تقوم بدراسة النص الأدبي للأهزوجة، ووزنه الموسيقي/الشعري، وموضوعه الاجتماعي، ولغته ومفرداته المستخدمة، والبيئة الاجتماعية التي تأثر بها وانبتق منها ويتوجه إليها...

وبالتالي يسمح لنا هذا التحليل، بالحصول على خلاصة الألحان المستخدمة في رصيد الأهازيج (الموجودة في البنية العميقة)، ومن ثم على قاعدة التحويلي التحويلي<sup>(٧)</sup> الخاصة بنعوم شومسكي،<sup>(٨)</sup> يمكن افتراض أن تحويل تلك البنية العميقة إلى بنى السطح يُشكل غاية «عملية التقليد» في حيز ثقافي محدد. ما يسمح بديمومة أي تقليد موسيقي معين - رصيد الأهازيج الطرابلسية على سبيل المثال - وذلك من خلال ثلاث عمليات متعاقبة هي: رصد هذه الأرصدة من جهة، ثم تحليلها من جهة ثانية، فإنتاج على غرارها انطلاقاً من المستوى العميق إلى السطح من جهة ثالثة.

## رصد الأهازيج

يعتبر غنى مدينة طرابلس برصيد الأهازيج من جهة، وتشابه هذه الأرصدة الموسيقية للأهازيج على الصعيد اللحني من جهة ثانية، أمراً يجعلنا نكتفي بدراسة وتحليل أهزوجة واحدة لتحديد الطبيعة والخواص الموسيقية والاجتماعية على حد سواء للرصيد الأهزوجي عموماً. ولهذه الغاية التحليلية اخترنا «أهزوجة ميمونة».

(٧) تمحور نظرية التحور التحويلي حول القدرة على توليد عدد غير محدود من الجمل بواسطة عدد محدود من القواعد المتكررة والتي تعمل من خلال عدد محدود من القواعد التحويلية.

قذور، ١٩٩٦، المرجع عنه، ص ٢٥٨.

(٨) راجع:

Noam Chomsky, « Studies on Semantics in Generative Grammar », The Hague: Mouton, 1972a.

<http://www.chomsky.info/books.htm>.

Noam Chomsky, « Topics in the Theory of Generative Grammar », Paris: Mouton, 1972b.

<http://www.chomsky.info/books.htm>.

## أهزوجة ميمونة

## في التحليل الموسيقي

## التدوين الموسيقي (المقطع الأول)

## القالب الموسيقي

يمتدّ غناء «ميمونة» على مدار ١٦ مقطعاً أدبياً؛ مع تكرارٍ في الصيغة اللحنية نفسها لكل المقاطع.

هذا الشكل من الغناء يندرج تحت مُسمّى «الأهزوجة» ويستخدم في التقاليد الموسيقية المشرقية العربية الشعبية، ويُعرف بأسماء عديدة أهمها «الطقطوقة» في مصر، و«القد» (القدود) في سوريا، و«البسته» في العراق، و«الأغنية» في لبنان...

## المقام

لمعرفة السلم المقامي الذي تنتمي إليه هذه الأهزوجة قمنا بواسطة برنامج «برات» بتحديد ارتفاع النغمات الأربع النسبية المتكررة هنا، والتي تسمح بتحديد الهيكلية الأساسية ومظهرها الأساسي من السلم المقامي المستخدم، وهي تباعاً نغمات:

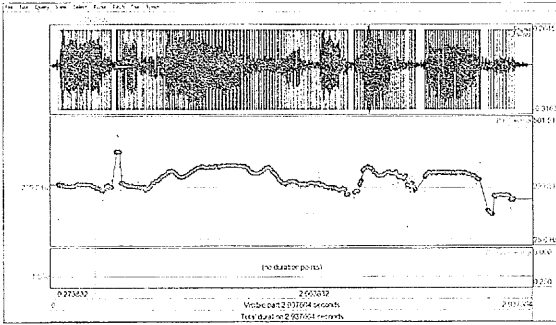
ري (Ré) - مي (Mi) - فا (Fa) - صول (Sol)، فكانت النتيجة كالآتي:

- النغمة الأولى = نغمة ري (Ré) = ارتفاعها ٢٣٩ هيرتز

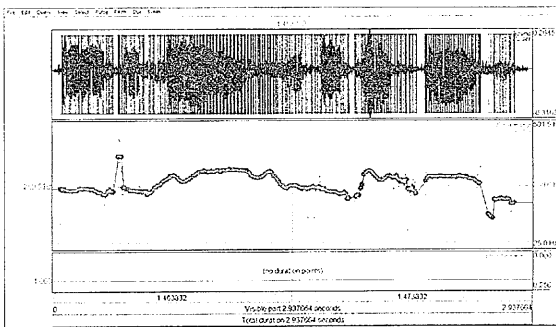
- النغمة الثانية = نغمة مي (Mi) = ارتفاعها ٢٥٩ هيرتز

- النغمة الثالثة = نغمة فا (Fa) = ارتفاعها ٢٩٧ هيرتز

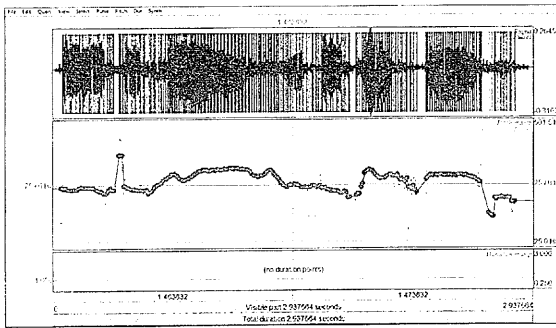
- النغمة الرابعة = نغمة صول (Sol) = ارتفاعها ٢٩٧ هيرتز



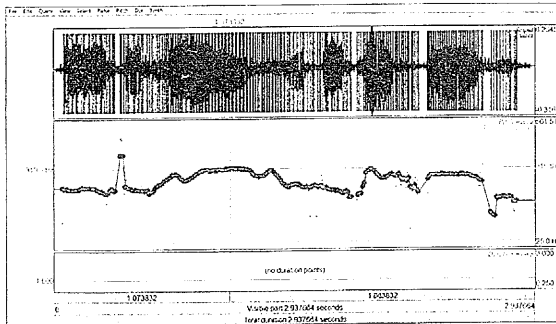
النَّغمة الأولى = نغمة ري (Ré) = ارتفاعها ٢٣٩ هيرتز



النَّغمة الثانية = نغمة مي (Mi) = ارتفاعها ٢٥٩ هيرتز



النَّغمة الثالثة = نغمة فا (Fa) = ارتفاعها ٢٩٧ هيرتز



النَّغمة الرابعة = نغمة صول (Sol) = ارتفاعها ٢٩٧ هيرتز

وبعد احتساب ارتفاع هذه التغمات الموسيقية الأربع، يمكن احتساب توالي مسافات الثنائيات المتعاقبة فيما بينها بالسنت كما يلي في الجدول أدناه:

Notes	Rapports fréquentiels des hauteurs mesurées	Valeurs logarithmiqu es des intervalles de secondes	Rapports fréquentiels des intervalles de quartes	Valeurs logarithmiqu es des intervalles de quartes
Sol	319			
Fa	297	1.07407407	123.712192	
Mi	259	1.14671615	237.0137	1.33472803 499.854967
Ré	239	1.08368201	139.129776	

أي أن قيمة المسافة الأولى بين نغمتي ري (Ré) ومي (Mi) تساوي ١٣٩ سنتاً (أي مسافة الثانية المتوسطة المخفضة قليلاً = ٢م)

وقيمة المسافة الثانية بين نغمتي مي (Mi) وفا (Fa) تساوي ٢٣٧ سنتاً (أي مسافة الثانية الكبرى المخفضة قليلاً = ٢كب)

وقيمة المسافة الثالثة بين نغمتي فا (Fa) وصول (Sol) تساوي ١٢٣ سنتاً (أي مسافة الثانية الصغيرة الكبيرة قليلاً = ٢ص)

وبناءً عليه، فإن تسلسل مسافتي الثانية المتوسطة (٢م) ومن بعدها مسافة الثانية الكبرى (٢كب) تدرجنا مباشرة في هيكلية تسمى ملونة (Chromatique)، مظهرها حجاز (٢م + ٢كب + ٢ص).

في المحصلة، تكون الصيغة اللحنية لأهزوجة «ميمونة» مبنية على سلم مقام «الحجاز» المنتمي إلى النواة الزلزلية حيث ينحدر من مقام «السيكا» برفع ثالث درجة منه مسافة ثانية صغرى أي ما يعادل ربع طنين تقريباً بحسب صفّي الدين الأموي،<sup>(٩)</sup> وممكن له أن ينتمي أيضاً إلى النواة الحماسية بحيث ينحدر من مقام «البياتي» برفع ثالث درجة منه مسافة ثانية صغيرة أي ما يعادل نصف طنين تقريباً بحسب ميخائيل مشاقفة.<sup>(١٠)</sup> وهو المقام نفسه المستخدم في أطر التقاليد الموسيقية المشرقية العربية الفنية وفي الأطر الشعبية أيضاً.

(٩) الأموي، صفّي الدين، كتاب الأدوار في الموسيقى، تحقيق وشرح غطّاس عبد الملك خشبة ومحمود أحمد الحفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

(١٠) مشاقفة، ميخائيل، الرسالة الشبانية في الصناعة الموسيقية، تحقيق وشرح: إيزيس فتح الله، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٦. مشاقفة، ميخائيل، الرسالة الشبانية في الصناعة الموسيقية، ضبط وتصحيح وتعليق: الأبّ لويس رونزال اليسوعي، نقلاً عن مجلة المشرق، بيروت، مطبعة الآباء، اليسوعيين، ١٨٩٩.



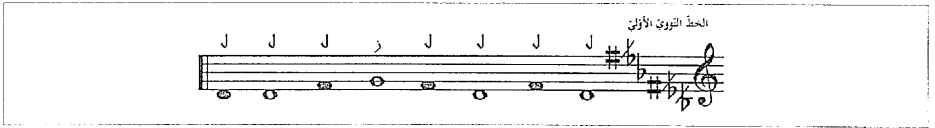




بعد حصر الصيغة اللحنية الخاصة بالأهزوجة أعلاه في ١٢ فونيمًا أوليًا، يمكن الترفع إلى المستوى الثاني من التحليل والوصول إلى مستوى المونيم، إذ يمكن لهذه الفونيمات الاثنتي عشر أن تدرج في توالٍ لـ ٨ مونيمات كما الترتيب أدناه، باعتبار أن الفونيم الأول والثاني يشكّلان المونيم الأول الجذري  $\text{ق ق}$  في حين يشكّل الفونيم الثاني عينه مع الثالث المونيم الثاني المشير إلى روي الصيغة النوية الصغرى.  $\text{ب ب}$  (ل ل ز ل ل ل ل ل).

وبالتالي يمكن إدراج هذه المونيمات الثمانية تواليًا على شكل نغمات (⊙) للجذور كونها جذرية أساسية، وعلى شكل نغمات (⊙) للزوي كونها ثانوية (قياسًا مع نظيراتها الجذور في المستوى ذاته)، فيتشكل حينها الخطّ النوي الأصغر لهذه الأهزوجة الذي يمكن أن نلاحظ تدوينه كما أدناه:

## تدوين ٢

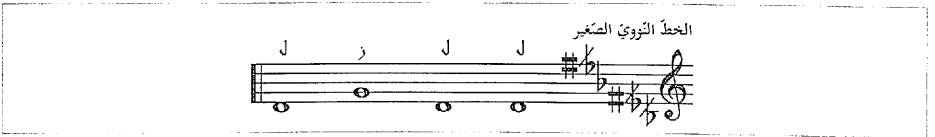


صعودًا إلى المستوى الثالث من المفصلة الثنائية المقامية (النسق المقامي)، تتجمع كلّ مونيمتين (أو ثلاث فونيمات) في سبيل تشكيل خلية واحدة ذات معنى على الصعيد النوي الصغير، وبالتالي يمكن إدراج صيغة الأهزوجة الحجازية أعلاه في تسلسل لأربع خلايا نوية متوالية كما أدناه، على اعتبار أن الفونيم الأول (النغمة الأولى في تشكيل المونيم الجذري) هو نغمة ارتكاز كلّ خلية من الخلايا الأربع:

((ل [ز] ل) (ل [ز] ل) (ز [ز] ل) (ل [ز] ل))

وبالتالي يمكن إدراج هذه الخلايا الأربع تواليًا على شكل نغمات (⊙) لتشكيل الخطّ النوي الصغير ذي التدوين المتوالي الآتي:

## تدوين ٣



تتلاحم الخلايا في ما بينها في المستوى الرابع (الجملة المقامية) لتشكّل الجملة المقامية

التووية المتوسطة، إذ يمكن اعتبار أن هذه الأزوجة الحجازية تدرج في جملة واحدة كما الترتيب أدناه، مشكلة الخطّ التووي المتوسط التالي: ((ل) (ز) (ل))  
وبالتالي يمكن إدراج هذه الجملة تواليًا لتشكيل الخطّ التووي المتوسط ذي التدوين المتوالي الآتي:

## تدوين ٤

الخطّ التووي المتوسط

صعودًا إلى المستوى الخامس (النصيّة المقامية) من التحليل، فيمكن اعتبار أن هذه الأزوجة الحجازية تتألف من نصّ موسيقيّ مقاميّ يمتد من النواة الأولى الأساسية والتي تعتبر بدورها الفونيم الأول وأو المونيم الجذريّ الأول في الخلية المقامية التووية الأولى المنتمية إلى النواة «ل»، ثم يمرّ بنواة ثانوية «ز»، ليستقرّ حكمًا على القرار في النواة الأساسية «ل» متجانسًا مع القاعدة المقامية في بناء وحركة النصوص والصيغ اللحنية، راسمًا مسار الخطّ التوويّ التالي: ((ل) (ز) (ل)).

وبسبب قصر طول لحن هذه الأزوجة، يتطابق كلّ من الخطّ التوويّ الجديد المدعوّ بالكبير والخطّ السابق المتوسط:

## تدوين ٥

الخطّ التوويّ الكبير

هذا الخطّ التوويّ الكبير يؤكّد أنّ الحركة اللحنية الكبرى في الإطار المقاميّ إمّا هي حركة تنشق من النواة الأساسية للمقام (وهنا النواة الصغيرة «ل») في بدايتها لتمرّ في نواة أخرى مختلفة (وهنا كانت النواة الزلزلية «ز») لتعود وتستقرّ حكمًا على قرار المقام النغمة الأسمى في النواة الأساسية (وهنا نغمة الدوكاه «د») في النواة «ل».

ما يسمح لنا باستنباط الخطّ التوويّ الأكبر، والمجسد للفكرة السابقة أعلاه، والذي

يعتبر بمثابة الخطّ النَّوويِّ السِّمائيِّ المقاميِّ التَّوليديِّ الأساس، للحركة اللَّحنيَّة المقاميَّة الكبرى في مجمل النَّصِّ الموسيقيِّ المقاميِّ، إذ يندرج في الثَّلاثيَّة النَّوويَّة التَّالية: (ل) [ز] (ل) [ل].

هذا التَّوالي الثَّلاثيِّ (والمشابه في تدرّجه مع التَّنظير في المدرسة الشَّنكريَّة) والمدعو بالخطّ النَّوويِّ الأكبر أو الأساس يمكن افتراض تدوينه بطريقة رمزيَّة|سيميائيَّة تواليًّا كما أدناه:

## تدوين ٦

الخطّ النَّوويِّ الأكبر

وأخيراً، يكتمل «الهرم النَّوويِّ المقاميِّ» في المستوى الأخير، باستقرار هذه الأزوجة على رأس هذا الهرم، هذا الرأس الذي يحوي النَّغمة الأسمى في المنظومة المقاميَّة من بين نغمات النَّوَّة الأساسيَّة، أيَّ نغمة القرار، والقرار النَّوويِّ للنَّوَّة الأساسيَّة (ل) في هذه الأزوجة هو الدَّوكاه «د».

## تدوين ٧

القرار النَّوويِّ

## الهرم النَّوويِّ المقاميِّ

ويمكن إعادة متابعة تحليل الطَّبقات المتوالية المختلفة والمشكَّلة لسلسلة الخطوط النَّوويَّة المقاميَّة اللَّحنيَّة لهذه الأزوجة الحجازيَّة من خلال متابعة البيان المسَمَّى بالهرم النَّوويِّ المقاميِّ لأزوجة «ميمونة». كما ويمكن متابعة الحركة العموديَّة للنَّغمات ذات النَّقل المهِّم في الصِّغة اللَّحنيَّة، والتي تشكِّل بدورها في كلِّ مرَّة خطًّا نوويًّا معيَّناً (وهكذا دواليك صعوداً من خطِّ نوويِّ إلى الذي أعلاه وصولاً إلى القرار النَّوويِّ في رأس الهرم)

في البيان الثاني المسمى بالهرم التكويني لأهزوجة «ميمونة»، وأخيراً يمكن معرفة كيفية اضمحلال النغمات الأضعف في السياق التسلسلي التصاعدي للخطوط التووية من خلال البيان الثالث والأخير المسمى بالهرم التووي الاضمحلاي لأهزوجة «ميمونة» كما أدناه.

نغمة التوتون  
 النغمة التوتون الأكبر  
 نغمة التوتون الكسر  
 نغمة التوتون المحسنة  
 النغمة التوتون المتغير  
 نغمة التوتون الأصغر  
 نغمة التوتون الأصغر

البيان ١: الهرم التووي لأهزوجة «ميمونة»

نغمة التوتون  
 النغمة التوتون الأكبر  
 نغمة التوتون الكسر  
 نغمة التوتون المحسنة  
 النغمة التوتون المتغير  
 نغمة التوتون الأصغر  
 نغمة التوتون الأصغر

البيان ٢: الهرم التووي التكويني لأهزوجة «ميمونة»

ليبان ٢: الهمم النَّوَيّ  
الاضمحلاي لأهزوجة «ميمونة»

### تطابق موسيقيّ

من يعرف التّقاليد الموسيقيّة الشعبيّة في البوتقة المشرقيّة العربيّة يعرف أنّ لحن هذه الأهزوجة متماه مع أهزوجة «هالأسمر اللّون» المنسوبة إلى رصيد «القدود الحليّة» (الأهازيج الشعبيّة الشّاميّة).

تدوين أهزوجة «هالأسمر اللّون» هو:

- القالب نفسه: أهزوجة

- المقام نفسه: الحجاز

- المدى الصّوتيّ نفسه: رباعيّ النّغمات في الجذع الأساس من مقام الحجاز

- المحيط اللَّحْنِيّ هو نفسه
- والتَّشْفِيرُ المَقَامِيّ هو نفسه
- وعلى صعيديّ التَّمْدِجَة والخطوط النَّوَوِيَّة، تطابق تام في كلّ المراحل.
- والوزن الإيقاعيّ هو نفسه ثنائيّ النَّبْض (الوحدة أو المصمودي).

### التَّحْلِيلُ المَوْسِيقِيّ \ الاجْتِمَاعِيّ

#### النَّصُّ الكَلَامِيّ

كَاْفِرٍ لَاعِنٍ مُتَجَبِّرٍ	يهودي في خيبر
كَاْفِرٍ لَاعِنٍ مَا مِثْلُهُ جَبَّارٍ	كافر لاعن آه متجبر (٢)
بالحَيْرِ إِسْمَا «مِيمونة»	عنده خدامه مسلمة
من حب محمد ما عليه عاز	بحب محمد مفتونة
قَالَتْ لَهُ مَدِ يَدُكَ يَا الأَمْجَدُ	جا عالِبَابِ السَّائِلِ
خَادَ مَنِي هَالَعَطَى تَسْعَدُ	يللي تَمْدَحُ مُحَمَّدَ

#### وادعي لنا آه ليل ونهار

وطلّع مجبور الخاطر	أخذ من يدَا السائل
عنده ثلاث ولاد بالدار	سيدها الكلب الكافر
مداح المسلم مدحونا	قالوه آه يا ابانا
وطلّعت عطيته عشرة كبار	مدح سمع «ميمونة»
ميمونة ياما نالك	قلا ميمونة واللك واللك
ما بدّي حجر الزنار	ميمونة ياما نالك (٢)

قالتله ما تخسى يا ملعون  
دين محمد جهار مكنون  
بايده كسر رجليها  
بايده قلّع عينيها  
أحسن ما يسموك المجنون  
وانت يا ملعون أنجس من الفار  
رجليها مع إيديها  
وما اختشى من غضب الجبار

(؟) ... بهوي وصحية  
يلاقوا «ميمونة» واقعة بغلبة  
طالعين يزوروا التربة  
نادي آه يا مختار

التفت عالاجر المشيوا  
التفت عالعين الطسوا  
طسوا محمد الأنوار  
التفت عالاييد الرجعوا

قلّا «ميمونة» والك والك  
بيت اليهودي أولالك  
آه «ميمونة» ياما نالك  
ضممتلك جنة رضوان

رحا «ميمونة» هي بتجري  
سيدها طالع بدري  
داخله بيت العبري  
صلبتله بباب الدار

قلّا «ميمونة» مين شفاكي؟  
آه «ميمونة» مين مشكي؟  
آه ميمونة مين عفاكي؟  
قالتله سيدنا محمد المختار

قلّا «ميمونة» رويني ورويني  
وأنا اليوم لاشهر ديني  
أخذت سيديا من يده  
آه لما شاف نور خده  
أنوار محمد وديني  
وأسلم على يد المختار  
فرجيته نور خده  
أسلم على يد المختار

أسلم وجدد إسلامه  
ويا ما فاعل يزمانه  
عسكره مع خدامه  
عجل الموتى عليه العار



## الشكل الأدبي الغنائي

بُنيت هذه «الأهزوجة» من ١٦ مقطعاً أدبياً، مُدرجة في أربع جُمَل للمقطع الواحد (باستثناء المقطع الثالث فيه خمس جمل) على شكل صدر وعجز مرتين اثنتين. ينتهي الصدران والعجز الأول بالروِّي ذاته في حين القافية النهائية هي حرفاً «ألف وراء» (...ار)، ليصبح الشكل الموسيقي الغنائي (أ - أ - أ - ب).

على سبيل المثال المقطع الأوّل:

كافر لاعن متجبر	يهودي في خيبر
كافر لاعن ما مثله جبار	كافر لاعن آه متجبر (٢)

انتهى الصدر الأوّل والعجز الأوّل والصدر الثاني بلفظة: (...بر) والقافية في العجز الثاني بلفظة (...ار).

## الأوزان الكلامية

بغض النظر عن طبيعة البحر الذي بنيت عليه أوزان هذه الأهزوجة، نرى في نصوص المقاطع عدم تجانس وزني بين الصدر والصدر مرّة وبين العجز والعجز مرّة أخرى وحتى بين الصدر والعجز أحياناً.

مثال على عدم تجانس وزن الصدر مع وزن الصدر الآخر:

ميمونة ياما نالك	قلاً ميمونة واللك واللك
ما بدّي حَجَر الزنار	ميمونة ياما نالك

مثال على عدم تجانس وزن العجز مع وزن العجز الآخر:

آه ميمونة مين عفاكي؟	قلاً «ميمونة» مين شفاكي؟
قالتله سيدنا محمد المختار	آه «ميمونة» مين مشاكي؟

مثال على عدم تجانس وزن الصدر مع وزن العجز:

أحسن ما يسّموك المجنون	قالتله ما تخسى يا ملعون
وانت يا ملعون أنجس من الفار	دين محمد جهار مكنون

إن هذا الضعف في مراعاة الأوزان إلى جانب الضعف في حبكة النص الأدبية، يعكس عدم حرفية التأليف ويدفع به أكثر فأكثر إلى الإطار الشعبي العفوي، لكون الهدف

الأساس من هذه الصياغة هو فقط إظهار معنى عام يريد المؤلف يحمل في طياته بُعدًا اجتماعيًا خاصًا بالمدينة، مع الإشارة إلى أن المعنى كامل في كل مقطع على حدة مع تكرار للعديد من القوافي مثل (أسلم على يد المختار ٢× - آه ميمونة يا ما نالك ٢× - الجبار ٢× - المختار ٣×).

هذه النقطة قادتنا إلى نتائج أخرى في سياق مرتبط ألا وهي:

- تشويه اللحن: بما أن الأوزان صارت متفاوتة، باتت الصيغة اللحنية مشوّهة حتمًا، وقد ازدادت تشويهاً مع إدخال عبارة «آه» (١٠ مرّات) ذات المدلول الموسيقي؛
- تشويه الإيقاع: تشويه الأوزان مع اللحن قادا إلى تشويه في احترام الدورة الإيقاعية الرباعية دائماً؛
- تشويه التوقيع: الأسباب الآنف ذكرها قادت إلى تشويه في توقيع الكلام على اللحن، فهناك استحالة في توقيع أوزان متغايرة على لحن ثابت.

#### خصوصية لغوية

استخدم النص الأدبي في مقاطع الأزوجة ألفاظاً لا تعدّ اعتيادية، عكست خصوصية لغوية مستخدمة في مدينة طرابلس في الأحياء الشعبية. ويمكن تصنيف هذه العبارات إلى:

- عبارات غير لائقة: لقد استعملت ألفاظ شتم مثل: لاعن - كلب - فار - ملعون - مجنون؛ للدلالة على صفات سيئة للتاجر السيد، مفهوم اللغة المحلية؛
- عبارات محلية: استعملت الأزوجة ألفاظاً عامية محلية لا يمكن فهمها خارج إطار المجتمع الطرابلسي والمحيط القريب مثل: طسّوا = شافوا - صلبتله = وقفت له - ما تخسى = لا تبلي - التربة = المقبرة - فرجته = أرتة - لاعن = ملعون؛
- عبارات ذات لهجة خاصة: حيث نرى في الأزوجة عبارات مفهومة على صعيد اللغة العربية الفصحى ولكن بلهجة طرابلسية محلية مثل: والك = ويلك - بحب = بحب؛
- عبارات ذات لهجة مصرية: لقد طعمت بعض العبارات في الأزوجة باللهجة المصرية مثل: بتجري = لفظ الجيم المصرية - بغلبة = مظلومة، وهذا يعكس أثر الثقافة المصرية المحلية على المناخ الطرابلسي عموماً.

### خصوصية ثقافية

تُظهر بعض المعاني المستخدمة في الأزوجة خصوصيات ثقافية تتجلى في نواحٍ عدة:

#### الناحية العنفيّة

حيث نرى مظاهر تعنيف قويّة تدلّ على الظلم وصولاً إلى حدّ الإجمام مثلاً:

بأيّده كسّر رجليها      رجليها مع أيديها  
بأيّده قلّع عينيها      وما اختشى من غضب الجبار

#### الناحية الدنيّة

سيطرة الطابع الدنيّ الإسلاميّ في المعنى والمفردات مثلاً: (مسلمة - المسلم - المختار - الصّحبة - السائل - المديح - محمّد صل - غضب الجبار - جنة رضوان - إلخ...):

دعوة إلى الدّين الإسلاميّ مثلاً:

قلّاً «ميمونة» رويني وريني      أنوار محمّد ودّيني  
وأنا اليوم لاشهر ديني      وأسلم على يدّ المختار

أخذت سيّدا من يده      فرجيتّه نور خده  
آه لمّا شاف نور خده      أسلم على يدّ المختار

أسلم وجمّد إسلامه      عسكره مع خدامه  
ويا ما فاعل بزمانه      عجلّ الموتى عليه العار

#### أعجوبة دينية

شفاء الجارية «ميمونة» واستعادتها عينيها ونظرها والتحمت عظام رجليها ويديها بين ليلة وضحاها حين التقت بالنبيّ محمّد صل مع صحبته في المقبرة في ليلة من الليالي.

التفت عالاجر المشيوا      التفت عالأيّد الرجعوا  
التفت عالعين الطسّوا      طسّوا محمّد الأنوار

### قصة دينية كاملة ومتسلسلة

تبدأ بالحديث عن الجارية «ميمونة» المسلمة المظلومة عند تاجر يهودي ظالم. تشهر الجارية بدينها فتعاقب بقسوة بالكسر والقلع. يظهر لها النبي محمد صل فتشفى وتعود إلى التاجر؛ يذهل بالعجبة فيؤمن ويشهر إسلامه ويعممه على أتباعه. والقصة طويلة نسبياً على أزوجة (١٦ مقطعا) ومتراطة بحيث لا يمكن حذف مقطع ولا تغيير تسلسل مقطع عن سواه. وتجدر الإشارة هنا إلى القدرة على الحفظ والأداء بهذه الذاكرة السريعة، ما يؤكد على مفهوم «التكرار». معناه الصنمي في التقاليد الشعبية عموماً ويُبعدها عن مفهوم الإبداع الموجود في التقاليد الفنية.

### الناحية التاريخية

يمكن اعتبار هذا الموضوع امتداداً لأكثر من مئة عام؛ وذلك من خلال السلطة الظاهرة لدى التاجر «اليهودي» من جهة؛ وفكرة الظلم (التكسير وقلع) للخدمة من دون محاسبة قانونية لسيدها (في الصورة عودة إلى فكرة العبودية (سيد وعبد) القديمة زمنياً نسبياً).

### الناحية الجغرافية

لقد غنت نساء طرابلس الأزوجة بالإضافة إلى أنها موجودة تماماً في تقليد حلب، وقد استخدمت لفظات باللهجة المصرية، لذا يمكن اقتراح جغرافية اجتماعية لهذه الأزوجة ممتدة من طرابلس إلى حلب شمالاً وصولاً إلى مصر غرباً.

### الخلاصة

«يتضح من خلال ما سبق عرضه، واستناداً إلى تسجيلات عديدة (يا حنينه - مرمر زماني...) أن الألحان التي رافقت الأهازيج التي غناها أبناء طرابلس هي ألحان موجودة في الأساس في تقاليد موسيقية قريبة، ولكن أضاف إليها الطرابلسيون نصوصاً أدبية باللغة العامية من مواضيعهم الحياتية اليومية الاجتماعية.

ولكن الوجهة الثقافية للألحان ولأنظمتها بقيت ضمن بوتقة التقاليد الموسيقية المشرقية العربية، هذا ما يؤكد على تلاحم ثقافي قوي وجوهري، وكأن هذه الأهازيج

انبثقت من الرّحم الموسيقيّ الأمّ وهو التّقليد الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ الذي ساد العديد من الجغرافيات العربيّة.

ومن هنا نطلق دعوات عدّة في أكثر من سياق:

- دعوة إلى إكمال البحث في إحصاء كلّ هذه الأهازيج لتكون لدينا المادّة الكاملة عمّا غنته طرابلس في كلّ زواياها.

- دعوة أخرى إلى إعادة تسجيل هذا الإرث موسيقياً ونشره ضمن جغرافية مدينة طرابلس وخارجها مع النّصوص الأدبيّة نفسها أو مع غيرها تبني على غرار سابقتها.

- دعوة إلى إعادة التّحليل والإبداع الموسيقيّ على نسق هذه الألحان ومن مواضيع اجتماعيّة طرابلسيّة أو غيرها ولكن مع نصوص أدبيّة كلاميّة في إطار تربويّ

أكاديميّ،<sup>(١٢)</sup> انطلاقاً من الخطوط النّوويّة في المستوى العميق باتجاه مستويات السّطح.

- دعوة إلى تشجيع هذا النهج من الموسيقى (التّقليد الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ في شقيه الفنّي والشّعبيّ) لكونه متوازياً مع هذا الإرث من حيث النّظام الموسيقيّ

والصّيغة اللّحنيّة لتستمرّ هذه الوجهة الثّقافيّة، التي تحمل معها جزءاً كبيراً من هويّة طرابلس الثّقافيّة.

- دعوة إلى إحياء ودعم صناعة الآلات الموسيقيّة التي كانت رائجة كصناعة يدويّة حرفيّة، لما في ذلك ارتباط بهذا الموضوع الثّقافيّ، ولا ننسى تاريخيّة ومكانة مدينة طرابلس في صناعة الآلات الموسيقيّة التّقليديّة العربيّة.

- دعوة إلى بناء معهد موسيقيّ كبير في طرابلس تكون وجهته التّربويّة التّعليميّة والثّقافيّة مختصّة بالتّقليد الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ، حيث يتمركز مفهوم «الارتجال»

في بعده المقاميّ في هذا النوع من الموسيقى، في ظلّ غياب تام لممارسة وتعليم هذه الأنماط الموسيقيّة في المعاهد اللّبنانيّة المختصّة، مع الإشارة إلى أنّ التّطوّر العلميّ قد

أسهم خلال العقود الأخيرة في البدء في إعادة الأمور إلى نصابها إلى حدّ ما، بحيث تشهد السّاحة الموسيقيّة العربيّة عموماً واللّبنانيّة خصوصاً بوادر إعادة الاعتبار إلى

القيمة الفنّيّة الكبيرة للارتجال وهذه التّقاليد الموسيقيّة المقاميّة.

(١٢) راجع: ياسين، هيف، بدنا نفني، كتيب أغاني أطفال مع قرصه الموسيقيّ الدمج، لبنان، منشورات الجامعة الأنطونية، ٢٠١٣.

- دعوة أخيرة إلى زيادة وتيرة التواصل الموسيقي بين طرابلس\الشمال وباقي المدن في إطار تطوير منظومة التقاليد الموسيقية المحلية، من خلال إحياء مهرجانات موسيقية دورية تعنى فقط بالتقاليد الموسيقية المشرقية العربية تدعو إليها المدينة كلّ أبناء الوطن لحضوره، ومن خلال تأسيس فرقة محلية من كوادر شبابية محلية قادرة على أداء هذا التقليد بكلّ أمانة ومهنية وحرفية عالية وإتقان آخذين بجوهر هذه التقاليد الموسيقية التدريبية الإبداعية على محمل الجدّ.

## الهـرآبـع

- ابن منظور المصري، ١٩٧٥: أبو نواس في تاريخه وشعره، دار الجليل، بيروت.
- أبو مراد؛ نداء، ٢٠٠٣: «الفقيه والمرثم: الاصلاح من الداخل (مقاربة بين محمد عبده وعبده الحامولي)»، النهضة العربية والموسيقى: خيار التجديد المتأصل، إشراف: نداء أبو مراد، عمان، منشورات المجمع العربي للموسيقى، ص. ٤٩-٧٠.
- أبو مراد؛ نداء، ٢٠٠٣: «مركزية التقليد في عملية التجديد في الاطار الموسيقي الشرقي»، النهضة العربية والموسيقى: خيار التجديد المتأصل، إشراف: نداء أبو مراد، عمان، منشورات المجمع العربي للموسيقى، ص. ١٣٥-١٥٤.
- أبو مراد؛ نداء، ٢٠٠٥: «مدخل إلى تحليل الارتجال العزفي في التقليد الموسيقي المتقن المشرقي العربي»، مجلة البحث الموسيقي، عمان: منشورات المجمع العربي للموسيقى، ص. ٨٥-١١٦.
- الأرموي؛ صفي الدين، ١٩٨٦: كتاب الأدوار في الموسيقى، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة ومحمود أحمد الحفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الحفني؛ محمود أحمد، ١٩٨٦: الشيخ سلامة حجازي، رائد المسرح العربي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- الحلوي؛ سليم، ١٩٦١-١٩٧٢: الموسيقى النظرية، بيروت، دارمكتبة الحياة.
- الخلعي؛ محمد كامل، ١٩٩٣: كتاب الموسيقى الشرقي، ١٩٠٤-١٩٠٦، أعادت نشره مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة.
- سحاب؛ فكتور، ١٩٩٧: مؤتمر الموسيقى العربية الأول - القاهرة ١٩٣٢، بيروت، دار العلم للملايين.
- الفارابي؛ أبو نصر، ١٩٨٠: كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة ومحمود أحمد الحفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- مجموعة من المؤلفين، ١٩٣٣: كتاب مؤتمر الموسيقى العربية المشمول برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، المنعقد بمدينة القاهرة في سنة ١٣٥٠ هـ - سنة ١٩٣٢ م، المطبعة الأميرية بالقاهرة.
- مشاققة؛ ميخائيل، ١٨٤٠-١٨٩٩: الرسالة الشهابية، تحقيق الأب لويس رنزفال اليسوعي، مجلة المشرق.
- ياسين، هيف، ٢٠١٢: الرصيد التّمودجّي في التّقليد الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ، نموذج التّراث ونمذجة الانتقال، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة روح القدس الكسليك - لبنان.
- ياسين، هيف، ٢٠١٣: بدنا نغني، كتيّب أغاني أطفال مع قرصه الموسيقيّ المدمج، لبنان، منشورات الجامعة الأنطونية.

## الهراجج

- AbouMrad Nidaa, 2005: « Échelles mélodiques et identité culturelle en Orient arabe », in Musiques. Une encyclopédie musicale pour le XXI<sup>e</sup> siècle, vol. 3, Musiques et cultures, sous la direction de Jean-Jacques Nattiez, Arles, Actes Sud, pp. 756-795.
- AbouMrad Nidaa, 2004: «Formes vocales et instrumentales de la tradition musicale savante issue de la Renaissance de l’Orient arabe», in Cahiers de musiques traditionnelles, «Formes musicales », N° 17, Genève, Ateliers d’Ethnomusicologie, pp. 183-215.
- DURING Jean, 1991: Le répertoire-modèle de la musique iranienne: Radif de tar et de setar de Mirza ‘Abdollah, version de Nur ‘Ali Borumand, Éditions Soroush, Teheran.
- DURING Jean, 1994: Quelque chose se passe: le sens de la tradition dans l’Orient musical, Paris, Verdier.
- Guettat Mahmoud, 1992 : «La Tunisie dans les documents du Congrès du Caire», in Schéhérazade Hassan, (éd.) Musique arabe, Le Congrès du Caire de 1932, CEDEJ, Paris, p. 69-86.
- LAGRANGE Frédéric, 1994: Musiciens et poètes en Égypte au temps de la Nahḍa, thèse de doctorat (non publiée), Université de Paris VIII, Saint-Denis.
- LAGRANGE Frédéric, 1996: Musiques d’Égypte [livre accompagné d’un CD anthologique], Paris, Cité de la Musique/Actes Sud.
- MEEÛS Nicolas, 2005: Théorie modale: Moyen Âge et Renaissance, Paris, Université Paris-Sorbonne. [www.crlm.paris4.sorbonne.fr/modalite.html](http://www.crlm.paris4.sorbonne.fr/modalite.html).
- Molino Jean, 1975: «Fait musical et sémiologie de la musique», Musique en jeu, 17, pp. 37-52.





## الوثائق ودورها في التاريخ المعاش

د. سعاد سليم<sup>(١)</sup>

### ملخص

إنّ الحديث عن مرصد للتراث ومتحف للحياة اليومية يتكامل مع الأبحاث والدراسات التاريخية والمقرّرات الجامعية المتعلقة بتطوّر الثقافات والحضارات. إنّ وعي الطلاب لثقافتهم المحليّة ولتاريخ عائلاتهم ولتحركّ الهجرات السكانية عبر العصور، إنّما يؤدّي الى تنمية وعيهم وشعورهم بالمسؤوليّة تجاه مجتمعاتهم ومواطنيهم. إنّ الحضارة لم تنشأ في الكتب والمكتبات فحسب، بل هي أيضًا نتيجة الجهد العمليّ اليوميّ والخيارات الحياتيّة الأساسيّة التي تتحدّثنا في كلّ مراحل حياتنا.

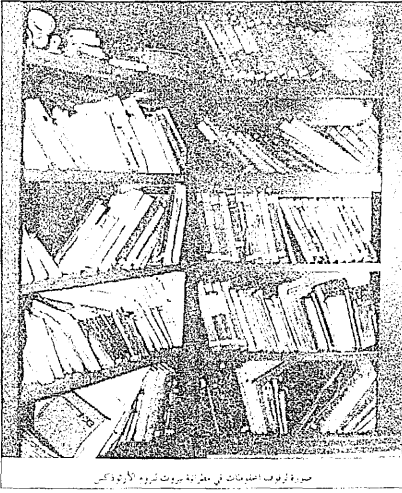
تشكّل الوثائق جزءاً هاماً من هذا التراث. إذ إنّ كتابة التاريخ بعد أن اعتمدت على كتابات الرحالة والحوليات والوثائق الرسميّة والدبلوماسية، أخذت تعتمد أكثر وأكثر على وثائق الحياة اليوميّة والمحليّة التي يمكن أن نجدّها في العائلات والقرى والأديار.

من خلال المنهجية التاريخيّة الحديثة، ما عاد التاريخ مجرد تسلسل أحداث وتواريخ متفرقة، بل انتقلنا، من خلال منهجيّات حديثة إلى دراسة تطور الحياة اليوميّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

إنّ دراسة التقاليد والعادات والاسعار والعقليّات من شأنها أن تشرح لنا الكثير من التطوّرات والظواهر التي ما تزال مبهمّة أو معتمّة عليها.

(١) الدكتورة سعاد سليم: أستاذة وباحثة من جامعة البلمند، رئيسة معهد الدراسات الأرثوذكسية الأنطاكية. lb.souad.slim@balamand.edu.lb

إن إبراز وعرض الوثائق والمحفوظات العائدة إلى الحياة اليومية، من شأنها أن تدخل إلى الدراسات صانعين جدد للتاريخ من فئات اجتماعية وعناصر ما تزال مغيبة. هذا النوع من الوثائق المهملة مثل الحسابات والحجج وغيرها... من شأنها، عبر عرضها وتأمينها ودراستها أن تحوّل فئات واسعة من المجتمع من ضحايا لا حول ولا قوة لها إلى عناصر فاعلة في المجتمع وفي التاريخ.

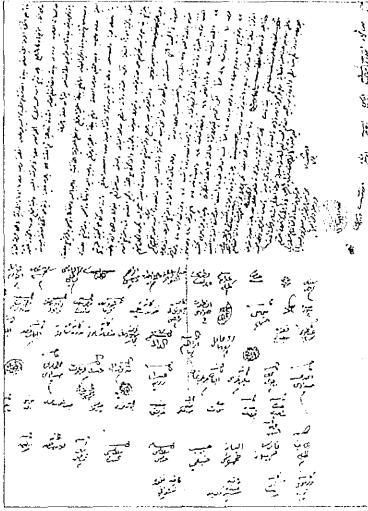


اكتشفت مؤخرًا، أي خلال الثلاثين سنة الماضية، خزائن من المحفوظات كانت عادة مجهزة للحرق أو للتلف لأنها تجلب الحشرات. إلا أننا أصبحنا نرى هذه الوثائق توضع ضمن إطار خشبيّ فخم وتعرض على جدران البيوت. ونرى هذه الأوراق القديمة تتحوّل إلى مصادر أساسية لكتابة التاريخ. ونرى أيضًا أنّ العديد من مواضيع الأطروحات تتمحور بشكل أساس حول هذه الوثائق. لكن للأسف

ما يزال العديد من المؤسسات والعائلات تتخلّص من هذه الوثائق بسبب الجهل أو بسبب عدم وجود الأماكن المؤهلة لحفظها.

خلال الفترة العثمانية، لم يكن دور المؤسسات الدينية محصورًا في المجال الروحي البحت، بل أدّت هذه المؤسسات دورًا اقتصاديًا وثقافيًا مهمًا جدًا. فمنذ بدء القرن الثامن عشر، استفادت الرهبانيات من تحوّل الأراضي الأميرية إلى أراضي أوقاف، وأصبحت الأديرة محاطة بأراضٍ تمّ استصلاحها للزراعة. وعمل العديد من الفلاحين على استثمارها ضمن إطار نظام الشراكة الزراعية مع هذه الأديرة. وبدأت، منذ ذلك الحين، عمليات تسجيل المحاسبات بخاصة، بعد مجمع اللوزية (١٧٣٨)، حيث إنّ هذه الرهبانيات المؤسسة حديثًا لم تكن تابعة للسلطات الكنسية المحلية بل كانت ملحقة بالسدة البابوية مباشرة في روما. (٢)

(٢) عياش، مجمع اللوزية، ص ٨٣ و ١٠١.



صورة عن مشاركة العلمانيين في انتخاب  
البيطريك عام ١٨٩٨

أما لدى الأرثوذكس، فلقد رأينا أنّ هذا النوع من الوثائق بدأ يتكاثر بعد إصدار التنظيمات العثمانية المتعلقة بإصلاح أحوال الدولة وتحديث مؤسساتها وتحسين أوضاع مواطنيها. صدرت هذه التنظيمات على ثلاث دفعات: الأولى مع خطّ شريف غلخانه (١٨٣٩)، الثانية خطّ همايون (١٨٥٦) والثالثة مع إصدار الدستور (١٨٧١) اعترفت هذه التنظيمات بالمساواة بين المسلمين والمسيحيين، وأعطت الطوائف حقّ إدارة شؤون رعاياها بنفسها، لكنّها بالمقابل فرضت على مختلف الطوائف أن تستعين بخبرات العلمانيين لإدارة شؤون أوقافها ومؤسساتها. (٣)

إنّ هذه الخطوات التي شهدناها، من قرارات مجعّية ومن قوانين رسمية، قد أحدثت تغييراً في طريقة إدارة المؤسسات حيث فرضت المزيد من المراقبة والمسؤولية والشفافية، وهذا ما وفرّ لنا، عبر هذه العصور، محفوظات وأوراقاً ووثائق متفرقة نتحدث عنها في هذا المقال.

يمكننا توزيع المحفوظات والوثائق على أنواع عدة، فمنها السجلات والدفاتر، ومنها الأوراق وكلاهما مخطوط باليد، ومنها أيضاً ما هو مطبوع.

## أنواع الوثائق

### السجلات والدفاتر

توزّع بشكل أساس حسب مواضيعها ومجالات استعمالها:

### السجلات العائدة للمحاسبة

وهي على نوعين: الدفاتر اليومية المدعوة جورنال وهي تسجل كل المداخل والمصاريف حسب أيام السنة. ودفترا الأستاذ وهو دفتر يجمع هذه الحسابات حسب أنواعها ويوفر جردات سنوية للمداخيل. كما أن هنالك دفاتر حسابات متنوعة تتعلق بالأوقاف والشركاء والعمار وتوفر معلومات عن الأسعار والأجور وأنواع الإنتاج...

Handwritten ledger page titled "دفتر حسابات دير مار يوحنا - دوما". The page is divided into several sections with headings in Arabic, including "صافي", "مصاريف", "مداخيل", and "مصاريف". It contains numerous entries with numerical values and descriptive text in Arabic script.

دفتر حسابات دير مار يوحنا - دوما

Handwritten ledger page titled "دفتر حسابات دير مار الياس شوبيا". The page contains multiple columns of text and numbers, organized into sections with Arabic headings, detailing financial transactions.

دفتر حسابات دير مار الياس شوبيا

Handwritten ledger page titled "دفتر الحسابات اليومية - دوما". This page is densely packed with entries, likely representing daily transactions, with columns for descriptions and numerical amounts.

دفتر الحسابات اليومية - دوما

### السجلات العائدة للأحوال الشخصية

وهي السجلات التي تتوزع على الأحياء والقرى والرعايا وتتعلق:

- بالعماد حيث تظهر نسبة الولادات.
- دفاتر الزواج والخطبة التي تسجل تطوّر العلاقات الاجتماعية ويمكن عبرها دراسة العادات والتقاليد المتعلقة بهذه المناسبات العائلية والاجتماعية.
- دفاتر الوفيات التي يمكن أن تعطينا أسباب الوفيات وعمر الوفاة ونسبة التزايد السكاني.

كلّ هذه السجّلات هي أساسية لدراسة التاريخ الديموغرافي وتطوّر عدد السكّان.

### سجّلات الوكالة أو المعاملات

شكّلت المؤسسات الدينية في المطرانيّات والأديرة مرجعية قانونية أساسية للمسيحيين في أواخر العهد العثمانيّ. فنرى العديد من دعاوى الأحوال الشخصية، من إرث وتبنيّ وبيع وشراء، تسجّل في هذه المؤسسات. إلى جانب هذه المعاملات العائدة لأحوال الشخصية أو العقارية، لدينا مجموعة من المعاملات التي تتعلّق بالعلاقة مع السلطات الرسمية في الدولة كالأمور الماليّة من حيث دفع الضرائب والمعاملات الجمركية وقضايا المعاهدات والزيارات الرسمية...<sup>(٤)</sup>

### سجّلات نسخ المراسلات

وهي سجّلات يصعب التعامل بها ودراستها بسبب رقة أوراقها السريعة التلف والشفافة. تجمع هذه السجّلات كلّ المراسلات الصادرة عن مؤسسة أو عن شخص معيّن مسؤول عن المعاملات والإجابة عن المراسلات. كانت هذه الرسائل قبل إرسالها تُبلّ بالمياه وتكبس بألة معينة على ورق شفاف ناعم جدًّا، ومن ثم تُرقّم وتُفهرس، ثم تُجلّد كلّ ٥٠٠ رسالة على حدة.<sup>(٥)</sup>

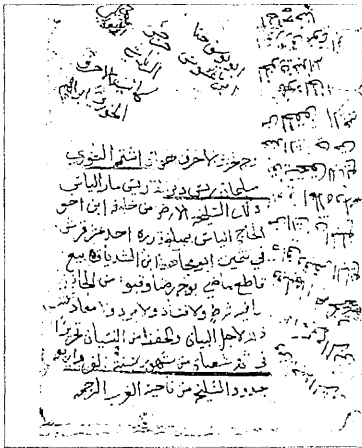
## الأوراق المنفرقة

وهي أيضًا تتوزّع على أنواع عدّة:

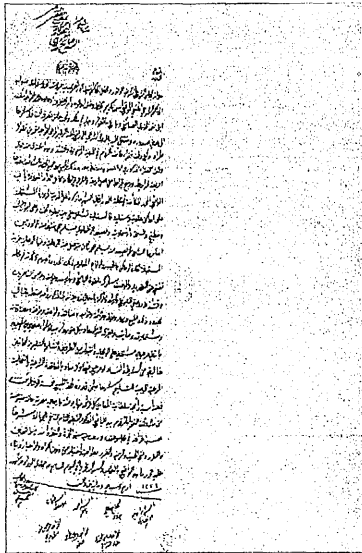
### الحجج العقارية

هي أوراق رسمية مهمورة بتواقيع وأختام مكتوبة على أوراق صكوكية سميكة. يمكن أن نجد نسخًا عنها في السجّلات العقارية. تشكّل هذه الحجج إثباتات قانونية للملكية. وتحتوي على أسماء الشاري والبائع والمثمن والشهود، كما تحتوي على مكان العقار ونوعيته وحدوده وسعره وتاريخ انتقال

(٤) محفوظات أبرشية بيروت للروم الأرثوذكس جزئين من رقم ١ إلى الرقم ١٠٠.  
(٥) المرجع ذاته.



حجة عقارية من دير مار الياس شويًا



حجة عقارية من وقف بيروت صادرة

عن المحكمة الشرعية ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)

الملكيّة. ويمكن أن تشمل هذه الحجج أيضًا دعاوى تليها معاملة تثبيت الحدود، وتأكيد الملكيّة. كما أنّ بعض هذه الحجج هي حجج شراكة يمكن اعتبارها حجج بيع لأنها تبتدئ بالعبارات ذاتها.<sup>(٦)</sup>

### الوصولات

وهي أوراق صغيرة متفرقة تؤكد الحصول على مبلغ محدد من المال أو تؤكد على دفعه في حال الضرائب الرسميّة. هذه الوصولات تحتوي في بعض الأحيان على عمليّات حسابيّة متعدّدة يمكن أن تكون قد نقلت على سجلّات المحاسبة.

### المراسلات

هي رسائل متفرقة صادرة عن المناطق والأبرشيّات وموجّهة إلى البطريركيّة. هذه الرسائل تعالج مشاكل المناطق وتعطي فكرة عن أوضاع الناس ومعاناتهم. كما أنّ بعض هذه المراسلات الموجّهة إلى البطريركيّة صادرة عن السلطات السياسيّة تعلم السلطات الدينيّة بالقرارات والمبادرات الرسميّة.<sup>(٧)</sup>

أمّا المراسلات الموجّهة إلى الأبرشيّات فهي صادرة عن وكلاء الأوقاف أو مدراء المدارس وهي أشبه بتقارير عن تطوّر المؤسّسات وميزانيّاتها. لدينا، في بعض الأحيان، ازدواجيّة بين الأوراق والسجلّات في ما يتعلّق بالضرائب والأموال العقاريّة. ويصعب

(٦) المحفوظات العربيّة في دير النبي الياس البطريركي، ١٩٩٥: منشورات جامعة البلسند، ص ١٠٥ إلى ١٣٦.  
 (٧) محفوظات بطريركيّة أنطاكيّة وسانتر المشرق للروم الأرثوذكس (سبعة أجزاء).

التأكد من التطابق في محتوى هذه الوثائق والسجلات إذ إنه إلى جانب اختلاف الخط وطريقة الكتابة تبقى التواريخ هي مجال المقارنة الوحيد. فحتى التوقيع والأختام نجدتها منسوخة على السجلات بالخط ذاته. أما الأوراق المتفرقة، رغم أنها مبعثرة وغير مكتملة، فهي التي تحمل التوقيع والأختام الأصلية.<sup>(٨)</sup>

## الأوراق والكراريس المطبوعة

وجد هذا النوع من الوثائق مع انتشار المطابع في منطقة الشرق الأوسط. وهي رغم حداثتها وأهميتها، إلا أنها، كما يبدو، كانت تتلف أكثر من غيرها، إذ إن الخط ربما كان يضيفي قيمة معينة على الوثائق. وتظهر لدينا الوثائق العائدة إلى عهد الانتداب، عكس ما هو متوقع، أقل نسبياً من تلك العائدة إلى المرحلة السابقة. هذه الوثائق المطبوعة هي على نوعين:

### التقارير

وهي نسبياً قليلة مطبوعة على الآلة الكاتبة التي لم يكن قد انتشر استعمالها في كل المؤسسات. لذلك نرى أن هذا النوع من الوثائق يبقى محدوداً. هنالك أيضاً بعض المراسلات الموجهة إلى السلطات المنتدبة وهي باللغة الفرنسية.

### كراريس الجمعيات

تشكل هذه الكراريس شاهداً أساسياً لظاهرة نشأة المجتمع المدني في المدن العثمانية بعد صدور التنظيمات العثمانية لدى الطوائف المسيحية. فبعد انتصار العثمانيين على الروس، بعد حرب القرم (١٨٥٦)، أصدر الباب العالي مجموعة من القوانين تؤمن للرعايا المسيحيين حق المواطنة والمساواة مع المسلمين، وتمنع أية تفرقة بين مواطنيها، إن على الصعيد المالي أو القضائي. بالمقابل فرضت الدولة العثمانية على الطوائف المسيحية إدخال العلمانيين في إدارة شؤون كنائسهم.

(٨) محفظات بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، المرجع السابق.

رغم صدور هذه الإصلاحات، العام ١٨٥٦، إلا أنّ ظهور الجمعيات قد تأخّر في البروز. فمعظمها تأسّس بين العامين ١٨٧٨ و ١٨٨١. وهي الفترة التي حكم فيها مدحت باشا ولاية سوريا وشجّع الأهالي على تأسيس الجمعيات الخيرية والثقافية وغيرها. استطاع العلمانيون، الذين كانوا من الفئات البرجوازية الغنيّة، أن يؤسّسوا، بإشراف الأساقفة، مجالس مليّة اهتمت بإدارة المدارس وجمع ضرائب بدل العسكرية وإدارة شؤون الأوقاف. فتأسّست الجمعيات التي عملت على تأسيس المؤسّسات: كالمدارس والميامم والمكتبات والمستشفيات...<sup>(٩)</sup>

ولقد انتشرت ظاهرة تأسيس الجمعيات في معظم مدن بلاد الشام إلا أنّها كانت نموذجًا ناجحًا بشكل أساس في أبرشية بيروت، حيث بلغ عددها السبع، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. اهتمت هذه الجمعيات بشؤون الناس التربويّة والصحيّة والخيريّة والدينيّة... في وقت لم تكن الدولة تعتبر هذه الخدمات واجبة عليها.

### التناسب بين هذه الوثائق ومنهجية حديثة لكتابة التاريخ

شكّلت هذه الوثائق مصدرًا أساسيًا ومثاليًا للدراسات التاريخية التابعة لمنهجية المدرسة الفرنسيّة الجديدة لدراسة التاريخ.

نشأت هذه المدرسة من حاجة المجتمعات الغربيّة، بعد الأزمة الاقتصادية العالميّة العام ١٩٢٩، لدراسة الأسعار ومعرفة أسباب تدهورها. فعملت، مع المؤرّخ الفرنسي لابروس، جماعة من الباحثين الذين استطاعوا تحضير مجموعات واسعة من الأرقام والإحصاءات، وقاموا بدراستها وتحليلها، وهو الأمر الذي مكّنهم من الخوض في مجالات التاريخ الاقتصادي لتلك الفترة.<sup>(١٠)</sup> وَاكْبَت مجلّة «الأنال: المجتمع والاقتصاد والحضارات» *Annales, civilization économie et société* هذه الأبحاث، ونشرت نتائجها ومقالات عنها ما أدّى إلى تعريف منهجية عمل الفرقة البحثية هذه بمدرسة الأنال.

(٩) محفوظات أبرشية بيروت للروم الأرثوذكس جزئين. الجزء الأول، أنظر فهرس الجمعيات، ص ٢٥٨ - ٢٦١.

(١٠) LE GOFF Jacques 1978: La nouvelle histoire, p.508, Paris



ترافقت المقالات الاقتصادية مع الأبحاث عن الأوضاع الديموغرافية والاجتماعية معتمدة الاحصاءات والقواعد ذاتها التي تتبعها علوم الاجتماع والعلوم الإنسانية عادة. وكل هذه المواضيع تعتمد بشكل أساس على مجموعات من الأرقام المأخوذة من مصادر متعدّدة. منها تلك التي تعتمد على الأرقام مباشرة، كالديموغرافيا والأسعار والحسابات على أنواعها. كما اعتمدت على مصادر أكثر أدبية أو قانونية مستفيدة من تكرار المعلومات لدراستها بشكل كمّي ومتسلسل. فالوصايا والحجج والدعاوى والعقود تحتوي على معلومات يمكن أن تتكرّر عبر السنوات، فيصبح من الممكن دراسة نشأتها وتطوّرها والتغيّرات التي تعرّضت لها خلال فترة طويلة من الزمن.<sup>(١١)</sup>

ولم تبق الدراسات محصورة بالأبحاث الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية بل شملت مجالات أخرى من العلوم الإنسانية الأخرى كعلم النفس والجغرافيا... فالدراسات عن العقلية وتطوّر الذهنيات أدخلت العديد من مفاهيم علوم الإنسان وعلم النفس إلى علم التاريخ. فأصبح لدينا الكثير من الدراسات التاريخية التي باتت تبحث في شؤون الموت والحبّ والخوف على أنواعها.<sup>(١٢)</sup>

فالحديث عن مشاكل إنتاج التفاح في لبنان في القرن العشرين هو حديث عن الاقتصاد الزراعيّ. أما الحديث عن إنتاج شرانق الحرير في جبل لبنان، في القرن الثامن عشر، فهو تاريخ اقتصاديّ. لقد أظهرت الدراسات التاريخية الحديثة عن بلادنا أنّ النمو الديموغرافيّ الذي شهدته قرى الجبل أدّى إلى هجرة السكان نحو الجنوب وإلى صراع على الأراضي، وبعد ٢٠٠ سنة، إلى تكوين دولة لبنان الكبير. كما أظهرت الدراسات في التاريخ الديموغرافيّ أنّ عدد السكان المسيحيين في الشرق قد ازداد في الفترة العثمانية.<sup>(١٣)</sup> وهذا عكس ما كان معروفاً عن سياسة الدولة العثمانية تجاه الأقليات.

من هنا ما عاد التاريخ هو كما كان معروفاً تاريخ أحداث ومعارك وشخصيات. بل أصبح التاريخ علماً ضرورياً لفهم الحاضر واستشراف المستقبل. ما عاد التاريخ مرتبطاً بالبلاط أو بالدين بل أصبح علماً متضامناً مع العلوم الإنسانية، تجد فيه الوسيلة والمجال للثبّت من قواعدها والتأكد من نتائج دراساتها.<sup>(١٤)</sup>

CHAUNU Pierre 1975: Histoire quantitative, histoire sérielle, p. 121, Paris (١١)

Le Goff op. cit., p. 210 (١٢)

FARGUES Ph. et COURBAGE Y.: Chrétiens et juifs dans l'Islam arabe et Turc, p. 160 (١٣)

CHAUNU Pierre, De l'histoire à la Prospective, p. 283 (١٤)

التاريخ في هذا المجال أصبح أكثر ارتباطاً بالجغرافيا وملازماً لها. فالتاريخ يغيّر في الجغرافيا كما أنّ الجغرافيا هي أساس وإطار تقدّم التاريخ. من هنا تحوّرت الدراسات على المناطق المحدودة ولفترة تاريخية صغيرة للتعمّق في بعض التغيّرات والمواضيع. كما أنّ بعض الدراسات الأخرى اعتمدت الزمن الطويل لمعرفة حقيقة الأمور ومعالجتها بروح علمية وموضوعية. إنّ الاعتماد على الأرقام من شأنه أن يبعد تاريخنا عن المواقف الإيديولوجية والأفكار المسبقة والنتائج المعلّبة، ليقودنا إلى تاريخ أقرب إلى الناس وإلى الموضوعية. (١٥)

هذه المنهجية في دراسة التاريخ أصبحت تدريجياً معتمدة في الأبحاث التاريخية في جامعات لبنان. وأصبح لدينا مصادر أساسية للخوض في مجالات التاريخ الريفيّ والمدنيّ وتاريخ العمارة والعادات والتقاليد، والمهن. ومن الخطأ اعتبار أنّ هذا التاريخ هو معرفة كلّ شيء عن لا شيء ولا شيء عن كلّ شيء. هذا التاريخ ليس بدرجة ثانية بالنسبة إلى التاريخ السياسيّ أو الحدثي، إنّهُ مرتبط به ومسبّب له.

### اكتشاف مصادر جديدة للتاريخ

لقد تزامن اكتشاف أهميّة هذه الوثائق مع بدء حركة جديدة في التأريخ. هذا الاتجاه الحديث في التأريخ تمحور حول المباشرة باستعمال الوثائق ذات الأهميّة الأكيدة والتي أطلقت دراسات ومواضيع جديدة مماثلة لتلك التي أطلقتها مدرسة الأنال.

#### المبادرة الأولى

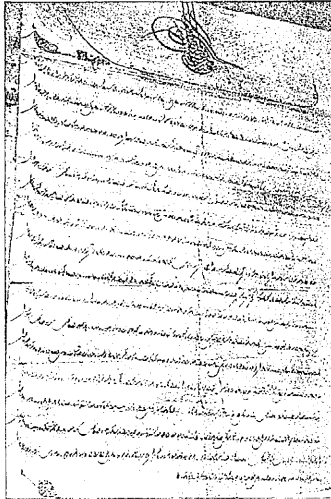
انطلقت من عملية تصوير وثائق المحاكم الشرعية في طرابلس بمبادرة من الأساتذة: فريدريك معنوق، خالد زيادة وعبد السلام تدمري. وهذه السجلات تغطي مناطق واسعة من سورية ولبنان. فقد امتدّت ولاية طرابلس، خلال المرحلة العثمانية، من مقاطعة كسروان في جبل لبنان إلى مدينة اللاذقية في سورية شاملة مقاطعات حصن الأكراد وعكار. (١٦)

(١٥) FURET François et NORA Pierre: Faire de l'histoire, Le quantitative en histoire, tome II, p. 51

(١٦) عمر تدمري، فريدريك معنوق، خالد زيادة، ١٩٨٢: من تاريخ لبنان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وثائق المحاكم الشرعية بطرابلس. طرابلس، الجامعة اللبنانية معهد العلوم الاجتماعية.

وكانت مجموعة من الطلاب في جامعة دمشق قد بدأت، هي أيضاً، في العمل على وثائق محاكم مدينتي حلب ودمشق في دائرة المحفوظات السورية الوطنية، أبرزهم عبد الكريم رافق. تشمل هذه الوثائق سجلات عائدة إلى محاكم بيروت وصيدا والقدس ونابلس وحمص وحمص. تحتوي هذه الوثائق، إلى جانب تغطيتها للأحوال الاقتصادية والاجتماعية، على الكثير من الوقفيات حتى للطوائف غير الإسلامية. كما أنها تفصح عن مختلف الفئات والطبقات في المجتمع العثماني من فلاحين، وعسكري، وبدو، وعبيد وعلماء ورجال دين وأعيان... (١٧)

كشفت هذه الوثائق جانباً جديداً في تاريخ المدن والأرياف وتاريخ الالتزام الضرائبي وطوائف الحرف، وحياة الفلاحين، وإدارة الأوقاف إلى جانب العديد من معالم الحياة الاجتماعية من زواج، مهر، جهاز، وصايا وتركات... هذه الوثائق هي مصادر أساسية لدراسة تاريخ الحياة اليومية بامتياز. هذه السجلات في المحاكم الشرعية تجمع بين ما هو التاريخ الرسمي والتاريخ المحلي. فالسلطات القضائية الإسلامية وقوانين الشرع هي المراجع الرسمية المعتمدة لتطبيق القرارات والفرمانات الصادرة عن الدولة. وهذه السلطات في الوقت ذاته تتعامل مع عامة الشعب وأعيانه وتعالج مشاكله وقضاياها. تشكل



فرمان عثماني يؤكد انتخاب ابروئثوس بطريكاً على انطاكية عام ١٨٨٢

هذه السجلات الصادرة عن هذه المحاكم مصدرًا مهمًا لمتابعة شؤون الافتاء في الدولة العثمانية. لقد توصل بعض العلماء في أبحاثهم إلى أن مرحلة الدولة العثمانية شهدت متابعة لمحاولة الاجتهاد الفقهي والشرعي الذي كان قد توقف منذ القرن الحادي عشر حسب الرؤية الرسمية.

فالتغييرات التي أحدثتها الدولة العثمانية، من حيث التغيير في الشرع، ومن حيث انتقال السكان، واستحداث مؤسسات جديدة، اضطر القضاء الشرعي إلى أن يتعامل مع التحديات الجديدة

والقوانين الآتية من العاصمة إسطنبول والتي لم تكن دائماً تتماشى مع مفاهيم وتقاليده أهل المنطقة، حتى لو أنها كانت صادرة عن شيخ الإسلام في إسطنبول. يمكن رصد هذه الأمور أيضاً في باقي الولايات العثمانية وفي محاكم المدن في دمشق، حلب والقاهرة. ففي هذه العواصم المحلية للولايات كما في العاصمة إسطنبول ومحاولات للإجتهد في إصدار فتاوى تمكن الشرع من تقديم الحلول للقضايا المستجدة، ليس فقط من جرّاء التوسّع العثماني في القرن السادس عشر، لكن أيضاً من جرّاء الخوض في سياسة التنظيمات التي أدخلت إصلاحات حديثة على القوانين وأدخلت الشرق في مجال الحداثة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

### المبارة الثانية

تمثّلت بإقدام بعض الأساتذة في الذهاب من أنفسهم إلى أرشيف رئاسة الوزراء التركية في إسطنبول بهدف إجراء أبحاث على وثائق المحفوظات العثمانية (الأساتذة: جوزيف أبو نهرا وعصام خليفة). لقد وسعت هذه الدراسات مجال الأبحاث إلى عصور كانت شبه مجهولة بالنسبة إلى تاريخ بلادنا. لقد كثرت المعطيات والمعلومات وتراجعت الكثير من المعلومات الأخرى التي كانت رائجة والتي كانت قد تحوّلت إلى أساطير وتخيلات. من هنا أوجدت هذه الوثائق كمّاً هائلاً من المواضيع التي شكّلت منطلقاً لدراسات وأبحاث جديدة. ورغم كون مصدر هذه الوثائق هو السلطات الرسمية التي كانت حاكمة ومسيطرة على المنطقة بأسرها، إلا أنّ المعلومات تستعرض مجالات عديدة من تفاصيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أنحاء السلطنة. فبالنسبة إلى سجلات الضرائب التي هي مقرّرة في العاصمة نجد توزيعها في كلّ الولايات والقرى والمدن. حيث إنّنا نتعرّف إلى عدد السكان وكميّات الإنتاج ونوعيته وأعداد القطيع في كلّ قرية من مختلف مناطق جبل لبنان. إلا أنّ القرارات المتخذة على الصعيد المركزي ربما كانت مطبّقة بطريقة مغايرة محلياً. لذلك نرى أنّ هذه الوثائق والسجلات العثمانية تتكامل مع وثائقنا المحلية ومع سجلات المحاكم الشرعية. هذا الأمر من شأنه تشجيع حركة التأريخ في لبنان بخاصة وفي الشرق بعامة.

تساعد هذه الوثائق عبر تحقيقها وتحليلها على مواكبة التقدّم الذي حققه علم التاريخ

من خلال التفاعل مع العلوم المساعدة. وهذا يبقى رهناً بطرح الإشكاليات المناسبة والتعامل مع المعطيات المستحدثة.<sup>(١٨)</sup>

## أهمية هذه الوثائق

بعد مرور أربعين سنة على استثمار هذه الوثائق في مجال الدراسات والأبحاث التاريخية يمكننا تقويم ما حققته هذه الخطوة واستخلاص أهميتها:

من حيث التوصل إلى مزيد من الموضوعية

كثيراً ما يعتبر بعض الزملاء أنّ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي يوحد في الوقت الذي كان التاريخ السياسي يخلف بين الجماعات ويفرق الناس. إنّ اعتماد منهجية التاريخ الكمي التسلسلي من شأنه أن يوفر نتائج علمية دقيقة من حيث إنّها تعتمد على إحصاءات ووثائق محدّدة. إنّ هذه الدراسات من حيث تعدّد اختصاصاتها أعطت آفاقاً متعدّدة للأحداث والأوضاع التي أحاطت بها وسببتها. إنّ الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والدراسات عن الذهنيات التي سبقت أحداث ١٨٦٠ قد غيرت الكثير من القناعات التاريخية، حتّى منها تلك المتعلقة بصراع الطبقات.

من حيث العلاقات المسيحية الإسلامية

إنّ اعتماد الدراسات في التاريخ الديموغرافي بدّل الكثير من المعلومات المكتسبة أو الرائجة المرتبطة بتيارات سياسية إيديولوجية لا علاقة لها بالواقع المعاش. وهنا إشارة إلى الدراسات التي أعدّها كرباج وفارج. كذلك الأمر بالنسبة إلى تأثير الديموغرافيا على علاقة الموارد بالدرز في تاريخ لبنان الحديث كما شرحها دومينيك شوفالييه.<sup>(١٩)</sup>

## خاتمة

إنّ إبراز هذه الوثائق والحفاظ عليها يبقى أساسياً في تعريف الناس على تاريخها وتراثها. إنّ الاعلام والدراسات التاريخية من شأنها أن تظهر دور الناس العاديين في

(١٨) عصام خليفة، ١٩٩٦: لبنان في أرشيف إسطنبول. بيروت. المقدّمة.

(١٩) دومينيك شوفالييه، ١٩٩٤: مجتمع جبل لبنان خلال الثورة الصناعية في أوروبا، ص. ١٣٦. بيروت.

صناعة التاريخ. وذلك من شأنه أن يكسبهم المزيد من الثقة بأنفسهم وإخراجهم من الشعور والقناعة بأنهم ضحايا التاريخ.

إنّ التاريخ والوثائق والمحفوظات لا تهمّنا لكونها من الماضي بل لأنّ الحفاظ عليها ودراستها يشكلان الخطوة التي يجب أن تقودنا نحو المستقبل. وإنّ المحافظة على هذه الوثائق في الخزائن وعلى الرفوف المبرّدة في دور المحفوظات لا يكفي. فمن الضروريّ الإعلام عنها وإظهارها في المراصد الثقافيّة والمعارض والمتاحف. والأمر الأساس هو وضعها بتصرّف الطّلاب والباحثين لدراستها.

لا بدّ من الإشارة هنا إلى مشكلة تطرح ذاتها علينا ألا وهي قضيّة اعتماد المركزيّة (أي وضع هذه الوثائق في مكان واحد) أو اللامركزيّة (أي الإبقاء على هذه الوثائق في أماكن وجودها الأصليّ من دون نقلها). إنّ من حقّ القرى والمناطق أن تحافظ على تراثها في مؤسّساتها، لكن تعقيمها وترميمها وتصويرها الرقميّ وفهرستها للمحافظة عليها كلّها عمليّات تصبح أسهل إذا ما كان التراث مجموعاً في مكان واحد لتأمين معالجته بالوسائل التقنيّة الحديثة.

أمّا المشكلة الثانية فهي عمليّة التعريف بهذا التراث ووضعه بمتناول الناس والباحثين. فهل تستطيع المتاحف المحليّة المنوي إنشاؤها أو البلديّات أو المراصد الثقافيّة أن تأخذ على عاتقها تنظيم المعارض والحملات الإعلاميّة للتعريف بهذا التراث وتوعية الناس للحفاظ على ما يتوفّر لديها من أوراق قديمة ومخطوطات ودفاتر عائليّة. إنّ هذه الأمور من الضروريّ أن تخصّص لها ندوات أخرى للحديث عنها وتوفير الحلول الملائمة لها.

## المراجع

- تدمري؛ عمر، معتوق؛ فريدريك، زيادة؛ خالد، ١٩٨٢: من تاريخ لبنان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وثائق المحاكم الشرعية بطرابلس. طرابلس. الجامعة اللبنانية معهد العلوم الاجتماعية.
- خليفة؛ عصام، ١٩٩٦: لبنان في أرشيف إسطنبول. بيروت. المقدمة.
- شوفاليه؛ دومينيك، ١٩٩٤: مجتمع جبل لبنان خلال الثورة الصناعية في أوروبا، بيروت.
- عياش، مجمع اللويزة.
- محفوظات أبرشية بيروت للروم الأرثوذكس جزئين.

- CHAUNU Pierre, 1975: De l'histoire à la Prospective, Paris, Robert Laffont.
- CHAUNU Pierre, 1975 : Histoire quantitative, histoire sérielle, Paris,
- ENGELHARDH Edward, 1882: la Turquie et les Tanzimat, Vol I, Paris.
- FARGUES (ph) et COURBAGE (y) 2005: Chrétiens et juifs dans l'Islam arabe et Turc. Essai (poche).
- FURET François et NORA Pierre, Faire de l'histoire, Le quantitative en histoire, tome II.
- LE GOFF Jacques, 1978 : La nouvelle histoire, p.508, Paris.
- RAFEQ Abdel Karim, 1979: "The law court registers and their importance for a socio-economic and urban study of ottoman Syria", Dans l'espace social de la ville arabe sous la direction de Dominique Chevallier, Paris.



## الذاكرة الجماعية، تجربة مركز إحياء التراث الوثائقي في طرابلس

د. عبد الغني عماد<sup>(١)</sup>

### ملخص

تناقش هذه الورقة أهمية الوثائق ودورها في حفظ الذاكرة الجماعية وفي كيفية التعامل مع التراث الوثائقي. وتعرض كذلك لتجربة مركز إحياء التراث الوثائقي، التي تقوم على تجميع وحفظ الوثائق، كخطوة أولى، ثم فهرستها وتصنيفها وتلخيصها، كخطوة ثانية، ثم تحقيقها، كخطوة ثالثة، وكل هذه العمليات تتم في إطار برمجة الكترونية، يتم فيها إدخال كل البيانات بحيث يتاح للباحثين والطلاب الحصول على أية معلومة من الآف الوثائق المشتتة بسهولة ويسر.

### مقدمة

لا يمكن قراءة التاريخ عموماً من دون الرجوع إلى الوثائق التي هي الشواهد على أحداثه ومساراته ومحطاته. ولا يمكن بالتالي تصوّر تاريخ البشرية من دون مثل هذه الوثائق والمستندات.

(١) الدكتور عبد الغني عماد: أستاذ علم الاجتماع في الجامعة اللبنانية، رئيس مركز إحياء التراث الوثائقي في طرابلس. agimad@hotmail.com



ولقد تركت لنا العصور المتعاقبة آثاراً مكتوبة ومخطوطات مختلفة الأهمية ومتنوعة الشكل، وبالطبع متفاوتة المصدقية، غير أن المهمّ منها، والذي درج على تسميته بـ«الوثائق» بقي المرجع الأكثر ركوناً إليه من قبل المؤرخين والدارسين والباحثين. وإذا كان البعض يعتبر «الوثيقة» مرآة للتاريخ، والبعض الآخر يرى فيها نبض حركة الجماعة أو الفرد في حقبة غابرة، فإن افتقارنا إلى وثائق كافية عن مراحل معينة من تاريخ مجتمعاتنا ضاعف من أهمية الوثائق النادرة والمتوفرة، أو التي ما يزال يعثر عليها بين الحين والآخر. وفي هذا السياق أنشئت المراكز والمعاهد المتخصصة، وشكلت فرق البحث والخبراء للتحقيق والعناية بهذه الكنوز المعرفية، وكان هذا الاهتمام سمة من سمات عصرنا الراهن، لا سيّما بعد ظهور الأمم المتحدة ومنظّماتها التابعة المتخصصة، ومنها تحديداً تلك المعنية بمجتمع المعلومات، وبالحفاظ على التراث الإنسانيّ.

ولا جدال في أن تطوّر تكنولوجيا الاتصال وثورة المعلومات أكسبت الوثائق التاريخية قيمة جديدة، فهي بقيت تمثل ما يمكن اعتباره «النوع المعلوماتيّ الأصيل» مقابل «الكّم المعلوماتيّ المتواتر» الذي يصعب التحقق منه بسبب سرعة انتشاره إلى درجة يصبح معها أحياناً من المسلمات المعرفية. لذلك فإنّ عالم التراث الوثائقيّ يعرف به عادة قلّة من الباحثين والمعنيين بصون التراث وحفظه لكي يكون أداة حاسمة تجلّو صورة الماضي، في قضايا قد تكون محط خلاف ونزاع في الحاضر، وربما في المستقبل.

### أهمية الوثائق والمخطوطات في طرابلس

لا شكّ في أنّ طرابلس مدينة عريقة بتاريخها وآثارها التي ما تزال، رغم كلّ ما أصابها من إهمال وتخريب، ناطقة ومعبرة عن دور حضاريّ فاعل قامت به على مدى أجيال وحقب تاريخية مديدة. فطرابلس تشكل منجماً غنياً من الناحية الوثائقية والأثرية والتاريخية، فيه من الحضارة والعراقة ما يحفز أقلام الباحثين إلى المزيد من البحث والتدقيق لكشف هذه الكنوز الوثائقية المبعثرة هنا وهناك.

وكم عانى الباحثون من أبناء طرابلس، ومن العلماء الذين أحبّوا طرابلس من بلدان شتى عربية وأجنبية؛ كم عانى هؤلاء من مشقّة البحث عن المراجع والمصادر الأصلية الخاصة بطرابلس، هذه الوثائق المبعثرة في عواصم شتى، من استامبول والقاهرة، إلى باريس ولندن، بل حتّى في قلب المدينة، وعن المخطوطات التي لم تنشر بعد ولم تحقّق

وهي أيضاً مبعثرة في مواقع شتى، وهي جميعها إن وجدت فهي تفتقر إلى الحد الأدنى من التوثيق والفهرسة والأرشفة الدقيقة والصحيحة، الأمر الذي يعرقل ويحد من إطلاق الدراسات الجادة حول تاريخ طرابلس ودورها الحضاري بشكل واسع. لهذه الأسباب تلاقت جهود المركز الثقافي للحوار والدراسات مع الدور الطبيعي الذي تقوم به جمعية العزم والسعادة الاجتماعية على المستوى التنموي في مدينة طرابلس لإطلاق مشروع إحياء الإرث الوثائقي. (وسوف نضع بين أيديكم نسخة مطبوعة عن المشروع الذي انطلق منذ نحو ثلاث سنوات والحمد لله مستهدفاً أرشفة وتلخيص وتوثيق سجلات محكمة طرابلس الشرعية).

### لماذا هذه الوثائق وما أهميتها؟

يتضمن أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس العائد للمراحل العثمانية مئة وأربعة سجلات تحمل الأرقام من ١ إلى ١١٩ بالإضافة إلى سجلين غير مرقمين. وقد فقد بعض هذه السجلات ولم يتبق سوى ١٠٤ سجلات، وذلك بسبب الحريق الذي تعرضت له السرايا ودار المحكمة في طرابلس سنة ١٩٧٦. ويومها تداعت بعض شخصيات المدينة لإنقاذ ما أمكن من هذه الوثائق التي حفظت أكثر من ثلاثة قرون، وكادت يد العيب أن تذهب بها في يوم مجنون من أيام الحرب عام ١٩٧٦. وبمبادرة من الحاج فضل المقدم رحمه الله تشكلت رابطة لإحياء الإرث الفكري في المدينة عام ١٩٨٢ أخذت على عاتقها بث الدعوة للحفاظ على هذه الوثائق، وتم حينها تصوير هذه الوثائق، فوضعت نسخة منها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ونسخة ثانية في معهد العلوم الاجتماعية وثالثة في مركز رابطة إحياء التراث الفكري في طرابلس بانتظار أن يتم تبويبها وفهرستها نظراً لما تتضمنه من ثروة علمية وتاريخية لا غنى عنها للباحثين في تاريخ المدينة.

ومنذ ذلك الحين، وعدا المحاولات الفردية الجادة للاستفادة من هذه الوثائق والتي كانت تصطدم دائماً بغياب الفهرسة والتبويب اللازمين لتسهيل مهمة الباحثين، لم يتم القيام بأي محاولة مؤسسية أو أكاديمية مدروسة لتنظيم وفهرسة وتبويب هذه الوثائق التاريخية التي ما تزال تشكل مادة أولية كمخطوطات تتضمن ثروة من المعلومات حول طرابلس بكل معنى الكلمة.

## ما أهميّة هذه الوثائق؟

يعود أقدم ما بقي من سجلّات محكمة طرابلس الشرعيّة إلى العام ١٠٧٧ هـ/١٦٦٦ م، وكانت طرابلس في ذلك الوقت ما تزال مركزاً لولاية قبل أن تصبح في القرن الثامن عشر تابعة لولاية دمشق ولولاية عكا في فترة من فترات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

والمخطوطات التي تتضمّن السجّلات، متفاوتة في عدد صفحاتها وإن كان الأغلب يدور حول الـ ٣٠٠ صفحة، وهي كتبت بالمداد الأسود، وبخطوط مختلفة، أكثرها جميل ومقروء، ومتنوّع بين الخطّ الرقعيّ، والديوانيّ، والنسخيّ، والتلث. تتضمّن المخطوطات والوثائق مواضيع شتى جرى تسجيلها حسب ورودها إلى قلم المحكمة حينها من دون أيّ تصنيف يتعلّق بموضوعاتها فهي متداخلة وغير مبنية، وبالتالي يجد القارئ لهذه المخطوطات وثائق تتعلّق بالنواحي الاقتصاديّة والتجاريّة، والأسواق، والمهن، والحرف، ومستوى المعيشة، كما يجد مخطوطات لها علاقة بالعادات والتقاليد والحياة اليوميّة للطرابلسيين، وبالعلاقات بين سكان المدينة وأوضاع المسيحيين واليهود اجتماعياً وإقتصاديّاً وقانونياً، وعلاقة الأهالي بالتجار الأجانب، وكلّ ما يتعلّق بالأوقاف، والحياة العائليّة من طلاق وزواج وإرث، إلى مسائل التعيينات والوظائف الدينيّة والإداريّة والعسكريّة، والعائلات، ومشايخ الطرق الصوفيّة، وعلاقة طرابلس بحيطها الريفيّ وتطوّر هذه العلاقة... الخ.

## كيفية تعامل المركز مع الوثائق؟

كان لا بدّ أمام هذا الكمّ الهائل من الوثائق من وضع خطة وفق أولويّات واضحة تتيح لفريق عمل صغير أن ينجز عمله من دون أن يغرق في هذا البحر الكبير من الوثائق. وقد تكوّنت ملامح الخطة وبدأ العمل على الشكل التالي:

- تصوير ومسح ضوئيّ (scan) لجميع الوثائق، بما يتيح التعامل معها على أجهزة الكمبيوتر.
- إعادة الفرز والتصنيف والفهرسة للوثائق على أساس الموضوع والمحتوى وليس كما هو الأمر حيث الوثائق مجمّعة حسب ورودها زمنياً.

فتمّ جمع عقود البيع وتصنيف كلّ منها: أبنية سكنية، أراضٍ زراعية، محالّ تجارية، طواحين، وغيرها. والأمر نفسه بالنسبة إلى عقود الإيجارات.

- والقضايا المتعلقة بالوظائف تمّ توزيعها حسب التالي: أولاً: الوظائف الدينية وتشمل: وظائف النظارة، ووظائف الإمامة، ووظائف الخدمة، ووظائف التولية، ووظائف القراءة، ووظائف الآذان، وغيرها. ثانياً: الوظائف الإدارية، وثالثاً: الوظائف العسكرية. بالإضافة إلى فهرس للأصناف الحرفية ومشايخها.

- كما تمّ اعتماد فهرس خاصّ لكلّ من قضايا الالتزام، والوقفات، والكشف، والإحكار، والرهن، والاستبدال، والمقاسمة، والوصاية، والنفقة، والإرث، والإخبار، وقضايا إبراء الذم، والإقرار والتعهد، وقضايا الفتوى، وقضايا تحرير التركات، والقضايا المتعلقة بالمسيحيين واليهود، وقضايا القنصل والأجانب والمستأمنين، وقضايا البيورلديات والفرمانات والمراسلات، والقضايا التي هي باللغة التركية.

- أضف إلى ذلك الدعاوى والنزاعات كدعاوى تحصيل (دين- إيجاره- وقف- حكر- ميره)، ودعاوى النسب والخيانة والعزل، ودعاوى الزواج والطلاق، ودعاوى سوء الإئتمان والسرقة، والابتزاز، والقتل...

- ودعاوى النزاع على: الأبنية السكنية، والأراضي الزراعية، والوظائف، والمحالّ التجارية، وغيرها.

- إلى جانب فهرس للعائلات حسب الترتيب الأبجديّ، وفهرس للأماكن ويشمل: النواحي، والمدن، والقرى، والمحالّ، والأسواق، والخانات، والمساجد والجوامع، والكنائس، والمدارس، والحمامات، وغيرها.

- تحقيق كلّ وثيقة وتلخيصها وعرضها بشكل دقيق وفق آليّة تلخيص مرتبطة ببرنامج معلوماتي لتخزين المعطيات على طريقة المستودعات الرقمية الحديثة digital repositories يصلح للاستخدام البحثي العام يتضمّن إمكانية استخدامه من قبل الباحثين والطلّاب وفق محرّك بحث Search Engine واسع المجال يغطّي التصنيف الشامل للوثائق مضافاً إليه الفرز التفصيلي الذي قمنا به لكلّ نوع منها. وقد تطلّب إعداد هذا البرنامج عملاً مضميناً وشاقاً كما تطلّب تدريب فريق العمل

على تحقيق الوثائق وتلخيصها بما يتناسب والبرنامج وقتاً وجهداً. نماذج من الوثائق وملخصها في الملحق رقم ١ و ٢.

### ما الذي تمّ إنجازه حتى الآن؟

- لقد أنجزنا في الواقع قسمًا هامًا من المرحلة الأولى، فقد تمّ:
  - فهرسة وتلخيص نحو ٦٤ سجلًا.
  - تصنيف وفرز وتحقيق كلّ وثائق الأوقاف، وقد بلغت حوالى ٥٠٠ وثيقة شملت ما يزيد عن ١٥٠٠ صفحة مطبوعة محرّرة ومحقّقة.
  - تصنيف وفرز وتحقيق غالبية وثائق الالتزام، والعمل بها ما زال قائمًا.
  - تخزين معطيات حوالى ٥٠ سجلًا في المستودع الرقميّ Digital repository.

### رقمنة المحتوى... ضبط «الذاكرة» وتقوية «التذكر»

إنّ ما تمّ إنجازه لا قيمة له ما لم يوظّف في عملية التنمية الثقافيّة من جهة، وفي جعل عملية التشبيك الرقميّ والمعرفيّ مفتوحة للجميع، أي تنمية أو تطوير أو تحديث يطرأ على ذاكرة المجتمع يعدّ في الوقت نفسه تنمية وتحديثًا وتطويرًا لثقافته، والمعضلة التي تواجهها المجتمعات المعاصرة أنّ سرعة توليد وتداول المعلومات والمواد التي تبني الذاكرة تطوّرت وارتفعت وتضخّمت إلى الدرجة التي جعلت قدرة المجتمعات على «التذكر» تقلّ وتضمحلّ، ليس فقط على صعيد تذكّر الإرث أو موادّ الذاكرة القديمة أو الموغلة في القدم بل وحتىّ الحديثة أو قريبة العهد. وقليلة هي المجتمعات التي استطاعت أن توازن بين معدّلات تضخّم الذاكرة والاحتفاظ بالقدرة على التذكّر. والعامل الأساس للخروج من هذه المعضلة هو الذكاء في استخدام تقنيّة المعلومات والاتّصالات كأداة للسيطرة على تضخّم الذاكرة وترويضها بالشكل الذي يضمن الحفاظ على قوّة التذكّر لدى المجتمع. وقد تبوّأت تقنيّة الاتّصالات وتكنولوجيا المعلومات هذه المكانة «الفاصلة» في التعامل مع معضلة «الذاكرة والتذكّر» لأنّها سمحت بتحويل الأشياء التي تشكّل الذاكرة من صورتها التقليديّة على الورق أو الكتب القديمة أو أذهان الناس أو حتىّ جدران المعابد والبرديّات والنقوش على الحجر، سواء كانت ذاكرة قديمة أم حديثة أم معاصرة، إلى صورة

رقمية قابلة للتخزين والتصنيف والفهرسة والمعالجة لتحوّل من مجرد «مواد تشكّل ذاكرة» إلى «معارف قادرة على أن تشارك في بناء «الذهن».

ويقدّم الانترنت في هذا الصدد الوسيلة الأنجح والأكثر تكاملاً على الإطلاق في حلّ معضلة تضخّم الذاكرة وضعف القدرة على التذكّر، فالانترنت وعاء تخزين لا حدود قصوى لطاقته الاستيعابية، وقناة توصيل «لا ضفاف لها»، ورخيصة للغاية تستوعب مئات الملايين من المستخدمين والراغبين في المشاركة، ومورد للتثقيف وبناء الذاكرة لا يضاهاى في قوة تأثيره لأنّه لا حدود لبساطته وسهولة وسرعة الوصول إليه.

هذا بالضبط ما يجعل مشروعات رقمنة المحتوى واحدة من المسارات المرشحة لتوظيف تقنية المعلومات والاتصالات كرافعة للتنمية الثقافية في المجتمع العربي، ومن حسن الحظ أنّ الوطن العربي بدأ يشهد برامج ومشروعات رقمنة للذاكرة والمحتوى العربي تدلّ على أنّ بعض المؤسسات العربية في القطاع الرسمي والقطاع الأهلي غير الحكومي بدأت تستشعر ما لدى هذه الآلية من أهمية في تنمية الثقافة وتحديد الذاكرة العربية، وجميعها يمضي في طريق تحويل آلاف الكتب والوثائق والصور ومقتنيات المتاحف وغيرها إلى شكل رقمي يوضع في مستودعات رقمية ويتاح للجميع عبر الانترنت. بيد أنّ هذه المشروعات ما تزال في بدايتها ومحدودة العدد للغاية قياساً إلى حجم الذاكرة أو مقدار الثقافة العربية الواجب رقمنتها وتحديثها وإتاحتها للجمهور العربي وللعالم، فهذه المشروعات لم تنقل سوى نذر يسير من الذاكرة العربية إلى الصورة الرقمية، ناهيك بأنّ منتجها الرقمي لم يشقّ طريقه بقوة بعد داخل فئات الجمهور العربي العريض.

### البوابة الالكترونية: «ذاكرة طرابلس وتراثها»

[www.tourathtripoli.com](http://www.tourathtripoli.com)

كمسار أوّل على هذا الطريق، قمنا بإطلاق هذا الموقع الالكتروني وهو في سنته الثانية حقّق نسبة زوّار مذهلة إذ فاق عدد متصفّحي الموقع حتّى الآن ١٤٠ ألف زائر. فهذا الموقع يغطّي جوانب مهمّة من تاريخ مدينة طرابلس فيقدّم أكثر من ٧٠٠ دراسة أكاديمية تتناول مختلف الجوانب الحضارية والتاريخية عن المدينة، بالإضافة إلى تخصيصه ملفاً كاملاً عن علماء المدينة مقدّماً دراسة وافية عن كلّ واحد منهم، وملفّاً إضافياً عن

مساجد ومدارس طرابلس مع دراسة تاريخية موثقة عنها، كذلك يفرد الموقع ملفاً عن أبرز المعالم الحضارية المتنوعة في المدينة مثل الكنائس والأديرة والقصور والحمامات والخانات وغيرها، كذلك يعرض لبعض الوثائق التاريخية الهامة. ويتضمن الموقع أيضاً ملفاً غنياً بالصور عن الآثار والمواقع والمنشآت التاريخية في طرابلس والميناء، ويخصّص الموقع مكاناً مميّزاً للأعمال البحثية الكاملة الصادرة عن مؤتمر طرابلس عيش واحد. والمشروع يتطلّع إلى تشكيل معطيات بحثية تكون صالحة كنواة لتأسيس أكبر مكتبة رقمية الكترونية تحتوي مواد ذات قيمة ثقافية وتاريخية عن طرابلس الفيحاء وتاريخها المعاصر، وقد تمّت رقمنة المادة وتنظيمها بالتعاون مع كبار الباحثين، واستناداً إلى مراجع ومصادر علمية متنوعة وفي مقدمتها وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس التي تعود أولى وثائقها إلى العام ١٦٦٦م والتي يقوم المركز بأرشفتها وتلخيصها وتبويبها بحيث تصبح مادتها التاريخية المصدر الرئيس للباحثين والطلاب.

الموقع لا يكتفي في مواده التي يقدّمها بطرابلس، بل يشتمل على أبواب وملفات ثقافية عامة، غنية ومتنوعة منها ما يتعلق بعلوم التربية ومشاكلها، ويتضمن دراسات لكبار المتخصصين في هذا المجال، ومنها ما له علاقة بالعلوم الاجتماعية وقضاياها المتنوعة، وأيضاً لا تغيب عن الموقع الدراسات الإسلامية التي تعنى بتقديم الدراسات الإسلامية الجادة البعيدة عن التطرف والتي تعبّر عن الوسطية كمنهج للتفكير وأسلوب للحياة، وكذلك يقدّم الموقع تليخيصات للكتب الجادة والتي تعتبر من أكثر الكتب قراءة، ففي هذا الملف يوجد الآن أكثر من ١٤٠ كتاب تمّ مراجعتها وتقديمها، كذلك لم تغب القضية الفلسطينية عن الموقع فتم تخصيص ملف كامل لها يشرح أبعاد الصراع وطبيعة العدو الذي نواجهه، وهناك أيضاً ملف ثقافي وأدبي هامّ فضلاً عن أبواب أخرى.

يزيد عدد الأبحاث والدراسات التي يقدّمها الموقع والتي يشارك فيها كبار المتخصصين والأكاديميين عن ١٩٠٠ دراسة ومقال تتوزع على أكثر من ٣٨٠٠٠ ألف صفحة، وهي متنوعة على مجالات عدّة تلبّي رغبة طلاب المعرفة بسهولة ويسر، وتفتح لهم إمكانية التحميل المجاني لأيّ دراسة من هذه الدراسات.

الموقع مفتوح لأيّ مساهمة فكرية أو ثقافية في مشروعه الرائد، ويفتح صفحاته على الويب لكلّ الباحثين والمثقفين والطلاب والمتابعين لأيّ إضافة أو دراسة تتمتع

بالمواصفات التي تنسجم واهتمامات الموقع، ويتطلع ليكون نقطة استقطاب وتلاقٍ وحوار علمي وثقافي ببناء. الموقع طرابلسي نعم، لكنّه موقع ينتمي كما طرابلس إلى ثقافة أمته العربيّة، وإلى ثقافة العصر، فيعبّر عنها ويتفاعل معها، ويريد أن يكون صوت طرابلس في هذا الفضاء الإعلامي الجديد.

### لماذا يجب إعادة قراءة التاريخ

لا شكّ في أنّ هذه المعلومات تفتح مجالات جديدة للباحثين والطلاب لإعادة قراءة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وتفتح المجال لدراسات متفرّعة عن هذه المواضيع مثل: الإدارة - الألقاب، الأسماء - الثقافة - الوظائف - الأشراف - تراجم الأعلام...

لقد بدأ الاهتمام بالوثائق والمخطوطات الموجودة في المحاكم الشرعيّة في دمشق وحلب والقاهرة وعمّان منذ زمن، ونظمت العديد من المؤتمرات في سبيل الاستفادة منها، وما تمتلكه طرابلس من مخطوطات ومن ثروة في هذا المجال يضاهاها ما هو موجود في تلك العواصم.

إنّ الباحث يقف فعلاً مذهولاً أمام جبل المعلومات والمعطيات المتضمّنة في هذه المخطوطات التي تنتمي إلى الماضي الذي هو ماضينا، وبالتالي فإنّ معرفة الماضي التاريخي بشكل موضوعي تقود إلى فهم الحاضر، كما تنير آفاق المستقبل. لكنّ الماضي أو التاريخ ليس الأحداث الكبرى، بل الحياة اليومية المتواصلة عبر الزمن، والمتبدّلة عبر التراكمات والمؤثرات المتداخلة، بل والمنقطعة عبر الانعطافات الحاسمة. والإطلاقة على كلّ ذلك ليست مهمة سهلة، فمهمّة المؤرّخ الاجتماعي والباحث الاجتماعي تتعدّى وصف الأحداث إلى استخراج تسلسلها المنطقي، وإعادة إنشاء صورة الماضي بأبعادها المتنوّعة، وتحديد درجات حضور هذا الماضي في حاضرنا. وهذه مهمّة تستدعي الجهد النقديّ المدقّق فضلاً عن التآريخيّ المحقّق. إنّ هذه المخطوطات إلى جانب غيرها من التواريخ والمخطوطات الأهلية والوثائق الدبلوماسية وكتب الرحالة والرحلات المبعثرة هنا وهناك، يمكنها جميعاً أن تصحّح نظرنا إلى الماضي والحاضر بأبعاده المختلفة.

ولا يمكن أن نفعل شيئاً إذا ما بقيت هذه المخطوطات كمّاً مترامكماً لا حياة فيها،



لذلك كان هذا المشروع البداءة والمنطلق لإحياء التراث الوثائقي والثقافي وإنقاذ ما تبقى من مخطوطات في المدينة. والذي أردنا من خلاله إتمام الفهرسة والتبويب وفق أحدث التقنيات وبإشراف فريق عمل أكاديمي متخصص ومدرب لكي تصبح المادة التاريخية المتضمنة في هذه المخطوطات بتصرف الباحثين والطلاب في طرابلس والعالم العربي والإسلامي، والتي سوف تعرض نتائجها تباعاً عبر حلقات نقاشية وندوات علمية ومؤتمرات متخصصة ومطبوعات متنوعة.

إنّ جهوداً كثيرة بذلت، وهي بلا شك مقدرّة ومشكورة، للحفاظ على الإرث الثقافي في مظاهره الخارجية، كالأبنية التاريخية والمباني الأثرية الهامة، كالمساجد والكنائس والأسواق والخانات والحمامات والقلاع وغيرها، وهي على أهميتها وضرورة استمراريتها وتطويرها، إلا أنها لا يجب أن تنسى أن التراث الثقافي لا يختزل بمظهره الخارجية فقط، بل من حقّ هذا التراث علينا، أن نخرج كنوزه المدفونة ومخطوطاته المبعثرة، وأن نقوم بتحقيقها وجمعها وتبويبها وفهرستها وتقديمها في صورة علمية تليق بالفيحاء، وبما يجعل المباني الأثرية تتكامل مع المعاني الثقافية، والمظاهر الخارجية ناطقة بالمضامين الوثائقية والفكرية، فيحتضن الحجر ما أنتجه البشر من فكر وثقافة وأماط حياة. هكذا تتكامل المباني والمعاني، والمظاهر والجواهر، وهذا هو البعد الحضاري لمشروع إحياء الإرث الوثائقي والثقافي لمدينة طرابلس.

إنّ انطلاق المرحلة الأولى يعني أنه ما يزال أمامنا مراحل أخرى تنتظر المزيد من الجهد والعمل، فالوثائق التي نعمل عليها، يوجد غيرها الكثير تتعلق بطرابلس مباشرة في اسطنبول والقاهرة ودمشق وعواصم أوروبية أخرى كباريس ولندن، هذا عدا وثائق متناثرة وموزعة في البيوتات الطرابلسية معرّضة للتلف والضياع. إلا أن انطلاق هذه المرحلة من المشروع بالتعاون مع جمعية العزم والسعادة الاجتماعية يشكل حافزاً قوياً لنا إلى المزيد من العمل والتعاون مع مثقفي طرابلس وفعاليتها وعائلاتها لإنجاح هذا المشروع الحضاري الذي يحفظ تراث طرابلس الثقافي والوثائقي، فالمدن التي لا تحافظ على تاريخها وتراثها لا تستطيع أن تبني حاضرها ومستقبلها بجدارة.





ملخص القضية:

(ص ٢٢٢/ق ٣٢٦-١)

E.N: 9319

العنوان: تحرير تركة

تحرير تركة سعدية معتوقة الشيخ صالح الصياد، المنحصر إرثها بكل من زوجها عبد الله ابراهيم سعد المصري وورثة معتقها وهم كل من السيد محمد صالح الصياد وشقيقه السيد عمر وشقيقتها السيدة زينب، والمشملة على أمتعة وأدوات منزلية وملابس وحلي ذهبية. حررت في ١٥ رجب سنة ١٢٧١هـ.

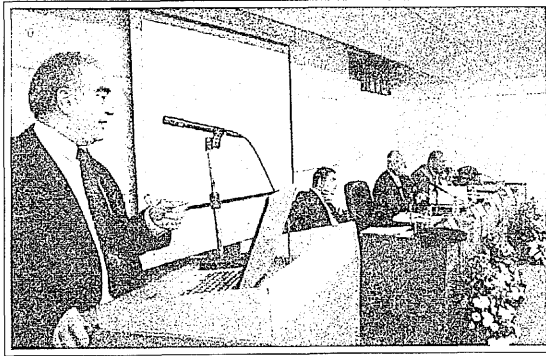
XX

يتضمن هذا التلخيص أيضاً العناصر الأساسية في القضية من الشخص المتوفى وورثته ومتروكاته. ومن بعدها يتم تصنيف هذه القضية ضمن قضايا تحرير التركات. ومنها يتم استخراج العائلات الواردة فيها ووضعها في الأماكن المخصصة لها.

المحور الثالث

## البحث الافتراضي

### والتوثيق النوعي والرصد الثقافي



رئيس الجلسة

الدكتور إميل مارون  
(الجامعة اللبنانية)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

الرصد الثقافي للمجتمع الافتراضي

المحاضرة د. نديم منصور (الجامعة اللبنانية)

المحاضرة الثانية

التوثيق والتحليل النوعي للمادة الثقافية المجمعة

تجربة الأرشيف المصري للحياة والمأثورات الشعبية

المحاضر المهندس عاطف نوار (مركز المأثورات الشعبية، مصر)

المحاضرة الثالثة

البحث النوعي باستخدام Atlas –Ti

المحاضر د. يوسف كفروني (الجامعة اللبنانية)



## الرصد الثقافي للمجتمع الافتراضي

د. نديم منصور<sup>(1)</sup>

### ملخص

ساهم الانترنت في خلق أنماط غير تقليدية من الجماعات ومن العلاقات الاجتماعية والتفاعلات التي لا ترتبط بهوية أو قومية أو حدود جغرافية. تتشكل هذه العلاقات ضمن الفضاء السائري، بشكل غير مشروط، غير محدد المعالم والأبعاد، بشكل حرّ، صريح وطيّق. يحددها أصحاب الاهتمامات المشتركة ضمن الفضاء المعلوماتي الواحد.

وقد شكّلت المجتمعات الافتراضية عبر محتواها ونشاطها وأعمالها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية وبالتالي نمطاً جديداً من الثقافة والسلوكيات.

من هنا تحاول الدراسة النفاذ إلى محتوى، وإلى لبّ المجتمعات الافتراضية، من خلال الخطوات الآتية:

- فهم المجتمعات الافتراضية: معناها ومداهم وأنواعها
- التعرف إلى سمات التفاعلات الافتراضية
- الرصد الثقافي أي التعرف إلى محتوى المجتمعات الافتراضية

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ دراستنا تدرج ضمن سياق الدراسات العلمية التي تحاول فهم الثقافات المتكوّنة لمعالجة المشكلات العلمية والتكنولوجية والمعرفية وانعكاساتها الاجتماعية على الأفراد في المجتمع

(1) الدكتور نديم منصور: أستاذ وباحث في علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية. nadimmanso@yahoo.com

الواقعي. خلاف الكثير من الدراسات التي تقوم بعمليات رصد التفاعلات الالكترونية لأهداف سياسية مثل عمليات التجسس لفهم أطباع وطرق تفكير ومواقف أفراد المجتمعات تجاه قضايا سياسية محدّدة. هذا ما دفع جوليان أسانج Julian Assange إلى اعتبار الفيسبوك مثلاً أكبر أداة تجسس في العالم ابتكرها الإنسان في تاريخ البشرية، وما دفع أيضاً الكاتب والصحافي الألمانيّ ساشا أداميك Sascha Adamek إلى نشر كتابه المعنون: "فخ الفيسبوك - كيف تبيع الشبكة الاجتماعية حياتنا". لذا لا بدّ من تحديد أهداف الرصد الثقافيّ للمجتمعات الافتراضية ضمن الغايات العلمية وليس ضمن المصالح السياسية.

## مقدمة

ساهم الانترنت في خلق أنماط غير تقليدية من الجماعات ومن العلاقات الاجتماعية والتفاعلات التي لا ترتبط بهوية أو قومية أو حدود جغرافية. تتشكل هذه العلاقات ضمن الفضاء السايبري، بشكل غير مشروط، غير محدّد المعالم والأبعاد، بشكل حرّ، صريح وطيّق. يحدّدها أصحاب الاهتمامات المشتركة ضمن الفضاء المعلوماتي الواحد.

إنّ تصوّرنا لتأثير المجتمعات الافتراضية يتأرجح بين نظريّتين متعارضتين: الأولى تعتبر أنّ المجتمعات الافتراضية حيادية تستطيع فقط أن تجعل الرسائل والأفكار تنتقل بصورة أفضل وأسرع، كذلك الآراء والأفكار والمعتقدات، وهي ليست لها أيّة سيطرة على الفرد.

الثانية تعتبر أنّ المجتمعات الافتراضية تسلطية أيّ أنّها تنتج عبر محتواها ونشاطها وأعمالها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية وبالتالي نمطاً جديداً من الثقافة والسلوكيات.

والواقع أنّ المسألة ليست مرتبطة إذا ما كانت المجتمعات الافتراضية حيادية أو تسلطية. ذلك أنّ التقيّة لا تفرض شيئاً، بل هي تقترح والإنسان يتدبّر ويؤلّف. لم يكن لوسائل الاتصال عند نشوئها على اختلاف أشكالها برنامج عمل أو أمر مهمّة. فمصرها يتعلّق باستخدام الناس لها، تبعاً لحاجاتهم، لرغباتهم أو لمعتقداتهم. فلم يكن غوتنبرغ هو الذي عمل الاصلاحات الدينية، ولا زوكربيرغ هو الذي حرك الثورات العربية. لذا فإنّ سرّ فهمنا للمجتمعات الافتراضية يجب أن نستوحيه ونبحث عنه، ليس في خطابات منتقدي الثورة التكنولوجية، بل بين مستعمليها، لجهة تطلّعاتهم غير المعبر عنها غالباً، أو حاجاتهم التي لم تشبع بعد.

من هنا تحاول الدراسة النفاذ للمحتوى، وإلى لبّ المجتمع الافتراضيّ، لا إلى النظر إليه من بعيد والاكْتفاء بانتقاده من دون فهمه، من خلال الخطوات الآتية:

- فهم المجتمع الافتراضيّ: معناه ومداه وأنواعه
- التعرّف إلى سمات التفاعلات الافتراضية
- الرصد الثقافيّ أيّ التعرّف إلى محتوى المجتمعات الافتراضية

## المجتمع الافتراضيّ: معناه ومداه وأنواعه

### المجتمع الافتراضيّ

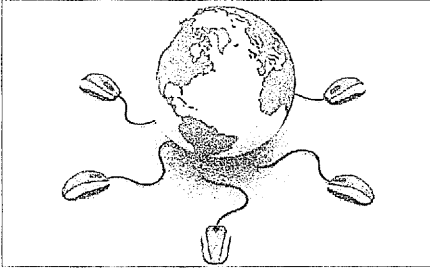
يعرّف هاورد راينغولد Howard Rheingold المجتمع الافتراضيّ (وهو أوّل من استخدم هذا المصطلح) بأنّه «تجمعات اجتماعية، تنشأ من الشبكة، حين يستمرّ أناس بعدد كافٍ، في مناقشاتهم علنيّاً، لوقت كافٍ من الزمن، بمشاعر إنسانية، كافية لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السائبري».<sup>(٢)</sup>

ونعرفه نحن، أنّه مجموعة من الأفراد، الذين يتشاركون عبر شبكة الانترنت، لفترة زمنيةّ لتحقيق غاية أو هدف أو هواية، من خلال علاقة اجتماعية - افتراضية تحددها منظومة تكنو - اجتماعية.

ما يميّز المجتمع الافتراضيّ أنّه نتاج عقول إنسانية، وتفاعلات آتية. لأنّ باستطاعة المستخدمين أن يصمّموا المجتمع الذي يريدونه وفق الهدف الذي يرسمونه. وهناك تنوع كبير في هذه المجتمعات لدرجة أنّه لا نصادف أيّ مجال اجتماعيّ أو ثقافيّ أو دينيّ أو اقتصاديّ أو تعليميّ أو ترفيهيّ.. إلّا ونجدّه بين المجتمعات الافتراضية.

إنّ نموّ أيّ مجتمع افتراضيّ يحتاج إلى مقوّمات محدّدة، مثل الهدف المشترك أو وجود قيمة مشتركة بين الأعضاء تساعد على انتشار هذا المجتمع وزيادة الروابط المتينة بين أفرادها. ويورد شيراز حاجي،<sup>(٣)</sup> ست مراحل لبناء كتل المجتمع الافتراضيّ:





- تحديد المجتمع
- خارطة طريق/التخطيط
- إشراك المشاركين
- تعبئة المجتمع
- أمثلة الأنشطة
- التمثيل التنظيمي.

أي أنّ المجتمع الافتراضي يبدأ بتحديد المجتمع (الفئة العمرية - النوع - الطبقة الاجتماعية...)، وتوضيح أهدافه ومخططاته (أهداف ثقافية - اجتماعية - سياسية...)، يستمر في مراحل متعاقبة يزداد من خلالها مشاركة الأعضاء وحضورهم الاتصالي (زيادة الأعداد وحجم المشاركين)، يتم ذلك من خلال العديد من الأنشطة (عرض صور - وضع تعليقات - رسوم - تفاعلات...) للوصول إلى التمثيل التنظيمي (ليصبح لهم تمثيل منظم وحضور قوي وفعال).

وكلّما زاد حضور المشاركين في المجتمع الافتراضي كلّما كان تأثيره أكبر، وهذا ما يتطلّب متابعة من قبل المشاركين وتكثيف حضورهم الافتراضي. لكنّ هذا الحضور القوي في المجتمع الافتراضي ألا يؤثر على حضور الفرد في مجتمعه الواقعي؟

### الأون-لاينيون والأوف-لاينيون

إذا اعتبرنا أنّ الأون-لاينيون هم الأشخاص الموجودون على الخط، أي الموصولون على شبكة الانترنت، أبناء المجتمع الافتراضي. يصبح الأوف-لاينيون هم الأشخاص خارج الخدمة أي غير الموصولين على شبكة الانترنت، أبناء المجتمع الواقعي. بهذه المعادلة يصبح المجتمع الواقعي مجتمعاً خارج الخدمة، معزولاً عن الفضاء السائبري، مقطوعاً عن العالم الخارجي.

هذا شكل من أشكال التداخل بين المجتمعين الافتراضي والواقعي، حيث أصبح حضور الفرد الواقعي في العالم الافتراضي أمراً مفروضاً لا مفرّ منه، وإلا يكون قد خرج من إطار التواصل الاجتماعي الذي أصبح افتراضياً بمعظمه.

وإذا لاحظنا العلاقات الاجتماعية التي تربط الأفراد اليوم، صارت علاقات

اجتماعية افتراضية بشكل كبير، على سبيل المثال أصبحت المعايدات خلال العيد تقتصر بين الأقارب والأصدقاء على الرسائل النصية عبر الهاتف الخليوي، أو خدمات التواصل الانترنيتية (BiBi-Viber-WhatsApp)، أو من خلال كتابة جملة معايدة على الحائط الفايسبوكي.. أكثر منها زيارات ولقاءات مباشرة وحية. وإذا ما حدثت هذه اللقاءات فإنها تنتقل في اليوم التالي أو بعد ساعات إلى ملف صور على موقع فايسبوك أو تويتر أو غيرهما وتبادل التعليقات والأحاديث الافتراضية.

كما أن انتشار الخدمات الانترنيتية جعلت حضور الفرد الافتراضي أمرًا ممكنًا على مدار الساعة من دون الانقطاع عن الفضاء السائري، ليصبح الفرد أون-لاينياً في المجتمع الافتراضي والواقعي على حدّ سواء. فبتوفر خدمة الانترنت عبر الهاتف النقال، وانتشار أجهزة IPad وأجهزة الكمبيوتر صغيرة الحجم.. أصبح الفرد الحقيقي فرداً افتراضياً في آن معاً، حيث يتفاعل مع أصدقائه خلال خروجه معهم إلى مكان عام، ويتبادل معهم العلاقات الاجتماعية المطلوبة، ويستطيع أيضاً أن يردّ على الأصدقاء الافتراضيين ويجاوبهم ويتفاعل معهم إلى حدّ قد يصل إلى الانقطاع عن أصدقائه خلال جلسته معهم ويصبح أوف-لاينياً عنهم بسبب وجوده الأون-لايني مع آخرين في المجتمع الافتراضي. إن الفصل اليوم بين المجتمع الافتراضي والواقعي أصبح أمراً صعباً ومستحيلاً، إلا إذا قرّر أحدهم أن يبقى أوف-لاينياً بقية حياته.

## أنواع المجتمعات الافتراضية

### لوحات رسائل الانترنت Internet message boards

هو منتدى يستطيع الناس من خلاله مناقشة الأفكار والآراء حول مختلف الموضوعات. كما يستطيع أيّ مستخدم طرح الموضوع الذي يريده ويعرضه للنقاش والحوار. ويبقى لكلّ مستخدم حرية الكشف عن هويته الشخصية وصورته الحقيقية أو التخفي باسم مستعار وصورة مصطنعة.<sup>(٤)</sup>

WELLMAN B. 1999: Networks in the global village: life in contemporary communities. Retrieved from. <http://books.google.com/books?hl=en&lr=&id=vhuOBRPS-pUC&oi=fnd&pg=PA331&dq=impacts+of+virtual+communities&ots=7THb6lTP0s&sig=vJ0wFzDrIX4wzQpjwRkMGLYlNs#v=snippet&q=belonging&f=false>

أشهر هذه المواقع في العالم العربيّ هي:

- أكتب<sup>(٥)</sup>: هو أوّل موقع عربيّ يقدّم خدمة استضافة المدوّنات المجانيّة وما زال يقدّمها.
- مدوّنات جيران<sup>(٦)</sup>: قد يكون هذا الموقع أشهر موقع عربيّ يقدّم خدمة استضافة المدوّنات مجانًا.
- حفار المدوّنات<sup>(٧)</sup>: هو موقع يتابع جديد المدوّنات العربيّة على مدار الساعة ويعرض روابط للتدوينات الجديدة فيها مرتبة حسب تصويت الأعضاء.
- مدوّنات مكتوب<sup>(٨)</sup>: عبارة عن موقع يمكن المشترك من إنشاء مدوّنة مجانيّة والكتابة فيها.
- تدوين<sup>(٩)</sup>: موقع آخر يقدّم خدمة استضافة المدوّنات مجانًا.
- مدوّنات البوابة<sup>(١٠)</sup>: خدمة استضافة المدوّنات مجانًا.
- قول قال<sup>(١١)</sup>: مفضلة للمواقع العربيّة والأجنبيّة، حيث يحاول جمع أفضل محتويات الانترنت في موقع واحد.
- المراقب<sup>(١٢)</sup>: موقع ينتقي للمشارك الأفضل من بين أبرز ما ينشر بالعربيّة على الانترنت. كما يمكن للمشارك المساهمة في تقويم المحتوى، أو إنشاء مفضّله الخاصّة ومشاركته مع الأصدقاء.
- خير<sup>(١٣)</sup>: هو معرض لمحتويات الانترنت على مختلف أشكالها، كالمواقع والمقالات والصور وأي صفحة يخبر عنها المستخدم ليتمّ عرضها لمتصفّحي الانترنت الذين يقومون بدورهم بالتصويت على المحتويات لإبراز أفضلها في المقدّمة.

<http://www.ektob.com/wp-signup.php> (٥)

<http://www.jeeran.com/blogs> (٦)

<http://hffar.com/soon> (٧)

<http://www.maktoobblog.com> (٨)

<http://www.tadwen.com> (٩)

<http://blogs.albawaba.com/ar> (١٠)

<http://www.qulqal.com> (١١)

<http://mkb.ma> (١٢)

<http://www.khabbr.com> (١٣)

## غرف الدردشة Online Chat Rooms

بعد وقت قصير من ارتفاع الفائدة من لوحات الرسائل والمنتديات، بدأ الناس يتطلعون إلى وسيلة للتواصل مع "المجتمعات المحلية" في الوقت الحقيقي وبشكل أسرع. لذا فإن غرف الدردشة فتحت المجال واسعاً لإجراء المحادثات مع أي شخص على الانترنت وفي الوقت عينه. يمكن العثور على غرف الدردشة على كل أنواع الموضوعات، بحيث يستطيع الناس التحدث مع الآخرين الذين يتقاسمون الاهتمامات نفسها. (١٤)

## العوالم الافتراضية Virtual Worlds

العوالم الافتراضية هي الأكثر تفاعلية لجميع أشكال المجتمع الافتراضي. في هذا النوع من المجتمع الافتراضي، يستطيع المستخدمون أن يعيشوا تجارب لم يعيشوها في حياتهم الواقعية. فقد يختار المستخدم أن يكون أميراً أو فارساً أو مزارعاً أو حتى حيواناً في مجتمع افتراضي يصنعه هو والمستخدمون ويختار كل منهم شخصيته وأسلوبه في الحياة. إنها الحياة الثانية Second Life التي تعتبر أكثر العوالم الافتراضية شعبية على الانترنت. (١٥)

## خدمات الشبكات الاجتماعية Social Network Services

يستطيع المستخدم من خلال شبكات التواصل الاجتماعية الالتقاء بالأصدقاء أو التعرف إلى أصدقاء جدد من خلال الدردشة أو إرسال الرسائل. كما يستطيع المستخدم عرض الصور والفيديو وتبادل التعليقات عليها، والدعوة إلى المناسبات والاحتفالات أو خلق صفحات حول الموضوعات التي يرغب فيها.

من أشهر المجتمعات الافتراضية من خلال خدمات الشبكات الاجتماعية فيسبوك وتويتر وماي سبيس ولينكد إن وغيرها. (١٦)

PHELPS Alan 2010: «How Chat Rooms Work.» Smart Computing, Web. 11 July. "؟". <http://www.smartcomputing.com/articles/archive/R0502/18R02/18R02.pdf> (١٤)

ROOS Dave (11 July 2010). "HowStuffWorks: How Chat Rooms Work". <http://computer.howstuffworks.com/internet/social-networking/information/chat-room.htm>, Retrieved 23 August 2010

TURKLE Sherry, (11 July 2010): "Virtuality and Its Discontents", The American Prospect. <http://hebra.haifa.ac.il/~soc/lecturers/talmud/files/547.htm> (١٥)

HASSE-QUAN A., & YOUN A. L., 2010: Uses and Gratifications of Social Media: A Comparison of Facebook and Instant Messaging. Bulletin of Science Technology & Society, 30, 350-361 (١٦)



- كذلك تنتشر خدمة هذه المواقع باللغة العربية نذكر منها:
- بنادي<sup>(١٧)</sup>: موقع اجتماعي شبيه بالفيسبوك، يربط بين الناس والأصدقاء من المدرسة والجامعة والعمل والمحيط الاجتماعي.
  - أصحاب مكتوب<sup>(١٨)</sup>: موقع تعارف وصدافة للجميع يساعد في تكوين صداقات جديدة والبقاء على اتصال مع أصدقاء سابقين، ويمكن مشاركة الجميع في رفع الصور والكليات والتعليقات.
  - عرب بوك<sup>(١٩)</sup>: موقع شبيه بالفيسبوك يسمح بالتواصل مع الأصدقاء بشكل مجاني.
  - تويتر بالعربي<sup>(٢٠)</sup>: هذا الموقع يقدم حلاً للمشاركات المكتوبة باللغة العربية مقابل موقع تويتر العربي الذي لا يدعم النص العربي ويظهره بشكل مشوه وغير متناسق. فهذا الموقع يقلب واجهة تويتر لتصبح من اليمين إلى اليسار وتصبح قراءة الرسائل العربية أسهل بكثير.

#### مواقع الفيديو التشاركية Video Sharing Community

- يعدّ موقع يوتيوب من أشهر مواقع الفيديو التشاركية الذي يسمح بعرض مقاطع فيديو مأخوذة من برامج تلفزيونية أو أغنيات أو أفلام... بالإضافة إلى إمكانية خلق فيديو وعرضه على مستخدمي الانترنت وتبادل الآراء والتعليقات. كما تعتبر مواقع مثل فليكر Flickr وأورميديا Ourmedia وياهو فيديو Yahoo video وماي سبايس تي في My Space TV من أبرز مواقع الفيديو التشاركي وأكثرها شعبية. من جهة أخرى نجد العديد من مواقع الفيديو التشاركي باللغة العربية نذكر منها:
- كليبات مكتوب<sup>(٢١)</sup>: وهو موقع لمشاركة مقاطع الفيديو (المرئيات) شبيه باليوتيوب.
  - اليوتيوب النقي<sup>(٢٢)</sup>: موقع يهدف لنشر مقاطع اليوتيوب الخالية من المحاذير الشرعية، ويكون مصدر المقاطع من موقع يوتيوب نفسه.

(١٧) <http://www.banady.com>

(١٨) <http://maktoob.yahoo.com>

(١٩) <http://3rabbook.com>

(٢٠) <http://artwitter.com>

(٢١) <http://video.maktoob.com>

(٢٢) <http://www.naqatube.com>

- إكبس<sup>(٢٣)</sup>: أفضل وأقوى موقع عربي لتبادل وتحميل وعرض ومشاركة مقاطع الفيديو، يعتبر أفضل بديل عربي لليوتيوب.

## سمات التفاعلات الافتراضية

### الافتراضية

إن أولى السمات الظاهرة للتفاعلات الافتراضية هي افتراضيتها نفسها، فالعلاقة بين الطرفين ليست علاقة إنسانية كما في المجتمع الواقعي، بل إنسانية مفترضة أي متفاعلة بين إنسان وإنسان عبر وسيط آلي وبشكل غير مباشر. وقد طرح «غاربي كروج Gary Krug» في فصله المعنون بالتكنولوجيا كثقافة Technology as Culture إن ابتكار الواقع الافتراضي وعوالمه الالكترونية أدى إلى تفكيك العلاقات الفيزيائية بين الأفراد، ويقصد بذلك أن تفاعلات الواقع الافتراضي التي تتم في إطار الانترنت أثرت بدورها في تفكيك العلاقة بين التفاعلات التي تقوم على أساس الوجه بالوجه.<sup>(٢٤)</sup> هذا ما قد يؤدي إلى اختلاط الواقع بالافتراضي كما ذكرنا. إن السمة الافتراضية للمجتمع الافتراضي تحدث اليوم قلماً على العلاقات الاجتماعية والأسرية خاصة إذا ما تجاوز الحضور الافتراضي للفرد حدًا يؤدي إلى انقطاعه عن محيطه الاجتماعي الحقيقي. ولقد طرح ألبرت بورجمان Albert Borgman فكرة في هذا الصدد مؤداها أن حاسبتنا تبعنا عن عالمنا حيث إن الانترنت يؤدي دوراً في التأثير على الأشخاص، وذلك بأنه أتاح فرصة تكوين علاقات اجتماعية سهلة عبر فضائه. ساهمت هذه العلاقات في تفكك ما هو تقليدي من العلاقات الاجتماعية وتشكل ما هو افتراضي على المستوى العالمي والمحلي.<sup>(٢٥)</sup>

### الخيالية

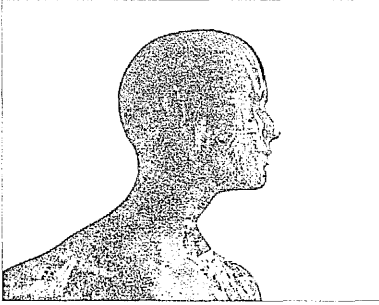
ربما الخيال هو ما يبحث عنه الإنسان أكثر من الحقيقة، ذلك أن التفاعلات المقرونة باللامعقول واللاملموس واللامحسوب تجذب الفرد الذي يعيش مجتمع العقل والحس والحساب بشكل أكبر، خاصة الفئات الشابة التي تبحث عن التغيير وعن الوسائط

(٢٣) <http://www.ikbis.com>

GARY Krug: Technology and culture chang, SAGEpublications, London-Thousand Oaks, New Delhi, P.2 (٢٤)

BORGMANN Albert, 2000: society in the postmodern era, the Washington Quartey, P 189-200 (٢٥)

الحرّة التي تخرجهم من القيود الاجتماعية والدينية والقيميّة. هذا ما يفسّر ربّما تهافت المجتمعات المحافظة على مواقع الدردشة الالكترونية والاستفادة من الانترنت كسلعة «تنفيسية» أكثر منه سلعة «علمية»، ذلك أنّ غذاء الخيال قد يغلب في بعض الحالات - التي قد تكون كثيرة في عالمنا العربيّ - غذاء العقل المشبع بالمعقول.



فالمردش الالكترونيّ يبحث بخياله ما تقدّمه له العقول الأخرى من خيالات متنوّعة، قد تكون مصوّرة، مكتوبة، متحرّكة، موسقة؛ تتخذ شكل الكلمات والأرقام والانفعالات أو الأصوات والصور والتعليقات. هذا ما دفع نبيل علي في كتابه «الثقافة العربية وعصر المعلومات»<sup>(٢٦)</sup> إلى ترجمة كلمة Virtual إلى كلمة خائليّ والتحدّث

عن الجماعات الخائليّة عند تناول الجماعات المتفاعلة على الانترنت. أو محمد محي الدين في بحثه «المشكلات النظرية والمنهجية للبحث السيسيوأنثوجرافيّ، في المجتمعات المتخيلة»<sup>(٢٧)</sup>، اعتبر أنّ كلمة Virtual تعني متخيّلة لتصبح جماعات الانترنت المتفاعلة تعني الجماعات المتخيّلة. هذا ما يجعل الخيال الركن الأساس للتفاعلات في المجتمع الافتراضيّ/ الخياليّ.

### اللامركزيّة

إنّ ما يميّز التفاعلات الافتراضية تعدّدية المراكز وتبادلها، لأنّ هذه العلاقات لا مركز لها، أي لا يوجد سلطة مركزية للأطراف المتنوّعة خلال المحادثة عبر المنتديات أو غرفة الدردشة أو الفايسبوك وغيرها توجّه الحديث أو تقوده في اتجاه محدد، فكلّ فرد يستطيع أن يكون مركز جماعته في أحيان كثيرة، أو يقود الحوار مرة أو مرات عدة، ذلك أنّ التفاعلات الافتراضية لا يهيمن عليها أو يحتكرها فرد دون آخر، بل أن تبادل الأدوار في المجتمع الافتراضيّ تؤمّنه التفاعلات الافتراضية نفسها.

(٢٦) نبيل عليّ، ٢٠٠١: الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافيّ العربيّ، عالم المعرفة، عدد ٢٦٥، ص ٣٠١.  
(٢٧) محمد محي الدين، ٢٠٠٤: المشكلات النظرية والمنهجية للبحث السيسيو/أنثوجرافيّ، في المجتمعات المتخيلة، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ٣٢، العدد ٤، ص ١٨.

### الهوية الخفية

يستطيع المستخدم أن يتكر شخصية الكترونية افتراضية يستخدمها في مجتمعه الافتراضي من خلال تكمّص هوية خفية أو اسم مستعار في غرف الدردشة التي قد تكون ذات مضمون سياسي أو علمي أو رياضي أو جنسي...، وغالبًا ما تكون الأسماء المستعارة منسجمة مع مضمون الغرفة. وتسمح ميزة الهوية الخفية في المجتمع الافتراضي في التعبير عن النفس بصورة أكبر، فتبعده عن التقيد بالقواعد الروتينية التي يفرضها المجتمع الواقعي، وتساعد الفرد على تأدية أدوار مختلفة قد يعجز عن تحقيقها في حياته اليومية الاعتيادية، فتأتي التفاعلات الافتراضية حرّة، صريحة، تبرز ما يريده الفرد بغض النظر عن المضمون وقيّمته.

### القلق الإلكتروني

تنتج التفاعلات الإلكترونية بين المستخدمين قلقًا كترونيًا مستترًا لا يظهر للعلن الفضائي بقدر ما ينعكس على الشعور الإنساني. يكمن هذا القلق من خلال الفعل/ ردّ الفعل المتفاعل بين طرفين افتراضيين، فواضع صورة معينة على صفحته الفيسبوكية مثلاً ينتظر بفارغ الصبر تعليقات أصدقائه، وإذا تأخّرت ردود الفعل أو لم تأت أبدًا يشعر الفرد بالانزعاج أو بالتهميش من قبل أصدقائه. وإذا أرسل رسالة إلى صديق معروف أو مجهول فهو ينتظر الجواب بفارغ الصبر، وترافق لحظات الانتظار قلقًا وتوترًا حتى يصله الردّ الذي قد لا يصل أصلًا. هذا التفاعل في الأخذ/ الردّ، القبول/ الرفض، الجواب/ لا جواب... تخلق لدى الفرد الافتراضي قلقًا نصفه بالقلق الإلكتروني.

### الاختيارية

يسمح المجتمع الافتراضي للفرد بأن يختار (الشخص، الموضوع، الزمان) الذي يريده ويحدّده. إذ يفتح المجتمع الافتراضي للمستخدم المجال في اختيار الشخص الذي يريده من خلال تصفّح صفحات المشتركين والتعرّف إلى مكان سكنهم ودينهم وتوجههم السياسي وهوياتهم وبرامجهم التلفزيونية المفضّلة والموسيقى المحبّبة... فيتكوّن للمتصفّح انطباع افتراضي قبل التوجّه للصدّيق الرقمي طالبًا التعرّف إليه، هذا ما لا تتيحه المجتمعات الواقعية التي لا توفر التعرّف المسبق على الشخصية. فيختار المستخدم الشخصية التي تناسبه وفق المعيار المشترك الذي يرغب به، الذي قد يكون منطقة السكن أو الدين أو



الهويات المشتركة. فتأتي التفاعلات لأن العناصر المشتركة قد وجدت مسبقاً. كما أن المجتمع الافتراضي يسمح في اختيار الموضوع من حيث دخول غرفة الدردشة أو الصفحة الالكترونية التي تسترضي ميوله وهواياته، فيشارك في غرف الدردشة السياسية أو الرياضية أو الأدبية فتلبّي التفاعلات احتياجات وأهواء المشتركين. كذلك فإن عملية الاختيار، للشخص وللموضوع، غير محصورة ضمن إطار زمني محدد، بل يسمح المجتمع الافتراضي أيضاً باختيار الزمان، فيستقبل الفرد ساعة يشاء على مدار الساعة وفي اللحظة التي يرغب بها التواصل مع الآخرين. فتكون التفاعلات الافتراضية مرتبطة بحسب مزاج الفرد وحرية وقته، من دون أن يتعرض لأي ضغط اجتماعي في تواصل لا يرغب فيه مع الآخرين كما هو الحال في المجتمع الواقعي.

#### التشاركية

يظهر التفاعل التشاركي الإلكتروني جلياً من خلال الصفحات السياسية لا سيما الثورية منها، التي لاحظنا تكاثرها مطلع العام ٢٠١١ بدء الربيع العربي والحركات الثورية والاحتجاجية في العالم العربي. ومن خلال تتبّع هذه الصفحات تظهر التفاعلات المشتركة عندما توحد الأفراد الرقميين قضية اجتماعية واحدة. وقد نلمس هذا التفاعل التشاركي في قضايا أخرى مثل حملة التصويت لمغارة جعيتا لتكون واحدة من عجائب العالم السابع، والطلب إلى التصويت الكثيف أو من خلال مواقع احتجاجية على قضية ما مثل موقع «يا محمد» الذي أطلقته مجموعة من طلبة الجامعات في أنحاء مختلفة من العالم رداً على رسوم الكرتون الدنماركية واحتجاجاً على إهانات الإعلام العربي. (٢٨)

#### التمرد

من ضمن تشكيلة التفاعلات الافتراضية تظهر التفاعلات التمردية، إذ تمثل شبكة الانترنت عالماً متساوياً تسمح للجميع بالتحدّث. وقد ساهمت كتابات المدونين وأصحاب المواقع الالكترونية وأفراد العالم الافتراضي في خلق حالة تمردية لتنظيم المقاطعة أو تسيير المظاهرات تجسّدت في العالم العربي عبر الثورات العربية، وفي العالم العربي

عبر حملات مثل «احتلوا وول ستريت» وغيرها. ذلك أنّ المجتمع الافتراضيّ هو ملعب مفتوح لكلّ اللاعبين من جميع الأطراف للتعبير عمّا يريدونه. لكنّ التمرّد الإلكترونيّ من قبل المعارضين لا يمرّ في جميع الأوقات من دون تمرّد مضاد من قبل السلطة، فمن المعروف على سبيل المثال لا الحصر أنّ الحكومة الصينيّة من أكثر البلدان استخدامًا للرقابة الإلكترونيّة، وتشدّدًا في ضبط المحتوى المتداول بين المدوّنين. يظهر التمرّد الإلكترونيّ الصينيّ بشكل كبير بين مجموعات النقاش الإخبارية الإلكترونيّة التي تطرح موضوعات لا تتناولها وسائل الإعلام الحكوميّة بما يكفي من الجرأة، هذا إذا تعرّضت لها أصلًا. وفي المقابل وضعت الحكومة الصينيّة عام ٢٠٠٤، قواعد منعت من خلالها مناقشة «الموضوعات الحساسة» مثل المشاكل الاقتصاديّة أو نقد الحزب الشيوعيّ. وأصبحت عمليّات البحث عن بعض المواقع تواجه بعبارة «هذه الصفحة لا يمكن العثور عليها»، وغير ذلك الكثير من الأساليب التي تصل إلى الرقابة، والإيقاف، ومصادرة الأجهزة<sup>(٢٩)</sup>... هذا الجوّ المحفوف بالمخاطر جعل بعض المدوّنين لا سيّما المحترفين منهم يقومون بحرق أساليب الرقابة الحكوميّة والتمرّد بشكل أكبر للتعبير عن مواقفهم باللجوء إلى أساليب متعدّدة تجعل مسألة مراقبتهم صعبة للغاية.

### الرصد الثقافي للتفاعلات الافتراضيّة

#### كيفية رصد التفاعلات الافتراضيّة

يمكننا رصد التفاعلات الافتراضيّة من خلال مواقع إحصائيّة متخصصة عدّة مثل: غوغل أناليتكس Google Analytics<sup>(٣٠)</sup> وهو موقع مجانيّ، يسمح للمستخدمين معرفة معلومات تفصيليّة وإحصائيّة مزوّدة برسوم بيانيّة وغيرها حول مدوّنتك الشخصية. تحليلات جوجل Google Analytics أداة تمكّنك من معرفة العديد من المعلومات حول عدد الزيارات التي أجراها المستخدمون على مدوّنتك، المقالات الأكثر زيارة من المستخدمين، كلمات البحث التي استخدمها الزوّار للوصول إلى مدوّنتك، معرفة المدّة التي قضاها الزوّار في مدوّنتك والكثير من المعلومات التي يهّمك أن تعرفها.

سوشل ساتستكس Social statistics<sup>(٣١)</sup> هو موقع يرصد عددًا من المستخدمين الذي يزداد كل يوم، وبإمكان أي فرد أن يضيف نفسه ليدخل الإحصاءات، لرصد أفضل شخصيّة بالنسبة إلى هؤلاء، وأفضل صفحة يتمّ تصفّحها، أو أفضل إعلان (Post)، إضافة إلى إمكانيّة البحث عن الأصدقاء والتفاعل معهم.

موتيغو ويبستاتس Motigo Webstats<sup>(٣٢)</sup> وهو موقع مجانيّ، يمكن من خلاله معرفة المواقع الأكثر شعبيّة من قبل المستخدمين في كلّ أنحاء العالم من خلال التصنيفات التالية: الأعمال والاقتصاد - أجهزة الكمبيوتر والانترنت - التسلية - الألعاب - الصّحة - المعلومات والوثائق - مجتمع - موسيقى - أخبار وسائل الإعلام - تعلّم - السياسة / الحكومة - الرياضة - الأدب.

يرصد هذا الموقع الإلكترونيّ نحو ١,٢٠٠,٠٠٠ موقع في العالم من خلال التصنيفات التي ذكرناها، ويستعرضها بحسب البلد الذي يختاره الزائر. يعرض دائمًا المئة الأولى من هذه المواقع الأكثر شهرة أو تردّدًا من قبل المستخدمين والتي تتفاوت وتختلف حكمًا بحسب البلد واهتماماته.

سوشل بيكرس Social bakers<sup>(٣٣)</sup> هو موقع إحصائيّ يسمح للمستخدم التعرّف إلى تفاعلات مستخدمي الفيسبوك بشكل يوميّ وفي أكثر من متني دولة في العالم. ويعرض هذه الإحصاءات بالترتيب ومزودة برسوم بيانيّة. ويمكن التعرّف إلى الكثير من التفاصيل مثل التوزيع العمريّ لمستخدمي الفيسبوك، الماركات العالميّة المفضّلة، الوسيلة الإعلاميّة الأكثر جماهيريّة، أو الألعاب الإلكترونيّة المفضّلة... كلّ ذلك يمكن الوصول إليه في كلّ دولة على حدة.

أناليتكس تويتر ويب Analytics Twitter Web<sup>(٣٤)</sup> يساعد هذا الموقع على فهم تفاعلات المشتركين عبر تويتر ومساعدة الشركات ووكالات الإعلان على فهم جمهورها وإيصال رسالتها إليه بشكل فعّال.

هناك العديد من المواقع الإلكترونيّة التي تقدّم الخدمات الإحصائيّة والتي تسمح من خلالها للباحث بتتبع تفاعلات المستخدمين الإلكترونيّة وتحليل محتواها، إضافة إلى

(٣١) /socialstatistics.com

(٣٢) webstats.motigo.com/نسخة مخبأة - ماثلة

(٣٣) www.socialbakers.com/facebook-statistics/نسخة مخبأة - ماثلة

(٣٤) https://dev.twitter.com/blog/introducing-twitter-web-analytics

استخدامات الوسائل الرقمية المعروفة لجمع البيانات والمعلومات والحقائق الرقمية من المبحوثين الافتراضيين أنفسهم، مثل الملاحظة بالمشاركة أو الاستبيان الرقمي أو المقابلة على الخطّ أو استخدام الصفحة الالكترونية.

ونعرض على سبيل المثال لا الحصر بعض الأرقام التي تظهرها هذه الواقع أو غيرها معرفة مدى انتشار مجتمع الانترنت ورصد مؤثراته:

- عدد مستخدمي الانترنت في العالم: ٢,٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠ (ملياران ومئتان وثمانون مليون).<sup>(٣٥)</sup>

- عدد مستخدمي الفيسبوك في العالم: ٨٠٠ مليون مشترك.<sup>(٣٦)</sup>

- عدد أجهزة الكمبيوتر المباعة لعام ٢٠١١: ٣٢٥ مليون كمبيوتر.<sup>(٣٧)</sup>

- عدد الكتب الورقية التي تمّ نشرها لعام ٢٠١١: ١,١٠٠,٠٠٠ (مليون ومئة ألف كتاب).<sup>(٣٨)</sup>

- عدد الهواتف النقالة المباعة في يوم واحد: ٣,٢٠٠,٠٠٠ (ثلاث ملايين ومئتا ألف).<sup>(٣٩)</sup>

- البحث من خلال غوغل: ٢ مليار عملية بحث يوميًا.<sup>(٤٠)</sup>

- عدد الرسائل الالكترونية المرسلة في يوم واحد: ٢٠٠ مليار رسالة.<sup>(٤١)</sup>

- عدد المقالات الشخصية Blog المنشورة في يوم واحد: ٣ مليون مقال.<sup>(٤٢)</sup>

- عدد الرسائل المرسلة عبر تويتر: ٢٥٠ مليون رسالة يوميًا.<sup>(٤٣)</sup>

- الإنفاق على الألعاب الالكترونية لعام ٢٠١١: ٩٤ مليار دولار.<sup>(٤٤)</sup>

[http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators?cid=GPD\\_WDI](http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators?cid=GPD_WDI) (٣٥)

[/http://www.itu.int/ITU-D/ict/publications/idi/2011](http://www.itu.int/ITU-D/ict/publications/idi/2011) (٣٦)

<http://www.gartner.com/it/page.jsp?id=1821731> (٣٧)

<http://www.bowker.com/index.php/book-industry-statistics> (٣٨)

<http://www.uis.unesco.org/Pages/default.aspx>

<http://www.gartner.com/it/page.jsp?id=1764714> (٣٩)

[http://www.comscore.com/Products\\_Services/Product\\_Index/qSearch](http://www.comscore.com/Products_Services/Product_Index/qSearch) (٤٠)

[/http://www.radicati.com](http://www.radicati.com) (٤١)

[/http://technorati.com/blogging/state-of-the-blogosphere](http://technorati.com/blogging/state-of-the-blogosphere) (٤٢)

[http://news.cnet.com/8301-1023\\_3-20121714-93/twitter-cco-250-million-tweets-a-day-now-what/?tag=mncol;txt](http://news.cnet.com/8301-1023_3-20121714-93/twitter-cco-250-million-tweets-a-day-now-what/?tag=mncol;txt) (٤٣)

<http://www.gartner.com/it/page.jsp?id=1737414> (٤٤)

<http://www.dfcint.com/wp/?p=48>

<https://www.npd.com/wps/portal/npd/us/industryexpertise/entertainment>

تعبّر هذه الأرقام عن ضخامة حجم المبادلات والتفاعلات بين أبناء المجتمع الافتراضي، ولمزيد من الإيضاح نعرض بعض الأرقام المتعلقة بموقع فيسبوك لكونه من أكثر المجتمعات الافتراضية انتشاراً في العالم:

يضمّ هذا المجتمع الافتراضي<sup>(٤٥)</sup> أكثر من ٨٠٠ مليون مشترك (كما ذكرنا)، ٥٠٪ منهم يدخلون الفيسبوك يومياً.

- معدل الأصدقاء لكلّ مشترك هو ١٣٠ صديقاً.
  - هناك أكثر من ٣٠٠ مليون صورة يتمّ تنزيلها يومياً.
  - يتفاعل أبناء هذا المجتمع بينهم بأكثر من سبعين لغة في العالم.
  - يوجد الفيسبوك ضمن أكثر من ٢١٣ دولة.
  - ٧٥٪ من مستخدمي الفيسبوك هم من خارج الولايات المتحدة الأميركية.
  - أكثر من ٣٥٠ مليون شخص يدخلون الفيسبوك من خلال هواتفهم النقال.
- وإذا أردنا أن نعرض المزيد من التفاعلات بين أبناء مجتمع الفيسبوك، فماذا يحصل بين المستخدمين خلال عشرين دقيقة فيسبوكية<sup>(٤٦)</sup> فقط:

- ١,٥ مليون رسالة توضع على الحائط (Wall Posts).
- ١٠,٢ مليون تعليق (Comments) يتمّ عرضه بين الأصدقاء.
- ٢,٧ مليون صورة (Photos) يتمّ عرضها.
- ١ مليون رابط مشترك (Shared links).
- ٢,٧ مليون رسالة (Messages) ترسل بين الأصدقاء.
- ١,٩ مليون قبول طلبات الأصدقاء (Friend requests accepted).
- ١,٥ مليون دعوة لحدث (Event) معين.

نستطيع أن نستنتج من خلال ما تقدّم أنّ المجتمع الافتراضي قد استطاع أن يجمع الثقافات المختلفة ضمن وسيط واحد ومجتمع واحد فيه الكثير من المشاركات المعولة التي تضع أفراد المجتمع الواقعيّ أمام الحقيقة الافتراضية.

## أمثلة عن منتجات التفاعلات الافتراضية

## الدولة الافتراضية

يمكن لوسائط الاتصال الحديثة أن تساهم في خلق حدود متخيلة لجماعة متخيلة وذلك من خلال خلق قاعدة فكرية مشتركة للجماعة وتمكينها من القيام بذاتها من دون اعتبار الحدود التقليدية.

ذلك أن الدولة الافتراضية بإمكانها أن تمنح دولة لمن لا دولة لهم، خصوصاً أولئك الذين حرّموا منها ضمن البنى السياسية العادية. على سبيل المثال الأكراد الذين يعتبرون أنفسهم أكبر أمة في العالم من دون أن يكون لهم دولة خاصة بهم. يعملون على تحقيقها من خلال جيل جديد من الإعلام الكردي. حيث انطلقت القناة التلفزيونية الفضائية الكردية الأولى ميد تي في (Med-Tv) سنة ١٩٩٥. وميد مشتقة من كلمة ميداس وهم أجداد الأكراد المنحدرون من أصول هندية - أوروبية، والذين كانت بلادهم تسمى ميديا - وهي مصادفة مهمة في هذا السياق. كانت القناة مشروع المهاجرين الأكراد الذين حصلوا على ترخيص في المملكة المتحدة من الهيئة المستقلة للتلفزيون (ITC) وقرروا إقامة «السيادة في الفضاء». وقد ركزت البرمجة على تعزيز الهوية الكردية، عبر تقديم نشرات أخبار للكبار مع تحليل للأحداث من وجهة نظر كردية، وتوفير دروس في اللغة الكردية للأطفال. وكان العلم الكردي والنشيد الرسمي جزءاً ثابتاً من المحتوى.<sup>(٤٧)</sup>

وبسبب ضغوط تركيا توقفت ميديا، لتحل مكانها روج (الشمس) تي في لتبث من الدمارك. من جهة أخرى، تعززت الروابط الكردية بفضل الانترنت مثل موقع كردستان ويب [kurdistanweb.org](http://kurdistanweb.org) وفي ما بعد موقع كردستان ميديا [kurdishmedia.com](http://kurdishmedia.com) وغيرهما. وتوفّر هذه المواقع روابط لنحو ٧٠٠ موقع آخر لهم علاقة بالأكراد، لتقدّم ثقافتهم وسياساتهم وتراثهم الإنساني، وليظهروا كأمة متحضرة في قلب الشرق الأوسط. ومن خلال رصد هذه المواقع نلاحظ مجتمعا افتراضيا ناميا، يشجع الأكراد ليس على تلقي المعلومات وحسب، بل على البقاء متواصلين في ما بينهم ضمن بيئة تفاعلية لا يمكن تجاهلها.

MERRIFIELD William 2005: MED-TV: Kurdish satellite television and the changing relationship between the (٤٧) state and the media, transnational broadcasting studies journal, no.14, (spring), [www.tbsjournal.com/archives/spring05/merrifield.html](http://www.tbsjournal.com/archives/spring05/merrifield.html)

مثل آخر على الدولة الافتراضية، دولة إسلامية افتراضية. هناك اختلافات كثيرة بين المسلمين في العالم، لكن الانترنت بإمكانه أن يعزز القيم المشتركة في ما بينهم على اعتبار الإسلام عامل توحيد مهيمن. فإذا ما توحد ١,٣ مليار مسلم في العالم ولو افتراضياً، ألا يؤثر ذلك على موازين الجيو السياسية الدولية؟

فقد عكست ردود الفعل الالكترونية على تقرير النيوزويك Newsweek سنة ٢٠٠٥ عن تدنيس القرآن في غوانتانامو، والانتشار السريع للجدل بشأن الرسوم الدنماركية، إمكانية الانترنت على خلق التفاعلات المشتركة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ويعكس نجاح موقع إسلام أون لاين [www.islamonline.net](http://www.islamonline.net)، الذي يقدم الأخبار، والمعلومات العامة حول الإسلام، والشريعة، كما يقدم «فتاوى مباشرة» وغيرها، وكل ذلك متاح باللغتين العربية والانكليزية. (ولكل من الموقعين العربي والانكليزي فريق مختلف، ومحتوى مختلف، ونادراً ما يترجم أحد الموقعين مواد من الموقع الآخر). ويضع الموقع من بين أهدافه: تقوية روابط الوحدة والانتماء بين أفراد الأمة الإسلامية، دعم عملية التبادل المعرفي والتمازج الثقافي بينهم، توسيع دائرة الوعي بما يدور من أحداث وتطورات مهمة عربياً وإسلامياً ودولياً، وتعزيز الثقة وإشاعة روح الأمل لدى المسلمين. (٤٨)

وهناك موقع إسلام سيتي [www.islamcity.com](http://www.islamcity.com) الذي يبيّن «إذاعة الإسلام» التي تقدّم الآذان، وقراءة القرآن، ومعاني القرآن وطرق حفظ نصّه، إلى جانب تحديد مواقع المساجد وأوقات الصلاة المحليّة.

كما تعرض مواقع أخرى مجموعات نقاشية للمسائل التي تطرأ على حياة مسلمي المهاجرين تتراوح بين البحث عن أماكن العبادة والمكتبات الإسلامية ومحال بيع اللحم الحلال، إلى أخبار الوطن والرحلات الجوية بثمن زهيد، وحتى ترتيبات الزواج الإسلامي، لتصل أخيراً إلى نشرات إخبارية رقمية يومية. وهذا ما أدى إلى حضور إلكتروني متطور ذي محتوى إسلامي نصل إليه بسهولة وبلغات مختلفة. وبعد بحث سريع على غوغل تظهر لنا عدّة آلاف من تلك المواقع التي تشكّل مصدراً مهماً خاصّة للشباب المسلم الذين ولدوا ونشأوا في الغرب، لأنّهم يبحثون عن فضاءات ولغات تساعد على بناء إسلام ملائم لواقعهم.

من جهة أخرى، استطاع تنظيم القاعدة على الصعيد الإعلامي تقوية حضوره وتوحيد جمهوره. فقد أسس شركة إنتاج خاصّة به، وهي مؤسّسة «السحاب» التي تنتج أشرطة فيديو تحمل خطاب أسامة بن لادن، إلى جانب مواد إعلاميّة - تجارية حول القاعدة والجهاد.<sup>(٤٩)</sup>

وبين عامي ٢٠٠٥-٢٠٠٦، تمكّنت القاعدة من مضاعفة إنتاجها من أشرطة الفيديو أربع مرّات. ففي عام ٢٠٠٦ أصدرت السحاب ثمان وخمسين رسالة بين مادّة صوتيّة ومصوّرة، وفي عام ٢٠٠٧ أصدرت أكثر من تسعين، وقد أمكن نشر تلك الرسائل عبر ما لا يقلّ عن ٤٥٠٠ موقع جهادي.<sup>(٥٠)</sup>

كانت القاعدة تسلّم أشرطة الفيديو يدويّاً إلى محطة الجزيرة أو بعض المحطّات الاخباريّة الأخرى التي كانت تحرّر المحتوى وتقتطع منه ما تشاء وتعرضه عبر شاشاتها، أمّا الآن فتقوم القاعدة في تحميل الأشرطة بمحتواها الكامل - من دون قطع - على عدد من مواقع الانترنت ثمّ تنشر عناوين تلك المواقع في المنتديات الإلكترونيّة. وتقوم التفاعلات الافتراضيّة بدورها بين جمهور القاعدة ومؤيديها في توزيع المحتوى الذي يزداد بشكل كبير.

وللتواصل بشكل أكبر مع الجمهور أطلقت القاعدة مجلّة إلكترونيّة بعنوان «ذروة السنام» تتكوّن من ثلاث وأربعين صفحة من النصوص والصور. وتحرص القاعدة على تصميم محتواها الإعلاميّ بأسلوب يسمح للجمهور بتنزيله بأساليب مختلفة (نسخة وندوز ميديا وريل بلاير لمن يملكون خدمة الانترنت فائق السرعة، ونسخة أخرى لمن يرتبطون بالانترنت عبر الهاتف العاديّ، وأخرى لتنزيلها ومشاهدتها على أجهزة الهاتف المحمول). وهناك عروضات واسعة من المنتديات الإلكترونيّة يمكن الوصول إليها بسهولة عبر الانترنت بما في ذلك رسوم إلكترونيّة تصوّر أطفالاً في هيئة انتحاريّين. في الخلاصة، مهما يكن الكلام أنّ الدولة الافتراضيّة مبالغ فيه، فإنّ واقع الأئمة الإسلاميّة الذي لم يكن كياناً متماسكاً في يوم من الأيام، ليس هو نفسه بعد أن أوجد الإسلام (بكلّ أشكاله) أدواته الوحديّة عبر التكنولوجيا حالياً.

SCHEUER Michael 2007: Al Qaeda's Media Doctrine: Evolution from cheerleader to opinion-shaper, Jamestown (٤٩) Foundation Terrorism Monitor Focus 4, no.15, May 22

MURPHY Dan and CARROL Jill 2007: Al Qaeda Ramps up its Propaganda, Christian Science Monitor, July 16 (٥٠)



إن الدولة الافتراضية أضحت جزءاً من حقيقة الجغرافيا السياسية على امتداد العالم. ويرتكز قوامها على التواصل لا على الأقليم الأرضي. وسواء تمكنت أي مجموعة بشرية من ضمّ جمهور أمتها، أو لم يكن لها جمهور كبير، فإن وجودها الإلكتروني يستحق أن يُعترف به.



### صحافة المواطن

في العام ١٩٩١ إبان حرب الخليج الأولى كان شعار محطة CNN «العالم يشاهد سي أن أن». كان ذلك صحيحاً في عالم محدود الخيارات الاتصالية، أما اليوم فإننا

نرى أن موجات الأثير ما عادت متسارعة مقارنة مع مواقع الويب فائقة السرعة في نقل الخبر والمعلومات لجهة الكمية والسرعة والتنوع.

ليس هذا وحسب بل إن العمل الصحفي ما عاد محصوراً بين أصحاب المهنة، بل دخل المواطن العادي ضمن عملية النقل الإعلامي من خلال ترابطه بالطبيعة التفاعلية للانترنت التي جعلت منه محاوراً ومعلقاً ومحزراً وناقلاً للخبر.

لقد تحوّل الانترنت إلى مساحات حوار، وإلى خلق جيل جديد مرقم، يتلقّى معلوماته بانتظام من البوابات الالكترونية مثل ياهو وغوغل ومن المدونات والمواقع الاجتماعية وغيرها، هذا جيل يعتبر أنّ الحصول على المعلومات هو مسار من المشاركة، كما يبدو من خلال تفاعلاته على شبكات الويكي Wikis التي تسمح للقراء بتحرير المحتوى والمشاركة في إنتاجه، أو من خلال يوتيوب الذي يسمح بإنتاج الفيديوهات التشاركية أي المشاركة والتعليق والنقد والإضافة والتعديل فيه. ومن هنا يجب التنبيه إلى أنّ العلاقة بين مزود الخدمة الاخبارية ومستهلك الأخبار قد تغيرت.

ومن خلال رصد بعض نماذج صحافة المواطن يمكننا استعراض بعض الأمثلة:

- «أوهماي نيوز» Ohmy News<sup>(٥١)</sup> التي تنطلق من كوريا الجنوبية، أصبح لها «مراسلون» (٦٠٠٠٠ مع أواخر ٢٠٠٧) ومحرّرون يفرضون معايير لضبط الجودة تجعل من الانتاج المعروض أكثر مصداقية.

- «آي توك نيوز» iTalk News<sup>(٥٢)</sup> التي تنطلق من الولايات المتّحدة الأميركيّة، أعلنت أنّ هدف إنشاء المشروع هو استجابة لحاجة التفاعل، حيث يمكن للناس أن يقرأوا الأخبار العاجلة ويناقشوها، ثم يرسلون مقالاتهم الخاصّة.

- غلوبل فويسز Global Voices<sup>(٥٣)</sup> التي تنطلق من هولندا، وهي شبكة عالميّة من المدوّنين، والناشطين، من أكثر من ٥٠٠ مدون ومترجم حول العالم، يعملون معاً لنشر ما يكتبه المدوّنون وما يذكر في وسائل الصحافة الشعيّة المختلفة، مع التركيز على دعم الأصوات غير الممثّلة في الإعلام الدوليّ. ففي أعقاب تفجيرات لندن في ٧/٠٧/٢٠٠٥، بدأت BBC في تلقّي صور من أناس في مواقع الهجوم. وفي غضون ساعة ارتفع عدد الصور الثابتة ومقاطع الفيديو، التي التقطت عبر الهاتف المحمول، إلى الخمسين، وبعد أيام من الهجوم تجاوز العدد الألف. وهذا كان من أوائل الأحداث التي أطلقت نمط «صحافة المبادرة الذاتية».

- فيوز باير Views paper<sup>(٥٤)</sup> انطلق هذا الموقع من الهند عام ٢٠٠٧ على يد الشاب الهنديّ شيف درافيد (٢٥ سنة)، ليكون منبراً حرّاً للشباب في الهند لمتابعة الأخبار والأحداث الجارية ومناقشتها، ويعتبر الموقع في طليعة المواقع الاخباريّة المعتمدة على صحافة المواطن والمبتكرات الإعلاميّة الجديدة التي تجذب الشباب في الهند.

- ضربت<sup>(٥٥)</sup>: هو موقع إخباريّ اجتماعيّ باللغة العربيّة، ووسيلة لحفظ الأخبار المفضلة يعتمد على مشاركة الأعضاء بالتحكم الكامل بمحتوياته من خلال إضافة الأخبار والتأثير في ترتيبها عن طريق التصويت (ضرب الخبر).

- إفلق<sup>(٥٦)</sup>: هو موقع إخباريّ (عربيّ) يعتمد على زوّاره في اختيار الأخبار والتصويت عليها ونشرها. حيث يملك زوّار الموقع مطلق الحرّيّة في اختيار الأفضل ونقله للصفحة الرئيسيّة.

/http://italknews.com (٥٢)

/http://globalvoicesonline.org (٥٣)

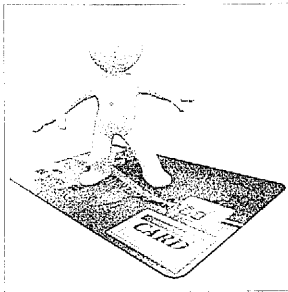
/http://theviewspaper.net (٥٤)

/http://darabet.com (٥٥)

/http://www.efleg.com (٥٦)

- شبكة عرب كرنش نت arabcrunch net<sup>(٥٧)</sup>: هي شبكة اجتماعية باللغة العربية، وتقنية تجمع الرياديين والتقنيين العرب وتدعم الريادة والابداع. موقع أضفني<sup>(٥٨)</sup>: أضفني خدمة جديدة لتحفيز مواقع المشترك المفضلة أون لاين بأمان، والوصول إليها من كل مكان باللغة العربية أيضاً. كل هذه المواقع وغيرها عمقت من علاقة الفرد مع المجتمع الافتراضي لكونه المجتمع الرحب الذي يتيح التعبير وإبداء الرأي والرفض بشكل فعال. وهو المجتمع الذي يوفر للمواطن فضاء غير مقيد بالمعايير الصحفية التقليدية خاصة في ما يتعلق بالمشاهد المثيرة للجدل. فبعد تنفيذ الاعدام بصدّام حسين عام ٢٠٠٦، أصبح الفيديو الذي صُوّر من أحد الهواتف المنقولة مادة متوفرة على الانترنت الذي انتشر بسرعة قياسية ليجذب ١٣ مليون نقرة على اليوتيوب وغوغل فيديو وبرايك دوت كوم Break.com<sup>(٥٩)</sup>. كذلك فقد تجسّد دور المواطن الصحفي بشكل لافت خلال الثورات العربية لا سيما في نقل صور المظاهرات والاحتجاجات والاعتقالات التي أدت دوراً بارزاً في تعبئة الجمهور وتحريك المشاعر وفي نجاح التحركات في إسقاط الأنظمة الاستبدادية، في غياب لافت للمراسلين الصحفيين في نقل الأحداث الذين كانوا نجوماً في حرب العراق وعدوان تموز ٢٠٠٦ في لبنان والحرب الاسرائيلية على غزة عام ٢٠٠٨. لقد كان المواطن الصحفي هو المراسل الأبرز في نقل الأحداث وتزويد المحطات التلفزيونية الكبرى بمقاطع الفيديو المثيرة في كل يوم ومع كل حدث.

### التجارة الالكترونية (e-commerce)



مصطلح جديد في عالم الاقتصاد ظهر مع انتشار الانترنت في مطلع التسعينات من القرن العشرين. وهي أيّ نشاط تجاري يتم عن طريق الانترنت. وهناك من يعرفها بأنها أيّ نشاط تجاري يتم عن طريق استخدام الاتصالات وتقنية المعلومات.

<http://arabcrunch.net/ar> (٥٧)

<http://www.adifni.com> (٥٨)

<http://video.google.com/videoplay?docid=-7532034279766935521#> (٥٩)

هناك أشكال متعددة للتجارة الالكترونية:

- من شركة إلى شركة (Business to Business (B2B): وهي الأكثر من حيث العائد المادي. وعادة ما تتم عن طريق التعامل التجاريّ البحت بين الشركات التي تكون متّصلة ببعضها البعض عن طريق أنظمة تبادل المعلومات الالكترونية التي يوجد لها أشكال كثيرة.

- من شركة إلى مستهلك (Business to Consumer (B2C): وهي عمليات البيع من قبل الشركة والشراء من قبل المستهلك، الأمثلة كثيرة مثل أمازون. كوم. amazon.com التي تعتبر أكبر شركة للبيع على الانترنت. تأسست عام ١٩٩٥ وبدأت تهتمّ ببيع الكتب، لكن سرعان ما توسّع نشاطها لبيع الالكترونيات ومختلف السلع. وشركة ديل deal.com.sg التي أصبحت من أشهر الشركات التي تملك سلسلة تزويد متميّزة مرتبطة بعملائها مباشرة.

- من مستهلك إلى مستهلك (Consumer to Consumer (C2C): وهي المزادات التي يتمّ فيها البيع والشراء عن طريق الانترنت بين شخصين مختلفين. أشهر الأمثلة على هذا القسم هو موقع إيباي (www.ebay.com).

نلاحظ من خلال الأشكال الثلاثة السابقة مدى قدرة الانترنت على زيادة التفاعلات الالكترونية وخلق نمط جديد من التبادلات التجارية ومن التسوّق بين مستخدمي الانترنت وهو ما يعرف بالتسويق الالكترونيّ Internet marketing أو التسويق الرقميّ e-marketing أو التسويق عبر الشبكة web marketing، ويشمل جميع الأساليب والممارسات ذات الصلة بعالم التسويق عبر (الانترنت)، وتحسين التجارة الالكترونية.

تسمح تقنيات التسويق الالكترونيّ بتطوير العلاقة مع الزبائن إلى مستوى لم يبلغ من قبل. كما تساهم في فتح المجال أمام الجميع لتسويق سلعهم أو خبراتهم من دون التمييز بين الشركة العملاقة ذات رأس المال الضخم وبين الفرد العاديّ أو الشركة الصغيرة محدودة الموارد. تمتاز آليات وطرق التسويق الالكترونيّ بالتكلفة المنخفضة والسهولة في التنفيذ مقارنة بالآليات التسويق التقليدية. ولن ننسى بالطبع إمكانية تكييف نفقات تصميم المتجر الالكترونيّ والدعاية له وإشهاره بصورة مجانية أو مقابل ماديّ وفق الميزانية المحددة له، في حين يبدو من الصعب تطبيق مثل هذه الآليات على النشاط التجاريّ التقليديّ.

ومن خلال استخدام التقنيات البرمجية المصاحبة لبيئة التسويق الإلكتروني ولعمليات الدعاية في هذه البيئة الرقمية يمكن ببساطة تقويم وقياس مدى النجاح في أي حملة إعلانية وتحديد نقاط الضعف والقوة فيها كما يمكن توجيهها وتحديد التوزيع الجغرافي للشرائح المقصودة بهذه الحملات وغير ذلك من الأهداف والتي تبدو صعبة التحقيق عند استخدام الوسائل التقليدية.

## الخاتمة

في الختام لا بدّ من إبداء ملاحظات عدّة هي:

- لعلّ أبرز التأثيرات التي خلفتها الثورة التكنولوجية هي سرعة التغيّر بوتيرة يصعب على أفراد المجتمع استيعابها. هذا ما دعا الفيلسوف الفرنسي بول فيريليو Paul Virilio إلى البحث في الفعل الذي أحدثته وتحديثه السرعة في شتى وجوه الحياة المعاصرة. ولعلّ العبارة التي تصدر كتابه «السرعة والسياسة» (Vitesse et politique): «علينا أن نتمهّل لنفكر بالسرعة»<sup>(٦٠)</sup> تختصر مشروعه الفكري الذي يختزله بكلمتين: «فهم السرعة». وإنّ فهم السرعة، هو ما نحتاج إليه في عالمنا الواقعي لكي نستطيع فهم العالم الافتراضي، هذا العالم الذي بات ملازماً لحياة الكثير من أفراد المجتمع لا سيّما الفئة الشابة منه.

- إنّ التفوّق المستقبلي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي مرتبط بمن يسيطر إدارياً وتقنياً على المجتمعات الافتراضية التي تحتوي على مختلف مظاهر الاتصال والتفاعل الرقمي للأفراد والجماعات والمنظمات والمؤسسات المحلية والعالمية. لذا فإنّ هذا الأمر يدعو إلى ضرورة مشاركة مختلف جهود الشركات والدول المختلفة للإسهام في تكوين المجتمعات الافتراضية بمنظورات عالمية متنوّعة، من مجتمعات إنسانية طبيعية مختلفة، بثقافاتها وهوياتها وقدراتها المتميّزة، وآلا يترك الأمر إلى دولة من دون أخرى، أو لشعب من دون غيره من الشعوب.

- إنّ عملية الرصد الثقافي للمجتمعات الافتراضية التي تجري في العالم اليوم لا تدرج بمجملها ضمن سياق الدراسات العلمية الرصينة لفهم الثقافات المتكوّنة ومعالجة

المشكلات العلميّة والتكنولوجيّة والمعرفيّة التي يتعرّض لها الأفراد، بل تنحرف ضمن مصالح السياسات الكبرى التي تسعى إلى رصد التفاعلات الالكترونية لا سيّما بالنسبة إلى دول العالم الثالث لتجسّس عليها وفهم أطباعها وطرق تفكيرها ومواقفها تجاه قضايا سياسيّة محدّدة. هذا ما دفع جوليان أسانج Julian Assange إلى اعتبار الفيسبوك أكبر أداة تجسّس في العالم ابتكرها الإنسان في تاريخ البشرية،<sup>(٦١)</sup> وما دفع أيضاً الكاتب والصحافيّ الألمانيّ ساشا أداميك Sascha Adamek إلى نشر كتابه المعنون: «فخ الفيسبوك - كيف تبيع الشبكة الاجتماعية حياتنا». <sup>(٦٢)</sup> لذا لا بدّ من تحديد أهداف الرصد الثقافيّ للمجتمعات الافتراضيّة ضمن الغايات العلميّة وليس ضمن المصالح السياسيّة.

- إنّ حجم الحركات التفاعليّة التي تنتجها المجتمعات الافتراضيّة كما رأينا، دفعت بعلمي الاجتماع والانتروبولوجيا إلى الاهتمام بأثر العلم والتكنولوجيا المعلوماتيّة في تكوين شخصيّة الإنسان المعاصر، كفرد وكمجتمع، في المجتمع الواقعيّ والمجتمع الافتراضيّ المتداخلين والمتفاعلين بصور متعدّدة. لكن تبقى الجهود العربيّة في هذا المضمار محدودة رغم أنّ المجتمعات الافتراضيّة هذه قد ساهمت وساعدت في تحريك الثورات العربيّة والتأثير في المجتمع الواقعي وقلب موازينه، لذا لا بدّ من تكثيف الجهود لاحتواء المتغيّرات الحاصلة في عالمنا العربيّ وفهم عمق تأثيراتها.

<sup>(٦١)</sup> <http://www.it-scoop.com/2011/05/facebook-spying-machine-assange-wikileaks>

<sup>(٦٢)</sup> ADAMEK Sascha 2011: Die Facebook Falle- Wie das soziale Netzwerk unser Leben verkauft, Heyne

## المراجع

- علي؛ نبيل، ٢٠٠١: الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، عدد ٢٦٥، الكويت.
- محيي الدين؛ محمد، ٢٠٠٤: المشكلات النظرية والمنهجية للبحث السسيوأثنوجرافي، في المجتمعات المتخلية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ٣٢، العدد ٤، الكويت.
- ADAMEK Sascha, 2011: Die Facebook Falle- Wie das soziale Netzwerk unser Leben verkauft, Heyne.
- HASSE-QUAN A., & YOUN A. L.; 2010: Uses and Gratifications of Social Media: A Comparison of Facebook and Instant Messaging. Bulletin of Science Technology & Society, 30.
- GARY Krug: Technology and culture chang, SAGE publications, London-Thousand Oaks, New Delhi.
- RHEINGOID Howard: The electronic version of the Virtual Community, Introduction.
- SCHEUER Michael, 2007: Al Qaeda's Media Doctrine: Evolution from cheerleader to opinion-shaper, Jamestown Foundation Terrorism Monitor Focus 4, no.15, May 22.
- MURPHY Dan and CARROL Jill; 2007: Al Qaeda Ramps Up its Propaganda, Christian Science Monitor, July 16.

## مواقع الكترونية

- BORGMANN Albert, 2000: society in the postmodern era, the Washington Quartey, P 189-200.
- MAGNIER Mark, 2004: China Clamps Down on Web News Discussion", Los Angeles Times, Feb 26.
- LUTZ Meris, 2006: A cyber – platform, for Arab culture, Daily Star, April 6.
- Middle East Media Research Institute; 2006: "YaMouhamad" Website Hosted in US: A Part of Internet Jihad, Special Dispatch, no 1131, March 31,
- [www.memri.org/bin/articles.cgi?page=archive&Area=sd&ID=SP113106](http://www.memri.org/bin/articles.cgi?page=archive&Area=sd&ID=SP113106);
- PHELPS Alan, 2010: "Ow Chat Rooms Work." Smart Computing. Web. 11 July. "?".
- <http://www.smartcomputing.com/articles/archive/R0502/18R02/18R02.pdf>.
- ROOS Dave, (11 July 2010): "HowStuffWorks: How Chat Rooms Work". <http://computer.howstuffworks.com/internet/social-networking/information/chat-room.htm>. Retrieved 23 August 2010.
- SHEERAZ Haji: Building Successful Online Communities.
- [www.getactive.com/pdf/white-papers](http://www.getactive.com/pdf/white-papers).

TURKLE Sherry, (11 July 2010): "Virtuality and Its Discontents.". The American Prospect. <http://hebra.haifa.ac.il/~soc/lecturers/talmud/files/547.htm>

WELLMAN B., 1999: Networks in the global village: life in contemporary communities. Retrieved from.

<http://books.google.com/books?hl=en&lr=&id=vhuOBRPS-pUC&oi=fnd&pg=PA331&dq=im+pacts+of+virtual+communities&ots=7THb6lTp0s&sig=vJ0wFzDrIX4wzQpjwbRKmGLYINs#v=snippet&q=belonging&f=false>

MERRIFIELD William, 2005: MED-TV: Kurdish satellite television and the changing relationship between the state and the media, transnational broadcasting studies journal, no.14, (spring).

[www.tbsjournal.com/archives/spring05/merrifield.html](http://www.tbsjournal.com/archives/spring05/merrifield.html)

<http://www.ektob.com/wp-signup.php>

<http://www.jeeran.com/blogs/>

<http://hffar.com/soon>

<http://www.maktoobblog.com/>

<http://www.tadwen.com/>

<http://blogs.albawaba.com/ar/>

<http://www.qulqal.com/>

<http://mkb.ma/>

<http://www.khabbr.com/>

<http://www.banady.com/>

<http://maktoob.yahoo.com/>

<http://3rabbook.com/>

<http://artwitter.com/>

<http://video.maktoob.com/>

<http://www.naqatube.com/>

<http://www.ikbis.com/>

<http://www.google.com/analytics/>

<http://socialstatistics.com/>

<http://webstats.motigo.com/>

<http://www.socialbakers.com/facebook-statistics/>

<https://dev.twitter.com/blog/introducing-twitter-web-analytics>

[http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators?cid=GPD\\_WDI](http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators?cid=GPD_WDI)

<http://www.itu.int/ITU-D/ict/publications/idi/2011/>





## التوثيق والتحليل النوعي للمادة الثقافية المجمعّة

### تجربة الأرشيف المصري للحياة والمآثورات الشعبيّة

د. عاطف نوار<sup>(1)</sup>

#### ملخص

تناول الورقة البحثية هذه العناصر الهامة للأرشيف، والأرشفة الرقمية للمادة الثقافية، وتتناول بالشرح عمليات التخطيط للعمل من حيث خطط العتاد (بنية تحتية تكنولوجية للمركز الرئيس للأرشيف وكذلك الوحدات الميدانية - الأجهزة المستخدمة في الأرشيف والميدان - البرمجيات الجاهزة والمصممة للأرشيف) وكذلك خطط الكوادر البشرية وما يتعلق بها من تدريب واختبارات للعمل بالأرشيف. مجالات خدمة علم التوثيق المتعددة مثل: العمليات الفنيّة؛ التصنيف؛ التحليل؛ الفهرسة؛ النكشيف؛ المكنز.

المادة المجمعّة وأشكالها وطرق توثيقها:

- 1- الكناينة: كالمخطوطات والمطبوعات والصحف والتقارير والبيانات والمذكرات والكتب.
- 2- التصويرية: كرسم بالزيت أو بالفحم أو نقش على الحجر ... إلخ وربما كانت الصورة شمسية أو سينمائية أو تلفازية.
- 3- الوثيقة السمعية (صوت): وهي في الغالب تسجيلات صوتية أو إذاعية أو تسجيل إسطواني ... إلخ.

(1) المهندس عاطف نوار: مدير تكنولوجيا المعلومات في الأرشيف القومي للمآثورات الشعبيّة. [aanawar@yahoo.com](mailto:aanawar@yahoo.com)  
أرشيف المآثورات الشعبيّة، مصر [www.nfa-eg.org](http://www.nfa-eg.org)

- ٤- الوثيقة المرئية (فيديو): وهي في الغالب تسجيلات سمعية مرئية أو شريط سينمائي... إلخ.  
٥- التجارب الوثائقية والبحثية

## الأرشيف والأرشفة الإلكترونية: مصطلحات، تعريفات وأدوار

إنّ كلمة أرشيف هي كلمة مشتقة من اليونانية، تعني «وظيفة». والوظيفة هنا بمعنى العمل الإداري أو الحكومي. كما تدلّ هذه الكلمة على الرئاسة. وقد أُطلقت أيضًا على مجموع الأوراق والمستندات التي تتجمّع لدى الموظف أثناء عمله. وقد اتّسع معنى كلمة أرشيف في العصر الوسيط، فأصبحت تطلق على أية مجموعة من الوثائق أو المدونات يفترض أن لها قيمة معينة.<sup>(٢)</sup> وفي مطلع العصر الحديث استخدم بعض المؤرخين كلمة أرشيف عنواناً لمؤلفاتهم التاريخية.

والأرشيف كمصطلح، هو: ذاكرة البشريّة وذاكرة الدولة وذاكرة الإدارة معًا. وهو في وضعيته المعاصرة يتقاطع مع المفهوم الذي التصق بالأرشيف في الماضي وبالقائمين عليه، حيث أصبح يمثل اليوم العنصر الأساس في الإدارة. وأعتبر أن الأرشيف هو اللبنة الأولى التي يعتمد عليها في عملية اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

أما الأرشفة الإلكترونية أو الأرشفة الآلية فهي: نظم إدارة الوثائق، أي إمكانية تصوير وفهرسة هذه الأخيرة وتحويل بياناتها. هي، وفي الوقت ذاته، توفر للمستخدم طرقًا كثيرة لاسترجاع هذه الوثائق والبيانات والاطلاع عليها وتداولها إلكترونيًا بسهولة.

يتيح نظام الأرشفة الإلكترونية أرشفة الوثائق والاحتفاظ بها على شكل ملفات إلكترونية، ما يسمح باستغلال الأماكن المخصصة لحفظ الوثائق الورقية، واستخدامها لأمر حيوية أخرى، ولزيادة فاعلية أنظمة الأرشفة الإلكترونية وإمكانية تطبيقها على مستوى الشبكة الداخلية في الإدارة وإمكانية توسيعها في المستقبل من دون أيّ عائق، بحيث يمكن لكلّ مستخدم استعراض الوثائق حسب الصلاحيات الممنوحة له من قبل مدير النظام.

ومن بين التعريفات التي ارتبطت بالأرشيف، أنّ الأرشيف هو الوثائق التي تهتم

(٢) هناء الجوهري (ترجمة)، ٢٠٠٩: موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، المركز القومي للترجمة، مراجعة محمد الجوهري.

الدولة أو إحدى الهيئات أو أحد الأفراد. إلا أن أفضل التعريفات هو أنه كل الوثائق المكتوبة الناتجة من نشاط جماعي أو فردي بشرط أن تكون قد نظمت ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة إلى البحث، وأن تكون قد أحسن حفظها في داخل منظمة واحدة أو موضوع واحد. ومن ثم فإنّ الأرشيف هو مكان ونظام حفظ الوثائق أيًا كانت. ومن هنا تعددت أنواع الأرشيفات تبعًا لتنوع المادة التي تحفظها، وأسلوب الحفظ، وغير ذلك من المتغيّرات. وقد أصبح من المألوف اليوم أن تجد لدى كل مؤسسة خاصة أو عامة مكانًا خاصًا وطريقة خاصة لحفظ وثائقها للرجوع إليها عند الضرورة، أو تيسير وصول الباحثين إليها. وتوجد أرشيفات توثيق حكومية من هذا النوع في أغلب دول العالم، وقد تأسس من هذا النوع في فرنسا على نحو ما يشير جورج ليست.

### الفرق بين أرشيف التوثيق وأرشيف الفولكلور

يختلف أرشيف الفولكلور كثيرًا عن أرشيف التوثيق. يقوم أرشيف الفولكلور، على نحو معين، بحفظ عناصر التراث الشعبي والمهارات الشعبية التي تنتقل من طريق الذاكرة، على حين يقتصر أرشيف التوثيق على حفظ المواد في صورة منشورة أو منسوخة، أو مطبوعة. فأرشيف الفولكلور يحصل على مادته من مصادر متنوّعة، أما أرشيف التوثيق فيحصل عليها من مصدر واحد فقط.

وأرشيف الفولكلور هو المكان الذي تحفظ فيه المادة الميدانية وما شاكلها من صور افتراضية للثقافة culture constructs أو المجتمع. إذ إنّ نصّ الحكاية، والصورة الفوتوغرافية لراويها، ووصف أولئك الذين يستمعون إليها، أو وصف حفل زفاف، أو تحديد خطوات بناء منزل والمواد الداخلة فيه، مثلاً، ما هي إلا محاولات لتقديم صور افتراضية تمثل الواقع الحقيقي للقصص أو الزواج أو البناء، كما يظهر في سلوك الناس في حياتهم اليومية. وكلّما كانت هذه الصورة دقيقة متّصلة بسياقها المعيشي، كلّما ازداد اقترابها من الأصل وارتفعت درجة تمثيلها له. ويتّضح من ذلك أنّ مفهوم الأرشيف قد اتخذ دلالات أوسع من الوظيفة الأصلية له والتي ارتبطت دائماً بالوثائق الورقية. فعند الحديث عن أرشيف الفولكلور، فإنّ مصطلحات، مثل الوثائق الصوتية أو المرئية أو المصورة، أصبحت ذات دلالة مهمّة إلى جانب الوثيقة المكتوبة.

## أرشيف الفولكلور العربي: تاريخية إنشائه

تشير بواكير الاهتمام بإنشاء أرشيف عربي للفولكلور إلى دعوة عبد الحميد يونس عام ١٩٧١ لإنشاء مركز عربي للمأثورات الشعبية، حيث وضع تصوّرًا للأقسام الرئيسة لهذا المركز في أربعة محاور هي: الدراسة والبحث؛ الجمع والتصنيف والأرشيف؛ الأجهزة والآلات المستخدمة في التسجيل السمعي والبصري؛ المكتبة.

ويشير هذا التصوّر إلى أنّ ٧٥٪ من الأقسام المقترحة لمركز الفولكلور العربي قائم على أعمال الأرشفة وتوثيق المادّة، كما يكشف عن أهميّة التقنيّات العلميّة في جمع المادّة الميدانيّة، إذ يؤكّد على أنّ قسم الأجهزة والآلات المستخدمة في التسجيل السمعي البصريّ هو العصب الحيويّ في الجمع والتصنيف والأرشفة لأنّه يسجل، بأمانة، الظواهر والأشكال ويتزعمها من التغيّر والانقراض، ولذلك كان الاعتماد عليها بالغ الأهميّة في مراكز المأثورات الشعبيّة، والتدرّب عليها يتجاوز الفنيّين في إدارتها وإصلاحها إلى العاملين في مجال الجمع والتمييز والتسجيل والأرشفة. أمّا المكتبة فهي تتسع لحفظ المراجع والنصوص الميدانيّة والتسجيلات الصوتيّة والصور الفوتوغرافيّة والرسومات والأفلام التسجيليّة.

وفي منتصف السبعينات، تحديداً عام ١٩٧٥، ظهرت دعوة أحمد رشدي صالح لقيام مركز وأرشيف عربيّ للفولكلور والتنمية، ويوضح الهدف من إنشاء هذا الأرشيف في التالي:

- توفير المواد الوثائقيّة الخاصّة بالفولكلور في المنطقة العربيّة؛
- تحليل هذه الموادّ وتصنيفها طبقاً للمناهج العلميّة المستقرّة؛
- حفظها بعد إعدادها لتكون صالحة للاستعمال؛
- تزويدها والإعلام الدوريّ المنتظم عنها.

وتشير فكرة رشدي صالح آنذاك إلى حتميّة البدء في إنشاء هذا الأرشيف، وبغيره تفقد الجهود التنمويّة وأيضاً النشاطات الفولكلوريّة الكثير من إمكانيّات الاستفادة من هذا التراث الضخم والشديد التنوّع والحيويّة.

## الأرشيفات الفولكلورية في المنطقة العربية

توجد بعض الأرشيفات المتخصّصة في الفولكلور في المنطقة العربية.<sup>(٣)</sup> بعضها يحوي موضوعات الفولكلور المتعدّدة مثل: أرشيف مركز دراسات الفنون الشعبية بالقاهرة، الذي بدأ مع أوّل رحلة جمع ميدانيّ بالمركز عام ١٩٥٨؛ أرشيف الفولكلور الفلسطينيّ؛ أرشيف مركز التراث الشعبيّ لدول الخليج العربيّة بدولة قطر؛ أرشيف الفولكلور السودانيّ؛ وبعضها متخصّص، مثل: مركز عمان للموسيقى التقليديّة بمسقط. هناك، اليوم، حركة دفع أكاديميّة تشير إلى الاهتمام بأرشيف الفولكلور، وتبيّن الاهتمام بوضع الأسس العلميّة لبنائه. من مظاهر هذا الاهتمام دخول أرشيف الفولكلور كقسم مستقلّ وكمادّة رئيسة في مناهج المعهد العالي للفنون الشعبيّة وأقسام الأنثروبولوجيا والفولكلور بجامعة عين شمس وحلوان وأيضًا بجامعة الاسكندرية.

## الأرشيفات الفولكلورية: تطوّرها المحليّ، العالميّ والرؤية المستقبلية لأدوارها

ارتبط الاهتمام العربيّ بأرشيف الفولكلور بالاتّجاه المحليّ والعالميّ، في العقد الأخير، بقضيّة حماية التراث الشعبيّ. وكان من أهم ما أُبجّر في هذا الإطار الاتفاقية الدولية لصون الفولكلور (اليونيسكو ١٩٨٧)، والمؤتمر العام الذي عقده منظمة اليونسكو في باريس (من أكتوبر إلى نوفمبر ١٩٨٩) والذي أوصى بالعديد من البنود المهمّة في هذا الشأن والتي من بينها:

- أ- إجراء حصر على المستوى الوطنيّ للمؤسّسات التي تهتمّ بالفولكلور بغية إدراجها في سجلّات إقليميّة وعالميّة للمؤسّسات المعنية.
- ب- إنشاء نظم للتحديد والتسجيل (الجمع والفهرسة والتدوين) أو تطوير النظم القائمة من طريق إصدار أدلّة، وأدلّة الجمع الميدانيّ، وفهارس نموذجيّة... إلخ. وذلك نظرًا للحاجة إلى التنسيق بين نظم التصنيف التي تستخدمها المؤسّسات.

ج- تنشيط عملية إعداد نظام موحد لتصنيف الفولكلور من خلال إعداد مخطط عام لتصنيف الفولكلور بهدف تقديم التوجيه على المستوى العالمي، من خلال إعداد سجل تفصيلي للفولكلور، من خلال إعداد نظم إقليمية لتصنيف الفولكلور، ولا سيما من طريق مشروعات رائدة إقليمياً.

هذه المحاور الثلاثة تلخص في واقع الأمر الرؤية المستقبلية لأرشيف الفولكلور. ومع نهاية عام ٢٠٠٠، ارتبطت قضية أرشيف الفولكلور ارتباطاً وثيقاً بتكنولوجيا المعلومات والتوثيق، وهذه التكنولوجيا تسبقها جهود مضمينة في الإعداد حتى تتم برمجة المادة الفولكلورية بالشكل العلمي المرجو.

وقد ظهر مصطلح «التراث الثقافي اللامادي» في مطلع سنوات ١٩٩٠، بعد التوصيات التي قدمت عام ١٩٨٩ حول حماية الثقافات التقليدية، في وقت يتجه التراث العالمي أساساً إلى الجوانب المادية للثقافة. وفي عام ١٩٩٧، بادر عدد من المثقفين المغاربة ومنظمة اليونسكو إلى عقد اجتماع في مدينة مراكش المغربية، حدد خلاله مفهوم «التراث الشفوي للإنسانية». وتقرر خلاله التفريق بين أعمال هذا التراث بهدف حفظها وإبراز قيمتها، وذلك في إطار «إعلان روائع التراث الشفوي والتراث اللامادي للإنسانية». وفي عام ٢٠٠١، أعلنت للمرة الأولى قائمة مآثرات تقدمت بها الدول. وتوضع قائمة جديدة كل سنتين. ويجب أن تكون المآثرات المقترحة تعبيراً ثقافياً حياً أو مهذباً، كما يجب أن تكون قد وضعت لها برامج لصيانتها وتطويرها. وفي عام ٢٠٠٣، تبنت الدول الأعضاء في اليونسكو اتفاقية لصون التراث الثقافي اللامادي التي دخلت حيز التنفيذ في شهر نيسان/ أبريل من عام ٢٠٠٦. وقد أعطيت التوجيهات العملية لهذه المعاهدة من قبل اللجنة الدولية الحكومية، وحددت قائمة تمثيلية وأخرى تستوجب الصون العاجل لتظهر عليها المآثرات التي حددت سابقاً وتسجل عليها سنوياً مآثرات جديدة.

في عام ٢٠٠١، قامت اليونسكو بالتحقيق لدى الدول والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية بهدف تحديد مفهوم التراث اللامادي، لتبني اتفاقية لحمايته. وحسب هذه الاتفاقية، التي تمت المصادقة عليها في ٢٠ يناير ٢٠٠٧ من قبل أكثر من ٧٨ دولة، فإن التراث اللامادي أو التراث الحي قد اعتبر بأنه المصدر الرئيس للتنوع الثقافي.

ولقد جاء في هذه الاتّفاقيّة الآتي: «يقصد بالتراث الثقافيّ اللامادّي الممارسات والتمثّلات والتعبير والمعارف والمهارات وكذا الآلات والأدوات والأشياء الاصطناعيّة والفضاءات الثقافيّة المرتبطة بها والتي تعترف بها الجماعات والمجموعات، وإذا اقتضى الحال الأفراد، باعتبارها جزءاً من تراثهم الثقافيّ. وهذا التراث الثقافيّ اللامادّي ينتقل من جيل إلى جيل، ويقع بعثه من جديد من قبل الجماعات والمجموعات طبقاً لبيئتهم وتفاعلهم مع الطبيعة ومع تاريخهم. وهو يعطيهم الشعور بالهويّة والاستمراريّة، بما يساهم في تطوير احترام التنوّع الثقافيّ والابداع الإنسانيّ».

وبصيغة موسّعة، فإنّ التراث الثقافيّ يشمل الثقافة الموروثة عن الأجداد، وإنّ انتقال ذلك التراث في مجموعة بشريّة يضمن دوام هويّتها.

وحثّى بدء القرن الحادي والعشرين، لم يتمّ إعداد أرشيف متخصصّ في الفولكلور قائم على المناهج العلميّة الحديثة. ولا بدّ من توحيد الجهود في جمع المواد الموجودة. مراكز الأبحاث، وكذلك المرتبطة بالجانب الميدانيّ في الأبحاث العلميّة والمادّة الفولكلوريّة الموجودة بأرشيّفات الإذاعة والتلفزيون، والأفلام التسجيليّة.. إلخ، وجميعها تمثّل نواة لأرشيّف الفولكلور. كما ترتبط الحاجة لعمل أرشيّف للفولكلور بإعداد نظام موحد يمثّل شبكة علاقات دقيقة بين عناصر الفولكلور وهو ما أكّده اليونيسكو في العديد من المؤتمرات الدوليّة. والآن، من ٢٠٠٧ وحتى ٢٠١٢، لدينا هذا الأرشيف وتمّت عمليّات التدريب العلميّ على تكنولوجيا المعلومات في بناء قاعدة معلومات وطنية تمثّل أرشيّف الفولكلور.

### أرشيّف المآثورات الشعبيّة: ظروف إنشائه

لقد بذلت محاولات سابقة كثيرة متفرّقة لجمع المآثورات الشعبيّة، لم تَفِ بالعرض. وأصبح من المهامّ العاجلة إنشاء مركز لتوثيق وتنمية الحياة والمآثورات الشعبيّة على غرار ما يعرف عالمياً بأرشيّف الفولكلور. فلا مناص من إنشاء جهاز يرعى جمع المآثورات الشعبيّة ويحفظها للأجيال القادمة، ويعمل على تصنيفها وتنميتها للاستفادة منها، وذلك من خلال وضع استراتيجيّة للعمل، يقوم على تنفيذها؛ فيوفّر الأدوات اللازمة، ويحدّد أولويّات موضوعات الدراسة، ويدرّب الباحثين والجامعين الميدانيّين المصريّين والعرب على أحدث طرق العمل الميدانيّ والعمل المكتبيّ. ويستخدم التقنيّة الرقميّة الحديثة لتوثيق

المعلومات وفهرستها وحفظها، وعرضها بالمطبوعات والوسائط المتعددة للحاسب الآلي، ويتيح كل ذلك للدارسين والباحثين، ويشجع المبدعين على تنمية المأثورات، باستلهاها والبناء عليها، مع المحافظة على الطابع القومي، وتقديمه بما يتلاءم مع مقتضيات حياة تختلف عن حياة الأجداد الذين أوثروا المأثورات للجيل الحالي. كما يمدّ المركز يده للتعاون مع الأجهزة المماثلة في البلاد العربيّة والأجنبيّة.

ولما كان من المناسب أن يكون مقرّ المشروع في حيّ شعبيّ تقليديّ، فقد وافق السيّد وزير الثقافة الأسبق فاروق حسني على أن يتخذ المشروع مقرّه في بيت الخرزاتي، الذي قام بترميمه الصندوق العربيّ للانماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ. ويتولّى الصندوق العربيّ الانفاق على تنفيذ المشروع، ووافق الصندوق على تحويل المبالغ المتبقّية من ترميم منطقة بيت السحيمي الأثريّة لمشروع الأرشيف، ولاحقاً مدّ المشروع بمنحة جديدة بعد نفاذ المنحة الأولى.

قامت كوكبة من علماء الفولكلور المصريّ بإنشاء الأرشيف القوميّ المصريّ للمأثورات الشعبيّة. وكان على رأسها الراحل الدكتور أسعد نديم ورافقه الدكتور صفوت كمال، والدكتور أحمد مرسي الرحلة في مقاومة البيروقراطية الحكوميّة المصريّة، وكلّل الله جهودهم بموافقة الوزير على إنشاء الأرشيف. أطلق الوزير حسني مسمّى مركز الابداع الشعبي عليه، حيث كان في ذلك الوقت ينشئ مجموعة من مراكز الابداع المختلفة في وزارة الثقافة المصريّة، وتبقيّ الموقع - المبنى - فجاهد الدكتور مرسي مع قطاعات الوزارة المختلفة للحصول على موقع ليبدأ الأرشيف عمله، وتنقل بين موقع وآخر، إلى أن توصل مع المسؤولين لاختيار بيت الخرزاتي ليكون المقرّ. مارس الدكتور نديم والدكتور مرسي هوايتهما المعتادة في الصبر ومجاهة البيروقراطيّة. وبعد موافقة الوزير على تخصيص بيت الخرزاتي، بنحو سنتين وثلاثة شهور، تمّ تسلّم البيت في أكتوبر ٢٠٠٧، وتمّت منذ ذلك الوقت العمليّات الضروريّة للتجهيز الداخليّ للمبنى من توصيل شبكات الكهرباء...، وكذلك الأثاث والأجهزة اللازمة للأرشيف؛ كما تمّت دعوة كلّ المختصّين في مصر لحضور الاجتماع التأسيسيّ في ديسمبر ٢٠٠٧، وبدأ الاجتماع الأوّل في يناير ٢٠٠٨، وبدأت أوّل رحلة ميدانيّة بعد تدريب الدفعة الأولى من الجامعيين في مارس ٢٠٠٨، وفي ما يلي ملخصّ سريع للعمليّات داخل الأرشيف.



## أرشيف المآثورات الشعبية: منهجية عمله

مرّت عملية تجهيز أرشيف المآثورات الشعبية بخطوات عدّة هي:

### عمليات التخطيط

#### خطط للعتاد

وتشمل البنية التحتية للأرشيف من تجهيزات أساسية حيث يتمّ تكوين (Data Center) والخاصّة بشبكات الكمبيوتر وشبكات الكهرباء وشبكات الاتّصالات... إلخ، ثمّ فرش المقرّ بالأثاث اللازم من مكاتب ودواليب وأدوات إضاءة... إلخ، كما تمّ توفير الأجهزة المختلفة حيث تنقسم لنوعين أجهزة بالمقرّ الرئيس مثل:

- جهاز السيرفر المركزي، أجهزة مكتبية، أجهزة تخزين أساسية، وحدات تخزين احتياطي، أدوات أرشفة (ماسحات ضوئية)، ماكينات تصوير، طابعات (ألوان - عادية)، وحدات متخصصة (صوت، جرافيك، مونتاج فيديو)...
- أجهزة بالميدان مثل :
- جهاز كمبيوتر محمول («لاب توب»)، كاميرا فيديو رقمية، كاميرا تصوير ثابت، مسجّل صوت رقمي، بطاريات إضافية، وصلة إنترنت لاسلكية، وحدات للتخزين الاحتياطي.

#### خطط الكوادر البشرية

تمتّ عمليات الاختيارات والاختبارات وكذلك التدريب للكوادر البشرية المرشحة للعمل في الأرشيف لانتقاء أفضل العناصر المؤهلة لإنجاز مهامّ الأرشيف. ولقد تمّت مراعاة: تخطيط القوى العاملة، تحليل وتصميم الوظائف، الاستقطاب والاختيار والتعيين. وتمّ الاعلان عن طريق الاعلانات المختلفة (الجرائد - الجامعات...) . وبعد ذلك تمّت عمليات الاختيار بناءً على دراسة السيرة الذاتية، ثمّ أجريت مجموعة من المقابلات والاختبارات. وبعد ذلك قام الأرشيف بتنمية الموارد البشرية من خلال التأهيل والتهيئة المبدئية، التدريب والتنمية، التطوير الإداري والتنظيمي.

عقدت دورات تدريبية للمجموعة المختارة في كل فروع علم الفولكلور. وبلغ

إجماليّ من تمّ تدريبهم ١٧٠ من خريجي الجامعات من مختلف التخصصات على عمليّات الجمع والتوثيق والتصنيف. بمعاونة ١٦ أستاذًا من المتخصّصين في المآثورات الشعبيّة والمواد والمهارات ذات الصلة. وقد تمّ اختيار أربعين جامعًا وجامعة ميدانيّين من بينهم، وهم الذين ينهضون الآن بعمليّات الجمع الميدانيّ. وعمد بعدها لتدريب مجموعة متخصّصة من خريجي المعهد العالي للفنون الشعبيّة بأكاديمية الفنون، وخريجات شعبة الأثر وولوجيا والفولكلور بكلّيّة بنات عين شمس لاختيار أفضل العناصر للالتحاق بفريق الجمع الميدانيّ للأرشيف.

### خطط الجمع

إتبع الأرشيف في البدء مجموعة من خطط الجمع التي تمّ تنفيذها بالتوالي لتحقيق التكامل في جمع المادّة الميدانيّة من كلّ الجوانب. وتتلخّص خطط الجمع في ما يلي:

- الجمع الاستطلاعيّ حيث أطلقت مجموعات الجمع في كلّ المحافظات لرصد الظواهر الفولكلوريّة المتاحة بالمنطقة.

- الجمع المتعمّق لموضوع معيّن. بمنطقة معيّن: حيث أطلقت مجموعات الجمع في مناطق محدّدة لرصد ظواهر فولكلوريّة محدّدة.

- الجمع الأطلسي لموضوع معيّن: حيث أطلقت مجموعات الجمع في عدد من الأماكن لرصد ظاهرة فولكلوريّة محدّدة.

بلغ عدد الرحلات الميدانيّة التي قام بها الجامعون بالأرشيف (حتّى مارس ٢٠١٢) ٣١٤٥ رحلة لاستكشاف المعمور المصريّ. ولقد تمّ تسجيل ٣٩٢٨ ساعة فيديو (صوت وصورة) تحوي ٣٥٤١٩ مقطعًا، وتسجيل ٩١٥ ساعة (صوت) تحوي ٧٦٦٤ مقطعًا، وتمّ حفظ ١٧٤٢٩٣ صورة فوتوغرافيّة، كما تمّ الجمع من ٢٦ محافظة من بين جميع محافظات مصر.

### الهيكل التنظيميّ لأرشيف المآثورات الشعبيّة

#### الهيكل الإداريّ

يضمّ:

- مجلس الأمناء: وتتلخّص مهامّه في الاهتمام بالعلاقات الخارجيّة للأرشيف.

- مجلس الإدارة: يهتمّ بالشؤون الإداريّة والماليّة... إلخ

- مجلس الخبراء: يهتمّ بكلّ العمليّات الفنيّة للأرشيف، وهو عصب العمل في الأرشيف حيث تتركز كلّ المهامّ في هذا المجلس.

### الهيكل البشريّ

ويشمل الخبراء المتخصّصين في المجال، ومساعدين على درجة عالية من التأهيل، والجامعيين الميدانيّين.

- المتابعة يقوم بها العلماء أنفسهم سواء في الميدان، أو في قسم المتابعة في مركز المآثورات نفسه.

- تكنولوجيا المعلومات: مجموعة مؤهّلة في كلّ تخصّصات تكنولوجيا المعلومات (قواعد بيانات - برمجية... إلخ)

### الهيكل التنظيميّ (الإدارات أو القطاعات)

#### قطاع المآثورات الشعبيّة (التخصّص)

تمّت عملية تطويره ليوكب التصنيف العالميّ وبخاصّة اليونيسكو.

- التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهيّ: تخصّص الأدب الشعبيّ، تخصّص التاريخ الشفاهيّ.

- فنون وتقاليد أداء العروض: تخصّص فنون العرض الشعبيّ، تخصّص الموسيقى الشعبيّة، تخصّص الرقص الشعبيّ.

- الممارسات الاجتماعيّة والطقوس والاحتفالات: تخصّص العادات والتقاليد، تخصّص المعتقدات الشعبيّة، تخصّص الألعاب الشعبيّة.

- المعارف والممارسات المتعلّقة بالطبيعة والكون: تخصّص المعارف الشعبيّة.

- المهارات المرتبطة بالفنون الحرفيّة التقليديّة: تخصّص الثقافة المادّية، تخصّص الموتيقات الشعبيّة، تخصّص الأزياء والحلي الشعبيّة.

#### قطاع الجمع الميدانيّ (المحافظة)

حيث يتمّ الجمع من المحافظات المصريّة المختلفة بتكوين مجموعات من الجامعيين الميدانيّين من داخل المحافظة وكذلك من خارج المحافظة، ليتّم التكامل بين الجامعيين حيث يسهل الجامع من داخل المحافظة سبل الحياة ومعرفة التفاصيل الدقيقة للحياة

اليومية، ويقوم الجامع من خارج المحافظة باكتشاف عناصر التمايز الموجودة بالمحافظة. وهناك نظام محاسبي خاص بالجامعين الميدانيين قائم على المحاسبة على الساعة الميدانية<sup>(٤)</sup> التي تم جمعها، وتختلف في حالة أن يكون الجامع في محافظته أو خارج نطاق الإقامة المعتادة له.

### قطاع تكنولوجيا المعلومات والتقنيات

ويشمل قسم قواعد البيانات، قسم البرمجة (البرمجة المكتبية، برمجة الويب)، قسم نظم المعلومات الجغرافية، قسم الجرافيك، قسم المونتاج، قسم الصوت، قسم الشبكات والصيانة.

### مذكرات تفاهم:

- مع المجلس الأعلى للآثار لتخصيص جزء من بيت الخرزاتي (منطقة السحيمي الأثرية) بحي الجمالية، في قلب القاهرة الفاطمية ليكون مقرًا لمركز الابداع الشعبي والأرشيف القومي للمأثورات الشعبية، في ٩/١٠/٢٠٠٧.

- مع الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية في ٢٨/١/٢٠٠٧ لتتولى الإشراف على الجانب العلمي للأرشيف، كما قدمت المواد التي لديها مما قامت بتسجيله لتكون جزءاً من الأرشيف.

- مع المكتب الاقليمي لمنظمة اليونيسكو والمفوضية العامة للاتحاد الأوروبي لمشروع احتفالات الشمس.

- مع مركز تحديث الصناعة لمشروع الحرف.

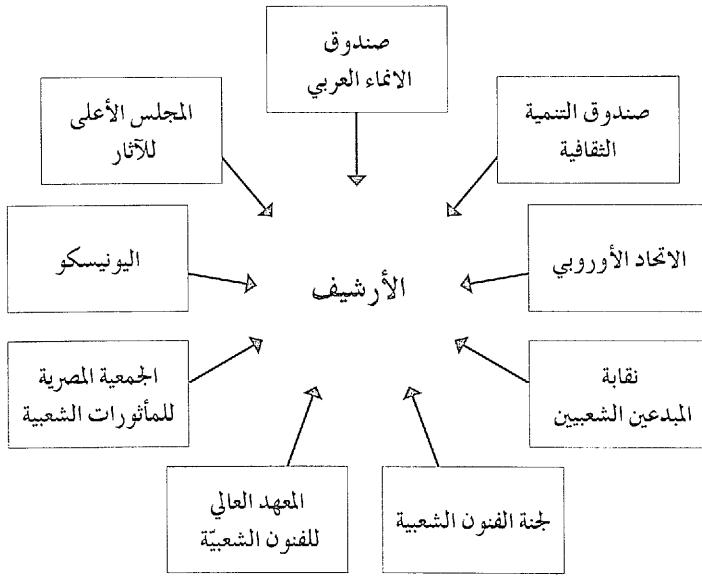
تمرّ المادة الفولكلورية داخل الأرشيف بثلاث مراحل رئيسة هي:

### - مرحلة الجمع الميداني

إذا كانت مرحلة الجمع الميداني مرتبطة بالأساليب والأدوات العلمية المعروفة، ومرحلة التحليل مرتبطة بالمناهج والنظريات العلمية المعروفة أيضاً، فإنّ مرحلة الأرشفة هي التي توجه أسلوب الجمع الميداني للمنطقة أو الموضوع الذي يحتاج إليه الأرشيف، كما أنّها تقدّم العناصر الفولكلورية التي تحتاج إليها مرحلة التحليل. ومن

(٤) المادة الميدانية تحتوي على المادة المسجلة، سواء صوت أو فيديو أو صور ثابتة بالإضافة إلى توثيقها على البرنامج المعدّ على الحاسب المصاحب للجامع، وكذا التدوين، وتقارير المشاهدات، وطرق السفر وتكاليفه... الخ

هنا كانت أهميّة أرشفة المادّة وتصنيف عناصر الظاهرة الفولكلوريّة. في جانب أن الأرشيف مرحلة وسط بين الجمع والتحليل، فإنّه أيضًا يدعم هاتين العمليّتين في إطار البحث الفولكلوريّ المنظّم بصفة عامّة. وهذه المراحل لا يمكن تصوّرها على هذا النحو التتابعيّ البسيط، بل إنّها تتشابك جميعًا لتعطينا هذا الشكل الذي نطرحه على سبيل التعريف. فالأصل داخل المؤسّسة الفولكلوريّة ألا نقوم بعمليّات جمع ميدانيّ من دون أن ننظر داخل الأرشيف لنقف على احتياجاته.



رسم توضيحيّ لتفاعل الأرشيف مع الجهات المختلفة

وعند جمع المادّة ينبغي أن تخضع للتحليل المبدئيّ قبل أرشفتها، وعند الانتهاء من الأرشفة، تكون المادّة في حالة تسمح بالتحليل المرتبط بالنظريّات والمناهج التي من شأنها استخلاص الوظائف والنتائج. وأرشيف الفولكلور يتمّ بداخله العديد من العمليّات التقنيّة المرتبطة بمناهج وأدوات للعمل، وينبغي أن يكون هناك تصوّر عام منهجيّ عام لأرشيف الفولكلور، ومناهج وأدوات توثيق المادّة، وتصورّ عام

لتصنيفات العلم، وأدوات مساعدة للأرشفة كـبيلوجرافيات الفولكلور، ومكنز للفولكلور، وبرامج الوسائط المتعددة وغيرها. ويرتبط جمع المادة الميدانية بغرض حفظها بالأرشفة بالتعرّف أولاً إلى المادة الموجودة بالفعل داخل الأرشيف حتى يتسنى لنا تحديد ماهية المادة التي نريد جمعها وإضافتها، ومن ثمّ فإنّ عملية الجمع هنا تتخذ مسارين رئيسين:

- الأول: جمع مادة غير موجودة بالفعل داخل الأرشيف.
  - الثاني: تحديث مادة تمّ جمعها من قبل، للوقوف على التغيّرات التي طرأت على هذه المادة ورصد استمراريتها، أو انحسارها، أو تبدّل وظائفها.
- ومن هنا فإنّ الباحث الذي يقوم بجمع مادة بغرض حفظها في الأرشيف، يختلف منهجياً عن الباحث الذي يجمع مادة بغرض عمل بحث في موضوع ما، فالأخير يهدف لجمع مادة تخدم أغراض بحثه فقط، على حين يهدف الأول لجمع مادة في إطار نظام أشمل لجمع العناصر الفولكلورية ضمن خطة موضوعية مسبقاً لهذا الغرض. وعلى هذا النحو فإنّ أرشفة الفولكلور تتمّ داخله العديد من العمليات التوثيقية التي يمكن اختصارها، والتي تبدأ بتصنيف المادة المجموعة واستخلاص عناصرها وضبط موادّها طبقاً لقائمة علمية موحّدة للمصطلحات كمكنز للفولكلور أو قائمة لرؤوس الموضوعات.

- المادة المجمّعة وأشكالها وطرق توثيقها:

يقوم الجامع الميدانيّ بإجراء المقابلات في الميدان لرصد الظاهرة الفولكلورية، ويكون مجهزةً بمجموعة من الأجهزة لمعاونته على إنجاز مهامّه وهي: لاب توب، كاميرا فيديو رقمية، كاميرا تصوير فوتوغرافي رقمية، مسجّل صوت رقمي، برنامج قواعد البيانات مثبت على الكمبيوتر الخاصّ به... إلخ ويقوم بإنجاز ما نسميه الرحلة<sup>(٥)</sup> وتشمل الرحلة المادة الميدانية بالإضافة إلى مجموعة من التفاصيل التي يجب على الجامع إدخالها في قواعد البيانات مثل:

(٥) عندما يسافر الجامع لإحدى محافظات مصر في مهمة جمع ميدانيّ تسمّى رحلة وتتمّ تسميتها في قواعد البيانات وفقاً للاسم القرية، مركز، محافظة / تاريخ الجمع / اسم الجامع... مثال: (الجمالية ٢٠١٢/١/٢٠ عاطف نوار)

## - الرحلة

تحدّد بالمكان (شقة، منزل، شارع، قرية، مركز، محافظة، بلد)؛ بالتقسيم (بدو، ريف، حضر، صيد،... )؛ بالزمان (ثانية، دقيقة، ساعة، يوم، شهر، سنة)؛ بالجامع (اسم، عنوان، هاتف،... )؛ بالكاميرا (ماركة، موديل، سنة الصنع)

## - الفيديو، الصوت، النصوص

يحدّد العنوان، اسم الملف (المسار)، الإخباري (اسم، عنوان، هاتف،... )، الكاميرا (ماركة، موديل، سنة الصنع)، الوسيط، الدقة (pixel للفيديو و mhz للصوت)، الحجم size ، المدة، عدد الصفحات بالنسبة للنصّ.

## - الصور (بيانات الملف المسجلة أوتو)

Filename, "Filedate", "Filesize", "Make", "Model", "Description", "Artist", "Copyright", «Date modified», «Orientation», «X-Resolution», «Y-Resolution, «Resolution unit», «Firmware version», «White point», «Primary chromatic», «YCbCr coefficient», «YCbCr -Positioning», «Ref. black/white», «Comment», «Date taken», «Date digitized», «Exposure time [s]», «Exposure program», «Exposure mode», «Exposure bias [EV]», «Exposure index», «F-Number», «Focal length [mm]», «35mm focal length [mm]», «ISO value», «Shutter speed [s]», «Aperture», «Max. ... etc

يسجّل للصور أيضًا العنوان، اسم الملف (المسار)، الإخباري (اسم، عنوان، هاتف،... )، المراجع (اسم، عنوان، هاتف،... )، العدسة المستخدمة والوسيط.

## - الجهة التي تمّت معها عملية الجمع

يحدّد الاسم، الجنسية، المحافظة، المركز، القرية، العنوان، الهاتف (عمل، منزل، موبيل)، البريد الإلكتروني، الموقع على الانترنت.

## - جامع المادة والإخباري

تحدّد لل اثنين: الاسم، الجنسية، المحافظة، المركز، القرية، العنوان، البريد الإلكتروني، الموقع على الانترنت، الهاتف (عمل، منزل، موبيل)، تاريخ الميلاد، الحالة الاجتماعية (عدد الأولاد)، النوع، المؤهلات العلمية (الدرجة العلمية، التاريخ، المكان،... )، الوظائف (اسم الوظيفة، جهة العمل، تاريخها،... )، الصورة.

تتميّز بطاقة جامع المادة عن الإخباري تاليًا: تحدّد للأول المؤلفات العلمية (إسم

المؤلف، نوعه، تاريخه، عدد الصفحات...)، بينما تحدّد الثاني رقم بطاقته وجهة الإصدار.

#### - الأدوات المستخدمة

كاميرا تصوير ثابت (ماركة، موديل، سنة الصنع، العدسة المستخدمة، وسيط التخزين، الدقة resolution، سنة الصنع، العدسة المستخدمة)، أو كاميرا فيديو، مسجل الصوت، كمبيوتر.

كما ويحدّد للمادّة المسجّلة التالي: المكان (الدولة (محافظة، مركز، قرية...))، التقسيم (بدو، ريف، حضر، صيد...)، المؤلفات (المراجع) (إسم المؤلف، نوعه، تاريخه، عدد الصفحات...)، الأخبار (اليوم، الحدث، الموضوع)، الموضوع إن كان يتمحور حول الثقافة المادّية (حرف: فخار، نحاس... أو فنون، أو الأدب، أو العادات والمعتقدات...).

#### - المادّة الموثّقة وبرمجتها الكترونيّاً:

تمّ إعداد برنامج خاصّ ليكون الوعاء لكلّ البيانات التي حدّدت سابقاً ليسهل إدارتها. وزوّدت به أجهزة الجمع الميدانيّ. سنورد في ما يلي توصيفاً مختصراً عن هذا البرنامج، ونبدأ بـ:

شاشات برنامج الجامعين وتتكوّن من:

#### - الشاشة الافتتاحيّة للبرنامج

تحتوي بيانات الدخول الخاصّة لكلّ جامع، حسب درجة السريّة الخاصّة به حيث يتمّ إدخال الاسم وكلمة المرور الخاصّة، حيث تربط كلّ مادّة ميدانيّة سيتمّ توثيقها من خلال البرنامج بكود الجامع.

#### - الشاشة الرئيسيّة لبرنامج الجمع الميدانيّ

تحتوي على: بيانات مكان الجمع (قرية / مركز / محافظة، التاريخ (يوم / شهر / سنة) وكذلك الوقت، العنوان بالتفصيل، نوع مكان التسجيل، وسيلة المواصلات، تكلفة السفر، ملاحظات، ومجموعة من الروابط داخل البرنامج.

#### - شاشة إدخال بيانات الاخباري

تحتوي على: اسم الإخباري / اسم الشهرة / النوع (ذكر أنثى) / العنوان / مكان



الميلاد، تاريخ الميلاد / الحالة الاجتماعية / الوظيفة / الديانة / هاتف / عدد الأولاد إن وجد ... إلخ ... كما تحتوي على شاشة لاحقة لبياناته مثل الحالة الصحيّة / الخبرات - شاشة توثيق ملفات الصوت:

تحتوي على: قائمة بمحتويات الرحلة من ملفات صوت، مسار ملفّ الصوت / موضوع ملفّ الصوت / اسم الاخباريّ (المصدر) / اسم الجامع، التصنيف المبدئي / مدّة الملفّ الفعلية، الجامعون المشاركون / المقاطع، هل الصوت مصاحب لفديو، هل يحتاج الصوت إلى معالجة...، ملفات التدوين المرفقة، أداة التسجيل.

- شاشة توثيق ملفّات الفيديو:

تحتوي هذه الشاشة على: قائمة بمحتويات الرحلة من ملفات فيديو، مسار ملفّ الفيديو / موضوع، ملفّ الفيديو / اسم الاخباريّ (المصدر) / اسم الجامع، التصنيف المبدئي / مدّة الملفّ الفعلية، الجامعون المشاركون / المقاطع، ملفات التدوين المرفقة، أداة التسجيل...

- شاشة توثيق الصور:

تحتوي على: قائمة بمحتويات الرحلة، مسار ملفّات الصور / موضوع ملفّ الصور / اسم الاخباريّ (المصدر) / اسم الجامع، التصنيف المبدئي / مدّة الملفّ الفعلية، الجامعون المشاركون / المقاطع، ملفات التدوين المرفقة، أداة التصوير...

## مرحلة الأرشفة

التصنيفات الداخلية للأرشيف: تمّ تقسيم الفروع الداخلية في الأرشيف إلى خمسة أفرع رئيسة ويحتوي كلّ فرع منها على مجموعة متجانسة من الفروع الدقيقة وهذا التقسيم متوافق مع الاتفاقية.

- |                              |                     |
|------------------------------|---------------------|
| ١- الأدب الشعبي              | ٦- فنون العرض       |
| ٢- الثقافة المادية           | ٧- الموسيقى الشعبية |
| ٣- العادات والتقاليد الشعبية | ٨- الرقص الشعبي     |
| ٤- المعتقدات                 | ٩- الألعاب الشعبية  |
| ٥- المعارف                   | ١٠- التاريخ الشفاهي |

## الأدب الشعبيّ

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات الأدب الشعبيّ:

الحكي (القصّ)، الأغاني، الشعر الشعبيّ، الأمثال، نصوص الرقيّ والتعاويز، الأدعية، الألغاز، النكت، التعابير والأقوال السائرة، نداءات الباعة، التلاسن، المعاضلات اللسانية، التمثيليّات والنصوص الدراميّة، الإيماءات والإشارات، الكتابات الجداريّة واللافتات، الرسائل النصّيّة SMS، اللهجات، عبارات الاستجداء (الشحاذة)، هتافات المشجعين في المباريات.

نموذج لتصنيف موضوعات الأدب الشعبيّ المستوى (الثاني):

الحكي (القصّ) وضمّنه:

الأساطير (أساطير الخلق، الأساطير الكونيّة، الطقوسيّة، التاريخيّة)؛ قصص الخوارق (قصص الأنبياء النثريّة)؛ الملاحم؛ الحكايات (الحدوته (الحكاية الخرافيّة)، الحكاية الشعبيّة، حكايات الحيوان، الحكايات الفكاهيّة والنوادر، حكايات المعتقدات، حكايات التذكّر أو الحياة اليوميّة، الحكايات التراثيّة، قصص الحب التراثيّة، فهرست طرز الحكايات، فهرست عناصر الحكايات)؛ السير الشعبيّة (سيرة عنتر بن شداد، سيرة سيف بن ذي يزن، سيرة ذات الهمة، سيرة حمزة البهلوان، سيرة فيروز شاه، سيرة الزير سالم، سيرة الظاهر بيبرس، سيرة الجندبة، سيرة علي الزبيق، السيرة الهلالية، رواة السيرة المحترفون، رواة السيرة غير المحترفين، أداء السيرة الهلالية، سير أخرى).

## الثقافة المادّيّة

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات الثقافة المادّيّة: الحرف والفنون الشعبيّة، العمارة الشعبيّة، الغزل والنسج والملبوسات، الأغذية والمأكولات والمشروبات، الزراعة والرعي والصيد، النقل والمواصلات، الآلات والأدوات المستخدمة في الموسيقى، الأدوات المستخدمة في العروض والدراما والرقصات والألعاب الشعبيّة، الأدوات المرتبطة بممارسة العادات والمعتقدات والمعارف الشعبيّة.

## العادات والتقاليد الشعبيّة

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات العادات والتقاليد: دورة الحياة، آداب وتقاليد الضيافة، عادات المأكّل والمشرب، الأطعمة الشعبيّة المنزليّة، المطاعم الشعبيّة،

التدخين، المشروبات، الأسواق الشعبيّة، العلاقات الأسريّة، آداب السلوك، الممارسات المرتبطة بالأنشطة الاقتصادية، الاحتفالات الشعبيّة، القانون العرفي.

### المعتقدات

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات المعتقدات: الطعام، المرأة، الطفل، الأماكن، التفاؤل والتشاؤم، العرافة والتنجيم، الأحلام، الحسد، الأولياء، الطرق الصوفيّة، القديسون، المخلوقات الغيبية، السحر، الزار، التصوّرات عن الذات وعن الآخر، الاحتفالات الدينيّة، الاحتفالات الاجتماعيّة، التعابير الاعتقاديّة، العلاج الشعبي، إخباريون للمعتقدات.

### المعارف الشعبيّة

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات المعارف الشعبيّة: الطبّ الشعبي، معارف حول الطيور، معارف متّصلة بالحيوان، معارف حول الزراعة، معارف حول المناخ والطقس والاتجاهات والوقت، معارف متّصلة بالحشرات والزواحف والقوارض، معارف حول اقتفاء الأثر، معارف حول المياه، معارف حول الصيد، معارف حول النجوم والكواكب، معارف حول الأغذية، معارف حول المقاييس للموازين والمكاييل والمسافات والمساحات والكمّيّات والأحجام، معارف حول التجميل والنظافة والبخور.

### فنون العرض

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات فنون العرض: فنون الدراما الشعبيّة، فنون الفرجة، الأهالي المشاهدون أو المشاركون من الجمهور، فنون الأداء (المؤدّون).

### الموسيقى الشعبيّة

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات الموسيقى الشعبيّة: الآلات الموسيقية والأدوات، الأغاني، المعزوفات، الفرق الموسيقية (التكوينات الآلية)، المؤدّون الشعبيون.

### الرقص

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات الرقص الشعبي: رقصات ذات وحدات حركيّة وثابتة، رقصات ذات وحدات حركيّة تطويحيّة، رقصات ذات وحدات

حركية تمائليّة، رقصات ذات وحدات حركية ارتعاشيّة، رقصات ذات وحدات حركية اهتزازيّة، رقصات ذات وحدات حركية دورانيّة.

### الألعاب الشعبيّة

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات الألعاب الشعبيّة: ألعاب المناسبات، ألعاب تنافسيّة، ألعاب القرعة والتخمين، ألعاب الصيد، ألعاب ورقية، ألعاب القمار.

### التاريخ الشفاهي

المستوى العام (الأوّل) لتصنيف موضوعات التاريخ الشفاهي: قصّة الخلق، تاريخ: الأنبياء الرسل، آل البيت، الأولياء والقديسين، الطرق الصوفيّة، الملوك والأمراء والقادة، البلاد، المدينة، القرية، القبيلة، الأماكن المقدّسة، الأماكن الأثريّة، نهر النيل، الأبار وعيون الماء، تاريخ الحرف والمهن وأدواتها، المناسبات التاريخيّة لبدء الاحتفالات، الأعلام، تاريخ متنوع، السير الشعبيّة، القصّ الغنائي.

### مرحلة التحليل

شاشات برنامج الخبراء وتتكوّن من

#### شاشة الافتتاحيّة

تتيح التعامل مع كلّ فرع من الفروع المختلفة للمأثورات الشعبيّة بخصوصيّة تامّة، وكذلك من المحافظات المختلفة، حيث يتمّ دخول مسؤول الفرع أو مسؤول المحافظة بكود مخصّص وكلمة سرّ خاصّة بالقسم.

#### الشاشة الثانية

فيها يقوم المستخدم بإدخال كود الخبير في خانة (كود الخبير) أو إدخال كود المساعد في خانة (كود المساعد) أو كلاهما. وهنا يكون التخصّص أكثر دقّة، بحيث يمكن للمستخدم أن يختار أن يدخل على مجموعة معيّنة من الرحلات تقسم بحسب المحافظة أو التصنيف أو التقويم. ويمكن ذلك عبر خانة (نوع الفرز) وخاصيّة الفرز.

#### الشاشة الرئيسيّة

تحتوي على: إجمالي عدد الرحلات الخاصّة بالقسم والتي يجب عليه الانتهاء منها

بيانات الرحلة (مكان / جامع / تاريخ) / وصف للعنوان الذي تمّ الجمع منه بالتفصيل / نوع مكان التسجيل / تكاليف السفر / ملاحظات الجامع. بالشاشة أيضًا أزرار الوصول لملفات الفيديو والصوت والصور والتدوين والتقارير ... الخاصّة بالرحلة.

#### شاشة تحليل وتصنيف ملفات الفيديو

تحتوي على: قائمة بملفات الفيديو وملفات التدوين الملحقة بها تصنيف المقاطع عبر الفروع المختلفة، جودة المادة، موضوع الملف / أداة التسجيل / الجامع / الإخباري / التصنيف المبدئي / النهائي، المدّة الفعلية / المدّة المعتمدة ...

#### شاشة تحليل وتصنيف ملفات الصوت

تحتوي على: قائمة بملفات الصوت وملفات التدوين الملحقة بها، تصنيف المقاطع عبر الفروع المختلفة، جودة المادة، موضوع الملف / أداة التسجيل / الجامع / الإخباري / التصنيف المبدئي / النهائي، المدّة الفعلية / المدّة المعتمدة ...

#### شاشة تحليل وتصنيف ملفات الصور

تحتوي على: قائمة بملفات الصور وملفات التدوين الملحقة بها وشاشة عرض للصور، تصنيف المقاطع، جودة المادة، طلب معالجة الصورة بقسم الجرافيك، موضوع الملف / أداة التسجيل / الجامع / الإخباري / التصنيف المبدئي / النهائي، المدّة الفعلية / المدّة المعتمدة ...

يشمل البرنامج الإلكتروني الذي وصفنا أقسام شاشاته الخاصّة بالجمع الميداني، التصنيف، التحليل، شاشات أخرى يتمّ من خلالها كتابة التقارير، التدوين عبر مراجعة التدوينات السابقة ومطابقة تسميتها مع أسماء ملفات الصوت أو الفيديو الموجودين بالرحلة. كما وإدخال أو تعديل التصنيفات على شجرة التصنيف (المكنز) لكل قسم على قاعدة البيانات ليتّم استخدامها في تصنيف الملفات (الصوت أو الفيديو أو الصور).

وتستخدم في قسم تكنولوجيا المعلومات والتقنيّات لتوثيق المعلومات وفهرستها وحفظها، وعرضها بالمطبوعات والوسائط المتعدّدة للحاسب الآلي برامج متعدّدة أخرى تهدف ل: معالجة الصوت، الصور (الجرافيك)، لاختيار المنتجات (مخرجات للنشر)، للعهدّة، كما ولفك النسخ الاحتياطيّة.





## الهراجج

- الجوهري؛ محمد، ٢٠٠٠: علم الفولكلور، الجزء الأول، المعرفة الجامعية.
- هناء الجوهري (ترجمة)، ٢٠٠٩: موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، المركز القومي للترجمة، مراجعة محمد الجوهري.



## البحث النوعي باستخدام Atlas - Ti

د. يوسف كفروني<sup>(١)</sup>

### ملخص

تعرض الورقة أهمية برنامج أطلس - تي في الأبحاث النوعية، وتبين منهجية عمل هذا البرنامج وقدراته في التجميع، الحفظ، وفي المساعدة على تحليل معطيات المادة المجمعة بحيث لا تهمل أي معلومة مرتبطة بالتوثيق، الجمع الميداني، كما وملاحظات الباحث المرافقة لها.

### مقدمة

إن تحليل البيانات النوعية هي عملية تتطلب جهداً كبيراً لتحديد الموضوعات الأساسية التي تتضمنها، وبناء الفرضيات كما تظهر منها، والتحقق من صحتها وتوضيح العلاقة بين البيانات والموضوعات ونتائج الفرضيات. إنها عملية تفكيك البيانات وتجزئتها، وإعطاء الرموز الدالة على هذه الأجزاء أو المقاطع وربطها وإعادة تركيب نص جديد. لقد أدى تطوّر برامج التحليل بواسطة الكومبيوتر إلى نتائج مهمة في هذا المجال، ولفت الانتباه أكثر إلى ميدان البحوث النوعية. كانت البداية مع التحليل الكمي، ثم توسّعت إلى تحليل البيانات النوعية، وقد تنوّعت البرامج المخصصة لذلك.

(١) الدكتور يوسف كفروني: أستاذ علم الاجتماع السياسي في الجامعة اللبنانية، خبير في برنامجي SPSS و Atlas - Ti.



## برنامج الأطلس - تي والتحليل النوعي

إنّ برنامج الأطلس - تي يمكن اعتباره عاملاً مساعداً على البحث النوعي، بسبب اختصاره الكبير للوقت من جهة والقدرة الهائلة التي يقدمها للباحث لإدارة وتنظيم وتحليل بياناته، بحيث لا يضيع منه أي تفصيل. ولكن يبقى الباحث هو الأساس أولاً وأخيراً. تكوّنه المعرفي في مجال الاختصاص وفي موضوع البحث، التزامه المنهجية العلمية وقدراته التنظيرية والتحليلية وخبرته وتجاربه ومواهبه، هي التي يركز عليها في العمل البحثي.

أطلس - تي هو إذاً برنامج لتحليل البيانات النوعية إلكترونياً، وهو يتعامل مع أشكال مختلفة من النصوص والرسوم والخرائط والتسجيل الصوتي وتسجيلات الفيديو. يقدم البرنامج تسهيلات كبيرة للعاملين في مجال البحوث النوعية في مختلف الميادين والتخصصات العلمية: الاجتماعية والانسانية والعلوم الاقتصادية والتطبيقية وغيرها. ويتعامل مع النصوص في جميع اللغات الأجنبية والعربية.

## برنامج الأطلس - تي: هيكلية

عند بدء البرنامج يظهر أمامك ثلاث كلمات تختصر عمليات التحليل النوعي للبيانات: Collect-Connect-Analyze أي تجميع - ربط - تحليل  
هناك مستويان للعمل مع أطلس - تي: مستوى البيانات ومستوى المفاهيم.  
قبل البدء في العمل على برنامج أطلس - تي، يجب إعداد البيانات الخاصة بك وإنشاء مشروعك البحثي، ونسخها في ملف خاص وتخزينها في المكان الذي تحدده في الكمبيوتر.

## العمل على مستوى البيانات

يشمل هذا العمل تعيين الوثائق الأساسية، البيانات (النصوص والرسوم والخرائط والتسجيلات السمعية والبصرية) المتعلقة بمشروع البحث وإعطائه اسماً محدداً.  
- تجزئة المستندات أو الوثائق الأساسية من خلال الأطلاع عليها،

- تحديد الجمل والمقاطع الملائمة للبحث (الاقْتباسات)
- إعطاء الاقتباسات معاني ومفاهيم تدلّ عليها (الرموز)
- كتابة المذكرات النظرية والمنهجية المتعلقة بالبحث،
- كتابة التعليقات التي يراها الباحث مناسبة على أي من مكونات البحث: الوثيقة أو الاقتباس أو الرمز أو المذكرة.
- إن إجراء المقارنة بين الاقتباسات هو الذي يؤدي إلى مرحلة تصوّر الخلاق الذي ينطوي على مستوى أعلى من التجريد.

### العمل على مستوى المفاهيم

مع الترميز، ننتقل إلى مستوى أكثر تجريدًا بخاصة عند تصنيف الرموز إلى فئات أو عائلات متجانسة، ومع إقامة العلاقات وتحديد أنواعها، ننتقل إلى مستوى أعلى من التجريد والتنظير.

إن ميزة الربط الشبكي (بناء شبكة العلاقات) في أطلس-تي، يسمح لك بمشاهدة الروابط بين الاقتباسات والمذكرات والرموز ضمن مخططات تظهر العلاقات المعقدة، بين مختلف عناصر ومكونات البحث، بواسطة الرسوم.

بالاستناد إلى مساحة العمل، ومن خلال الرسوم البيانية، يمكن بناء المفاهيم والنظريات التي تعتمد على العلاقات بين متغيرات وعناصر البحث.

تكشف هذه العملية في بعض الأحيان علاقات أخرى في البيانات لم تكن واضحة من قبل، ويمكن أن تتم رؤية أكثر من مشهد لشبكة العلاقات، ما يعني عمليًا الرؤية من زوايا متعددة.

أدوات أطلس-تي، تقدّم إمكانية تصوّر الخصائص المركبة والعلاقات بين العناصر التي تتكامل خلال مسار عملية البحث، لفهم المعنى من تحليل البيانات.

تكامل كل أقسام مشروع البحث، بحيث لا تضيع رؤية أي تفصيل كل العناصر والأجزاء المرتبطة بمشروع البحث تخزن في مستوعب (كونتينر) يدعى (وحدة التأويل) تشبه العنكبوت في شبكته.

أهمّ الخطوات في مشروع البحث من خلال برنامج أطلس - تي :

### - Hermeneutic Unit (H.U)

عمل مشروع البحث ضمن ما يسمّى مستوعب الأفكار، وهذا يعني تجميع كل ما له علاقة بمشروع البحث تحت اسم واحد، ندعوه: وحدة التأويل.

### - Primary Documents

تحديد وثائق البحث الأساسية: نصوص - رسوم وخرائط - تسجيلات سمعية وبصرية.

ملفات البيانات هذه، هي المصدر المادي لمشروع البحث، ويمكن حفظها في أي مكان ضمن الكمبيوتر.

### - Quotations-Codes- Memos

قراءة وانتقاء مقاطع من الوثائق النصية والصور والرسوم والتسجيلات، نسمي هذه العملية اقتباساً، نعطي رموزاً لهذه الاقتباسات، وهذه الرموز هي مفاهيم ومصطلحات يحددها الباحث، ويجري توثيق الاقتباسات على أساس هذه الرموز. ويكتب أيضاً تعليقات على الوثائق الأساسية وعلى الاقتباسات والرموز وغيرها، كما يكتب مذكرات، منهجية ونظرية حول مسائل تتعلق بمشروع البحث وتتضمن أفكار الباحث التي تظهر في سياق البحث. تسمى هذه المرحلة من العمل: المستوى النصي أو التوثيقي.

- مقارنة الاقتباسات حسب ارتباطها بالرموز المحددة.

### - Families

تنظيم كل من الوثائق الأساسية والرموز والمذكرات ضمن مجموعات متجانسة تسمى عائلات.

- تحديد أنواع العلاقات بين الاقتباسات وبين الرموز وتحديد الروابط بين العناصر المختلفة وعرضها بيانياً في إطار شبكة أو شبكات، حيث تشكل قواعد ومنطلقات لظهور النظرية.

- يمكن تصدير بيانات للتحليل من خلال برامج إحصائية.

- كتابة التقرير الذي يستند إلى المذكرات المكتوبة خلال مختلف مراحل العمل.

## التعرّف على طرائق استخدام برنامج أتلّس- تي

الإدارة الأساسيّة هي إدارة مشروع البحث الذي يكتب في رأس الصفحة وتحت القائمة الرئيسيّة وشريط الأدوات التابع لها، والذي يليها مباشرة إضافة إلى شريط أدوات عمودي على يسار الصفحة.

هناك إدارات فرعيّة ولكنّها عمليّة وهي إدارات عناصر المشروع الأساس. يتمّ الدخول إلى كل إدارة منها بالنقر على الزرّ التابع لها وهي أربعة عناصر ظاهرة تحت شريط الأدوات الأفقيّ وهي من اليسار إلى اليمين: الوثائق أو المستندات الأساسيّة - الاقتباسات - الرموز - المذكرات.

Primary Documents ((P-Docs)- Quotations (Quotes)- Codes- Memos

ويوجد ضمن ثلاث من هذه الإدارات الفرعيّة إدارة عائليّة لكلّ منها: الوثائق الأساسيّة والرموز والمذكرات.



عند بدء البرنامج تظهر معك هذه الصفحة

في رأس الصفحة

شريط العنوان، وبما أنه لا يوجد عنوان بعد لمشروع بحث ونحن بصدد إنشائه نجد

مكتوباً: New Hermeneutic Unit-Atlas.ti

يقع تحته مباشرة القائمة الرئيسيّة، وتحتها شريط الأدوات الأفقيّ، ثم أربعة أزرار

صغيرة للإدارات الفرعيّة.

وعلى يسار الصفحة نجد شريط الأدوات العموديّ.

**Title Bar** شريط العنوان

يدلّ على مشروع بحث جديد. عندما تحدّد عنوان بحثك وتعطيه اسماً، سيظهر ذلك في رأس الصفحة عند العمل عليه.

**Main menu** قائمة الأوامر الرئيسة

- ملف: File

بدء مشروع بحث جديد - فتح مشروع بحث موجود سابقاً - إغلاق - حفظ - كتابة - تعليق - معلومات عن البحث - عرض النتائج - الطباعة.

- تحرير: Edit

من خلال الوثيقة المفتوحة في البرنامج، يمكن الدخول إلى التحرير، أي في غياب أي وثيقة مفتوحة لن تدخل إلى التحرير.

وعند العمل على الوثيقة يظهر شريط أدوات تحرير النصّ تحت شريط الأدوات الأفقيّ للقائمة الرئيسة.

قصّ - نسخ - لصق - لصق تابع لاحدى الوثائق الاساسية - لصق خاصّ تحدّد من خلاله نوع النص: مثلاً: (Rich Text Format)

إلغاء - اختيار - بحث كلمات أو جمل في النصّ - إعداد النصّ للنسخ: نوع الخط، اللون ..... إدخال أغراض وفق نمط محدّد مثل إكسل وبوربوينت وغيرها....

- وثائق: Documents

تعيين الوثائق الأساسية من مواقع تخزينها في الكمبيوتر لتصبح جزءاً من مشروع البحث - فتح صفحة - لإدخال وثيقة جديدة عن طريق النسخ واللصق العاديّ أو الخاصّ - استيراد بيانات مسح وجداول مقابلات - وثيقة جديدة من غوغل إرث - لقطة من غوغل إرث - إعادة تسمية - كتابة تعليق - قطع الصلة مع وثيقة واقتباساتها وكل ما يشير إليها - إغلاق - الفرز والتصفية وفق خصائص محدّدة، أو وفق كل ما هو غيرها، مثل: الوثائق، الرموز، المذكرات والاقتباسات والعائلات والتاريخ وغيره - إنشاء عائلات من الوثائق وإدارتها - إدارة الوثائق الأساسية - مختلف: معلومات: تغيير موقع الوثيقة - إعادة ترقيم الوثائق - إعادة ترقيم الاقتباسات التابعة للوثيقة - إحصاء الكلمات - تصدير خاص - استيراد اقتباسات - استيراد وتصدير

جداول العائلة- تغيير التاريخ- تغيير اسم المؤلف- إظهار النتائج.

#### - اقتباسات: Quotations

إنشاء اقتباس حرّ (غير مرتبط برمز محدد)- إنشاء اقتباس مرتبط برمز محدد وفق صيغ متعدّدة - ربط الاقتباسات بعضها ببعض - إعادة تسمية الرمز الذي يرتبط به الاقتباس - تعديل حدود الاقتباس - كتابة تعليق - إلغاء الاقتباس - الفرز والتصفية وفق خصائص محدّدة أو وفق غيرها - فتح الشبكة - إدارة الاقتباسات - مختلف: معلومات - دمج الاقتباسات - إدارة الربط بين الاقتباسات - وإظهار النتائج.

#### - الرموز

إنشاء رمز حرّ غير مرتبط بأي شيء - إنشاء رموز مرتبطة بالاقتباسات وفق صيغ محدّدة - الترميز الآلي - إعادة تسمية الرمز - كتابة تعليق - إلغاء الرمز - دمج الرموز - الفرز والتصفية وفق خصائص محدّدة أو وفق غيرها - إنشاء عائلات - فتح شبكة - إدارة الرموز - مختلف: معلومات - نسخ الرمز لقسمته - إنشاء لقطه - استعلام - رمز غابة - رمز شجرة - إدارة الرابط - إدارة العلاقات - استيراد لائحة رموز - دمج رموز - إزالة الرابط مع اقتباسات - إزالة الرابط مع كل الاقتباسات - تصدير رموز محدّدة - استيراد رموز - بحث غوغل - تغيير اللون - تغيير التاريخ - تغيير اسم المؤلف - طريقة إظهار النتائج.

#### - المذكرات: Memos

إنشاء مذكرة حرّة غير مرتبطة بشيء - ربط مذكرة بمقطع محدّد من النصّ - ربط المذكرة باقتباس أو رمز أو مذكرة أخرى - إعادة التسمية - إلغاء - الفرز والتصفية وفق خصائص محدّدة أو وفق غيرها - إنشاء عائلات - فتح الشبكة - إدارة المذكرات - مختلف: معلومات، تغيير نمط المذكرة، إنشاء مذكرة عامّة، تصدير واستيراد المذكرات، استعمال المذكرة كوثيقة أساسية، إنشاء مجموعة رموز عن طريق المذكرة، تغيير التاريخ، تغيير المؤلف - إظهار النتائج.

#### - الشبكات: Networks

إدارة الشبكة - فتح شبكة جديدة - إغلاق الشبكة - تصدير واستيراد شبكة - تحرير العلاقات بين الرموز وبين الاقتباسات - خيارات الشبكة - إدارة ربط الرموز - إدارة ربط الاقتباسات.

- المنظر (المشهد): View

إخفاء الأدوات - تصغير وإعادة النوافذ الفرعية - إغلاق النوافذ الفرعية - إرسالها إلى الخلف - إلغاء وإعادة مساحة الهامش - إخفاء وإظهار ترقيم السطور - عرض شريط تحرير النصوص عند وضع التحرير.

(Edit---Document Access---Enter Edit Mode)

إخفاء وإظهار شريط الأدوات الأفقي - إخفاء وإظهار النوافذ الفرعية الأربعة (الوثائق - الاقتباسات - الرموز والمذكرات) - إخفاء وإظهار شريط تحرير النصوص - إخفاء وإظهار شريط الأدوات العمودي - استخدام الألوان في مظهر الصفحة.

- الأدوات: Tools

- تحرير نص - المستكشف: يعرض لأهم مكونات مشروع البحث (الوثائق الأساسية، الرموز، المذكرات، الشبكات)

- أداة الاستعلام: صيغ استعلام بسيطة أو مركبة لاستكشاف العلاقات بين الرموز وعائلاتها Query Tool

- الزاحف: استعلام محدد في كل مكونات مشروع البحث أو في جزء محدد منه Object Crawler

- إحصاء الكلمات: يحصي تردد الكلمات في وثيقة محددة أو في كل الوثائق Word Cruncher

- دمج مشاريع أبحاث Merge With HU

- محلل الرموز: يحدد الرموز التي كررت الاقتباسات ذاتها Codings Analyzer

- دمج الاقتباسات المتشابهة Merge Identical Quotations

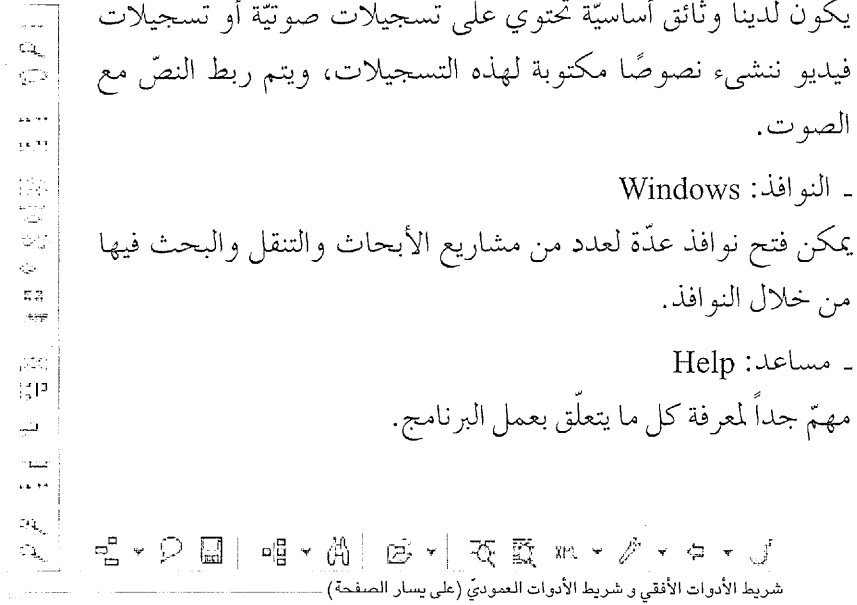
- تصدير بعض عناصر مشروع البحث واستيراد وعرض استعلامات محددة.

- إضافات: Extras

استكشاف - استيراد وتصدير..، تفضيلات: تفضيلات عامة يتم من خلالها اعتماد لغة الخطوط حتى يتمكن البرنامج من التعامل مع اللغة العربية أو غير ذلك.

الوثائق المترابطة: A-Doc

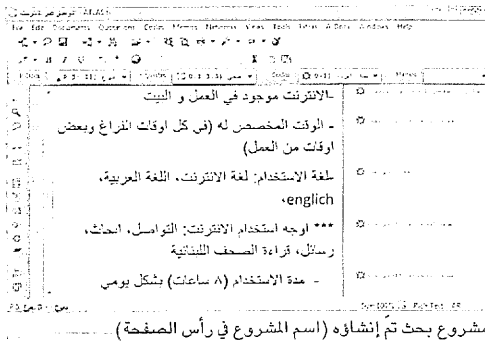
لإنشاء الترابط والتزامن بين تسجيلات الصوت أو الفيديو وبين النص، أي عندما



يمكن القيام بالمهام الأساسية من خلال هذه الأدوات بدلاً من الدخول إلى ملفات قائمة الأوامر للقيام بالمهام ذاتها، والأمر ذاته بالنسبة إلى شريط الأدوات العمودي. وعندما تضع مؤشر الماوس على إحدى الأدوات تظهر الكتابة الدالة على وظيفتها.

## بناء المشروع البحثي

إنّ تحضير المشروع البحثي يعني الإعداد والتحضير الإلكتروني لكلّ مصادر ومراجع البحث أي الوثائق الأساسية المكوّنة من: نصوص، صور، خرائط ورسوم، تسجيلات صوت، وفيديو.



يسمى مشروع البحث في برنامج أطلس- تي، وحدة التأويل Hermeneutic Unit - L'unité herméneutique الهرمينيوتيكا، أي التأويل، يتطلّب استخدام كلّ الوسائل



والأساليب الضرورية للكشف عن حقيقة الشيء المراد فهمه. فالحقيقة لا تكون ظاهرة مباشرة، فقد تكون مضمرة أو مخفية. وقد شاع استخدام هذا المصطلح في الدراسات اللاهوتية الدينية، ثم انتقل استخدامه إلى مجالات متعدّدة في العلوم الاجتماعية والانسانية. يتألف مشروع البحث مما نسّميه وحدة التأويل HU ويرتبط بها كل مصادر البيانات المتعلقة بهذا المشروع.

وحدة التأويل (HU) هي محرّر مساحة العمل الرئيس، تفتح بعد بدء البرنامج، وتكون «الصفحة الرئيسة» الخاصة.

محرّر HU هو أداة التحرير الرئيسة، ويتيح الوصول إلى جميع أدوات طاولة العمل الأخرى.

عند فتح برنامج أطلس- تي، تظهر وحدة التأويل (اسم مشروع البحث) في أعلى الشاشة، وتظهر تحتها القائمة الرئيسة، يليها شريط الأدوات (الأيقونات)، وثمة شريط أدوات آخر على يسار الصفحة، أي هناك شريطان للأدوات، شريط أدوات أفقيّ تحت القائمة الرئيسة وشريط أدوات عموديّ على يسار الصفحة. ويوجد تحت شريط الأدوات الأفقيّ العناصر الأساسية في إدارة مشروع البحث أي وحدة التأويل وهي:

P-docs (Primary Documents)-Quotes (Quotations)-Codes-Memos -

- الوثائق الأساسية - الاقتباسات - الرموز - المذكرات.

وتظهر صفحة العمل التي تنقسم إلى قسمين: الصفحة الأساسية وهي صفحة تابعة لإحدى الوثائق الأساسية لمشروع البحث، والهامش الذي يمكننا من تصغير أو تكبير مساحته بواسطة مؤشر الماوس والسحب يمينا للتصغير ويساراً للتكبير.

نحدّد على الصفحة الأساسية الاقتباسات التي نراها مناسبة، ونعطيها رموزاً معيّنة ونكتب التعليقات والمذكرات التي نراها ضرورية وحين نخطر لنا مباشرة. تظهر أسماء الرموز وأسماء المذكرات وغيرها في صفحة الهامش.

القيام بمشروع بحثي جديد

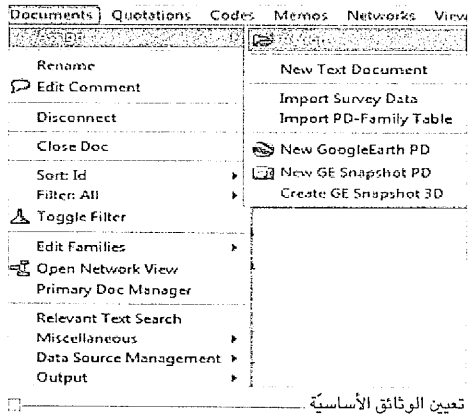
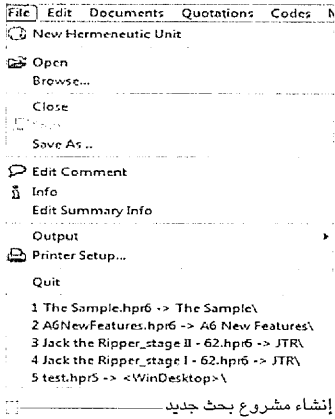
بعد فتح البرنامج نختار File --New Hermeneutic Unite

بعد ذلك يتم استيراد الوثائق الأساسية من مكان تخزينها في الكمبيوتر، أي

نستورد مجموع المصادر والمراجع المهيئة للبحث من مختلف الأشكال: نصوص، خرائط ورسوم، تسجيلات سمعية، وتسجيلات مرئية.

من القائمة الرئيسية Main Menu في أعلى الصفحة نختار:

### Document--Assign--assign



ننقر على الوثائق واحدة تلو الأخرى، ننتقل إلى البرنامج مع اسمها ثم نحفظها. البرنامج يتعامل مع أنواع متنوعة من الوثائق النصية word-pdf ومن الرسوم والخرائط والصور، والتسجيلات السمعية والبصرية. وثائق النصوص word نحولها إلى Rich Text Format أو Plain Text وذلك من خلال برنامج word:

### Save As--ther Format—Save As Type

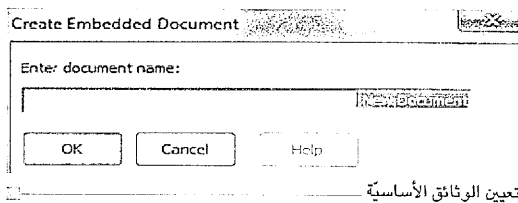
ويمكن تحويل النصوص من خلال برنامج أطلس- تي: Edit--Past Special--:

### Rich Text Format

تنقل الوثيقة أولاً كما يلي:

### -Assign---New Text Document Documents

فتظهر معنا النافذة التالية:



نكتب اسم الوثيقة التي نريد نقلها أو تعيينها ضمن مشروع البحث، ثم ننقر Ok، فيفتح البرنامج صفحة بيضاء.

نسخ الوثيقة (Copy) ونلصقها في الصفحة البيضاء (Paste) اذا كانت محوّلَة سابقًا، واذا لم تكن محوّلَة ننسخها وننتقل إلى: Edit----Past Special----Rich Text Format

إذا كان لدينا مجموعة مقابلات ضمن مشروع البحث، يتم إدخال كل مقابلة كوثيقة مستقلة لها اسمها ورقمها.

بعد إدخال كافة المستندات والوثائق إلى مشروع البحث، نحفظ المشروع بإعطائه اسمًا ونحفظه في الملف الذي أنشأناه لحفظ هذه الوثائق. ولا نحفظه في الموقع الافتراضي الذي يظهر تلقائيًا Text Bank.

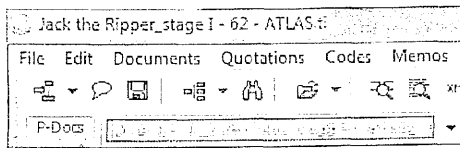
إنّ هذه الطريقة هي ضرورية لربط كل وثيقة أو مستند بالمصدر. إذا فتحنا إدارة الوثائق الأساسية، Primary Doc Manager، يظهر العمود الذي يدل على مصدر كل وثيقة ومعها العلامة <HUPATH>

لفتح مشروع بحث سابق: File---Open

نقر عليه في مكان حفظه، ويمكن أن يفتح مباشرة مع بدء البرنامج إذا كان ذلك آخر عمل عند الاغلاق. أو بالنقر عليه إذا كان من ضمن مجموعة المشاريع الأخيرة الظاهرة في أسفل لائحة الملف File.

الوثائق الأساسية: إدخالها وإدارتها

يمكن الدخول إلى إدارة الوثائق الأساسية من القائمة الرئيسة:



زر وإطار الوثائق الأساسية

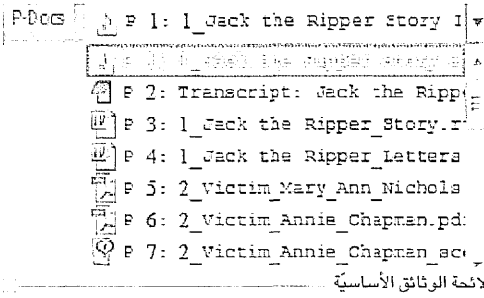
Documents--Primary Doc Manager

أو بالنقر على الإطار الصغير الذي يظهر تحت شريط الأدوات

على اليسار الشاشة P-Docs

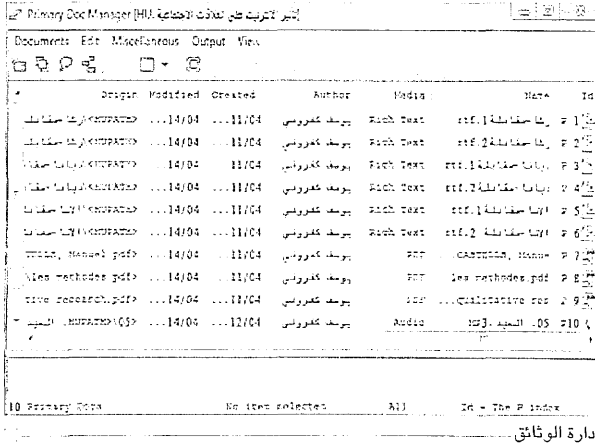
زرّ الوثائق الأساسية إلى اليسار في أسفل الصفحة وعلى يمينه إطار صغير يظهر فيه اسم وثيقة أساسية مع رمزها الذي يدل على أن الوثيقة هي سمعية.

إذا قرنا السهم الصغير في أسفل الرسم لجهة اليمين تنسدل لائحة تظهر عناوين الوثائق وأنواعها.



تظهر هنا أسماء الوثائق وأرقامها والرموز الدالة على أنواعها، وبالنقر على أي وثيقة يتم عرضها كاملة على الصفحة الرئيسة للبرنامج، وإذا كانت تسجيلاً صوتياً أو فيديو يتم عرضها مع خيارات إيقافها وترجييعها أو تقديمها:

- الوثيقة رقم ١ هي تسجيل صوتي، والوثيقة رقم ٢ هي مذكرة كتبها الباحث وحولها إلى وثيقة أساسية، الوثيقتان ٣ و ٤ هما PDF والوثيقتان ٥ و ٦ هما Word Rich Text Format والوثيقة ٧ هي تسجيل فيديو وتوجد أيضاً وثائق رسوم وخرائط وصور.



إذا دخلنا إلى إدارة الوثائق تظهر معنا تفاصيل الوثائق وأنواعها واسم الباحث الذي يعالج هذه الوثائق وتاريخ إنشائها ومصدرها.. نجد في أعلى الصفحة اسم مشروع البحث ثم القائمة الرئيسة لإدارة الوثائق الأساسية وشريط أدوات الوثائق الأساسية. يمكن الدخول إلى هذه الصفحة بالنقر على زرّ الوثائق الأساسية، ويمكن الدخول إليها من القائمة الرئيسة: Documents—Primary Doc Manager من خلال إدارة الوثائق الأساسية هذه نقوم بمهام:

## - الوثائق: Documents

تعيين الوثائق - إعادة التسمية - إغلاق الوثيقة - إلغاؤها - الفرز والتصفية وفق خصائص محدّدة أو وفق غيرها - فتح إدارة العائلة وتعيين عناصر العائلة الجديدة وإدارة مصادر البيانات.

## - تحرير الوثائق Edit

## - مختلف Miscellaneous

- معلومات عن الوثيقة التي نُوشِر عليها، تغيير موقع الوثيقة

## Miscellaneous--Change Position

تظهر النافذة التالية

نُوشِر على الوثيقة التي نريد تبديل ترتيبها ضمن إدارة الوثائق، ثم نكتب في النافذة الرقم الذي ستأتي بعده ونقر موافق.

- إحصاء تردّد كلمات وثيقة معيّنة أو مجموع الوثائق.

- تصدير خاصّ

- استيراد اقتباسات.

- تصدير واستيراد جداول عائلة الوثائق.

- تغيير التاريخ واسم المؤلف أو الباحث (في مشاريع البحث المشتركة يتمّ توزيع

العمل على باحثين عدّة، يعمل كل باحث على مجموعة محدّدة من الوثائق بناء على

تقسيم مدير المشروع، وقد يتغيّر بعض الباحثين أثناء العمل)

## - النتائج: Output

عرض نتائج البحث وفق الطلب الذي يريده الباحث.

## - المنظر: Views

طريقة عرض عناصر إدارة الوثائق.

## عائلات الوثائق: إدارتها ووظيفتها

قد يحتوي مشروع البحث على عشرات لا بل مئات الوثائق. لذلك من المفيد

للباحث تصنيفها، حتّى يستطيع إدارة عمله بشكل أكثر فاعليّة وحتى لا يضيع أو يحبط

من كثرة هذه الوثائق.

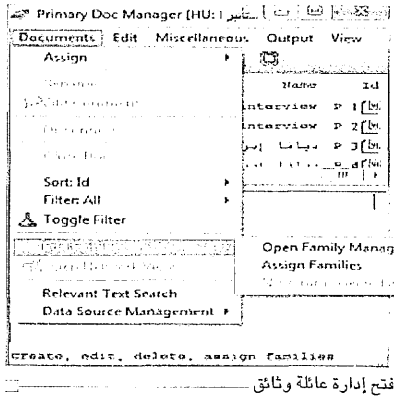
إن تصنيف الوثائق إلى مجموعات أو فئات متجانسة حسب الموضوعات يسهل الوصول إلى الأهداف بسرعة أكبر. ويحقق أغراضاً مهمة في تحليل البيانات وفي الفرز والتصفية وفقاً لوثائق محددة يراها الباحث. ويمكن تصنيف الوثائق كمتغيرات على أساس النوع أو فئات العمر أو المنطقة أو مستوى التعليم أو أي متغير آخر.

نسَمي كل مجموعة أو فئة عائلة ونعطيها إسماً محدداً.

لإنشاء عائلة واثق، يجب أن نفتح إدارة عائلة من خلال إدارة الوثائق الأساسية:

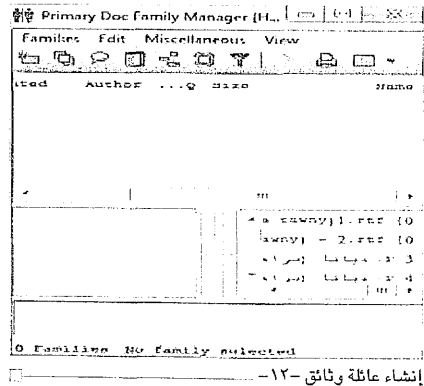
- إدارة الوثائق ----- تحرير عائلات ----- فتح إدارة عائلة

### Primary Doc Manager--Edit Families--Open Family Manager



فتح إدارة عائلة وثائق

عند فتح إدارة العائلة تظهر النافذة التالية



إنشاء عائلة وثائق -١٢-

من إدارة العائلة نختار: Families-----New Family

فتظهر نافذة صغيرة نكتب فيها اسم العائلة ونضغط موافق

بعد تعيين اسم العائلة تظهر نافذة كما في الرسم -١٢- تنقسم إلى قسمين:

- قسم علوي يظهر فيه اسم العائلة أو العائلات التي أنشأناها، وإذا لم ننشئ عائلة يظهر القسم فارغاً.

- قسم سفلي يحتوي على أسماء الوثائق الأساسية جميعها، وينقسم القسم السفلي إلى قسمين: يمين ويسار يفصل بينهما حاجزان على كل حاجز سهم، واحد يشير إلى اتجاه اليمين وآخر إلى اتجاه اليسار.

نؤشر أولاً على اسم العائلة بالنقر عليها في القسم العلوي.

نرسل الوثائق التي تنتمي إلى هذه العائلة من الجانب اليمين في القسم السفليّ إلى الجانب اليسار وذلك بالتأشير على كل وثيقة والنقر على السهم الذي يشير إلى جهة اليسار أو بالنقر عليها مرتين.

### لإلغاء وثيقة من العائلة

نؤثّر على اسم العائلة فتظهر الوثائق التي تنتمي إلى هذه العائلة في جانب اليسار من القسم السفليّ.

نرسل الوثيقة التي لا نريدها ضمن العائلة إلى جانب اليمين وذلك بالنقر المزدوج عليها أو بالتأشير وإرسالها بواسطة النقر على السهم الذي يشير إلى اليمين.

إدارة العائلة ووظيفتها:

- العائلة : Families

إنشاء عائلة جديدة - إعادة التسمية - إلغاء العائلة - استخدام العائلة لتصفية النتائج - كتابة تعليق حول العائلة - فتح شبكة علاقات - فتح أداة إنشاء سوبر عائلة (السوبر عائلة هي استعلام مركّب من أكثر من عائلة) - إظهار النتائج - استيراد وتصدير جدول العائلة.

### جدول عائلات الوثائق

عندما يكون لدينا في مشروع البحث مجموعة من المقابلات، ندخل كل مقابلة بشكل مستقل عن الأخرى، أي أنّ كل مقابلة هي وثيقة أساسية لها اسمها ورقمها.

نحفظ المقابلات ضمن مشروع البحث مع سائر الوثائق الأخرى، ويجب أن يكون مكان حفظ مشروع البحث هو المكان الذي أعددنا فيه كل الوثائق المتعلقة به.

إذا فتحنا إدارة الوثائق ستظهر نافذة نجد فيها أرقام الوثائق وأسماءها وأنواعها ومصدرها مع رمز محدّد، وتاريخ إنشائها وتاريخ إجراء تعديلات عليها و....

لتصدير جدول عائلة وثائق يتضمّن المقابلات:

- ننشئ أولاً عائلة تجمع كل المقابلات لتمييزها عن الوثائق الأخرى

- نحدّد التصنيفية على أساس عائلة المقابلات التي أنشأناها

- من إدارة الوثائق الأساسية نختار: تصنيفية-----عائلات-----مقابلات:

Primary Doc Manager-----Filter All-----Families مقابلات

- بعد تحديد التصنيفية على أساس المقابلات يصبح تعامل البرنامج مع المقابلات فقط،

وإذا أردنا أن نعيد الوضع إلى الحالة السابقة نعود إلى: Filter All----All

- بعد إنشاء عائلة المقابلات وتحديد التصنيفية على أساسها، نختار:

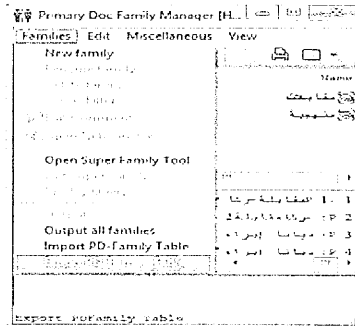
Documents---Edit Families----Open Family Manager

- من إدارة العائلة ندخل إلى تصدير جدول عائلة الوثائق :

Primary Doc Family Manager---Families---Export PD-Family Table

- بعدما ننقر على تصدير جدول عائلة

المقابلات نحصل على النافذة التالية:



Export PD Family Table

Please choose field delimiter:

- \*.CSV - Comma Separated Values (Excel compatible)
- \*.CSV - Semicolon Separated Values (Excel compatible)
- \*.XLS - Tab-Delimited Excel File

OK

Cancel

تصدير جدول عائلة المقابلات

تصدير جدول عائلة المقابلات-٢

نؤشّر على: XLS- Tab-Delimited Excel File

وننقر موافق، فنحصل على جدول يقبل النسخ على إكسل، فنحصل على جدول

إكسل نأخذ منه الأعمدة التالية: رقم الوثيقة- الاسم - المصدر.

جدول ١- @Origine -@Documents-Name

Documents	Name	@ Origin
P1	رشا - مقابلة rtf.1	<HUPATH>\رشا-مقابلة rtf.1
P2	رشا - مقابلة rtf.2	<HUPATH>\رشا-مقابلة rtf.2
P3	ديانا - مقابلة rtf.1	<HUPATH>\ديانا-مقابلة rtf.1
P4	ديانا - مقابلة rtf.2	<HUPATH>\ديانا-مقابلة rtf.2
P5	الانا - مقابلة rtf.1	<HUPATH>\الانا-مقابلة rtf.1
P6	الانا - مقابلة rtf.2	<HUPATH>\الانا-مقابلة rtf.1



نضيف على جدول إكسل هذا بعض المتغيرات التي جرى اعتمادها في المقابلات، مثل: النوع (ذكر-أنثى) - فئات العمر - المنطقة - مستوى التعليم... ونضع في رأس عمود المتغير اسم المتغير مسبقاً بالرمز # ونضع في كل صف قيمة كل متغير. فيصبح الجدول على الشكل التالي:

جدول ٢.

Documents	Name	@ Origin	النوع	المستوى العلمي	العمل
P1	رشا - مقابلة rtf.1	<HUPATH>\رشا- مقابلة rtf.1	ذكر	جامعي	نعم
P2	رشا - مقابلة rtf.2	<HUPATH>\رشا- مقابلة rtf.2	ذكر	جامعي	لا
P3	ديانا - مقابلة rtf.1	<HUPATH>\ديانا- مقابلة rtf.1	انثى	ثانوي	لا
P4	ديانا - مقابلة rtf.2	<HUPATH>\ديانا- مقابلة rtf.2	انثى	جامعي	نعم
P5	الانا - مقابلة rtf.1	<HUPATH>\الانا- مقابلة rtf.1	انثى	متوسط	لا
P6	الانا - مقابلة rtf.2	<HUPATH>\الانا- مقابلة rtf.1	انثى	جامعي	لا

نستورد الجدول من مكان حفظه على الكمبيوتر إلى مشروع البحث في برنامج

أطلس - تي: Primary Doc Family Manager---Families---Import PD-Family:

Table

Name	size	created	modified
العمل: لا	4	...11/04/20	...11/04/20
العمل: نعم	2	...11/04/20	...11/04/20
المستوى العلمي: ثانوي	1	...11/04/20	...11/04/20
المستوى العلمي: جامعي	4	...11/04/20	...11/04/20
المستوى العلمي: متوسط	1	...11/04/20	...11/04/20
الفرع: انثى	4	...11/04/20	...11/04/20
الفرع: ذكر	2	...11/04/20	...11/04/20

استيراد جدول عائلات الوثائق

بعد إنجاز المهمة نجد في إدارة عائلة الوثائق أنه تم إنشاء عائلات على أساس قيم هذه المتغيرات التي اعتمدها: بواسطة هذه الطريقة نستطيع أن نقوم بتحليلات مركبة وعميقة للمقابلات كما نستطيع إجراء مقارنات وفق المتغيرات التي نريدها.

بعد دراسة المقابلات وأخذ الاقتباسات وفق رموز محددة نستطيع أن نقارن النتائج لكل رمز أو لمجموعة الرموز على ضوء الحالات المتشابهة أو المختلفة ووفق أي متغير أو أي تركيبة متغيرات.

### كتابة التعليقات

#### Edit Comment

لا توجد إدارة خاصة للتعليقات، ولكن يوجد كتابة تعليق طلب ورمز لكتابة التعليقات ضمن كل الإدارات الأساسية والفرعية. - يمكن كتابة تعليق من خلال النقر على طلب التعليق أو على أدوات الدالة عليه الظاهرة في الرسم ١- ٢١.

- نكتب تعليقاً على مشروع البحث من خلال القائمة الرئيسة : File---Edit Comment

- أو من خلال الأداة الدالة على التعليق في شريط الأدوات الأفقي تحت القائمة الرئيسة.

- يمكن أن نكتب تعليقاً على كل وثيقة أو مستند من وثائق البحث الأساسية، وعلى كل اقتباس ورمز أو مذكرة أو رابط أو شبكة علاقات.

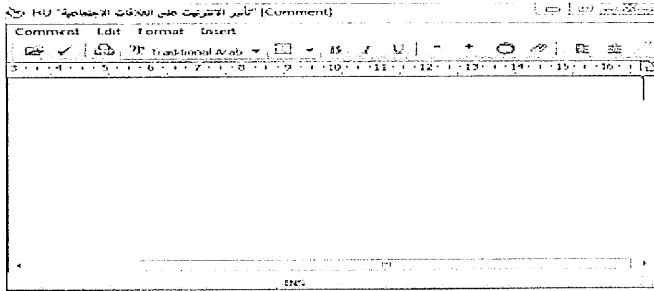
- يمكن التعليق على كل أجزاء هذه العناصر عن طريق القائمة الرئيسة أو عن طريق الإدارات الفرعية. أو عن طريق تحديد العنصر بالتأشير عليه، وعمل نقرة يمينية حيث تسدل لائحة يوجد فيها طلب التعليق.

بعد كتابة التعليق نُشر على طلب الحفظ، فيحفظ التعليق مرتبطاً دائماً مع العنصر الذي جرى التعليق عليه.

لا يبدل البرنامج على ما تكتب من تعليقات، أنت تكتب التعليقات المباشرة والسريعة والقصيرة للمعلومات والأفكار التي تخطر لك حول أي عنصر من عناصر البحث، من بدء مشروع البحث إلى أي جزء من أجزائه خلال كل مراحل.

والتعليق يختلف عن المذكرة رغم التشابه بينهما، فكتابة المذكرة تتطلب جهداً فكرياً على مستوى التنظير، غير ضروري في كتابة الخواطر السريعة أو المعلومات المباشرة التي يحتاج إليها التعليق.

## كتابة تعليق على مشروع البحث

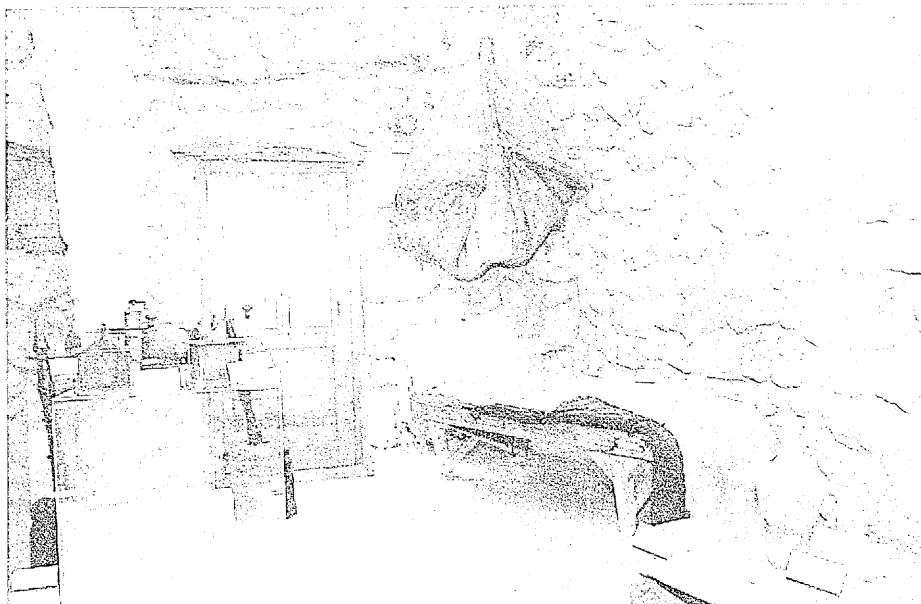


نافذة تحرير التعليقات

هذه النافذة لكتابة التعليق تظهر في التعليق على كل العناصر الأخرى، تتميز فقط في شريط العنوان في رأس الصفحة التي يحدّد فيها جهة ارتباط التعليق.

هذه الصفحة هي للتعليق على مشروع بحث بعنوان «تأثير الانترنت على العلاقات الاجتماعية» النافذة التي تظهر لكتابة تعليق على وثيقة أساسية، يحمل شريط العنوان فيها اسم ورقم الوثيقة. وهكذا بالنسبة إلى النوافذ الأخرى للتعليقات على الاقتباس أو الرمز أو المذكرة وغيرها.

يحمل شريط العنوان دائماً اسم ورقم الجهة التي يرتبط بها التعليق.



دَشَك - المعرض الاثنووغرافي الدائم في جامعة البلمند



أوان مطبخية نحاسية - المعرض الاثنووغرافي الدائم في جامعة البلمند

## المحور الرابع

# التراث اللامادّي الشفويّ: أهمّية دلالته وطرائق جمعه



رئيس الجلسة

الدكتور كميل حبيب

(عميد كلية العلوم الاقتصادية وإدارة الأعمال)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

اتفاقية اليونسكو لعام ٢٠٠٣ وقوائم حصر التراث الثقافي غير المادّي.

المحاضرة د. آني طعمه تابت (الجامعة السويّة)

المحاضرة الثانية

المتذكّر والنسي والمقموع: ملاحظات منهجيّة من عمليّة التأريخ الشفويّ الفلسطينيّ.

المحاضر د. ساري حنفي (الجامعة الأميركيّة)

المحاضرة الثالثة

الكنوز البشريّة الحيّة سباق لرصد الهوية الثقافية.

المحاضر د. عليّ بزي (الجامعة اللبنانيّة)

المحاضرة الرابعة

ذاكرة بيروت في الحفظ والصون: قراءة عصريّة لموروث ثقافيّ متجدّد.

المحاضر د. نادر سراج (الجامعة اللبنانيّة)



## اتفاقية اليونسكو لعام ٢٠٠٣ وقوائم حصر التراث الثقافي غير المادي

د. أني طعمه تابت (١)

### ملخص

يتناول هذا المقال مفهوم التراث الثقافي غير المادي، كما حدّته اتفاقية اليونسكو (٢٠٠٣) استناداً إلى الظروف التاريخية التي ساعدت على بروزه. ويشدّد المقال تحديداً على إحدى إجراءات صونه: قوائم الحصر، كما يقدم مثلين تطبيقيين.

### مقدمة

يتهيأ لبنان، الموقع على اتفاقية اليونسكو (٢٠٠٣) المعنية بالتراث الثقافي غير المادي، لوضع قائمة حصر لبعض عناصر تراثه الثقافي غير المادي، في إطار مشروع إقليمي أطلقته منظمة اليونسكو بتمويل من الاتحاد الأوروبي (EuroMed Heritage IV). إنّ الإطار المؤسسي الدولي، الهادف إلى تطبيق الاتفاقية، بالشراكة مع الدول الموقعة، ي طرح موضوع قدرة هذه البلدان وتحديداً دول الجنوب، على المبادرة لإطلاق هكذا

(١) الدكتورة آني طعمه - تابت: أستاذة الأنثروبولوجيا في الجامعة اليسوعية. [annie.tabet@usj.edu.lb](mailto:annie.tabet@usj.edu.lb)

مشاريع أو على الأقل الحفاظ على استمرارية السياسات الموضوعة من قبل المنظمات الدولية. ويهدف هذا المقال إلى التعريف بالتراث الثقافي غير المادي كمصطلح جديد أطلقته اليونسكو عبر اتفاقية ٢٠٠٣ وكيفية صونه، وتبيان الظروف التاريخية التي ساعدت على بروزه، وكذلك توضيح خصوصيته مقارنة بمفاهيم أخرى مستعملة عادة. يتطرق أخيراً المقال إلى إحدى إجراءات صون التراث الثقافي غير المادي المعتمدة من قبل اليونسكو، وهو وضع قائمة الحصر من خلال تجربتين إحداهما كندية والثانية عربية.

## مفهوم التراث غير المادي

منذ الحرب العالمية الثانية، دعمت مختلف الاتفاقيات التي اعتمدها اليونسكو سلسلة من المبادرات تتعلق بالتراث العالمي بدءاً من التراث المادي، وصولاً إلى التراث الطبيعي وأخيراً التراث الثقافي غير المادي.

التراث المادي، سواء كان منقولاً أو غير منقول، يتضمن الآثار الهندسية المعمارية والفنية والتاريخية والمواقع الأثرية والأعمال الفنية والمخطوطات إضافة إلى الكتب والأشياء الأخرى ذات القيمة الفنية والتاريخية وكذلك المجموعات الأثرية والعلمية مهما كانت طبيعتها أو نوعها وبصرف النظر عن أصلها أو مالكتها (اتفاقية ١٩٧٢ البند الأول)<sup>(٢)</sup>.

التراث الطبيعي يشمل المعالم الطبيعية المكونة من تشكيلات فيزيائية وبيولوجية أو مجموعات من هذه التشكيلات، والتي هي ذات قيمة استثنائية جمالية أو علمية. (اتفاقية ١٩٧٢ البند الثاني)<sup>(٣)</sup>.

على عكس التراث المادي والطبيعي، فإن عقوداً مرت قبل اعتماد مفهوم التراث الثقافي غير المادي نهائياً، وذلك بسبب العديد من الصعوبات التي واجهها، على المستوى الدولي، ولسوء الاستخدام وسوء التفسير لتعابير مثل الفولكلور والتراث الشفهي والثقافة التقليدية والثقافة الشعبية... لكن التعريف الأخير الذي اعتمده نهائياً اتفاقية اليونسكو لعام ٢٠٠٣ لمفهوم التراث، قد يبدو الأكثر غموضاً وإبهاماً، وهو ما زال يحدث إرباكاً

(٢) Convention concernant la protection du patrimoine mondial, culturel et naturel, <http://whc.unesco.org/fr/conventiontexte>

.Idem (٣)

في مجال التراث، الذي استند تاريخياً على قيمة وأهمية الأشياء المادية. وتجهد المؤسسات، في الواقع، لإدراك البعد غير المادي ودجمه ضمن تنظيمها. وكذلك، فإن إدراج القيم الاجتماعية للتراث، يشكل رهاناً حقيقياً في سياسات حماية التراث الثقافي غير المادي، من دون اعتماده المهارات المهنية والعلمية للمتخصصين في هذا التراث.

### موجز تاريخي لاتفاقيات اليونسكو للتراث الثقافي غير المادي:

- ١٩٧٢ اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي. وقد اقترحت بوليفيا (١٩٧٣) وضع قانون لحماية وتعزيز التراث الشعبي.
- ١٩٨٩ توصية بشأن صون الثقافة التقليدية والفولكلور.
- ١٩٩٩ التقييم الشامل لتوصية عام ١٩٨٩.
- ٢٠٠٣ اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي.

### تطور مفهوم التراث غير المادي

رغم أنه غالباً ما يشار إليه بكلمة «فولكلور» إلا أن مبدأ التراث الثقافي غير المادي أدخل بعداً جديداً يتضمّن ليس فقط الروائع الفنية بل أيضاً الفنانين أو المبدعين. والواقع فإن النموذج المطور حول الفولكلور، إنما يدعم الباحثين والمؤسسات، للتوثيق والحفاظ على التقاليد المهذدة بالانقراض. مقابل ذلك فالنموذج كما يعرفه مفهوم التراث الثقافي غير المادي يسعى لدعم التقاليد الحية المهذدة من خلال تعزيز الظروف الملائمة للإنتاج الثقافي. وهذا يعني أن تمنح أهمية لحاملي وناقلي التقاليد وتناجهم الثقافي. لذا، وبدلاً من التشديد على دور المختصين بالفولكلور ومؤسساتهم لتوثيق وتسجيل التقاليد المهذدة بالانقراض، إنما هي تصرّ على الحفاظ على التقاليد من خلال دعم الممارسين لها. وقد أدى هذا إلى تحوّل الاهتمام من الأعمال الفنية (القصص والأغاني والتقاليد...) إلى الأشخاص (الفنانين، الحرقين، المعالجين التقليديين)، وإلى معارفهم ومهاراتهم. من هنا، فإنّ الاهتمام ليس موجّهاً فقط للإنتاج الثقافي ولكن للأشخاص، لمحيطهم حيث يعيشون ولبيئتهم الاجتماعية. ولذلك، «فكما التراث المادي، كذلك هو التراث الثقافي غير المادي: ثقافة، وهو كما التراث الطبيعي، حي. والهدف إذاً هو دعم



النظام بأكمله ككيان حيّ وليس فقط جمع النتائج الفنّي غير المادّي»<sup>(٤)</sup>.  
 قدّم تعريفاً واضحاً للتراث الثقافي غير المادّي في الباب الثاني من اتفاقية اليونسكو  
 لعام ٢٠٠٣<sup>(٥)</sup>:

يقصد بعبارة «التراث الثقافي غير المادّي» الممارسات والتصوّرات وأشكال التعبير  
 والمعارف والمهارات - وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافيّة - والتي  
 تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحياناً الأفراد، جزءاً من تراثهم الثقافي. وهذا التراث  
 الثقافي غير المادّي، المتوارث جيلاً عن جيل، تبذعه الجماعات والمجموعات من جديد  
 بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها، وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمّي لديها  
 الاحساس بهويّتها والشعور باستمراريتها، ويعزّز من ثمّ احترام التنوّع الثقافي والقدرة  
 الابداعيّة البشريّة.

وعلى ضوء التعريف الوارد في الفقرة ١ أعلاه يتجلى «التراث الثقافي غير المادّي»،  
 بصفة خاصّة في المجالات التالية:

- التقاليد وأشكال التعبير الشفهيّ، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن التراث  
 الثقافي غير المادّي؛
  - فنون وتقاليد أداء العروض؛
  - الممارسات الاجتماعيّة والطقوس والاحتفالات؛
  - المعارف والممارسات المتعلّقة بالطبيعة والكون؛
  - المهارات المرتبطة بالفنون الحرفيّة التقليديّة.
- أمّا الوظائف الرئيسة للتراث الثقافي غير المادّي فهي<sup>(٦)</sup>:
- التعبير عن الهويّة (الانتماء إلى نسب، إلى ثقافة)؛
  - التعبير عن الاستمراريّة (نقله إلى الأجيال القادمة/ الوعي التراثي)؛
  - التعبير عن التنوّع (التنوّع الثقافي)؛

KIRSHENBLATT-GIMBLETT Barbara, 2004: «Intangible Heritage as a Meta-cultural Production», Museum (٤) International, Vol 56. N°1-2. p. 53.

(٥) اليونسكو، ٢٠١١: النصوص الأساسيّة، اتفاقية عام ٢٠٠٣ صون التراث الثقافي غير المادّي، ص. ٥٠.

RENZ Cyril, Le patrimoine culturel immatériel. Quel inventaire pour quelle sauvegarde dans une société multiculturelle?, (٦) www.cioff.ch.

- عوامل الابداع (المصدر الثقافي أو المحتوى/ التعبير المسرحي المشار إليه بـ«الأصيل»، «المتقدم» أو «المنمق»).

## الحصر باعتباره تدبيراً للصيانة

ماذا يعني الصون؟ يعني اتخاذ تدابير لضمان استدامة التراث الثقافي غير المادي. وهذه التدابير تؤخذ على مستويين: دولي و وطني<sup>(٧)</sup>.  
في الواقع، تنص اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي على إنشاء قائمتين على الصعيد الدولي، قائمة تمثل التراث الثقافي غير المادي الإنساني (المادة ١٦) وقائمة لعناصر التراث الثقافي غير المادي التي تحتاج إلى صون عاجل (المادة ١٧). وتقضي أيضاً بوضع واحدة أو أكثر من قوائم الحصر على المستوى الوطني (المادة ١٢). على هذا المستوى الأخير فالمادتان ١١ و ١٢ من الاتفاقية واضحتان:

المادة ١١: دور الدول الأطراف:

تقوم كل دولة طرف بما يلي:

- اتخاذ التدابير اللازمة لضمان صون التراث الثقافي غير المادي الموجود في أراضيها.

- القيام، في إطار تدابير الصون المذكورة في الفقرة ٣ من المادة ٢، بتحديد وتعريف مختلف عناصر التراث الثقافي غير المادي الموجود في أراضيها، بمشاركة الجماعات والمجموعات والمنظمات غير الحكومية ذات الصلة.

المادة ١٢: قوائم الحصر:

- من أجل ضمان تحديد التراث الثقافي غير المادي بقصد صونه، تقوم كل دولة طرف، بوضع قائمة أو أكثر لحصر التراث الثقافي غير المادي الموجود في أراضيها. ويجري استيفاء هذه القوائم بانتظام.

- وتقوم كل دولة طرف لدى تقديم تقريرها الدوري إلى اللجنة، وفقاً لأحكام المادة ٢٩، بتوفير المعلومات المناسبة بشأن هذه القوائم.

(٧) اليونسكو، ٢٠١١: النصوص الأساسية. اتفاقية عام ٢٠٠٣ صون التراث الثقافي غير المادي، ص. ٩.

## مبادئ الحصر المقترحة من قبل اليونيسكو

### العلاقة بين قائمة الحصر والصون<sup>(٨)</sup>

إنشاء قوائم الحصر هو الإجراء الوحيد للصون الملزم للدول الموقعة على الاتفاقية. «من أجل ضمان تحديد التراث الثقافي غير المادي بقصد صونه، تقوم كل دولة طرف، بوضع قائمة أو أكثر لحصر التراث الثقافي غير المادي الموجود في أراضيها. ويجري استيفاء هذه القوائم بانتظام. (المادة ١٢-١)».

أما تدابير الصون الأخرى كوضع برامج تعليمية، وتقديم التوعية وبناء القدرات، فهي موجودة في النص القانوني، كأمر مرغوب به، ولكنها ليست إلزامية.

في منظور اليونيسكو، إن القوائم هي جزء من تدابير الصون وقوائم الحصر مصممة للصون على الصعيد الوطني. مع العلم أن الصون يعني «التدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافي غير المادي، بما في ذلك تحديد هذا التراث...» (المادة ٢،٣)، وبناءً على ذلك، من المتوقع أن تحدّد هذه القوائم الممارسات والتعايير الثقافية الحية، الموجودة في نطاق جغرافي وطني محدد، وأن تقدّم دليلاً على قدرتها على الاستدامة.

ترك الاتفاقية للدول الأطراف الحرية في وضع قوائم الحصر الوطنية ولا تقدّم توجيهات بشأن مبادئ التصنيف، إلا أنها تنصّ على أنه يجب أن توضع هذه القوائم لغرض محدد جداً وهو: «ضمان تحديد التراث الثقافي غير المادي بقصد صونه» (art.12.1) وإشراك المجتمعات أو الجماعات من أصحاب هذا التراث وكذلك المنظمات غير الحكومية» (art.11b). هكذا فإنّ الاتفاقية تتوجّه إلى الممارسات والمظاهر الحيوية، أكثر ممّا تتوجّه إلى ما ينتج عنها. إنّ حصر عناصر من التراث الثقافي غير المادي الحي يعني ذلك الاهتمام بالوظائف، والقيم، والتطوّرات التدريجية كما تراها المجتمعات المحلية ذاتها.

دور الجماعات<sup>(٩)</sup>

إن مشاركة المجتمعات المحليّة والجماعات في حماية التراث الثقافي غير الماديّ شرط إلزامي كما أوضحت المادة ١٥ التي تنصّ على هذه المشاركة: «تسعى كلّ دولة طرف، في إطار أنشطتها الرامية إلى حماية التراث الثقافي غير الماديّ، إلى ضمان أوسع مشاركة ممكنة للجماعات والمجموعات، وأحياناً للأفراد، الذين يدعون هذا التراث، ويحافظون عليه وينقلونه، وضمن إشراكهم بنشاط في إدارته». يمكن لرأي حاملي التقليد أن يكون المعيار الحاسم لتحديد ما يستحقّ أن يحصر ويصان.

لكنّ الاتفاقية لا تحدّد ما هو المقصود بالجماعات. وفي اجتماع خبراء من اليونسكو في طوكيو في عام ٢٠٠٦ اقترح التعريف التالي: «المجتمعات هي شبكات الأشخاص الذين لديهم شعور بالهوية وروابط ناتجة عن علاقة تاريخية مشتركة، متأصلة في ممارسة ونقل التراث الثقافي غير الماديّ، والتعلق به»<sup>(١٠)</sup>. في إطار هذا التعريف، فإنّ الجماعات هي مجموعة تكون تماسكها وشرعيّتها من خلال اعترافها بتراث ثقافي غير ماديّ مشترك في ما بينها.

## ماذا يجب تحديده في قائمة حصر التراث غير الماديّ؟

إنّ الحصر، الذي يعتبر وسيلة لصون التراث الثقافي غير الماديّ، يهدف إلى توثيق التعابير، كما الاعتراف بأصحاب التقليد وتمينهم وكذلك توعية الرأي العام. وعملية التوثيق ورد ذكرها بوضوح في البند ٢,٣ كأحد إجراءات الصون:

«ويقصد بكلمة الصون التدابير الرامية الى ضمان استدامة التراث الثقافي غير الماديّ، بما في ذلك تحديد هذا التراث وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه، والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه، وإبرازه ونقله، لا سيّما عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي، وإحياء مختلف جوانب هذا التراث». بالنسبة إلى اليونسكو، فإنّ قوائم الحصر لا تحتاج بالضرورة إلى

BORTOLOTTI Chiara et GRENET Sylvie, op.cit. (٩)

BORTOLOTTI Chiara, 2011: « Le trouble du patrimoine culturel immatériel », in BORTOLOTTI Chiara (dir) avec (١٠) la collaboration d'Annick ARNAUD et Sylvie GRENET, « Le patrimoine culturel immatériel. Enjeux d'une nouvelle catégorie », in Cahiers d'Ethnologie de la France éd. MSH, 2011, n°26, p.34.

توثيق معمق، لأنّ وظيفتها هي ضمان الاعتراف بالتراث غير المادّي، للتحسيس وتحديد العناصر التي تتطلّب إجراءات الحماية. إنّها توفر معلومات محدودة ومختصرة ضرورية للتحديد وبالتالي فهي خطوة أولى في عملية التوثيق. والتوثيق الأكثر تفصيلاً ضروريّ لتسجيل عناصر التراث الثقافيّ غير المادّيّ على القوائم التي تتطلّبها الاتفاقيّة.

### كيفية الحصر<sup>(١١)</sup>

عبارات التراث الثقافيّ غير المادّيّ تتضمّن عناصر ملموسة وغير ملموسة:

العناصر المادّيّة للتراث الثقافيّ غير المادّيّ:

- الاسم والموقع والعنوان
- الوصف والأصل، والتطور
- الأهميّة، وعوامل الخطر
- المصادر والمراجع
- مقدم الطلب، والموافقة
- دافع التسجيل
- التدابير، الحاجة إلى الحماية

المكونات غير الملموسة من التراث الثقافيّ غير المادّيّ:

- ممارسة التراث الثقافيّ غير المادّيّ كتعبير عن الشعور بالهويّة
- انتقال التراث الثقافيّ غير المادّيّ كتعبير عن الشعور بالاستمراريّة
- النهج المتبع حتّى الآن في تحقيق قوائم الحصر لا يتطابق بالضرورة مع ما هو مطلوب بموجب الاتفاقيّة. فقوائم الحصر غالبها يأتي منتجاً، وفي معظم الحالات، من قبل مؤسسات علميّة أو إداريّة، ما يجعلها بشكل عام موجّهة ومركّبة تبعاً لتقسيمات إداريّة مناطقيّة أو لقطاعات علميّة محدّدة<sup>(١٢)</sup>.

(١١) RENZ Cyril, op.cit.

(١٢) BORTOLOTTI Chiara et GRENET Sylvie, op.cit.

تبيّن التجربة أيضاً أنّ الدول الموقعة على اتفاقية عام ٢٠٠٣ تهتمّ في المقام الأول بالعنصر الماديّ من التراث الثقافيّ غير الماديّ، أي توثيق أشكال التعبير للتراث الثقافيّ غير الماديّ<sup>(١٣)</sup>. يجب على هذه الدول، أو الهيئات التي تمثلها، العمل على تطوير أساليب جديدة لإعداد قوائم تفهرس العمليات بدلاً من النتاج الثقافيّ<sup>(١٤)</sup>، بالتعاون مع المجتمعات المحليّة من الناحية العمليّة.

خلاف ذلك يمكن لاتفاقية صون التراث الثقافيّ غير الماديّ أن تصبح أداة museification وموت الثقافات والتنوع الثقافيّ. فتحوّل الثقافات المصنّفة التي تمّ تحديدها وصونها، إلى أداة جذب سياحيّ من شأنها أن تموت بسرعة؛ حتّى المنفعة الاقتصاديّة، التي ترجو الشعوب المحافظة لهذا التراث تحقيقتها، من خلال تطوير هذه الثقافات سوف تجدها نفسها وبسرعة محتكرة ومسحوقة من قبل شركات متعدّدة الجنسيات في زمن العولمة<sup>(١٥)</sup>.

### التجربة الكنديّة في مجال تطوير وتنفيذ الجرد<sup>(١٦)</sup>

حصر حي للتراث الحيّ: مشروع IREPI (كيبك كندا)

مشروع حصر العناصر الاثنيّة للتراث الثقافيّ غير الماديّ (IREPI)، الذي وضعه مركز الأبحاث الكنديّ للتراث الاثنيّ في جامعة لافال، يركّز على الخبرة المتقدّمة في كيبك في جمع وحصر العناصر الاثنوغرافيّة ويشكّل استمراراً لرؤية اليونسكو المعتمدة منذ عام ٢٠٠٣ في اتفاقية صون التراث الثقافيّ غير الماديّ.

مشروع IREPI ينفّذه مركز الأبحاث الكنديّ في التراث الاثنيّ بالتعاون مع جمعيّة كيبك للاثنولوجيا، ومتحف كيبك للثقافة الشعبيّة ومجلس كيبك للتراث الحيّ. كما يتمّ تمويل المشروع في إطار شراكة مع وزارة الثقافة ووزارة الاتصالات والمركز النسائيّ في كيبك ووزارة الشؤون البلديّة ومناطق كيبك.

RENZ Cyril, op.cit (١٣)

BORTOLOTTI Chiara et GRENET Sylvie, op.cit (١٤)

KHAZNADAR Chérif, «Le patrimoine culturel immatériel, les problématiques» in. Le patrimoine culturel immatériel, (١٥) Les enjeux, les problématiques, les pratiques, éd. BABEL, internationale de l'imaginaire, nouvelle série n°17, p. 57.

ROBERGE Martine, *Un inventaire vivant du patrimoine vivant: le projet IREPI*, [www.mnemo.qc.ca/spip/bulletin...](http://www.mnemo.qc.ca/spip/bulletin.../) (١٦) un-inventaire-vivant-du-patrimoine-culturel-immateriel.

### IREPI: منهجية مبتكرة وقائمة جرد تشاركية ذات منفعة

تستند المنهجية المستخدمة في هذا المشروع إلى منهجين أثبتا فعاليتيهما: لوائح الحصر وبحوث للعمل (Recherche-action).

منهج الحصر، يسمح، استنادًا إلى معايير محدّدة، بتحديد العناصر وتصنيفها وفقًا لأهمّيتها التراثية. وهذا المنهج ذو هدفين:

- الهدف الأوّل هو القائمة لتحديد الموارد الاثنوغرافية أو الممارسات، لحفظها وجعلها معروفة (نشرها) IREPI. هو حصر رقميّ بالكامل ويمكن الوصول إليه عبر شبكة الانترنت: إنه يقدّم قوائم نصّية، بما في ذلك صور ثابتة ومقاطع سمعية وبصرية تسمح بالتعرّف إلى عناصر التراث غير المادّي.

- الهدف الثاني هو تحديد الموارد الاثنوغرافية أو الممارسات التي يجب الحفاظ عليها وحمايتها وتعزيزها من أجل المساهمة في تنفيذ تدابير الدعم. أي أنّ لائحة الحصر هي أكثر من وسيلة تحديد وحماية؛ وتصبح أداة حقيقية لإدارة التراث غير المادّي، ويمكن استخدامها من قبل الباحثين أو الإداريين في وضع استراتيجيات للتنمية الإقليمية.

لذا فإنّ نهج البحث للعمل يعتبر مكملاً لأسلوب الجرد. إنه ينطوي على تطوير الأنشطة الثقافية مثل المقالات في الصحف المحلية، والمشاركة في الإذاعة والتلفزيون، وإعداد المعارض في المناسبات العامة في المعارض التجارية، وعقد المؤتمرات أو المحاضرات العامة. إضافة إلى ذلك، يتضمّن أيضًا مشاركة الجماعات المحلية في أنشطة من أجل استعادة ممارسات عبر الاستراتيجيات المباشرة للتنمية.

ويستند مشروع IREPI إلى عملية تميّن تجرى على مرحلتين:

الأولى، مباشرة في الميدان أثناء عملية الحصر بالتزامن مع أنشطة ثقافية منقّدة في ما بين الباحثين بالتعاون مع أعضاء المجتمع المحليّ. وفي خطوة ثانية، وضوح الرؤية (visibilité) التي يقدّمها الموقع الإلكترونيّ وتقدّم الموارد من خلال مخزون الموارد الرقميّ من ضمن مستند سمعيّ بصريّ.

## فئات التراث غير المادي ومعايير الاختيار

- الموارد الاثنوغرافية التي تمّ جردها في IREPI يتمّ تجميعها في خمس فئات:
- الأفراد الحاملون للمعارف والخبرات (مثل الحرفي والموسيقي).
  - الشركات التي تمتلك المعرفة أو الخبرة الفنيّة (مثل المخابر، ومعامل الأجبان).
  - المنظمات - الجمعيات أو مجموعات غير رسميّة (مثل جمعيات المنتجين، ومجموعات الترفيه، الجمعيات الثقافيّة).
  - أشكال التعبير (التقاليد، أعياد أو مهرجان شعبيّ، الطقوس، واللعب أو تعبير شفهيّ مثل القصة، الأسطورة، أو اللغة).
  - المساحات الثقافيّة (الأماكن العامّة الحاضنة للأنشطة الثقافيّة التقليديّة، والأسواق الشعبيّة، وقاعات الكنائس، الحديقة العامّة، الخ).
- وقد تمّ تحديد هذه الفئات الخمس وفقاً لتعريف التراث غير الماديّ المعتمد من قبل اليونسكو.

## مشروع IREPI ونشأة قوائم الجرد الوطنيّة

بدأ مشروع حصر الموارد الاثنولوجيّة في التراث غير الماديّ في خريف عام ٢٠٠٣ واعتمد منهجيّة أوجدت أدوات للجرد، وحددت معايير اختيار وتقويم الموارد الاثنولوجيّة لوضع قاعدة بيانات من شأنها أن توفر الدعم للموقع الالكترونيّ. وقد تجسّدت هذه الفكرة لاحقاً في مشروع رائد، وهذا يعني مرحلة تجريبية ميدانية للجمع، في ثلاث بلديات إقليمية من مقاطعة Mauricie مونتريال (ليتال إيطاليا والسوق جان تالون) في عام ٢٠٠٤. بدأ إعداد قوائم الجرد الوطنيّة بشكل جدّيّ في صيف عام ٢٠٠٦ (١٧).



## مشروع مدليهر MedLiHer (١٨)

«استهلت اليونيسكو، بدعم من الاتحاد الأوروبي، مشروع التراث المتوسطي الحيّ (MedLiHer) بغية دعم تنفيذ اتفاقية صون التراث الثقافي غير الماديّ في مصر والأردن ولبنان والجمهورية العربية السورية، وذلك بمشاركة دار ثقافات العالم (فرنسا). ويتمثل الهدف العام للمشروع في بناء القدرات على المدى الطويل من أجل تنفيذ الاتفاقية في البلدان المتوسطية، ولاسيما عبر وضع مشروعات صون وطنية ودعم مشاركة الدول الأطراف في الآليات الدولية. كما يرمي المشروع إلى تحسين التعاون الإقليمي وتبادل المهارات/الخبرات عبر إنشاء شبكة للمؤسسات وتصميم بوابة على شبكة الويب مزودة بقاعدة بيانات.

ويشارك الاتحاد الأوروبي في تمويل مشروع التراث المتوسطي الحيّ من خلال برنامج التراث الأوروبي المتوسطي التابع للاتحاد والذي يرمي إلى المساهمة في إقامة التفاهم والحوار بين الثقافات في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط عبر تعزيز التراث الثقافي. ويتيح البرنامج الرابع للتراث الأوروبي المتوسطي (٢٠٠٨-٢٠١٢) فرصاً جديدة لتوعية الشعوب وتنمية إحساسها بامتلاك تراثها الثقافي المشترك الرائع».

## المنتفعون والشركاء والقدرات التنفيذية:

المنتفعون من هذا المشروع هم الجماعات في الدول الأطراف في الاتفاقية، والمؤسسات الحكومية في البلدان المتوسطية التي يجمعها القرب الجغرافي، والتي صدقت على الاتفاقية.

## الشركاء هم:

- اللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة، وزارة التعليم العالي، مصر
- وزارة الثقافة اللبنانية، لبنان
- مديرية التراث الشعبي، وزارة الثقافة، سورية
- اللجنة الوطنية الأردنية للتربية والثقافة والعلوم، وزارة التربية والتعليم، الأردن
- دار ثقافات العالم، فرنسا

### أهداف المشروع:

- بناء القدرات على المدى الطويل من أجل تنفيذ الاتفاقية في البلدان المتوسطة
- صياغة مشروعات صون وطنية ودعم مشاركة الدول الأطراف في الآليات الدولية
- تحسين التعاون وتبادل المهارات/الخبرات على الصعيد الإقليمي عبر إقامة شبكة من المؤسسات
- تصميم بوابة إلكترونية على الويب مزودة بقاعدة بيانات

### مراحل المشروع:

المرحلة الأولى: إجراء دراسات استقصائية في البلدان المتوسطة الشريكة  
أهدافها:

- إجراء دراسات استقصائية عما هو موجود من بنى وبرامج وخبرات في مجال صون التراث الثقافي غير المادي في البلدان المتوسطة الشريكة
- تحديد الاحتياجات والأولويات
- تعداد التدابير التي تسعى كل دولة طرف إلى اتخاذها لصون تراثها الثقافي غير المادي
- الوفاء بالالتزامات التي أخذتها على عاتقها بموجب الاتفاقية

المرحلة الثانية: صياغة مشروعات وطنية وإنشاء شبكة

### أهدافها:

- عرض نتائج الدراسات الاستقصائية خلال اجتماع مع المسؤولين الحكوميين وممثلي المؤسسات/المنظمات.
- تصميم بوابة إلكترونية لتيسير تبادل المعلومات والخبرات بين الشركاء

المرحلة الثالثة: تنفيذ المشروعات الوطنية

### أهدافها:

- تنفيذ مشروعات الصون الوطنية - وعند الاقتضاء الدولية - التي حددها وصاغها الشركاء.
- إعداد التشريعات الخاصة بعناصر التراث المقترح إدراجها في قوائم الاتفاقية

- عقد اجتماع التقويم النهائي بحضور مختلف الأطراف الفاعلة لقياس مدى تأثير المشروعات وشبكة التعاون الاقليمية

### الخاتمة

أبرز هذا العرض القصير بشأن القضايا المتصلة بالتراث الثقافي غير المادي تعقيد المفهوم وتنفيذ أساليب الصون، بما في ذلك الحصر. والسؤال هو ما إذا كانت الدول الموقعة على الاتفاقية تمتلك الموارد المادية والبشرية للتنفيذ، بما يتوافق وتوقعات منظمة اليونسكو. إذا لم يكن كذلك، هل ثمة منظمة قادرة على سد الثغرات؟

## المراجع

- اليونسكو ٢٠١١: النصوص الأساسية. اتفاقية عام ٢٠٠٣ صون التراث الثقافي غير المادي.
- BORTOLOTTI Chiara, 2011: «Le trouble du patrimoine culturel immatériel», in BORTOLOTTI Chiara (dir) avec la collaboration d'Annick ARNAUD et Sylvie GRENET, « Le patrimoine culturel immatériel. Enjeux d'une nouvelle catégorie», in Cahiers d'Ethnologie de la France éd. MSH, 2011, n°26.
- BORTOLOTTI Chiara (dir) avec la collaboration d'Annick ARNAUD et Sylvie GRENET, 2011 : «Le patrimoine culturel immatériel. Enjeux d'une nouvelle catégorie», in Cahiers d'Ethnologie de la France éd. MSH, n°26.
- BORTOLOTTI Chiara et GRENET Sylvie, Les pratiques des inventaires du PCI dans le cadre de la convention de l'UNESCO, Institut National du Patrimoine. [mediathèque-numérique.inp.fr/index.php/.../pat\\_cult\\_im\\_04.pdf](http://mediathèque-numérique.inp.fr/index.php/.../pat_cult_im_04.pdf)
- Convention concernant la protection du patrimoine mondial, culturel et naturel, <http://whc.unesco.org/fr/conventiontexte>.
- IREPI, 2006: [www.patrimoine.immatériel.ulaval.ca](http://www.patrimoine.immatériel.ulaval.ca)
- KHAZNADAR Chérif, «Le patrimoine culturel immatériel, les problématiques», in : Le patrimoine culturel immatériel, Les enjeux, les problématiques, les pratiques, éd. BABEL, Internationale de l'imaginaire, nouvelle série n°17.
- KIRSHENBLATT-GIMBLETT Barbara, 2004: «Intangible Heritage as a Meta-cultural Production», Museum International, Vol. 56. N°1-2.
- Le patrimoine culturel immatériel, 2004: Les enjeux, les problématiques, les pratiques, éd. BABEL, Internationale de l'imaginaire, nouvelle série n°17.
- Le patrimoine culturel immatériel, 2011: Premières expériences en France, éd. BABEL, Internationale de l'imaginaire, nouvelle série n°25.
- MedLiHer, <http://www.unesco.org/culture/ich/index.php?lg=en&pg=00226>
- RENZ Cyril, Le patrimoine culturel immatériel. Quel inventaire pour quelle sauvegarde dans une société multiculturelle?, [www.cioff.ch](http://www.cioff.ch).
- ROBERGE Martine, Un inventaire vivant du patrimoine vivant: le projet IREPI, [www.mnemo.qc.ca/spip/bulletin.../un-inventaire-vivant-du-patrimoine-culturel-immateriel](http://www.mnemo.qc.ca/spip/bulletin.../un-inventaire-vivant-du-patrimoine-culturel-immateriel).



## المتذكر والمنسي والمقموع: ملاحظات منهجية

### من عملية التاريخ الشفوي الفلسطيني

د. ساري حني<sup>(١)</sup>

#### ملخص

يتناول البحث بعض الطرق التي روى بها لاجئو حيفا الفلسطينيون حرب ١٩٤٨، وتهجيرهم ووصف حياة حيفا الاجتماعية والثقافية في فترة ما قبل الحرب. بما في ذلك ما تم من لقاءات بين العرب واليهود. وفي ما يهيم هذه المسألة - الموضوع ثمة تباين بين الروايات المكتوبة والروايات الشفوية. فقد عكست الرواية الشفوية بصورة أحسن عدم تجانس المجتمع الفلسطيني إبان الحرب وهذا قد أهمل لصالح سردية ذات طابع قومي موحد.

تراكمت كتابات تاريخية وعلمية اجتماعية حول فلسطين خلال فترة الانتداب، ويمكن على العموم تحديد سمات عدة تميّزها. فهي تولي، أولاً، اهتماماً مبالغاً فيه في النخب على حساب المجموعات الاجتماعية الأخرى، كما تركز على التاريخ الدبلوماسي والسياسي والعسكري أكثر مما تعتني بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فضلاً عن أنها تقدم العرب على أنهم كانوا من دون أمل في مواجهتهم عدوياً بالغ القوة بحيث بدت عاجزة عن النقاط التأثير ومواجهة التصورات الصهيونية.

(١) الدكتور ساري حني، أستاذ مشارك في علم الاجتماع، الجامعة الأميركية في بيروت. هو يذكر امتنانه لإفراات بن زئيف وجاين روبيو لتعليقتهما البناءة واقتراحتهما التي قدّماها حول صيغة أولى من هذا المقال. sh41@aub.edu.lb

وعليه، فإن هذا البحث يحاول، أكثر مما تمّ إلى حدّ الآن، على إبراز بعض مسائل تجميع شهادات اللاجئين الفلسطينيين الشفوية، وهو يعتمد على سماع ما يناهز ٣٠٠ استجواب جمعها المركز الفلسطينيّ للاجئين والشتات (شمل) من أفواه لاجئين فلسطينيين غالبيتهم من مخيمات جنين والجزون في الضفة الغربية واليرموك في دمشق حول تجارب تهجيرهم والتاريخ الاجتماعيّ لمواطنهم الأصليّة قبل الاقتلاع وأخيراً حول تجربة الهجرة - المنفى التي عاشوها. وقد أثير انتباه خاص لأولئك المنحدرين من حيفا.

## مقدّمة

يبدو الصراع العربيّ الإسرائيليّ واحداً من الحالات العديدة التي يحكم فيها وزن التاريخ مضافاً إلى عبء الممارسات الاستعماريّة اليوميّة والتخطيطات الجغرافيّة - السياسيّة والاقتصاديّة على الحاضر بأن يشهد استدعاء مجدداً للعنف. وبعد ستين عاماً من إبعادهم، يكابد اللاجئون الفلسطينيون حياة موسومة بصدمة جماعيّة. كان البعض منهم مندمجين إلى حدّ بعيد في مجتمعات الاستقبال ولكن فقدانهم منازلهم وممتلكاتهم ما يزال بالنسبة إليهم الكابوس المائل فيما يعاني آخرون نوعين من الصدمات: التاريخيّة منها ذات العلاقة بالنكبة، والبنويّة ذات العلاقة بما يكابدون من ظروف حياة قاسية وتمييز قانونيّ ومؤسّساتيّ في بلدان الاستقبال العربيّة (مثل لبنان ومصر). ورغم ذلك يمكن للمرء أن يتساءل إن كان الحضور الطاعني للماضي في حياة اللاجئين الفلسطينيين اليوميّة واحداً. الإجابة نافية بالتأكيد، على أنّ ما يسمّيه كوس وأوزاس (Koss and Auzas 2008) «مورثة الماضي» (patrimonialization of the past) ظاهرة كونيّة بحقّ.

ترافقت نزعة المورثة هذه مع ظهور صورة الشاهد مقابلةً لصورة الخبير الذي فقد مصداقيّته تجاه الجمهور، وباتت الذاكرة الشخصية مصدراً بالغ الأهميّة بالنسبة إلى المؤرّخين في إنتاج معرفة مشروعة. لقد اتخذ حضور الماضي في حياتنا أشكالاً مختلفة إلى الحدّ الذي انطمست فيه الحدود بين الحاضر والماضي والمستقبل، وتسمح الهويّات للفاعلين بأن يجنّدوا الأزمنة الثلاثة لفائدة القوى السياسيّة التي تستند إلى الماضي، لا من أجل بناء سرديّة وجودهم بوصفه مشروعاً متّصلاً فحسب، بل بغاية إضفاء المشروعيّة على حقوق الاعتراف والتعويض واستعادة الممتلكات والمطالبة بها. باسم الايتيقا (ethics) تصبح مظلمة الماضي أهمّ من اللامساواة الراهنة (Koss and Auzas 2008). ومثلاً

وعليه، فإن هذا البحث يحاول، أكثر مما تمّ إلى حدّ الآن، على إبراز بعض مسائل تجميع شهادات اللاجئين الفلسطينيين الشفوية، وهو يعتمد على سماع ما يناهز ٣٠٠ استجواب جمعها المركز الفلسطيني للاجئين والشتات (شمل) من أفواه لاجئين فلسطينيين غالبيتهم من مخيمات جنين والجلزون في الضفة الغربية واليرموك في دمشق حول تجارب تهجيرهم والتاريخ الاجتماعي لمواطنهم الأصلية قبل الاقتلاع وأخيراً حول تجربة الهجرة - المنفى التي عاشوها. وقد أعير انتباه خاص لأولئك المنحدرين من حيفا.

## مقدمة

يبدو الصراع العربي الإسرائيلي واحداً من الحالات العديدة التي يحكم فيها وزن التاريخ مضافاً إلى عبء الممارسات الاستعمارية اليومية والتخطيطات الجغرافية - السياسية والاقتصادية على الحاضر بأن يشهد استدعاءً مجدداً للعنف. وبعد ستين عاماً من إبعادهم، يكابد اللاجئون الفلسطينيون حياة موسومة بصدمة جماعية. كان البعض منهم مندمجين إلى حدّ بعيد في مجتمعات الاستقبال ولكن فقدانهم منازلهم وممتلكاتهم ما يزال بالنسبة إليهم الكابوس المائل فيما يعاني آخرون نوعين من الصدمات: التاريخية منها ذات العلاقة بالنكبة، والبنوية ذات العلاقة بما يكابدون من ظروف حياة قاسية وتمييز قانوني ومؤسّساتي في بلدان الاستقبال العربية (مثل لبنان ومصر). ورغم ذلك يمكن للمرء أن يتساءل إن كان الحضور الطاعي للماضي في حياة اللاجئين الفلسطينيين اليومية واحداً. الإجابة نافية بالتأكيد، على أن ما يسميه كوس وأوزاس (Koss and Auzas 2008) «مورثة الماضي» (patrimonialization of the past) ظاهرة كونية بحق.

ترافقت نزعة المورثة هذه مع ظهور صورة الشاهد مقابلةً لصورة الخبير الذي فقد مصداقيته تجاه الجمهور، وباتت الذاكرة الشخصية مصدراً بالغ الأهمية بالنسبة إلى المؤرخين في إنتاج معرفة مشروعة. لقد اتخذ حضور الماضي في حياتنا أشكالاً مختلفة إلى الحدّ الذي انطمست فيه الحدود بين الحاضر والماضي والمستقبل، وتسمح الهويات للفاعلين بأن يجتدوا الأزمنة الثلاثة لفائدة القوى السياسية التي تستند إلى الماضي، لا من أجل بناء سردية وجودهم بوصفه مشروعاً متصلاً فحسب، بل بغاية إضفاء المشروعية على حقوق الاعتراف والتعويض واستعادة الممتلكات والمطالبة بها. باسم الايتيقا (ethics) تصبح مظلمة الماضي أهمّ من اللامساواة الراهنة (Koss and Auzas 2008). ومثلاً

بمثل، يجسّد كلّ من الحقّ في الذاكرة وموجة التذكّر واستخدام القانون لإضفاء المشروعيّة على الطبيعة "الإيجابية" للاستعمار ظواهر لهذه النزعة العامّة الجديدة. في مطلع السنوات التسعين، ظهر هذا الاختصاص الجديد المسمّى العدالة الانتقاليّة مواجهًا فقدان الذاكرة الذي أصاب مجتمعات ما بعد الصراع، مؤكّداً على أهميّة الذاكرة والتذكّر بوصفهما مكونين لواحدة من مقاربات التركيز على الضحيّة.

يتناول البحث بعض الطرق التي روى بها لاجئو حيفا الفلسطينيون حرب ١٩٤٨، وتهجيرهم ووصف حياة حيفا الاجتماعيّة والثقافيّة في فترة ما قبل الحرب بما في ذلك ما تمّ من لقاءات بين العرب واليهود. وفي ما يهمّ هذه المسألة - الموضوع ثمة تباين بين الروايات المكتوبة والروايات الشفويّة. فقد عكست الرواية الشفويّة بصورة أحسن عدم تجانس (heterogeneity) المجتمع الفلسطينيّ إبّان الحرب وهذا قد أهمل لصالح سردية ذات طابع قوميّ موحد.

تراكمت كتابات تاريخيّة وعلميّة اجتماعيّة حول فلسطين خلال فترة الانتداب، ويمكن على العموم تحديد سمات عدّة تميّزها. فهي تولي، أولاً، اهتماماً مبالغاً فيه في النخب على حساب المجموعات الاجتماعيّة الأخرى، كما تركّز على التاريخ الدبلوماسيّ والسياسيّ والعسكريّ أكثر ممّا تعني بالأبعاد الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، فضلاً عن أنّها تقدّم العرب على أنّهم كانوا من دون أمل في مواجهتهم عدوّاً بالغ القوّة بحيث بدت عاجزة عن التقاط التأثير ومواجهة التصورات الصهيونيّة المتمركزة حول ذاتها وحول مهمّتها (Lockman 1996).

وعليه فإنّ هذا البحث يحاول أكثر ممّا تمّ إلى حدّ الآن على إبراز بعض مسائل تجميع شهادات اللاجئين الفلسطينيين الشفويّة، وهو يعتمد على سماع ما يناهز ٣٠٠ استجواب جمعها المركز الفلسطينيّ للاجئين والشتات (شمل) من أفواه لاجئين فلسطينيين غالبيتهم من مخيّمات جنين والجلزون في الضفّة الغربيّة واليرموك في دمشق حول تجارب تهجيرهم والتاريخ الاجتماعيّ لمواطنهم الأصليّة قبل الاقتلاع، وأخيراً حول تجربة الهجرة - المنفى التي عاشوها. وقد أعير انتباه خاص لأولئك المنحدرين من حيفا: تلك المدينة الرئيسة في فترة ما قبل النكبة والتي تميّزت بتنوّع إثنيّ ولكنّها شهدت تطهيراً عرقياً شبه كامل، إذ من بين ٦١,٠٠٠ عربيّ فلسطينيّ من حيفا، لم يسمح إلا لـ ٣,٥٦٦ بالبقاء فيها.



## الشهادة الشفاهية: بعض المسائل المفهومية

رغم الأهمية البالغة لمصادر التاريخ الشفوي فإنها تثير ثلاثة تحديات. أولها وضع الشاهد وحدود شهادته وثانيها وضع التاريخ الشفوي بوصفه مصدرًا للمعرفة وآخرها تتعلق بإمكانيات الحصول على شهادة الجاني.

### الشاهد مقابلًا للضحية

ثمة كتابات متنامية حول الشهادة (Felman 1991، LaCapra 1998)، ويشير جمع سرديات «الضحايا- الناجين» وأرشفتها مسألة وضع الضحية بوصفها شاهدًا. يدرس جيورجو آغامبن في كتابه المؤثر الباقون من أوشويتز، الشاهد والأرشيف (Agamben 1999) حكايات الناجين ويفسر مأزق كتابة تاريخ المحرقة بالعسر الذي يلقاه الناجي منها في أن يكون ضحية وشاهدًا في آن معًا: «شاهد المعسكر الحقيقي هو ذلك الذي ليس يمكنه الكلام» (Agamben 1999). بالنسبة إليه، ينكشف تحمل مهمة اتخاذ موقع الشاهد باسم أولئك الذين لا يمكنهم الكلام عن أنه اتخاذ لموقع يستحيل منه تقديم الشهادة. ما الذي يطراً على الخطاب عندما تتكلم الذات المقتلعة؟ هل هي تجربة عار (shame) أو إدانة (guilt) أو ذنب (culpability)؟ على العموم، لا يعيش الناجي تجربة إدانة بل تجربة عار (Leys 2007)، وبالفعل، يرفض آغامبن التأويلات التي ترى إلى عار الناجي من زاوية الإدانة أو البراءة بحيث يبرهن على أن تجربة العار لا تتأتى من الذنب بل من الوضعية الوجودية التي يلقي الشاهد فيها نفسه مجبراً على ما لا يقدر على تحمّل مسؤوليته (Agamben 1999: 105). لم يقترف الناجي خطأ أخلاقياً أو قانونياً حتى يشعر بالإدانة بل هو يحسّ بالعار: «عار أن يكون قد حدث ما كان يجب ألا يحدث» (Agamben 2000:131)، ويؤكد أكاديميون آخرون (Sa'di and Abu 2007:10; Kammen 1995: 41) على الأشخاص الذين كابدوا عناء عيش أحداث صادمة خلفت لديهم ذكريات.

منذ طفولتي كنت أرغب في أن أعرف الكيفية التي تمّ بها إجلاء عائلتي من حيفا. كان أبي، سنة ١٩٤٨، في العشرين من عمره وأمّي ذات الـ١٧ سنة. علمت ببعض شذرات من الحكايات من جدّتي لأبي التي كانت معلّمة في مدرسة بحيفا ولكنّي لم أعلم

بكلّ الحكاية بالمرّة. كان أبي دائم الشكوى من كونه متعباً بعد ساعات طوال من العمل وأنه يعسر عليه التذكّر. كنت ألاحقه في أواخر الأسابيع من غير جدوى. في إحدى المرّات واجهته متهمًا إيّاه بتستّرّه على ما عاشه من عار. ولاعتباره استفزازي إيّاه مسبة رفض أن يحدثني طوال أسبوع. وفجأة، ذات صباح يوم جمعة بدأ بالحديث عن حكاية خروجه. وقد قمت طوال بعد ذلك (حوالي سنتي ١٩٩٩-٢٠٠٠) بسؤال أصدقاء ومعارف فلسطينيين إن كان والدوهم رويّوا لهم ما كان من تجارب خروجهم. كان الجواب سلبياً إلا من ثلاثة من بين ٢٨ منهم.

كيف لنا أن نفسّر هذا السكوت والتزام الصمت؟ كانت الشهادات التي تواردت شفاهياً في نهاية السنوات التسعين بالنسبة إلى سليم تمّاري (٢٠٠٥) تقال بطريقة تخلط بين الراويين والمستمعين. كانت تتاب الأولين الحيرة لصمتهم طوال ما يناهز الدهر قبل إفصاحهم عن حكاياتهم المخبوءة، وكان السامعون حيارى هم أيضاً أمام هؤلاء الرواة الذين عجزوا عن تفسير ما كان سواء أمثل بالنسبة إليهم قضاءً رباتياً أم فشلاً في مجابهة عدو متفوق. يتميّز عمل إفرات بن زئيف وإدنا لومسكي - فيدر حول سكوت الجيل الأوّل من المحاربين الإسرائيليّين خلال حرب ١٩٤٨ بأهميّة خاصّة (Efrat Ben-Ze'ev and Edna Lomsky-Feder, forthcoming). كان ذلك سكوتاً مميّزاً للمجتمع الإسرائيليّ إلى حدود السنوات ١٩٧٠ حين كان على الأشخاص أن يخفوا انفعالاتهم في الفضاء العموميّ وأن يراعوا سكوتاً يخيم على الأخصّ تجاه المحرقة والناجين منها.

بدأ صوت أبي الوقور في الارتعاش عندما تكلم على ما شاهده في طريقه من شمال حيفا إلى بنت جبيل في لبنان من دماء انسكبت من جرحى رموا بالرصاص من قبل العصابات الصهيونيّة. تكلم بانفعال من يؤنب نفسه على العار الذي شعر به إزاء ضعف الفلسطينيين وتعرّضهم لحياة «المتفريجين» من العرب. فجأة افتقد أبي المحبّ للشعر، الفصيح ومرّجل العربيّة الكلام، وراح يطارد كلمات يعبر بها عمّا عاناه طوال الأشهر الأخيرة السابقة لارتحاله إلى لبنان. قفزت الاستعارة المسرحيّة التي عرضها غوفمان إلى ذاكرتي (Goffman 1959) وشعرت أنّه قضى الليلة يتدرب في الكواليس (backstage) رغم أنّه ليس هناك دراما في المسرح، وأنّ الصدمة الجماعيّة ما تزال تهيكّل شهادته. ورغم الزمن الذي كان قد قضاه محارباً ضمن جيش الانقاذ لم تكن شهادته بطوليّة بأيّ معنى

من المعاني. تختلف الشهادات الخاصة الماثلة التي استمعت إليها في مناسبات أخرى عن أخرى من جنس مغاير، أي عن تلك الروايات التعبيرية في الفضاء العمومي والمجددة للبطولة الفلسطينية وللاستشهاد في مجابهة المجازر الوحشية التي كان يقترفها العدو الإسرائيلي. ورغم ذلك فقد لا يعثر المرء في الجانب الآخر من تلك الشهادات على ما يعرض بنية حياة ما قبل الحرب الفلسطينية.

إلى أي مدى تصطبغ الذاكرة بأثر سردية الواقع موقع الضحية؟ كان أبي يزاول عملين حتى يلبي احتياجات عائلة من خمسة أبناء: معلم في المدرسة ومساعد صيدلاني في صيدلية عمي. وبما أنه كان يغادر عند الساعة صباحاً ويعود في ساعة متأخرة من كل ليلة فقد كان على الغالب يتناول عشاءه متأخراً سائلاً أمي ألا تتولى تسخين الطعام الذي كان بالنسبة إليه «ما يملأ البطن حتى لا يشعر المرء بالجوع» وأن «المرء لا يعيش ليأكل بل يأكل ليعيش». كان دائم التردد: «أنا انتهيت من هذه الحياة» كما لو كانت ساعته قد توقفت في ١٩٤٨. وكان كل زمن لاحق لذلك وقتاً مضافاً، نوعاً من الوقت الزائد في وجوده البائس. كان دائم القول في توتر ومرارة: «نحن العرب نمضي من هزيمة إلى هزيمة». قررت سنة ٢٠٠٢ أن أختبر نظريتي عن عجز مهجري ١٩٤٨ عن مناقشة هذه المواضيع مع أبنائهم. وضع مركز «شمل» مشروع بحث في التاريخ الشفوي في مخيم جنين وكنت مديره آنذاك. أجرينا زهاء المائة مقابلة معمقة نصفها كان مع شبان، وأظهرت النتائج تعارضاً مهماً إلى حد ما مع تجربتي (وتجارب معارفي) إذ لم يسمع إلا ثلث الشبان فحسب بتجارب تهجير والديهم. يمكن لذلك أن يجد تفسيره في القرب النسبي لجنين من المواطن الأصلية (عين حوض، حيفا، زرعين، إلخ)، مقارنة بمخيم اليرموك في دمشق حيث عشت ولكنه يجده أيضاً في اهتمام متنام بالتاريخ الشفوي.

أرسيت مشاريع مختلفة خلال السنوات ١٩٩٠، ونشرت الحكايا الشفوية المتولدة عن ذلك في كتب عربية وعبرية وانكليزية، ورقية أو الكترونية، وصحف ومواقع على الانترنت. فلسطين في الذاكرة هو أهم تلك المواقع ([www.palestineremembered.com](http://www.palestineremembered.com)) إذ يحتوي على مواد تفاعلية حول كل مدينة أو قرية من فلسطين التاريخية. وتحتاج حمى التوثيق، كما يلاحظ ذلك بشارة دوماني (٢٠١١) الفلسطينيين في كل مكان. وسواء أكان في رام الله أم حيفا أم بيروت أم أي مكان آخر، فإنك واجد نفسك لا محالة

إزاء شخص ما أو مجموعة منشغلة باستجواب كبار السنّ مركّبة التواريخ العائليّة باحثة عن الصور والرسائل جامعات أو جامعة الألبسة والأغاني التراثيّة زائرة المقابر مجدّدة لها مصوّرة الوثائق المخطوطة الكتابة ومعرفة بها مكوّنّة ملفّات حول البيوت القديمة والقرى المهدمّة. وعليه ففي خلال السنوات العشر الأخيرة تحرّر الضحايا الصامتون من «عارهم». عناصر ثلاثة دفعت نحو ذلك: أولها السياق المحليّ - الإقليميّ الجديد: إذ يرى هؤلاء الضحايا للمسار السلميّ ولعودة قادة منظمّة التحرير وللاتفاضة على أنّها آمال جديدة تستوجب فتح كلّ الملفّات ولعب كلّ الأوراق. وثانيها الدور الحاسم الذي تضطلع به محطات تليفزيونيّة مثل الجزيرة والعربيّة إذ تنتج العديد من الأشرطة الوثائقيّة والبرامج المستندة إلى شهادات فلسطينيّة وتبثها، وآخرها أنّ التاريخ الشفويّ ينظر إليه من قبل العديد من الفلسطينيين على أنّه ردّ على السرديّات الصهيونيّة معاكساً الجهود الصهيونيّة إذ يردّ عليها الفعل. تؤسّس سرديّات اللاجئين لمشروعيّة المطالبات التي عليها يتوجّب أن يبنى تطبيق القرار الأمميّ عدد ١٩٤ الضامن لحقّ عودتهم إلى أراضيهم أو التعويض لهم عمّا فقدوه (Berger Gluck 2008).

كتب أحد المشاركين في منتدى الموقع الإلكترونيّ «فلسطين في الذاكرة»: «يرغب الكثير من الفلسطينيين في مدّد المساعدة ولكنهم لا يعرفون الكيفيّة التي يمكنهم أن يفعلوا بها ذلك، ولكن البعض ممّا ينسون أن تذكر تاريخنا وتراثنا له أهميّة جمع المال نفسها أو كتابة الكتب أو الالتزام السياسيّ. نحن في حاجة إلى معرفة ما الذي ندافع عنه وسبب قيامنا بذلك. يهدف جزء من الجهود الصهيونيّة إلى الحلّ محلّنا لا في أرضنا فحسب بل في لغتنا وأشجار زيتوننا وتاريخنا. إن لم نعرف من نكون فمن ذا يقوم بذلك؟ إن لم نكن نحن المتحدّثين عن ذواتنا فمن ذا سيفعل؟». (الترجمة لي).

خلال السنوات العشر الأخيرة نشر مركز الدراسات الفلسطينيّة ومعهد دراسات القدس التابع له عدداً كثيراً من المذكرات واليوميات والرسائل التي كان كتبها فلسطينيون مرموقون. حالياً، يعكف فلسطينيون عاديّون من مخيمّات اللاجئين الفلسطينيين في سورية على كتابة مذكراتهم الخاصّة فيما ينشر البعض منها بطريقة محرّفة (عن طريق دار الشجرة في مخيمّ اليرموك مثلاً) أو باعتماد النشر على حساب المؤلّف (Davis 2007). على أنّ هذه الكتب تتألّف عادة من حكايا شهود عيان للحرب ١٩٤٨ وللخروج اللاحق

لها، فيما تظل المنشورات التي تسجّل بنية الحياة اليومية وتاريخ فلسطين أو الفلسطينيين الثقافي نادرة جداً<sup>(٢)</sup>. يشتمل ذلك على اتجاهين اثنين: اتجاه رئيس كانت فيه إعادة تخیل فلسطين ما قبل الحرب تتم عبر «إضفاء الصبغة الرومانسية عليها» حافلة بروى متهرّبة من الواقع تركز على صور حقول البرتقال» و«تحنّ إلى الماضي» بمحمّدة الوطن في «إطار رعوّي ريفيّ شبيه بفردوس مفقود» (تماري ٢٠٠٥: الفصل الرابع). أمّا الاتجاه الثاني الأكثر تعقيداً ونقداً من الأوّل فيقوم على أعمال أناس عاديّين، وعائدين<sup>(٣)</sup> وكتاب وقصاصين<sup>(٤)</sup> وأكاديميين<sup>(٥)</sup>. وتعرض العديد من هذه الحكايا إلى ما يتذكّره الناس الذين فقدوا الكثير من وثائقهم الشخصية والصور وسجّلات الملكية التي أتلّفت عندما استولى الإسرائيليّون على المنازل، بل اختفت حتّى الوثائق الرسميّة من البلدات. فضلاً عن ذلك، إن لم تكن الجماعة العربيّة ذات الأصول الحيفاويّة التي تناثرت على طول المدى في سورية ولبنان وإسرائيل والصفّة الغربيّة تحفظ تقليدياً بسجّلات مكتوبة (صبيلي ٢٠٠٣: ٩).

### انتقائيّة ذاكرة الرواة

ثاني التحديّات التي تواجه التاريخ الشفويّ بوصفه منهجاً هي انتقائيّة ذاكرة الرواة: ما يرغب الشاهد في تذكّره وما يبالغ فيه وما يرغب أو ترغب في نسيانه. ثمّة المنسيّ والمكتوم ولكن ثمّة أيضاً مسألة الرقابة الذاتية أو مسألة من يروي رواية للبعض ورواية أخرى للبعض الآخر.

عندما أدت زيارة إلى عائليّتي في مخيمّ اليرموك رفض أبي أن ينظر إلى صورة كنت قد التقطتها لحيفا لأنّها ليست لـ«حيفاه» على حدّ تعبيره. قال إنّ حيفا الآن مدينة إسرائيليّة وأصرّ على أن ليس بمقدوره العودة إليها طالما ظلّت تحت السيادة الإسرائيليّة. ولكن، لم يحل غد ذلك اليوم إلّا وكان صحافيّ سويسريّ من أصدقائي يستجوب أبي ويسأله إن كان سيعود إلى حيفا إن صار ذلك ممكناً. وفجأة صرّح في صيغة إيديولوجيّة بليغة «بوصفيّ فلسطينياً، مثلي مثل أيّ واحد آخر، أودّ العودة من دون شروط». تتعلّق الرقابة

(٢) أنظر على سبيل المثال تماري، ٢٠٠٨.

(٣) أنظر على سبيل المثال (Khader 1997).

(٤) أنظر على سبيل المثال حوراني، ٢٠٠١، برغوثي، ٢٠٠٠، Turki 1994.

(٥) أنظر محمود عيسى وإيزابل هامفريز (Isabelle Humphries) في (Masalha 2005; Sa'di & Abu-Lughod 2007).

الذاتية بما يقال وبما لا يقال، وقد وصف تيد سويدنبراغ مدى تردّد الناس في التحدّث عن المتعاونين وعن الغش. (Swedenburg 2003: 12)، فيما يأتي مثال آخر من محيّم جنين، حيث كانت الملكيات التي أعلن عنها اللاجئون الفلسطينيون مبالغاً فيها، وقد وقر مختار قريتيّ زراعيين وعين حوض دلائل تثبت ما تمّ من الانتقاء والمبالغة.

تثير انتقائية ذاكرة الشهود مسألة العلاقة بين الذاكرتين الفردية والجماعية. ثمة هوة واضحة بين سياقات التبليغ وبين التمثلات الجماعية التي تؤثر في الروايات الفردية النازعة نحو تضخيم الماضي. لا يمكن بالنسبة إلى بول ريكور (Ricoeur 2004) أن يكون ثمة ذاكرات من دون وجود تاريخ مشترك بين الناس. يتذكّر الفرد ما فعله أو ما قاساه، ويتقاسم الأفراد في الحين ذاته ذاكرات مع أعضاء آخرين في المجموعة، وعلى ذلك تمثل الذاكرة الجماعية إمكانية رؤية أيّ فرد من أمة ذاته في أعين مواطنين آخرين بصرف النظر عمّا قد يفرّق بينهم من الاختلافات، رؤية تتمكّن من خلالها مجموعة من الناس من الوصول إلى حوادث ماضية أعيد بناؤها ورويت لهم. واقعاً، تسبق هذه الذاكرة الجماعية من وجهة ما الذاكرات الفردية، إذ نولد في خضمّ خطاب «عائلي» يخزن حكايات تاريخ المجموعات التي إليها ننتمي (العائلة، والمحليّ، والأمة، إلخ...). تتشكّل ذاكراتنا الفردية مواجهةً لخلفية هذه الذاكرة الجماعية ويعسر على الفرد في الكثير من الحالات أن يغزّد خارج السرب (Ricoeur 2004)، ويجعل ذلك من التأريخ مهمة بالغة العسر إذا ما ابتغى تخليص عناصر الذاكرة الفردية من تلك التي تقع تحت التأثير البالغ للسردية القومية الكبرى (meta-narrative). ومما ينتج عن ذلك أن تكون تمايزات النوع الاجتماعي والطبقة والدين قابلة للتناسي بيسر (Sayigh 1997). ولا يقتصر التحديّ الذي أتحدّث عنه على التاريخ الشفويّ فحسب بل هو يهّم المكتوب منه كذلك.

### التاريخ الشفويّ: ماذا عن الجناة؟

آخر تحدّيات التاريخ الشفويّ هو المدى الذي يمكن أن يشمل ما يرويه لا من منظور الضحايا فحسب بل وكذلك ما يكون منه من منظور مقترفي الاعتداءات. يبدو المؤرّخ الأميركيّ راوول هيلبارغ (Raoul Hilberg) الذي صاغ الكتاب الشهير تدمير اليهود الأوروبيين عميق النقد للتاريخ المبنيّ على سرديات الضحايا أو الناجين (Sivan 2003)،

فيما بنى كتابه على وثائق مقترفي الاعتداءات والجناة وشهاداتهم. وقد بينت حنا آرت أن تاريخ المحرقة لم يكن من كتابة الضحايا ذواتهم بل تمّ بدء صياغته بعد محكمة إيخمن في القدس لدى تكلم مقترفيها. وقد برّرت حاجتها الماسّة إلى حضور محاكمة إيخمن كاتبة: «كنت أودّ تعريض نفسي لا للأفعال بذاتها، فقد باتت على كلّ حال معلومة، بل لمن قاموا بها». لقد تجاهل الباحثون الفلسطينيون والإسرائيليون والأجانب سواء بسواء الحاجة إلى إجراء مقابلات مع الإسرائيليين حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفلسطينية لما قبل حرب ١٩٤٨ ومشاركتهم فيها.

## مركزية حيفا

في ما قبل الحرب، كانت يافا المركز التجاري والثقافي العربي الفلسطيني الأكثر أهمية (تماري وحمامي ١٩٩٨)، وكانت حيفا المدينة الفلسطينية الاقتصادية والثقافية الأكثر امتزاجاً في ذلك الوقت. وعلى خلاف الكثير من المؤرخين الذي يربطون بين الحداثة والحضور الامبريالي الأوروبي يبيّن تماري (٢٠٠٥) من خلال دراسته حول الكثير من الفلسطينيين الذين عاشوا في حيفا والقدس العثمانيين الكيفية التي بها يسّرت المدينتان بروز وجوه محلية ووطنية وإقليمية أيضاً، بل ومعمولة إلى حدّ ما. كان حضور التكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة في فلسطين منذ نهايات القرن التاسع عشر قد أدّى إلى ظهور بيئة اجتماعية وجدت في طبيعتها التجارية قاعدة ثقافية زمنية سمحت لها بأن تجتاز ضغوط المحيط الاجتماعية المحافظة. كان الميناء قد بدأ منذ أواخر الحقبة العثمانية يتحوّل إلى مدينة حديثة، وكانت مظاهر هذا التغيير تتمثل في تنامي ساكنة حيفا والتحوّل الذي طرأ على خاصّيتها الديموغرافية. كان تعداد ساكنتها قد استقرّ على نحو أربعة آلاف فلسطيني لدى بدء القرن التاسع عشر، ثمّ بدأ يتنامى خلال النصف الثاني منه عندما بدأت خاصّيتها الديموغرافية المسلمة والمسيحية الغالبة في التغيّر هي أيضاً. لقد انتقل واستقرّ، في سنة ١٨٦٩، فلاحو حركة جماعة الهيكل الألمانية (Templar Society) في حيفا، وبدأ اليهود خلال السنوات ١٨٨٠ يتوافدون من أوروبا قبل عهد من انطلاق الصهيونية السياسية. في ذلك الوقت بدأت حيفا تتغيّر من خلال الاقتصاد والنقل، بمواصفاتها العالمية المناسبة لذلك الزمن، وتعاظمت أعداد البواخر الأوروبية الوافدة على مينائها بالتوازي مع

تنامي التجارة الأوروبية مع المتوسط الشرقي. بنى الروس سنة ١٨٥٩ رصيفاً حتى ييسروا تجاراً. يمثل ذلك الاتساع، وبنى العثمانيون أول منشآت الميناء سنة ١٩٠٨، وقد كانوا قبل ذلك ربطوا حيفا بطبريا بطريق برّي كما ربطوها سنة ١٩٠٥ بدمشق عبر مدسكة من خطّ الحجاز، كما كانت المدينة متصلة بمصر عبر خطّ حديديّ استجابة للاحتياجات العسكرية البريطانية. ومع حلول الحرب العالمية الأولى، كانت حيفا قد عوّضت بيروت بوصفها الميناء الأهمّ في تزويد شمال فلسطين وجنوب سورية وأقاصي المناطق الواقعة خلف وادي الأردن، وكانت الحبوب ومواد أخرى تتدفّق نحوها. وخلال حقبة الانتداب، كان ينظر للحياة السياسيّة الفلسطينيّة على أنّها على الغالب مجال يافيّ وحيفاويّ عبر ما كان من الأنشطة النقابيّة والسياسات المتأصلة والصحافة اليساريّة (تماري ٢٠٠٥: ٢٠١) والدور المهيمن للنساء المناضلات والناشطات (Fleischmann 2003) مصحوباً بما أقيم فيها من مشاريع ضخمة عموميّة وخاصّة. وقد اعتُبر المرفأ الجديد ذو المياه العميقة الذي افتُتح سنة ١٩٣٣ أضخم مشاريع الانشاء العموميّة التي أنجزها البريطانيون في فلسطين خلال الانتداب رافعاً المكانة الاقتصاديّة لمدينة حيفا التي كانت كذلك نقطة النهاية لأنبوب نفط يمتدّ من مصدره في العراق إلى جانب مصفاة نفط. وكانت المدينة تستضيف واحداً من المطارين المدنيّين الفلسطينيّين مرتبطين بيافا بطريق إسفلتيّ تمّ الفراغ من أشغال إنشائه في منتصف الثلاثينات هو أيضاً. وتنامت ساكنة حيفا خلال الانتداب ماّرة من ٢٤,٦٣٤ سنة ١٩٢٢ إلى ما يناهز ١٢٨,٠٠٠ سنة ١٩٤٤ كان من بينهم ٦٦,٠٠٠ يهودي. وقد اضطلع خطّ الحجاز الحديديّ ثمّ الخطّ الحديديّ الفلسطينيّ والجامعة التكنولوجيّة (التخنيون) بدور رائد في توفير الاحتياجات المطلوبة لتطوّر حيفا من مدينة صغيرة إلى مدينة ضخمة متمتعة بكلّ مزايا ساكنة متعاظمة العدد وبما يناسبها من خدمات متنامية. تطوّرت حيفا إذاً إلى مدينة مركزيّة في شمال فلسطين وتحوّلت إلى طريق للحجيج المسلمين فيما سمح لها وضعها المهيمن ونموّها اللاحق بأن تجتذب نشاطاً سياسياً واجتماعياً وثقافياً ذا بال (Mansour 2006). وكان بمقدور التجار أن يستفيدوا من هاتين المؤسستين الاقتصاديّتين بفضل النشاط التبادليّ الذي جلباه إلى المدينة ونجاحهما في نسج تشابك تجاريّ مع تجار حبوب منطقة حوران السوريّة الجنوبيّة يصدرونها عبر الميناء.



## ما الذي يذكره اللاجئون؟

ما يميّز شهادة لاجئي حيفا الفلسطينيين أنّ مواضع الذاكرة ((lieux de memoire)) لديهم لم تكن أراضي أجدادهم بل المدينة والحياة الكونيّة التي كانت تحياها المدينة خلال القرن العشرين. تتعلق أكثر شهاداتهم الشفويّة عن النكبة، إثارة للمشاعر بسماعهم بلاغات ترهيب الهاغاناه، تلك الفرقة اليهوديّة شبه العسكرية، المبنوثة عبر مكبّرات الصوت زارعة الرعب في قلوب السكّان العرب لإجبارهم على الهرب. تمّ تأكيد ذلك في عمل المؤرّخ بيني موريس (موريس ١٩٩٣: ٧٦) إذ تواجه الروايات الفلسطينية معارضة بعض الإسرائيليين الذين يؤكّدون أنّ عمدة حيفا اليساريّ و«المتسامح» طلب من العرب ألا يغادروا، وهو ما يناقض ما كتبه موريس: «في حيفا، وفي الآن نفسه، كانت السلطات المدنيّة تقول شيئاً فيما كانت الهاغاناه تفعل شيئاً مغايراً، بل إنّ وحداتها كانت على الميدان تأتي أفعالاً مناقضة تماماً وبطريقة لم تكن على الغالب مفهومة من العرب» (موريس ١٩٩٣: ٩٠). أثار بعض من حاربوا ممن تمّ استجوابهم خلال مقابلات في مخيمّ اليرموك وجنين قضيتين مريرتين. الأولى التفتّت السياسيّ الذي كان يسود في ذلك الوقت حيفا بزعمائها المنقسمين حول برامج متباينة، أمّا الثانية، فهي الذخائر الفاسدة ونقص التدريب العسكريّ الذي أكّده مذكرات رشيد الحاج إبراهيم (إبراهيم ٢٠٠٥). لم تكن حيفا منقسمة على نفسها سياسياً فحسب بل واجتماعياً أيضاً. يبدو لي أنّ من المهمّ مقارعة شهادة جدّي (من جهة الأب) محمد الحنفي بشهادة خالي. انتقل جدّي إلى حيفا سنة ١٩٢١. بمعية عزّ الدين القسام من جبلة حذو اللاذقيّة في سورية هرباً من الاضطهاد الفرنسيّ. وجد رجل الدين السوريّ والشيخ الكاريزميّ عزّ الدين القسام، الذي كان يدعو إلى مزج قويّ بين الاصلاحية الإسلاميّة والمقاومة الوطنيّة في حيفا، تربة خصبة تستقبل رسالته وعلى الأخصّ في صفوف الجماعة الحضريّة الفقيرة. كان جدّي يصف حيفا على أنّها مدينة كثر فيها المهاجرون الذين حلّوا بها آتين من سورية ومصر ولبنان كما تخصّ طبقة عاملة تشتغل في الميناء وفي سكة الحديد وفي المصفاة، فيما كان خالي يتحدّث عن شباب من كلّ فلسطين الشماليّة يؤمنون حانات حيفا لاحتساء الكحول. خلال مطلع العشرينات، كان تدفق الروس واليهود الأوروبيين الشرقيين، ثمّ كانت هجرة عدد كبير من اليهود الألمان في بدء الثلاثينات، قد فتحت المدينة على العديد

من التأثيرات. تصف مي صيقلبي (٢٠٠٣) المدينة على أنها محببة وقد اشتهرت ببساتينها الطافحة بأشجار البرتقال والليمون، ويتحدّث الكثير من الشعراء الشعبيين عن حيفا بوصفها موضعاً للترفيه مشياً على الأقدام وسباحةً وزيارةً للحانات والمطاعم الجميلة وإلى ما هنالك، وفضلاً عن ذلك كان هناك المبشرون الفرنسيون ومهاجرو الهيكل الألمان. مؤسّسات التعليم التي أقاموها، بحيث أصبحت حيفا موضع لقاء رائع. ولكن، وعلى خلاف عدد كبير آخر من المدن الكبيرة ذات الخليج من السكان، كانت حيفا جديدة بعض الشيء وغير مقيّدة بتقليد تليد ولا بتاريخ طويل، ولهذا السبب كانت أكثر قابلية للتغيير من مواقع أخرى.

ما طبيعة العلاقات التي كانت تجمع اليهود بالفلسطينيين في مدن الخليج مثل حيفا؟ يبرز زاكاري لوكمان باراديغم المجتمع الثنائي بوصفه عدسة ترى من خلالها فلسطين الانتداب (Lockman 1996)، ويتقبّل أكاديميون إسرائيليون نافذو التأثير مثل س. ن. إيزنشتات (S.N. Eisenstadt) ودان هورويتز (Dan Horowitz) وموشي ليساك (Moshe Lissak) نموذج المجتمع الثنائي، ولكن طلال أسد بين أنّ العرب الفلسطينيين لا يضطلعون في أيّ حال من الأحوال بأيّ دور في تحليل إيزنشتات: يبدو الاستيطان وكأنّه يمتدّ في الفراغ، منقطعاً تماماً عن المجتمع العربيّ الذي كان يتمّ داخله ومنفصلاً عن أيّ تأثير له فيه. وبدلاً عن ذلك، تشكّلت بالنسبة إلى إيزنشتات والعديد من علماء الاجتماع والمؤرّخين الآخرين ملامح المجتمع اليهوديّ في فلسطين وديناميكيّته، وكذا تلك الخاصّة بمستقبل المجتمع الإسرائيليّ بشكل حاسم في بواكير القرن العشرين على أيدي الطلائعيّين الصهاينة الذين جلبوا معهم من أوروبا الشرقية تلك القيم التي شجّعت على إطلاق الاستيطان وبناء مؤسّساته متّجهاً في مساره الخاصّ نحو إعلان الدولة<sup>(٦)</sup>. يبدو ذلك مهمّاً في بيان كميّة تبني الصهاينة رؤية لا ترى العرب وهو ما حصل منذ زمن طويل واتّصل إلى حدّ اليوم. فشل المؤرّخون الفلسطينيون عامّة هم أيضاً في وصف العلاقة بين اليهود والعرب في ذلك الوقت. لا يسمح باراديغم المجتمع الثنائيّ إلاّ برؤية نمط التفاعل النزاعيّ والعنيف بين العرب واليهود في فلسطين، وقليلاً ما تتخطى

المواد المكتوبة الرائجة بين أيادي المؤرخين إلى ما وراء ذلك وإن كانت استثناءات هامة جدية بالاعتبار. من أمثلة ذلك عمل روزماري صايغ المبني على شهادة فلسطيني لبنان (Sayigh 1979) وعمل راث كارك وجوزف ب. غلاس (Ruth Kark and Joseph B. Glass) المبني على شهادة عائلة فاليرو (the Valero) من السفارديم وعلاقتها في القدس خلال فترتي العثمانيين والانتداب (Kark and Glass 2004). وعمل سليم تماري حول اسحاق شامي وما يسميه اليهود العرب لا المستوطنين اليهود الأوروبيين (تماري ٢٠٠٥). تبدو الاختلافات ذات بال لمن يأخذ في الاعتبار التاريخ الاجتماعي الخاص بكل مجموعة والطريقة التي حاول بها الصهاينة استخدام أولى المجموعتين. يعتبر لفظ «اليهود العرب» اليوم، وفي أغلب بقاع العالم، على حد قول تماري، تضاداً لفظياً. يعيد الباحث الاجتماعي الإسرائيلي يهودا شنهاف في كتابه اليهود العرب (Shenhav 2006) رسم أصول مفهمة اليهود المزراحيين بوصفهم يهوداً عربياً وهو يؤوّل الصهيونية على أنها ممارسة إيديولوجية ذات مقولات متزامنة متعاضدة ثلاث هي القومية والدين والاثنية. ويهدف الانضواء في المجموعة القومية كان من الضروري «انتزاع عربيّتهم»، وعلى حد اعتبار شنهاف فقد مايزت الصهيونية الدين بين العرب واليهود العرب بحيث تصبح السمة الرئيسة الجنسية في صفوف اليهود العرب (Shenhav 2006: 270-280). تظهر مواد التاريخ الشفويّ مستويات عديدة من العلاقة واللقاء من خلال الجيرة والعمل وفي الحانات. كانت العلاقات في بعض الأحيان مصلحة مثلاً تفسره واحدة من الروايات: «اعتاد أبي المصاب بضغط الدم أن يزور طبيباً يهودياً. يشتهر الأطباء اليهود بأنهم ماهرون». كانت العديد من الصلات تنعقد بين العائلات اليهودية والعربية في الجوار مثلاً كان عليه الأمر في حيّ الهدار في وسط حيفا. وحتى عندما يتحدّث الفلسطينيون عن عالمي حياة مختلفين (يهوديّ وعربيّ) فإنهم يبرزون أمثلة عديدة للقاءات مثلاً كانت عليه حالة ل. ص ربة البيت ذات الأعوام السبعة والسبعين: «كثيراً ما كنّا ندعو بعضنا البعض. كانت أمي تحبّ الطعام الذي يطهون وخاصة نوعاً من الشكشوكة بالبيض. وكانت عائلتي معتادة على رؤية جارتنا اليهودية أم يعقوب كل أسبوع تقريباً... ومن بين المواضيع التي كنّا نتحدّث فيها اجتياح حيفا من قبل العديد من اليهود الأجانب... حتى أمّ يعقوب كانت تتحدّث عنهم على اعتبارهم غازين وكانت تخشى سوء أخلاقهم. عليك

أن تفهم أنّ اليهود والعرب محافظون وكثيراً ما كانوا يصدمون لدى رؤية لباس اليهود الأوروبيين». كانت الأيديولوجية الصهيونية تحذر اليهود العرب من التحدّث بالعربية أو التعاطف المبالغ فيه مع إخوانهم في القومية. وقد تمّ وصف ذلك ببراعة في الفيلم الوثائقي أنسى بغداد وهو شريط وثائقي أخرجته سمير وعالج فيه مأزق اليهود العراقيين في إسرائيل (شمعون بالاس، وسمير نقاش، وموشي حوري، وإلا شوهات Ela Shuhat)، كما يصف سامي ميخائيل في شريطه الوثائقي المأزق الذي يواجهه بعض اليهود العراقيين في إسرائيل. يعكس ميخائيل ذلك جيّداً: «يبدو لي الأمر أحياناً كما لو أنني كنت شخصين، أحدهما عراقيّ عربيّ وآخرهما يهوديّ إسرائيليّ... خلال الحرب على العراق أحسست كما لو كانوا يقصفون طفولتي». جانب المشكلة الثاني كان وللأسف كيفية تعامل العرب مع هؤلاء اليهود ومنع كلّ الصلات بهم كما لو لم يكن للإنسان إلاّ انتماء وحيد. اعتبر الناقد اسحاق شامي (١٨٨٨ - ١٩٤٩) الذي عاش في حيفا واحداً من ألمع كتّاب فلسطين في ذلك الوقت ورأوا أنّه عكس، عبر شخصيته وأدبه، ظاهرة كانت في طريقها إلى الزوال عنيت هوية اليهود العرب. يمثّل مأزقه مثلاً مثاليّاً عن هذه المشكلة. كان وعد بلفور قد وضع اليهود العرب والسفارديم الذين كانوا يتماهون مع الثقافة العربية في فلسطين في موضع حرج. كانت مقاومتهم للهوية الصهيونية مقاومة ثقافية على الغالب لا مقاومة إيديولوجية، وكان البعض منهم، من ناحية أخرى، يرى في الحركة الصهيونية إغراء الحداثة التي وجدوا فيها إغراء الثقافة الأوروبية والفكر الاشتراكيّ. كانت حيفا في مجال العمل موقعاً استثنائياً أيضاً. وعلى خلاف كلّ المؤسسات المجاورة التي كانت ملك العرب وغالبية المؤسسات التي كانت ملك اليهود في فلسطين، كانت الخطوط الحديدية الفلسطينية تستخدم العرب واليهود، فكانت واحدة من المؤسسات القليلة التي كان العرب واليهود يشغلون فيها جنباً إلى جنب مواجهين الظروف نفسها ومجربين على التفاعل في سياق البحث عن حلول لمشاكلهم. وعلى ما أكده لوكمان (Lockman 1996): «كانت الخطوط الحديدية الفلسطينية واحدة من كبار المشغلين في البلاد بقوة عمل بلغ تعدادها حوالي ٢,٤٠٠ فرد سنة ١٩٢٤ وعادلت ذروة تضخمها ٧,٨٠٠ سنة ١٩٤٣. وكانت قوة العمل هذه تضمّ عدداً كبيراً من الفلاحين العرب غير المؤهلين الذين استخدموا في تشييد أساسات سكة الحديد ومساراتها ولكنها ضمّت كذلك عدداً

لا يستهان به من الأعداء المؤهلين في أقسام التسيير والجولان والمحطات على امتداد البلاد، وفي ١٩٤٣، كان ما يناهز ١٢٠٠ عاملاً عربياً ويهودياً مستخدمين في ورشات حيفا للإصلاح والصيانة. وعليه، وحتى تركيز مصفاة النفط في حيفا لدى اندلاع الحرب العالميّة الثانية، وما تلاها من تكاثر القواعد العسكريّة البريطانيّة خلال الحرب، كانت ورشات حيفا الموقع الأضخم لتمرکز العمال الصناعيين الأجراء). تبرز شهادات اللاجئين الفلسطينيين الشفويّة ما كان من تمييز ضدّ العمال العرب إذ كان العمال اليهود يستلمون أجوراً تفوق مقاديرها ضعف مقادير أجور زملائهم من العرب. يروي لاجئ فلسطيني من قادة العمال العرب في الميناء الطرفية التالية: «على أثر إضراب نظمناه حوالي سنة ١٩٣٨، توفّق الهستدروت (نقابة عمالية يهودية) في الترفيع من أجور المستخدمين اليهود. وعندما ذهبت أنا وبعض العمال العرب للاحتجاج برّر المسؤول البريطانيّ الارتفاع الذي استفاد منه العمال اليهود بكونهم كانوا معتادين على تناول الشوكولاتة باهظة الثمن».

## خاتمة

حاول هذا المقال سبر اشتغال الذاكرة الفلسطينية وتباطؤ شهادة اللاجئين حول النكبة في اتخاذ منظور متأنّ يهضم تجاربهم ويكسب ذكرياتهم معنى ومبنى. أشارت إلى أهميّة الطرق التي بها روى لاجئو حيفا الفلسطينيون حرب ١٩٤٨، وتهجيرهم وحياتهم حيفا الاجتماعيّة والثقافيّة لما قبل الحرب بما في ذلك اللقاءات العربيّة اليهوديّة، وبيّنت أنّ ثمة تبايناً بين الروايات الشفويّة والمكتوبة حولها. ورغم ما صغته في هذا المقال من نقد حول قضايا المقول واللامقول والمفكر واللامفكر فيه في الشهادات الشفويّة فقد تبين أنّها تروي حقائق ذات عمق. وحدها الشهادات، كتب بيلاعة أحمد سعدي وليلى أبو لغد (Sa'di and Abu Lughod 2007: 23)، كفيلة بإحداث اختراقات في جدار الرواية المهيمنة لما تمّ في ١٩٤٨ وفتح مجال للأسئلة.

كان من شأن التاريخ الشفويّ أن عكس بصورة أفضل امتزاج المجتمع الفلسطينيّ حوالي زمن الحرب والكيفيّة التي نظر بها في الغالب إلى ذلك على أنّه ممّا يخدم خصوصيّة قوميّة موحّدة. ذلك هو الامتزاج الذي أرغب في تناوله في هذه الخاتمة على أنّه عاكس

لتنوع اجتماعي وثقافي وتفتت سياسي أبرزته ذكريات حيفا لما قبل الحرب وما تزال حتى زمننا الحاضر. أحاجج هنا بأن ذلك يمثل الخلفية التي يسرت التخطيطات الدقيقة والمثابرة التي يدأب عليها الجهاز الاستخباراتي الإسرائيلي والأثروبولوجيون من أجل خلق حدود راسخة تقسم الجماعة الفلسطينية، تضاف إلى الحدود المادية التي تفصل بين الجماعات الفلسطينية الموزع شتاتها على امتداد دول المنطقة وما عداها. وقد لاحظ السوسولوجي الفلسطيني عزيز حيدر أن لقاءات ما بعد حرب ١٩٦٧ بين اللاجئين الفلسطينيين الذين يحيون في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين حديثاً وأقاربهم داخل حدود ١٩٤٨ كانت إشكالية. بعد سنوات الفصل العديدة، فهم الناس الاختلافات سريعاً. فقد كان من شأن ما مارسته إسرائيل من احتلال ومراقبة وتحكم أن خلق عالماً فلسطينياً جديداً داخلها. فضلاً عن أثر النظام السياسي، برزت قضية التمايز الطبقي الاجتماعي إذ أصبح فلسطينيو الداخل الإسرائيلي أكثر ثراء من أقاربهم اللاجئين في الأراضي المحتلة، كما سجل حيدر أن الزيارات سرعان ما توقفت. قال أحد المستجوبين الذين كانوا يحيون في حيفا إنه كان ينتابه الانزعاج لدى مصاحبته أناساً إلى المنازل التي كانت ملكهم في وادي صليب ومناطق أخرى من حيفا وإنه وجد نفسه مضطراً إلى الكف عن ذلك. كما وجه السوسولوجي الفلسطيني أندريه مزاوي بعض النقد الحاد لفشل فلسطيني الشتات في الاعتراف بالحقائق الواقعة على الأرض في مدن ١٩٤٨ (تماري ٢٠٠٨).

ثمة العديد من التفسيرات لهذه الهوة بين فلسطيني الداخل واللاجئين في الأراضي الفلسطينية وفي الخارج. خير فلسطينيو الداخل قوة المجتمع الإسرائيلي وامتصوها ثم وجهوها ضد الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة مثلما يحاجج بذلك سدريك باريزو (Parizot 2008)، وأوجدت التباينات في وضعهم الاجتماعي الاقتصادي لديهم شعوراً بالتفوق. ويحاجج عالم الاجتماع نبيل صالح أن فلسطيني إسرائيل لا يباليون بواقع احتلال الأرض الفلسطينية، وهو يتذكر ما عايشه أثناء طفولته من كون فلسطيني إسرائيل كانوا يقولون إن الضفة الغربية تم «فتحها» لا «احتلالها».

لدى أول زيارة لهم إلى القدس الشرقية سنة ١٩٦٧ التقط فلسطينيون من حيفا صوراً لجنود إسرائيليين كانوا يرتدون أزياءهم العسكرية ويضعون أسلحتهم. وعلى ما

يقول المؤرخ الفلسطيني عادل مناع الذي تولى دراسة حالات ٣٥٠ عائلة فلسطينية من شمال إسرائيل هاجرت إلى القدس الشرقية حتى تكون أقرب إلى الجامعات الفلسطينية، شعر البعض من أفرادها أنهم أقلية في مجتمع ودولة إسرائيليين عنصرين وضمن صفوف فلسطينيي القدس سواء بسواء.

يمكن للمرء أن يحاجج بأن هذا التحيز بين مجموعات مختلفة لا يختلف عما يلاقه بدوي فلسطيني من بئر السبع إذا ما انتقل للعيش في حيفا. يتعمق التحيز في المجتمع القبلي الفلسطيني عالي الانقسام بفعل الفصل الذي تحدته الحدود، وتعرقل سياسات الفضاء التي تتبعها إسرائيل راهنا الترابط بين الفلسطينيين داخل الضفة الغربية وقطاع غزة. على المدى الطويل تختلق الحدود داخل أذهان الناس (حنفي ٢٠٠٨: ٤). لا نتحدث هذه الحدود تغييراً في الهوية القومية بالضرورة ولكنها تغير الممارسات اليومية للناس. بما في ذلك تلهفهم للعودة إلى مواطنهم الأصلية. ومثلاً بمثل، خلقت تفتت الفلسطينيين الحاصل الناتج عن ممارسة إسرائيل من سياسات حيوية وتكريسها حالة الاستثناء (حنفي ٢٠٠٩) هويات محلية داخل صفوف السكان. لا يعني ذلك بالضرورة إلغاء الهوية القومية ولكن تفاعل هويات محلية معها مرواحاً بين الانسجام تارة والتنازع طوراً.

هناك تعلق كبير للاجئين الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة، كما لفلسطينيي الشتات، بأرض فلسطين أكثر مما لهم بشعبها، وكثيراً ما يلجّ الفلسطينيون في الاستجابات على الحديث عن الملكية والأرض والبحر المتوسط وقبر الخضر والمسجد الأقصى وكنيسة برعيم وإلى ما هنالك متفادين الخوض في مسألة كيفية تنظيمهم حياتهم وفي صحبة من يفعلون ذلك. لست ألمح في ما أقول إلى استحالة التعاون بين الفلسطينيين العائدين وجيرانهم اليهود ولكن إلى ضرورة التفكير في العودة لا من منظور جغرافي فحسب بل وأيضاً من منظور العلاقات الاجتماعية. ينبغي على اللاجئين الفلسطينيين عدم اختلاق أسطورة أرض من دون شعب للاجئين من دون أرض، لمحاكاة الأسطورة الصهيونية.

تتحكم في قضية العودة عناصر تتجاوز مجرد الحق فيها (حنفي ٢٠٠٧)، ولكن ذلك الحق مفتاح أي حلّ مستدام للصراع العربي الإسرائيلي يمكنه أن يفتح الأفق على خيارات ممكنة للاجئين الفلسطينيين بعد منفي تجاوز الستين عاماً. غطى ميدان عمل شمل كما غطت دراساتنا الخاصة في ثلاثة عشر بلداً من بلدان الشتات الفلسطيني

يقول المؤرّخ الفلسطيني عادل مناع الذي تولّى دراسة حالات ٣٥٠ عائلة فلسطينيّة من شمال إسرائيل هاجرت إلى القدس الشرقيّة حتّى تكون أقرب إلى الجامعات الفلسطينيّة، شعر البعض من أفرادها أنّهم أقلّيّة في مجتمع ودولة إسرائيليين عنصرين وضمن صفوف فلسطينيّ القدس سواء بسواء.

يمكن للمرء أن يحتاج بأن هذا التحيز بين مجموعات مختلفة لا يختلف عمّا يلاقيه بدويّ فلسطينيّ من بئر السبع إذا ما انتقل للعيش في حيفا. يتعمّق التحيز في المجتمع القبليّ الفلسطينيّ عالي الانقسام بفعل الفصل الذي تحدّثه الحدود، وتعرقل سياسات الفضاء التي تتبّعها إسرائيل راهنا الترابط بين الفلسطينيّين داخل الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. على المدى الطويل تختلق الحدود داخل أذهان الناس (حنفي ٢٠٠٨: ٤). لا تتحدّث هذه الحدود تغييراً في الهوية القوميّة بالضرورة ولكنّها تغيّر الممارسات اليوميّة للناس بما في ذلك تلهّفهم للعودة إلى مواطنهم الأصليّة. ومثلاً، مثل، خلق تفتّت الفلسطينيّين الحاصل الناتج عن ممارسة إسرائيل من سياسات حيويّة وتكريسها حالة الاستثناء (حنفي ٢٠٠٩) هويّات محلّيّة داخل صفوف السكّان. لا يعني ذلك بالضرورة إلغاء الهوية القوميّة ولكن تفاعل هويّات محلّيّة معها مرّوحاً بين الانسجام تارةً والتنازع طوراً.

هناك تعلق كبير للاجئين الفلسطينيّين من الضفّة الغربيّة وغزّة، كما لفلسطينيّ الشتات، بأرض فلسطين أكثر ممّا لهم بشعبها، وكثيراً ما يلحّ الفلسطينيّون في الاستجابات على الحديث عن الملكيّة والأرض والبحر المتوسّط وقر الحضر والمسجد الأقصى وكنيسة برعيم وإلى ما هنالك متفادين الخوض في مسألة كيفيّة تنظيمهم حياتهم وفي صحبة من يفعلون ذلك. لست ألمح في ما أقول إلى استحالة التعاون بين الفلسطينيّين العائدين وجيرانهم اليهود ولكن إلى ضرورة التفكير في العودة لا من منظور جغرافيّ فحسب بل وأيضاً من منظور العلاقات الاجتماعيّة. ينبغي على اللاجئين الفلسطينيّين عدم اختلاق أسطورة أرض من دون شعب للاجئين من دون أرض، لمحاكاة الأسطورة الصهيونيّة.

تتحكّم في قضيّة العودة عناصر تتجاوز مجرّد الحقّ فيها (حنفي ٢٠٠٧)، ولكن ذلك الحقّ مفتاح أي حلّ مستدام للصراع العربيّ الإسرائيليّ يمكنه أن يفتح الأفق على خيارات ممكنة للاجئين الفلسطينيّين بعد منفيّ تجاوز الستين عامًا. غطّى ميدان عمل شمل كما غطّت دراساتي أنا الخاصّة في ثلاثة عشر بلدًا من بلدان الشتات الفلسطينيّ



في ما بين ١٩٩٠ و ١٩٩٥ ساكنة شديدة الامتزاج تُعدّ خمسة ملايين نسمة كانوا كلّهم يطالبون بحقّهم في العودة ولكنّهم لن يمارسوه بالضرورة. يبدو أنّ عددًا أقلّ مستعدّ موضوعيًا للعودة. بعض مواطن هؤلاء اللاجئين محتلة اليوم من قبل المهاجرين اليهود، إذ كشفت دراسة فافو لسنة ٢٠٠٢ في صفوف فلسطينيّ لبنان أن أغلبهم جاؤوا من أجزاء من فلسطين التاريخية تقع حاليًا داخل إسرائيل: أربعون بالمائة أتوا من مواضع هي الآن يهوديةً بالكامل مثل صفد وطبريا - بيسان (١، ٣٣ و ٦، ٣ بالمائة) أو ذات أغلبية يهوديةً ساحقة مثل منطقة عكا (٦، ٣٦ بالمائة من عكا و ٩ بالمائة من حيفا)، في حين لا ينحدر من المدن العربيّة إلا عشرة بالمائة وخاصّة منها الناصرة (٥، ٩ بالمائة) وجنوب فلسطين (٣، ٣ بالمائة)، ولا ينحدر من الأراضي الفلسطينيّة إلا ٢، ١ بالمائة. واقعًا، ورغم كون فلسطينيّين - لبنانيّين اثنين من بين خمسة هم من مواليد فلسطين، فإنّ عددًا قليلًا منهم حافظوا على روابط مع فلسطينيّ الداخل الإسرائيليّ، على ما تؤكّده تحقيقات شمل وفافو (خواجه ٢٠٠٣). فمّمّا ورد في واحد منها أجرته شمل ففقد ٨٢ بالمائة من المستجوبين المنحدرين من مدن كبيرة مثل حيفا الاتّصال المباشر مع أقاربهم الأقربين الذين يعيشون خارج إسرائيل. تتناقص الزيارات طردًا مع تقدّم حيفا ولاجئها في السنّ، وفي حين تبدو الوضعيّة الاقتصاديّة غير مناسبة لتعدّد الزيارات يزور الأشخاص الأكثر تقدّمًا في الدراسة من غيرهم أقاربهم بتواتر أعلى ممّا يفعله آخرون. يبدو إذا أنّ التعليم يرفع من إمكانيّة السفر من أجل الالتقاء بأقارب يقيمون في ما وراء الحدود.

## المراجع

إبراهيم صيقللي؛ مي، ٢٠٠٣: حيفا العربية ١٩١٨-١٩٣٩: التطور الاجتماعي والاقتصادي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الحاج إبراهيم؛ رشيد، ٢٠٠٥: الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين: مذكرات رشيد الحاج إبراهيم، ١٨٩١-١٩٥٣. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

البرغوثي؛ مريد، ٢٠٠٣: رأيت رام الله. المركز الثقافي العربي.

تماري؛ سليم، ٢٠٠٥: الجيل ضد البحر. مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية - رام الله. ط. الأولى.

حوراني؛ فيصل، ٢٠٠١: الجري إلى الهزيمة. مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية - رام الله. ط. الأولى.

بني؛ موريس، ١٩٩٣: ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين: «وثيقة إسرائيلية»، دار الخليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، الأردن.

- AGAMBEN G., 1999: Remnants of Auschwitz, trans. Daniel Heller-Roazen. New York: Zone Books.

- ———. 2000. Mean without End: Notes on Politics. Minneapolis: University of Minnesota Press.

- ASAD Talal, 1975: "Anthropological Texts and Ideological Problems: An Analysis of Cohen on Arab Villages in Israel," Review of Middle East Studies 1, pp. 1-40.

- BARGHOUTHI Mourid, 2000: I Saw Ramallah. New York: Anchor Books.

- BEN-ZE'EV Efrat & LOMSKY-FEDER Edna: (Forthcoming). "The Canonical Generation: Trapped between Personal and National Memories," Sociology Journal of the British Sociological Association.

- BERGER Gluck, Sherna. 2008: "Oral History and al-Nakbah," Oral History Review 35 (1), pp. 68-80.

- DAVIS Rochelle, 2007: "Mapping the Past, Recreating the Homeland: Memories of Village Places, in pre-1948 Palestine", in A. Sa'di, & L. Abu-Lughod ed. Nakba: Palestine, 1948 and the Claims of Memory, New York: Columbia University Press, pp. 53- 75.

- DOUMANI Beshara, 2009: "Archiving Palestine and the Palestinians: The Patrimony of Ihsan Nimr," Jerusalem Quarterly 36, pp. 3-12.

- EISENSTADT S.N., 1967: Israeli Society. London: Weidenfeld & Nicolson.

- FELMAN Shoshana, 1991: "In an Era of Testimony: Claude Lanzmann's Shoah," Yale French Studies, No. 79, Literature and the Ethical Question, pp. 39-81.

- FLEISCHMANNI Ellen, 2003: The Nation and its "New" Women: The Palestinian Women's Movement, 1920-1948. Berkeley: University of California Press.

## المراجع

- GOFFMAN Erving, 1959: *The Presentation of Self in Everyday Life*. New York: Anchor.
- HANAFI S., 2008: "Introduction," in S. Hanafi ed., *Crossing Borders, Shifting Boundaries: Palestinian Dilemmas*, Cairo: American University in Cairo Press, pp. 1–11.
- ———. 2007: "Sociology of Return Palestinian Social Capital, Transnational Kinship and Refugee Repatriation Process," in E. Benvenisti and Ch. Gans and S. Hanafi eds., *Israel and the Palestinian Refugees*, Berlin: Springer and Max-Planck Institute, pp. 3–40.
- ———. 2009: "Spacio-cide: Colonial Politics, Invisibility and Rezoning in Palestinian Territory." *Contemporary Arab Affairs*, 2(1), pp. 106–121.
- HILBERG Raul, 1985: *The Destruction of the European Jews*. New York: Holmes & Meier.
- Horowitz, Dan & LISSACK Moshe. 1978: *Origins of the Israeli Polity: Palestine under the Mandate*. Chicago: University of Chicago Press.
- HOURANI Faisal, 2001: *Paths of Exile: Running toward the Defeat*. Ramallah: Muwatin.
- IBRAHIM, Rashid al-Hajj, 2005: *The Defense of Haifa and the Palestinian Question: 1891-1953*. Beirut: Institute of Palestine Studies. [Arabic].
- KHADER Hassan, 1997: "Confession of a Palestinian Returnees," *Journal of Palestine Studies* 27(1) pp. 85–95.
- KOSS Bogumil and AUZAS Vincent eds, 2008: *Traumatisme collectif pour patrimoine: Regards croisés sur un mouvement transnational*. Québec: University of Laval.
- LACAPRA Dominick, 1998: *History and Memory after Auschwitz*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- LEYS, Ruth, 2007: *From Guilt to Shame: Auschwitz and After*. Princeton: Princeton University Press.
- LOCKMAN Zachary, 1996: *Comrades and Enemies: Arab and Jewish Workers in Palestine, 1906- 1948*. Berkeley: University of California Press.
- MANSOUR Johnny, 2006: "The Hijaz-Palestine Railway and the Development of Haifa," *Jerusalem quarterly* 28, pp. 5–21.
- MASALHA, Nur ed., 2005: *Catastrophe Remembered: Palestine, Israel and the Internal Refugees*. London and New York: Zed Books.
- MICHAEL Sami, 1988: *Refuge*: Philadelphia: Jewish Publishers Society.
- MORRIS Benny, 2004: *The Birth of the Palestinian Refugee Problem*. Cambridge: Cambridge University Press.
- NORA Pierre, and Charjès-Robert Ageron, 1997 : *Les Lieux de mémoire*, tome 1. Paris: Gallimard.
- PARIZOT Cédric, 2008: "Crossing Borders, Retaining Boundaries: Kin-nections of Negev. Bedouin in Gaza, West Bank, and Jordan," in S. Hanafi ed., *Crossing Borders, Shifting Boundaries: Palestinian Dilemmas*, Cairo: American University in Cairo Press, pp. 58–84.



## المراجع

- GOFFMAN Erving, 1959: *The Presentation of Self in Everyday Life*. New York: Anchor.
- HANAFI S., 2008: "Introduction," in S. Hanafi ed., *Crossing Borders, Shifting Boundaries: Palestinian Dilemmas*, Cairo: American University in Cairo Press, pp. 1–11.
- ———. 2007: "Sociology of Return Palestinian Social Capital, Transnational Kinship and Refugee Repatriation Process," in E. Benvenisti and Ch. Gans and S. Hanafi eds., *Israel and the Palestinian Refugees*, Berlin: Springer and Max-Planck Institute, pp. 3–40.
- ———. 2009: "Spacio-cide: Colonial Politics, Invisibility and Rezoning in Palestinian Territory." *Contemporary Arab Affairs*, 2(1), pp. 106–121.
- HILBERG Raul, 1985: *The Destruction of the European Jews*. New York: Holmes & Meier.
- Horowitz, Dan & LISSACK Moshe. 1978: *Origins of the Israeli Polity: Palestine under the Mandate*. Chicago: University of Chicago Press.
- HOURANI Faisal, 2001: *Paths of Exile: Running toward the Defeat*. Ramallah: Muwatin.
- IBRAHIM, Rashid al-Hajj, 2005: *The Defense of Haifa and the Palestinian Question: 1891-1953*. Beirut: Institute of Palestine Studies. [Arabic].
- KHADER Hassan, 1997: "Confession of a Palestinian Returnees," *Journal of Palestine Studies* 27(1) pp. 85–95.
- KOSS Bogumil and AUZAS Vincent eds, 2008: *Traumatisme collectif pour patrimoine: Regards croisés sur un mouvement transnational*. Québec: University of Laval.
- LACAPRA Dominick, 1998: *History and Memory after Auschwitz*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- LEYS, Ruth, 2007: *From Guilt to Shame: Auschwitz and After*. Princeton: Princeton University Press.
- LOCKMAN Zachary, 1996: *Comrades and Enemies: Arab and Jewish Workers in Palestine, 1906- 1948*. Berkeley: University of California Press.
- MANSOUR Johnny, 2006: "The Hijaz-Palestine Railway and the Development of Haifa," *Jerusalem quarterly* 28, pp. 5–21.
- MASALHA, Nur ed., 2005: *Catastrophe Remembered: Palestine, Israel and the Internal Refugees*. London and New York: Zed Books.
- MICHAEL Sami, 1988: *Refuge*. Philadelphia: Jewish Publishers Society.
- MORRIS Benny, 2004: *The Birth of the Palestinian Refugee Problem*. Cambridge: Cambridge University Press.
- NORA Pierre, and Charles-Robert Ageron, 1997 : *Les Lieux de mémoire*, tome 1. Paris: Gallimard.
- PARIZOT Cédric, 2008: "Crossing Borders, Retaining Boundaries: Kin-nections of Negev. Bedouin in Gaza, West Bank, and Jordan," in S. Hanafi ed., *Crossing Borders, Shifting Boundaries: Palestinian Dilemmas*, Cairo: American University in Cairo Press, pp. 58–84.



## الكنوز البشرية الحيّة

### سباق لرصد الهوية الثقافية

د. علي بزّي<sup>(١)</sup>

#### ملخص

تهدف هذه المداخلة لإلقاء الضوء على دعوة تبنّتها منظمة اليونسكو العالمية للحفاظ على الكنوز البشرية الحيّة، والتي تشمل الأفراد الذين يمتلكون معارف وفنوناً تراثية. وهي الوسيلة الفعّالة لصون التراث الثقافيّ على نحو مستدام والتأكد من أنّ هؤلاء هم من حملة هذا التراث وبهم يتمّ الاستمرار في نقل المعارف والمهارات إلى الأجيال الشابة.

إنّ أهميّة تسليط الضوء على الكنوز البشرية الحيّة، تكمن في الحفاظ على المعارف التقليدية والحرف والفنون وكلّ عناصر التراث التي بدأت تندثر مع موت متقنيها، أو امتهانهم أعمالاً أخرى في محاولة كسب العيش. فالأعمال الخالدة يذكرها الناس وتتناقل ذكر من قام بها الأجيال. ويهدف برنامج الكنوز البشرية الحيّة إلى تشجيع الدول والاعتراف رسمياً بالأشخاص الحائزين على معرفة التقاليد والممارسات الابداعية وكذا ضمان انتقال هذه المعارف والمهارات إلى الأجيال الفتية.

والتركيز على هؤلاء ضمن التوجّهات التالية:

- إنشاء نظام كنوز البشرية الحيّة في لبنان بطريقة مستدامة.
- وضع آليات لتحديد الكنوز البشرية الحيّة باستخدام أسلوب منهجيّ.
- وضع وتنفيذ نظام لضمان الانتقال من الكنوز البشرية الحيّة للأجيال الشابة.

(١) الدكتور علي بزّي: أستاذ الأترولوجيا في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية [bazzialy@hotmail.com](mailto:bazzialy@hotmail.com)

وتشمل الأنشطة الرئيسة:

- وضع إجراءات تفصيلية لتحديد المجالات المستهدفة للتراث الثقافي، وتعريف الكنوز البشرية الحية، ومعايير اختيارها.
- إجراء البحوث الميدانية في كل المناطق اللبنانية لجمع ودراسة كل المعلومات المتعلقة، وتشجيع الباحثين من الطلاب في مراحل الجدارة والماجستير والدكتوراه؛
- تنظيم ورش عمل محلية لرفع مستوى الوعي حول أهمية التركيز على هذه الكنوز البشرية الحية، لخلق علاقة بين الممارسين وأصحاب المصلحة الآخرين.

غاذج تطبيقيّة:

هل الأجيال التي تعيش أيا منا هذه تعرف الشخصيات المميّزة التي أعطت من ذواتها في مختلف مرافق الحياة: في الأدب، الشعر، التربية والتعليم، الفرق المسرحية القديمة، الفنّ العمار الشعبيّ، توثيق ألعاب الأطفال وشعرها الشعبيّ، جمع الفنون الشعرية الشعبية، وكذلك العديد من المبدعين الذين عملوا على إحداث تغيير جوهريّ داخل المجتمع؟

الاتفاقيات:

تبنّت منظمة اليونسكو الفكرة في السبعينيات، ونحن نحاول الآن كخطوة أولى طرح الفكرة، وقد تبنّت هذا المشروع الدولة اللبنانية ممثلة بوزارة الثقافة والجهات المسؤولة.

## مقدّمة

تهدف هذه المداخلة لإلقاء الضوء على دعوة تبنّتها منظمة الأمم المتّحدة للتربية والتعليم والثقافة (اليونسكو) العالمية للحفاظ على الكنوز البشرية الحية، والتي تشمل الأفراد الذين يمتلكون معارف وفنوناً تراثية.

وهي الوسيلة الفعّالة لصون التراث الثقافيّ على نحو مستدام. بعد أن نتأكد من أنّ هؤلاء هم فعلاً من حملة هذا التراث، لكي يتمّ الاستمرار في نقل المعارف والمهارات إلى الأجيال الشابة. بالإضافة إلى التركيز على الكنوز البشرية الحية، فإننا بالإطار نفسه نستهدف التراث الثقافيّ، من أجل صونه من جهة، ومن أجل الاعتراف به من قبل المجتمع المحليّ من جهة أخرى، ثمّ من جانب المجتمع الدوليّ من جهة ثانية. وهذا ما تركز عليه الاتفاقيات الدولية لصون هذا التراث من قبل منظمة اليونسكو للثقافة... وهي الاتفاقيّة الموقعة عالمياً في تشرين الثاني عام ٢٠٠٣.

تضع المجتمعات في موقع متقدم الأفراد الذين لديهم معطيات مميزة، بما يتعلق بالجانب التراثي بشكله المادي أو غير المادي، فهم يحملون الإحساس بالهوية والاستمرارية، الذي يؤدي إلى المحافظة على الإرث الثقافي ومن ثم الابداع في إطاره، وهنا تبرز أهمية التركيز والانطلاق من الموروث لرصده بمقاربات علمية، وهذه المعادلة هي التنمية الحقيقية للنهوض بمجتمعاتنا، بتناول أي جديد ولكن بروح محلية ووطنية. لأن المعارف معرضة لخطر الانقراض بسبب تناقص أعداد الممارسين لها، وعدم الاهتمام من قبل جيل اليوم أو لعدم توفر الامكانيات وخاصة المادية منها.

ونحن نرصد الكنوز البشرية الحية لا بد من التنبيه لبعض الملاحظات، منها:

- أن نأخذ تجارب وعبراً من الماضي وصولاً للوقت الحاضر، هذا لا يعني أننا يجب أن نعيش الماضي، لأن أحداث الماضي وظروفة تنطبق على تلك المرحلة بالتحديد، فالمستقبل والحاضر بحاجة إلى إبداع جديد. نقول ذلك خوفاً من أن يتم اللجوء إلى الماضي لإيجاد حلول للحاضر أو المستقبل، لأننا في هذه الحالة نبقى في الأماكن نفسها أو ربما نعود إلى الخلف، مع العلم أن العالم يتطور وبشكل سريع. فإذا أردنا أن نتطور فيجب أن نواكب السرعة نفسها كيلا تتسمر في أماكننا أو ألا نصل إلى أماكننا، وإذا تمادينا باستغراقنا في الماضي فإننا معرضون لأن نفقد تلك الأماكن.

- أحياناً ينظر إلى تراثنا أو مآثوراتنا الشعبية على أنها معطيات من الدرجة الثانية، بقليل من الاحترام والتقدير باعتبارها الجانب الشعبي وثقافة العامة، وما تعودناه هو تدوين وتأريخ للخاصة من الناس، حكام، سلاطين، رجال دين، قادة عسكريين... وكان ذلك بفضل المؤرخين.

- اختزال التراث الشعبي أو المآثور الشعبي بالمعنى الضيق وكأنه مختصر بجانب محدد كالموسيقى والغناء والرقص... واعتبار ذلك نوعاً من أشكال التعبير العادي. فالتراث الشعبي غني ومتنوع ويطال مختلف أشكال الثقافة وتنوعاتها.

تنبّهت الشعوب الغنية منها والفقيرة إلى ما يشكّله التراث الشعبي من ثروة وقيمة فحرصت على المحافظة عليه لأنه يدعم الاقتصاد الوطني عندما يستغل ليشكل دخلاً للمبدعين.

ونحن إذ نطرح هذه الأمور الآن فإنّ دولاً قد سبقتنا منذ زمن بعيد في التركيز على هذه النخب والعناية بها والحرص على الاستفادة من المكونات الثمينة التي يمتلكها هؤلاء. فاليابان مثلاً، وبعد الحرب العالميّة الثانية، جمعت أصحاب الحرف وقدمت لهم الدعم والرعاية وأطلق عليهم صفة الكنوز البشريّة الحيّة، خلافاً لما هو عليه في مجتمعاتنا، بحيث لا نجد الرعاية أو الدعم لهؤلاء.

## تعريفات

الكنوز البشريّة الحيّة هم الأشخاص الذين يتميّزون بخصوصيّة لا يمتلكها الكثيرون، بل يتفرد الكنز عن سواه بها، والكنوز البشريّة الحيّة هي الشخصيات المتوفّرة لديها مستوى عالٍ من المعارف والمهارات الضروريّة لتأويل أو إعادة بناء العناصر الخاصّة بالتراث الثقافيّ ببعده المادّيّ وغير المادّيّ. وهم الأشخاص الذين يتمتّعون بالخبرة المطلوبة لأداء أو إعادة إنشاء عناصر معيّنة من التراث الثقافيّ.

والأمثلة عن الكنوز البشريّة المتفردة متعدّدة في مجتمعاتنا وفي مختلف ميادين الحياة، بحيث إنّ كلّ (كنز) منهم متفرد بعالمه وبما قدّمه لأهله وللإنسانيّة من قول أو فعل أو عمل، ومن واجب المؤسّسات الثقافيّة أن تقوم بحفظ آثارهم وتويب الدراسات عنهم وتنشيط العمل البحثيّ من أجلهم. فهم يمثّلون كلّ أصناف الإبداع الوطنيّ والإنسانيّ، أيّ كلّ من أبدع فيه أو أضاف. والكنز البشريّ لا يكون كنزاً إلاّ بما حفظ وأعطى لمجتمعه. وتوثيق آراء هؤلاء وأعمالهم وحيواتهم دين على العاملين بالثقافة والهيئات الثقافيّة، كما أنّه يشكل كلّ التقدير لهذا المجتمع وأهله.

لذلك ينبغي تخصيص المال والجهد اللازم لبدء العمل بأرشفة آثار الكنوز الوطنيّة وتوثيق تجاربها خدمة لهذا الجيل والأجيال اللاحقة، ومن أجل البدء بعمل علميّ أوّليّ سبقتنا إليه المجتمعات الأخرى.

الكنوز البشريّة الحيّة هم أولئك الجنود المجهولون، الذين لم تسلط عليهم الأضواء، بل كلّ ما عملوه أنّهم أتقنوا عملهم، وتفانوا في ذلك. فقد أعطوه من ذواتهم فكان مثلاً يحتذى، خلق وإبداع ولوحات مميّزة فريدة من نوعها، تميّزوا بالصبر والثبات، فهم رأس المال البشريّ والفكريّ. وهم، كما قال الجاحظ، السهل الممتنع، مثل الماء أهون الموجود



وأعزّز المفقود، لم تلوّثهم الحضارة، ولم يفسدهم الاستهلاك والشرة الاجتماعي ولا يتوقّون إلى المناصب البراقة.

ربّما نجدهم في بعض أو ما ندر من الكتب، أو مقالات متفرّقة ومتباعدة في الصحف وفي الصفحات الداخلية. فهم بالطبع لا يتصدّرون الصفحات، ولا صورهم تزين الصفحات الأولى. وحتى بعد وفاتهم فإنّ ذكرهم في صفحة الوفيات ربّما يكون عبئاً على الأهل. أو أن نجدهم في أبحاث سيرة على رفوف مكتبات الجامعات التي تراكم عليها الغبار. فإنّ أجدادهم وألعابهم قد سلبت، وأهملت ولا يذكرهم إلاّ القلّة من الأهل أو الأقربون. فالتمنية المستدامة التي يذكرها العديد كاللازمة الموسيقية لا تتحقّق إلاّ برعاية هؤلاء قولاً وفعلاً.

## الكنوز البشريّة الحيّة خزّان الهوية الثقافيّة

### الهوية الثقافيّة:

الهوية الثقافيّة أمر بالغ الأهميّة لمعنى وجود البشر. سواء كانت المشاركة شعبيّة أو مجتمعيّة في الأعياد، في الكرنفالات الثقافيّة، في الشعائر والطقوس التي لها أهميّة. وتضيف معنى وإحساساً من الاستمراريّة والهويّة للشعوب. والتقليد الحقيقيّ ليس الشاهد من الماضي البعيد، بل هي القوّة الحيّة التي تنشط وتغذي الحاضر.

### الكنوز البشريّة الحيّة كمصطلح يعتمد:

على كلّ دولة من الدول الأعضاء التي وقّعت الاتّفاقيّة اختيار العنوان المناسب في تحديد هؤلاء الحاملين للمعرفة والمهارات. وعنوان «الكنوز البشريّة الحيّة» قد اقترحتة اليونيسكو وتركت لكلّ دولة من الدول الأعضاء تحديد هؤلاء المهرة الحاملين المعرفة في المجتمع.

### الكنز كمفهوم أكاديمي:

يُعتمد في العديد من الدراسات والأبحاث الاجتماعيّة، الأنتروبولوجيّة، التاريخيّة، السياسيّة، الأدبيّة..... وغيرها.

ويطلق على أشخاص معيّنين يمتلكون المعلومات المتعلّقة بالبحث: المخبر، المستجوب، الإعلاميّ، المعرف، informateur،... وغيرها.

أهميّة هذا المصطلح أيّ الكنز البشريّ الحيّ، أنّه يبرز دور الشخص الكنز، وأهميّة الجانب المعرفيّ الذي يحمله هذا الكنز.

#### التراث الثقافيّ:

التراث الثقافيّ أو التراث الحيّ هو تلك الممارسات والتعبيرات، والمعارف والمهارات والقيم المرتبطة بها.

إنّ حفظ هذا التراث من جيل إلى جيل، واستمرار صوغه مع الاستجابة للتغيّرات في البيئة الاجتماعيّة والثقافيّة، يوفّر للأفراد، والجماعات والمجتمعات الإحساس بالهويّة والاستمراريّة، ويشكل ضمانة التنمية المستدامة.

#### صون الهويّة:

”يقصد بكلمة ”الصون“ التدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافيّ أيّ الهويّة الثقافيّة بما يتضمّن من تحديد لهذا التراث وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه وإبرازه ونقله، لا سيّما عن طريق التعليم النظاميّ وغير النظاميّ وإحياء مختلف جوانب هذا التراث. وهنا تبرز أهميّة ودور المتاحف والأعمال الفنيّة المختلفة.

#### الاتفاقيّات:

تبنت منظّمة اليونسكو الفكرة في السبعينيّات، ونحن نحاول الآن، كخطوة أولى، طرح الفكرة، وبدورها الدولة اللبنانيّة وقّعت الاتفاقيّة، وتبنت المشروع ممثّلة بوزارة الثقافة.

#### الأهميّة:

الكنز ليس لفظاً جديداً وإبداعاً فردياً أو شخصياً، بل هو معتمد من قبل المنظّمة العالميّة للتربية والثقافة والعلوم التابعة للأمم المتّحدة (اليونسكو)، وهو موضوع يتمّ التركيز عليه وإعداد الدراسات والاتفاقيّات لهؤلاء الكنوز، ثمّ لكيفيّة الاستفادة منهم وفي مختلف مجالات الحياة.

إنّ أهميّة تسليط الضوء على الكنوز البشريّة، تكمن في الحفاظ على المعارف التقليديّة والحرف والفنون و... التي بدأت تندثر مع موت متقنيها، أو تحوّلهم وامتهانهم أعمالاً أخرى في محاولة كسب العيش.

فالأعمال الخالدة يذكرها الناس وتتناقل ذكر من قام بها عبر الأجيال، فما زال ذكر حمورابي كأول راع للشرعية الإنسانيّة طاغيًا، وما زال الناس يذكرون المميّزين من بني البشر، وما زال الناس يذكرون الأعلام وقد أنشئت المتاحف لرصد نتاجهم في مختلف الميادين.

إنّ التركيز في هذا الأمر يبرز التقصير الحاصل حتّى الآن، وهذا ما يجب تداركه وخاصّة من قبل من يتولّى الشأن الثقافيّ. وهنا نحاول الإشارة أو التنبيه إلى أمر حيويّ يستطيع القائمون أن يقوموا به كعمل استراتيجيّ، وهو مشروع (الكنوز البشرية الحيّة). و(الكنز) إنسان يمشي على قدمين وقد أعطى الثقافة بعدها المادّي أو غير المادّي الكثير.

#### الأهداف:

عناصر كثيرة من التراث مهدّدة بخطر الزوال، ويرجع ذلك أساسًا إلى اعتبارات متعدّدة، لها علاقة ببنية المجتمعات والتغيرات التي تطرأ عليه بالأشكال الداخليّة منها أو الخارجيّة. وعلى سبيل المثال، تتناقص أعداد فنّاني الأداء، والميل الواضح بين جيل الشباب لتأثيرات ثقافيّة خارجيّة.

في هذا السياق، يجب تضافر الجهود بين المؤسّسات المحليّة أو الدوليّة كمنظمة اليونيسكو، لإعداد المشروع لإنشاء نظام وطنيّ للكنوز البشرية الحيّة، لرصد وتجميع ما يمكن تجميعه قبل التغيير أو ما قبل الزوال، لحفظ المادّة التي تشكّل طابعًا محليًا أو كما يقال الهوية الثقافيّة لمجتمع ما، لنقدّم صورة هذا المجتمع بكلّ مكوّناته، ليشكّل قاعدة انطلاق، وهنا نتذكّر قول الجاحظ ومنذ عشرة قرون، إذ قال: ليس المهمّ أن نحفظ التراث بل أن نتجاوزه انطلاقًا منه، وهنا التجاوز والتجديد يجب أن ينطلق من الواقع، وهذا يفترض أسسًا علميّة عدّة بإبراز أهمّيّتها وتحديد مصادرها، معتمدين على تقنيّات علميّة في تجميعها وتبويبها لتتوصّل إلى تحليل للمعطيات ونقد موضوعيّ، من خلال إبراز مكان القوة أو الضعف والايجابيات أو السلبيات، ومن منطلقات علمية وموضوعية. وليس من موقع شوفيني متعصب، لتبني كلّ عناصر الموروث، أو الرفض وتبني قيم جديدة وافدة، وهذا يضعنا في موقع طال الجدل حوله منذ عصر النهضة وحتّى الآن، بين ما يعرف بالتقليد والمعاصرة.

ويهدف برنامج الكنوز البشرية الحية إلى:

- تشجيع الدول والاعتراف رسمياً بالأشخاص الحائزين على معرفة التقاليد والممارسات الابداعية وكذلك ضمان انتقال هذه المعارف والمهارات إلى الأجيال الفتية.  
- منح الاعتراف الرسمي لحاملي التقاليد الموهوبين والممارسين، ما يساهم في نقل المعارف والمهارات إلى الأجيال الشابة. ويحدّد هؤلاء الأشخاص على أساس إنجازاتهم واستعدادهم لنقل معارفهم ومهاراتهم إلى الآخرين.  
يستند الاختيار إلى قيمة التقاليد والتعبير المعنوية كدليل على عبقرية الإنسان الخلاقة وجذورها في التقاليد الثقافية والاجتماعية، وطابعها ممثلة لمجتمع معين، وكذلك حفاظاً عليها من خطر الاختفاء.

في هذا الإطار من المهم القيام بأنشطة عدّة ترمي إلى ضمان توثيق وأرشفة المعارف والمهارات التقليدية المهذّدة بالانقراض وخلق نظم وطنية للكنوز البشرية الحية في لبنان.

#### العقبات:

تعرض هذا المشروع عقبات متعدّدة، أبرزها:  
- المؤثرات التي تهدّد بقاء واستمرار التراث الثقافي برمته.  
- التناقص في أعداد الممارسين لهذا التراث، وممتهني الحرف التقليدية، وعازفي الموسيقى، والفنانين العاملين في مجالي الرقص أو المسرح ...  
- النزف البشري للكنوز البشرية الحية، وذلك لمؤثرات عامّة تطل مجتمعا، كالحروب، والوضع الأمني المتردي، والهجرة بشكلها الداخلي أو الخارجي، يضاف إلى ذلك وفاة هؤلاء وهم من المسنين، وهنا أهمية التركيز عليهم قبل فوات الأوان.  
- إحجام الأجيال الجديدة عن تعلّم وإتقان خبرات السلف.

التوجّهات للتركيز على هؤلاء، يتم بناء على التالي:

- إنشاء نظام كنوز البشرية الحية في لبنان بطريقة مستدامة.  
- وضع آليات لتحديد الكنوز البشرية الحية باستخدام أسلوب منهجي.  
- وضع وتنفيذ نظام لضمان الانتقال من الكنوز البشرية الحية للأجيال الشابة.

وتشمل الأنشطة الرئيسة :

- وضع إجراءات تفصيلية لتحديد المجالات المستهدفة للتراث الثقافي، وتعريف الكنوز البشرية الحيّة، ومعايير اختيارها؛
- إجراء البحوث الميدانية في كل المناطق اللبنانية لجمع ودراسة كل المعلومات المتعلقة، وتشجيع الباحثين من الطلاب في مراحل الجدارة والماجستير والدكتوراه على إجراء هذه البحوث؛
- تنظيم ورش عمل محلية لرفع مستوى الوعي حول أهميّة هذه الكنوز البشرية الحيّة، لخلق علاقة بين الممارسين وأصحاب المصلحة الآخرين.

### نماذج تطبيقية:

من الجدير بالذكر أن معظم الأجيال الحالية لا تعرف الشخصيات المميزة التي أعطت من ذواتها في مختلف مرافق الحياة: في الأدب، الشعر، التربية والتعليم، الفرق المسرحية القديمة، الفن المعماري الشعبي، توثيق ألعاب الأطفال وشعرها الشعبي، جمع الفنون الشعرية الشعبية، وكذلك العديد من المبدعين الذين عملوا على إحداث تغيير جوهري داخل المجتمع. وبعض الدول كانت سباقة في اعتماد هذا المشروع، وهي:

اليابان أول المساهمين في ذلك، وهذه الأفكار بدأت عقب الحرب العالمية الثانية، والهاجس الأساس هو الخوف من ضياع المعارف والفنون التقليدية مع موت كبار السن وظروف الحرب.

وفي عام ١٩٩٣، اقترحت جمهورية كوريا على المجلس التنفيذي لليونيسكو، إنشاء برنامج «الكنوز البشرية الحيّة»، واتخذ القرار بدعوة الدول الأعضاء إلى إنشاء مثل هذه الأنظمة في بلدانها.

- من الأمور الهامة إجراء عملية جرد عناصر التراث الثقافي، فضلاً عن تحديد أسماء حاملها.

- تشكيل لجنة من الخبراء تكون مسؤولة عن اختيار المرشحين، ورصد تنفيذ النظام، خصوصاً في ما يتعلق بنقل المعرفة والمهارات.

هذا المشروع يهدف إلى ضمان ودعم مستمر من انتقال المعارف والمهارات التقليدية من جيل إلى آخر داخل المجتمعات وداخل المؤسسات التعليمية. وتشكيل مجموعة للعمل

على المستوى الوطنيّ تعمل لتعريف الكنوز البشريّة الحيّة ومعايير اختيارهم. وهنا تبرز أهميّة البحوث الميدانيّة في مختلف المحافظات من أجل تحديد الأولويّات وممارسيّ الفنون الأدائيّة.

من أجل تسهيل إنشاء نظم جديدة، تسعى اليونيسكو إلى مساعدة الدول الأعضاء من الناحية التقنيّة أو ماليّاً من ميزانيّتها العاديّة، وبرنامج المشاركة ومساهمات من خارج الميزانيّة من قبل الدول الأعضاء في اليونيسكو التي تقدّم المبادئ التوجيهيّة الموصى بها لتنفيذ نظم الكنوز البشريّة الحيّة.

### العناصر اللازمة لإنشاء نظم الكنوز البشريّة الحيّة

إنّ أبرز العناصر اللازمة لإنشاء نظام للكنوز البشريّة الحيّة هو الأحكام القانونيّة، وذلك من خلال اختيار النصوص المناسبة لهذا النظام، وإعطاء الشكل القانوني لها. إذاً هي الوسائل الإداريّة التي تنظّم الأداء ضمن الخصوصيّات الوطنيّة ولضمان حسن التنفيذ وفعاليّته.

بعد اتّخاذ قرار التطبيق لنظام الكنوز البشريّة الحيّة، من الضروريّ إنشاء وتحديد عناصر التراث الثقافيّ على الصعيدين الوطنيّ والمحليّ، والتعرّف إلى حامله ومستقبلهم. تحديد لجنة من الخبراء حسب الاحتياجات التي ستنشأ لاتّخاذ القرارات المناسبة. فمن المستحسن أن تكون هذه اللجنة من أصحاب الكفاءات أو المشهود لهم، من أجل إعداد هيكلية لصون التراث الثقافيّ. كذلك أن تكون من الباحثين ومن ممثلي المجتمعات المحليّة والإداريّة. على هذه اللجنة أن تقدّم الترشيحات على مستوى الأفراد أو المجموعات للاعتراف بهم ككنوز بشريّة.

أثر المسح الاستقصائيّ لنظام الكنوز البشريّة الحيّة، ينبغي اعتماد معايير محدّدة، وذلك من خلال القيمة الماديّة والمعنويّة الدالة على عبقرية الإنسان وأدائه الخلاق. وأيضاً التأمّل في التقاليد الثقافيّة والاجتماعيّة والطابع التمثيليّ لمجتمع معيّن مهدّد بخطر الانقراض والزوال، والتميّز بتفوّقه في الأداء، والقدرة على تطوير المعارف والمهارات، وحسن نقلها للأخريين أو للمتدريين.

عدد المرشّحين: وهنا يجب مراعاة عدد العناصر المميّزة والميزانيّات المعتمدة لهؤلاء.

إعلاء شأن الكنوز البشرية الحيّة ودعمهم والاعتراف بهم ومكافأتهم بشكر علنيّ، كأن تمنح مرتبة الشرف في احتفال رسميّ من قبل الجهات المختصة، ونعني هنا وزارة الثقافة، ومن خلال إشارات أو تقديرات مميّزة، مادّيّة أو معنويّة (ميداليّة، شهادة، الخ...). ويفضّل أن ترتبط مع برنامج أنشطة واحتفال خاصّ. وينبغي النظر أيضًا بمكافآت ماليّة، وذلك لتشجيع الكنوز البشرية لتحمل مسؤولياتهم وتشجيع انتقال المهارات ويمكن أيضًا أن تمنح مكافآت للمتدربين. وقد تقدّم الدول الأعضاء للكنوز البشرية الحيّة بعض التقديرات لتمكينها من أداء أو إنشاء عناصر محدّدة من التراث الثقافيّ. وذلك من خلال توفير الموادّ الخام أو المعدّات واللوازم لبناء أو تشغيل ورش العمل ومرافق التدريب. وهناك أنواع أخرى من التقديرات والمكافآت وخاصة في مجال الخدمات العامّة الصحيّة والطبيّة.

#### اتّخاذ تدابير لحماية مستدامة:

وذلك من خلال مجموعة إجراءات يمكن تلخيصها بالتالي:

#### انتقال المعارف والخبرات

وذلك من خلال التدريب المناسب، سواء في المؤسّسات التعليميّة الرسميّة أو من خلال الانتقال المباشر والتقليديّ في الورش أو الأمكنة حيث الأداء وهذا أمر ضروريّ من أجل ضمان أنّ المعرفة والمهارات تنتقل من الكنوز البشرية الحيّة للشباب. في هذا الصدد من الأجدى التعاون مع الهيئات المختصة، وذلك ضمان كفاءة برامج التدريب.

#### توثيق المعارف

حفظ الوثائق المناسبة للمعارف والمهارات التي يستخدمها الإنسان الكنز، وذلك باعتماد جميع الوسائل المتاحة (جمع، فهرسة، وتدوين، تصوير، الخ...). واتّخاذ المناسب من التدابير القانونيّة والفنيّة والإداريّة والماليّة التي تهدف إلى إنشاء مؤسّسات لوثائق للتراث الثقافيّ وتيسير الوصول إليها. وحفظ هذه المحفوظات والمؤسّسات المتخصّصة ضمن أنظمة تعنى بالتوثيق والمتاحف بشكل عام والإثنوغرافيّة منها بشكل خاصّ تشكّل المكان المناسب، وهنا تبدو أهميّة المراصد الثقافيّة التي نشترك في أبحاث

متواضعة ضمنها. وهنا أهميّة تدريب المتخصّصين لجامعي التراث والحافظين له، ومعدّي الأرشيف المتخصّص.

### الترويج

على الدول الأعضاء، وبالتعاون مع الهيئات المختصة، ولضمان الاستمراريّة، توعية الجمهور حول أهميّة التراث الثقافيّ وصونه. وهذا قد يشمل ذلك:

- رفع مستوى الوعي وتعزيز الأداء بشكل منتظم من قبل المؤسّسات الداعمة، وذلك بإقامة الاحتفالات والمعارض، وما إلى ذلك وبهذه الطريقة يمكن خلق جمهور يدافع عن الكنوز البشريّة، والمهارات وخاصّة من بين الأجيال الشابّة، التي ترغب في أن تتدرّب وليتمّ توفير الفرص لإثراء تجاربهم.
- تقديم الإعانات لتمكين البحوث ونشر المطبوعات والتسجيلات السمعيّة والفيديو والوسائط المتعدّدة والوثائق المتعلّقة بالتراث الثقافيّ المعنيّ.
- أن تدرج مادّة التراث الثقافيّ في المناهج التعليميّة.
- المساعدة على إقامة حياة كريمة للكنوز الوطنيّة، من قبل الدول، أو المنظّمات الدوليّة وخاصّة منظمّة اليونسكو لأنّها المؤسس والداعم لهذه الظاهرة، وذلك من خلال التقديمات الماليّة أو التقنيّة اللازمة.

### حقوق الكنز البشريّ الحيّ:

- الاعتراف بالشخص ككنز بشريّ حيّ؛
- منحه دبلوماً خلال حفل رسميّ يتمّ نشره على مستوى واسع؛
- منحة ماليّة سنويّة أو فصليّة أو غيرها تمكّن الكنز البشريّ الحيّ من ممارسة نشاطه على الشكل المطلوب؛
- تمكين الكنز البشريّ الحيّ من حقوق اجتماعيّة مثل التغطية الصحيّة والتقاعد وغيرها حسب المستطاع؛
- أخذ الدولة على عاتقها مصاريف الاستشفاء في حالة المرض والجنّازة في حالة الوفاة؛
- نشر عنوان ومؤهلات الكنز البشريّ الحيّ لمُدّة معيّنة على مواقع الانترنت التابعة للمؤسّسات الرسميّة والأهليّة المعنيّة.



## واجبات الكنز البشري الحي:

وبالمقابل على الكنز البشري الحي أن يعمل على:

- ضمان استمرارية وتحسين أساليب ممارسة عنصر أو عناصر أو أي شكل من أشكال التراث؛
- تلقين العنصر أو الشكل للشباب من الراغبين في امتهانه وجعله أسلوباً من أساليب كسب الرزق؛
- التعاون مع الهيئات العمومية والخاصة والباحثين ذوي الاهتمام لتوثيق التراث المعنوي وضمان وصول المهتمين إليه؛
- نشر عناصر وأشكال التراث بالطرق المناسبة «كتب وأقراص مضغوطة وأفلام وثائقية وانترنت».

## خاتمة

نظراً للتحوّلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تواجهنا، فإننا أمام مفترق مفضلّي يمكن أن يؤدي إلى انسلاخ تدريجي عن الهوية الثقافية الوطنية، التي يتميّز بها أي مجتمع من المجتمعات. إن فقد الهوية يؤدي إلى الانخراط في هوية وافدة فنقع في اللا توازن لجهة الانتماء والمتعرف على الذات أن يؤدي إلى خلل معرفي على مستوى الهوية نفسها، من أجل ذلك لا بدّ من الاعتماد على الأسس المعرفية والمنطقية، البعيدة عن العواطف أو الحنين بتبني ما هو تقليدي محلي، أو ما هو وافد، فاعتماد الموضوعية أساس لدراسة مختلف أشكال الثقافة، بأبعادها المحلية أو الوافدة، وهذا الشكل من الدراسة يكون لمصلحة التراث، بتسليط الضوء عليه، من خلال دراسات معمّقة تحدّد الأهداف، تجمع المعطيات، تدونها، تبويبها ثم تحلل على أسس علمية، ونخضعها للنقد، لإبراز بعدها الإيجابي وجمالها وروح الجماعة وهويتها الوطنية، وربما نجد ما هو سلبيّ لنعمل على استبداله بما هو أفضل.

وما يميّز موضوعنا الآن أيّ الكنوز البشرية الحية ليس سوى جانب معرفي بسيط ملء الفراغ الحاصل في دراسة التراث الثقافي، بأشكاله المختلفة، من أجل رصده أولاً، ثم لصيانتة في ما بعد.

وانطلاقاً مما تقدّم نقرح التوصيات التالية:

- التعريف ببرنامج الكنوز البشرية الحيّة وأهميّة حماية التراث الثقافيّ ودعمه والاستفادة منه لنقل ما يشتمل عليه من فنون التراث إلى الأجيال القادمة لحمايته من الاندثار باعتباره حلقة مهمّة في تاريخ الشعوب والذاكرة الجمعيّة لها؛
- استثمار الكنوز البشرية الحيّة التي تملك الكثير من المعلومات التراثيّة والممارسات الفطريّة غير الموثّقة والآيلة للاندثار؛
- ضرورة إطلاق عمليّات حصر للتراث الثقافيّ عن طريق الدراسات الميدانيّة التي تعتمد المنهج العلميّ في البحث؛
- اختيار يوم سنويّ وطنيّ لتكريم الكنوز البشرية الحيّة، في العاصمة والمناطق المختلفة؛
- العمل على إصدار نشرة إلكترونيّة تتضمّن الموضوعات التي تتعلّق بالتراث؛
- سنّ القوانين اللازمة وطنياً للحفاظ على الموروث الثقافيّ؛
- توفير الموارد الماليّة الضروريّة لعمليّات صون وحماية التراث من الاندثار.

## المراجع

- منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة، ٢٠١١: النصوص الأساسية، اتفاقية عام ٢٠٠٣، صون التراث الثقافي غير المادّي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة، الطبعة الأولى.
- سكونتي؛ أحمد، ٢٠١١: ماذا يقصد بصون التراث الثقافي غير المادّي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة.
- ندوة إقليمية، ١٩٩٩: الندوة الإقليمية حول تطبيق توصية اليونسكو بشأن صون الثقافة التقليدية والشعبية في الدول العربية، بيروت، ١٠-١٢ ايار.
- ورشة عمل، ٢٠١١: ورشة عمل تطبيق اتفاقية عام ٢٠٠٣ صون التراث الثقافي غير المادّي، برمانا، لبنان، ١١-١٥ تموز.

## مواقع إلكترونية

[f.girard@unesco.org](mailto:f.girard@unesco.org)

[unesco.org](http://unesco.org)





## ذاكرة بيروت في الحفظ والصون قراءة عصرية لموروث ثقافي متجدد

د. نادر سراج<sup>(١)</sup>

### ملخص

تطمح هذه المداخلة إلى تسليط الضوء على ثلاثة نشاطات جماعية تمثلت بندوتين ومعرض طوابع بريدية حول بيروت، احتضنتهما العاصمة بين العامين ٢٠٠٩ و ٢٠١٠.

تمحورت هذه الفاعليات الثلاث حول مسألة تأصيل الذاكرة وإبراز الشخصية المدنية التراثية في منطلقاتها وتحولاتها ومختلف مكوناتها والمآل التي صارت إليه. كما عالجت أيضاً مسألة النصوص المطبوعة ودورها في حفظ الموروث الثقافي ووضعها في خدمة المجتمع. كما أبرزت كذلك الصور المتعددة المضامين والدلالات لبيروت من خلال طوابعها البريدية.

وقد أظهرت محضلة هذه البادرات أهمية الأعمال الجماعية وضرورة تأطير الجهود العلمية المتعددة الاختصاصات ضمن أطر مؤسسية.

تجدر الإشارة إلى أن تجربة «مرصد بيروت الحضري» لاحتضان هذه النشاطات وإصدار ٣ كتب وهو في مرحلة التأسيس، تعكس مدى الحاجة إلى العمل المؤسساتي الجماعي ومدى تلقف الجمهور واهتمامه في حفظ الذاكرة الجماعية.

(١) الدكتور نادر سراج: أستاذ اللسانيات في الجامعة اللبنانية، عضو الجمعية الدولية لللسانيات الوظيفية SILF، وباحث له العديد من المؤلفات والأبحاث المنشورة Sragenader@gmail.com

«تراث بيروت في الحفظ والصون» عنوان محوري احتضن استحقاقين ثقافيين تراثيين أنجزا خلال العامين المنصرمين. وبات مقروناً في أذهان أهالي بيروت بأن تاريخية مدينتهم التي تزخر بالأبنية القديمة ذات الجماليات المعمارية تعني في آن واحد أنها حيّز حضري يمكن العيش فيه، ويمكن أن يتلاءم مع احتياجات قاطنيها وتطلعاتهم للتغيير والتطوير.

ففي شهر آذار من عام ٢٠٠٩ شهدت بيروت انعقاد ندوة علمية متخصصة شارك فيها أساتذة جامعيون وكتاب وباحثون في مجال الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والمعمارية والسيميائية والمسرحية والفنية واللسانية. الندوة الأولى من نوعها لجهة المضمون العلمي المتنوع القراءات، تمثلت إيجابياتها في تطرقها إلى دراسة منهجية متعددة الجوانب والاختصاصات لمنطلقات الشخصية المدنية، شخصية المدينة، وللتحوّلات التي لحقت بها خلال الفترات المنصرمة، والمآلات التي صارت إليها.

في العام ٢٠١٠ جمعنا «أعمال الندوة» المتمثلة بعشرة أبحاث علمية موثقة، ومدعمة بصور ورسومات في كتاب جماعي صدر عن «مرصد بيروت الحضري»<sup>(٢)</sup> والدار العربية للعلوم ناشرون. اشتمل الكتاب على إضافة نوعية تمثلت بعشر شهادات حيّة لجامعيين ومهندسين وإعلاميين وفنانين ورسامين تشكيليّين (تسع منها بالعربية وواحدة بالفرنسية تناولت شخصية «أبو العبد»). رغب معدّوها في الإدلاء بشهادات عن رؤاهم المختلفة والمؤلفة في آن للمشهد المدنيّ بشخصياته، ومكوّناته، واللهجات التي تسري على السنة أهله وقاطنيه على حدّ سواء.

هذان الاستحقاقان الثقافيان اللذان أنجزا بالتعاون مع فريق عمل متطوّع شكل النواة التأسيسية لمشروع «مرصد بيروت الحضري»، لفتا استجابة ملحوظة من قبل جمهور متنبّه ومتيقّظ ومتعطّش للتعرف إلى التاريخ الاجتماعي؛ أي إلى الظروف والسياقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي بلورت معالم إنسانيته عبر موروثات وعادات وأعراف وتقاليد باتت تدرج، ولو على شيء من التبدل، في منظومة سلوكياته اليوم.

ما استوقف المنظمين والمنتدين هو أنّ الجمهور الذي شارك في محاور الندوة لم ينحصر

حضوره في الاستماع والتلقّي، بل تدخّل، في غير مفصل، في الحوارات والنقاشات التي دارت بين الخبراء والباحثين. ثمن هذا الجمهور جدّية الطروحات، وتلمّس المعايير المعتمدة في أوراق العمل. وأدّت العروض البصريّة والرسومات المعروضة والاحصاءات دوراً في تمكينه من الاستفادة من هذه النماذج الملموسة للثقافة البصريّة التفاعليّة (inter – active).

حرفيّة عمليّة الإرسال وجدّية القائمين بها لقينا إذاً تجاوزاً كبيراً من جمهور المتلقّين، فساعدتهم على تبصّر واستيعاب أفضل للمسألة التراثية عموماً ولفكرة احتضان المرصد لها. كما أسهمت في فتحة بصائرهم لاكتشاف مكامن الجمال في موروث ثقافيّ مشترك ترك بصمات واضحة إن في الجماليّات المعماريّة، الشواهد الحيّة على ثقافة إنساننا اللبنانيّ وعلى أنماط حياته التي انقضت، أو في الموروثات الثقافيّة المستمرّة جزئياً بجوانبها اللاماديّة، والشفهيّة تحديداً.

ثمّة إيجابيات عديدة للحدثين الثقافيّين اللذين أطلقهما «مرصد بيروت» في خطواته التأسيسية الأولى، وهدفاً إلى قراءة نقدية ومنتجدة للتراث المدنيّ بعيون علوم العصر. فقد أسهما في نقل المادّة العلميّة المتمثّلة بعمل ميدانيّ ودراسات موثقة قام بها باحثون مختصّون، بشكلٍ إفراديّ، إلى مستوى حلقة عمل عقدت على مدى يوم دراسيّ واحد *journee d'études*، واشتملت على ثلاثة عناوين رئيسة<sup>(٣)</sup> تمحورت حول منطلقات وتبدّلات ومصائر التراث المدنيّ، بوجهيه المادّي واللامادّي. كما كان لهما الفضل في توثيق جهد علميّ جماعيّ انتدى القائمون به حول بيروت التراث، وبحثوا في أشكال تراثها.

نجاح البادرة التنظيميّة الأولى شجّعنا على تنظيم ندوة علميّة ثانية باسم «المرصد» وضمن فعاليّات بيروت عاصمة عالميّة للكتاب ٢٠٠٩. الندوة حملت عنوان «النصوص المطبوعة ودورها في صون الموروث الثقافيّ وتوظيفه في خدمة المجتمع». شارك فيها نخبة من الخبراء والباحثين اللبنانيّين والعرب. وصدرت أعمال الندوة خلال العام ٢٠١٠، باسم «مرصد بيروت الحضريّ» والدار العربيّة للعلوم ناشرون.

(٣) التحوّلات الثقافيّة الاجتماعيّة والعمرانيّة في بيروت وتأثيراتها على الشخصية التراثية المدنيّة؛ الشخصية التراثية المدنيّة البيروتية بين الشفهيّ والكتوب؛ الشخصية التراثية المدنيّة وتداعياتها في الفنون الجميلة والإعلام.

لا تخلو المبادرات الأكاديمية الهادفة إلى عقد ندوة علمية تبحث في التراث وشؤونه وشجونه من صعوبات معينة. فدراسة التراث متشعبة، واستيفاء مختلف مناحيها يستوجب وجود دارسين مختصين. وكان علينا كلجنة تنظيمية السعي لاستكمال كل أوجه المعالجات من مادية (عمران، وتحولات في أدوار الحيزات الحضريّة)، إلى لامادية (أزياء، شخصيات، فنون، الأدب الشعبي، صور فوتوغرافية، لهجات وأنماط قول، تجلي الشخصية في الفنون والإعلام...). وما كان يسيراً التواصل خلال فترات زمنية محدودة مع الباحثين الكفوئين من ذوي الخبرات والإسهامات الكتابية، والمستعدين للمشاركة معنا في هذا الجهد الجماعي بغية إجلاء صورة مشرفة وحقيقية للتراث المدنيّ البيروتيّ.

الصعوبة التي تبرز عادة أمام منظمي حلقات دراسية مماثلة هي تلك التي تأتي في الدرجة الثانية. فالإتصال بالمؤتمرين لجمع مخطوطات الأبحاث، وتنسيق موادها، وصورها، ورسوماتها، والتدقيق في المضامين، وإعداد النصوص بشكل نهائيّ، وانتخاب غلاف مناسب، لا يقلّ صعوبةً وجهداً عن المهام التنظيمية الأولى. ولا مناص من التعرّيج على المسألة الأهم هنا، وهي إيجاد التمويل اللازم، وتأمين مكافآت عادلة للباحثين، والاتفاق مع الجهة التي ستتولى الطبع والنشر، ومن ثم الإشراف على إنجاز المؤلف وتوزيعه على وسائل الإعلام وإطلاقه في حفل عام. وهذه الخطوات الإجرائية الأخيرة تمت بفضل دعم كريم ومشكور من رئيس مجلس الوزراء آنذاك السيّد سعد الحريري وفريق عمله.

وباختصار، فالجهد التجمعيّ الذي تلا جهود تنظيم الندوة العلمية، جاء نتيجة طبيعية لرؤية المنظمين الذين رغبوا في حفظ المادة العلمية المجموعة باعتبارها لبنة في مدامك الدراسات التراثية المدنية يمكن البناء عليها مستقبلاً.

فضيلة هذه الجهود في أنّها وثقت دراسات جادة أنجزها باحثون وخبراء، تعنى أساساً بالجوانب الشفاهية للتراث المدنيّ. وهي جوانب لم تأخذ حقها في الرصد والجمع والأرشفة والدراسة والتحليل في بيئتنا البنائية عموماً، وفي العاصمة تحديداً. فهذا العمل التجمعيّ البديهيّ - ندوة كان أو كتاباً - قد لا يلقى، برأينا، اهتمام آخرين باعتباره يتناول مواضيع مبتذلة وتدخل في باب تحصيل الحاصل بحكم تناولها الشائين اليوميّ والمعيش.



الاهتمام بإقامة مراصد ومؤسسات بحثيّة ومتاحف للتراث الشعبيّ بدأ يتزايد في مجتمعاتنا العربيّة، حيث نلاحظ اهتمام مصر وسورية ودول الخليج العربيّ بتوثيق هذا الجانب التراثيّ لحفظ معالم الموروث الثقافيّ وصون عناصره الآخذة في الاندثار والتغييب أمام هجمة العولمة على مناحي ثقافتنا ومناحي عيشنا ومنظوماتنا السلوكيّة.

وإذا كانت الآثار المادّيّة أو العمرانيّة تأخذ طريقها نحو الحفظ والصون والأرشفة والعرض المنهجيّ أمام الزائرين المهتمّين، فالحريّ بنا أن نخصّص الجهد والمال والوقت والإرادة والاختصاص للاهتمام أكثر فأكثر بتراثنا اللامادّيّ. وتعقيباً على هذه النقطة بالذات، نشير إلى النزوع الحاليّ الملحوظ في معظم المتاحف والمتعلّق بتغيير النظرة إلى «فلسفة المتاحف». بمعنى أن الحيز أو الاهتمام المنوطين بالبشر وينسق معاشهم، ويتبدّل أحوالهم، باتا مساويين لتلك العائدة للحجر أو للأثر العمرانيّ بشكل عام. وهذا ما نحن بأحوج إليه في تجربتنا اللبنانيّة الناشئة من طرابلس إلى صور مروراً بجبيل وبيروت وصيدا وتعريجاً على بعلبك.

من النقاط الإيجابيّة والبناءة التي استخلصها المنظّمون والمؤتمرون على حدّ سواء ضرورة التوافق على وجود جهات مختصّة من مهامّها المساعدة على عقد الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسيّة وتأمين التمويل وتوفير التكاليف اللازمة لطباعة «الأعمال» وتوزيعها. فالمساعي التي تبذل عادة من قبل أفراد، أو مجموعات محدودة العدد والإمكانات والاختصاصات والخبرات، لإنجاح هذا النوع من اللقاءات العلميّة تستنزف منهم جهوداً حثيثة وتستغرق أوقاتاً عصيبة، وتؤثّر على جودة العمل وحسن التنظيم ناهيك بالانتاج العلميّ المأمول.

كما أنّ من حسنات وجود هيئات رسميّة أو شبه رسميّة تأخذ على عاتقها هذه المهام التي ينوء بحملها الأفراد، هي امتلاكها - بحكم الخبرات والتجارب - رؤى منهجيّة واضحة، وطرائق عمل حديثة، وإمكانات لوجستيّة، مجتمعةً تشكّل «عدة» عملها، وتيسّر لها الاتّصال بذوي الاختصاص بغية تنسيق الجهود، واختيار المحاور، ومتابعة الاتّصالات، وتوزيع الأدوار، ودعوة الجمهور. وهذا كلّ من شأنه الاقتصاد في الوقت والجهد وتحصين المخطّطين والمنفّذين من فخ الوقوع في متاهات مفهوميّة وروتين إداريّ هما بغنى عنهما.

أهميّة هذا اللقاء العلميّ - وسواه بالطبع - هو في تمكيننا من القراءة بصوت عالٍ لأسئلة لطالما راودتنا سرّاً: من هو المعنيّ بتراث المدن؟ أهم أهلها أم قاطنوها؟ أم المشتغلون بتاريخها وتراثها وحاضرها مواطنين كانوا أم مستشرقين؟ وكيف نعرف المدنيّ؟ ومن يعطي المشروعيّة للتراث مادّيّة ولا مادّيّة؟ وكيف نفهم جدليّات علاقة التاريخ بالإنسان وبيئته وإرثها الثقافيّ والحضاريّ؟ وإلى أيّ حدّ يرتبط التاريخ بالإنسان وثقافته وأمّاط حياته وتأثير المكان والزمان فيه وعليه؟ وكيف نفهم الحفاظ على الإرث الثقافيّ ونعمل لصونه قبل فوات الأوان؟ أهو في الحفاظ على العقود والآثار والجماليّات المعماريّة وتحويلها أحياناً «أصناماً تراثيّة» تؤسّط، افتراضياً، متى افتقرت للدلالات، فتمسي بلا هويّة؟ أم هو برصد التراث الشعبيّ بما فيه الشفهيّ، وتجميع جزئياته، قبل فوات الآوان، من أفواه الشيوخ المعترين بمصاف المكتبات الشعبيّة المتجوّلة؟

الأسئلة والنقاط التي استدعتها مداخلتنا تتمحور بمجملها حول الجهود المبذولة سابقاً وحاليّاً ومستقبلاً، للحفاظ على الإرث الثقافيّ والحضاريّ لبلدنا، لأننا، لإنساننا. ولكنّها، وكما رأينا، استحضرت أسئلة أكبر وأعمق. هي تلك المتعلّقة بالانتماء والهويّة والكيّونة والمصير. فمن المفيد أن نعرف تاريخ أمّتنا وتاريخ حواضرها، وأن نحضر الأجيال الجديدة لتتعرف إلى شواهد المعماريّة، وأن نرسخ فيهم أهميّة التلقّي وآليّاته، ونؤكّد لهم أنّ الإنسان في تطّعه الدائم نحو التغيير والتفتّح والازدهار، ينبغي أن يعي أنّ استيفاء الاحتياجات الآيلة إلى تطوّر حياته كفيل بحفظ موروثاته الثقافيّة، أي بالإبقاء على إنسانيّته. فمفهوم العمران على ارتباط وثيق بالإنسان وبالمتغيّرات الحيّاتيّة وبالبيئات الثقافيّة وباحتياجات الحاضر والمستقبل المتبدّلة على الدوام.

ومسك الختام خلاصة أو بالأحرى إشكاليّة انتهينا إليها بعد إنجازنا كلا الندوتين والكتابين. فالمسألة في مدننا التاريخيّة والعربيّة، ليس من يملك المدينة أو من هو صاحبها، بل القضية حقّ واستحقاق معاً. فالمدينة قيم وحيّة وعمران وانتظام، وكلّها أمور تحتاج إلى بذل الجهد للتعلّم والتدرّب والدخول في تقاليد المدينة وتراثها تحديداً. وهذا أحد أسباب الصعوبة التي لاقيناها في تكوين كتاب «بيروت وتراثها». إذ كان من بين طروحاتنا النفاذ إلى أعماق المدينة وليس البقاء على سطحها وظواهرها. فعسى أن نكون قد تمكّنا من فكّ بعض رموز الشفرة المدنيّة، يحدونا لذلك الحبّ، وتحذونا المسؤوليّة ويحدونا

أولاً وأخيراً الوفاء لبيروت ولتراثها الذي نعمل كي يحفظ ويصان وتسعفنا الظروف كي نحسن تظهير معالمه لأجيالنا الجديدة.

وكلنا أمل أن يكون هذا اللقاء الأكاديميّ الجامع وهذه المساهمة العلميّة الفرديّة حافزين للغيورين على تراث الوطن كي يسهموا معنا في تحقيق الحلم الذي راودنا في بيروت. وأعني إطلاق «مشروع مرصد بيروت الحضريّ»، لنجدّد النظر إلى المسألة التراثيّة عموماً، وندرجها ضمن استراتيجيّات التنمية والتطوير وبناء المستقبل.



المحور الخامس

# المراصد الثقافية ودورها في رسم

## السياسات الثقافية والعمرائة



رئيس الجلسة

الدكتور ابراهيم مارون  
(الجامعة اللبنانية)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

مرصد اتحاد بلديات الفيحاء: التكوين والدور والطموح في تغطية البعد الثقافيّ

المحاضرة المهندسة ديمة حمصي (مرصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء)

المحاضرة الثانية

السياسات الثقافية ومنهج التنمية المستدامة

المحاضر د. مارلين حيدر نجار (الجامعة اللبنانية)

المحاضرة الثالثة

المرصد الثقافيّ ودوره في مسار التخطيط الاستراتيجيّ

المحاضر د. مصباح رجب (الجامعة اللبنانية)



مرصد اتحاد بلديات الفيحاء:

## التكوين والدور والطموح في تغطية البعد الثقافي

المهندسة ديمة حمصي<sup>(١)</sup>

### ملخص

تتضمن هذه الورقة عرضاً لتاريخية إنشاء مرصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء، كما تقدم عرضاً موجزاً لآلية عمله ولأهم المشاريع التي ساهم بها، كما تبيّن دوره الهامّ في إدارة ورفد استراتيجية تنمية مدن الفيحاء بالكثير من المعطيات والاحصاءات، والمعلومات...

### مرصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء

#### التكوين

أطلق مشروع مركز رصد البيئة والتنمية بتاريخ أيلول ١٩٩٩، ولقد ألحق بمختبر مراقبة نوعية الهواء في ٨ نيسان ٢٠٠٠. وتمّ ضمّه إلى ملاك الاتحاد في شهر آب من عام ٢٠٠٦.

(١) المهندسة ديمة حمصي: مديرة مكتب اتحاد بلديات الفيحاء dimaedo@hotmail.com

يتشكّل فريق عمل المرصد من:

المهندسة ديمة حمصي، المهندسة ضحى البني، السيّدة أمال صوفي، الآنسة ربي بيسار، الآنسة راوية سنكري والسيّدة رابعة شركس. كما يساعد في عمل المرصد: سائق عدد ١ - عامل عدد ١ - شرطي عدد ١.

### تقارير المرصد

أما عدد التقارير التي صدرت عن المرصد، منذ سنة ٢٠٠٠، فيبلغ الـ ٣٠، وتتضمّن المواضيع الآتية: اجتماع واقتصاد - النفايات الصلبة - العمران واستعمال الأراضي - الطقس - الهواء - المياه - التراث الوطني والأثري. وكلّها يتمّ نشرها على صفحة الاتحاد [www.urbcomfayaa.gov.lb](http://www.urbcomfayaa.gov.lb).

### المؤشرات التي يتابعها المرصد

عدد المؤشرات التي تتمّ متابعتها من قبل المرصد هي ٣٧ مؤشراً.  
(مؤشرات الـ 130 = BleuPlan)

البطالة	نسبة الأمية	عدد السكان
وفيات الأطفال	رخص البناء	المساحات الخضراء
كمية الأمطار	الجسيمات	كمية النفايات

### شركاء مركز رصد البيئة والتنمية:

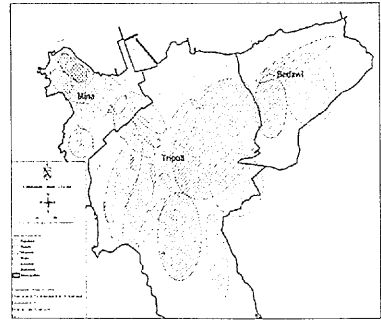
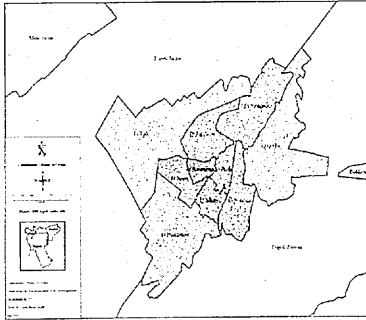
يوزّع التقرير الفصليّ لجهات عدّة تعتبر من الشركاء الدائمين للمرصد وعددها ٩٤  
بلديات - نقابات - جامعات  
وزارات وإدارات عامّة - مؤسّسات غير حكوميّة  
صحافة - منظمات دولية ....

## مهام المرصد

- متابعة تطوّر البيئة والتنمية عن طريق مراقبة مسار مؤشرات محدّدة.
- نشر المعلومات ومشاركتها وتعميمها.

## أهداف المرصد

- تقديم رؤية فضلى عن اتجاهات البيئة والتنمية في بلديات الاتحاد.
- سدّ الثغرات، استكمال النواقص، ومنع التضارب في المعلومات عند تجميعها.
- مشاطرة المعلومات المجمعّة وتسهيل انتقالها وتعميمها وجعلها بمتناول أصحاب القرار البلديّ.
- التأسيس للحوار وتشجيع التنسيق والتعاون بين البلديات المجاورة.
- إدخال نظام المعلومات الجغرافيّ إلى مركز رصد البيئة والتنمية.
- مؤشّرات مربوطة بالموقع الجغرافيّ.



## إدخال نظام المعلومات الجغرافيّ إلى مركز رصد البيئة والتنمية

- تدريب كلّ العاملين في المرصد على نظام المعلومات الجغرافيّ.
- اعتماد نظام المعلومات الجغرافيّ في تقارير المرصد.
- تحسين أداء المرصد عبر استعمال الـ GIS والتطبيقات التي تساعد على إدخال المعلومات وتحليلها حسب الموقع الجغرافيّ.
- احتساب بعض المؤشّرات عبر نظام المعلومات الجغرافيّ مثل عدد السكّان، المساحات الخضراء وغيرها...



- مسح للوحدات الموجودة في اتحاد بلديات الفيحاء وتحديثها بشكل دوري (مدرسة، جامع، كنيسة، صيدلية، مستوصف،...).
- مسح للوحدات التي تؤثر على نوعية الهواء ضمن نطاق الاتحاد (٢٠٠٥) مشروع SMAP وتحديثها ٢٠١٠ (مصبغة، محطة بنزين، دهان سيارات، دهان مفروشات،...)

على الصعيد البلديّ: المعلومات أصبحت متوفرة جغرافياً:

المساحات الخضراء	ميان: مع وجهة استعمال، الوحدات، المكلفين	عقارات: وجهة الاستعمال، رخص Zoning، أملاك (بلدية، التخطيطات)،...
مواقف التاكسي مأخذ مياه الإطفاء محطات الكهرباء	شبكة الطرق تصنيف مع أسماء الشوارع	مسح ضوئي خرائط البلديات ٥٠٠/١
بنى تحتية: كهرباء، مياه، إنارة، هاتف، مياه أمطار، آبار ارتوازية، مجار	ضم نسخ من ملفات رخص البناء الجديدة على CD وتنزيلها على GIS	آثار: لائحة الجرد العام، مرسوم ١٩١٥، ميان أثرية

- على الصعيد البلديّ: إدخال نظام المعلومات الجغرافيّ إلى البلديات الأعضاء:
- تدريب بعض الموظفين من البلديات على نظام المعلومات الجغرافيّ.
  - إعداد البرامج التطبيقية الموجودة في البلديات الثلاث.
  - تطبيقات تسهل استعمال نظام المعلومات الجغرافيّ.
  - المرصد هو مركز تحديث المعلومات وإعادة إرسالها إلى البلديات.
  - فريق عمل من بلدية طرابلس ما يزال لغاية اليوم يقوم بتحديث كل المعلومات في المرصد.



## المرصد نقطة جذب لطالبي المعلومات

تم تأسيس قاعدة معلومات متطورة في المرصد.

يمكن لطالبي المعلومات البحث عبر برنامج تطبيقي طور داخل المرصد على أساس المصدر أو الوزارة أو البلدية أو السنة.

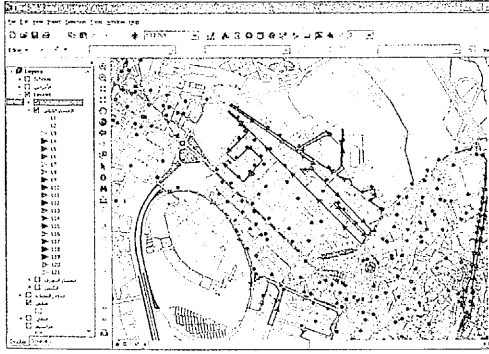
تدريب في مختبر مراقبة نوعية الهواء.

العديد من مشاريع التخرج نفذت عن بلديات الاتحاد بسبب توفر المعلومات في المركز: الجامعة الأميركية - جامعة البلمند - الجامعة اللبنانية.

## متابعة مشاريع الاتحاد

### مشاريع التلزم

تعبيد أرصفة مكب جمع النفايات...



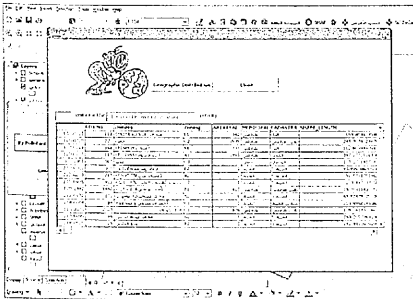
توزيع المستوعبات والمسار الليلي لجمع النفايات

### مشروع الطب المدرسي

يتم إدخال معلومات هذه المشاريع على طبقات النظام الجغرافي عبر تطبيقات خاصة كما يتم تحليلها وعرضها على خرائط GIS.

...

## المرصد هو أداة لتنفيذ ومتابعة مشاريع التعاون اللامركزي



- مشروع 2002-2006 SMAP
- مشروع 2007-2011 PACEM
- مشروع 2008-2011 AFSDS
- مشروع إنشاء وحدة لإدارة الكوارث في اتحاد البلديات 2010-2011
- مشروع 2010-2012 GODEM

- مشروع 2011-2012 IZIMED المرحلة الأولى مع بلدية مالاقا في اسبانيا وبدعم من UNDP/ArtGold

### مشروع GODEM

موضوع المشروع	الشركاء	التمويل
- دراسة جدوى لمعمل تسيخ النفايات - إنشاء وتجهيز مركز لتلقي شكاوى المواطنين	برشلونة - بروكسل	الاتحاد الأوروبي
قيمة المشروع	تاريخ المباشرة	مدة المشروع
١٢٩,٩١٧ يورو	٢٠١٠/٦/٢١	سنة ونصف

### مشروع إنشاء مركز لإدارة الأزمات

موضوع المشروع	الشركاء	التمويل
- وضع خطة لإدارة الأزمات - إنشاء وتجهيز مركز لإدارة الأزمات - تأهيل مبنى سرية الإطفاء ليصبح مقاوماً للزلازل - دعم سرية الإطفاء بسيارتي إطفاء	- بلديات الاتحاد - الصليب الأحمر - الدفاع المدني	مكتب التعاون الإيطالي
قيمة المشروع	تاريخ المباشرة	منفذ المشروع
٤٠٠,٠٠٠ يورو	٢٠١٠/٢/٢١	المنظمة غير الحكومية الإيطالية ARCS

## المرصد هو أداة لتنفيذ ومتابعة مشاريع التعاون اللامركزي

- متابعة وتنفيذ كل المشاريع التي يستحصل عليها الاتحاد مع الجهات المانحة الدولية:
- مشروع USUDS لإنشاء مركز لنشر الخبرة في مجال وضع الاستراتيجيات في منطقة الشرق الأوسط مركزه الاتحاد ودعم بلدية صيدا
- مشروع RAMUD حول النقل العام
- مشروع Gouvairnace حول نوعية الهواء
- مشروع ISIMED 2011-2012 المرحلة الثانية مع بلدية مرسيليا في فرنسا وبدعم من UNDP/ArtGold
- غيرها...

## الصعوبات التي واجهت المرصد على صعيد تجميع المعلومات

- باستثناء مختبر نوعية الهواء، المرصد غير مجهز ببنية خاصة به للقياس والتحليل وهو يعتمد على المؤسسات المعنية لأخذ المعلومات منها.
- المعلومات متوفرة بكثرة ولكنها غير مترابطة، مبعثرة، غير مبنية وفي بعض الأحيان متناقضة.
- المرصد يعمل ضمن نطاق اتحاد بلديات الفيحاء والمعلومات المتوفرة غالباً ما تكون على صعيد القضاء أو المحافظة.
- الاتحاد يضم طرابلس والميناء من قضاء طرابلس والبدوي من قضاء المنيه.
- صعوبة الاستحصل على المعلومات الفنية العائدة للميناء والبدوي لكونها تتم خارج البلدية بعكس طرابلس.
- طريقة سير المعاملات في الإدارة لا تأخذ الهدف الإحصائي بعين الاعتبار فتحفظ المعاملة من دون استخراج المعلومات وتبويبها.
- الإدارات غير ملزمة بتجميع المعلومات الإحصائية عن نشاطاتها.
- العمل الإحصائي ينفذ بواسطة إدارة لتستفيد منه إدارات أخرى وهذا يستدعي وجود إحساس بالمشاركة وإيمان بتحسين الأداء.
- الشغور التام لملاك الجهاز الفني أدى إلى تكليف فريق عمل المرصد ببعض المهام

- بالاضافة إلى المهام الأساسية.
- تأخير بنشر التقارير الدورية.
- تكليف العاملين في المرصد بمهام مختلفة بالاضافة إلى المهام الأساسية.
- تعميم رئاسة مجلس الوزراء رقم ٢٤/٢٠٠٧ والذي ينصّ على عدم طبع ونشر الخرائط ومصوّرات الأراضي اللبنانية قبل الحصول على إذن مسبق من قيادة الجيش
- مديرية الشؤون الجغرافية – تحت طائلة الملاحقة القانونية.

### تفعيل عمل مركز رصد البيئة والتنمية ضمن مشروع AFSDS

- ورش عمل تشاورية بدعم من الـUN-HABITAT لتفعيل عمل مركز رصد البيئة والتنمية ضمن مشروع AFSDS
- تحديد رؤية ورسالة وأهداف ومهام المرصد.
- تحديد مؤشرات المرصد.
- آليات التواصل وتبادل المعلومات والخبرات.
- تكليف مكتب المهندس ديران هارمانديان بتحديد آلية لرصد وتقييم تنفيذ الخطة الاستراتيجية من قبل مركز رصد البيئة والتنمية.

### الرؤية

أن يصبح المرصد مرجعية أساسية على المستويين المحلي والوطني لرفد عملية التنمية المستدامة ودعمها.

### الرسالة

رصد وتحليل وتوثيق واقع مدن الفيحاء وتوجهات النمو فيها، استناداً إلى مؤشرات التنمية ونشرها بهدف دعم السياسات المحلية والوطنية.

### الأهداف

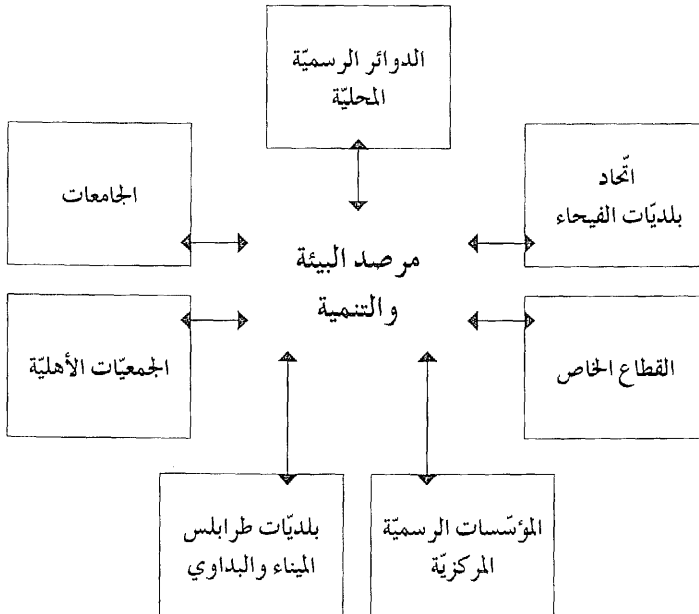
- بناء قاعدة بيانات شاملة، محدّثة وموثوقة.
- تفعيل التواصل والمشاركة بين المرصد وكلّ الأطراف المعنية.

- تعزيز دور الإدارات المحلية والفرقاء المعنيين في اتخاذ القرارات المتعلقة بعملية التنمية.
- رصد وتقييم المبادرات والمشاريع التنموية.
- تعميم المعرفة وتبادل الخبرات على المستويين الوطني والدولي.

### المهام

- جمع، قراءة وتحليل المعلومات والبيانات عن وضع مدن الفيحاء وتحولاتها.
- توثيق نتائج التشخيص ونشرها ضمن تقارير دورية (فصلية أو سنوية).
- وضع مؤشرات لرصد وتقييم مسار الخطة الاستراتيجية والمبادرات التنموية.
- بناء شراكات مع مؤسسات المجتمع الأهلي.
- التواصل مع المراسد المحلية والإقليمية والعالمية.
- تنسيق ومقاربة المؤشرات المحلية مع المؤشرات الوطنية، الإقليمية والعالمية.
- بناء قدرات الإدارات لانشاء المراسد الوطنية والمحلية.

### الأطراف المعنية برصد البيئة والتنمية



## لماذا التواصل والتشبيك بين الأطراف المعنية والمرصد؟

علاقة تبادلية عبر:

- استفادة المؤسسات في عملها الذي عادةً يخدم المصلحة العامة، وذلك عبر وضع البيانات والمؤشرات والتقارير والخرائط التي يصدرها المرصد.
- استفادة المؤسسات من الخدمات الفنية التي يقدمها المرصد (خرائط، GIS).
- الاستفادة من الخبرات الفنية والتقنية المتوفرة لدى المؤسسات المعنية والتي يمكن أن تشكل دعماً أساسياً لعمل المرصد.
- الاستفادة من الموارد المتاحة: بشرية، معلومات، مادية، إلخ، وذلك لتفادي ازدواجية العمل والحد من الكلفة التشغيلية.
- غيرها...

## التوصيات

- إعداد نشرة "بروشور" حول أعمال المرصد وتوزيعه.
- تنظيم نشاط سنوي للمرصد.
- إعداد اتفاقيات تعاون مع الأطراف المعنية (جمعيات جامعات).
- انتداب شخص من كل بلدية تكون مهمته التواصل المستمر مع المرصد. ورفق تقرير للمجلس البلدي الذي يمثله.
- تعيين موظف متخصص في العلاقات العامة للمرصد.
- إصدار تقرير/مجلد عن المرصد مرة كل عام خلال مؤتمر سنوي.
- تحديد شخص مسؤول عن التواصل والعلاقات العامة لنشر أعمال المرصد.
- تأمين تحسين نوعية المعطيات التي تنتج من مختبر الهواء.

## المرصد الثقافي

- الأدوار التي قام بها حتى الآن من علاقات تشاركية، ومن أبحاث ودوره بشكل أساس في متابعة إعداد وتنفيذ الخطة الاستراتيجية لتنمية مدن الفيحاء.
- التطلع لتوسيع دائرة اهتمامات المرصد لتتطال البعد الثقافي.
- أسباب هذا الاهتمام ظهر بشكل واضح عبر الاستراتيجية ذاتها.



خلال مرحلة وضع الخطة تبين أن البعد الثقافي لم يتطرق إليه المرصد بشكل مباشر

كيفية بناء هذا التوسع

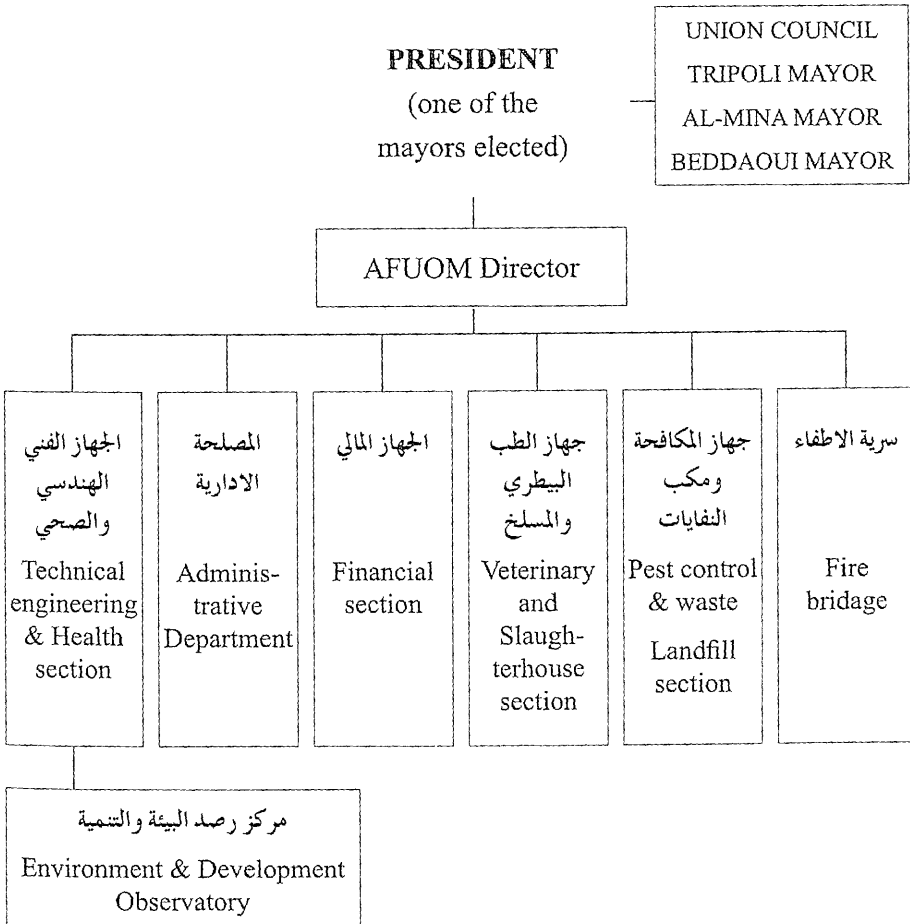
- توقيع اتفاقية تعاون مع معهد العلوم الاجتماعية.

- إمكانية التعاون مع وزارة الثقافة.

- ضرورة دعم المرصد على المستوى البشري وعلى المستوى التقني والبحثي ليؤدي

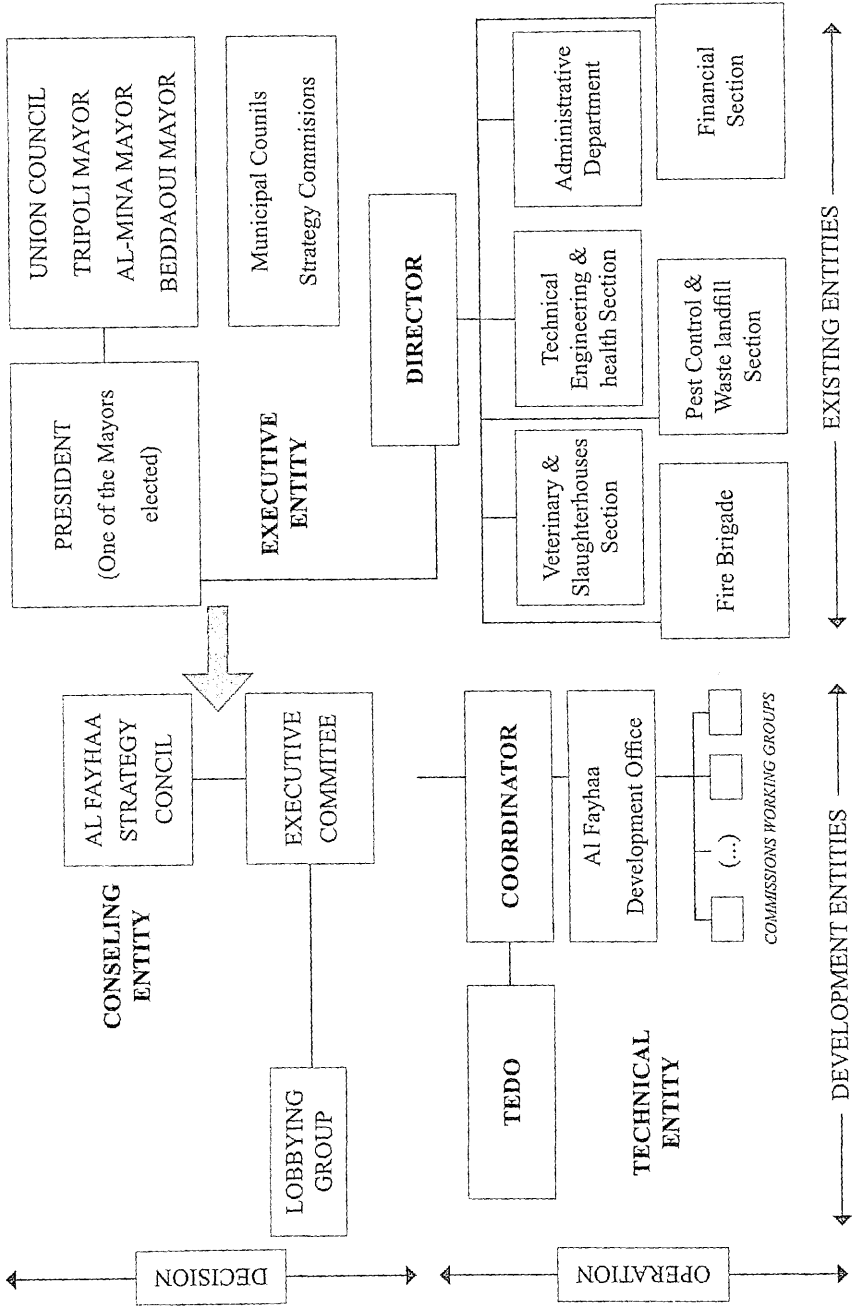
دوره المناطقي في عملية التنمية الشاملة وبما فيها التنمية الثقافية.

### الهيكلية الحالية لإتحاد بلديات الفيحاء



## الهيكلة التنظيمية المقترحة

Proposed Organizational Structure for the AL FAYHAA STRATEGY of Sustainable Development







## السياسات الثقافية

### ومنهج التنمية المستدامة

الدكتورة مارلين حيدر<sup>(1)</sup>

#### ملخص

ما عاد باستطاعة الإنسان في زمننا الحاضر بناء مستقبل بسياسات عفوية أو مرحلية، بدون تخطيط، في عالم معولم، يتكاثر ويتفاقم الثقاف فيه لدرجة أصبح يشكل خطراً على خصوصية المناطق على المستويين الثقافي والابداعي لديها.

انطلاقاً من هذا الواقع، لا بد من التأكيد على أهمية رسم السياسات الثقافية المنهجية التي غدت ركيزة أساسية من ركائز التنمية المستدامة. فمجتعنا اليوم، ما زال بعيداً كل البعد عن التفكير الجدّي بهذا التوجّه الاستراتيجي الهام في الحقل الثقافي. وأكبر دليل على ذلك الموازنة المتواضعة التي يتم رصدها لوزارات الثقافة في الوطن العربي ولبنان ضمناً.

تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على أهمية دور السياسات الثقافية في العملية التنموية وعلى الأهداف التي تسعى إلى تطبيقها، وعلى منهجية العمل التنموي المستدام من خلال رسم سياسات يتم تطبيقها وتصويبها لتطوير مفاعيلها المستمرة في ديناميّتها على المستوى المحلي والوطني.

(1) الدكتورة مارلين حيدر: أستاذة وباحثة جامعية في الجامعة اللبنانية وجامعة البلمند، عملت كمستشار محلي في مشروع وضع الخطة الاستراتيجية لاتحاد مدن الفجاء . marlene.najjar@gmail.com

## مقدمة

يأخذ المجال الثقافي حيزاً هاماً من اهتمام الدول المتقدمة. ويتجلى ذلك في اعتباره كأولوية من أولويات القطاعات التنموية. ففي كندا، على سبيل المثال، بلغ مجموع الإنفاق المشترك لمختلف الحكومات أو الإدارات العامة (أي الحكومة الاتحادية، المحافظات والبلديات) في مجال السياسات الثقافية للعام ٢٠٠١-٢٠٠٢ ما يقارب الـ ٦,٨ مليون دولار<sup>(٢)</sup>. فبالبلديات، في هذه الدول، تُعد لاعباً أساسياً في دعم ومساندة الثقافة، وهو أمر يتجلى في خلال الخدمات التي تقدمها للمواطنين؛ أما الحكومات فتعزو تبريرها لهذا الإنفاق وهذا التدخل في القطاع الثقافي لأمرين:

- الأول: لضرورة تنمية هذا القطاع الذي بات يشكل دعامة أساسية من دعائم التنمية.

- الثاني: لمدودية هذا القطاع على المستوى الاقتصادي<sup>(٣)</sup>.

لا يخفى على أحد، في المقابل، التحديات الحياتية، الثقافية، والنفسية التي تعيشها الدول النامية، وتحوط بها، وتضيّق عليها الطوق، هذه التحديات التي أصبحت تهدد، بنسب مختلفة، دول العالم أجمع بسبب تزايد التفاوت الكبير بين دول الشمال ودول الجنوب. ورغم تنادي دول العالم الغنية القوية منها والفقيرة النامية إلى دراسة المستجدات واقتراح الحلول ورسم السياسات التنموية، إلا أنه ما زالت حصة وزارة الثقافة، في توزيع إنفاق موازنات الدول النامية، تأتي في آخر سلم أولوياتها<sup>(٤)</sup>.

## الثقافة كبعد تنموي

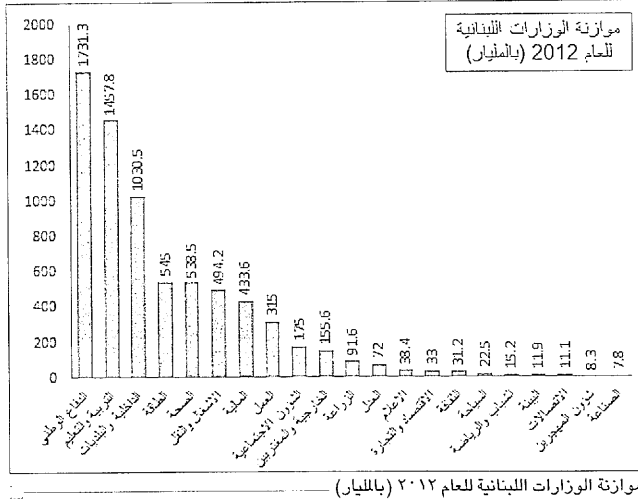
لقد أدت التحولات التي شهدتها القرن العشرون، في شتى نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى ضرورة التفكير في وضع معايير جديدة للممارسة الثقافية بالتخطيط والتنظيم والتنسيق لتحقيق المطالب الثقافية، للمجتمعات عموماً، كغيرها من الخدمات، الصحية والتعليمية والبيئية، التي يحتاج إليها المجتمع. ولقد جاءت نشأة

(٢) Colbert, François. Les éléments des politiques culturelles. p2. www.managementculture.co.

(٣) Colbert, François. ibid

(٤) للمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على جدول موازنة الوزارات الخاصة بهذه الدول على مواقعها الإلكترونية الخاصة بحكوماتها.

مفهوم «السياسات الثقافية» كنتيجة مباشرة للأحداث التي ميّزت هذا القرن، خاصّة وأنّ مفهوم الثقافة اليوم قد تطوّر نطاقه ليّتسع ويشمل إلى جانب «الفنون والآداب»، أنماط الحياة، وأساليب العيش معاً، ومنظومات القيم، والموروثات، والمعتقدات<sup>(٥)</sup>.



فالثقافة اليوم، تعتبر عنصراً هاماً من عناصر التنمية الشاملة والمستدامة. إنّ العلاقة بين الثقافة والتنمية باتت تشكّل محوراً أساساً من محاور التخطيط للعمل الثقافي الآتي والمستقبلي، خاصّة في ظلّ التحدّيات التي تواكب عصرنا اليوم والتي تمثّل أخطاراً حقيقية قد تمسّ جوهر الهوية الثقافية والمستقبل الحضاريّ للوطن. أمّا الغاية الأساسية للسياسة الثقافية، فتتمحور حول تعزيز المشاركة في الحياة الثقافية، وفي خلق وعي جديد بأهميّة البعد الثقافيّ، في شتى مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، أهميّة لا يمكن إغفالها في كلّ تخطيط تنمويّ قائم على أسس علميّة مدروسة. ولهذا كلّ جاءت الثقافة كركيزة تنموية رابعة، وفق تصنيف اليونيسكو لها، إضافة إلى الركائز الثلاث المعهودة تقليدياً في الحقل التنموي أي الاقتصادية، الاجتماعية والبيئية<sup>(٦)</sup>.

(٥) أم العز الفارسي، ٢٠١١: مفهوم السياسات الثقافية. «من» ملتقى آفاق التنمية الثقافيّ، يناير.

(٦) NURSE K., 2006: Culture as the Fourth Pillar of Sustainable Development, Paper prepared for the Commonwealth Secretariat, London, UK.

## سيرورة البحث

سنحاول بدءاً، في هذه المقاربة البحثية، التعريف بالمسار التاريخي لدخول مفهوم «السياسات الثقافية» حيز التنفيذ؛ ومن ثم سننتقل إلى عرض المسار التحضيري في الإعداد لهكذا سياسات تنموية، متطرقين لصعوبات وتحديات هذا التوجّه؛ كما سنعرض لأهمّ النماذج الدوليّة المطبّقة لهذه السياسات؛ وسنختتم بدراسة حالة لخبرة «مدن الفيحاء» التي قامت بوضع الخطة الاستراتيجية الأولى للتنمية المستدامة في لبنان.

### مفهوم السياسات الثقافية؛ المنشأة والسيرورة

تبرز السياسة الثقافية كأحد المفاهيم الحديثة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين لتمثّل أحد مجالات السياسة العامّة للدولة. وقد تبلور هذا المفهوم نتيجة الاهتمام به من قبل مفكرين وباحثين عايشوا جهود المنظّمات الدوليّة والاقليميّة المعنيّة بالعمل الثقافي، والتي تأتي اليونيسكو في مقدّمها. حيث تعدّ هذه المنظّمة من أبرز المستخدمين لتعبير السياسات الثقافية، ولعلّ من الضروري التأكيد على ارتباط مفهوم السياسة الثقافية بتدخّل الدولة المباشر في النشاط الثقافي باعتباره أحد مجالات السياسات العامّة.

سنبرز، في الجدول رقم ١، أهمّ المحطّات الأساسيّة، التي حقّقتها منظّمة اليونيسكو في سيرورة اعتبارها للثقافة كرافعة أساسيّة للعمل التنمويّ، على مدار ربع قرن ونيّف، وسنعمل على إلقاء الضوء على ما تضمنته هذه المحطّات بما في ذلك من تحديد لمفهومَي «الثقافة» و«السياسات الثقافية» ووصولاً إلى إعلان «الثقافة» كركيزة رابعة للتنمية.

وعليه، اعتمدت خطة العمل مفهومًا للتنمية مفاده أنّ التنمية هي عملية توسيع مجال الخيارات أمام الناس، وهو مفهوم يقيس التنمية بمدى توافر تنوّع واسع من الإمكانيات المتاحة أمام هؤلاء تتراوح بين الحرّيات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى الفرص المتاحة أمام الفرد ليتمتّع بالصحة والتعليم والثقافة ويكون منتجاً وخلاقاً وينعم بالكرامة وحقوق الإنسان.

كذلك خلصت أعمال هذا المؤتمر إلى نتيجة مهمّة وهي أنّ التنمية الحقيقية ليست تلك التي تسعى إلى ردم الهوة وتجاوزها بين الدول الفقيرة والغنيّة فحسب، بل تلك التي تُظهر أنّ التقاليد الخاصّة بكلّ ثقافة من الثقافات يمكن أن تدمج بالموارد الاقتصاديّة

والعلمية والتكنولوجية الحديثة، فيكون للشعوب حقها في رسم تصوراتها الخاصة للحدثة المرتبطة بتراتها وتقاليدها، فلا تملى عليها أنماط الحدثة الغربية، ولا تفرض عليها مبادئها الغربية عنها باسم الحدثة.

الجدول رقم ١: قرارات ومحطات متعلّقة بالثقافة ما بين الأعوام ١٩٦٦ و ٢٠٠٢

العام	المحطات الأساسية	أهم ما تضمنته
١٩٦٦	«إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي»	التأكيد على أهمية التنمية الذاتية، وإدخال مفهوم «الثقافة الهجينة» الذي جدد الطعن في التصور التقليدي لدول هي وحدة مترابطة ثقافياً، والتعبير بوضوح عن فكرة «التنمية الثقافية».
١٩٧٠	«المؤتمر الدولي الحكومي المعني بالجوانب المؤسسية والإدارية والمالية للسياسات الثقافية» - البندقية	
١٩٧٨	«مؤتمر السياسات الثقافية» - بوغوتا	
١٩٨٢	«المؤتمر العالمي بشأن السياسات الثقافية» - موندياكولت، مكسيكو <sup>(٧)</sup>	التركيز على احترام كل الثقافات على قدم المساواة؛ والتأكيد على الهوية الثقافية للشعوب ودورها في حياة الأفراد والجماعات؛ بالإضافة إلى إعطاء مكانة هامة لتوثيق الروابط بين الثقافة والتنمية.
١٩٨٨	«العقد العالمي للتنمية الثقافية» - نيويورك <sup>(٨)</sup>	نص على أهمية الاعتراف بالبعد الثقافي في التنمية، والعمل على تأكيد وتدعيم الهويات الثقافية، وتوسيع المشاركة في الحياة الثقافية وترقية التبادل الثقافي الدولي.
١٩٩٥	«التنوع البشري المبدع» - صدور التقرير <sup>(٩)</sup>	كما أولى عناية بالسياحة الثقافية فغدت خياراً استراتيجياً.

(٧) في هذا المؤتمر تبنت المشاركون استراتيجية للسياسات الثقافية في إطار ما أطلق عليه «عقد عالمي للتنمية الثقافية» وهو العقد الأخلاقي والاجتماعي الذي سوف يمكن الأسرة الدولية من شق طريق المستقبل في عالم ستحوّل فيه التكنولوجيا الرقمية ظروف العيش بأكمله. وقد تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم ٤١/١٨٧ في جلستها العامة رقم ١٠٠/نيويورك ١٩٨٦/٨/١٢ «العقد العالمي للتنمية الثقافية» ليشمل الفترة الممتدة من ١٩٨٨ إلى ١٩٩٧ كبرنامج مشترك لمجلس أسرة الأمم المتحدة، وتضطلع منظمة اليونسكو فيه بدور المنظمة الرائدة. (للمزيد من المعلومات يمكن العودة إلى: بوكروخو مخلوف وآخرون). الدليل إلى الإدارة الثقافية. دار شرقيات، ص ١٩).

(٨) ساهم عقد التنمية الثقافية في إشاعة جملة من المفاهيم، وأثار نقاشات حول سبل إعادة الثقافة بوصفها ميزة العرقية الإنسانية إلى مكانتها الحقيقية في صلب السياسة الثقافية. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هدف التنمية الثقافية أستهل عام ١٩٨٨ وظل ينشده حتى صدور تقرير «التنوع البشري المبدع» عام ١٩٩٥ وانعقاد المؤتمر الدولي الحكومي بشأن السياسات الثقافية من أجل التنمية عام ١٩٩٨.

(٩) سُكّلت عام ١٩٩١، لجنة عالمية مستقلة برئاسة الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة خافيير بريز ديكيولار، وعضوية مفكرين متميزين يمثلون الأقاليم الثقافية في العالم، كلّفت إعداد تقرير لإقتراح الخطط العاجلة وطويلة المدى للنهوض بالعمل الثقافي لتحقيق التنمية البشرية. وكان تقرير اللجنة المعنون «التنوع البشري المبدع» أساس وثيقة خطة عمل للسياسات الثقافية من أجل التنمية التي أقرتها مائة وتسع وأربعون دولة، بما فيها الدول العربية، في مؤتمر «السياسات الثقافية من أجل التنمية» الذي عقدته، لاحقاً، اليونسكو في سوكوهو لم عام ١٩٩٨.



العام	المحطات الأساسية	أهم ما تضمنته
١٩٩٨	«المؤتمر الدوليّ حول السياسات الثقافية والتنمية» - ستوكهولم، السويد	تدارس التفاعل بين السياسات الثقافية والتنمية وأكد على أن السياسات الثقافية هي أحد المكونات الأساسية لسياسات تنموية دائمة <sup>(١٠)</sup> .
٢٠٠١	«إعلان اليونسكو العالميّ بشأن التنوع الثقافي»	إيدانا بدخول مرحلة جديدة في مجال تصميم وتنفيذ السياسات الثقافية.
٢٠٠٢	«إعلان تبني مضمون مؤتمر القمة العالمية للتنمية المستدامة» - جوهانسبورغ	الثقافة هي الركيزة الرابعة للتنمية، والتنوع «قوة جماعية» تدفع نحو الأفضل <sup>(١١)</sup>

بعد هذا العرض المفصّل لأهمّ المحطات والمؤتمرات المواكبة والمتطرّقة لشأن التنمية الثقافية، ربّما أمكننا التأكيد على أهميّة محور خطة العمل التي أقرّها مؤتمر ستوكهولم بشأن السياسات الثقافية، إذ لا سبيل إلى تحقيق الأهداف المرسومة إلّا بصياغة سياسات ثقافية ملائمة، وإلّا بإعادة النظر في السياسات الثقافية الراهنة على المستويات المحليّة والوطنية والإقليمية والعالمية في آن معاً، خصوصاً وأنّ الأهداف الرئيسة لهذه السياسات تكمن في إنشاء البنى وتأمين الموارد المناسبة لخلق بيئة يصل فيها الإنسان إلى تحقيق إنسانيّته.

وقبل الدخول في مسار الإعداد والتحضير لـ«السياسات الثقافية»، لا بدّ من التوقّف عند تعريف كلّ من مفهوم «الثقافة» ومفهوم «السياسات الثقافية» كما حدّدته منظّمة اليونسكو الدولية، خلال المؤتمر العالميّ للسياسات الثقافية عام ١٩٨٢، والذي نصّ على:

(١٠) شكّل هذا المؤتمر نقطة تحوّل هامّة في السياسات الثقافية. تضمن التأكيد على أنّ «التنمية المستدامة وازدهار الثقافة مترابطان يعتمد كلّ منهما على الآخر»، وإنّ الإبداع الثقافيّ هو مصدر ازدهار الإنسان والتنوع الثقافيّ هو عامل أساس في التنمية. كما تناول عناصر احترام الهويّات الثقافية، لكونها أساسية في أيّة تنمية ثقافية. وكذلك الدفاع عن الثقافات المحليّة والإقليمية المهددة من قبل الثقافات ذات الانتشار العالميّ والتي يجب ألاّ تفرقل مسار التنمية. وعليه، ينبغي لأية سياسة تنموية أن تأخذ في الاعتبار التنمية الثقافية، وعلى الحكومات والمجتمع المدنيّ أن يتعاونوا من أجل وضع سياسة ثقافية مندمجة ضمن استراتيجية تنموية. وعلى السياسات الثقافية أن تعترف بالإسهامات الأساسية التي يقدّمها المدعون في تحسّين نوعية الحياة وترقية الهوية وتنمية ثقافة المجتمع. وهذا قد تجدر الإشارة، إلى أنّه من أبرز ما تضمنته أهداف هذا المؤتمر، كان الطلّب من الحكومات المشاركة اعتبار السياسات الثقافية أحد العناصر الأساسية للاستراتيجية التنموية، وتفصيل الإبداع والمشاركة في الحياة الثقافية، وتدعيم السياسات والممارسات من أجل الحفاظ على التراث وتميمه، سواء منه التراث المادّي كما المعنويّ المتغير والثابت، وترقية الصناعات الثقافية.

(١١) نوه بأنّه إلى جانب الركائز الثلاث للتنمية (الاقتصادية والبيئية والاجتماعية)، توجد ركيزة رابعة هي «الركيزة الثقافية»، وبأنّ التنوع أصبح يعتبر من الآن فصاعداً «قوة جماعية» تدفع المجتمعات نحو الأفضل.

إنّ الثقافة، بمعناها الواسع، تعتبر كمجموعة من السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميّز مجتمعاً معيّنًا أو فئة إجتماعية معيّنة. وهي تشمل إلى جانب الفنون والآداب وأنماط الحياة، الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات<sup>(١٢)</sup>.

أمّا السياسات الثقافية فهي مجموعة الممارسات والأفعال أو غيابها، التي تطبّق في مجتمع معيّن، والتي تهدف إلى تلبية إحتياجات ثقافية معيّنة من خلال الاستخدام الفعّال لجميع الموارد والإمكانات المادية والإنسانية المتوفّرة في مجتمع معيّن وفي وقت معيّن<sup>(١٣)</sup>.

وهنا ينبغي النظر إلى السياسة الثقافية، ضمن الإطار النظريّ، بوصفها أداة تستخدم من قبل السلطات العامة لتعزيز وحماية السمات المميزة للمجتمع، من حقوق أساسية، ونظم وقيم وتقاليد ومعتقدات. كما تجدر الإشارة، إلى شمولية السياسات الثقافية واتّساعها، حيث تنضوي تحتها مجموعة من السياسات القطاعية - بما في ذلك اللغة، وتعليم التاريخ، وحماية التراث، وإدماج المهاجرين وغير ذلك - التي يمكن تقسيمها بدورها على عدد من العناصر الأخرى. فسياسة حماية التراث، على سبيل المثال، تشتمل على سياسة بناء التراث، الهندسة المعمارية، الحياة البرية والنباتات، التنوع البيولوجي، المتاحف الخ..

ويمكن للسياسة الثقافية أن تدرج ضمن إطار «السياسة العامة» بحسب أهمّ الباحثين<sup>(١٤)</sup> في هذا المجال، حيث تحدّد السياسة العامة كمجموعة من الإجراءات والتدابير أو التراخي تختارها سلطة عامة من أجل حلّ مشكلة أو مجموعة من المشاكل. وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أنّ الحكومة التي تختار عدم التدخل هي أيضا تتبنّى سياسة ما.

(١٢) COLBERT François : Les éléments des politiques culturelles. P4. [www.managementculturel.com](http://www.managementculturel.com).

(١٣) ibid.

(١٤) نذكر على سبيل المثال البروفسور الاستشاري في السياسات العامة والإدارة Pal, Leslie وأهمّ كتاباته في هذا الخصوص المؤلف التالي:  
Beyond Policy Analysis, 2010: Public Issue Management in Tribulent times. 4th.ed. Toronto: Nelson Education.



## الخطوات الأساسية التي ترافق مرحلة الإعداد للسياسات الثقافية<sup>(١٥)</sup>

تمثل السياسة الثقافية، كما ذكرنا مراراً سابقاً، أحد المكونات الرئيسة لسياسة إنمائية مستدامة تعتمد أساساً الإنماء الذاتي الداخلي، الأمر الذي يفرض تنفيذها بالتنسيق مع السياسة العامة في مجالات اجتماعية أخرى على أساس التوجه المتكامل، ويلزم السياسة التنموية أن تأخذ في الحسبان، بشكل جدي، الثقافة في ذاتها. ونجد هنا من الأهمية بمكان التعرف إلى الخطوات الأساسية التي ترافق مرحلة التحضير، وتؤدي إلى تطوير أي سياسة عامة. هذه الخطوات تدرج تحت خمسة عناوين كالآتي:

### أولاً: الموافقة

يبدأ أي عمل في مجال السياسات بطلب من الحكومة. ويمكننا وصف هذه المرحلة كتحديد وجود مشكلة. ويمكن تعريف هذه المشكلة عن طريق السلطة العامة نفسها؛ فيمكن لجهة سياسية طرح تساؤل في برنامجها السياسي يتطلب حلاً. هذا الطرح غالباً ما يثار كمجموعة إئتلاف، أو جمعيات تضغط من أجل تدخل الحكومة. وهذا يفترض بأن يصبح الشعور بالمسؤولية الاجتماعية تجاه المجتمع وقضاياها من أهم مكونات الثقافة السياسية، ذلك أن هذا الشعور بالمسؤولية يدفع المواطن إلى الإيجابية في التعامل مع القضايا والموضوعات منطلقاً الشعور بالولاء للجماعة.

### ثانياً: صياغة الحل

الخطوة الثانية من مراحل الإعداد للسياسات الثقافية هي صياغة حل. تضبط أجهزة الحكومة هذه المشكلة، عن طريق إعداد الأجوبة والحلول التي تمت دراستها، والمقارنة بين الخيارات مع المعايير أو غيرها من السياسات المعمول بها. ثم تقدم اقتراحات مختلفة، فضلاً عن سبل إدماجها في القرارات.

### ثالثاً: صنع القرار

الخطوة الثالثة، يتم تشغيل عملية صنع القرار في حد ذاته. وهذا يخلق تحالفاً داخل الحكومة أو أجهزة الدولة؛ وهنا تقوم الجماعة بعرض الحلول ومناقشة أفضل السبل لمعالجة هذه القضية. ويتم السعي، في هذه المرحلة، إلى إضفاء الشرعية على السياسة المعروضة

ليتم اختيارها، بما في ذلك إنشاء لجنة برلمانية لدراسة هذه القضية. وتقديم التقرير إلى أصحاب الشأن. إن هذا المسار الذي يتم العمل فيه على إنجاز السياسات الثقافية والذي يركز على الحوار بين أصحاب المصلحة من شأنه أن يوصل إلى إجماع وتوافق في الآراء.

#### رابعاً : إنشاء مجلس الإدارة

الخطوة الرابعة تتجسد بإنشاء مجلس الإدارة، وتعيين الرئيس التنفيذي، الذي تكون مهمته تنفيذ البرامج التي تم إعدادها والتوافق عليها في السياسة المعتمدة من قبل المسؤولين والتي من خلالها يتم تحديد المعايير والاتجاهات العامة.

#### خامساً : تقويم النتائج

خامساً وأخيراً، يتوجب دراسة النتائج المترتبة على السياسة العامة لحل المشكلة، وقياس تأثيرها، وذلك لتوفير البدائل اللازمة. للأسف، هذه الخطوة نادرًا ما تراعى أثناء التخطيط أو رسم سياسة جديدة؛ فلا يتم تقويم النتائج ومراجعتها إلا عندما يثيرها الرأي العام أو مجموعات مهتمة في صنع السياسات. وتجدر الإشارة هنا، إلى صعوبة اتخاذ مثل هذه التدابير وتحديد النتائج والآثار الفعلية للسياسة.

#### ملاحظة:

أما في الوطن العربي، الذي يواجه اليوم معضلة تموية الكلل يعيها، فلا بد من العمل على إقناع أصحاب القرار بأن الارتقاء بالحياة الثقافية للمواطن، بالمعنى الواسع، قد بات شرطاً أساسياً لتحقيق التنمية الشاملة. فالخطط التنموية لن تحقق أهدافها ما لم تأخذ في الحسبان، وبجدية تامة، العنصر الثقافي. ولن تعطي تلك الخطط نتائجها المرجوة ما لم تُرسم وتنفذ بصيغة متكاملة، متجاوزة الخصوصيات التقليدية المتعارف عليها بين القطاعات المختلفة في مجالات التنمية.

#### الصعوبات والتحديات المواجهة

إن ضمان نجاح أي عمل تخطيطي لا يتوقف عند الإلمام بالخطوات الأساسية التي يتوجب توفرها وتحقيقها، بل يتحتم أيضاً معرفة العوائق والصعوبات أو التحديات التي يمكن أن تعيق تحقيق العمل، إن لم يتم تداركها ومعالجتها. وربما كان من أهم هذه

الصعوبات التي قد تواجهه وتعيق عمل السياسات الثقافية ما يلي:

### أولاً: عامل التشريع

لقد ساهم الاهتمام الذي أعطي للثقافة في مجال التنمية - إذ أضحت حقاً من حقوق الإنسان - في سنّ القوانين والتشريعات التي تحفظ هذا الحقّ وتدافع عنه وتنظم عمله. ويشكل التشريع في مجال الشؤون الثقافية أهميّة بالغة، ويدخل ضمن نطاق مراحل النضج الفكريّ والتشريعيّ للدولة. فهو يجمع بين القيم الاجتماعية والروحية والفنية وبين المصالح الاقتصادية وبين تقدير مثل الجمال والخير والحقّ. وهنا تجدر الإشارة إلى وجود ثلاثة أنواع من التشريع تحتاج إليها التنمية الثقافية<sup>(١٦)</sup>:

- التشريعات الوقائية: مهمتها الدفاع عن عناصر الهوية الثقافية كحماية الآثار والوثائق، وتسجيل الفنون والتراث الشعبي، وحماية حقوق المبدعين والمؤلفين، واللغة، الخ..

- التشريعات التشجيعية: تهدف إلى تنشيط الحركة الثقافية وإنشاء مجالس بحث ثقافيّ للرصد والتخطيط والمراقبة، ونشر الإنتاج الثقافيّ وتوزيعه، الخ..

- التشريعات الدفاعية: مهمتها إزالة العوائق في وجه التدفق الثقافيّ وسهولة الإنتاج الثقافيّ.

أمّا الغاية الأساسية لهذه التشريعات فتتحدّد بإبراز الدور الذي يمكن أن تقوم به الثقافة في التنمية الشاملة للمجتمع، الأمر الذي يدعو إلى إعادة النظر في التشريعات القائمة بقصد تمييز الأثر الثقافيّ الذي تنتجه المجتمعات ككلّ، والذي يشكل هويّتها المتميّزة؛ كما الإنتاج الثقافيّ بتلاوينه المختلفة (فنيّة، أدبيّة، الخ..). وذلك بهدف حمايته وتشجيعه وإعفائه من الضرائب والرسوم والتخفيف منها إلى أدنى درجة.

### ثانياً: عامل التمويل

تقوم السياسة الثقافية على التفكير المنظمّ الذي يوجه الأنشطة والمشروعات التي تقوم بها أو ترعاها أجهزة الدولة في ميادين العمل الثقافيّ لبلوغ الأهداف المرتبطة بالاحتياجات الثقافية، والتي يتطلّع المجتمع والأفراد، كما رأينا، إلى تحقيقها في ضوء

الظروف والامكانيات المتوفرة. تشكل مسألة تمويل المشاريع والبرامج الثقافية، ضمن هذا الإطار، أحد الأسس التي تعتمد عليها أية سياسة ثقافية حديثة. (١٧) وعليه، يشكل عامل التمويل ركناً أساسياً في أي خطة تنموية ولا سيما التنمية الثقافية البعيدة المردود التي تعدّ عنصراً أساسياً في الدورة الاقتصادية وفي تطوّر المجتمع وفي بلورة هويته الحضارية. (١٨) وما عاد يقتصر تمويل الثقافة على فئة محدّدة، بل أصبح يضمّ مختلف أوجه النشاط الثقافي والفنيّ، ما أدى إلى اتّساع العمليّة التمويليّة بحيث أصبحت تتطلّب نوعاً من الإدارة الاقتصادية للثقافة. وهنا يمكن الإشارة إلى طريقتين أساسيتين يتمّ التمويل الثقافيّ بهما<sup>(١٩)</sup>:

الطريقة الأولى، تتبعها الدول ذات الاقتصاد الموجه التي تجعل القضية الثقافية كلّها في يد الدولة وتتولّى تمويل الثقافة، وإدارتها تصل إلى درجة جعل الفنان المبدع موظّفاً في أجهزة الدولة. (٢٠)

الطريقة الثانية، فتتبعها الدول ذات الاقتصاد الحر، وتقوم بتمويل بعض النشاطات الثقافية كالمتاحف والمعارض والمسارح والمكتبات العامّة. وهنا يشكل القطاع الخاص رافداً هاماً في المجتمعات الليبرالية حيث يقوم بدعم النشاطات الثقافية وتمويلها. (٢١)

تجدر الإشارة هنا، إلى أنّ هاتين الطريقتين السابق ذكرهما في تنمية الثقافة ودعم منتجها، لا يلغيان اهتمام السياسات الثقافية بكلّ ما يساهم في بلورة الهوية الحضارية وبالتالي في دعم السياحة الثقافية التي تشكل اليوم رافعة أساسية للتنمية بشتّى أشكالها، وذلك من خلال القيام بكلّ ما يحمي الأثر الثقافيّ الذي يميّز المجتمعات بعضها عن بعض.

(١٧) موضوع التمويل في الحقيقة ليس مجرد أداة تقنية ترجمه في الآليات والأساليب الماليّة التي يمكن العمل بها معزول عن التأثيرات الداخلية والخارجية التي قد تنعكس على أي سياسة ثقافية. بل إن الاختيارات في مجال التمويل، رغم اعتمادها أحياناً على بعض المعايير الاقتصادية كالجديوى والنجاعة والمردودية، إلا أنّها في الحقيقة تستند إلى اعتبارات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، وهذا ما يجعلها محل اهتمام أطراف متعدّدة. أي أنّها تتطلب تدخّل الخيرات القانونية والإدارية والمالية وغيرها.

(١٨) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ تمويل الثقافة ارتبط تاريخياً برعاية الآداب والفنون التي كان يقوم بها عادة الأمراء والحكّام الذين كانوا في الغالب، يستخدمونه كأداة من أدوات السلطة السياسيّة. وكانت هذه الرعاية موجّهة في معظم الحالات إلى ثقافة النخبة. أمّا الأبداء الثقافي العام، من رقص وغناء شعبيّ وأعياد جماعيّة، فكان متروكاً لقدرات الجماعات. لكن تطوّر المجتمعات العصرية فرض أسلوباً جديداً في تمويل الثقافة الذي أصبح حقاً من الحقوق العامّة، وما عاد خاصاً برعاية الآداب والفنون، بل يشمل المجال الثقافيّ بكامله.

(١٩) PONTONZEAU Pierre Antoine, 1992: La Communication Culturelle. Paris: Armand Colin. P. 52. (٢٠) رغم أنّها قد تستخدم الثقافة لهدف سياسي، وقد لا تنشر إلا ما يروق لها، ولكنّها، من جهة أخرى، تفتح المجال أمام جماهيرها للاستفادة من الإنتاج الثقافيّ.

(٢١) يتيح هذا النوع من التمويل جانباً واسعاً من الحرّيّة فسمح المجال للمبدعين للتعبير عن طاقاتهم وقدراتهم الإبداعية ورغم هذه المزايا إلا أنّه قد يضع الثقافة تحت وطأة الطبقات الاجتماعية المسيطرة، لا سيما وأنّ بعض الدول لا تعبر الثقافة الجماهيرية اهتماماً.

### ثالثاً: إنشاء المراصد الثقافية

للتحدّث عن تنمية حقيقية لا بدّ من الإضاءة على أهميّة إنشاء المراصد الثقافية التي تشكّل اليوم جزءاً أساسياً وحيويّاً من العمليّة التنمويّة. فالمرصد الثقافيّ يشكّل مركزاً بحثياً متقدّماً ومتخصّصاً، تتراكم التجارب والأبحاث فيه لتشكّل بنكاً من المعلومات حول الثقافة الموروثة والمعاشة. وتبرز أهميته في تقديم المقاربات حول المشترك والمختلف على المستويين المحليّ والدوليّ. فدور المراصد في مجال السياسات التنمويّة يساهم في تعزيز الأطر القانونيّة والمؤسّسيّة وفي توفير الخلفيّة التي تساهم في رسم السياسات الثقافيّة وفي متابعة سيرورتها لتصويبها في سيرة حراكها التنمويّ المستدام من خلال تعزيز ودعم المعرفة والقدرات لصانعي القرار والمعيّن في المجال الثقافيّ بهدف رسم السياسات العامّة وتطويرها.

### ملاحظة

الكلّ يعرف أنّ من أهمّ أهداف المرصد، إضافة إلى كونه مركز بيانات، هو التنسيق والتشبيك مع مؤسّسات المجتمع الأهليّ، أو كما يحلوّ تسميتها اليوم، بإسقاط غربيّ، بمؤسّسات المجتمع المدنيّ، والمؤسّسات الرسمية، على كافة الصعد محليّاً وخارجيّاً (أي داخليّاً ودوليّاً)، وذلك من أجل تبادل الخبرات والباحثين بغية تطوير المعارف والأدوات المنهجية والبحثية. إلا أن واقع مجتمعاتنا ما زال بعيداً كل البعد عن أساسيات التنمية الثقافيّة. فالقدرة على تنفيذ سياسات ثقافيّة ملائمة ما زالت محدودة، إن لم نقل، بشكل أصدق، غير متوفّرة، وذلك لعدم وجود كلّ ما تمّت الإشارة إليه سابقاً من تشريعات ومصادر تمويل وأدوات منهجيّة تمكّن من تفعيل عمل القطاع الثقافيّ. فوجود المراصد الثقافيّة، تحديداً، التي تتولّى مهمّة رصد وصيانة وتحليل المعطيات الثقافيّة تشكّل الركيزة الأساس للعمل التنمويّ عمومّاً ورسم السياسات الثقافيّة خصوصاً.

### رابعاً: أصحاب الاختصاص

من أهمّيّات رسم السياسات التنمويّة، توفّر أصحاب الاختصاص وهو أمر يشكّل التحديّ الرابع في إنجاح رسم السياسات التنمويّة. فهؤلاء هم القادرون على تشغيل الإدارة الثقافيّة وضمان تنميتها وتطويرها وفق خصوصيّة ثقافة مجتمعاتهم. إنّ هذا الأمر، بات يشغل اهتمام المثقّفين اليوم الذين يتطلّعون إلى تبنّي التخطيط العلميّ والبرمجة الدقيقة

وفق منهج النظام التشاركيّ *Approche Participative* القائم على إشراك المواطن في عملية التخطيط الاستراتيجيّ عمومًا بهدف حثّه على تبني وتفعيل تنفيذ السياسات الثقافية التي شارك في رسمها.

وفي حين اعتبرت الديمقراطية الثقافية أساسية لوضع سياسات ثقافية فعّالة، فإنّ اللامركزية قد اعتبرت، هي أيضًا، أساسية لضمان نجاح السياسات الثقافية على المستوى الوطنيّ كما على المستوى المناطقيّ. وغدا تقسيم المؤسسات الثقافية إلى إدارات ووحدات تعتمد اللامركزية في بنائها وفق تسلسل هرميّ من أعلى إلى أسفل، هو أمر مألوف في العديد من البلدان عمومًا، والعربية ضمنها.

أمّا الشكل الذي تمّ اقتراحه لتفعيل الإدارة الثقافية، فتمّ بناؤه على النحو التالي:

- وحدات عمل تشمل البحوث والدراسات والتخطيط.
- وحدات الإدارة والتمويل، والتنسيق والتنظيم بين القطاعات والمراكز.
- وحدات التنفيذ والنشر الثقافيّ والمراقبة.

تقوم هذه الوحدات، بمهمة الربط بين وحدات العمل الثقافيّ وبين السلطات العامة في كلّ بلد. يشترك فيها الاختصاصيون والمبدعون وممثّلو المؤسسات الثقافية مع ممثلي المستفيدين (الجمهور). وتضطلع هذه المجالس بمهمة توجيه السياسات الثقافية، بما يتفق مع الغايات الكبرى والأهداف الثقافية للمجتمع المعنيّ، كما ومهمة البحث عن مصادر التمويل، وإعداد الخطط للعمل الثقافيّ، والتنسيق بين مختلف النشاطات وتنظيم الأولويات. إن هذه الأهداف لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الاعتماد على الإدارة الحديثة والبرمجة الآلية، ونقل الرسائل الثقافية إلى الجماهير الواسعة والوصول بها إلى التنظيم الثقافيّ التربويّ الدقيق. (٢٢)

### نماذج لدول تطبّق السياسات الثقافية

من خلال المطالعات التي أجريت لإعداد هذا البحث حول بعض التجارب (٢٣) الغربية والعربية للسياسات الثقافية، تمّت ملاحظة أنّ تحليل الاستراتيجية الثقافية للدول المتقدمة، عمومًا، يظهر أن قطاع الثقافة قد أضحى فعليًا رافدًا للتنمية، ومدرجًا في

BENHAMOU François, 1998: L'économie de la culture. Alger: Casbah éd., P 92. (٢٢)

(٢٣) نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر، على صعيد التجارب الغربية: الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا وبريطانيا؛ أمّا على صعيد التجارب العربية: التونسية، المصرية والجزائرية.



مخططات المسؤولين والمعنيين بوضع البرامج التنموية. كذلك، تبين أنّ السلطات المحليّة للمدن غالباً ما تنطلق في وضع استراتيجيّتها الثقافية من الأثر الاقتصادي والاجتماعي عوضاً عن الهاجس الثقافي المحض المبني على أساس مبدأ «الثقافة من أجل الثقافة»، بمعنى أن أولويّات السياسات الثقافية لا بدّ من أن تأخذ في الاعتبار الخصوصيات المجتمعية التي تهدف إلى تنميتها.

وفي الانتقال لمتابعة نماذج تطبيق السياسات الثقافية في العالم، نجد أنه لا يوجد، حتى اليوم، نموذج مثاليّ متقدّم عن غيره. وهذا أمر يغني التجارب الإنسانيّة في العمل التنمويّ.

توجد في المجتمع الغربيّ، على سبيل المثال، ثلاثة نماذج رئيسة لرسم السياسات الثقافية، هي:

أولاً: نموذج الدولة البانية *l'État architecte* (٢٤)

هذا النموذج تتبناه فرنسا، وهو نموذج أوروبيّ يستند إلى رؤية مركزية للدولة التي تميل إلى التدخل في رسم سياساتها التنموية عموماً كما الثقافية.

ثانياً: نموذج الدولة الراعية والممولة *l'État mécène* (٢٥)

هذا النموذج تتبّعه إنكلترا وهو يعرف بالنموذج الأقلّ تدخلاً، إذ يوكل إلى المؤسّسات أو المنظّمات غير الحكوميّة دعم الفنون والثقافة.

ثالثاً: نموذج الدولة الميسّرة *l'État facilitateur* (٢٦)

وهو النموذج الذي تعتمده الولايات المتّحدة الأميركيّة، والذي يصنف بأنّه الأقلّ ميلاً إلى التدخل العموميّ المباشر في الثقافة. هذا النموذج يسمح للمواطن باختيار الاستثمار الثقافيّ الذي يريد على المستوى المحليّ.

أمّا بالنسبة إلى الواقع العربيّ، فرغم الاهتمام الوطنيّ بالبعد الثقافيّ في التنمية، مع منتصف القرن العشرين، والذي توجّج بإبرام معاهدة ثقافية بين الدول العربيّة عام ١٩٤٥

(٢٤) للتوسّع في هذا النموذج يمكن العودة إلى الموقع الإلكتروني التالي: [www.culture.gouv.fr/dep](http://www.culture.gouv.fr/dep)

(٢٥) للتوسّع في هذا النموذج يمكن العودة إلى الموقع الإلكتروني التالي: <http://www.culturalpolicies.net>

(٢٦) للتوسّع في هذا النموذج يمكن العودة إلى الموقع الإلكتروني التالي: <http://www.nea.gov>

والمصادقة على ميثاق الوحدة الثقافية العربية عام ١٩٦٤، ورغم ما أكدته العديد من المؤتمرات والندوات بعد ذلك، وصولاً إلى الإعلان عن العقد العربي للتنمية الثقافية (٢٠٠٥-٢٠١٤)، لم يتمّ ردم الهوة الشاسعة بين الطموح والانجاز في المجال الثقافي في الوطن العربي. وما تحقق لم يرق إلى مستوى تطلّعات الشعوب العربية. فنشأة الوزارات الثقافية، بعبارة أخرى، في معظم الأقطار العربية، وتخصيص الاعتمادات المالية لها في الميزانيات السنوية ساهمت وساعدت من دون شك على نموّها في ميادين عديدة، رغم ذلك، لم يصل الأمر إلى مستوى يمكن التنمية الثقافية من مواكبة التنمية الاقتصادية أو الصناعية أو الزراعية. فالسياسات الثقافية العربية، التي تركز على الرؤية الثقافية الشاملة، بقيت غائبة بوجه عام، كما بقيت الجهود متواضعة، تفتقر إلى وجود صيغ علمية منتظمة، خصوصاً لأنها ما زالت تهمل اعتماد البعد الثقافي في عملية التنمية. فهي ما زالت تعتبر أنّ القطاع الثقافي لا يمثل أولوية نمووية<sup>(٢٧)</sup>، وهي ما زالت تخلط حتى الآن بين مفهوم التربية ومفهوم الثقافة.

هذا الواقع العربي في التعاطي مع السياسات الثقافية، تعمّقه الضغوطات الخارجية، التي تشكّل عوائق وتحديات تواجهها الدول العربية في هذا السياق. فالجهات الدولية المانحة، كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرهما، هي التي باتت تفرض إملاءاتها الداعية إلى الأخذ ببرامج التكيف وإلى تحرير الاقتصاد والتجارة من دون مراعاة الاحتياجات الفعلية للتنمية المحلية في الدول العربية. الأمر الذي ترتّب عنه تراجع دور الدولة، الذي تمّ حصره في التدخل في الفضاء الاقتصادي الذي يتوافق أكثر مع منطق العولمة لا التنمية. لا شك في أنّ هذا الواقع لا يلغي مسؤولية الدول العربية بمجملها في تقاعسها عن التفكير باحتياجاتها النموية الفعلية خصوصاً لأنها ما زالت بعيدة كل البعد عن فكر التخطيط الاستراتيجي وبالتالي هي بعيدة كل البعد عن منطق تطبيق السياسات النموية في بلادها.

(٢٧) تجدر الإشارة هنا إلى الصعوبات الموروثة عن العهد الاستعماري التي أدت بالسلطات إلى إعطاء الأولوية للقطاعات المنتجة للحاجات المادّية على حساب الثقافة. كما أدى إلى التضحية بمسألتي الديمقراطية وحقوق الإنسان في سبيل التشديد الاقتصادي الذي صرف الاهتمام عن المسائل الثقافية. ولطالما ارتبط العمل الثقافي في هذه الدول بالاهتمامات الآتية، وغلب عليه طابع التنشيط، وعدم ملامة الإنتاج الثقافي عموماً لاهتمامات الجمهور.

## نموذج محلي (٢٨)

لا شك في أن هناك خبرات محلية واعية لأهمية تطبيق السياسات الاستراتيجية، لكن كما نعلم هذه الخبرات لا تكفي إذا كان هناك غياب للقرار السياسي. هذا الواقع قد تمّ تلمّسه بشكل عمليّ في تجربة محلية بنيت على أساس تعاوني بين هيئة محلية ممثّلت باتحاد بلديات الفيحاء، وبين هيئات دولية مانحة عديدة كبرنامج اتحاد المدن CITIES ALLIANCES، والبنك الدوليّ WORLD BANK، وشبكة المدن المتوسطة MED CITIES NETWORK، ومدينة مارسيليا CITY of MARSEILLE، وبلدية برشلونة MUNICIPALITY of BARCELONA، وبرنامج الأمم المتّحدة للمستوطنات البشرية UN\_HABITAT، والوكالة الفرنسية للتنمية AFD، ومنظمة الأمم المتّحدة للبيئة UNEP.

كان هدف هذه التجربة الأساس وضع استراتيجيّة تنمية مستدامة لمدن الفيحاء من خلال التركيز على تفعيل التحسينات في ثلاث فئات ذات صلة مباشرة بعضها ببعض: أساليب الحكم والإدارة الحضريّة؛ النموّ الاقتصاديّ المحليّ؛ تخفيف حدّة الفقر. وعليه، تمّ تحديد تسعة قطاعات للمعالجة هي: القطاع الاقتصاديّ، السياحي، النقل، المجال العمرانيّ، البيئيّ، اللوجستيّ، التنمية المدينيّة، الفقر والحاكميّة مع إغفال للبعد الثقافيّ.

## سيرورة بناء التجربة

لفهم هذه التجربة، لا بدّ أولاً من إعطاء لمحة عن واقع مدن الفيحاء وعن كيفية تعاطيها مع مشروعها التنمويّ بدعم من الدول المانحة. يتشكل اتحاد مدن الفيحاء من بلديات المدن الثلاث: طرابلس، والميناء والبدواوي.

(٢٨) إنّ هذه التجربة التي سنعرضها ناتجة عن تجربة واقعية خبرتها بنفسي، كاستشاري محليّ، للفترة ما بين ٢٠٠٨ و ٢٠١١ وهي المدة التي استغرقها وضع «الخطة الاستراتيجية لتنمية المستدامة لمدن الفيحاء». فقد تمّ حفل الإطلاق لهذه الخطة في صيف ٢٠٠٨ وانتهت في العام ٢٠١١. أمّا الخبراء المحليون الذين تشاركت وإياهم في وضع هذه الخطة فيهم: د. مها كيال، د. مصباح رجب، المهندس رامي سمعان، والأستاذ فواز حامدي، ولقد عملنا جميعاً، بإدارة مدير اتحاد بلديات الفيحاء، المهندس عبد الله عبد الوهاب، وكان لفرص البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء، بمشاركة المهندسة ديمة حمصي رئيس الجوائز الفعّية والمهندسيّ والصحّيّ بالإناثة في اتحاد بلديات الفيحاء، والمنسّق التقنيّ في مركز رصد البيئة والتنمية، وكلّ فريق عمل المرصد، دور كبير في رفد الاستراتيجية في المعلومات وفي الأمور التنظيميّة التي امتدّت على مدار الثلاث سنوات. ولقد أطلق العمل في هذه الاستراتيجية، خلال ولاية المهندس رشيد جماليّ وترؤسه اتحاد بلديات الفيحاء، وانتهى العمل فيها خلال رئاسة الدكتور نادر غزال للاتحاد، والكل يعرف طبعاً دور القرار السياسيّ المحليّ ودعمه في إنجاح هذا العمل. كما كان لرئيسي بلديتي الميناء: الأستاذ عبد القادر علم الدين ومن بعده الدكتور محمد عيسى، ولرئيس بلدية البدواوي الأستاذ ماجد غفراوي دور كبير في تفعيل العمل الاستراتيجي خلال تولّيهم رئاسة المجلس البلدي. لن أدخل هنا في تعداد أسماء الخبراء الدوليينّ جميعهم وهم كثر أيضاً مثلوا مؤسساتهم المشاركة وقدموا الكثير من الدعم اللوجستيّ والخبراتيّ، عدا طبعاً الدعم الماليّ لتحقيق هذا العمل الرائع على المستوى اللبانيّ.

وتمتدّ على مساحة ٣٠ كلم<sup>٢</sup> من محافظة لبنان الشمالي، بمحاذاة شاطئ البحر المتوسط. يبلغ عدد سكّانه اليوم ما يقارب الـ ٣٤٩ ألف نسمة، موزّعين وفق النسب التالية: ٧٢٪ في طرابلس، ١٧٪ في الميناء، و ١١٪ في البداوي.<sup>(٢٩)</sup>

شكّلت قدرات مدن الفيحاء وإمكانيّاتها والتحدّيات التي تواجهها الخلفيّة التي انطلقت من خلالها في طلب إعداد خطة استراتيجية للتنمية المستدامة لمدنها الثلاث. وبناءً عليه، تشكّل الفريق البحثي لبناء الاستراتيجية من خبراء محليّين ودوليين للاستفادة من تجاربهم وخبراتهم في الحقل التنمويّ ولوضع خطة عمل لتحقيق نموّ عادل في المدن، بغية تحسين مستوى جودة الحياة لكلّ المواطنين فيها. وهكذا، بدأ العمل في وضع هذه الخطة في العام ٢٠٠٨ والتي بنيت على أساس الركائز الثلاث التالية:

- المجال الاقتصاديّ الهادف إلى تعزيز النموّ الاقتصاديّ لمدن الفيحاء والتشجيع على الاستثمار فيها.
- المجال البيئيّ والإطار المعيشيّ من خلال المشاركة في مكافحة الفقر وإيجاد فرص العمل.
- المجال المدنيّ المتمحور حول بناء التجهيزات المتلائمة وحاجات السكان.

### المراحل الأساسية في الخطة الاستراتيجية

اعتمدت هذه الاستراتيجية على المنهج التشاركيّ<sup>(٣٠)</sup> والعلميّ الذي ثبتت فعاليّته في العديد من البلدان التي طبّقت استراتيجيات مماثلة والتي ارتكزت على المراحل التالية:

#### مرحلة المسح وإبراز الواقع الراهن

وتعرف أيضًا بمرحلة التشخيص الأوّليّ بحسب القطاعات السابق ذكرها (الاقتصاديّ - السياحيّ - النقل - العمرانيّ - البيئيّ - اللوجستيّ - المدنيّ - الفقر - الحاكميّة).

AL FAYHAA 2020, 2011: AL FAYHAA Sustainable Development Strategy. Final consolidation report; vTripoli: (٢٩) Union of Municipalities of Al Fayhaa. P. v

(٣٠) تعتبر الاستراتيجية التشاركية تجربة هامة على صعيد إثراك المواطن بفهم السياسات التنموية وفي المشاركة في التخطيط مع المسؤولين خصوصاً وأنه هو أيضاً مسؤول وصاحب رؤية ومعارف لا بد من الاستفادة منها. وهنا تجدر الإشارة إلى أن تجربة "الفيحاء" كانت واعدة، فرغم المساحة الكبيرة التي أعطيت للمشاركة إلا أنه كان من الممكن أن نفعل أكثر هذا التشارك من خلال تدريب المواطن وتنمية قدراته التشاركية في البناء التنمويّ. من الضروريّ أن نذكر هنا بأن هذه الخطة الاستراتيجية لمدن الفيحاء ٢٠٢٠ قد أتت في صياغتها على منهجية العمل التشاركيّ، ولهذا تمّ عقد حوالي العشرين جلسة على مدار مراحل وضع الخطة، شارك فيها حوالي الخمس مئة خبير وممثل لهيئات المجتمع المدنيّ والمؤسسات العامة الفاعلة على المستوى المحليّ والوطنيّ، وكانت هذه المشاركة تجربة رائدة في العمل التشاركيّ التنمويّ المحليّ، ولها دور كبير في بناء الخطة الاستراتيجية.

### مرحلة التشخيص

في هذه المرحلة تمّ التوصل إلى تحديد خمسة مفاتيح – محاور تقاطعية Transversal Keys – Issues تضمّنت الخلاصات العائدة إلى كلّ من القطاعات السابقة. وقد وضع تشخيص لهذه المحاور الأساسية. كما تمّت، في هذه المرحلة أيضاً، مراعاة التقارير الدوليّة التي أنجرت بواسطة الخبراء الدوليين للأخذ بمعطياتها ضمن إطار تبادل الخبرات. تجدر الإشارة هنا إلى مدى أهميّة إشراك الخبرات المحليّة التي تميّز، في الغالب، بمعرفتها للواقع المحليّ، من دون إنكار مدى أهميّة التعاطي مع الخبرات الغربيّة منهجياً. فلقد سمح هذا النمط من العمل التشاركيّ المحليّ والدوليّ، لرؤية خارجيّة تساعد على بناء دراسات موضوعيّة للمشاريع التنمويّة، بعيدة عن رؤية الذات للذات.

### الإطار الاستراتيجيّ للتنمية

تمّ خلاله التوصل إلى رسم صورة أوليّة لمدن الفيحاء، كما تمّت صياغة الرؤية ووضعت آليّة تحقيقها بما يعرف بالرسالة (Vision & Mission Statements). ولقد رافقت هذه المرحلة عمليّة الاطلاع على تجارب استراتيجيات مدن أخرى. فرغم أنّ لكلّ مجال مدينيّ خصوصيّة التاريخيّة والبنويّة والسياسيّة، إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه هو أنّ لتجارب الآخرين مردوداً كبيراً في بناء الرؤية الاستراتيجيةّ لمدننا. فالتلاقح الفكريّ بين الخبرات والتجارب لا بدّ من أن يغني الرؤية، ويغني بالتالي تجارب كلّ منا. هذا مع الاحتفاظ بوعينا أنّ لكلّ مجال خصوصياته، ومع وعينا أيضاً أنّ ما يتوافق تطبيقه في مجتمع ليس بالضرورة أن يعطي ثماراً في مجتمع آخر.

### خطّة العمل

استهلّت هذه المرحلة بتحديد خمسة مسارات استراتيجيةّ Strategic Line جديدة، تمّت دراستها بشكل مفصّل ومعتمّق، وكانت خطوطاً رئيسة أمكن العمل تحتها لتحديد المشاريع القادرة على تطوير المدينة نحو: وضع إدارة متكاملة للأراضي وتعزيز المجال المدينيّ؛ تعزيز القدرة التنافسيّة لمدن الفيحاء من خلال دعم القطاعات الاقتصاديّة وتطوير البنية التحتيّة والمرافق؛ تعزيز التنمية الاجتماعيّة؛ تنمية الاقتصاد على أساس القدرة التنافسيّة وبناء الكفاءات وإيجاد فرص العمل؛ وصولاً إلى تحسين صورة مدن الفيحاء من خلال خلق ديناميّة ثقافيّة.

وهنا، لا بدّ من تبيان أن هذه الخطة بمراحلها المذكورة لم يكن بالإمكان تنفيذها لولا وجود المرصد البيئي الاجتماعي التنموي في الاتحاد، ولولا وجود رؤية متطورة لمسؤولي الاتحاد ووعيهم أهمية البناء التنموي الاستراتيجي، ولولا تعاون الدول المانحة التي خبرت من تجاربها السابقة أهمية إشراك المجتمع المحلي في بناء استراتيجيات التنمية في مدنهم وفق منهج التنمية التشاركية.

### بروز أهمية البعد الثقافي في خطة تنمية مدن الفيحاء

العامل الثقافي كان غائباً، كما العادة، في ركائز الخطة الاستراتيجية. لكنّ العمل التشاركي، الذي اعتمد في منهجية التخطيط الاستراتيجي للتنمية المستدامة، أظهر الحاجة الملحة إلى هذا البعد على كلّ الصعد؛ إذ لا يمكن تنمية القطاع الاقتصادي أو الاجتماعي أو البيئي أو الحراكي في المدن من دون العمل بشكل حثيث على تغيير الكثير من المفاهيم والقيم والعادات الثقافية التي تقف كحاجز أساس أمام الحراك التنموي.

إنّ هذا الوعي هو الذي أدى إلى استحداث الركيزة الرابعة من ركائز استراتيجية تنمية مدن الفيحاء. كما أنّ أهمية إدخال هذا البعد قد أغنى المشاريع الاستراتيجية التي تمّ تحديدها في خطة العمل التي وضعها الخبراء والتي وافق عليها أيضاً بشكل واع الخبراء الغربيون. وهنا لا بدّ من التذكير، بأنّ الاستدامة، هي مسار طويل الأمد خصوصاً في جوّ البلد الذي نعيش فيه (نظراً للتراكمات السلبية التي تعود لعقود مضت). وما مشروع «الفيحاء ٢٠٢٠» إلا جزء من مسار زمنيّ يوّدي إلى الوصول إلى استدامة التنمية في مدن الفيحاء. أمّا خطة العمل التي وضعها الخبراء المحليون، بإشراف الخبراء الدوليين، فيمكن توصيفها بالمرحلة الأولى، وهي تنتظر حالياً قراراً سياسياً لتنفيذها.

من أهمّ ركائز هذه الخطة أنّها أطلقت العنان لتجربة العمل التشاركي، هذه التجربة التي تفعل دور المواطن وتعمّق حسّ انتمائه المدنيّ.

إنّ هذه الحالة التي نعرضها لتجربة استراتيجية مدن الفيحاء، تؤكّد أنّ الخطط الاستراتيجية والسياسات الثقافية لا بدّ من أن تبنى على أسس الحاجات المحليّة. وإذا كنّا قد تعودنا إلقاء اللوم، على المؤسسات المانحة لإملاءاتها التي تتوافق وتطلّعاتها، فهذه التجربة تبيّن أنّ وجود فراغ في التفكير الاستراتيجي في بلادنا هو الذي يتسبّب في مثل هذه الإملاءات.

### المشاريع الثقافية في خطة «الفيحاء ٢٠٢٥»

تمّ ضمن خطة «الفيحاء ٢٠٢٥»، تحديد ٢٤ مشروعاً استراتيجياً، كما تمّ اعتماد معايير مختلفة للمشاريع التي تضمّنتها هذه الأخيرة. فكان لكلّ مشروع أبعاد متنوّعة: كالبعد المجاليّ - الاقتصاديّ - الاجتماعيّ - البيئيّ - السياحيّ والبعد الثقافيّ، الذي استحدث، كما ذكر سابقاً، في منهج تخطيط استراتيجية مدن الفيحاء؛ هذا البعد الذي سنلقي عليه الضوء بشكل أكبر في هذا البحث. خصوصاً وأنّه كان حاضراً في التخطيط للعديد من المشاريع المختارة وفق منطق العمل البيمنناهيّ (Interdisciplinarité).

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ البعد الثقافيّ في استراتيجية الفيحاء ٢٠٢٥ قد تداخل في تشكيل حوالي ١٦ مشروعاً، أي في تشكيل حوالي ثلثي المشاريع التي وضعت لمدن الفيحاء، وذلك سواء بشكل جوهريّ ومباشر، أو بشكل غير مباشر. ناهيك طبعاً عن مساندة هذا البعد في تشكيل المشاريع التي تعرف استراتيجياً بالمشاريع الضروريّة (nécessaires) والتي تعدّ البنى التحتيّة لإطلاق تنفيذ العمل بالمشاريع الاستراتيجية الأخرى في خطة التنمية المحليّة. سنستعرض، في ما يلي، المشاريع الاستراتيجية التي طالت البعد الثقافيّ في خطة الفيحاء وفق تصنيفين: الأوّل يعرض للمشاريع التي طالت البعد الثقافيّ بشكل مباشر؛ والثاني للمشاريع التي طالت البعد الثقافيّ بشكل غير مباشر.

#### ملاحظة

لا بدّ من التنويه بأنّ ما سيرد في هذه الدراسة من عرض للمشاريع التنمويّة سيكون على سبيل المثال لا الحصر، وسيركّز خلاله على البعد الثقافيّ فقط في المشروع التنمويّ المقترح.

## مشاريع ذات بعد ثقافي مباشر

عنوان المشروع	البعد الثقافي
ابتكار نشاطات مدنية (أجندة سنوية) للاحتفالات في مدن الفيحاء (١). مدن الموسيقى الكلاسيكية العربية، ٢. مدن الذواقة، ٣. مدن الحرف)	تفعيل النشاط في مدن الفيحاء، وتغيير صورتها وتسويقها سياحياً وثقافياً وحتى اقتصادياً على المستوى الوطني، الإقليمي والدولي، وذلك من خلال الارتكاز على خصوصيات الثقافة المحلية.
وضع هيكلية إدارية للأماكن المقترحة كمتاحف في الفيحاء.	حماية التراث المادي وغير المادي وتفعيله تنموياً.
وضع استراتيجية لإعادة إحياء وسط المدن والأحياء التاريخية.	إنقاذ التراث المحلي من الاندثار ومحاوله صيانتها، وإدراجه على لائحة التراث العالمي، كما تفعيل فعل الثقافة بين أبناء المدينة نفسها، بهدف التخفيف من حدة تمايزات المناطق المدنية.
إعداد هيكلية للاستفادة من تجهيزات الفيحاء الثقافية الرياضية لاستخدامها كمراكز لتمضية أوقات الفراغ.	إعداد الشباب خصوصاً الفئة المحرومة منهم لاكتشاف طاقاتهم الخلاقة والاستخدامها في تحسين مهاراتهم الاجتماعية والاقتصادية.
تنفيذ مسارات سياحية مع خدماتها.	إظهار وجه جديد للمدينة يبين عمق ثقافتها ويظهر صفة شعبها المضياف.

## مشاريع ذات بعد ثقافي غير مباشر

عنوان المشروع	البعد الثقافي
مشروع المساكن الاجتماعية	تحسين المجال المعيشي. إذ تسمح هذه البيوت للأسرة بالعيش في إطار صحي يساعدها بشكل غير مباشر على تغيير كبير في سلوكياتها الثقافية.
تنظيم القطاع الحرفي	تفعيل هذا القطاع الانتاجي في مدن الفيحاء وتفعيل الابداع، والسياحة الثقافية. كذلك التثقيف حول رسم سياسات تطوير هذه القطاعات وإيجاد أسواق جديدة لها من خلال التعاون مع غرفة الصناعة والتجارة.



عنوان المشروع	البعد الثقافي
مشروع ترتيب شواطئ مدن الفيحاء	تشكيل رافعة اجتماعية، اقتصادية وثقافية للسكان والنشاطات المختلفة.
مشروع المساحات الخضراء	تشكيل رافعة اجتماعية، بيئية وثقافية للسكان والنشاطات المختلفة.
إنشاء شبكة متكاملة لمحطات الباصات والمواقف، وإعادة تنظيم قطاع النقل العام ووقوف السيارات	تطوير الواقع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لوسط طرابلس، وتحسين نوعية الحيز العام من خلال تخصيص بعض المساحات في وسط طرابلس.
إعداد هيكليّة للاستفادة من تجهيزات الفيحاء الثقافية الرياضية لاستخدامها كمراكز لتمضية أوقات الفراغ	إعداد الشباب خصوصاً الفئة المحرومة منهم لاكتشاف طاقاتهم الخلاقة ولاستخدامها في تحسين مهاراتهم الاجتماعية والاقتصادية.
إعادة تأهيل محطة سكك الحديد في طرابلس وإعادة تشغيل الخط الذي يربط طرابلس بحمص	المحافظة على الإرث الثقافي والتراثي خلق فرص عمل مستدامة.

## خلاصة

حاولنا من خلال هذا البحث، إبراز أهميّة العنصر الثقافيّ في التنمية المحليّة. كما حاولنا التأكيد على أهميّة ودور أصحاب القرار في تحقيق التنمية المستدامة والشاملة. وبينّا مدى أهميّة التنبّه إلى البعد الثقافيّ في المشاريع التنمويّة. إنّ الخطط التنمويّة لا يمكن أن تتحقّق ما لم تأخذ بالحسبان العنصر الثقافيّ بجديّة تامّة. كذلك، لن تعطي النتائج المرجوة ما لم ترسم وتتفدّ بصيغة متكاملة. وهنا تأتي أهميّة الرصد الثقافيّ وأهميّة التنبّه للسياسات الثقافية التي تشكل الأرضيّة الأساس لكلّ سياسة تنمويّة.

لا بدّ من التمييز أخيراً ما بين «السياسة الثقافيّة» والأنشطة والمؤسّسات والهيئات التي تقوم بما تستطيعه في هذا المجال. فلا قيمة لتشريعات لا تقترن بروية ثقافية تحقّق الفعل

الثقافي الخلاق لا العمل الثقافي الروتيني، وتتيح إيصال الثقافة إلى المواطنين. فالثقافة هي حقّ لهم كحقّهم في أيّ حاجة معيشية أخرى. وهذا يتطلّب ميزاتٍ لتنمية ثقافية يضعها خبراء واختصاصيون، وينقّدها أيّ وزير قادر وأية مؤسّسات فاعلة ضمن هيكلية رسمية تجعل الثقافة خبزاً يومياً لجميع المواطنين. (٣١)

تظهر تجربة الفيحاء أنّ العمل التنموي لا بدّ من أن ينبع من حاجات وتفكير داخلي لأنّ كلّ مجتمع أدرى بحاجاته من غيره شرط أن تتوفّر العناصر التالية:

- القرار السياسي؛
- الكادرات الخبراتية الهامة وأعتقد أنّ الدول العربية غنيّة بها؛
- فكرة التنمية المستدامة؛
- فكرة العمل التشاركي؛
- فكرة العلاقة التفاعلية بين كلّ القطاعات المجتمعية أو بالأحرى كلّ التكوينات البنيوية للمجتمع والتي لا يمكن تطوير أيّ منها من دون الاهتمام بتطوير البنى الأخرى؛

- عدم إغفال دور الثقافة في التنمية ضمن قطاعات متعدّدة.  
هذا البحث سننهيّه بطرحنا التساؤلات الآتية والتي يمكنها أن تؤسّس لعمل بحثي

جديد:

- كيف يمكن تعميم أهميّة العمل وفق استراتيجيات التنمية الثقافية في مجتمعاتنا العربية عموماً، والبنائية ضمناً، على مستوى أصحاب القرار السياسي؟
- كيف يمكن نشر الوعي الثقافي في المجتمع المدني لحنّه على المطالبة بحقوقه التنموية عموماً والثقافية ضمناً؟

## الهـراجـع

- الخطة الشاملة للثقافة العربية؛ ١٩٩٠: تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة، ط. ٢.
- الفارسي؛ أم العز، ٢٠١١: مفهوم السياسات الثقافية، ﴿من﴾ ملتقى آفاق التنمية الثقافي، يناير.
- زغيب، هنري؛ ٢٠٠٩/١٢/٥: أين نحن من السياسة الثقافية؟، مقال. بيروت: صحيفة النهار.
- AL FAYHAA 2020. 2011: ALFAYHAA Sustainable Development Strategy. Final consolidation report, v.1 Tripoli: Union of Municipalities of Al Fayhaa,
- BENHAMOU, François. 1998; L'économie de la culture. Alger: Casbah éd.
- COLBERT, François: Les éléments des politiques culturelles [retrieved from]. www.managementculturel.com.
- DUSSAULT, Georges : Politique culturelle ou politique artistique? In Actes du Colloque Pouvoirs publics et politiques culturelles: enjeux nationaux.
- LESLIE, Pal. 2010: Beyond Policy Analysis: Public Issue Management in Tribulent times. 4th. ed. Toronto: Nelson Education.
- NURSE K. 2006: Culture as the Fourth Pillar of Sustainable Development, Paper prepared for the Commonwealth Secretariat, London, UK.
- PONTOIZEAU Pierre Antoine, 1992 ; La Communication Culturelle. Paris: Armand Colin.

## مواقع الكترونية

- [www.unesco.org](http://www.unesco.org)
- [www.culture.gouv.fr/dep](http://www.culture.gouv.fr/dep)
- <http://www.culturalpolicies.net>
- <http://www.nea.gov>



## المرصد الثقافيّ

### ودوره في مسار التخطيط الاستراتيجيّ

الدكتور مصباح رجب<sup>(١)</sup>

#### ملخص

تناول هذه الورقة موضوع رصد الواقع الاجتماعي والثقافيّ في الأحياء الفقيرة، وبشكل خاص في مدن الفيحاء (طرابلس، الميناء والبدوي). ولقد تمّ وضع هذا الموضوع في إطار أوسع في الفصل الأوّل شمل التحدّيات التي تواجهها المدن اليوم، لا سيّما مسألة التحضرّ وانتشار الفقر والعشوائيات، ودور المرصد الثقافيّ في مسار التخطيط الاستراتيجيّ. ولحاجة البحث، تمّ شرح مفهوم المرصد الحضريّ ومكانه في هذا المسار، معتبرين أنّ المرصد الثقافيّ هو في غالب الأحيان جزء من المرصد الحضريّ.

أمّا الفصل الثاني فتناول الواقع اللبنانيّ وموقع المرصد الحضريّ في ظلّ السياسات العامّة في لبنان اليوم، وتجربة المراصد الحضريّة التي أنشئت في لبنان في العقدين الماضيين، وأسباب استمرارية عمل مركز رصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء.

وتناول الفصل الثالث تجربة مشروع خطة التنمية الاستراتيجيةّ لمدينة الفيحاء ودور مركز رصد البيئة والتنمية الذي شكّل مرجعاً فعلياً في مسار دراسة هذا المشروع. ولقد تمّت الإضاءة في هذا الفصل على أهميّة رصد الواقع الثقافيّ للعائلات الفقيرة تمهيداً لرسم سياسات ملائمة تعيد بناء الإنسان لجعله مواطناً.

(١) الدكتور مصباح رجب: معمار ومخطّط مدن، أستاذ في الجامعة اللبنانية. حالياً رئيس قسم التنظيم المدنيّ، ومنتسب لجنة معهد الفنون في المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. عضو الفريق الاستشاريّ لمشروع خطة التنمية الاستراتيجيةّ لمدينة الفيحاء.  
mousbah.rajab@gmail.com

في الخلاصة، أكدت الورقة على أنّ نجاح عمل المرصد الحضريّ (أو الثقافيّ) تعتمد على جملة من الشروط التي، إن لم تتوفر، لا يمكن ضمانتها استدامة عمل هذا المرصد والاستفادة منه.

## مقدّمة

توالت في العقدين الماضيين المؤتمرات الدولية تحت مظلة الأمم المتحدة باحثة عن منهجيات جديدة لمواجهة انتشار الفقر المدقع في شتى أنحاء العالم. فمن مؤتمر قمة الأرض في ريو عام ١٩٩٢ إلى مؤتمرات الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية في اسطنبول، تطوّرت سياسات الدول المتقدّمة والنامية والصاعدة لتفتح المجال أمام مشاريع التعاون الدوليّ ونقل المعرفة والتجارب الناجحة من دول الشمال إلى دول الجنوب. ومن ضمن المنهجيات والأدوات التي استفادت منها مدن الجنوب تأتي مشاريع التخطيط الاستراتيجيّ والمرصد الحضريّ في الصدارة. ولقد شكّلت المراصد موضوعاً خصباً للعديد من المؤسسات والمنظّمات العربيّة والدوليّة في السنوات الماضية، وصدر العديد من الكتب والتقارير والنشرات عن أهميّة هذه المراصد وعن التجارب الأولى لها في الوطن العربيّ.<sup>(٢)</sup> تجدر الإشارة هنا إلى أنّ المراصد وجدت في أوروبا منذ أكثر من ثلاثين سنة تحت أشكال ووظائف مختلفة، وتطوّرت الحاجة إليها تدريجياً في ما بعد.

في لبنان، لعلّ المرصد الأوّل المعروف هو «المرصد الحضريّ للشرق الأدنى» المرتبط اليوم بالمعهد الفرنسيّ للشرق الأدنى. ولقد تأسّس هذا المرصد الحضريّ بين ١٩٩١ و١٩٩٢ في بيروت مع إطلاق مشروع إعادة إعمار وسط بيروت، وأصبح مركزاً للأبحاث في العام ١٩٩٣.<sup>(٣)</sup> بدأت تظهر من بعده مراصد أخرى ابتداءً من العام ٢٠٠٠، سوف نتناولها في النصّ.

يأتي اليوم مؤتمر «المرصد الثقافيّ وسياسات المتاحف» ليفتح المجال للإضاءة على التجربة اللبنانية وتطوّرها، وإبراز الحاجات الجديدة للمراصد الثقافيّة بشكل خاص. في هذه الورقة، وكما يظهر عنوانها، نتناول دور المرصد الثقافيّ في مسار التخطيط الاستراتيجيّ. ونلقي الضوء على مشروع خطة التنمية الاستراتيجيةّ لمدينة الفيحاء

(٢) انظر إلى تقرير منظمة الإسكوا الصادر بعد اجتماع الخبراء في شهر تشرين الثاني ٢٠٠٨ تحت عنوان «نحو الإنصاف في السياسات الاجتماعيّة الحضريّة: الدليل الاجتماعيّ للمراصد الحضريّة».

(٣) [www.ifporient.org/node/288](http://www.ifporient.org/node/288)

(طرابلس، الميناء، البداوي) وكيف تمّ الاعتماد على مركز رصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء، وكيف يمكن الاعتماد على مرصد للثقافة في عملية تنفيذ المشاريع التي حدّدها تلك الخطّة. ولقد وضعنا هذا الموضوع في سياق أوسع تناول النظريّات الحديثة للتخطيط في مواجهة التحدّيات التي تعرفها المدن اليوم، ودور المرصد الحضريّ في مسار التنمية المستدامة.

## المرصد الحضريّ والنظريّات الحديثة للتخطيط

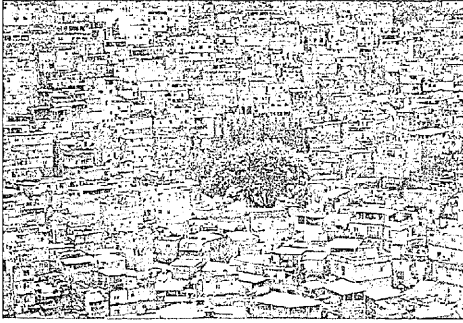
### المدن أمام التحدّيات

في القرون الماضية أدّت المدن أدوارًا مختلفة ارتبط معظمها بالنشأطين السياسيّ والتجاريّ حتّى بلوغ الثورة الصناعيّة أو جّها في القرن التاسع عشر، حيث نما دور المدينة وتحوّلت هذه الأخيرة إلى مقصد للباحثين عن العمل، وبدأ الكلام في حينها عن الهجرة من الريف إلى المدينة. تطوّر هذا الدور في القرن العشرين بشكل سريع وأصبحت المدينة تنمو وتمتدّ لتواجه الضغط العمرانيّ وما نتج عنه من إشكاليّات أخرى أخذ يشكل بعضها خطرًا عليها.

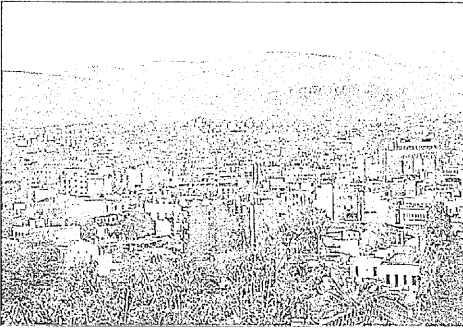
### المدن في مواجهة تحدّيات التحضر

كانت لفترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، وبشكل خاص فترة ما بعد إعادة الإعمار، الأثر الكبير في مسار المدن الأوروبيّة ومن بعدها المدن الأخرى. فتعاظم دور المدن هذه أدّى إلى ازدياد الضغط السكانيّ عليها ما أدّى إلى امتدادها أفقيًا وعموديًا وسط سياسات مدينيّة ونظريّات رافقت هذه التحوّلات أو برّرتها. ولقد تبع ذلك المزيد من الانفاق على البنى التحتيّة والخدمات والتجهيزات لسدّ الحاجات ومحاوله تحسين الإطار الحياتيّ للسكان. وهكذا أصبحت المدينة المركز الأوّل للإنتاج وتأمين فرص العمل وبالتالي المصدر الأساس للثروات، والابتكارات والنشاطات الثقافيّة.

إلا أنّ هذا السباق مع الوقت لتلبية الحاجات في المدن أدّى إلى تراكم مشاكل أخرى وظهور تحدّيات جديدة. فازدياد الضغط السكانيّ على المدن أخلّ بالتوازن بين



نموذج عن العشوائيات في أميركا اللاتينية

المصدر: [www.sintel.org/news/the-detail-department/attachment/favela.jpg](http://www.sintel.org/news/the-detail-department/attachment/favela.jpg)

الامتداد العمراني في مدينة أثينا

المصدر: <http://blog.travelpod.com/travel-photo/jeffanddana/1/1287689063/athens-urban-sprawl.jpg?tpod.html>

المجال المدنيّ والمناطق الريفيّة، لا سيّما في بلاد الجنوب، وذلك بسبب الامتدادات المدينيّة، أو تحوّل الكثير من البلدات والقرى إلى ما يشبه المدن. ولقد رافق ذلك تكون العشوائيات وانتشار جيوب الفقر وازدياد حالات التهميش والاقصاء. هذه التحوّلات والنشاطات المختلفة كان لها وقعها وأثرها على البيئة بسبب انتشار التلوّث، لا سيّما تلوّث الهواء والمياه. ولقد أضيف إلى ذلك في العقدين الماضيين تحديًا جديدًا هو مشكلة التغيّر المناخيّ الذي سينتج عنه، ووفقًا للدراسات الدوليّة، تغيّرات جوهرية في المجال المعاش للإنسان.

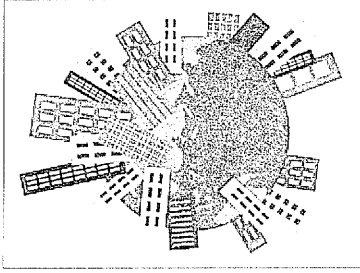
### المدن ومسألة مواجهة التحدّيات

تتوضّح التحدّيات التي تواجهها

المدن أكثر عندما نترجمها إلى مؤشّرات رقمية فتعكس حجم الإشكاليّات وتطرح مسألة الإدارة المدينيّة. هذه المؤشّرات تفيد بالآتي: (٤)

- واحد من شخصين اليوم في العالم يعيش في المدينة.
- واحد من ستّة أشخاص في العالم يعيش في العشوائيات.
- واحد من ستّة أشخاص في العالم يعاني الجوع.
- ٧٥٪ من الأشخاص الذين يعانون الجوع موجودون في المناطق الريفيّة.
- ١,١ مليار إنسان في العالم لا يصلهم الماء.
- ٢,٦ مليار إنسان في العالم لا تصلهم البنية التحتيّة.

- ٢،٥ مليار إنسان في العالم يعيشون بأقل من دولارين في اليوم.
- حتى العام ٢٠٥٠، ستعدى الانبعاثات الغازية التي تتسبب بالاحتباس الحراري في الدول النامية مستوى الانبعاثات في الدول المتقدمة.



صورة التضرر في العالم

المصدر: [http://www.youthxchange.net/fr/pictures/b238\\_a.gif](http://www.youthxchange.net/fr/pictures/b238_a.gif)

هذه التحديات مرشحة إلى التفاقم في العقود المقبلة خصوصاً وأن نسبة سكان المدن ستزداد باستمرار لتبلغ في العام ٢٠٣٠ ٦٠٪ وفقاً لأرقام الأمم المتحدة. ولقد وعت السلطات العامة أهمية وخطورة التحديات التي تواجهها المدن منذ عقود. وحاولت معالجتها بتطوير سياساتها المدينية وأدوات التخطيط. ولقد ظهرت بفعل هذا مفاهيم جديدة في هذا المجال ليس أقلها مفهوم المشروع المديني الذي انطلق من أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين.

أمام كل هذه التحديات، قامت الأمم المتحدة بتكليف اللجنة الدولية للبيئة والتنمية عام ١٩٨٧ بإعداد تقرير تحت عنوان «مستقبلنا جميعاً» سمي بـ «تقرير براندتلند»، باسم رئيسة هذه اللجنة غرو هارلم براندتلند. ولقد استعمل هذا التقرير كمرتكز أساس في قمة الأرض في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢، خصوصاً وأنه نشر مصطلح «التنمية المستدامة» وأعطاهها تعريفاً رسمياً.

### المركز الحضري في مسار التخطيط الاستراتيجي

التخطيط الاستراتيجي من التخطيط الجامد إلى المسار الديناميكي بعد مؤتمر قمة الأرض، توالى اللقاءات الدولية في سبيل التعاون لمواجهة التحديات لا سيما مشكلة التغير المناخي. ومع تفاقم هذه التحديات، أصدرت الأمم المتحدة مع بدء القرن الحادي والعشرين أهداف الألفية للعام ٢٠١٥ تضمنت ثمانية بنود، ركزت على الفقر والتعليم والمرأة والصحة وبناء الشراكات الدولية.

في موازاة ذلك، ومع انتشار مفهوم التنمية المستدامة، انصبّت جهود المنظمات الدولية والمدن الأوروبية على تطوير منهجيات التخطيط وأدواته للخروج من المنهجيات



والأدوات الجامدة إلى تلك المرنة التي تسمح بالتحديث المستمرّ للمشاريع خلال تنفيذها. هنا نعيد الإشارة إلى أنّ هذه الجهود بدأت منذ عقود في أوروبا بعد قيام مدينة بولونيا في إيطاليا في الستينات من القرن العشرين بتجربة رائدة في مجال التخطيط المدني والتي انتشر من بعدها مفهوم المشروع المدني (Projet urbain)، الذي حلّ مكان مفهوم المخطّط التوجيهي (schéma directeur)، وكذلك مبدأ المسار الديناميكيّ التشاركيّ في عمليّة تنفيذ المشاريع.<sup>(٥)</sup>

### التخطيط الاستراتيجي: المفهوم والمنهجية

إنّ مفهوم التخطيط الاستراتيجيّ ليس بجديد وهو يرتبط بمجالات عديدة، لا سيّما بعمل الشركات والمؤسسات وكيفية إدارتها. ولقد انتشر مصطلح «الخطة» بعد الحرب العالمية الثانية، كانت أشهرها «خطة مارشال». وكانت كلمة «خطة» يتبعها رقم للإشارة إلى المدة الزمنية التي حدّدت لتحقيق مشاريع إنمائيّة كالخطة الخمسية أو الخطة العشرية. في ما يتعلّق بالتنظيم المدني، كانت الأداة الرئيسة لتنظيم المدينة وترتيب الأراضي هي التصميم أو المخطّط التوجيهيّ الذي كان يرسم التوجّهات المستقبلية ويحدّد وجهة استعمال الأراضي. إلا أنّ هذه الأدوات والمنهجيات أظهرت محدودياتها مع ظهور التحدّيات التي تكلمنا عليها سابقاً. فالتنمية لا يمكن مقاربتها من زاوية اقتصادية فقط، كما فعلت «الخطة»، كما أنّ المخطّط التوجيهيّ الذي كان يتمّ إعداده ليخدم أكثر من عقدين لا يمكنه التفاعل مع المستجدات والظروف الطارئة. كذلك تفقد المشاريع التي يتمّ تنفيذها خلال هذه الفترة، الكثير من فعاليتها بسبب التطوّر السريع للمجال العمرانيّ. أضف إلى ما سبق أنّ التخطيط كان نتيجة لسياسات تفرض من الأعلى إلى الأسفل من دون أيّ مشاركة حقيقية من السلطات المحليّة والمجتمع المدنيّ. ولقد أتت تجربة مدينة بولونيا الإيطالية في سبيل تطوير مفاهيم التخطيط لتمكين المدن من مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين. إنّ مفهوم التخطيط الاستراتيجيّ اليوم والمنهجيات التي ترافقه هو إذاً نتيجة لتجارب طويلة ولحاجات حقيقية، ولقد تمّ تبنيّه في معظم المدن الأوروبية وفي المدن الجنوبية التي أبرمت مشاريع تعاون مع المؤسسات والمنظمات الدوليّة. ووفقاً لتعريفات

مختلفة لهذا المفهوم، يشكل التخطيط الاستراتيجي مساراً معقداً يجمع الفاعلين المعنيين ويوطد العلاقات بينهم، ويعتمد إلى بناء قدراتهم من أجل حوكمة أفضل. كما يعتمد إلى تشجيع السكان للتفكير بمدنيتهم بطريقة مختلفة. إلا أن هذا التعريف يبقى ناقصاً إذا ما أردنا اعتماده في مدن الجنوب لأسباب عدة لعل أهمها غياب اللامركزية الإدارية والموارد البشرية والمادية اللازمة التي تمكن السلطات المحلية من رسم سياساتها المدينة وتنفيذها. لذلك، وانطلاقاً من التجارب العربية ومؤخرًا من التجارب اللبنانية، يمكننا تعريف التخطيط الاستراتيجي في مدن الجنوب بأنه مسار تشاركي يهدف إلى خلق شراكات محلية ومع الخارج للتعاون في سبيل وضع رؤية مستقبلية تأخذ في الاعتبار اللاعبين المعنيين والإمكانات والموارد المتاحة وذلك لوضع خطة إنمائية قادرة على التغيير وقابلة للتطوير، ومن ثم إيجاد الآليات المناسبة لتنفيذها ومتابعتها عبر الرصد.

#### المرصد الحضري في منهجية التخطيط الاستراتيجي: تعريفه ودوره

«المرصد الحضري هو شبكة محلية تجمع أصحاب المصالح المشتركة والتي تعدّ مسؤولة عن تجميع وتحليل ونشر البيانات المتعلقة بمجموعة من المؤشرات الهادفة والتي تعكس القضايا المجتمعية ذات الأولوية في ميدان التنمية المستدامة». ويتم استخدام المعلومات المجمعة «بغية دعم عملية صناعة القرار، وصياغة سياسات واعية، ولذا، فيعدّ المرصد الحضري نقطة مركزية للمراقبة الحضرية على المستوى المحلي أو الوطني»<sup>(٦)</sup>.

أما أهداف المرصد الحضري فهي عديدة وتختلف وفقاً لدوره ولطبيعة ووظيفة الجهة المسؤولة عنه. إلا أنها تشارك في ثلاثة أهداف:<sup>(٧)</sup>

- خلق نظم مراقبة حضرية مستدامة لمساندة عمليات التخطيط والإدارة المحلية، وربط البيانات بالسياسات.
- تعزيز القدرة المحلية بغية إعداد واستخدام المؤشرات الحضرية التي تسهل تجميع البيانات المبوبة على مستوى المدينة، والمستويات الفرعية من المدينة.
- تعزيز الملكية المحلية لنظم المؤشرات الحضرية وتعزيز ثقافة المراقبة والتقويم في القطاع الحضري.

(٦) دليل «معلومات أفضل مدن أفضل»، ٢٠٠٦: برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (المونال)، ص: ١٢.

(٧) المرجع السابق

في مسار التخطيط الاستراتيجي يؤدي المرصد الحضري دوراً مزدوجاً على الأقل. وترتكز منهجية هذا الأخير على الإجابة عن أسئلة ثلاثة: «أين نحن الآن؟ أين نريد أن نذهب؟ وكيف نصل إلى هناك؟»<sup>(٨)</sup> يشكل كل سؤال من تلك الأسئلة مرحلة مهمة في المسار. ويتم الاعتماد على المرصد في المرحلتين الأولى والثالثة.

في المرحلة الأولى (أين نحن الآن؟) يوفر المرصد الحضري المعلومات والمؤشرات التي تستخدم مرحلة التشخيص فينبى عليها للتحليل وللوصول لاحقاً إلى وضع الرؤية الاستراتيجية. أما في المرحلة الثالثة (كيف نصل إلى هناك؟) فيواكب المرصد الحضري عملية تنفيذ المشاريع وأثرها اللاحق على المدينة، وهي مرحلة الرصد والمتابعة. ويساهم المرصد هنا عبر سلسلة من المؤشرات أهمها مؤشر أداء المدينة، مؤشر تنفيذ المشاريع ومؤشر الأثر. تساهم هذه المؤشرات إذاً في متابعة تنفيذ المشاريع للإفادة عن أي خلل أو ظرف طارئ يمكن أن يؤثر على المسار المرسوم والسماح بذلك للمعنيين بإعادة تصويبه عبر وسائل مختلفة ليس أقلها تعديل خطة العمل أو حتى تعديل بعض المشاريع.

يبقى القول إن المرصد الحضري هو أداة متقدمة غير متوفرة في جميع المدن العربية والمتوسطة وغيرها. إلا أن أشكالاً مختلفة من المراصد تؤدي أدواراً محددة كالمراصد الاجتماعية والمراصد الثقافية ومراصد مراقبة الأسعار ومراصد مراقبة الإيجارات.

## موقع المرصد الحضري في السياسات المدينية اللبنانية

### إشكالية السياسات المدينية في لبنان

وفقاً لبرنامج الأمم المتحدة للإسكان، قدر عدد سكان لبنان عام ٢٠١٠ بـ ٤,٢ مليون نسمة يعيش ٨٧٪ منهم في المناطق الحضرية، و ٥٠٪ منهم في بيروت وجبل لبنان. ويتوزع الباقون على المحافظات الأخرى بنسبة ٣,٢٠٪ في محافظة الشمال، و ٦,١٧٪ في الجنوب والنبطية و ١٣٪ في البقاع.<sup>(٩)</sup>

UN-HABITAT, 2007: Inclusive and sustainable urban planning: a guide for municipalities. Volume 1: an introduction to (٨) urban strategic planning, pp7-8.

UN-HABITAT, Octobre 2011 : Lebanon urban profile. A desk review report, pp 10-11 (٩)

هذا الفارق السكاني بين المناطق الريفية والحضرية، وبين المركز والأطراف، مرشح للتزايد في ظل غياب سياسات إنمائية تعيد التوازن إلى الأراضي اللبنانية، أو، يمكن القول، في ظل غياب قرار سياسي لذلك. هذا الخلل البنيوي في الجسم اللبناني ناتج كما بات معروفاً من تموضع مراكز صناعة القرار ورسم السياسات في العاصمة وغياب اللامركزية الإدارية الحقيقية التي تسمح للبلديات بإنتاج تنمية محلية تشجع سكان الأطراف على البقاء في بلداتهم وقراهم وتوقف الهجرة إلى منطقة بيروت الكبرى.

في المقابل تعتمد الدولة اللبنانية سياسة تنظيمية للأراضي والمناطق عبر سنّ القوانين والأنظمة من دون القيام بمشاريع متكاملة للتدخل. كما بدأت تستثمر كثيراً بعد الحرب في البنى التحتية والطرق وبعض التجهيزات. إلا أنها لم تعتمد حتى اليوم سياسات متكاملة في المناطق لمعالجة الخلل القائم، ولقد أدت السياسات المعتمدة وبصورة خاصة العقارية منها، إلى وسيلة الاستثمار الأولى لدى اللبنانيين وضمانة لمستقبل العائلة يتم استثماره للعيش ولتأمين مستقبل الأولاد.

في ظل هذا الواقع، تبرز إشكالية أساسية لدى الباحثين والخبراء المعنيين بدراسة الواقع البشري والاجتماعي والاقتصادي في لبنان، وهي مشكلة الأرقام والإحصاءات والمؤشرات. تكمن هذه الإشكالية في كثرة المصادر التي تصدر أرقاماً في الشأن الإنمائي، منها الرسمي والخاص ومنها الدولي. وفي كثير من الأحيان، تختلف الأرقام من مصدر إلى آخر ما يعقد استعمالها وتحليلها والبناء عليها.

وغالباً ما تأتي الأرقام على مقياس المحافظة أو القضاء ما يمنع الباحث أو الخبير من معرفة الاتجاهات التي تسير بها المدينة أو البلدة أو الحي، فيلجأون إلى القيام بمسح محدد لمنطقة ما تخدم البحث أو المشروع الذي يقومون به، وهكذا تبقى الأرقام الرسمية والخاصة غير ذات منفعة.

### المشهد الحضري: أي دور في ظلّ التحديات المحلية والدولية؟

بالإضافة إلى التحديات الديمغرافية والبيئية، تواجه المدن والبلدات اللبنانية مشاكل أخرى تراكمت مع العقود المنصرمة وهي مرتبطة بقدرات الإدارات الرسمية ومدى إنتاجيتها وتطورها وتبليتها للتحديات الجديدة. وهنا تطرح مسألة الحوكمة بكل ثقلها ومعها العديد من الأسئلة حول إمكانية مواكبة هذه التحديات الجديدة كما فعلت العديد

من مدن الجنوب. ورغم الجهود التي بذلتها وزارة التنمية الإدارية منذ سنوات عديدة لبناء قدرات الإدارة الرسمية اللبنانية، إلا أن المسافة ما تزال طويلة للوصول إلى وضع يلبي الحاجات الراهنة. ولقد قامت الحكومات المتوالية بالهروب إلى الأمام عبر إبرام العديد من الاتفاقيات الدولية وذلك للحصول على مشاريع تعاون تعوّض التقصير الحاصل في جميع الإدارات الرسمية. ولقد أدت هذه الاتفاقيات، ومنذ التسعينات، إلى تنفيذ العديد من المشاريع لا سيّما في المجالات الثقافية والبنى التحتية والتجهيزات وبناء القدرات. وإذا كان ليس المجال هنا لمناقشة جدوى هذه المشاريع، إلا أنه من المهم الإشارة إلى أنها حرّكت وحشدت الكثير من المهارات المحليّة وأعطت للخبراء والناشطين خبرات واسعة توازي الخبرات الدوليّة.

وكان من بين هذه المشاريع إنشاء مرصد حضريّة في بلدية سنّ الفيل (عام ٢٠٠٠)، واتّحاد بلديات الفيحاء (عام ٢٠٠٠) ومؤخراً في اتّحادات بلديات عدّة في جنوب لبنان (جبل عامل، مرجعيون و بنت جبيل). كما أنّ هناك مفاوضات اليوم بين بلدية بيروت وبلدية باريس لإنشاء مرصد حضريّ في العاصمة.

أيّ دور قامت به ويمكن أن تقوم به اليوم هذه المرصد؟ وكيف يمكن تفعيل عملها في ظلّ الواقع الإداري اللبناني الراهن؟  
لعلّ في تجربة مرصدي بلدية سنّ الفيل واتّحاد بلديات الفيحاء تجارب جديدة بأخذها في الاعتبار والانطلاق منها لاستشراف مستقبلها ودورها في عمليّة التنمية المحليّة.

#### مرصد بلدية سنّ الفيل: تجربة رائدة لم يكتب لها الحياة

أسس مرصد بلدية سنّ الفيل عام ٢٠٠٠ عبر تعاون بين البلدية من جهة ومنظمة الإسكوا ومنظمة المدن العربيّة من جهة أخرى. عمل في هذا المرصد متطوعون شاركوا في دورات تدريبيّة عدّة في لبنان والخارج، كما تمّ التعاون مع القطاع الخاص في كثير من المجالات. ولقد أثر هذا التعاون عن وضع ٢٣ مؤشراً تمّ عرضها في مؤتمر المستوطنات البشرية الخامس في إسطنبول (Habitat 5). لم يكن هذا العمل سهلاً، إذ كان هناك صعوبة في الحصول على المعلومات للواقع المحليّ في سنّ الفيل ما دفع البلدية إلى مكثّة العمل البلديّ وإدخال معلومات الجباية في برنامج إلكترونيّ خاص على الكمبيوتر. ولقد ساهم هذا العمل في إعطاء فكرة عن أوضاع السكان وتعدادهم. بالإضافة إلى ذلك تمّ

إعداد خريطة عقارية لبلدة سنّ الفيل وتمّ إدخالها في برنامج نظام المعلومات الجغرافية<sup>(١٠)</sup>. لم تدم أعمال هذا المرصد كثيرًا، فلقد واجه عوائق كثيرة ليس أقلها العائق المالي لتحديث المعلومات، وعدم اهتمام المجالس البلدية المنتخبة في ما بعد في تفعيله وتطويره وهو متوقّف عن العمل اليوم.

### مرصد اتّحاد بلديات الفيحاء: تجربة مؤسّساتية ناجحة

بدأ العمل في مركز رصد البيئة والتنمية في اتّحاد بلديات الفيحاء في شهر نيسان من العام ٢٠٠٠ بعد سنوات من التعاون اللامركزيّ مع جهات أجنبية، أسفر بدءًا عن إصدار تقرير عن حالة مدن الفيحاء عام ١٩٩٣ وأثمر لاحقًا في إنشاء هذا المرصد. وكان الدافع الأساس لهذا التعاون خروج مدن الفيحاء وبلدياتها من حرب طويلة كان لها الأثر السلبيّ الواضح على العمل المؤسّساتيّ إن من الناحية الماديّة أو في نقص الطاقم البشريّ، وغياب كامل للمعلومات والوثائق المحدثة المتعلقة بمدن الفيحاء.

ولقد ساهم في إنشاء هذا المركز الاتّحاد الأوروبيّ ومنظّمات دوليّة عديدة. أمّا مهامه فحدّدت كالآتي:

- تقديم رؤية أفضل عن اتّجاهات البيئة والتنمية في مدن الاتّحاد؛
- تجميع المعلومات المبعثرة؛
- تدقيق المعلومات وتحليلها؛
- نشر المعلومات ومشاركتها وتعميمها.

كما عقد المرصد شراكات عديدة مع المؤسّسات العامّة والجامعات والمنظّمات غير الحكوميّة، وحدّد لنفسه قطاعات إنمائيّة عدة ووضع لها مؤشّرات بلغت نحو ٣٨ مؤشّرًا. كما نفّذ المرصد مشاريع عديدة متعلّقة بنوعيّة الهواء (SMAP) وإعادة ترتيب ساحل مدن الفيحاء (PACEM)، ومعالجة النفايات الصلبة (Godem) وإنشاء وحدة إدارة الكوارث. ولقد نشر هذا المرصد حتّى اليوم أكثر من ثلاثين تقريرًا استفاد منها الباحثون وأساتذة الجامعات والخبراء الذين عملوا على مشاريع مختلفة في مدن الفيحاء<sup>(١١)</sup>.

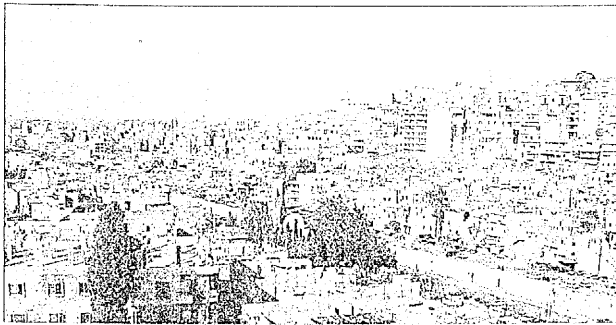
(١٠) فكوربا زوين، ٢٠٠٦: «المرصد الحضريّ المحليّ، سنّ الفيل - تحدّيات وإنجازات». محاضرة أقيمت في منسّة الإسكوا في ١٢ نيسان وتمّ نشرها على موقع هذه المنظّمة.

(١١) عبد الله عبد الوهاب، ٢٠١١: «تفعيل دور مركز رصد البيئة والتنمية في اتّحاد بلديات الفيحاء». ورشة عمل بالتعاون مع برنامج الأمم المتّحدة للمستوطنات البشرية. محاضرة أقيمت في فندق الكواليبي إن في ١٨ كانون الأوّل.

ما يزال يعمل هذا المرصد اليوم بحيويّة رغم تقاعد مديره السابق عام ٢٠١١، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة أهمّها نجاح القائمين عليه في وضع أسس صلبة لاستدامته، منها إنشاء ملاك إداري له عام ٢٠٠٦ لتأمين موظفين ثابتين فيه، واستمراريّة التعاون اللامركزي مع الجهات الأجنبية عبر مشاريع إنمائيّة مختلفة. رغم ذلك، هناك صعوبات كثيرة ونواقص أهمّها غياب الخبراء من ملاك المرصد القادرين على تحليل المعلومات وتشخيص الإشكاليات ومتابعة المسائل الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، وعدم تحوّل المرصد حتّى الآن إلى استشاري لصانعي القرار المحليّ.

## دور المرصد الثقافيّ في مسار التخطيط الاستراتيجي: مثال خطة التنمية الاستراتيجية لاتحاد مدن الفيحاء

تشهد مدن الفيحاء تحديات كبيرة منذ انتهاء الحرب الأهليّة عام ١٩٩٠، وهي تزداد تدريجيّاً مع غياب السياسات المدينيّة المتكاملة. فبالإضافة إلى التحديات العالميّة التي تشهدها معظم المدن العالميّة ومنها مسألة التحضر والتغيّر المناخيّ وتلوّث البيئة، تعرف مدن الفيحاء انتشار الفقر المدقع في غياب سياسات إنتاجيّة تخلق فرص عمل، وما ينتج عنه من جنوح لدى القاصرين والراشدين وانتشار الممارسات اللاشعريّة والتسرّب المدرسيّ. وإذا أخذنا النقاط الثماني لأهداف الألفية للعام ٢٠١٥ التي أصدرتها منظمة الأمم المتّحدة نجد أنّ مدن الفيحاء معنيّة بها مباشرة. ولعلّ التحديّ الأكبر الذي تواجهه والنتائج أيضاً عن الفقر، هو وجود خطوط تماس عسكريّة في منطقة التبانة مرتبطة بواقع إقليميّ، وانتشار التطرّف الدينيّ.



مناطق الفقر في طرابلس: مشهد من بعيد لمنطقة التبانة.  
المصدر: مصباح رجب.

أمام هذا الواقع الصعب ومع فشل معظم المشاريع التي نفذت بخلق ديناميكيّة اقتصاديّة، قام اتحاد بلديات الفيحاء بإعداد

خطة للتنمية الاستراتيجية بهدف إيجاد حلول متكاملة تعالج المشاكل المزمنة. ولقد أظهرت مرحلة التشخيص أنّ معالجة الواقع الاجتماعي والثقافي هي من الأولويات الملحة، وهنا في نظرنا يبرز دور المرصد الثقافي.

### مفهوم المرصد الثقافي وملاءمته لواقع مدن الفيحاء

سبق وذكرنا أنّ هناك أنواعاً عدّة من المراصد تنشئها الحكومات والمؤسسات العامة والخاصة لمراقبة ومتابعة قطاع ما يدخل ضمن السياسات العامة. والمرصد الثقافي منتشر في الكثير من المدن تحت تسميات تختلف بمقدار ما تختلف وظيفته والحاجة إليه. في فرنسا أتت تلك المراصد في المناطق كدعم لمسار اللامركزية عبر متابعة النشاطات الثقافية أو اقتراح نشاطات أخرى، وتنظيم دورات تدريبية وبتّ المعرفة الثقافية وتوثيق المعلومات وإعداد الدراسات والمؤشرات وغيرها من الأعمال في هذا المجال.

ويتم تعريفها بأنها أداة للمعرفة في خدمة المشغلين الثقافيين، والمنتخبين والمهنيين<sup>(١٢)</sup> أو بأنه يقوم بدور الكشاف لدائرة واسعة من المهنيين في مجالات الفنون والثقافة، من الخبراء والمنتخبين<sup>(١٣)</sup>. هل تتوافق هذه التعريفات وتناسب مع واقع مدن الفيحاء؟ هل هي كافية؟

### دور المرصد الثقافي في خطة التنمية الاستراتيجية لاتحاد مدن الفيحاء

يكتسب هذا المرصد دوراً هاماً في مسار التنمية المستدامة في مدن الفيحاء نظراً للواقع الراهن الذي سبق وتكلمنا عليه. وهو، وإن لم يكن موجوداً عند إعداد دراسة خطة التنمية الاستراتيجية، إلا أنّ مركز رصد البيئة والتنمية التابع لاتحاد بلديات الفيحاء كان له الفضل في إمداد الدراسة بالمعلومات، ولم يفت الوقت بعد لإنشاء مرصد ثقافي لمتابعة هذه الخطة لاحقاً. ما هي خطة التنمية الاستراتيجية لمدينة الفيحاء وكيف يمكن للمرصد الثقافي أن يؤدي دوراً رائداً في عملية التنمية المحليّة؟

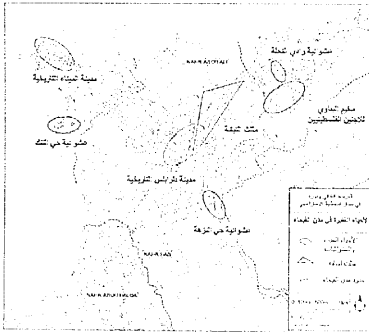
(١٢) مرصد الثقافة في منطقة الوسط (فرنسا). [www.cultureocentre.fr](http://www.cultureocentre.fr)

(١٣) مرصد السياسات الثقافية في مدينة غرونوبل الفرنسية، ملفّ كراسة التقديم، ص ٧ <http://www.observatoire-culture.net>



خطة التنمية الاستراتيجية لمدن الفيحاء: الخلفية، الأهداف والمشاريع المقترحة  
أتت فكرة إعداد خطة استراتيجية لمدينة طرابلس بعد الانتخابات البلدية في العام  
٢٠٠٤ وبعد قيام الرئيس الجديد المنتخب للبلدية بتقويم سريع لواقع المدينة ووقوفه عند  
النتائج المفزعة لهذا الواقع. وقد كُلف مكتب دراسات خاص لإعداد مسودة خطة لتنمية  
استراتيجية على مستوى اتحاد البلديات لعرضها على الحكومة ومن ثم رفعها إلى البنك

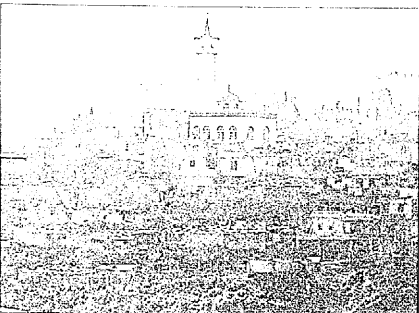
الدولي لدعمها وإيجاد مجالات تعاون لإعدادها.



الأحياء الفقيرة في مدن الفيحاء  
المصدر: مصباح رجب.



أحد الأحياء الفقيرة في جبل محسن في منطقة التبانة



عشوائيّة حي النزهة في طرابلس  
المصدر: مصباح رجب.

أتت هذه الخطوة على خلفية  
الواقع الاجتماعي والاقتصادي السيئ  
وتراكم المشاكل منذ ما قبل انتهاء الحرب  
الأهلية، حيث انقطعت مدن الفيحاء  
عن عمقها الجغرافي وانعكس ذلك سلبيًا  
عليها فخرجت فاقدة دورها التجاري  
في المحافظة. هذا الواقع أدى إلى ازدياد  
الفقر في أحياء طرابلس القديمة وانتشار  
العشوائيات على كامل أراضي الفيحاء وما  
يتبع ذلك من ازدياد مستوى الأمية والبطالة  
والتسرب المدرسي وانخفاض نسبة تلامذة  
المدارس وتكاثر مشاكل الأحداث. (١٤)

وتفيد الدراسة التي قامت بها وزارة  
الشؤون الاجتماعية عام ٢٠٠٧ بالتعاون  
مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية بأن متوسط  
استهلاك الفرد في شمال لبنان هو الأدنى في  
لبنان إذ بلغ نحو ٢،٥ مليون ليرة لبنانية في  
السنة مقابل معدل وطني بلغ نحو ٣،٩  
مليون ليرة لبنانية. كما تفيد هذه الدراسة

(١٤) مقابلة مع رئيس اتحاد بلديات الفيحاء المهندس رشيد جمالي في حزيران ٢٠٠٩.

بأن نسبة الفقر في طرابلس بلغت ٥٧٪ من مجموع سكان المدينة مقابل ٣٣٪ في الهرمل و ٢٥٪ في الكورة و ١٢٪ في النبطية و ٦٪ في بيروت.

لم تأت المبادرات والمشاريع التي خصّصت لمدينة الفيحاء في العقدين اللذين تلتا انتهاء الحرب الأهلية ضمن إطار جامع ذي رؤية مستقبلية ما حتمّ بناء سياسة مدنيّة عبر إعداد خطة تنمية استراتيجية لمدينة الفيحاء.

أعدت هذه الخطة بين العامين ٢٠٠٨ و ٢٠١١ وفقاً لمسار تشاركي أدى إلى تحديد ٢٤ مشروعاً للتنفيذ، تراوحت أنواعها بين مشاريع ترتيب وبناء التجهيزات وإعادة استخدام غيرها، وبناء شبكات تواصل ومجموعات ضغط وتفعيل النشاطات الثقافية والحرفية<sup>(١٥)</sup>. ولقد ارتكزت هذه المشاريع على أهداف سعت إلى مقاربة الأزمة الاجتماعية ومسألة غياب المواطنة ومفهوم المصلحة العامة بنشاطات ومشاريع ذات بعد ثقافي.

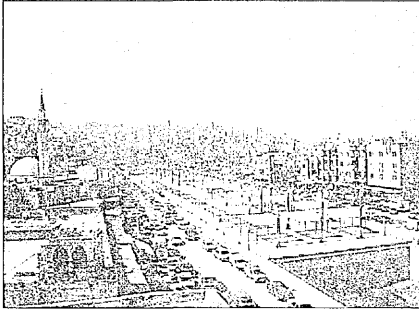
في شكل عام، أدت التراكمات السلبية في واقع مدن الفيحاء إلى تحديد العام ٢٠٢٠ كأفق لتنفيذ المشاريع المحددة في خطة التنمية الاستراتيجية على أن يتمّ التطلع إلى المستقبل بشكل تدريجيّ يوصل مدن الفيحاء إلى التنمية المستدامة عبر إعادة بناء قدرات المواطنين وثقافتهم وحثّهم على الانتماء إلى الوطن قبل أيّ شيء.

#### المركز الثقافي: كشاف، ومساعد في صناعة القرارات

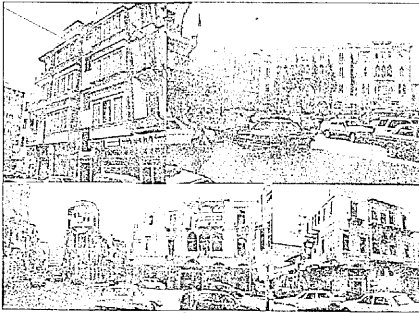
في سياق الواقع العامّ المؤسف لمدينة الفيحاء، يأتي المركز الثقافي ليؤدّي دوراً هاماً في الأحياء الفقيرة، لا سيّما في منطقة التبانة، وفي باقي العشوائيات الموزعة على أراضي المدن الثلاث، كما أنّ للمركز الثقافي أدواراً هامة متصلة هي الأخرى بالبعد الثقافي وبموضوع المواطنة.

في منطقة التبانة، ساهم مشروع حماية الإرث الثقافي لمدينة طرابلس والذي ينفذه مجلس الإنماء والإعمار، بإنشاء حيّز ثقافي على جزء من المجال العام المستحدث فوق نهر أبو علي لإعادة الربط بين ضفتي النهر والتعامل مع واقع اجتماعي دقيق في مثلث التبانة، ومن ضمنه مشروع القبة السكني الذي نفّذه صندوق المهجرين للسكان الذين فقدوا منازلهم في مناطق المواجهات العسكرية أثناء الحرب الأهلية. ومن المعروف أنّ منطقة

(١٥) «الفيحاء، ٢٠٢٠»، ٢٠١١: التقرير النهائي لخطة التنمية الاستراتيجية لمدينة الفيحاء. تشرين الأول. ص: ٧٥-٩٢.



الميدان الجديد فوق نهر أبو علي  
المصدر: بلدية طرابلس، وحدة إدارة المشاريع في المدينة التاريخية



نماذج عن أبنية تراثية في منطقتي التل والزاهرة في طرابلس  
المصدر: مصباح رجب

التبانة بشكل خاص والأحياء القديمة الواقعة على الضفة الشرقية للمدينة القديمة بشكل عام، عزلت عن الأحياء الأخرى بعد دخول الجيش إليها عام ١٩٧٤ لمطاردة أفراد ما عرف في حينها بدولة المطلوبين ولجوء القبضيات والخارجين عن القانون إلى أحياء الضفة الشرقية والتمترس فيها،<sup>(١٦)</sup> ما ساهم خلال الحرب وبعدها في تدهور أحوال هذه الأحياء. خلال وبعد تنفيذ المجال العام الجديد فوق نهر أبو علي، لاحظ المشرفون على هذا المشروع ومن خلال احتكاكهم مع السكان، أنّ المجال العام المستحدث ساهم بتشكيل صلة وصل فاعلة بين ضفتي النهر حيث أخذ بعض سكان الضفة الشرقية بالعبور إلى الضفة الغربية يومياً كاسرين بذلك

عزلتهم الطويلة، كما علم من مخاطر الضفة الشرقية بأنّ الكثير من الأشخاص المطلوبين لدى العدالة طلبوا منهم التوسّط لدى الجهات المعنية لإيجاد تسوية قانونية تسمح لهم بإنهاء وضعهم الشاذّ سريعاً والعودة إلى الحياة الطبيعية.<sup>(١٧)</sup> وبذلك يساهم اليوم المجال العام المستحدث بفكّ عزلة الأحياء الشرقية وإنهاء الحالة الخاصة التي عمل عليها وحلّ لها عالم الاجتماع الفرنسيّ الراحل ميشال سورا مدّة طويلة.

هنا يأتي دور المرصد الثقافيّ ككشافٍ لمتابعة هذه التحوّلات وإعطاء السلطات كلّ المعلومات والمؤشّرات المتعلقة بتطوّر الأحوال المعيشية من خلال تنفيذ نشاطات ثقافية دورية على الحيز العام الثقافيّ الجديد فوق نهر أبو علي، ويمكن لتلك المؤشّرات أن تتناول الفقر والتسرّب المدرسيّ والأندية والجمعيات العاملة في هذه الأحياء وتطوّر

Michel Seurat, 1985: « Le quartier de Bâb Tebbâné à Tripoli (Liban) : étude d'une 'asabiyya urbaine », p 50. In: (١٦) Mouvements communautaires et espaces urbains au Machreq, pp : 44-86. CERMOOC, Beyrouth

(١٧) مقابلة مع المهندس عمّار الأبويّ المدير الفنيّ في الشركة المكلفة بتنفيذ مشروع سفن نهر أبو علي. في ٣ نيسان ٢٠١٠.

المهن الحرفية والبطالة وغيرها، ومساعدة أصحاب القرار بتطوير السياسات العامة وتأمين الاستثمارات لهذه الأحياء الفقيرة.

للمرصد الثقافي أدوار أخرى هامة يمكن أن يقوم بها في مدن الفيحاء، وهي مرتبطة بالرهانات التي تعول عليها المشاريع المحددة في خطة التنمية الاستراتيجية لمدن الفيحاء. من هذه الأدوار:

- رصد الأبنية التراثية والإفادة عن واقعها وحالتها وشغور الشقق، وواقع بدل الإيجارات فيها وذلك للمساهمة في العمل على حمايتها وإعادةها إلى الحياة الطبيعية.

- رصد استعمال المجال العام من قبل كل المستخدمين لمراقبة تطوّر نظرة المواطنين إلى الأملاك العامة، ومحافظتهم على النظافة واحترامهم نظام السير والإشارات وغيرها.

إن استعمال المرصد الثقافي لهذه الغايات يساهم، كما سبق وذكرنا، في متابعة أثر المشاريع المحددة من قبل خطة التنمية الاستراتيجية على المجتمع، والعمل على تصويب هذه الخطة وتطويرها كلما لزم الأمر.

## الخلاصة

يشكل المرصد الحضريّ اليوم أداة فاعلة في السياسات العامة التي تسعى إلى بناء مسار للتنمية المستدامة، ومواجهة التحديات المختلفة التي تعرفها المدن. فهو، وكما ذكرنا، كشاف لتطور أداء المدينة ومساعد في عملية صنع القرار. أما المرصد الثقافيّ فنفهم أنه جزء من المرصد الحضريّ، أو مستقلّ وفقاً للحاجات والأهداف والظروف. إلا أن التجارب أظهرت بأنه لا يكفي إنشاء مرصد وتكليف شخص أو أكثر بالاهتمام به وتشغيله. فهناك شروط عديدة يجب توفّرها لاستدامة عمله والحصول على نتائج مفيدة. من هذه الشروط:

- أن يكون المرصد جزءاً من مؤسسة عامة، له ملاكه الإداري وموازنته اللذان يتناسبان مع وظيفته والحاجة إليه.
- أن يكون له هدف واضح يعمل من أجله.

- أن يكون للسلطة العامّة المسؤولة عنه سياسات عامّة ذات رؤية تعمل على تنفيذها.
- أن يكون له القدرة على تحليل المعلومات وتقديم الخلاصات التنفيذية.
- أن يقيم علاقات تعاون مع المؤسّسات البحثية والجامعية للاستفادة من خبراتها ومعلوماتها وقدرات العاملين فيها.

هل يمكن تأمين تلك الشروط لإنشاء المراسد في لبنان في ظلّ واقع الإدارة العامّة الراهن والحوكمة والأزمة الاقتصادية؟ تدلّ الوقائع الحالية في لبنان على أنّ المراسد التي أنشئت وما تزال تعمل هي إمّا جزء من مؤسّسة عامّة له موظّفوه وموازنته، أو جزء من مؤسّسة خاصّة وفّرت له الإمكانيات اللازمة لتشغيله بالإضافة إلى وجود قناعة راسخة بأهميّة وجود تلك المراسد وعملها. هل هذا يعني أنّه إذا لم تتوفر تلك الشروط فمن الصعب إنشاء المراسد؟

إنّ إنشاء المراسد في ظلّ التحدّيات التي تكلمنا عليها في سياق النصّ، ربّما يكون حتمياً وإلزامياً في مسار التنمية المستدامة ولا مفرّ منه رغم كلّ الصعوبات. هذا يستدعي إنشاء أشكال متواضعة من المراسد ذات دور تصاعديّ يتطوّر وفقاً للإمكانيات والحاجات المستجدة ومشاريع التعاون مع الجهات المانحة والمنظّمات الدوليّة والمؤسّسات المحليّة المتخصصة. بالنسبة إلى مدن الفيحاء، نعتقد أنّ مقارنة واقع الفقر وغياب المواطنة عبر مرصد ثقافيّ هو رهان إنمائيّ على إعادة بناء الإنسان على المدى المنظور والقضاء تدريجياً على الأوضاع الشاذة المتركمة في منطقة التّبانة في طرابلس، ومنها المواجهات العسكرية «التاريخية».

## مقابلات

- مقابلة مع رئيس اتحاد بلديات الفيحاء السابق المهندس رشيد جمالي في حزيران ٢٠٠٩.
- مقابلة مع المهندس عمّار الأيوبي المدير الفني في الشركة المكلفة بتنفيذ مشروع سقف نهر أبو علي. في ٣ نيسان ٢٠١٠.

## المراجع

- اتحاد بلديات الفيحاء ٢٠١١: «الفيحاء ٢٠٢٠»، التقرير النهائي لخطة التنمية الاستراتيجية لمدن الفيحاء. تشرين الأول.
- الأمم المتحدة - اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا)، ٢٠٠٨: «نحو الإنصاف في السياسات الاجتماعية الحضرية: الدليل الاجتماعي للمراصد الحضرية» التقرير الصادر بعد اجتماع الخبراء في شهر تشرين الثاني.
- الأمم المتحدة - اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا)، ٢٠٠٨: «المراصد الاجتماعية». بيروت.
- الأمم المتحدة - اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا)، ٢٠٠٨: «وضع وآفاق المدينة العربية: التحضر وتحدي الأحياء الفقيرة. الجزء الأول». بيروت.
- برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (الموئل) ٢٠٠٦، دليل «معلومات أفضل لمدن أفضل».
- زوين؛ فكتوريا، ٢٠٠٦: «المرصد الحضري المحلي، سن الفيل - تحديات وإنجازات». محاضرة أقيمت في منظمة الإسكوا في ١٢ نيسان ٢٠٠٦ وتم نشرها على موقع هذه المنظمة.
- عبد الوهاب؛ عبد الله، ٢٠١١: «تفعيل دور مركز رصد البيئة والتنمية في اتحاد بلديات الفيحاء». ورشة عمل بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية. محاضرة أقيمت في فندق الكوالييتي إن في ١٨ كانون الأول ٢٠١١.

- Agence Française de Développement, 2011: "Objectif développement. Nouveaux regards sur le Sud".
- INGALINA Patrizia, 2001: «le projet urbain». Collection Que sais-je, Presses Universitaires de France.
- SEURAT Michel, 1985: «Le quartier de Bâb Tebbâné à Tripoli (Liban): étude d'une 'asabiyya urbaine ». In : Mouvements communautaires et espaces urbains au Machreq, pp : 44-86. CERMOC, Beyrouth.
- UN-HABITAT, 2007: "Inclusive and sustainable urban planning: a guide for municipalities. Volume 1: an introduction to urban strategic planning".
- UN-HABITAT, 2011: "Lebanon urban profile. A desk review report". Beirut.

## مواقع الكترونية

- موقع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى. [www.ifporient.org/node/288](http://www.ifporient.org/node/288)
- موقع مرصد الثقافة في منطقة الوسط (فرنسا). [www.cultureocentre.fr](http://www.cultureocentre.fr)
- موقع مرصد السياسات الثقافية في مدينة غرونوبل الفرنسية، ملف كراسة التقديم، <http://www.observatoire-culture.net>



المحور السادس

# في تاريخية المتاحف

## وطرائق إدارتها



رئيسة الجلسة

الدكتور سميرة بغدادية  
(مؤسسة الصفدي)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

إدارة المتاحف مشروع مادي ولا مادي

المحاضر د. الحبيب بن يونس (المدير السابق لدائرة التنمية المتحفية، تونس)

المحاضرة الثانية

المتاحف كعامل للتماسك الاجتماعي، دراسة حالة: المتحف الاثنوغرافي في جامعة البلمند

المحاضر د. نادين بنايوت هارون (جامعة البلمند)

المحاضرة الثالثة

الهويات الحرفية في المدن البحرية

المحاضر د. جان توما (جامعة سيّدة اللوزة)







## إدارة المتاحف: مشروع مادّي ولا مادّي

د. الحبيب بن يونس<sup>(1)</sup>

### ملخص

تحوّلت صفة المتحف منذ السبعينيات من القرن الماضي تدريجيّاً، وأصبح، مع تعدّد الاختصاصات والانفتاح على علوم مختلفة والاندماج بصفة خاصّة في المحيط الثقافيّ والتربويّ والاجتماعيّ بكلّ أبعاده، من المؤسسات التي تعرّبت إدارتها وتسير بها للنجاح في تأمين وظائفها المتكاملة. فالمتحف مبنّى، مجموعات متحفية مخزونة ومعروضة، حراسة وسلامة بمفهومها العام، برامج ثقافية وتربوية، تنشيط، إدارات وأقسام وما وراءها من أطر وتقنيّين وعملة يؤمّنون العمل اليوميّ، كلّ حسب اختصاصه ضمن مشروع مادّي ولا مادّي، لذا تتطلّب إدارة المتحف توفّر تصوّر واضح لهيكلية التي يمكن أن تؤمّن كلّ هذه المهام بصفة ناجحة.

<sup>(1)</sup> الدكتور الحبيب بن يونس: مدير بحوث بالمعهد الوطني للتراث وجامعة تونس، مدير سابق لدائرة التنمية المتحفية ٢٠١١/٢٠٠٠ ومحافظ عام سابق للمتحف الوطنيّ بباردو ١٩٩١/٢٠٠٠، مدرّس العلوم المتحفية بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بمنوبة والمعهد العالي لمهن التراث في تونس. ddm2010@hotmail.fr

## مقدمة

أخذ المتحف، منذ الربع الأخير من القرن الماضي، منحرجاً حاسماً بمروته تدريجياً من مؤسسة ثقافية أحادية المهام إلى أخرى متعددة المهام والاختصاصات، جعلتها تؤدي دوراً متميزاً في صلب المجتمع. ويمكن الاطلاع بتصفحنا إحدى النشريات الصادرة عن المجلس الدولي للمتاحف على ارتفاع عدد المتحفيين وبالخصوص عن تعدد وتنوع اختصاصاتهم المهنية، حيث نلاحظ أن عدد اللجان المختصة يفوق الثلاثين لجنة، إضافة إلى التجمعات الجهوية وعددها خمسة. وتعنى هذه اللجان بمواضيع مختلفة نذكر منها لجان التكوين، التصرف، السلامة، المحافظة، التربية، النشاط الثقافي، التوثيق، الهندسة والتقنيات المتحفية، الوسائل السمعية البصرية والتقنيات الحديثة، تبادل المعارض، الترويج والعلاقات مع الجمهور. تبدو لنا من خلال هذه اللجان ملامح إدارة المتاحف وتعدد مهامها ما يجعل الإمام بكل هذه المجالات شيئاً ضرورياً في تكوين المدير أو المحافظ العام للمؤسسة المتحفية والفريق الذي يباشر نشاطه بها.

## اللجان المختصة

ICAMT ————— الهندسة والتقنيات المتحفية	↔	INTERCOM ————— التصرف
CECA ————— التربية والنشاط الثقافي	↔	ICMS ————— السلامة
MPR ————— الترويج والعلاقات مع الجمهور	↔	ICOM-CC ————— المحافظة
الوسائل السمعية البصرية والتقنيات الحديثة AVICOM ————— للصورة والصوت	↔	CIDOC ————— التوثيق
ICEE ————— تبادل المعارض	↔	COMCOL ————— تطوير المجموعات

## المبنى

تتكوّن المؤسسة المتحفية من أربعة محاور أساسية تشمل كلّ الاختصاصات التي ذكرناها حيث تتداخل للقيام بالمهمة المتحفية بمفهومها الحديث والمتطور مع الزمن وتطور التقنيات والعلوم المتحفية. فالمتحف هو أولاً بناية ذو خصوصيات وظيفية يجب مراعاتها في تخطيطه الهندسي لتأمين حسن سير كل أقسامه من إدارة وعرض قار وعرض وقتي وخزن وصيانة وترميم وتزويد واستقبال، لذا يستحسن أو يبدو ضرورياً تعيين مدير المؤسسة المتحفية وبعض محافظي المتحف من ذوي الاختصاصات المختلفة لتسطير البرنامج العلمي وتحديد هوية المتحف ومتابعة إنجاز المخطّط الهندسي للمبنى حسب خصوصيات العرض الذي يختلف حسب اختلاف المجموعات المعروضة من جهة وبقية الخصوصيات الوظيفية المذكورة.

## المجموعات

لئن بدأ المفهوم الافتراضي في البروز بالعديد من البلدان، فإنه لا يعدو سوى أداة اتصال وتثقيف من بين الأدوات الأخرى المتوفرة في المجالات التراثية، إذ تقترن كلّ مؤسسة متحفية بمجموعات تراثية أو طبيعية أو غيرها تحدّد هوية المتحف وتسطر برنامجه العلمي، وتكون هذه المجموعات العنصر الثاني الهامّ والمحوريّ في تكوين المؤسسة المتحفية. فعلى كلّ مشروع متحف أن يوفّر هذه المجموعات بكلّ الطرق القانونية والتي تتنافى مع كلّ ما هو محظور بالقوانين المحليّة والدوليّة والتثبت من مصدر كلّ التحف. ويتحتمّ على كلّ متحف المحافظة على هذه المجموعات باتّخاذ كلّ الاجراءات العلمية التي تنصّ عليها المحافظة الوقائية سواء بالنسبة إلى العرض أو الخزن كما يجب ترميم ما يستحقّ الترميم من هذه المجموعات وتوفير أمنها سواء بالمخازن أو خلال العرض الذي يشكل مهمة أساسية في المنظومة المتحفية. ويجب خلال التوضيب المتحفّي استعمال كلّ التقنيات، وأخذ كلّ التدابير لتوفير أحسن عرض ممكن للمجموعات مع تأمين سلامتها، من دون التغافل عن سلامة الزوّار بكلّ أصنافهم.

ونلاحظ إذاً، من خلال المحورين الأوّلين، أي المبنى والمجموعات، الارتباط الهامّ بينهما وتمازج المعطيات المادّية واللامادّية وهي الرصيد المعرفي ورصيد تراكم الخبرات

والإلمام بكلّ الحثيَّات التي تربط كلّ أقسام المؤسسة المتحفية المفتوحة للأصناف المختلفة من الزوّار الوافدين عليها.

## مجموعة العاملين بكلّ الاختصاصات

يشكّل العاملون بالمؤسسة المتحفية، بكلّ أصنافهم، محورًا ثالثًا ذا أهميّة قصوى وأساسية أيضًا يستجيب إلى تعدّد وظائف المتحف والاختصاص. تتفرّع المهن المتحفية إلى إدارة وبحث علميٍّ ومحافظة وقائيّة وترميم وتوضيب متحفّي، الأمن والسلامة الخارجيّة والداخلية وتنشيط، تربية، اتّصال، وساطة، تعهّد وصيانة المبنى، تعهّد وصيانة التجهيزات. فيلّي جانب المهامّ الإداريّة من برمجة وتصرف إداريٍّ وماليٍّ وبحث علميٍّ، فإنّ غالبية المهن، وإن تخضع إلى معطيات علميّة أو تقنيّة، ترتبط بثقافة وتعامل يتطلّبها المجال المتحفّي بخصوصيّاته. فالمحافظة الوقائيّة هي تصرف يوميّ يجب اتّباعه من كلّ العاملين بالمؤسسة، فالامتناع عن التدخين أو الأكل خارج الفضاءات المخصّصة لذلك هو أساس بأمن المؤسسة والمجموعات. ويعدّ من أسس المحافظة الوقائيّة، إلى جانب المعطيات العلميّة الأخرى مثل التحكم في المناخ داخل الفضاءات وغيرها من المتطلّبات المختلفة. فعلى كلّ إدارة متحفية توفير الوثائق التوجيهيّة الضروريّة والسهر على التكوين المستمرّ لكلّ العاملين بالمتحف للتمكن، كلّ في مجاله وفي إطار عامّ تتداخل به كلّ المهام، من أحسن أداء مهنيّ.

## الجمهور

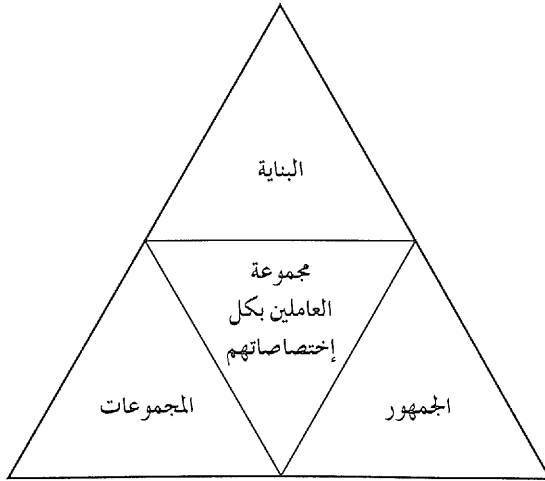
أمّا المحور الرابع المكوّن للمؤسسة المتحفية فهو الجمهور. وكنا نعلم بالأهميّة القصوى التي اتّخذتها، داخل المؤسسات المتحفية، الأقسام المتّصلة بالجمهور بكلّ أنواعه مثل الاستقبال والتربية والتنشيط والاتّصال والترويج، إذ أصبحت من ركائز العمل المتحفّي والضامنة لنجاح المؤسسة في العديد من نشاطاتها. فمتحف من دون جمهور كعروس من دون عريس. فاستقبال الجمهور الذي يجب ألاّ نناسي أنّه يدخل إلى المتحف بمقابل ماليٍّ ومن حقّه التمتعّ بحسن الاستقبال والتمتّع بكلّ هدوء بزيارته للعروض المتوفّرة، لكن هذا لا يعني عدم مراقبته وتوجيهه لتأمين سلامة المعروضات وسلامته أيضًا. ويعدّ تثقيف

الجمهور المتحفّي من مبادئ المحافظة الوقائيّة أيضاً. أمّا التنشيط بكلّ أصنافه، والذي يوجّه إلى شرائح مختلفة من الجمهور، فلا بدّ من ارتباطه بوسائل وطرق بيداغوجيّة خاصّة بالفضاء المتحفّي، إذ يجب عدم الخلط بين دور المتحف ودور المدرسة من دون التغافل عن التكامل الذي يجمعهما.

### المؤسّسة المتحفّيّة

يمكن إذا تجسيم المؤسّسة المتحفّيّة بمثلث أو هرم جامع للمحاور الأربعة وتداخلها وارتباطها عضوياً بعضها ببعض. تتطلّب من إدارة هذه المؤسّسة وخاصّة المدير أو المحافظ العام المسؤول على تسييرها تحليّة، إضافة إلى كفاءاته العلميّة والإداريّة الضروريّة، بثقافة متحفّيّة شاملة ذات خصوصيّة مرتبطة بخصوصيّة المهنة مع المقدرة على ضمان الاتّصال والتواصل بين كلّ العاملين خدمة لقطاع ترفيهيّ فرجويّ وتربويّ الذي أصبح مؤسّسة في خدمة المجتمع.

الادارة، التخطيط والبرمجة



الاقتناء، المحافظة، الترميم

الإعلام، الاتّصال، الاستقبال،  
التربية، الترويج

## المراجع

- Manuel de Muséographie, 1998: Petit guide à l'usage des responsables de musée, Sous la direction de MARIE-ODILE DE BARY ; JEN-MICHEL TOBELEM, Préface de Jacques Barrot.
- SEGUIER Atlantica, 2003: Option culture, Biarritz. (Nouvelles éd.) (1 janvier)
- CHATELAIN Stéphanie, 1998: Le contrôle de Gestion dans les Musées, Préface de Claude Cossu. Avant-propos d'Alain BURLAND, Collection Recherche en Gestion. ECONOMICA.
- GOB André, DROUGET Noémie, 2003: La muséologie: Histoire, développement, enjeux actuels, ARMAND COLIN, Paris.
- POULOT Dominique, 2005 : Musée et muséologie, Collection REPERES, Editions la Découverte, Paris.
- UNESCO, 2006: Comment gérer un musée: Manuel pratique, Publication.



## المتاحف كعامل للتماسك الاجتماعيّ،

دراسة حالة:

## المتحف الاثنوغرافيّ في جامعة البلمند

د. نادين بنايوت هارون<sup>(١)</sup>

### ملخص

في مجتمعنا الحاليّ المتنوع، تشكل المتاحف مفتاحاً لأحد أهمّ الوسائل المؤدّية إلى تحقيق التغيير الاجتماعيّ وتحسين مجتمعاتنا المحليّة والعالميّة - ألا وهي المعرفة والإدراك الثقافيّين. لم يسبق للتعليم الثقافيّ الذي توفّره متاحف العالم أن كان أكثر ضرورة، أكثر قيمة، وأكثر أهميّة بالنسبة إلى مستقبلنا الجماعيّ. يواجه المحترفون المسؤولون عن المحافظة، كقائمين على هذه المعرفة، فرصة لم يسبق لها مثيل لإحداث التغيير الاجتماعيّ والمساهمة في تخطّي الكثير من تحديات المجتمع الهائلة. وقد باتت هذه النظرة التقليديةّ بحدّ ذاتها إلى المتاحف، كمنشآت غير فعالة لحفظ الأغراض وعرضها، شيئاً من الماضي. أمّا اليوم، فتؤدّي هذه المؤسسات دوراً حاسماً وناشطاً في تحسين العالم الذي نعيش فيه، ومنح دروس ثقافيّة غنيّة يجدر بنا أن نتعلّمها لفهم وتقبّل واحداً الآخر ولننمو ونزدهر معاً. من خلال التعليم الثقافيّ، يمكن للمتاحف أن تشكل حافزاً للتغيير فتوفّر نقطة بدء لتعليم يدوم مدى الحياة ومنصّة للتصدّي للمشاكل الاجتماعيّة التي يواجهها العالم في القرن الواحد والعشرين.

(١) الدكتورة نادين بنايوت هارون، عالمة آثار ومتخصصة بالعمل المتحفّي، نائب رئيس المجلس الدوليّ للمتاحف - لبنان منذ ٢٠١١، عضو في المجلس الدوليّ للمتاحف (ICOM) منذ عام ١٩٩٢، حاليّاً تدير إدارة قسم الآثار والمتاحف في جامعة البلمند. nadinepanayot@yahoo.com>, nadine.haroun@balamand.edu.lb



## كيف تساهم المتاحف في تعزيز التواصل بين الثقافات؟

تتسم معرفتنا بثقافات أخرى بأهميّة كبيرة غالبًا ما يستهان بها لجهة قدرتنا على التواصل داخل مجتمعاتنا المتنوّعة وداخل المجتمع العالميّ.

لا يتعلّق التواصل بين الثقافات بإتقان لغات عدّة وحسب، بل يتعدّاه إلى فهم كلّ جوانب الفرد أي السبل التي يعتمدها للتواصل والأسباب التي تجعل سلوكه مختلفًا عن سلوكنا بالإضافة إلى نظرتة إلى العالم.

بالتالي، تقدّم لنا المتاحف المعرفة اللازمة لاستيعاب الاختلافات الثقافيّة وفهمها. وعندما نتسلّح بهذه المعرفة، يصبح باستطاعتنا تفسير السلوك المغاير وتخطّي حاجز اللغة والتواصل بطريقة فعّالة واحترام الآخر، ما يؤدّي إلى توطيد العلاقات بين مختلف الأشخاص بغية بناء مجتمع متماسك.

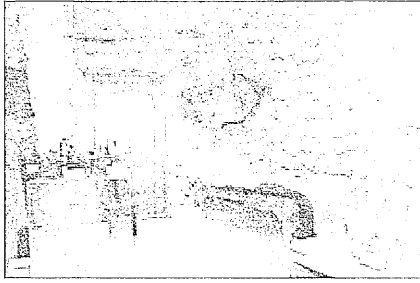
تساعدنا المعرفة المستقاة من المتاحف على تعزيز أشكال التواصل كافّة: رغم أنّنا نملك اليوم التكنولوجيا التي تمكّنا من التواصل مع جمهور عالميّ متنوّع الثقافات أكثر من أي وقت مضى، إلّا أنّنا نفتقر إلى معرفة ثقافة الآخر التي تفتح لنا آفاق التواصل.

كلّما استفدنا من المتاحف لكي نفهم الاختلافات الثقافيّة وأسبابها التاريخيّة، تمكّنا من تحقيق نجاح على مستوى علاقاتنا.

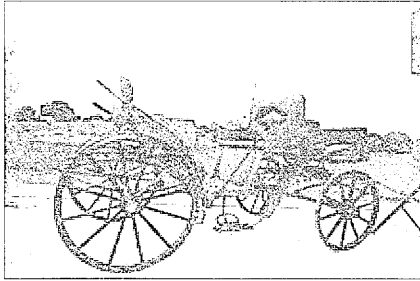
## كيف تساهم المتاحف في فهم الآخر؟

تفتح المعارض أعيننا وآفاقنا على حياة الآخر وتاريخه وقيمه وتقاليده، أي كلّ ما يؤثر في سلوكه. تسمح لنا القطع المعروضة في المتاحف باختبار ثقافة الآخر مباشرة، ما يترك انطباعًا دائمًا ومعبرًا في أذهاننا. فعندما نكتشف قواسم مشتركة مع ثقافة الآخر، نشعر بالربط المتينة التي تجمعنا به. ويسمح لنا التعمّق بفهم هذه الاختلافات بقبوله.

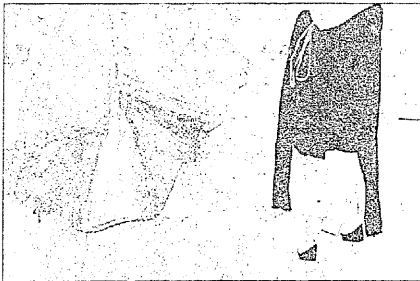
لذلك، تساعدنا المتاحف على رؤية العالم من منظار الآخرين لكي نفهم حقيقة التحدّيات التي واجهتهم، ما يعزّز شعور التعاطف مع الآخر وتفهمه (صورة ١). كما أنّها تمكّنا من معرفة العالم الذي يحوط بنا معرفةً أفضل عوضًا عن الاكتفاء بفهم هذا الجزء الصغير منه الذي ننتمي نحن إليه. تعرض لنا المتاحف الانجازات التاريخيّة التي حققتها



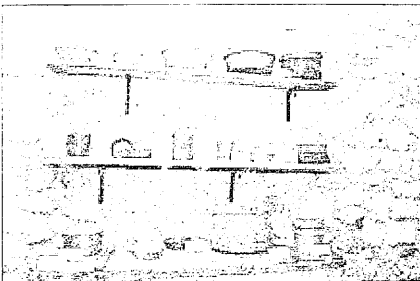
١. دسك وفراشه  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



٢. نقل، حمل  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



٣. ملابس تقليدية  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



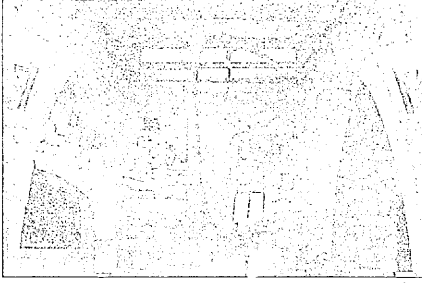
٤. أواني الطهي  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند

الثقافات الأخرى ومساهماتها وقوتها، ما يعزز احترامنا وتقديرنا لها (صورة ٢). تساعدنا المتاحف على تبديد الأفكار المسبقة المؤذية والتخفيف من الاجحاف بحق الآخرين والتميز والعنصرية.

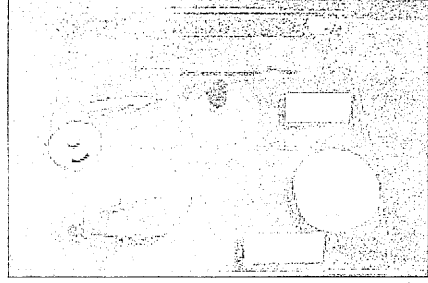
## كيف تساهم المتاحف الاثنوغرافية / التاريخية بالتحديد في تعزيز التماسك الاجتماعي؟

تشهد المتاحف الاثنوغرافية/ التاريخية على أهميّة المحافظة على الثقافات واستخلاص العبر منها. فمن أجل تحقيق هذه الغاية، ينظر الباحثون في القطع والأدوات التي تعود إلى الحقبة الزمنية قيد الدراسة. تتنوّع هذه الأغراض بين قطع ملابس، مثل الأزياء (صورة ٣) والحلي والأحذية، ومستلزمات منزلية، مثل أواني الطهي (صورة ٤)، وأدوات الحلاقة (صورة ٥)، أو المعدّات الزراعية (صورة ٦) إلخ.

تحضّنا هذه المتاحف على الغوص في أعماق الحياة اليوميّة لمجموعة أخرى لاكتشاف عاداتها. وهكذا، تشركنا في ثقافة هذه المجموعات وتمكّننا من تشكيل وجهة نظر قريبة إلى الواقع، ما يوطّد الربط ويعزز فهمنا لها. تؤكّد لنا هذه المتاحف أنّ لكلّ ثقافة قيمتها وأهمّيّتها التاريخية ورأيًا لا



٦. أدوات زراعية  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



٥. أدوات الحلاقة  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند

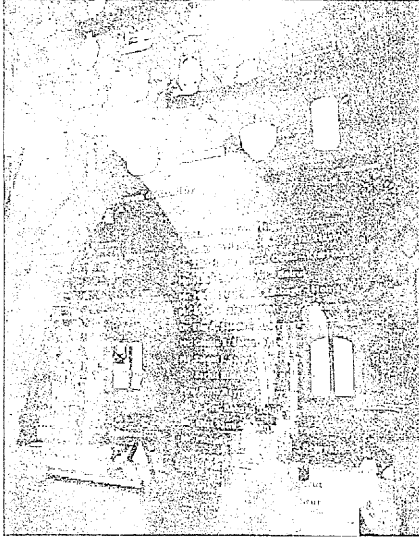
بدّ من أن يسمع وقصة لا بدّ من أن تحكى. كما أنّها تعنى بصون الماضي - وكلّ الماضي - وتحمي التاريخ من محاولات إعادة صياغته بما يصبّ في مصلحة الأقوياء والمهيمنين. فهي تعزّز حسّ الانتماء لدى المجموعات والثقافات المعنيّة.

### دراسة حالة: المتحف الاثنوغرافي / التاريخي في جامعة البلمند

تكثر المتاحف الاثنوغرافية / التاريخية في أوروبا والعالم العربيّ وفي الدول الافريقيّة الجديدة، حيث تعتبر المتاحف وسيلة لتعزيز الوحدة الوطنيّة في دول تضمّ ثقافات مختلفة، ولكن الوضع يختلف في لبنان: (٢)

في مطلع القرن التاسع عشر، أحدثت المصالح الأميركيّة والأوروبيّة الاقتصاديّة والسياسيّة موجة تغيير ثقافي اكتسبت أهميّة كبيرة في الشرق الأوسط، بعد الحرب العالميّة الأولى. بالتالي، انتشرت الأفكار والقطع الثقافيّة الغربيّة في المنطقة بغضّ النظر عن نوعيّتها ومصدرها. وغالبًا ما كانت هذه القطع مأخوذة من مصدرها الأصليّ عنوةً. ومنذ ذلك الحين، أُطلقت عمليّة ثقاف خلقت نوعًا من الالتباس في الطريقة التي ننظر فيها إلى تقاليدنا. (٣) أدى ذلك إلى نوع من التجاهل لهويّتنا ورموزنا الثقافيّة. وفي غياب أيّة رؤية موحّدة لهويّة وطنيّة واضحة ومكتملة، باتت القضايا التراثيّة على أدنى مستوى الاهتمامات الفرديّة والحكوميّة. وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي حالت دون إنشاء متحف إثنوغرافي / تاريخي / تراثي في لبنان.

PANAYOT-HAROUN N., 2009: University of Balamand Ethnographic Exhibition, University of Balamand p. 7 (٢)  
KASSATLY H., 1995: The Orient Revisited, Traditions and crafts, Exhibition Guide, The Collection of Nour Majdalany (٣)  
Hakim, AUB Archaeological Museum 1994, p. 1



٧. لائحة المتبرعين للمعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند

من هذا الماضي الغائب أو المغيّب، نشأت فكرة تأسيس متحف تراثي في جامعة البلمند وطُرحت للمرّة الأولى في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧. ومنذ ذلك الحين، بذلت جهود حثيثة للحصول على عدد كبير من القطع. بدأت هذه المحاولة الخجولة لإنشاء المتحف بشراء ست قطع من سوق طرابلس القديم، وسرعان ما تحوّلت إلى خطوة متقدّمة كان لها مفعول كرة الثلج، حيث إننا استطعنا، خلال ثلاث سنوات، جمع ما يزيد عن ٤٠٠ قطعة، معظمها تقدمه العائلات والأصدقاء

(صورة ٧). وفي أيار ٢٠٠٩، فتح المعرض الاثنوغرافي في جامعة البلمند أبوابه لاستقبال الجميع، ونتيجة للنجاح الذي أحرزه، تمّ تحويله إلى معرض دائم.

المعرض الاثنوغرافي متحفًا علميًا ناشطًا، على المنظمين تأمين النشاطات التالية:

- تنظيم عدد كبير من المعارض بطريقة دورية لتغطية بعض المواضيع التراثية من مجموعتنا أو من مجموعات خاصّة:

١- معاصر الزيت/ صناعة الزيت؛

٢- صناعة الزجاج؛

٣- صناعة الصابون؛

٤- الحمام؛

٥- بيت المدينة؛

٦- السوق القديم / استراحة القهوة.

- تنظيم محاضرات تقترن بهذه المعارض.

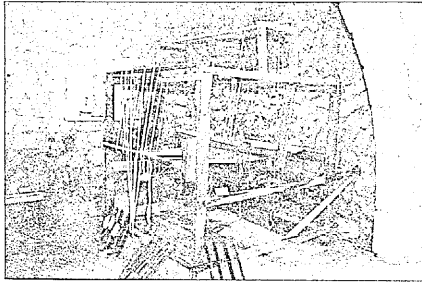
- المطبوعات: على سبيل المثال، نحن في صدد التحضير لمعجم بثلاث لغات يحتوي

على كلّ ما يختصّ بحياة القرية والأدوات الزراعيّة.

- أخيرًا، إنتاج أفلام توثيقية لجميع أنواع الحرف التقليديّة.



٨. مطاحن البنّ  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



٩. النول  
المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند

الآن، وبعد مرور أربع سنوات، وتضافر الجهود وتوافر النوايا الحسنة، ما زالت تنقصنا معلومات أساسية دفعت بنا إلى إعادة النظر بجوهر المتحف الاثنوغرافي الذي كافحنا كثيراً لتأسيسه. وقد اتضح لنا أن كلما حاولنا تصنيف القطع وجردها، باءت محاولاتنا بالفشل لأننا لم نجد أية قواسم مشتركة بينها، من حيث طبيعة هذه القطع وأصلها. عندها، أدركنا أنه كلما تنوع أصل القطع اقتربنا أكثر إلى تحديد تراثنا. صحيح أنه أمر مستغرب أن نرى جارين من القرية نفسها يستخدمان مطاحن بنّ مختلفة تنتمي إلى تقاليد مختلفة وأجزاء مختلفة من العالم، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل ما دخل نسيجنا الثقافي سواء كان غريباً (أي مستورداً) أو محلياً (صور ٨ و ٩).

ومن الطبيعي أن نعتبر كل ما تداولنا به، ودخل ثقافتنا وعاداتنا، كجزء لا يتجزأ من نسيجنا التقليدي. لقد كتب جورج نقاش يوماً: «صنعنا أنفسنا بتواطؤ مستمر مع باقي العالم. إننا ثمرة مؤامرة عالمية وهي مؤامرة أفكار الشعوب وثرواتها. وهذا ما يجعل من رسالتنا أصيلة وحقيقية وعظيمة».<sup>(٤)</sup> لهذا السبب، يعتبر إنشاء متحف إثنوغرافي / تاريخي في غياب ذاكرة موحدة أو رؤية موحدة لتاريخ وطن ما، عملية صعبة جداً ولكنها غير مستحيلة. فالحل الوحيد هو أن نترك القطع ذاتها، مع ذكرياتنا، تقود خطواتنا واحدة تلو الأخرى. فالمجموعة المعروضة في جامعة البلمند صغيرة جداً ولا تستحق أن تعرض في المتاحف بعد، إلا أنها خطوة مبرجة نحو بناء تراثنا الوطني.

## المراجع

- KASSATLY Houda, 1995: The Orient Revisited, Traditions and crafts, Exhibition Guide, The Collection of Nour Majdalany Hakim, AUB Archaeological Museum.
- NACCACHE Georges, 1983: Un Rêve Libanais, 1943-1972, Fiches du Monde Arabe.
- PANAYOT-HAROUN Nadine, 2009: University of Balamand Ethnographic Exhibition, University of Balamand.





## الهويّات الحرفيّة في المدن البحريّة

د. جان عبدالله توما<sup>(1)</sup>

### ملخص

كيف ساهمت التكنولوجيا والعولمة في تغييب المهن الحرفيّة المحليّة المرتبطة بالتراث الشعبي؟ وهل اندثرت هذه المهن لقلة الاهتمام والدعم الرسميين؟ أم نتيجة بروز التصنيع أو انصراف الجيل الجديد إلى «الوظيفة»؟ هل كانت المهن، سابقاً، تعبيراً عن الواقع المعيش مرتبطة بالتراث العائلي، محافظة عليه وتمسّكه به؟ كيف يمكن حفظ هذه الذاكرة قبل أن تلتهمها لامبالاة خطط التنمية واستمرار سياسة التعمية عن رفاة هذه الذاكرة. بما ينحسها ويشتها كشهادة لحيويّة المجتمع؟ كيف يتم ربطها بشكل حي مع المراد الثقافية المهتمّة بمسرى حياة الناس ونمط معيشتهم وحرفهم المتصّقة بلقمتهم وابداعاتهم؟ كيف يمكن لسياسات المتاحف أن تنقل حيويّة هذا المسرى من دون السقوط في متحفيتها لأنّها ما زالت تنبض بالحياة ولو في ضعف ووهن؟

لقد حمل الحرفيون مهنتهم في أسمانهم سنوات عمرهم الطويلة، كما حملها بعضهم بعدما هجروا أو نزحوا من بلادهم إلى ميناء بحري، استوعبهم وأودعوه ملجأ في صدورهم. كان النجار واللحام والحلواني والسكافي والمبيض والقران والفاخوريّ وزملاؤهم من أبناء الكارات السبعة، يزرعون أرصفة الميناء، وساحاته، ومقاهيه شيئاً من حنينهم، وإخلاصهم لمهنتهم حتّى صيروها أسماء لهم، افتخاراً بما صنعتهم أيديهم وأفتدتهم، فصاروا لها مواطنين وصارت لهم هويّات حرفيّة في مدن بحريّة.

(1) الدكتور جان توما، أستاذ وباحث ومتقاعد في الجامعة اللبنانيّة، وجامعة سيّدة اللوزة وجامعة البند. jeantouma@yahoo.com



## مقدمة

منذ رحل الحرفيون عن بلدي وانقرضت المهنة العتيقة بحجة التجديد، خسرت مينائي<sup>(٢)</sup> بعضاً من وهجها ونضارة وجهها. وحدهم أصحاب هذه الحرف الوضيعة رموا وشاح العز على كتفي مينائي، ومنه تفلتت ما تراه اليوم أنجماً لشاطئه ونخيلاً.

لقد عاش هؤلاء الحرفيون في الحارات التي صار الدخول إليها من الصعوبة بمكان. فالعوائق صارت مرتفعة، والسيارات دلفت ووجدت لها كراجات في الداخل ما أعاق حركة مرور المشاة ومنع الأطفال من اللعب بحرية. من سمح للسيارات بأن تسرق ملاعب الطفولة؟ ومن سمح للحضارة وباسم المدينة أن تلغي مساحات العفوية والبراءة؟ معه حقّ المعلم زهير «البقلجي» أن يسحب عربة خضاره وصنعته من الأزقة، إذ فقد هويته منذ تحوّل داخل المدينة إلى مشروع تجاري. ذاك يبحث عن أبنية جديدة، وذاك يدفع بدلات عن كراجات ليرتفع طابقين، وذاك يمنع الأطفال من اللعب بحيوية، وكأنّ الأزقة لم توجد إلا لكي تقف كعقرب في ساعة الزمن. يعرف المعلم زهير «البقلجي» أنّ من يخسر داخله لن يربح خارجه، ومن تخلّى عن صنعته سيخسر هويته، وسيبقى بلا تاريخ وبلا أسماء الأولاد الشياطين الذين كتبوا أسماءهم على حجارة المدينة العتيقة. من يرفض تاريخه يلتق في العراء، تصفعه الرياح، ولا شجر يردّ عنه هبوبها ويبعد الغبار. صرنا في حضارة الباطون، رمل يجيب رملاً وجماد يردّ على جماد.

«كان قمر بلدي رفيق القائمين فجرّاً، يودعهم إلى أعمالهم، صيادين وتجارين وعمالاً. همّه أن يراهم كلّ صبيحة قبل أن يحمل زاده من الوجوه الأليفة ويرحل. قمر بلدي يشبه فجرّاً رغيّف الحبز القمر عند «فران» الحبي، تتقاذفه اليدان ساخناً. عند حرفيي بلدي القمر كالحجر، هو سجلّ للسماء وملجأ لأعشاش العصافير الهاربة من وجع السنين وتكسر الأشريعة»<sup>(٣)</sup>.

(٢) الميناء، هي طرابلس التاريخية التي بناها فينيقيو مدن جبيل، صيدا وأرود، مقرّاً لاجتماعهم السنوي. والميناء مدينة تشكّل، مع طرابلس البلدة، إلى جانب البداوي والقلمون (قضاء طرابلس). غيّر المجلس البلديّ اسمها من «الأسكلة» إلى «الميناء» بالقانون رقم ٧٩/٩ الذي وقّعه رئيس الجمهورية في ٢١ كانون الأول ١٩٧٩، ومن «قرية» إلى «مدينة» عام ١٩٩٦، بقانون رقم ٥٠٧ نشرته الجريدة الرسمية في العدد ٢٤ تاريخ ١٣ حزيران ١٩٩٦. (عبدالله كبارة: الميناء: مدينة البحر تروي قصتها، مطبعة ماب - طرابلس - ٢٠٠٠، من المقدمة).

(٣) جان توما، ٢٠٠١: يوميات مدينة، دار الإنشاء للطباعة والنشر، طرابلس، الطبعة الأولى، ص ٥٥.

يشرح ابن منظور في قاموسه لسان العرب الصنعة فيقول: الحرفة هي الصناعة، وحرفة الرجل: صنعته.<sup>(٤)</sup> ويرى بطرس البستاني أن «الصنعة هي عمل الصانع، وتستعمل عند العامة للحرفة، وتغلب على حرفة الإسكاف».<sup>(٥)</sup> لكن هذه الصنعة صارت حياة في المجتمعات المتقدمة. يقول الروائي حنا مينة في روايته «وحش الفقر»: «الموسم ذلك العام، كان آخر مواسم الحرير في البلدة». «الحرير الهندي حُرِّب بيوت الناس»، قال الوالد يومها للأم: ماتت الدودة المباركة، ماتت الصنعة. متنا نحن أيضًا. يرحمنا الله.<sup>(٦)</sup>

### المدينة البحرية: قرية مهن تراثية

تقوم حلاوة المدينة البحرية على أشعة إنسانة وأعاصير كأصوات الصيادين العائدين بعد ليالٍ من التعب الشاق والعمال الخارجين باكراً إلى أعمالهم يكّدون ويتعبون. المدينة البحرية اليوم مدينتان: داخلية تفتح عينيها باكراً على هدير الريح والعمل، وبراية تتناوب شوارعها مستيقظة على مهل. يبقى من المدينة البحرية وجوه عجائزها في الأزقة القديمة، المتجعدة القسما، المدمعة الأعين، المسندة الظهر إلى حيطان الطفولة العتيقة. تتبادل الأفواه المتكرشة البطولات التي مضت، والحكايات التي انتهت والمهن الحرفية التي اختفت. عجائز كثيرون تخلّعت ركبهم واسترخت أرجلهم. بقيت المدينة البحرية الطيبة وحدها قوية الركب مشدودة الأرجل، ناهدة إلى الفجر، فيما تكحل عينيها بألوان الفرح. ذاك الفرح الذي يسكن المهج، ويجدد الروى فيستقيم ظهر الزمن المنحني ليوامجه الأعاصير.

من هذه الأزقة المقدسة يأتي «الميدان الحرفي كخزان للتراث وكجزء من ذاكرة المجتمعات الوطنية، وبذل الجهود فيه هو حلقة من سلسلة مبادرات تهدف إلى احترام خصوصيات المجتمعات والشعوب»<sup>(٧)</sup> كما تقول الدكتورة فاديا كيوان، الأمينة العامة السابقة للجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة (اليونيسكو)، وتزيد في شرح

(٤) ابن منظور، (ب، ت): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا طبعة، المجلد الثامن، مادة (صنع)، ص ٢٠٨.

(٥) بطرس البستاني، ١٩٧٧: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، مطبعة جواد للطباعة، الطبعة الأولى، مادة (صنع)، ص ٥٢٠.

إميل يعقوب، ١٩٩٣: موسوعة الأمثال اللبنانية، منشورات جروس برس، طرابلس، الطبعة الثانية.

(٦) حنا مينة، ٢٠٠٨: بقايا صور، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ص ١٧٧.

(٧) مها كيال، ٢٠٠٢: تقليد وتجديد (دراسة لقطاع الحرفي في طرابلس)، مجموعة المعرض للطباعة، طرابلس، الطبعة الأولى، ص ٥.

«ضرورة إنماء الميدان الحرفي، لأنّ هذا الميدان ما زال يستقطب فئات واسعة من المواطنين وتشكّل قطاعاً اقتصادياً ذا أهميّة في العديد من الدول النامية، كذلك فإنّ المحافظة عليه وإنماه يشكّلان أهدافاً خاصّة ضمن أيّة استراتيجية وطنية للتنمية المستدامة».<sup>(٨)</sup> وقد يكون قدر الحرفي اللبناني أنّ «يواجه التحديات التي تحوط بعمله إنتاجاً وتسويقاً وحيداً، ومعتمداً على ربّه ونفسه في تدبير أمور صنعته التي غالباً باتت كلّ مصدرٍ رزقه الوحيد من دون أن توفّر له متطلبات الحياة الكريمة (...). الهدف الأكبر يبقى، كما يقول صلاح مطر، الرئيس السابق للمؤسسة العربية للثقافة والفنون، في إقامة قرى ومتاحف للتراث الحرفي لتعريف أجيالنا بأهمّ معالم تاريخنا الحضاريّ، ولتحديد عناصر الجذب الثقافيّ والسياحيّ الضروريّة لتنشيط الحركة الحرفيّة والسياحيّة في لبنان».<sup>(٩)</sup>

بعيداً عن الممارسات الحرفيّة التي قَسّمت المجتمع تقسيماً طبقيّاً نبحت في توارث الحرفة في العائلة الواحدة حتّى أخذت المهنة هويّة أو اسماً للعائلة: «فتوارث الحرفة ضمن العائلة الواحدة، هو مرتبط بما للحرفة ونمطيّة مزاولتها بالطريقة العملائيّة، بطرق وأسرار اكتسبت بالتجربة (...). لهذا كان يصعب على الحرفيّ إعطاء أسرار مهنته إلّا لمن لا يشكّل وجوده منافسة له تهدّده في لقمة عيشه، والابن في الغالب هو أفضل ممثّل لهذا الشخص خصوصاً في ظلّ النظام الأبويّ».<sup>(١٠)</sup> وإن كانت طرابلس المملوكيّة التي بنيت من ركام مدينة طرابلس التاريخيّة أي الميناء، «قد بنيت، أيضاً، على أساس التجمعات الحرفيّة»<sup>(١١)</sup> فإنّ الميناء، المدينة البحريّة لم تعرف إلّا بسوق الخراب<sup>(١٢)</sup> الذي دمره السلطان قلاوون،<sup>(١٣)</sup> والتي عاشت قروناً على الحرف البحريّة التي هي صنيعه البحر، ومن ثروته كالاسفنج الذي شكّل صنعة رائجة يومها حتّى إنّ صيادي الاسفنج<sup>(١٤)</sup> بنوا كنيسة النبي إلياس على نفقتهم في العام ١٨٦٠.

(٨) المرجع السابق، ص ٥.

(٩) المرجع السابق، ص ١

(١٠) المرجع السابق، ص ٣٣.

(١١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(١٢) حكمت بك شريف، ١٤٠٧/هـ-١٩٨٧م: تاريخ طرابلس الشام من أقدم العصور إلى هذه الأيام، حقّقه منى حدّاد يكن ومارون عيسى الخوري، دار الإيمان للطباعة والنشر، طرابلس، لا مطبعة، ص ١٧١.

(١٣) هو المنصور قلاوون (...-١٢٨٩/هـ-١٢٩٠م)، تولّى السلطنة سنة ٦٧٨/هـ-١٢٧٩م، تغلب على الفرنجة في طرابلس وحزّرها العام ٦٨٨/هـ-١٢٨٩م. (عمر عبد السلام تدمري، ١٣٩٨/هـ-١٩٧٨م: تاريخ طرابلس السياسيّ والحضاريّ عبر العصور، مطابع دار البلاد، طرابلس، الطبعة الأولى، ص ٤١٠).

(١٤) جان توما، ١٩٩٧: الأرثوذكس بشرًا وحجرًا في الميناء، دار الكلمة، طرابلس، الطبعة الأولى، ص ٨٠.

## المهن الحرفية اليدوية البحرية

هذه الحرف البحرية التي عرفتها المدن الساحلية، تميّزت في إثناء هذه الثروة، والسهر على إثرائها، بالعمل اليدوي المرخرف، كما في الثريّات اليدوية المصنوعة من قشريات الصدف، أو تلك الأشكال المعمولة من قطع الاسفنج. ولا ننسى الحرفة الأساسية التي كان يتقنها، قديماً، كل ساكني الساحل، وهي صناعة الشباك ورثيها، في محاولة للتعويض عن الشباك التي تتمزق في أيام الصيد، فلا بد من تجديد العدة وتطويرها. ومن الطبيعي أن تحوي الميناء، وبسبب موقعها الجغرافي، العديد من الحرف المرتبطة أصلاً بمحيطها البيئي ونعني بهذه الحرف: حياكة شبك الصيد، التي لم يبق منها اليوم سوى حرفة الرتي، تصنيع المراكب، حياكة القصب»<sup>(١٥)</sup>. ولعل مهنة صناعة الزوارق ساهمت مساهمة فعالة حينها في إيجاد فرص عمل لكثيرين، يوم كان البحر بحرًا يعطي الخيرات من دون حساب. لذلك انسحب اسم المهنة على أسماء بعض العائلات ك«الرئيس، الصيادي، البحري، بحر، الرملي، أبو شبكة، لؤلؤ وغيرها، حتى إن البعض ألحق بأسماء عائلاته شيئاً من أنواع السمك والثروة البحرية ك«قنديل، الحوت، أبو شوكة، وغيرها. وللمناسبة فإن سمك «أبو شوكة»، هو نفسه سمك البطريز، الذي لم تعرفه شواطئنا ومدننا الساحلية إلا عند مجيء باخرة الانقاذ «بياتريس» البريطانية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد غرق البارجة البريطانية فيكتوريا بطريق الخطأ العام ١٨٩٧ في مياه ميناء طرابلس. هذه الباخرة بياتريس كانت رابضة قبل مجيئها في حوض بريطاني بحري، وكانت تحمل بذور بيض سمك غير معروف عندنا، في الحشائش المتصقة على حوضها، ولما وصلت إلى مياه مدينة الميناء، فقس بيض السمك، وظهر نوع جديد سماه أجدادنا «بطريز» تحريفًا لاسم السفينة التي حملته «بياتريس»<sup>(١٦)</sup>.

## صورة المهن الحرفية في الأمثال الشعبية

واستطراداً، لا بد من أن نذكر تنوع الحرف المتوارثة في الميناء البحرية، «نذكر على سبيل المثال: حرفة الفخار، التنجيد العربي، صبّ البلاط اليدوي. ولقد انتشرت في الميناء

(١٥) مها كيتال: تقليد وتجديد، ص ٥٦.

(١٦) سميح الزين، ١٩٦٩: تاريخ طرابلس منذ أقدم العصور، دار الأندلس، بيروت، طرابلس، ص ٣٢٥.

حديثاً وبشكل كبير حرفة النجارة وكلّ ما يرتبط بها من حرف كالتنجيد، التذهيب، الحفر والرسم وحرفة الحلويات العربيّة». (١٧) كما أنّ نوعيّة المهن الحرفيّة خرجت، من واقع العمل المهني والتقني على بساطته وعفويته، قبل دخول التكنولوجيا، سلسلة من الأمثال التي أتت انعكاساً لواقع عمل المهنة الحرفيّة وطريقة تعامل الناس معها، ومن هذه الأمثال، ويظهر في بعضها اقتباسها من جوّ المهن في المدينة البحريّة:

- «بين الخوري والنوري وسمك البوري، للدلالة على متطلبات هؤلاء الثلاثة»، (١٨)
- «اختلف الريح والبحر طلعت الفلة بالمركب»، (١٩)
- «إذا تغيّر مجرى الريح حطّ راسك تحت جانحك واستريح»، (٢٠)
- «إذا رميتو بالبحر، بيطلع وبتمو سمكة»، (٢١)
- «ارم المرسي ع ضمان»، (٢٢)
- «عمر اعطيني وبالبحر ارميني»، (٢٣)
- «بن السكاف حفيان، وابن الحايك عريان»، (٢٤)
- «ابن الصايغ اشتهى ع بيو خاتم»، (٢٥)
- «إجرة الخياط تحت إيدو، أي لا يحمل هم تأمين إجرة رزقه»، (٢٦)
- «الكار سوار من ذهب»، (٢٧)

لكن، ومن وحي المتلين الأخيرين، هل يبدو اليوم كالأمس في هذه الحرف العتيقة؟ لقد صار أهل هذه الحرف ونحن، نتحسّر على زمن كنت فيه «تتعلمق» أمام أسوار البيوت والمحال المتواضعة قبل أن «تتقرّم» أمام ناطحات السحاب والشركات الكبرى. فإذا كانت المدينة هي المساحة التي تربط الإنسان بمحيطه ومجتمعه، فكيف يكون الإنسان مؤسساً

(١٧) مها كيال: تقليد وتجديد، ص ٥٦.

(١٨) إميل يعقوب ١٩٩٣: موسوعة الأمثال اللبنانيّة، منشورات جروس برس، طرابلس، الطبعة الثانية، الجزء الأوّل، ص ٩٨.

(١٩) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ١٢٨.

(٢٠) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ١٣٩.

(٢١) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ١٤٤.

(٢٢) إميل يعقوب، مرجع سابق، الجزء الأوّل، ص ١٧١.

(٢٣) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ١٩٨.

(٢٤) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ٩٨.

(٢٥) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ٩٩.

(٢٦) المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ١١٧.

(٢٧) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ١١٢٧.

في وضع دعائم وركائز لتنظيم حياته وعلاقته مع الماضي والحاضر والمساحات العامة والعمران والعلاقات الاجتماعية؟ ما هي الأطر والآليات الفعالة التي تسمح باستقطاب أكبر شريحة ممكنة من المجتمع المدني لإشراكها في حياة المدينة العامة؟ إذا اعتبرنا أن المدينة الحاضرة هي ساحة التكوين الإنساني المجتمعي المدني والحضري في أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ كيف يمكن أن نخرج طاقات ومواهب وابداعات أهل هذه المدينة عبر التاريخ من المؤسسة «الذاكرية» الثابتة والقيم الجامدة للدخول إلى المدينة الحية، أي المتحف الحي؟ نحن نقول دائماً إن الناس ترحل لكن المدن تبقى. فما العمل لكي نقبل بأن تتطور المدن أو تتحول مع رحيل منشئها، من دون أن تخسر هويتها، ومهنها، وحرفها، ويومياتها؟ إذ، كما تقول ناديا تويني، «وأعرف بالذاكرة مستقبل أيامي».

### دور المهن في توطيد العلاقات الإنسانية

هذه الحرف اليدوية نستحضرها بالذاكرة لنؤكد بها أهمية التعاون الأهلي والتعاقد، والتناصر في الميناء، حتى ساد القول السائر: «ابن ميني». فترى المسيحيين مثلاً يتبرعون مالياً لبناء «مسجد عمر بن الخطاب»<sup>(٢٨)</sup> كما ورد في دفتر التبرعات الصادر عن لجنة بناء الجامع في الستينيات،<sup>(٢٩)</sup> وترى الصيادين المسلمين أيضاً يسهمون يدوياً بترميم الكنائس، كما رأينا في بناء كنيسة النبي الياس، زمن الاقتتال الأهلي، في جبل لبنان العام ١٨٦١، بعد عاصفة بحرية كادت تؤدي بحياتهم.

ثم إن أبناء «سوق الخراب» الذي تركه السلطان قلاوون خراباً بعد انتصاره على الفرنجة مدمراً مدينة طرابلس التاريخية، أي الميناء كيلا يعود الفرنجة،<sup>(٣٠)</sup> هم فعلة وعمال، وهذا المجتمع الحرفي اليدوي العتيق، هو الذي صنع الحجر الرملي واشتغل بالكلس لدهان الحيطان، وصنع أدوات البناء بمهارة، ولعل ذاكرة أبناء الميناء العتيقة وأرشيفها، تبيّنان مهارة اليد الحرفية الميناوية حينها، وفق الأساليب العمرانية القديمة كبناء القناطر وحجارة الزوايا

(٢٨) هو جامع الداكيز (عمر بن الخطاب)، بنى هذا الجامع أحد أفراد عائلة الداكيز، خلال العهد العثماني، وبعد هدمه خلال أحداث العام ١٩٥٨، مع برج المرابي، أعيد بناؤه العام ١٩٦٧، وأطلق عليه اسم «جامع عمر بن الخطاب» (عبدالله كياره، ص ٣٩).

(٢٩) بيان بالتبرعات والمصاريف لبناء جامع عمر بن الخطاب - ١٩٦٩م - ١٣٨٩هـ.

(٣٠) عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ص ٣٨.

وغيرها، فهذا هو كبير البنائين (شيخ المعمرجية) أنطون الكيك، (١٨٨٥-١٩٨١) (٣١) وهو لَقَب موثق (٣٢) من رئيس بلدية الميناء عبد الستار علم الدين في الثلاثينيات (٣٣) بيني الجزء المزيد على مئذنة الجامع الحميدي (٣٤) والمعلم جرجس توما (١٨٨٢-١٩٣٣) (٣٥) وعماله يشتغلون بجامع الأيوبيين (٣٦) في الثلاثينيات في «الحارة الجديدة»، (٣٧) ما يفيد بأن مجالات عمل الحرفيين المعماريين طالت أحياء الميناء كلها من دون أن يشعر هؤلاء الحرفيون أن نتاج مواهبهم العمرانية حكراً على أبنيتهم، أو أحيائهم. ومن الواضح في سجلات محكمة طرابلس الشرعية، أن طائفة حرفة المعمارية كانت للمسيحيين إضافة إلى طائفة الصياغ: ويجب هنا التنبيه إلى أن تمرکز المسيحيين في بعض الحرف أو الأحياء، لا يعود إلى أسباب إيدويولوجية أو طائفية، بقدر ما يعود إلى معطيات موضوعية وسوسولوجية؛ فقد كان انتماء الفرد إلى عائلة، ثم إلى حي، أو حرفة، يوفر شعوراً بالانتماء إلى إطار مميز، يوفر شعوراً بالتضامن بمائل الشعور بالتضامن الذي يوفره الانتماء إلى الطائفة، إن لم يفقه في بعض الأحيان، وتالياً بقدر ما كانت الملكيات العقارية في الأحياء متوارثة ضمن العائلة، كان الانتماء الحرفي والحفاظ على أسرار الحرفة متوارثاً إلى حد بعيد وكان يعد مصدر فخر واعتزاز. (٣٨)

## المهنة تراث عائلي وأقاب

وبالعودة إلى الهوية الحرفية وسقوط الاسم العائلي الأصلي لمصلحة لقب المهنة، نلاحظ أن مهنة الأب هي التي صبغت أسماء معظم العائلات، فبالعودة إلى لوائح الشطب الانتخابية في الميناء (٣٩) للعام ١٩٩٨، وفي لوائح العائلات الأكثر أصواتاً انتخابية نلاحظ أسماء العائلات المهنية التالية: الحلو، الصايغ، العشي، الفلاح، القماش، المبيض، اللون،

(٣١) من إخراج قيده العائلي.

(٣٢) من إرشيف بلدية الميناء العام ١٩٣٤.

(٣٣) مواليد العام ١٨٤٩، كان رئيساً لبلدية الميناء من (١٩٣٢-١٩٣٤). عثر طويلاً. توفي العام ١٩٦٤.

(٣٤) بني العام ١٩٠٢ على أنقاض أول مدرسة رسمية أنشأها الأتراك في الميناء (عبدالله كياره، ص ٣٩).

(٣٥) من إخراج قيده العائلي.

(٣٦) جامع الحارة الجديدة، بناه أحمد بن أحمد حسن المر الأيوبي العام ١٩٣٠. (عبدالله كياره، ص ٣٩).

(٣٧) يعود تاريخ السكن فيها إلى الحاج أحمد حسن المر الأيوبي العام ١٩١٤ وكانت منطقة بساتين تعود ملكيتها إلى الطليان (عبدالله كياره، ص ١٣).

(٣٨) عبد الغني عماد، ٢٠٠٤: العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام. جامعة بلنمد والمعهد الفرنسي وجامعة القديس يوسف، مطبعة أنيس التجارية، ص ٧٢.

(٣٩) انتخابات بلدية الميناء، ١٩٩٨، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، طرابلس، الطبعة الأولى، ص ٣٨.

النَّجَّار، الشيخ، الخوري، الشَّمَّاس، القندلفت، حدَّاد، خانجي، خبَّاز، خولي، دبَّاغ، زيتونة، سمّنة، صبَّاغ، طرايشي، عصفيري، قبطان، قنّواتي، قصاب، لحّام، معاليقي، معصراني، نَشَّار، ياسمين، الحايك، بارودي، بوّاب، بيطار، تاجر، جمل، حجَّار، حصني، دياب، ديب، ديو، زيات، طحّان، لَبَّان، نحّاس، خيَّاط، كيَّال، دروبي، الرطل، الكيلو، قطرميز، الفوّال، براميلي، العوّاد، الداية، الفاخوري، الحلاق، الساعاتي، بداس، المعماري، الفرّان، القهوجي، وغيرها.

كما يمكن تسجيل أسماء لعائلات بحسب أمكنة نزوحها: البديوي، البتروني، الترك، التركماني، الحمصي، الحلبي، الحموي، الجبيلي، الشامي، العكاري، المصري، المالطي، الهندي، بيروتي، الحجازي، عرب، الصيداوي، العكاري، الكردي، المكاوي، اللاذقاني، الأروادي، الأميوني، الصوري، تركية، الحوراني، الحاماتي، المصري وغيرها. وهناك ألقاب لعائلات وردت بحسب المأكولات: البرغل، الرز، عدس، اللوزي، الحامض، الزعتر، الدبس، الزيتونة، الكوسا، بصل، وغيرها.

وقد يطرح سؤال: هل ألحقت مهنة المرأة باسم عائلتها؟ إذ «لم يكن للمرأة في طرابلس دور عمليّ خارج ما نسميه عالمها النسائيّ الخاصّ، ونعني العائلة والمنزل. حتّى إنّ مفهوم العمل النسائيّ الخارجيّ كوسيلة للكسب المعيشيّ كان مرفوضاً اجتماعياً، فالعمل وإعالة البيت اقتصادياً كانت من مهامّ الرجال فقط.»<sup>(٤٠)</sup> ومن أهمّ حرفها: الحياكة، العقادة، التقشيش، تحضير بعض الأطعمة، الخياطة والتطريز... ولكن كيف نفسّر أسماء عائلات ظهرت: الداية، خياطة، خاروطة، سميرة، حلّيمة، كريمة، الوزه، تركية، صابونة، عكرة... وهي ألقاب عوائل بصيغة المؤنث؟! وقد ظهر هذا واضحاً في العصور العربيّة، كما في بخلاء الجاحظ،<sup>(٤١)</sup> في روايته حول بخل مريم «الصناع».<sup>(٤٢)</sup> ورغم قلة تعريف المرء بمهنة النساء، إلا أن الأمثال الشعبيّة حفظت لها الدور الحرفي الاقتصادي كما في المثل القائل: «الإبرة غلبت الحايك»، وهو مديح في سيّدة المنزل التي تحسّن رتق ثياب أولادها وخياطتها فتوفر مال زوجها وتستغني عن الحايك».<sup>(٤٣)</sup>

(٤٠) كيّال، ص ٣٥.

(٤١) عمرو بن بحر (٧٨٠م/٨٦٩م)، كبير أئمّة الأدب، مولده ووفاته بالبصرة، فُلج آخر عمره، وكان مشوّه الخلقه. مات والكتاب على صدره، قتله مجلّدتان من الكتب وقعت عليه. (خير الدين الزركلي، ١٩٩٢: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة، المجلّد الخامس، ص ٧٤).

(٤٢) بطرس البستاني، محيط المحيط، إمراة حاذقة بالعمل. مادّة (صنع)، ٥٢٠.

(٤٣) إميل يعقوب: موسوعة الأمثال اللبنانيّة، الجزء الأوّل، ص ٨٦.



## شخصيات المهنة الزائفة

كلّ هذه الألقاب لم تسقط من الذاكرة الشعبية والمطلوب أن يسهر القائمون على تسجيل هذه الذاكرة قبل أن تضيع، بعد أن رحل المميّزون في زمان المدينة البحرية. فيها العواد الأعمى، في هجمة العمران على زاقوق بيته، حمل عوده، قَطَعَ أوتاره، كسر زنده، تركه ينزف مفاتيح موسيقية. عربش العواد الأعمى على عريشة العمر، ورحل مع حبات العناقيد المتكئة على عين الحايبة العتيقة. (٤٤)

كذلك عزيزة الداية كانت جسراً، ولكن بعد بروز مستشفيات الولادة، تملل الجسر من كثرة الملل، تقلّب على مدى الريح، خلع رباطات طرفيه، تلوى كما يتلوى النسيم على أطراف الأوراق اليابسة. ملمم الجسر أشياءه الحلوة ورحل. تركتنا عزيزة الداية معلقين على ذكريات لا تعرف طعم الهجرة، تحتنا واد و فوقنا سماء، نمدّ أكفنا لنلمس جنبات الجسر، فلا جسر ولا حبال. وحدها يد عزيزة الداية تمتدّ فتعيدنا إلى التهجئة الأولى، وإلى انفجار البدايات. (٤٥)

كما أصحاب المهنة العواد والداية كذلك السكاف الذي كان يبّل المسمار الذي يضعه في قفا الحذاء بماء ريقه حبّاً بصنعة يعتاش منها فيسكب فيها ممّا أعطته من صحّة و حياة حلوة وبركة. سقطت الأيدي المباركة مع رحيل السكاف وطار المسمار المبلل بريقه إلى حيث لا يريق ولا لمعان. (٤٦)

وها الفاخوري الذي كان يجد لذّة في عمله اليدويّ المنهك قبل أن تدخل الآلات وتخفّف من تعبهِ. لكن تبقى الجرار المتكئة اليوم في أجران المنازل، وعند مداخل بيوت القرى، تشتاق للمسات صانعها ولنظراته، فكلّ قطعة خرجت من بين يديه تحمل طعم عرقه ولون عينيه، وبعضاً من صور من أحبّهم. (٤٧)

أمّا الحلاق فحكاياته لا تنتهي، عنده تبدأ رحلة الأطفال العصافير، تركز إلى دكانه، تبّل ريقها بقطرات ماء قنينته التقليدية التي يرشّ بها ماء أمام المحلّ لمنع الغبار من التصاعد، فيما تزداد عجقة مقصّه وتعلو نغمات شتائمه ويكبر خوف الزبائن على أطراف آذانهم.

(٤٤) جان توما: يوميات مدينة، ص ٢٦.

(٤٥) جان توما: يوميات مدينة، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤٧) المرجع السابق، ص ٩٥.

الحلّاق كان لسان الحيّ وأذنه. دفتر العمر هو، فلا تغلقوا صفحاته. (٤٨)

كان، أيضاً، بولس الساعاتي يخفي تحت كميّه، عشرات الساعات، كلّما ناولته ساعة ليصلحها، وضعها في جيب سترته ميتة، ثم تراها في اليوم الثالث قائمة حيّة على ساعده الأيسر أو الأيمن، إلى جانب تكتكات لساعاتٍ أُخر. كان بولس الساعاتي يفكّ زرّ كمّ القميص ويرفعه، لتشير أنت إلى ساعتك لتتناولها منه، تأخذها من بين ذراعيه إلى صدرك، وتنتقل هي من عرق ينبض بالحياة إلى زندك الممتلئ حيوية. (٤٩)

وأبو بشارة المعماري من الفعلة الأوائل الذين حملوا حجارة الميناء القديمة وعمّروا بها البيوت الأولى. «أبو بشارة المعماري من عاجني التراب وصانعيه طينا يعمر ويني. المعمر جي الحرفي كان يومها مهندساً ومقاولاً، عمّر مع رفاقه بأيديهم مدينة جميلة، فغيّرنا عمارتها بالآلات، قطعنا أوصلها بالشوارع، أقمنا المتاريس الباطونية في وجه الشمس، تسليناً بنزع أشجارها من بؤبؤ عينها، تكالبتنا على أمواجها وقزمتنا أفقها يوم أسقطنا القمر من عن سطوحها. لو تعرفون كم أخذت كلّ قطعة قرميد من وقت الفعلة الأوائل؟ وكم أخذت ورقة الحيطان من وقتهم أيضاً؟ أخذت أعمارهم كلّها في قرون، ونحن أخذنا عمرها في لحظات». (٥٠)

وأخيراً ذلك القهوجي الذي لم يتقن في حياته إلا صنع القهوة وتقديمها للناس. يجد في كأس ماء باردة يقدّمها لطالبا هبة من الله ليبلل احتراق حلق واحد. منذ أن امتلك هذه المهنة وموهبته إلى تطوّر وصقل. يتلاعب بصينية تحمل عدداً من فناجين القهوة الساخنة المجاورة لكؤوس ماء باردة يتنقل بها بين الحضور. كلّ شيء جاهز عنده يأخذ شكل خدمته. فالمساء حبات قهوة شقراء تتقلّب على محمص ناري يدوي، ومتى اسودّت هبط الليل بأجنحته مكلّلاً بحبيبات السكر الساطعة كالنجوم في ركوة تحضن كنز العارفين طعم فنجان بعد أرق أو سهر أو تعب أو وجع رأس. (٥١)

وها هو داس، أي صاحب المهماز أو العصا تعبيراً عن مهنة الحرس، كان يتباهى ببطاريته الوحيدة في المدينة، تقاعد بعد أن كان عسكرياً وأخذ يعمل على إدخال الشخص

(٤٨) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٤٩) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٥٠) جان توما: يوميات مدينة، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٥١) المرجع السابق: ص ١٦٢.

إلى مقعده في صالة السينما على ضوء بطاريته الوحيدة. ولكن لما كثرت البطاريات، زمن الحرب، وتاهت بطاريته بينها، في تلك الليلة حمل بو داس هممه وقفل عائداً إلى دارته، يلعب بنور البطارية على الحيطان العتيقة وعلى الحجارة التي تساءلت عن سبب مآزحه إيّاها. لم يلقِ التحية على الياسمين المريحة بخجل عند سور بيته، لم يخبط باب بيته بقوة ليقفز القمر من غفوته أمام المصطبة. تلك الليلة لم يفتح بو داس نور بطاريته، أسكتها لم يرفع ستارة شاشة خياله، أسدل الستائر الفضية، أعلن انتهاء المشاهد، يقولون إن بو داس مضى باكراً قبل انتهاء العرض، بعضهم يقول: مضى إلى حيث نجوم السينما الذين يلمعون في عتمة تحتاج إلى نور بطاريته.<sup>(٥٢)</sup>

### المهن: بين الاستنهاض والاستمرارية

هي ذي المهن الحرفية تلمع في عتمة النزاع قبل الموت، هي بحاجة إلى دعم المسؤولين وإلى حضور رسمي وأهلي ينقذها قبل أن تمضي وتمضي معها ذاكرة المدينة وتاريخها، خاصة وأن مدن الفيحاء من أكثر المدن التي تحتفظ حتى اليوم بقطاع حرفي تقليدي ناشط. إن هذا القطاع ما زال واعدًا لتفعيل الاقتصاد المحلي وفي إيجاد شبكة جديدة من العلاقات للمدينة بمحيطها المحلي الإقليمي والدولي. يمكن لهذا القطاع أن يوجد فرص عمل كبيرة لمؤسسات صغيرة تتوافق والمنطق الثقافي والاقتصادي المحلي الذي ما زال عائلي الطابع بشكل كبير. كما يمكن لهذا القطاع، وبسبب حجم المؤسسات الصغيرة فيه، أن يوجد ديناميّة اقتصادية تأثرها محدود بالأزمات الاقتصادية الصناعية العالمية.<sup>(٥٣)</sup>

أمام هذا الحنين بدافع رسم مستقبل ناشط للقطاع الحرفي الذي يعدّ أقل ضرراً على البيئة بسبب الكثير من الخدمات الطبيعية التي يعتمد عليها في إنتاجه وبسبب حجم التصنيع ومستلزماته الفعلية. كما العودة لتفعيل هذا القطاع قد يساهم في التخفيف من منطلق الاستهلاك الصناعي الطابع. ويعيد للأشياء المنتجة قيمتها الاستهلاكية الراشدة التي نحن بأمس الحاجة إلى إعادة ثقافتها في ظل هيمنة الهجمة الاستهلاكية الصناعية التي نعيشها.

(٥٢) المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٥٣) خطة التنمية الاستراتيجية، الفيحاء، ٢٠٢٠، ٢٠١١: التقرير الاستشاري النهائي، اتحاد بلديات الفيحاء، مشروع تنظيم القطاع الحرفي، ص ٢٠٩.

هذا يستدعي عملاً دؤوباً لنشر ثقافة الاهتمام بالحرف التقليدية والحفاظ عليها بتوفير حوافز للعاملين فيها. ولعلّ مدينة الميناء البحرية، شهدت في ولاية المجلس البلدي السابق (٢٠٠٤-٢٠١٠) برئاسة عبد القادر علم الدين تجربة ميدانية لرؤية تتعلق بالقطاع الحرفي دعماً واستثماراً، وهذه التجربة تلخّصت بإنجاز مشروعين رائجين يحميان الحرف القديمة ويساهمان في نهضتها، هما المكتب السياحي والسوق الحرفي. قام المشروعان بتمويل من الاتحاد الأوروبي، صندوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية عبر مجلس الانماء والاعمار. أبصر المكتب السياحي النور ووضع خططاً مع الوزارات المعنية ومكاتب السياحة والسفر لتنشيط الحركة في الأسواق القديمة، ودفع السائحين إلى زيارتها وإنشاء محالّ أرتيزانا وحرفيات محلية ما يسهم في تطويرها والمحافظة عليها. ولكن مع الأسف، تمّ إقفال هذا المكتب بعد انتخاب مجلس بلديّ جديد ٢٠١٠. أما المشروع الثاني فقد تمّ تأهيل السوق الحرفي في الميناء القديمة، وتألّفت لهذا الشأن جمعية اهلية لاستثمار هذا السوق وتحويله إلى متحف واقعي للحرف اليدوية والمحلية. إلا أنّ انطلاقة العمل في هذا السوق، وهو الشريان الأساس للحفاظ على هذه الحرف، لم تكتمل وللأسف أيضاً، تمّ الترميم ولم يستثمر السوق منذ العام ٢٠٠٩.

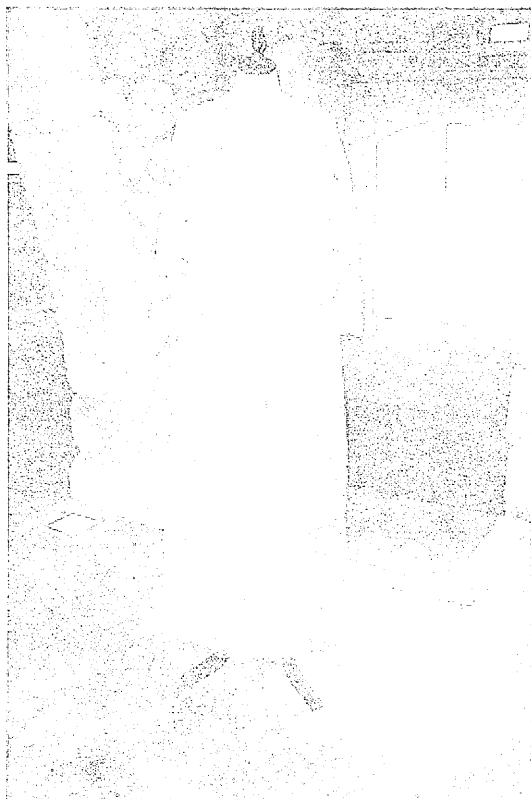
ختاماً يقول لكم الصياد الرئيس أديب الناظر «عصفورة الشاطيء»: «أن إتركوا، أيّها القائمون على المدن، شيئاً من ذلك القديم، اعمدوا إلى إنشاء المتاحف الحية في الأزقة نفسها، والمواقع ذاتها. إسهروا، مع الأحياء في الأحياء القديمة، على إحياء تلك المهن التي تكاد تصبح كذاكرة مترجرة مهددة بالسقوط من دفتر البلد وكتابه.

أعطوا الحرفيين دعماً ورعايةً، وخذوا من أيديهم العارية الضارعة المبتكرة، ما

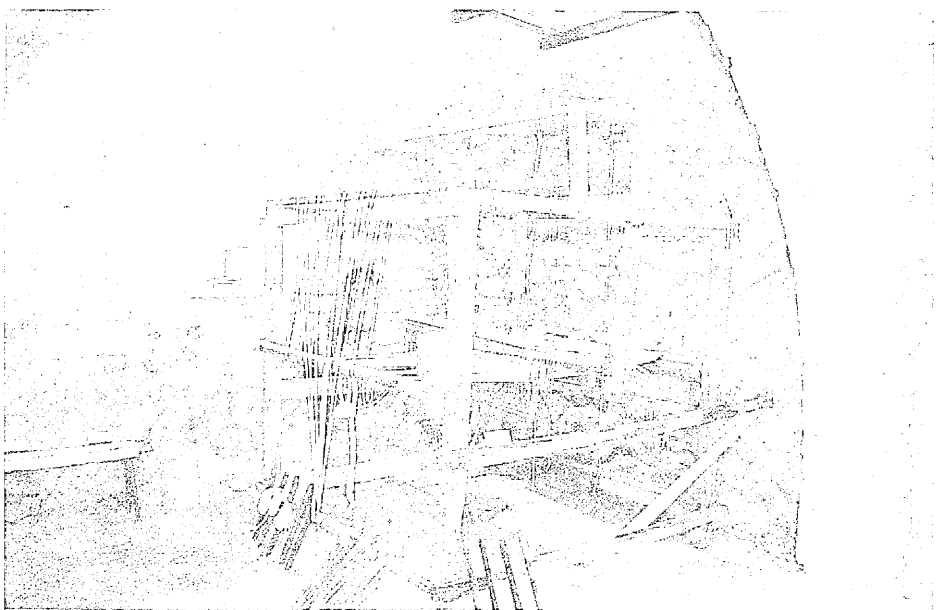
يدهش العالم.

## الهـر اءء

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا طءعة، لا تاريخ.
- البستاني؛ بطرس، ١٩٧٧: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، مطبعة جواد للطباعة، الطءعة الأولى.
- اتحاد بلديات الفيحاء، ٢٠١١: خطة التنمية الاستراتيجية ٢٠٢٠، التقرير الاستشاري النهائي، مشروع تنظيم القطاع الحرفي.
- توما؛ جان، ١٩٩٧: الأرثوذكس بشرًا وحجرًا في الميناء، دار الكلمة، طرابلس، الطءعة الأولى.
- ..... ٢٠٠١: يوميات مدينة، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، طرابلس، الطءعة الأولى، حزيران.
- الزركلي؛ خير الدين، ١٩٩٢: الأءلام، دار العلم للملايين، الطءعة العاشرة.
- الزين؛ سميح، ١٩٦٩: تاريخ طرابلس منذ أقدم العصور، دار الأندلس، بيروت.
- شريف بك؛ حكمت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م: تاريخ طرابلس الشام من أقدم العصور إلى هذه الأيام، حَقَّقته منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري، دار الإيمان للطباعة والنشر، طرابلس، لا مطبعة.
- عبد السلام تدمري؛ عمر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مطابع دار البلاد، طرابلس، الطءعة الأولى.
- عماد؛ عبد الغني، ٢٠٠٤: العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام. جامعة البلمند والمعهد الفرنسي وجامعة القديس يوسف، مطبعة أنيس التجارية.
- ..... ٢٠٠٤: انتخابات بلدية الميناء ١٩٩٨، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، طرابلس، الطءعة الأولى، نيسان.
- كباره؛ عبدالله، ٢٠٠٠: الميناء: مدينة البحر تروي قصتها! مطبعة ماب - طرابلس .
- كيال؛ مها، ٢٠٠٢: تقليد وتجديد (دراسة للقطاع الحرفي في طرابلس)، مجموعة المعرض للطباعة، طرابلس، الطءعة الأولى.
- لجنة بناء جامع عمر بن الخطاب، بيان بالتبرعات والمصاريف ١٩٦٩م - ١٣٨٩هـ.
- مينة؛ حنا، ٢٠٠٨: بقايا صور، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطءعة الثامنة.
- يعقوب؛ إميل، ١٩٩٣: موسوعة الأمثال اللبنانية، منشورات جروس برس، طرابلس، الطءعة الثانية.



مِبْدَل من جهاز العروس - المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



تُول - المعرض الاثنوغرافي الدائم في جامعة البلمند



المحور السابع

## أنشاق العمارة،

# شروط البناء المتحفّي، والمادّة المتحفّيّة



رئيس الجلسة

الدكتور نواف كبادرة  
(جامعة البلمند)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

المتاحف في لبنان وطرق ترميمها (نموذجاً متحفّي طرابلس وصيدا)  
المهندس فادي هندي (استشاري هندسة ترميم) قدم عرض PowerPoint خلال المؤتمر

المحاضرة الثانية

المحافظة الوقائيّة وشروط البناء المتحفّي  
المحاضر د. سماح الصرار في (المعهد الوطني للتراث دائرة التنمية المتحفّيّة، تونس)

المحاضرة الثالثة

المتحف الشعبيّ وحلقات التواصل التراثي  
المحاضرة د. سرية عبد الرازق صدقي (كلية التربية الفنيّة، مصر)





## المحافظة الوقائيّة وشروط البناء المتحفّيّ

د. سماح الصرّافي<sup>(١)</sup>

### ملخص

المحافظة الوقائيّة للقطع المتحفّيّة هي اليوم علم قائم الذات إذ لا يمكن إنشاء متحف من دون الرجوع لقواعد المحافظة الوقائيّة والتي نخترلها خلال هذه المداخلة في نقاط ثلاث:

- البناء المتحفّيّ واختيار الموقع المناسب مع مراعاة الخصائص الجيولوجيّة والمناخيّة وعوامل التلوث...
- البناء المتحفّيّ ومدى استجابته للوظيفة المتحفّيّة: المنازل والقصور التاريخيّة والقديمة هل هي مناسبة للعرض المتحفّيّ أم لا؟
- البناء المتحفّيّ وشروط الإضاءة والرطوبة والحرارة مع الإشارة إلى الأضرار الناجمة في حالة عدم احترامها.

### مقدّمته

إنّ المهمّة الأولى للمتحف هي حفظ التراث المادّي للأجيال الحاضرة والمستقبليّة، هذا التراث المادّي الذي يعود إلى مئات، بل آلاف السنين، هو أكثر عرضة للخطر في

(١) الدكتورّة سماح الصرّافي: المعهد الوطني للتراث، دائرة التنمية المتحفّيّة، تونس. تعتبر أول دكتورّة متخصصة في بلدها في مجال المحافظة الوقائيّة للقطع المتحفّيّة. samehsraffi@yahoo.fr

المتحف من أي وقت مضى لأنّ التقلبات الحراريّة وزيادة الرطوبة أو نقصانها والتعرّض للأشعّة فوق البنفسجيّة والحشرات والغازات الجويّة والتعامل غير المسؤول مع القطع، يمكن أن يخرب كلّ ما حفظته الطبيعة. لهذا أدرج المجلس الدوليّ للمتاحف، في مدوّنة أخلاقيّات المهنة للمتاحف، فصلاً يعني بحماية المجموعات المتحفية بعنوان المحافظة الوقائيّة ينصّ على أنّ: «المحافظة الوقائيّة هي عنصر هامّ في سياسة المتاحف وحماية المجموعات، وعلى كلّ الأطراف العاملة بالمتاحف خلق وتوفير محيط واقٍ للمجموعات التي بعهدتهم وذلك عند عرضها أو خزنها أو نقلها».<sup>(٢)</sup>

### المحافظة الوقائيّة كعلم

المحافظة الوقائيّة هي علم ميدانيّ حديث العهد عرف نجاحاً وانتشاراً بدءاً من سبعينات القرن الماضي حيث تعدّدت المقالات والمؤلّفات في هذا الاختصاص مهتمّة بعدد من المشاكل التي تهّم المتحف والقطع المتحفية كالتّي تتعلق بكيفيّة نقل التحف والسلامة داخل المتاحف وتهيئة المخازن وتصميم واجهات العرض واختيار المواد غير القابلة للتحوّل وصناعة الركائز والوقاية من الكوارث... إذا المحافظة الوقائيّة تهتمّ بأسباب التلف، لذلك هي لا تتعامل مباشرة مع القطعة بل تتعامل مع محيطها من حرارة ورطوبة وإضاءة... وذلك بخلق شروط أحسن للحفاظ لتحميها من الشيخوخة ولتفادي الأضرار الممكنة، كلّ ذلك إضافة إلى كفيّة التعامل مع القطع والامسك بها وطرق تكييف الجوّ.

### المحافظة الوقائيّة والبناء المتحفّي

لإنجاح مهمّة المتحف المتمثّلة في حفظ الذاكرة، يتوجّب إذا وضع الاستراتيجية التي يمكن تعريفها «بفنّ تنظيم مجمل الأفعال اللازمة والضروريّة لحفظ القطع المتحفية»،

Statuts de l'ICOM, adoptés par la 16<sup>e</sup> Assemblée générale de l'ICOM (La Haye, Pays Bas, 5 septembre 1989), et amendés (٢) par la 18<sup>e</sup> Assemblée générale de l'ICOM (Stavanger, Norvège, 7 juillet 1995) puis par la 20<sup>e</sup> Assemblée générale de l'ICOM (Barcelone, Espagne, 6 juillet 2001) paragraphe 2.23

وعلى مستوى أشمل وضع سياسة متحفّية مركزة على نقاط الضعف ونقاط القوّة لهذه المؤسسة، آخذين في الاعتبار التهديدات والحظوظ، بدءاً من الطبيعة المناخية والجيولوجية لموقع المتحف، ثمّ نوعية هندسته التي تؤثر على كميّة الضوء ونوعية التهوية، وحالة المبنى التي يمكن أن تؤثر سلباً على القطع نتيجة نسبة رطوبة وحرارة غير مستقرّة، مروراً بوسائل الحماية المتاحة بالنسبة إلى القطع والزائرين، منتهين إلى الإدارة والتصرّف في القطع المتحفّية: من جرد وتنقل وعرض وتخزين... وصولاً إلى العاملين بالمؤسسة المتحفّية ومستواهم التعليمي والمهني والمهامّ الموكولة إليهم ووضعيتهم الإدارية...<sup>(٣)</sup>

وفي هذا المقال سنهتمّ بجانب واحد فقط وهو البناء المتحفّي في علاقته بالمحافظة الوقائية. وتجدر الإشارة إلى أهميّة اختيار الموقع المناسب للبناء المتحفّي وذلك بالعودة للخصائص الجيولوجية والمناخية وعوامل التلوّث.

تمكّن الخصائص الجيولوجية والتوبوغرافية من حسن اختيار الموقع وذلك بمعرفة مميّزاته من خلال شكل التضاريس من سهول أو هضاب وغيرها... أو طبيعة الأرض إن كانت انزلاقية أو يابسة أو سبخية أو مهدّدة بالزلازل وبالتالي يمكن تفادي العديد من المخاطر بتغيير الموقع أو تطويع المبنى بحيث يكون مستعداً ومجهّزاً للتصدّي لهذه المخاطر المحتملة.

تدلّنا الخصائص المناخية على معدّل الحرارة والرطوبة ونسبة التساقطات بحيث تكون لنا فكرة عن التقلّبات المناخية الهامة جدّاً لسلامة واستقرار صحّة القطع المتحفّية، إذ تسبّب الحرارة والرطوبة المرتفعتين في تكاثر وانتشار المخلوقات المجهرية والصغيرة، من فطريات وعفن وحشرات متعدّدة الأنواع. وبالعكس فإنّ قلة الرطوبة أو انعدامها يتسبّبان في جفاف المجموعات العضوية كالورق والخشب والقماش وبالتالي تفتّت وتندثر، والأخطر من هذا وذاك هي التقلّبات المناخية بما أنّ تكرار عمليّات التقلّص والتمدّد للقطع، الناتجة عن عدم استقرار المناخ، تصيبها بالتشويه على مستوى الشكل والتركيب Altérations structurales majeurs ou mineurs.

SERARFI S., Stratégie de conservation préventive dans les musées tunisiens, thèse de doctorat unique en Patrimoine et (٣) développement culturel, université de Tunis, 2010, TII, p3

تقويم الموقع: مثال متحف قرطاج الأثري بتونس<sup>(٤)</sup>

## Fiche site

<b>Musée</b>	National de Carthage
<b>Emplacement</b>	colline de Byrsa, Carthage Hannibal 2016
<b>Humidité Moyenne annuelle</b>	69%
<b>Variations saisonnières</b>	4% 9% 10% 6%
<b>Température Moyenne annuelle</b>	18,9°C
<b>Période max</b>	27,6°C (aout)
<b>Période min</b>	11,7 (jan)
<b>Pluviométrie</b>	(période de 1974 à 2004)
<b>Moyenne</b>	464 mm
<b>Période max</b>	68 mm (nov)
<b>Période min</b>	4 mm (juil)
<b>Séismicité pour de magnitudes</b>	> 4.0

Date	Magnitude	Intensité	Lat N	Lon E	Localité
99/01/0856	6.8	10	37.00	10.00	Tunis
99/99/1724	4.4	6	36.85	10.24	Tunis
25/09/1735	4.4	6	36.85	10.24	Tunis
05/10/1750	5.6	8	36.85	10.24	Tunis
09/12/1752	5.6	8	36.85	10.24	Tunis
99/01/1758	6.0	9	36.85	10.24	Tunis
03/09/1863	6.0	9	36.85	10.24	Tunis
15/12/1863	4.4	6	36.85	10.24	Tunis
17/03/1904	4.4	6	36.85	10.24	Tunis

<b>Salinité</b>	proche de la mer
<b>Vibration</b>	activité humaine
<b>Pollution</b>	centre résidentiel
<b>Site</b>	La colline de Byrsa
<b>Informations générales</b>	le musée se compose au moment de la visite de 2 salles au rez de chaussé et une grande salle au premier étage divisée en des petits compartiments avec des cloisons en béton, les deux autres salles sont fermées pour restauration

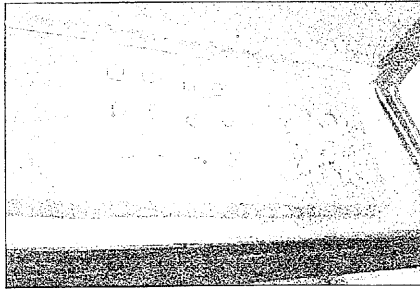
أمّا في ما يخصّ عوامل التلوّث، فإنّ طبيعة الجزئيات متنوّعة: من لقاح و خلايا ميتة و صباغ و غبار الاسمنت، و بذور الصوان و الفطريّات ... الجزئيات الأصغر حجماً هي التي تدخل البناء، أما الأكبر حجماً، فتبقى على مقربة من مصدر التلوّث، والذي يكون فاعلاً نشيطاً في التلف الكيميائيّ و البيولوجيّ و ذلك بخلق بيئة حمضيّة بمجرد ملامسة القطع و التشجيع على تكاثر المخلوقات الصغيرة و اللامرئية micro-organisme<sup>(٥)</sup>.



حشرات أكلة الصوف



الحشرات و قد اجتاحت واجهة عرض متحفّي



صدأ المعادن بفعل الرطوبة

## التلوّث الغازيّ

الغاز الأكثر خطراً للمجموعات الأثريّة و الاثنوغرافيّة هو الهيدروجين المكربت و الأنيديريد الكبريتيّ القابلان للتحوّل إلى الحامض الكبريتيّ في وجود الرطوبة و هو مضرّ جداً بالمعادن. أما غاز الفحم فهو فاعل أيضاً في التلوّث و يتحوّل إلى غاز حمض الكربون<sup>(٦)</sup>.

أمّا بالنسبة إلى الضرر الحاصل نتيجة أشكال التلوّث الجوّيّ الخطير للمدن الصناعيّة فهو يمثّل تهديداً لكلّ أنواع المجموعات المتحفّية و يصعب حصره أو مراقبته. و في ما يخصّ المصاعب التي تواجه المحافظة الوقائيّة في متاحف المدن الساحليّة: فهي تتمثّل في الهواء البحريّ الرطب و المالح الذي يمكن أن يسافر بعيداً في اليابسة،

فيفقد رطوبته لكنّه يحمل أملاحاً دقيقة يمكن بدورها أن تكون نواة تلتفّ حولها الرطوبة التي تساعد على انتشار المخلوّقات غير المرئية بالعين المجردة حتّى في الأماكن التي تبدو جافة،<sup>(٧)</sup> وهو ما من شأنه أن يسفر عن مشاكل خطيرة خاصّة إذا كنّا أمام مجموعة من المخطوطات والورق أو القماش.

### Qualité de l'air des musées

musée à proximité  
de la pollution  
anthropique:  
36%



musée à proximité  
de la mer:  
46%

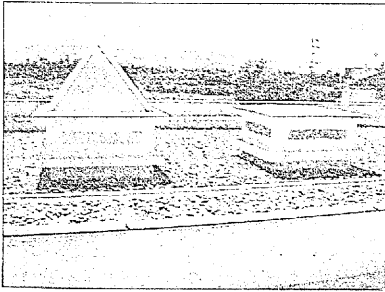
musée à l'intérieur  
de la terre:  
18%

### نوعيّة الهواء في المتاحف التونسيّة<sup>(٨)</sup>

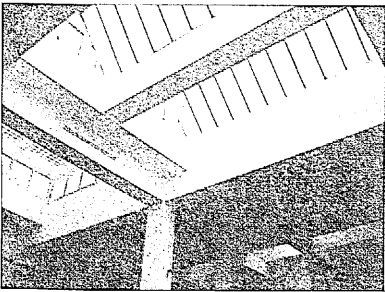
بعد اختيار الموقع، مع مراعاة كلّ العوامل التي وقع ذكرها، نأتي إلى شروط البناء المتحفّي في علاقته بالمحافظة الوقائيّة:

### الإضاءة

يجب على الإضاءة أن تكون فوقيّة، أيّ في سقف المبنى مع الاعتماد على تقنيّة البر التي تميّز بخفض نسبة الأشعة وتوجيهها حسب متطلّبات وشروط العرض المتحفّي، من دون أن ننسى أن الإضاءة المباشرة والمستمرّة تسبّب فقدان الألوان، ويطلق عليها المختصّون الضرر الكيميائي الضوئيّ خاصّة alteration photochimique بالنسبة إلى المجموعات العضويّة، وذلك لخاصيّة الضوء التراكميّة إذ إنّ نسبة ٥٠ لوكس من الإنارة لمدة ١٠ ساعات تساوي ٥٠٠ لوكس وهي نسبة مرتفعة جدّاً.<sup>(٩)</sup>



إضاءة فوقيّة تعتمد على تقنيّة البر (متحف شمد)

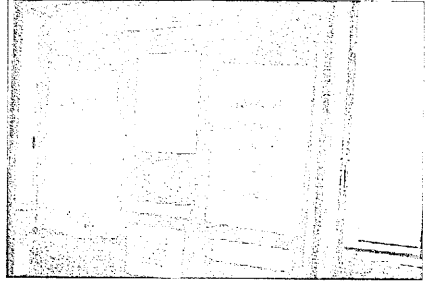
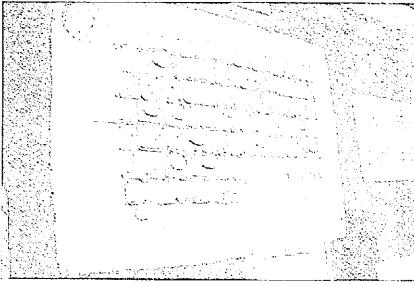


إضاءة فوقيّة (متحف باربو)

PLENDERLEITH H.S 1965: La conservation des antiquités et des œuvres d'art. Eyrolles, Paris, pp. 24-25 (٧)

SERARFI S., 2010: Stratégie de conservation préventive dans les musées tunisiens, thèse de doctorat unique en (٨) Patrimoine et développement culturel, université de Tunis, TH, p.45

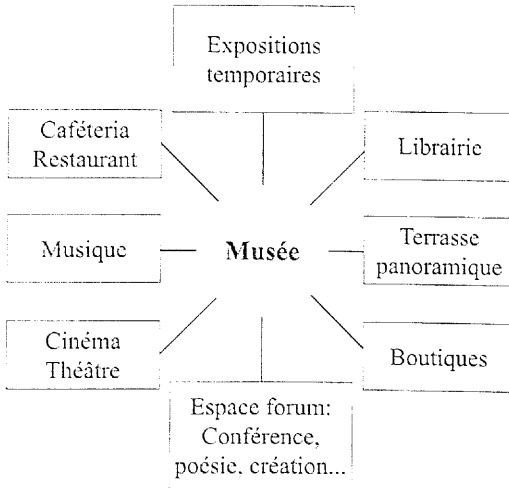
DE BARY M.-O. et TOBELEM J.-M. (S. d.), 1998: Manuel de muséographie. Séguiet, Biarritz, p. 125 (٩)



إضاءة جانبية مباشرة وهي إضاءة تعيق الرؤية الجيدة وتضرّ بالقطع (متحف رباط المنستير) ...

## الرطوبة

يجب تخصيص المناطق الشرقية من المبنى والتي تتسم بمعدّل حرارة ونسبة رطوبة معتدلين ومستقرّين للعرض المتحفّي، في حين المناطق الغربية من المبنى والتي عادة ما تكون معدّل الحرارة ونسبة الرطوبة بها مرتفعين وغير مستقرّين (خاصّة من فصل لآخر) فتخصّص للخدمات كالمشرب أو المطعم أو قاعة عرض سينمائيّ أو مسرحيّ أو مغازات (دكاكين) لبيع قطع متحفية مقلّدة والبطاقات البريدية وغيرها خاصّة ونحن اليوم نتحدّث عن مفهوم جديد للمتحف le musée forum<sup>(١٠)</sup> يصبح فيه المتحف فضاءً واسعاً للتلاقي وممارسة العديد من الأنشطة.



ROBERT Y., 2001 : « De la nécessité d'une architecture muséologique ». Architecture et musée, Actes du colloque (١٠) organisé au musée royal de Mariemont, 15-16 jan 1998, La renaissance du livre, France, p. 95



متحف مدينة تونس للعبادات والتقاليد الشعبية بدار ابن عبد الله

## تجهيز المبنى

من المهم تجهيز المبنى بأجهزة التكيف وسحب الرطوبة والإنذار ضد السرقات والحرائق وكاميرا مراقبة وأنبوب الإطفاء وربط خط هاتفٍ مباشر مع الحماية والشرطة.

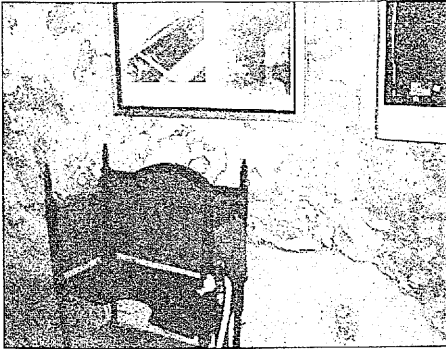
كل ما ذكر من شروط المحافظة الوقائية هي سهلة التحقيق في مبنى حديث سواء كان أعد خصيصاً ليكون متحفاً أو أعيدت تهيئته ليصبح متحفاً، أما تحقيق شروط ومعايير المحافظة الوقائية في مبنى قديم أو مسجّل فهنا يكمن الإشكال. فهل المنازل والقصور القديمة مناسبة للعرض المتحفي؟ أهم المشاكل التي تهتمّ بنايات القديمة هي متصلة بالموقع أولاً ووحدة المعلم ثانياً خاصة إذا كان مسجلاً تراثاً وطنياً أو عالمياً:

## الموقع

يتسبب الموقع في مشكلتين كبيرتين متعلقتين بخصوصية العالم العربي، إذ إن المنازل الجميلة والقصور البديعة التي تتحوّل غالباً إلى متاحف، هي موجودة في المدن القديمة أو العتيقة حيث بنايات الملتصقة والحارات الضيقة والطرق المتشعبة وهو ما يشكل:

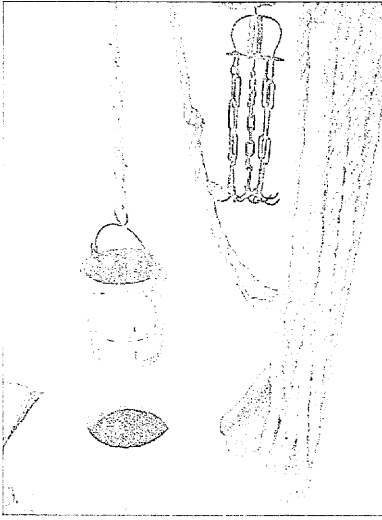
## المعضلة الأولى

تمثّل بصعوبة الوصول إلى المتحف أو الخروج من دائرته أو محوره خاصة في حالات الطوارئ، كنشوب حريق أو فيضان... وهنا نجد أنفسنا أمام تهديد لسلامة الزائرين ولسلامة القطع المتحفية المعروضة.



المسعود الشعري للمياه





بئر الماء في البيوت العتيقة

### المعضلة الثانية

تتمثّل بوجود هذه المنازل والقصور التي تحوّلت إلى متاحف، وأيضًا كامل المدينة العتيقة، فوق مائدة مائيّة nappe phréatique ممتلئة. فاستعمال الماء في هذه المدن قد تحوّل من استعمال تقليديّ للبئر والصهريج إلى الطرق الحديثة التي تتسبّب في مشاكل كبيرة أهمّها la remontée capillaire الصعود التشنّعيّ للماء والذي يهدّد بنية المبنى ووحدته، علاوة على أنّها تتسبّب في نسبة عالية من الرطوبة التي تشكل خطرًا جسيمًا على القطع المتحفّيّة، سواء كانت هذه القطع عضويّة كالأقمشة والخشب والورق... أو معدنيّة كالحجر والفخار والمعادن من حديد وبرونز ونحاس...

### وحدة المعلم

خاصّة إذا كان مسجلاً تراثًا وطنيًا أو عالميًا يمنعنا من إدخال أيّ تعديلات على المبنى حرصًا منّا على المحافظة على طابعه الأصليّ l'authenticité، وهو ما يحول دون تحقيق مستوى أدنى من المحافظة الوقائيّة خاصّة في ما يتعلّق بالإضاءة والتجهيزات الصحيّة وخروج النجدة.

ويكمن الحلّ في ملاحظة وتمحيص كفيّة عيش هذا البناء وتفاعله مع كلّ العوامل التي ذكرناها من مناخ وموقع جغرافيّ وتقسيمه إلى مناطق:

#### مناطق ذات رطوبة مرتفعة مستقرّة

يمكن، في هذه المناطق، عرض القطع العضويّة نظرًا لاحتوائها في تركيبها الأصليّة على نسبة من الماء الضرورية لبقائها في حالة جيّدة، كالورق والخشب والقماش. وللحفاظ على هذه النسبة يجب حفظها في مكان ذي نسبة من الرطوبة يتراوح بين ٥٥٪ و ٦٠٪ من الرطوبة النسبيّة.

### مناطق ذات رطوبة منخفضة مستقرّة

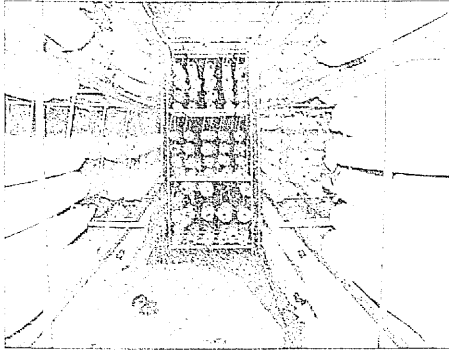
هي مناطق تناسب المجموعات المعدنية من معادن وبلور وأحجار وفخار حيث تتراوح نسبة الرطوبة المطلوبة بين ٠٪ و ٣٥٪ كحدّ أقصى حتّى لا يصيبها الصدأ أو التقشر.

وفي كلتا الحالتين، هناك أجهزة لسحب الرطوبة أو للزيادة فيها يمكن أن تساعدنا على تذليل الفارق والوصول للمعدّل المرجوّ.

### مناطق ذات رطوبة متغيّرة

هي المناطق الأخطر على سلامة القطع ولذلك فهي تخصّص للخدمات. تجدر الإشارة إلى أنّ القطع المحفوظة في المخازن يجب أن تتمتع بشروط الحفظ نفسها للقطع المعروضة وربما يجب أن تتمتع بحماية أكبر بما أنّها ليست معرضة للإضاءة اليومية والمستمرّة والتلوّث الذي يحمله الجمهور معه. هذا مع العلم أنّ العديد من المخازن، وفي العديد من البلدان، تفتح أبوابها للزوار، وهي علامة صحيّة جيّدة للتراث عكس الذين يريدون إخفاء المخازن مخافة كشف المستور.

يهتمّ الحفظ أو الصيانة بمجموعة من المقاييس المعتمدة لإطالة حياة التراث المادّي وذلك بتجنّب كلّ ما من شأنه أن تسبّب الطبيعة أو الإنسان في إتلافه، وهي تشمل المحافظة الوقائيّة والمحافظة العلاجية. أمّا الترميم فيتمثّل في التدخّل المباشر لإصلاح كسور في القطعة المتحفية أو ملء الشغرات بها وذلك لتيسير قراءتها



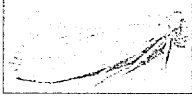

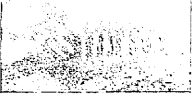

الصعود الشعري للمياه

وفهمها على الناس مع مراعاة وحدتها الجماليّة والتاريخيّة والمادّيّة.

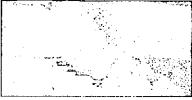
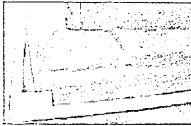
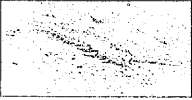



وتتمثّل مهمّة القائمين على التراث والمهتمين به في جعل المحافظة الوقائيّة من أولويّات عمل المرصد الثقافيّ وسياسة المتاحف حتّى لا تذهب جهود البحث والتجميع والجرد والعرض والتخزين للتراث المادّي سدى وحتّى نتفادى، بقدر الإمكان، اللجوء إلى المحافظة العلاجية أو الترميم، لأنّه، وكما هو معروف، فإنّ الوقاية خير من العلاج

لما للأدوية من أضرار جانبية أحياناً لا رجعة فيها خاصة وأن المجموعات الاثنوغرافية، متاحف الفنون والتقاليد الشعبية، هي مادة في أغلبها عضوية أي حساسة لكونها تتفاعل مع محيطها وقابلة للتلف بسرعة.

## أنواع الحشرات الموجودة في المتاحف التونسية

Insectes	Comportements
 <p><b>Les mites ou teigne</b> (famille: tinéidé; ordre: lépidoptera): deux espèces de cette famille sont une grave menace pour les collections la teigne porte case et la teigne des vêtements :....</p>	 <p>Les larves, très voraces, dévorent surtout la laine, les plumes, les piquants de porc-épic, le crin de cheval et les fourrures. Elles préfèrent manger des matériaux souillés de poussière, de nourriture, de transpiration ou d'urine. On les trouve exclusivement au musée du Kef, à cause du climat sec de la région. (Musée du Kef)</p>
 <p><b>Les dermestes</b> (ordre: coleoptera):</p> <ol style="list-style-type: none"> <li>1. l'antrène des tapis,</li> <li>2. l'antrène bigarré des tapis</li> <li>3. l'attagène des tapis.</li> </ol> <p>Sont trois espèces communes partageant le nom générique de dermeste :....</p>	 <p>Elles attaquent les cuirs, les peaux et les colles animales qui servent de liant dans certaines peintures. Elles peuvent s'infiltrer dans des ouvertures très étroites, comme les joints des armoires de réserve. Elles sont diffusées dans presque tous nos musées de patrimoine traditionnel surtout celui de Douz et de Tunis. (Réserve Dar Ben Abdallah)</p>

## أنواع الحشرات الموجودة في المتاحف التونسية

Insectes	Comportements
 <p><b>Les xylophages</b></p> <p>4. L'anobieponctué ou la vriette 5. Le lycte 6. Les termites ou fourmis blanches (ordre: dictyoptera) 7. La fourmigâte- bois</p>	 <p>La femelle pond ses œufs dans les fissures du bois, dans les joints des meubles ou dans le bois de bout. Les œufs éclosent après quelques semaines et les larves, ou poux de bois, pénètrent dans le bois pour s'y nourrir pendant 2 ou 3 ans, créant un réseau de tunnels. Tous les vieux bois dans nos musées sont attaqués par cet insecte, certains sont encore actifs d'autres pas. (Musée Dar Ben Abdallah)</p>
 <p><b>Insectes qui attaquent le papier et les livres :</b></p> <p>8. Le lépisme argenté et la thermobie : deux espèces communément appelées poisson d'argent 9. Les psoques (ordre: psocoptera) appelés aussi poux de livres</p>	 <p>Cette espèce requiert une humidité locale de plus de 75% pour se multiplier. La thermobie, comme son nom l'indique prolifère dans des températures supérieures à 30°C. Se nourrissent de moisissures microscopiques existant dans le papier. Ses traces sont perceptibles dans tous les papiers exposés dans nos musées (Musée Raqqada)</p>
 <p><b>La mouche</b> (ordre: diptera) C'est un important ordre d'insectes par le nombre avec plus de 150 000 espèces décrites réparties dans 177 familles. Une cinquantaine de ces familles ont une importance de par leur rôle dans la transmission d'agents parasites ou pathogènes</p>	 <p>Ses chiures tachent les œuvres de façon permanente, en fait l'acidité des chiures ronge la surface des œuvres. Sa présence est remarquable dans le musée de Macthar, dans certaines vitrines de Raqqada et de Gafsa. (MuséeMakthar)</p>

## المراجع

- BERDUCOU M.C. 1990: La conservation en archéologie, Masson, pp 376- 377.
- DE BARY M.-O. et TOBELEM J.-M (S. d.),1998: Manuel de muséographie, Séguier, Biarritz. p. 125.
- PLENDERLEITH H.S, 1965: La conservation des antiquités et des œuvres d'art, Eyrolles, Paris, pp. 24-25.
- ROBERT Y., 2001: « De la nécessité d'une architecture muséologique», Architecture et musée, Actes du colloque organisé au musée royal de Mariemont, 15-16 jan 1998, La renaissance du livre, France, p. 95.
- SERARFI S, 2010: Stratégie de conservation préventive dans les musées tunisiens, thèse de doctorat unique en Patrimoine et développement culturel, université de Tunis, TII,





## المتحف الشعبي وحلقات التواصل التراثي

الدكتورة سريّة عبد الرازق صدقي<sup>(١)</sup>

### ملخص

تستهدف هذه الدراسة طرح أفكار عن التربية المتحفية من ناحية، والمتحف الحيّ من ناحية أخرى، وتقدّم الخلفيات المعرفية والأمثلة الدالة عليها في مجالات التربية المتحفية في منظورها المعاصر، والتي تستهدف الخروج بالمتاحف من كونها خزائن قومية لكونز نادرة من المقتنيات تستقبل النخبة من الباحثين والذوّاق بصورة نخبوية، إلى برامج ومؤسسات ديمقراطية توفر المعارف والخبرات والمشاعر لجمهور المواطنين على اختلاف أعمارهم وشرائحهم الثقافية والاجتماعية مع التوسّع في توظيف المقتنيات الحديثة وعلوم المتاحف في تقديم الشروح والخلفيات الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمعروضات واستضافة الحوارات والبحوث وورش العمل والعروض الحية وحتىّ تبنيّ صروحاً ومباني تاريخية وإعادة بعثّ وظيفتها في الحاضر والمستقبل.

ثم تتناول الدراسة متاحف الفنّ الشعبي في مناطق مختلفة من العالم وفي مصر عبر التعريف بالفنّ الشعبيّ وقيمه الممتدة عبر التاريخ الإنسانيّ وتصنيف تلك المتاحف من المتحف المغلق إلى المتحف المفتوح إلى المتحف الحيّ. حيث تقدم ملخصاً لمشروعين بحثيين وميدانيين قامت بهما بمعاونة فريق بحث متخصص

(١) الدكتورة سريّة عبد الرازق صدقي: أستاذة المناهج وطرق التدريس في كلّية التربية الفنّية جامعة حلوان، فنانة جرائكيتية، وضعت تخطيط مشروع تسمية الثقافة الفنّية وتاريخ الفكر والكتابة في مصر، شاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية، razzazz@hotmail.com

ومؤسسات داعمة للتمهيد إلى أفكار تستشرف مشروعاً منظومياً للمتحف العربيّ الحيّ للحياة والفنون الشعبية. تستشرف فيه جهود الإحياء بنماذج من تراث الماضي وإعادة تأهيلها للحياة المعاصرة والمستقبلية من منظور بانوراميّ مفاهيميّ حيث تبعث الأنشطة الثقافية والفنية والاجتماعية والبيئية والاقتصادية التي احتضنتها عهود سابقة وإعادة تفعيل الحاجات المتنوعة لوظائف الحمام وللحرف الشعبية المعرّضة للاندثار.

وتقدّم الدراسة منظوراً عملياً للخدمة المتحفية المعاصرة والمؤسسات الوظيفية الرسمية والأهلية الفاعلة في رعايتها ودعمها، لتصبح خدمة المتاحف وطنية تشارك فيها كلّ المؤسسات الوطنية الفاعلة.

## مقدمة

تستهدف هذه الدراسة طرح أفكار عن التربية المتحفية من ناحية، والمتحف الشعبيّ الحيّ من ناحية أخرى، فتقدّم الخلفيات المعرفية والأمثلة الدالة عليها في مجال التربية المتحفية في منظورها المعاصر، والتي تستهدف الخروج بالمتاحف من كونها خزائن قومية لكنوز نادرة من المقتنيات، تستقبل النخبة من الباحثين والدوّاق بصورة نخبوية، إلى برامج ومؤسسات ديمقراطية توفر المعارف والخبرات والمشاعر لجمهور المواطنين على اختلاف أعمارهم وشرائحهم الثقافية والاجتماعية، وعلى الأخصّ الفئات الشعبية من منتج ومستهلك (الجمهور المنسيّ من قبل المسؤولين عن إعداد المتاحف)، مع التوسّع في توظيف التقنيات الحديثة وعلوم المتاحف في تقديم الشروح والخلفيات الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمعروضات واستضافة الحوارات والبحوث وورش العمل والعروض الحية، ممّا قد يصل إلى أن تبني صروحاً ومبانٍ تاريخية، وإعادة بعث بعض من وظائفها في الحاضر والمستقبل.

ثم تتناول الدراسة متاحف الفنّ الشعبيّ في مناطق مختلفة من العالم وفي مصر، عبر التعريف بالفنّ الشعبيّ وقيمه الممتدة عبر التاريخ الإنسانيّ، وتصنيف تلك المتاحف من المتحف المغلق إلى المتحف المفتوح إلى المتحف الحيّ، حيث تقدّم ملخصاً لمشروعين بحثيين ميدانيين قمنا بهما بالمشاركة مع فريق بحث متخصص ومؤسسات داعمة، لاستخلاص أفكار تستشرف مشروعاً منظومياً للمتحف العربيّ الحيّ للحياة وللفنون الشعبية. إعتماًداً على جهود الإحياء لنماذج من تراث الماضي وإعادة تأهيلها للحياة المعاصرة والمستقبلية



من منظور بانوراميّ مفاهيميّ، حيث تبعث الأنشطة الثقافية والفنيّة والاجتماعيّة والبيئيّة والاقتصاديّة التي احتضنتها عهود سابقه، وإعادة تفعيل الحاجات المتنوّعة لوظائف الحمام وللحرف الشفهيّة المعرّضة للاندثار.

وتقدّم الدراسة منظورًا عمليًا للخدمة المتحفية المعاصرة، والمؤسّسات الرسميّة والأهليّة الفاعلة في رعايتها ودعمها، لتصبح خدمة المتاحف مهمّة تشارك فيها كلّ المؤسّسات الوطنيّة الفاعلة.

### تطوّر دور ورسالة المتحف

نشّطت جهود الاهتمام بالمتاحف وضرورة تطويرها مادّيًا ومعنويًا في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، في مواجهة تيارات فكريّة غاضبة تبناها فنانون «الدادا» ثمّ «السرياليون» إذ رأوا فيها مقابر لأشياء خاوية من المعنى والقيمة، وأنّها تمثّل نزعات رجعيّة محافظة وتراث أدّى بالإنسان إلى تدمير الذات بتلك الوحشيّة التي شهدتها الحرب، وأودت بحياة ملايين البشر، وتبنوا شعارات مناهضة مثل (دمّروا المتاحف أو أحكموا إغلاقها). ومع تراجع حدة الغضب، ومعاودة المجتمعات في أوروبا وأفريقيا لالتقاط أنفاسها والنظر إلى إعادة البناء، عاد للمتاحف سلطانها في ضمير الأمم، بل وشعر الناس بأنّ الأخطار التي هدّدتها إبان الحرب كان يمكن أن تلمس الجانب الأهمّ من ذاكرة التراث الإنسانيّ الدافع للتقدّم والوثق للتاريخ وكنوزه الجميلة الموحية، حيث بادرت مؤسّسات مثل المؤسّسة البريطانيّة للمتاحف AM، والمجلس الدوليّ للمتاحف ICOM، والمؤسّسة الأميركيّة للمتاحف AAM بالتعاون لتأكيد وتفعيل الأدوار المتعدّدة للمتحف.

وبينما كانت المتاحف، في سياق تعريفات المؤسّسات الدوليّة، هي المكان الذي يجمع ويسجّل ويحفظ ويعرض ويصنّف ويفسّر الوثائق المادّيّة والمعلومات المرتبطة بها لخدمة الجمهور العام والمتخصّص، حيث يتمّ التركيز على اقتناء المآثورات النادرة أو ذات القيمة التاريخيّة الهامّة، وعلى اجتذاب النخبة، فإنّ الرؤية المعاصرة لسياسة العرض المتحفّي تُعنى بالبعد الديمقراطيّ للمتحف، لتجنّب عزلة المتاحف، والعناية بكفالة الخدمة لمختلف شرائح المجتمع. ومن ثمّ فقد تطوّرت أهداف وخطط برامج التربية المتحفية، مستهدفة تنمية الوعي والخيال والتواصل مع الابداع الإنسانيّ عبر العصور، ما يدفع عجلة

الابداع والفكر والتغيير، بينما يتيح وعياً وتذوقاً للتراث وما يرتبط به من قيم ومشاعر. واستخدمت معطيات التكنولوجيا الحديثة والدراسات المتقدمة في تحقيق تلك الأهداف المعاصرة للمتحف.

وأصبحت المتاحف بؤرة معرفيّة مفاهيميّة تربويّة وترويجيّة، وصار لها برامج منظمّة ومعلنة ويروج لها لاجتذاب شرائح مختلفة من الجمهور، وخصّصت أنشطة تثقيفيّة وعملية إبداعية كالمحاضرات والندوات والعروض التحليلية، والنشرات الميسرة والبيانات الذكيّة، والعروض المرئية، وورش العمل والمسابقات والجولات التي يصاحبها خبراء للشرح وإجراء المقارنات. كما أصبح المتحف مرجعية محورية للبيئة المعرفية للإنسان المعاصر، حيث طوّرت الابتكارات القديمة لتصبح وسائط للتقدّم والازدهار بمعاونة الأفكار والتقنيات الحديثة للتربية المتحفية.

وعنيت الأمم المتقدمة بالمتاحف، كمؤسسات لربط الماضي بالحاضر من ناحية وربط المتحف بالمدارس ووسائل الإعلام وبالمجتمع من خلال مداخل مختلفة للرؤية والحوار والتأمل والتفاعل المباشر مع مقتنيات المتحف.

وفي منطقتنا العربية، أجريت بعض الدراسات حول أهمية المتاحف في الحفاظ على العطاء التراثي الإبداعي للأمة العربية، والذي يمثل جانباً محورياً من أصول المعرفة الإنسانية في ميادين شتى، وارتباط تلك الكنوز بالشخصية ذات الملامح الخصوصية لهذه المنطقة، وكذا التراث الذي يحمل بين طياته مشاعر الأجداد حول بيئتهم وشعائرهم وحوليات الحياة اليومية والتقاليد والعادات ومواطن القوة والقدرة والابداع.

بل لقد أكدت الأحداث الظالمّة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني تلك الأهمية، عندما شاهدنا محاولات حثيثة من العدو الصهيوني ترمي إلى انتحال التراث الفلسطيني الثري التاريخي والشعبي إلى هويته الزائفة، ليسحب من الفلسطينيين والعرب أساساً مركزياً لوجودهم وثيقة هامة من وثائق إثبات حقوقهم. غير أنّ تلك الدراسات العربية، على ندرتها، لم تحقّق إلتحام المواطن بالمتحف وتوثق صلته به، إذ تعاني المتاحف في أوطاننا رغم وفرتها وندرة محتوياتها عزوفاً جماهيرياً واضحاً.

من منظور آخر، كانت المتاحف قديماً مخازن للكنوز القيّمة من مقتنيات الطبقة الحاكمة والسلطات الدينية ممّا ورثوه عن الأجداد وتبنوا إبداعه في حياتهم من أعمال فنية

مهمورة بتوقعات أشهر الفنّانين، ومشغولات بالغة الدقّة معجزة في صناعتها، ثمينة في خاماتها وأعمال نادرة المثال من عصور غابرة.

كان المتحف الكنز الوطني، ولا يفتح إلاّ للنخبة المسموح لها بتفقدّه، وكانت مهمّة المسؤولين عنه تكمن في التوثيق والتسجيل والصيانة، ومن هنا أرسلت بعثات التنقيب عن الآثار وتطوّرت الدراسات الأركيولوجيّة والتاريخيّة ونشطت تجارة التحف لتغذية تعطّش الحكام إلى اقتناء النادر منها.

إفتقدت المتاحف، لما تقدّم من أسباب، علاقتها بالمجتمع وبالثقافة كما تقول ما Ettem. ومع التطوّر، ظهر المنهج التحليلي للمتاحف الذي يولي اهتمامًا بالملابس المرتبطة بالعمل المعروض بالمتحف وارتباطه بالأحداث وكيفيّة حدوثها لتصبح المجموعات المتحفية وثائق تاريخية لديناميكيات المجتمع وحراكه الاجتماعيّ. ومن ثمّ أصبح الشرح والتفسير والربط بين المعارضات والحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والمتغيّرات الثقافيّة من الأهميّة بمكان.

وفي الثمانينات من القرن العشرين استثمرت معطيات الوسائط الاتصاليّة الحديثة كالفوتوغرافيا والسينما والفيديو والشرائط الصوتيّة إلى جانب الكتابات التحليليّة لإضافة أبعاد جديدة على النماذج المعروضة بالمتاحف وتوفيرها خارج جدران المتحف.

وأوضح ديفيدز David's أنّ المعارضات أصبحت أكثر إثارة للتأمّل والاستنباط والاستدلال وللإلهام من ذي قبل حيث أصبحت جزءاً من محتوى تاريخيّ واجتماعيّ بحاجة إلى تصويره لتأكيد المعنى والقيمة. وقد دعا ويل Weil إلى أن تتمحور المتاحف حول الأشخاص وليس حول الأشياء، ولكن إخفاق المتاحف أحياناً في تحقيق هذه الأهداف يرجع إلى عدم توافر جهود نقدية تحليلية لوظيفة ودور وأسلوب العرض المتحفّي، وبالمثل فإنّ المؤسّسة الإعلاميّة في الوطن العربيّ لا تولي الخدمات المتحفية اهتماماً يذكر، الأمر الذي جعل أمين المتحف يقوم بدور مؤسّسة ثقافية كبيرة بنفسه وفق تقديره الذاتيّ. ومن ثمّ فإننا في حاجة ماسّة إلى دراسات وبحوث معمّقة نظريّة وتجريبيّة، لبناء معايير لتقويم العروض المتحفية، ومدى قدرتها على التواصل الجماهيريّ الفعّال، وبرامج التدريب المكثفة. ويمكن في هذا الصدد الاستفادة من دراسات فروستيك Frostick وكارلسن Carlsson وكافنجا Kavanagh التي صنفت في خمسة مستويات من البسيط إلى المركب.

ولكن هذه الاستفادة تحتاج إلى أعمال ذهنية العربية لتلائم احتياجات الجمهور العربي في المتاحف، حتى يتيسر لهم القدرة على قراءة التاريخ من خلال هذه المحفوظات المعروضة في المتاحف، وكما يقول لويس Lewis إن تلك الآثار يمكن أن تفصح فتمتع إذا ما تعلمنا كيف نطقها، وهذا دور المرين المتحفين المبدعين.

ومن الأمور الهامة أن يتفاعل المتحف مع قضايا المجتمع الأكثر إلحاحاً، فيقدم مختارات من تحف مرتبطة بالوعي البيئي تارة، وبالعدالة والمساواة ونبد العنف تارة أخرى، ويكرس لترسيخ قيم الانتماء والقومية العربية والمكانة المعترية للمرأة في الثقافة العربية، والوعي التخطيطي والعمراني، وغير ذلك من الموضوعات الحيوية والملحة، تعنى بها برامج المعارض الدورية داخل المتاحف التي تتيح فرصاً أوسع للاختيار والتنوع، وقد وضع بيرس Pearce نموذجاً يضم عدداً كبيراً من البدائل الممكنة لتلك المعارض على النحو التالي:

- معارض تحتوي على مآثور واحد تدور حوله عمليّات التأمل والتحليل، وبحث ارتباطاته بالمحتوى الثقافي والتعرّف إلى تفاصيله واستخلاص الأفكار منها بصورة إستراتيجية إستقرائية.
- معارض تعبّر عن أحداث هامة من دون التركيز على البعد التوثيقي للمعارض فقط.
- معارض تعتمد على الشروح المكتوبة يتنبأ فيها الجمهور بنوعية المعارض المناسبة.
- معارض يسمح فيها باستخدام حاسة اللمس من دون غيرها.
- معارض لأعمال مجرّاة يتصوّر الزوّار طرق إعادة تركيبها أو بنائها بالتجريب على نماذج مصغّرة أو على شاشات الحاسوب.
- معارض لأعمال مختلفة ذات عنصر واحد فنّي مشترك، كاللون الواحد لتركيز النظر والفكر على صفات هذا اللون وجماليّاته.
- معارض تركّز على سمة مشتركة واحدة كالحجم أو ملمس السطوح أو الشكل أو الوزن لتركيز التأمل في قيمة واحدة والتعرّف إلى السمات المشتركة بين المعارضات.
- معارض تركّز على تذوّق الطعم لأنواع المأكولات والمشروبات.
- معارض تسمح للجمهور بتحطيم نماذج لمقتنيات المتحف وتفكيكها لاكتشاف

قدراتهم العضليّة والفكريّة.

- معارض لعناصر مألوفة ومتداولة لإعادة رؤيتها من منظور جديد.
- معارض لاستكشاف القيم الرمزيّة والميتافيزيقيّة لما نستخدمه في حياتنا اليوميّة.
- معارض لمناقشة التقنيّات المختلفة للمعروضات.

ويتطلّب العرض المتحفّي فريقاً من المتخصّصين لوضع مفهوم العرض والتصوّر التطبيقيّ له، وتحديد مستويات النظر الملائمة لكلّ قطعة، وإتاحة الفرص لرؤيتها من جميع الزوايا بالنسبة إلى الهيئات المجسّمة، ودراسة حركة المشاهدين حول الأعمال وأمامها، وتوزيع الإضاءة المناسبة، وإعداد البيانات التاريخيّة والنقدية والجماليّة بعد مراجعتها مع الأصول، ثم صياغتها بشكل واضح ومقروء للجمهور في بطاقات التعريف أو في البيانات الشارحة، التي تثبت قبل كلّ مجموعة من الأعمال، والتوفيق بين الطموح والمساحات المتاحة بالمتحف وجماليّات العرض، فضلاً عن حماية الأعمال وتأمينها ضدّ العبث والتلف والحوادث، وملاءمة درجة حرارة القاعات ونسب الرطوبة ونوعيّة الإضاءة، والمطبوعات المرتبطة بالعرض، وكذلك الشرائط الصوتيّة التي يصحبها الزوّار أثناء التجوّل لسماح الشروح والتحليلات التي يعدّها خبراء متخصّصون.

وهناك بعض المتاحف تذهب إلى إعادة تصوّر اللحظات زمنيّة ومواقع خصوصيّة للأحداث الجارية والتي شهدناها في الماضي، أو استعراض موقع للتعرف إلى المتغيّرات التاريخيّة التي حدثت فيه، كما في المتحف النوبي بأسوان على سبيل المثال. مع ظهور هذا التطوّر في مفهوم ودور المتحف، في النصف الثاني من القرن العشرين، ظهرت الحاجة إلى تنظيم الزيارات والأنشطة داخل المتحف وظهر بالتالي مفهوم التربية المتحفية وسوف يتمّ التعرّض إلى بعض القضايا المرتبطة بتلك الأنشطة مع إعطاء بعض الأمثلة من التراث المصريّ.

### التربية المتحفية ودورها في تنمية فاعليّة المتحف

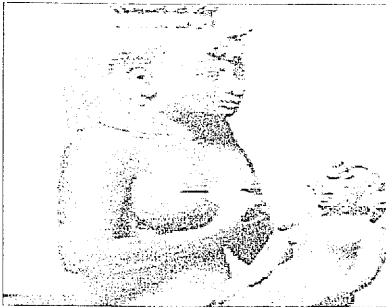
رغم ما تشهده التربية المتحفية من تطوّر، إلّا أنّ المتاحف في مصر ما زالت تعرض المآثورات التراثية الموجودة وفق نسق تتابعيّ تاريخيّ أو تسلسل زمنيّ أو تصنيف نوعيّ، يصحبها بيان لفظيّ موجز عن صفاتها العامّة وتاريخها ومصدرها، حيث يتمّ عزل الكثير

من التراث المادّي للمعروض عن كلّ الأبعاد الأخرى المرتبطة به، بما في ذلك الفنون الابداعية الأخرى كالرقص والغناء والموسيقى، وأصبحت البيانات المكتوبة تاريخية، توثيقية. أمّا الأطر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية والوظيفية الموجودة وعلاقة التراث بالحضارات الأخرى والاحتياجات الاجتماعية المعاصرة فهي تكاد تكون منعدمة، ذلك رغم أنّ مصر تزخر بتراث تاريخي ضخم سحيق القدم يضمّ ثلث آثار العالم، وهو تراث تتوازي فيه مسيرة الفنّ الرسميّ مع مسيرة الفنّ الشعبيّ.

وتشير كينجي بوشيدا في هذا الصدد إلى أنّ ما يمكن للمتحمّح أن يؤدّيه للتراث الملموس من حفظ وصيانة، يمكنه أيضاً أن يؤدّيه من خلال إعادة خلق للمجالات الرئيسة للتراث الثقافيّ غير الملموس مثل إعادة إحياء بعض الطقوس والاحتفالات المرتبطة بالأعياد والمناسبات، التقاليد والفنون المؤدّاة، والمعرفة والممارسات الخاصّة بالطبيعة والكون، والحرف الشعبيّة.

فالتراث منسوج داخل نمط الحياة وأنشطتها، وهو ليس حقبة تاريخية مفصولة بل متداخلة ومتشابكة بصورة تفاعلية، ومن أجمل الأمثلة الدالّة على ذلك رسم بعض أقباط مصر علامة الحياة المصريّة عنخ بدلاً من الصليب، بل زادوا عليه بأنّ أنفها أطرافه بزهرات اللوتس، فكلّ من عنخ والصليب رمز للحياة، ثم تطوّر هذا الرمز بعد ذلك لينفرد الصليب وحده ويكون رمزاً للحياة والنور.

كما تخيل الفنان المصري السيّدة العذراء وهي ترضع المسيح عليه السلام، وهي فكرة عبّر عنها المصريون القدماء في شكل المعبودة إيزيس وهي ترضع ابنها حورس، ما يدلّ على أنّ الفنّ القبطيّ امتداد للفنّ المصريّ القديم.



إيزيس



السيّدة العذراء

وقد تواصلت تقاليد التواصل الحضاريّ في مراحل التاريخ المصريّ وعبر مراحل الإيمان المتعاقبة. ففي مقابر البجوات بالوحدات أمثلة على تداخل الرموز الحضاريّة كما تظهر في بعض المعابد المصريّة القديمة رموز الإيمان المسيحيّ، وبالتالي فقد اتخذ المسلمون من الجدران الخارجيّة لتلك المعابد مساجد للعبادة، احتراماً للصروح القديمة.

وامتداداً لتلك التقاليد الحضاريّة، فإنّ تفهّم محرّكات التواصل بين المآثورات التاريخيّة وقيم ومفاهيم الحاضر يتمّ أحياناً من تأمل الاحتفالات والمراسم الاجتماعيّة المندثرة مثل عيد شم النسيم، وهو أحد الأعياد المصريّة التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأقباط وتحوّل الاحتفال بشمّ النسيم إلى مهرجان شعبيّ تشترك فيه كلّ طوائف الشعب المختلفة من مسلمين وأقباط، حيث يخرج الناس إلى الحدائق والمنتزهات للاستمتاع بجمال الطبيعة حاملين معهم أطعمة مصريّة ذات طابع خاصّ (البيض والبصل والخمّص الأخضر والسمك المملح) حيث ارتبط بملاول الاحتفال، عند قدماء المصريّين، بما يمثله عندهم من الخلق والخصب والحياة.

وعندما دخلت المسيحيّة مصر، جاء عيد القيامة موافقاً لاحتفال قدماء المصريّين بعيدهم فكان احتفال الأقباط بعيد القيامة في يوم الأحد، يليه مباشرة عيد شمّ النسيم الاثنيّن في شهر أبريل من كلّ عام، واستمرّ الاحتفال بهذا العيد تقليداً متوارثاً تناقله الأجيال عبر الأزمان والعصور يحمل المراسم والطقوس والعادات والتقاليد ذاتها التي لم يطرأ عليها أدنى تغيير منذ قدماء المصريّين حتّى الآن.

ويعد الحصان أحد الأمثلة الدالّة على استمراريّة التراث المادّيّ والتي شكّلت بعداً محوريّاً عبر الحقب التاريخيّة المختلفة وارتبطت بالاحتفالات والطقوس التي كانت أحد محرّكات التواصل بين تداخل وتشابك المآثورات التراثيّة حيث ظهرت لدى المصريّين القدماء في شكل حورس وهو يمتطي حصانه ويصارع تمساحاً، بينما ظهر لدى الأقباط ممثلاً القدّيس جرجس وهو يصارع التنين، والوضعيّة ذاتها نشاهدها لدى الفنّان الشعبيّ، كرمز وطنيّ يصوّر الزعيم أحمد عرابي يمتطي حصانه ويقهر رمز الاحتلال البريطانيّ، ومن هنا ظهر ما يعرف بحصان المولد حيث صنع المصريّون من السكر أشكالاً للحصان والتي ما زالت موجودة حتّى يومنا هذا عند الاحتفال بالمولد النبويّ.

وإذا كان التاريخ والتراث منسوجين داخل نمط الحياة وأنشطتها في مصر، فينبغي

للمتحف أن يرتبط بنمط الحياة وأنشطتها وبجغرافية المكان، فالمتحف ليس نتاجاً لصدفة وإنما هو منشأة عريقة، لها تاريخ يمكن تتبّعه من خلال المعلومات التاريخية المرتبطة بإنشاء المتاحف المختلفة في مصر والتي تعدّ شبكة عنكبوتية لمختلف المناطق كالقاهرة والجيزة والأقصر وأسوان والنوبة.

ويعتبر المتحف المصريّ بالقاهرة من أشهر المتاحف العالمية وأكثرها ثراءً لما يحتويه من عدد وافر من القطع الأثرية، والتي تمّ جمعها وتصنيفها وعرضها في متحف يحكي تاريخ مصر منذ بدئه في عصور ما قبل الأسرات وحتى العصر البطلمي والرومانيّ، وبالتوازي مع المآثورات المعماريّة والنحتيّة والتصويريّة والحرفيّة ذات الطابع الملكيّ، فإنّ المتحف يكتنز رصيلاً هائلاً من الابداع الشعبيّ الزخرفيّ والرمزيّ والحرفيّ على مرّ تلك العصور الممتدّة، غير أنّ المتحف المصريّ العريق، ورغم موجات التطور التي مرّت به، ما زال إلى درجة كبيرة متحفًا تقليدياً محافظاً.

وفي المقابل، يعدّ متحف النوبة من الأمثلة القليلة التي عنيت بالنسيج الثقافيّ والتاريخيّ المتداخل مع المآثورات المعروضة. وقد افتتح هذا المتحف عام ١٩٩٧، وزوّد بساحة خارجيّة فيها منزل نوبيّ، وكهف يضمّ رسومات تعود لعصور ما قبل التاريخ، ومسرح مفتوح. وتمثّل معروضاته ثقافة النوبة منذ عصور ما قبل التاريخ حتى مرحلة تهجير النوبيين من الوادي القديم إبان بناء السدّ العالي. ومن ثمّ فإنّ رسالة المتحف لم تغط تواصل حياة وحرف وتقاليد المجتمع النوبي ومتغيّراتها بعد التهجير.

تعرّضت الفنون والحرف الشعبيّة لأزمة شديدة نتيجة لانصراف أبناء الطبقة الشعبيّة عنها عندما انحسر استخدامها الذي كان شديد الانتشار بينهم، نتيجة لعزوف الحرفيّين عن إنتاجها، وإقبال النخبة على جمع ما تبقى منها، ودفع أسعار مرتفعة لاقتنائها أو لتضمينها مجموعات المتاحف.

وانصرف المستهلك الأصليّ لتلك الفنون والحرف إلى منتجات أخرى وافدة تحمل تصميمات ومفردات غير نابعة من مفرداتنا البيئية والتراثية، ففقدنا بذلك الأصالة المرتبطة بالالتقان والدقّة في العمل والوظيفة والابداع والجذور الرمزيّة والعاطفيّة للشعب، واقتصر اقتناء ما تبقى من المشغولات الشعبيّة الأصيلة، على الطبقة المثقفة والسائحين، وبذلك انتفت عنها الصفة الشعبيّة وتحوّل إنتاجها إلى تذكارات سياحيّة تخضع لمعايير تسويق



وأذواق مخالفة، فتدهورت الحرفة وبالتالي انفصلت عن مستخدميها الأصليين وما ارتبط بها من رموز وطقوس وقيم عاطفية واقتصادية.

و لم يقف الأمر عند هذه الخسارة الحضارية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرضت لها الفنون والحرف الشعبية، بل امتدت إلى طريقة عرضها في المتاحف معزولة عن سياقاتها الاجتماعية والاقتصادية، فافتقد العرض تلك الأبعاد المهمة مكثفياً بالقيم الجمالية والحرفية للعناصر المعروضة. معزولة عن الأصول الحرفية ومراحل التطور وأسبابها وأماكن إنتاجها وأسرارها الفنية وأبعادها الرمزية وأشهر صناعاتها، فانفصلت عن المناسبات التي كانت مقرونة بها كما في مثال فانوس رمضان الذي ما عاد له وجود تقريباً في احتفال أطفال المدن والقرى. بمقدم هذا الشهر الكريم، وما عاد سوى مكان بداخل المنزل كعنصر زخرفي. وهناك أمثلة أخرى لبعض المنتجات التراثية التي انفصلت عن العادات المرتبطة بها وبأبعادها المتعددة، مثل شبابيك القلل المثقبة في الفخار. بما تحمله من زخرف جمالي ووظيفي، والذي قد انفصل عن بعده الوظيفي عندما وضع في سياق آخر داخل المتحف، حيث تم عرضه كوحدة زخرفية منفصلة ليست لها وظيفة نفعية ذلك بأنها أصبحت نواتج وبقايا حطام القلل القديمة الملقاة في القمامة بكوم الشقافة بمنطقة الفسطاط بصفة خاصة.

المثال الثالث لا يرتبط بمنتج أو بمكان قديم وإنما بأحد الأعياد القديمة المقرونة بطقوس احتفالية رسمية وشعبية مثل عيد وفاء النيل الذي يرجع إلى الحضارة المصرية القديمة، ويتضمن احتفالية ذات أبعاد اقتصادية وتاريخية واجتماعية مقرونة بأغان مصاحبة، حيث تحول إلى مجرد احتفال ترفيهي على ضفاف النيل، وغابت عن المشهد الثقافي الأبعاد الرمزية والطقوس الاحتفالية المرتبطة بهذه المناسبة التاريخية.

وقد أدى ذلك العزل بين المعروضات المتحفية وبين سياقاتها الحضارية والثقافية إلى غياب الخلفيات التحليلية التي تسمح بتكامل المنظور المعرفي والادراكي لتلك الأبعاد في ضوء فكر منظومي مرتب يعمل على تكامل الخبرة.

وفي ضوء ما سبق، فقد أغفلت التربية المتحفية في كثير من الأحيان عنصرين أساسيين، يتعلّق الأول بالانتاج والتسويق، ويتصل الثاني بالهيكل ذي الأبعاد المتعددة للتربية المتحفية، الذي تقلص إلى شيء واحد وهو أنشطة التربية المتحفية.

## الفنون الشعبيّة



المنتج والمستهلك للفنّ الشعبيّ (الجمهور المنسي)

في هذه الدراسة، نتناول الفنون الشعبيّة والتقليديّة كمجال يشمل الانتاج الابداعيّ والحرفيّ لجميع الفنّانين التقليديين والمجتمعات المحليّة، من المناطق الريفيّة، والمناطق الشعبيّة الذين يعيشون على أراضي مصر كما يشمل العديد من الجماعات

الثقافيّة والمهنيّة والعرقية. وتشمل الفنون التقليديّة والحرف والموسيقى والرقص والقصص التي تنتقل عن طريق الأسر والمجتمعات المحليّة أو داخل الجماعات الريفيّة والقبليّة أو المهنيّة. هذه المهارات الفنيّة، والتي تعكس قيم الأجيال المتعاقبة والمتواصلة، هي عنصر حيويّ من ثقافة المجتمع، والتراث والهويّة.

والفنون الشعبيّة هي الفنون التي ينتجها فنانون من الشعب لذويهم في المجتمع وفاءً لحاجات يوميّة ملحة في الاستخدام والاستمتاع، وفي تناول قدرتهم الماديّة المتواضعة. ويعتمد الفنّان الشعبيّ على الخبرات والمهارات والرموز والجماليّات المتراكمة عبر التاريخ الوطنيّ، من خلال المحاولات وتلافي الأخطاء، سواء اعتماد على الخبرات الوطنيّة أو انتخاب خبرات وافدة ودمجها في تيار الابداع الشعبيّ.

ويزدهر الفنّ الشعبيّ، وفق ذلك، بين الطبقات البعيدة عن الحضّر كالريف والأحياء الشعبيّة والنوبيّة والواحات والصحاري، ويبلور كلّ فريق منهم طرازه ومنتجاته ورموزه التي تتوافق مع الإقليم وملاحظه البيئيّة وامتداداته التاريخيّة. ومن ثمّ فإنّ الفنون الشعبيّة في الدلتا، تختلف عنها في الصعيد أو في المناطق الصحراويّة أو الساحليّة. إذ تنهض تلك الفنون لتتواءم مع طبيعة كلّ إقليم وما هو متوافر لديه من خامات وأدوات، وما هو متوارث من تقنيّات وخبرات يتلمذ عليها جيلاً بعد جيل لتتوارث الخبرات بأبعادها المتعدّدة، وتجري عمليّات التطوير في الفنّ الشعبيّ بهدوء لتتكيف مع متغيّرات اقتصاديّة أو وظيفيّة أو قيميّة.

لذا، فرغم أنّ الفنّ الشعبيّ هو فنّ البسطاء، فإنّه يرتكز على كنوز من الخبرات المتوارثة والمتراكمة الأصيلة والتي عزّزت هذه الأصالة بالاستعارات الرشيدة.

وتتسع الفنون الشعبية لتشمل كل ما يتعلق بالنشاط الإنساني النفعي والتروحي والروحاني. فهناك الثقافة المادية من فنون الشكل في الفنون والحرف، وهناك فنون الإيقاع من موسيقى ورقص وأشعار، وفنون أدبية من سير شعبية وأمثال وغيرها من الثقافة اللفظية.

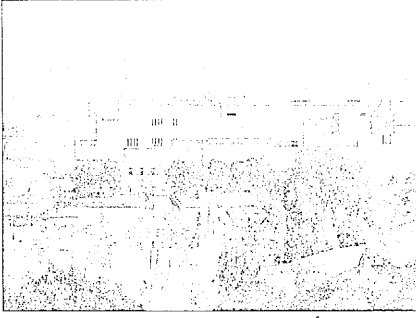
يعبر الفن الشعبي عن الهوية الثقافية من خلال نقل القيم المجتمعية والجمالية المشتركة. وهو يشمل مجموعة واسعة من الخامات والمنتجات النفعية والزخرفية، المنفذة بمختلف الخامات. في حالة عدم التمكن من الحصول على المواد التقليدية، غالبًا ما يتم استبدالها بمواد جديدة، ما أدى إلى ظهور تعبيرات معاصرة عن أشكال الفنون الشعبية التقليدية.

وتداخل مع الفن الشعبي Folk Art نوعيات موازية لتلك النوعية من الفنون مثل ما أُصطلح عليه بالفن الساذج Naive Art، والفنون البدائية Primitive Arts، والفن الريفي Peasant Art، وفن البوب Pop Art، والفن الدخيل Outsider Art، والفن التقليدي Traditional Art، والفن القبلي Tribal art فن الدهماء Tramp Art، فن العصاميين Self – Taught وحتى فن الطبقة العاملة Working Class. جميع هذه المصطلحات لها دلالات مختلفة، ولكنها جميعًا تستخدم في بعض الأحيان بالتبادل مع مصطلح الفن الشعبي، الذي ثبت أن من الصعب تعريفه تعريفًا متفقًا عليه.

## متاحف الفنون الشعبية

جاءت متاحف الفنون الشعبية ضمن حلقة من التحولات العلمية والثقافية والفنية. فقد بدأت متاحف الإنسان ذات التوجهات «الانثولوجية»، في القرن التاسع عشر، لدراسة السلالات والأعراق البشرية والوصول إلى فهم أعمق للإنسان من الناحية الثقافية، ثم تحولت إلى متاحف «الانثروبولوجية» المعنية بدراسة الأصول البشرية وتصنيف أنواعها، ودراسة حياة الشعوب البدائية. ثم ظهر مصطلح «أرجولوجيا» Ergology وهو العلم المعني بدراسة الثقافة المادية والفنية والعمليات الفنية في إنتاجها.

ثم ظهرت متاحف الفن الشعبي بالتوازي مع تصاعد النزعات الوطنية والأفكار الديمقراطية التي تعرض المأثورات المادية للفنان الشعبي ضمن اهتمامات علم الفولكلور،



متحف الأقصر بأسوان ١٩٩٧

والتي كان عليها مواجهة نظرة فريق من الناس إلى التراث الشعبيّ باعتباره بدائيًا فقيرًا، ومن ثمّ كان من أهداف تأسيس متاحف للفنّ الشعبيّ مناقشة هذا الاعتقاد، بتوضيح القيم الرفيعة الفنّية والتعبيريّة والبنائيّة والرمزيّة للفنّ الشعبيّ، إلى جانب الابداع التقنيّ والقيميّ والاقتصاديّ، والحفاظ على الموارد

الطبيعيّة واستهلاكها بحكمة ورشد. ذلك بالإضافة إلى الدور الاجتماعيّ والوظيفيّ للفنون الشعبيّة بين الطبقات الشعبيّة في المجتمع.

ويتميّز الفنّ الشعبيّ بخصوصيّة نوعيّة بالمقارنة بالفنون الرسميّة أو المنهجيةّ فهو

يمثّل:

- حضارة ممتدّة لا تقف عند مرحلة تاريخيّة معيّنة أو ترتبط بحضارة نوعيّة معيّنة، فهو فنّ عابر للحضارات وللأزمان بل وللأجناس والبيئات، فرغم ارتباطه الاثنيّ البيئيّ والعنصريّ لكلّ شعب، فإنّه منفتح دومًا للتأثيرات العابرة من خارجه يتخيّر منها بصورة عضويّة ما يفي بحاجات الجماعة الإنسانيّة التي يخدمها ويضمّها إلى بيئته.

فهو فنّ تراكميّ ممتدّ في تواصل حثيث بالبيئة بمفهومها الواسع بدوافع الضرورة الإنسانيّة، يتعامل مع المتوافر والميسور من خامات بيئية أو صناعيّة، بتقنيّات ورموز وجماليّات تبلورت عبر التاريخ الطويل من التجارب التوفيقيّة والابتكارات، وعمليات التوفيق والتطويع لتيسير وإعلاء مستوى حياة البسطاء من الناس.

- فنّ يختصّ خلاصة خبرات الفنون الرسميّة المعاصرة سواء القوميّة أو العالميّة، ضمن مصادر تغذيته بالرموز والبيانات والتقنيّات بعد تبسيطها وتكييفها لإمكاناته الماديّة والتقنيّة، حيث يضيف عليها قيمًا زخرفيّة تغطّي على رخص الخامات وبساطة التقنيّة مقارنة بالفنون الرسميّة والملكيّة المعاصرة له.

وبينما تندثر تلك الفنون الرسميّة أو تتحوّل بصورة كبيرة مع التحوّلات الإيديولوجيّة، أو نتيجة لصراعات عسكريّة أو أزمات اقتصاديّة، تظلّ مسيرة الفنّ

الشعبيّ متواصلة تحفظ بين جوانحها قيم تلك الفنون المندثرة والمهجورة وخلفيّتها الحضاريّة.

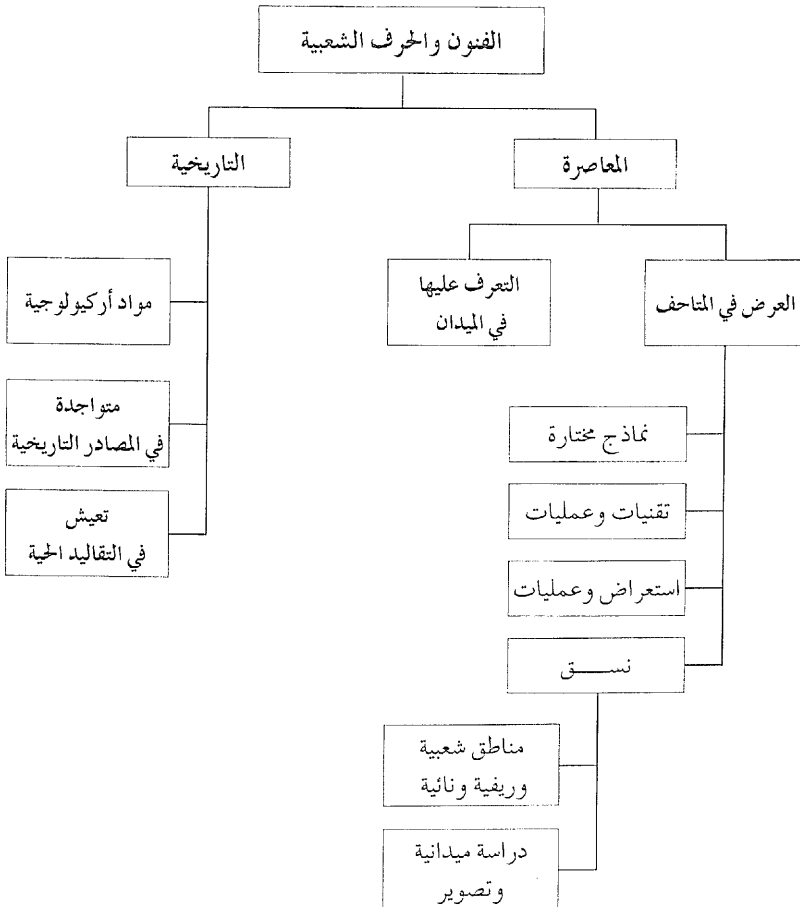
ورغم أنّ الاستعراض السابق يوضح أهميّة تأسيس متاحف الفنّ الشعبيّ، غير أنّ هذه الدراسة تهتمّ بتقديم خلفيّة نظريّة لمشروع متحف معاصر للفنّ الشعبيّ يختلف عن الأمثلة الهامة السابقة في مصر، منذ تأسيس المتحف الاثنوجرافيّ الملحق بالجمعية الجغرافيّة المصريّة، والذي يضمّ مآثورات مهمّة من الحرف والفنون الشعبيّة المصريّة والإفريقيّة، ومتحف الفنون الريفيّة الملحق بالمتحف الزراعيّ، والمتحف النوبي بأسوان المخصّص للتراث النوبي المصريّ عبر العصور، ومآثورات وعدد من عروض «الديوراما» التي تمثّل مشاهد شعبيّة وأسريّة واحتفاليّة، ومتحف سعد الخادم وعفت ناجي بالقاهرة الذي يضمّ مقتنياتها المهمة وكتابات ووثائق الخادم رائد الدراسات الشعبيّة، ومتحف مجموعة رعاية النمر وأبو العينين التي منحت إلى مكتبة الاسكندريّة، ومتاحف أخرى محدودة بالمقارنة مع مناطق مختلفة من القطر وتابعة لمؤسّسات ثقافيّة متنوّعة، وذات طبيعة نوعيّة. غير أنّ تلك المتاحف الشعبيّة معنيّة في المقام الأوّل بالفنون والحرف، ولكنّها لا تحتفل بباقي أشكال التعبير الشعبيّ كتنقافة ومصنّفات معرفيّة وبحثيّة ومرجعيّة، أو تقدّم أنشطة دوريّة أو موسميّة للفنون الإيقاعيّة.

فرغم كون المتحف الشعبيّ متخصّصاً في المقام الأوّل في عرض المنتجات الفنيّة المادّيّة للفنان الشعبيّ، التي أنتجت في مراحل تاريخيّة متفاوتة والتي ما زال الفنانون الشعبيّون يدعونها أحياناً، فإنّه، أيّ المتحف الشعبيّ، يجب أن يكون ديواناً للثقافة والفنون الشعبيّة بكلّ ألوان التعبير ووسائطه وتقنيّاته، ذلك بأنّ المتحف الذي يعتمد على عرض مختارات ممتازة من المنتجات الشعبيّة التاريخيّة Historical Folk Art بصورة جذّابة أو غير ذلك، مصحوبة ببعض البيانات المكتوبة، تعدّ متاحف مغلقة على معروضاتها، وهي في الأغلب مهياة لاستقبال الباحثين والدارسين، ولا يضع منظّم المتحف أيّ اعتبار لأبناء الطبقات الشعبيّة التي تنتج، وينتج التراث الشعبيّ من أجلها.

ويستبعد أن تقوم تلك المتاحف المغلقة بتقديم مصنّفات الإبداع الشعبيّ السابق الإشارة إليها، ولا أن تحتفي بالفنان والحرفيّ الشعبيّ ذاته. لأنّها تركز على المنتج دون صانعه أو مستخدمه. الأمر الذي يجعل تلك المتاحف أقرب إلى معاهد بحوث معزولة عن

مصادرهما الأصيلة وفعاليتها الحيويّة، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى توجيه النظر إلى نوع آخر من الفنون الشعبيّة، وهو الفنّ الشعبيّ المعاصر Contemporary Folk Art، الذي يشمل العديد من الحرف الشعبيّة مثل الخياميّة وأطباق الخوص، والصياغة، والمشغولات المعدنيّة والخزفيّة والخشبيّة وأشغال الجلود الخزرفيّة والأزياء ومكّمّلات الزينة، تلك المنتجات غالبًا ما كانت تباع في المناطق الشعبيّة للاستخدام اليوميّ وأصبحت تستخدم اليوم لإضفاء قيم جماليّة ورمزيّة في المنازل أو كمقتنيات فنيّة في المتاحف. ويوضح (شكل ١) الفرق الجوهريّ بين الفنّ الشعبيّ التاريخيّ والفنّ الشعبيّ المعاصر الذي نادرًا ما يقدم في المتاحف الشعبيّة.

شكل ١



ومن المتاحف النادرة، التي تعرض الفنون الشعبيّة المعاصرة، كمتحف تشيس للفنون الشعبيّة في يوتاه Chase Home Museum of Utah Folk Arts الذي يذكر موقعه أنّه المتحف الوحيد في الولايات المتّحدة المخصّص لعرض المجموعة المملوكة للدولة الأميركيّة من الفنّ الشعبيّ المعاصر، من منتجات الفنّانين الشعبيّين الهنود الذين يعيشون في يوتاه، في المجتمعات الريفيّة والمهنيّة والعرقية الذي يقدّم لمحة عن الثقافة في ولاية يوتاه المعاصرة والتراثيّة.

ولكن ما يعنينا هنا نوعيّة أخرى من المتاحف الشعبيّة التي تعالج هذا القصور بانفتاحها على المجتمع الشعبيّ، حيث ترتبط رسالتها بحاجات ذلك المجتمع وأصحاب الحرف الفنّيّة، وذلك للمساهمة في رفع فرص تنمية الفنون والثقافة الشعبيّة. وتنبئ عقد الدورات التدريبية وتقديم المساعدة التقنيّة إلى الفنّانين الشعبيّين والعاملين في تسويق تلك الفنون والمشاركين في آليات الإعلام والنشر والتسويق، وتوفير الميزات اللازمة للتدريب والدعم وتبني التجارب والخبرات الاستشاريّة وتجنيد المتطوّعين وتحفيز المتبرّعين من المنظّمات والجمعيات غير الربحية، ومؤسسات التعليم والإعلام والثقافة، والتواصل مع صنّاع القرار من السياسيّين والتنفيذيّين وأساتذة الفنون الشعبيّة والمؤسسات التعليميّة والثقافيّة وضمان تواصلها في مواجهة التصنيع الآليّ والمنتجات المستوردة زهيدة الثمن. وتنظيم العروض الحيّة للموسيقى والغناء والمسرح والرقص والحكاء والمهرجانات، والمعارض المرتبطة بالفنون التشكيلية الشعبيّة. وزرع قيم الفنّ الشعبيّ في دروس التربية الفنّيّة لمختلف الأجيال، وفي كليات ومعاهد الفنون بالتعاون مع المتحف المنفتح التفاعليّ. هذه النوعيّة الثانية من متاحف الفنّ الشعبيّ هي الأكثر عصريّة وفاعليّة في توظيف خبرات التربية المتحفية بصورة حديثة ومؤثّرة في المجتمع.

كما أنّ الدراسة هذه تبحث عن صيغة معاصرة وتفاعليّة لمتحف الفنّ الشعبيّ، فتضع نصب عينها أن يكون المتحف منفتحاً ومتواصلاً مع الفنّانين الشعبيّين ومجتمعاتهم الحيّة، فضلاً عن الأطياف المختلفة من الزوّار، متحف لا تقف رسالته عند تجميع وعرض منتجات فنّيّة شعبيّة مع أهميّة هذا الدور، ولكن يولي اهتماماً ماثلاً بالتقنيّات وطرق الأداء المدهشة التي تمثّل راقات متراكمة من الخبرة استخلصت من فهم المزاج والأفضليّات والحاجات الشعبيّة، وابتكارات توصل إليها الفنّان الشعبيّ عبر الحقبات التاريخيّة، للتألف المتوافق بين الإنسان وبيئته واحتياجاته وتجليّاته الابداعيّة.

وتستفيد الدراسة في ذلك من الدراسات المعاصرة للتربية المتحفية التي ازدهرت منذ الربع الأخير من القرن العشرين، من أفكار انفتاح المتحف على الجمهور والمبدعين والثقافة والبيئة، وتأكيد البعد الديمقراطي للمتحف من حيث عرض مآثورات التراث الشعبي القديم والمعاصر في منظور أوسع، يشمل الأفكار والمفاهيم والممارسات العصرية، ليصبح المتحف بؤرة لالتقاء أنواع متعدّدة من الجماهير تختلف اهتماماتهم وتوجّحاتهم، ما يوفّر التواصل والتبادل التفاعلي للخبرات الحية حول الابداع الشعبي عبر العصور ودروسه المستفادة، واستقرار فعاليّتها في إثراء الحاضر وتنمية القيم والمشاعر المرتبطة بهذا التراث الهام، وتلبية الاحتياجات الآتية والمستقبلية اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ومعاودة تفعيل إنتاج مصنّفات الفنّ الشعبيّ وتدوّقه والاقبال عليه وتسويقه والاعتزاز بقيمه ومنجزاته في مواجهة هيمنة أنماط وافدة على الأسواق المحليّة.

من هذا المنطلق، قد تكون المتاحف الشعبيّة مغلقة داخل مبان فاخرة في مناطق راقية لعرض المآثورات المنقولة، وفي تلك الحالة تكون أساساً موجهة للنخبة المثقّفة، أما المتاحف الشعبيّة المفتوحة التي تعرض المآثورات القائمة، سواء في مواقعها الأصليّة والأثرية المنتسبة إلى حقبة تاريخية قديمة، أو إلى مراكز الانتاج المعاصر، والتي ما زال الحرفيون المحليّون يمارسون إبداعهم فيها حتّى اليوم أو منذ وقت قصير مثل وكالة الغوري، وتكون فعلاً موجهة إلى تدعيم الفنّ الشعبيّ في نسقه الاجتماعيّ والثقافيّ، ويمكن هنا أن نتعرض لنوعين أساسيين من متاحف الفنّ الشعبيّ المعاصر وهما المتاحف المفتوحة والحية.

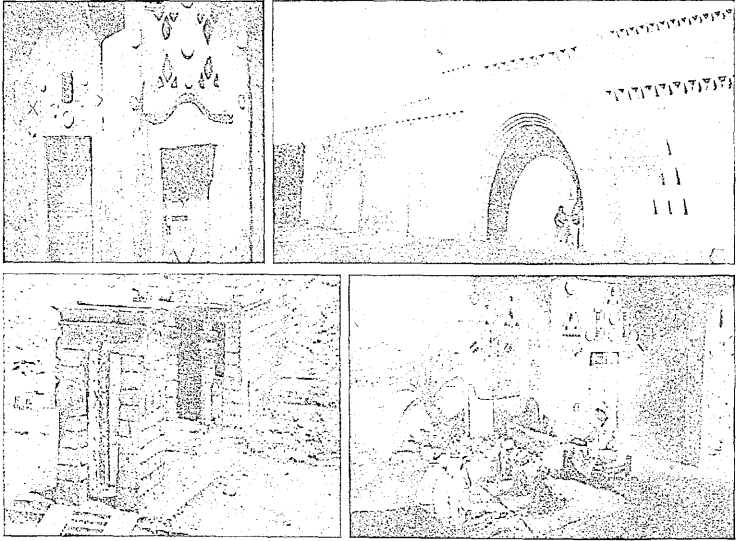
### متاحف الفنّ الشعبيّ المفتوحة والحية Folk Art living and open-air museum

من أمثلة متاحف الفنون الشعبيّة التي تحطّت حدود المتاحف التقليديّة المشار إليها سلفاً متاحف الفنّ الشعبيّ المفتوحة و متاحف الفنّ الشعبيّ الحية، وتتميّز الأولى بأنّها متاحف خارج الجدران في الهواء الطلق، ما يتيح لزوّارها خبرة متعدّدة الحواسّ لينغمسوا في تجربة معاشة مرتبطة بالثقافة الشعبيّة.

أمّا المتاحف الشعبيّة الحية، فهي إعادة بعث صروح أو مبانٍ أو أحياء تاريخية ليعيش زوارها خبرة تفاعلية حية مع تراث ماضي، يمارس فيه الفنّان الشعبيّ خبرة تواصل التقاليد



والعادات والطقوس والخبرات ومهارات الفن الشعبي التي هجرها الناس لتراجع دورها الفاعل في حياتهم نتيجة لاستبدالها بأنماط بديلة وافدة، ومحملة بدعاية وحوافز تسويق جذابة، فيقوم المتحف بإحياء كل ذلك ليصبح جزءاً من الحياة المعاصرة. ومن أقرب الأمثلة لذلك ما تمّ في شارع المعز لدين الله الفاطمي من إعادة ترميم وإحياء للحرف الموجودة فيه.



متحف الزوبية المفتوح والنسيج الثقافي والتاريخي والمأثورات

### أمثلة من المتاحف المفتوحة

#### متحف الحياة والفنون الشعبية النمساوية

الذي تأسس في عام ١٨٩٥ The Austrian Museum of Folk Art

ويقدم نظرة عامة على الثقافة الشعبية التقليدية وعلاقتها بالبيئة والاقتصاد والتاريخ والمجتمع، وكذلك لتوضيح الكيفية التي يفكر بها الفنّان الشعبي في وضعه أو مكانته في العالم. ويركز الاختيار والعرض، وترتيب القاعات على توجيه الزائر إلى ما يكمن وراء الأشياء المعروضة، ليساعده على تأمل علاقة المقتنيات المعروضة بتاريخ الحياة الشعبية. ومع أن مقتنيات المتحف ترجع إلى الفترة من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، إلا أنها تعبر عن الحياة والاحتياجات اليومية، والعمارة الشعبية، والعمل والإيمان، أو الفقر والاعتزاز في المناطق الريفية، حيث تعبر عن المجتمع بالفن الشعبي لتصبح أدلة متعددة الجوانب.

### المركز الثقافي للفلبين The Cultural Center of the Philippine

ويتبع المؤسسة الحكومية لصيانة وتطوير ودعم الفن والثقافة الشعبية الوطنية يعني بتصميم البرامج وإعداد العروض وإقامة مهرجانات وبحوث ومعارض حول مجالات التعبير الفني، ويتعاون المركز مع المؤسسات المعنية في مهام إحياء الفنون الشعبية ورعايتها وتمويلها ومنها: المركز الثقافي الفلبيني، لجنة اللغة الفلبينية، معهد التاريخ الوطني، المكتبة والمتحف الوطني وإدارة السجلات والمحفوظات.

مركز جون مايكل كولر للفنون، شيبويجان ويسكونسن

### John Michael Kohler Arts Center Sheboygan Wisconsin

أسس منذ ١٩٧٠، ويهتم بدراسة الفنون الشعبية وحفظها، وإقامة معارض للحرفيين الأحياء، ويعمل المركز بشكل وثيق مع شركة «كوهلر»، ومؤسسة «فالبنك» التي تهتم بتقديم كل من الفنان والبيئة من خلال زيارة منازل وساحات الفنانين الشعبية، إلى إقامة عروض فنية متعددة الجوانب تجسد وتعبر عن العصر، وعن المكان الذي عاش فيه كل فنان منهم.

### أكاديمية ولاية «كيرالا» للفولكلور Kerala Folklore Academy

التي تخطط لإحياء «قرى شعبية» وتوجيه الاهتمام للخصائص الفريدة للحياة في المناطق النائية، حيث تحول القرى الشعبية إلى «متاحف حية» تعرض ميزات الثقافة الأصلية في المناطق النائية، بما في ذلك التقاليد والفنون الشعبية.

### المتحف الحي للغرب في «ملبورن» Melbourne's Living Museum of the West

هو أول متحف مفتوح في أستراليا. أسس في مدينة «ملبورن»، عام ١٩٨٤. وهو مرتبط بقيم البيئة والمجتمع المحلي لمدينة «ملبورن» في ولاية فيكتوريا، بأستراليا. ويهدف هذا المتحف للتأكيد على أهمية الاهتمام بما كان ينظر إليه باعتباره هامشيًا ومستهجناً في المجتمع، ويعني بثقافة وحياة السكان المهاجرين المحرومين من الخدمة الثقافية الرسمية.

### جمعية التاريخ الحي، المزرعة، والمتاحف الزراعية

### Farm and Agricultural Museums (ALHFAM)

يشمل مجموعة من المعالم والأشياء التي كان يستخدمها الأفراد العاديون في الماضي. فهؤلاء الناس كان عليهم الذهاب إلى العمل، وغسل ملابسهم، وتناول الطعام، والنوم،

والمتعة تمامًا كما نفعنا اليوم، ولكن الأشياء التي كانت تستخدم أحيانًا تكون مختلفة جدًا عما نستخدمه الآن.

من الاستعراض السابق، يتضح أن معظم هذه المتاحف تقع تحت فئة متاحف التاريخ المفتوح أو الحيّ Living history Museum، أكثر من تعاملها مع الفن الشعبي المعاصر، فهي في الواقع متاحف تاريخية مفتوحة، تعطينا فكرة عما يمكن أن يحدث لنا لو عشنا في الماضي. إنها إعادة بعث التاريخ لمحاكاة الفترات الزمنية الماضية، حيث توفر للزوار تفسيرًا تجريبيًا للتاريخ. وتعيد هذه المتاحف بناء فترات زمنية معينة و/ أو مواقع لتعكس الفترة الزمنية. ويستخدم منظمو هذه المتاحف الأزياء واللغات القديمة، والتقاليد والحرف المرتبطة بأداء المهام والحرف اليومية في تلك الفترة. وقد وجدت هذه المتاحف شعبية خاصة في الولايات المتحدة وكندا والنرويج.

#### المتحف الشعبي الحيّ Living popular art museum

وتتميز المتاحف الشعبية الحية بأنها لا تقدم التاريخ كما تقدمه متاحف التاريخ المفتوحة والتي تقترب من دور الكتب، والمعلمين، والفصول الدراسية في الدراسات المتخصصة أو صناعة الأفلام التاريخية والتسجيلية، ولكنها تقدم الفنون والحياة الشعبية كتاريخ حيّ متطور من منطلق تطور الفنون الشعبية ذاتها والتي تشكل كي توائم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتغيرة.

ومن الأمثلة المعاصرة الصغيرة والمتحررة للمتاحف الشعبية المفتوحة متحف الحرف الشعبية والفنون (CAFAM (The Craft and Folk Art Museum)، الذي اتخذ من مقهى شعبي للعجة والبيض، مركزًا للثقافة العالمية والأنشطة والفكر التقدمي في لوس أنجلوس، كاليفورنيا منذ عام ١٩٦٥. وتركز رسالة هذا المتحف في تقديم الفن كمحور للفهم الثقافي من خلال تشجيع الفضول حول عالمنا المتنوع. ويقدم برامج محفزة لاستكشاف الفن والأفكار التي تعكس طبيعة وقيم مجتمع الفن الشعبي المتواصل. فتقدم الفنون بدءًا من الحرف إلى المأكولات الشعبية.

ومن الأمثلة المتميزة للمتحف الشعبي الحيّ قرية هولوك village of Hollokō، وهي واحدة من مواقع التراث العالمي الأربعة في المجر. وتمثل الجزء القديم من القرية وبها أكثر من خمسين مبنى، تمثل حياة الناس في العقد الماضي، حيث يمكن للزوار مشاهدة

الحرفيين أثناء ممارسة وابتكار مختلف الأعمال، وشراء الهدايا التذكارية المصنوعة يدويًا في ورش العمل التي أصبحت جزءًا مألوفًا من التقاليد المحليّة، كما يقدم المتحف الاحتفالات بالأعياد والمناسبات الخاصّة.

وبناء على الاستعراض السابق وعلى المعايير التي حدّتها اليونيسكو في تقريرها الموجه إلى حكومة دولة بنجلاديش عام ١٩٨٤ حول أهداف و معايير تصميم وإنشاء متحف الحرف والفنون الشعبيّة، يمكن وضع تصوّر لبعض المواصفات الأساسيّة لإنشاء المتحف الشعبيّ الحيّ.

### المواصفات الأساسيّة لإنشاء المتحف الشعبيّ الحيّ

- توفير وسائل الحفاظ على الفنون الشعبيّة والحرف التقليديّة الأصيلة والمنزليّة متناهية الصغر، وتشجيع إعادة إنتاجها.
  - إعداد متحف شعبيّ تفاعليّ في أماكن إنتاج الحرف الشعبيّة.
  - تشجيع وإنشاء وتنفيذ وإدارة المشاريع في البيئة المحيطة من خلال إنشاء المؤسّسات الداعمة.
  - الحفاظ على عينة من الفنون الشعبيّة والحرف التقليديّة، وتشجيع إعادة إنتاجها.
  - إنشاء وصيانة مراكز التدريب للحرفيين وتصميم برامج لإعدادهم .
  - تأكيد دور المرصد الثقافيّ، في الربط بين المنتج، التاجر، التسويق، إنتاج الخامات والأدوات.
  - رصد أماكن (قرى) وورش إنتاج الحرف والصناعات الشعبيّة وأنواعها.
  - رصد أماكن وجود الحرفيين الشعبيين.
  - التواصل مع المؤسّسات المرتبطة بالفنون والحرف والصناعات الشعبيّة.
  - التواصل مع أصحاب القرار السياسيّ.
  - توافق موقع وعمارة المتحف بما يتناسب مع الجمهور المستهدف.
- كما يؤكّد تقرير اليونيسكو على أنّه في بلد مثل بنجلاديش، حيث الكثير من التقاليد القديمة ما زالت باقية، وحيث تتغير تلك التقاليد بسرعة بسبب التصنيع وهي الحالة التي تتشابه مع وضع الفنون الشعبيّة في مصر والعديد من الدول العربيّة يجب مراعاة ما يلي:

ينبغي أن ينشأ متحف للفنون والحرف على أساس من كل من المواد التاريخية والمعاصرة. مع مراعاة أنه في تلك المجتمعات التقليدية لا يمكن للمرء تحديد الخطّ الفاصل بين الأشياء والمنتجات القديمة التقليدية والمعاصرة.

ينبغي أيضاً أن يؤخذ في الاعتبار أن «القديم» ليس بالضرورة «الثمين» و«الجديد» ليس بالضرورة «أقلّ أهميّة» أو «غير تقليديّ». ومن ثمّ على المتحف أن يقدم المسارات العريضة لتطورّ الفنون والحرف اليدوية مع التمييز بين القديم والجديد.

ينبغي أيضاً أن يؤخذ في الاعتبار أن المواد الأثرية التي تتعلق بالتقاليد والفنون الشعبية قد تكون مبعثرة ومنتشرة في أماكن متعدّدة ولا تنحصر في الحرف والمؤسسات المختلفة المرتبطة بالفنون والحرف والصناعات الشعبية الموجودة في المنطقة المحيطة بالمتاحف. ومن ثمّ قد يتعذر الحصول عليها. ولتوفير منظور تاريخي، مهما كان محدوداً، يجب أن يكون هناك قسم من المتحف معنيّ بعرض الصور الفوتوغرافية للنماذج سواء المقلّدة أو الفعلية بالتوازي مع عرض ما يمكن توفيره من أمثلة حقيقية يمكن اقتناؤها.

ينبغي أن يحتوي المتحف كذلك على الرسوم والجداول والخرائط الكبيرة التي تبسّط المعلومات، حيث تعرض تلك الرسومات والخرائط والمعلومات الأصول القديمة للفنون والحرف في المنطقة مع توضيح معالم الجو العام للاستخدام الفعليّ للمقتنيات المعروضة في قاعات المتحف.

كما يجب أن يقوم المتحف من خلال تواصله مع المرصد الثقافيّ بمسح ميدانيّ بحثيّ وفوتوغرافيّ شامل لكلّ من:

- النماذج الأصيلة والتراثية من الحرف الشعبية.
  - أنواع وأماكن (قرى) وورش إنتاج الحرف والصناعات الشعبية.
  - أماكن تسويق الحرف والصناعات الشعبية.
  - أماكن وجود الحرفيين الشعبيين.
  - المؤسسات المرتبطة بالفنون والحرف والصناعات الشعبية.
- يجب أن يوضع في الاعتبار أن هذا المتحف لا يراعي فقط مبدأ الديمقراطية من حيث كون المتحف موجّهاً إلى كلّ طبقات الشعب وليس فقط الطبقة المثقفة، ولكنه يجب أن ينحاز للطبقة الشعبية (المنسيّة) مقدّماً كلّ المتطلّبات التي تجتذّبها لارتياح هذا المتحف.

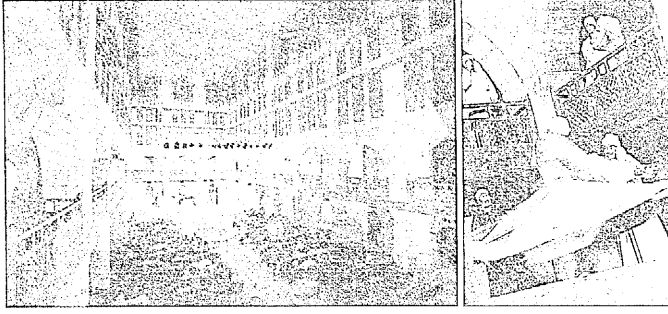
يجب أن يهتمّ المتحف بإقامة المهرجانات في المناطق الأثريّة (مثل شارع المعز لدين الله الفاطمي في مصر) حيث يمكن فيه للزوار رؤية الفنّ الشعبيّ الأصيل من خلال سلسلة من العروض التقليديّة، من الأرجوز إلى الألعاب البهلوانيّة. بالإضافة إلى قائمة واسعة من الأطعمة الشعبيّة اللذيذة التي يمكن للزوار الاستمتاع بها.

يجب أن يتمحور التركيز على دور المتحف في إدامة التقاليد الفنيّة والمهارات والحفاظ على الهويّات الثقافيّة الفريدة، بما يشمل الفنون التقليديّة والحرف والموسيقى والرقص والقصص التي تنتقل عن طريق الأسر والمجتمعات المحليّة أو داخل الجماعات الريفيّة والقبليّة أو المهنيّة.

بالإضافة إلى ما سبق، يجب أن يكون المتحف، بالتعاون مع المرصد الثقافيّ، منبراً للدفاع عن حقوق الفنّان الشعبيّ وحماية منتجاته من المنافسة الوافدة، والدفاع عن حقوق الملكيّة الفكرية ضدّ الاقتباس وتقليد وإعادة إنتاج تلك الفنون.

### مقال لبعض الأنشطة المرتبطة بالمتحف الشعبيّ الحيّ

في ضوء ما تقدّم من خلفيّة نظريّة، نقدّم عدداً من التجارب التي قمنا بها إشارافاً أو ميدانياً أو بالتعاون مع عدد كبير من الباحثين والمتابعين الميدانيين في مصر، وهي ترتبط ارتباطاً عضوياً بالفنون الشعبيّة، وهي تجارب استشرافيّة ترمي إلى بلورة رؤية منظوميّة للمتحف المفتوح الذي لم يوجد بعد في مصر، بما ينطوي عليه من تفاعل حيّ بين أطراف متعدّدة، بدءاً من الفنّانين الشعبيّين أنفسهم والأحياء والعمائر والمرافق الشعبيّة المهجورة. تقوم تلك التجارب على تحديد مفهوم طالما ترسّخ بين باحثي الفنون الشعبيّة وهو مناهض لمبدأ التطوير والإحياء للفنون الشعبيّة التراثيّة، وتنبه إلى أهميّة النظر إلى الفنّ الشعبيّ المعاصر الذي لم تلتفت إليه المتاحف القائمة حتّى الآن في مصر على تعدّدها وراثتها، خاصّة وأنّ زحف البضائع الأجنبيّة الرخيصة يؤثّر بقوة على استمراريّة تلك الفنون الشعبيّة والبيئيّة التي واصلت رسالتها الإنسانيّة والوظيفيّة لآلاف السنين، ما يهدّدها بالاندثار. ولعدم وجود نموذج متكامل للتصوّر الذي تطرحه هذه الدراسة للمتحف الشعبيّ المفتوح، سوف نستعرض تجربتين توضّحان بعض الأنشطة التي يمكن أن تتمّ من خلال المتحف الشعبيّ الحيّ.

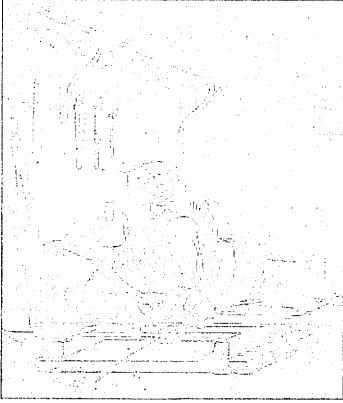


وكالة الغوري

### التجربة البحثية الأولى التي نطرحها هي مشروع الحمام

مشروع الحمام يمثل تجربة رائدة تسعى إلى إحياء مآثورات تراثية وطقوس وممارسات ربّما هجرها كثير من الناس، لتراجع دورها الفاعل في حياتهم نتيجة لاستبدالها بأنماط بديلة وافدة ومحمّلة بدعاية جذّابة، ولا يعتمد هذا النوع من المتاحف الحيّة على استقطاع جزئيات من التراث المعماريّ والحرفي لعرضها بمعزل عن محيطها البيئيّ والبنويّ والثقافيّ. وعليه فإنّ الدراسة تتبنّى تقديم إحدى حالات تلك الملامح التراثية التي أدّت دوراً حيويّاً وثيرياً متعدّد الأوجه في حياة الإنسان حتّى عهد ليس ببعيد إلى أن عانت قدراً كبيراً من الإهمال، حيث فقدت غالبية الشعب وظيفتها التراثية ولم تتوافر لها بدائل ممكنة، في حين لجأ أبناء الطبقة المسورة إلى بدائل وافدة.

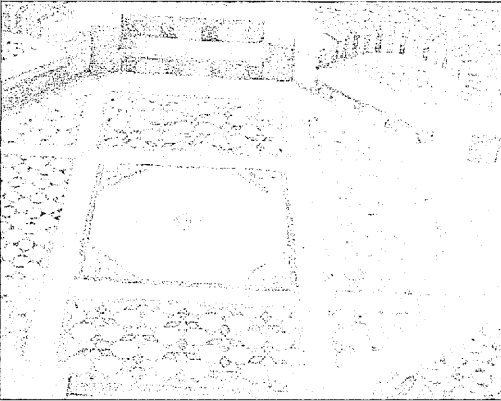
وتسعى الدراسة إلى تقديم الحمّامات الشعبيّة كمشروع منظوميّ يعكس أفكار وآليات إحياء الهوية الثقافية بصورة بحثية وميدانية، تستشرف مستقبل جهود الإحياء للتمتّع بقيم تراث الماضي من ناحية، وإعادة تأهيلها للحياة المعاصرة من ناحية أخرى في منظومة تواصلية متفاعلة، من خلال إعادة توظيفها والاعتناء بجهود الترميم والصيانة في إطار من التقويم المنظوميّ البانوراميّ للحمّامات الشعبيّة من منظور مفاهيميّ متعدّد الزوايا، ما يحقّق دوراً حيويّاً للتربية المتحفية يتخطّى حدود التذوّق لمآثورات التراث داخل قاعات المتحف المغلقة، بل يتعدّاه إلى إعادة تأهيل المواقع الأثرية بعد أن عانت الهجر والإهمال، لتحويلها إلى مؤسسات متحفية حية تواصل دورها التاريخي في الحياة الحاضرة والمستقبلية، وتبعث الأنشطة الاجتماعية والثقافية والفنية والبيئية والاقتصادية



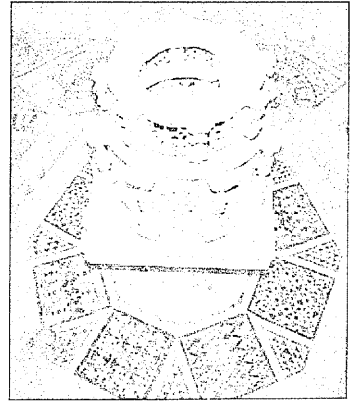
الخرائط والحمام



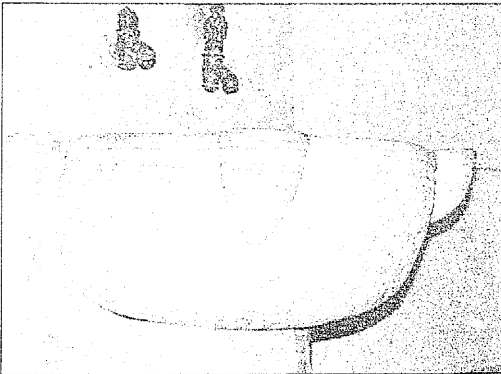
احتساء القهوة، إجتماع الأصدقاء، تبادل الأخبار، حمام العرس



النوافير في الحمام



أحواض الحمام



أحواض الحمام

التي احتضنتها في عهود سابقة.  
فتفعيل الحاجات الاجتماعية  
المرتبطة بالحمام العمومي تواصل  
الماضي بالحاضر والمستقبل.  
كما يسعى البحث إلى إتاحة  
الفرصة لزوار متحف الفنون  
الشعبية لإعادة تقويم الواقع في



إطار قيم الماضي والحاضر، حيث إنّ الحاضر هو تراث المستقبل وأن الأشياء والأدوات التي يستخدمها اليوم هي ما سوف يمثلنا في متاحف الغد، ويتم ذلك من خلال إتاحة الفرصة للتلاميذ للممارسة الثقافية والأنشطة الابداعية، كجزء من متطلبات حياتهم اليومية، حيث تتوافر لهم السبل لاكتساب المعارف والمهارات والقيم من خلال فهم ذواتهم والتعرف إلى الآخر واتّساع وعيهم بالبيئة والتراث الإنساني والاستفادة من هذا الوعي في صياغة الشخصية المستقلة، والاستعانة بمبادئ التخطيط والتقنيات العصرية بالتوازي مع المحتوى القيمي والأهداف المختارة، وترسيخ قيم التعاون والمشاركة والديمقراطية والانتماء والتمتع بثمار الحضارة لتصبح مداخل تربوية وثقافية طموحة وحتمية للزائر من كلّ الأعمار والمستويات الثقافية والاجتماعية. وقد تضمّن المشروع الأنشطة التالية:

- رفع الوعي بالحمام كمؤسسة ونظام مفتوح متعدد الأبعاد .
- وعي دور الحمام في المجتمع المصري وربطه بالتاريخ والتقاليد الوطنية والعربية والدولية.
- دراسة العلاقة بين الحمام وسياقه الحضريّ (الحي، المجتمع).
- تصوير وتسجيل الأنشطة والحرف المتصلة بمهام الحمام (سجلّ بصريّ).
- تصوير وتسجيل الهندسة المعمارية الخارجية والتصميم الداخلي للحمامات، الفضاء، الوظيفة، النمط المعماري والأسلوب الزخرفي.
- استخلاص المحاور الأساسية لدراسة وإحياء الحمام، تاريخ، مصادر، بيئة، صحة، اقتصاديات، مواصفات، خامات، أدوات، حرف، وظائف، عمارة (شكل ٢).
- استخدام الدراسة السابقة للمتغيرات الاجتماعية والمادية والسياقية للحمام لربط الرموز البصرية واللفظية التي توضح الأبعاد المتعددة للحمام.
- دراسة مسحية، وقياس مساحة وأبعاد، وتسجيل العناصر المعمارية للحمام مثل السقف والأرضيات والجدران والأعمدة.
- تجريب أساليب، وتقنيات ومهارات مختلفة من خلال العمل الفني ثنائي وثلاثي الأبعاد باستخدام أنواع مختلفة من الورق.
- استخدام الورق، والطلاء وغيرها من المواد لإبداع عمل فنيّ مستوحى من الحمام.
- بناء نموذج معماريّ يعبر عن تخيل التلميذ لإمكانية إحياء الحمام.

- بناء استراتيجية للتشجيع على إحياء الحمّام من خلال تصميم وإعداد برنامج لتسليط الضوء على أهمية إحياء الحمّام على المستوى الوطني.

شكل ٢.

تاريخ الحمّام	الحمّام المصريّ القديم - الحمّام الرومانيّ - الحمّام الاسلاميّ
مياه الحمّام	وفرة المياه - مواصفات المياه (معايير الأمان - درجة التعقيم)
بيئة الحمّام	وجود مصدر مياه - وجود صرف صحيّ - وجود مصادر طاقة
الصحة	النظافة - التعقيم والتطهير - الحرارة الدائمة ودرجة الحرارة الثابتة - توافر مساحة للرياضة
إقتصاديات الحمّام	توافر رأس المال - توافر خطة للتشغيل (ضرائب، تصريح، أدوات - مواد خام) - توافر خطة تسويق
مواصفات الحمّام	في مركز المدينة - درجة حرارة مناسبة - مبنيّ قديم - مصارف واسعة - سقف مرتفع - مياه وفيرة - مكان فسيح - استخدام الطاقة - إضاءة قوية ومتعددة - استخدام النفايات - مياه عذبة ورائحة زكية - الكفاءة التشغيلية
الخامات	الصابون - الحنا - ماء الورد - الطمي - الزيوت الأساسية (الزيتون، السمسّم، اللوز، الورد، الليمون، النعناع) - العطور الطبيعية (خشب الصندل، قشر البرتقال، مسحوق الترمس) - بخور
الأدوات	حجر الأقدام - قبقاب - هراشة الظهر - ليفة - مشط (خشبيّ، عاج) - فوط - مقصات
الحرف	البناء - السجاد والنسيج - المعادن - الحدادة - الخزف - التجديد - الزجاج - الزيوت - الصابون - البخور - العطور - أدوات التجميل
وظائف الحمّام	الصحة والنظافة - الغسيل والاستحمام - الترفيه عن الجسد والروح - الحديث مع الأصدقاء - تبادل المعلومات - تبادل تجاريّ - رياضة - قراءة - تبضع - الأكل والشراب - العلاج من الأمراض - الأفراح والمناسبات الاجتماعية
عمارة الحمّام	العمارة الخارجية - العمارة الداخلية

## التجربة البحثية الثانية التي نطرحها هي مشروع تسجيل وبعث الفنون الشعبية المعرضة للاندثار

شاركنا في غضون عام ٢٠٠٦ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لهيئة اليونسكو بمصر، والجمعية المصرية للفنون الشعبية، وقطاع الفنون التشكيلية بمشروع هدفه التأكيد على أهمية ربط الدراسة التاريخية بالورش الشعبية والفنان الشعبي، وتفعيل دورها في إحياء وتوثيق الفنون والحرف الشعبية وقد تضمن المشروع الأنشطة التالية:

- دراسات بحثية موثقة في تاريخ وحاضر الحرف .
- ورش عمل ودورات تدريبية للعاملين بالميدان وللباحثين المشاركين في المشروع.
- تصميم استبيانات لتوثيق أحوال الحرف المختارة ميدانيا (فنانون وورش إنتاج وأماكن تسويق) في النوبة وفي الأحياء الشعبية (ملحق ١).
- إعداد برنامج تحفيزي وتدريبى اعتماداً على المسئين الملمين بأصول الصنعة والحافظين رموزها وعلاقاتها الجمالية، ودراسة بحثية لإحياء الأصول والنماذج الشعبية التراثية من خلال تدريب صبية وصبايا جدد.
- بعث النماذج المندثرة المتوفرة في المتاحف والمجموعات الخاصة عملياً وميدانياً (توظيف الماضي في تطوير الحاضر من أجل بناء المستقبل).
- تسجيل بصريّ ولفظيّ لبيئات إنتاج تلك المآثورات الشعبية ومصادر الخامات الطبيعية والأدوات والأداء وطرائقه وأسراره.
- دراسة ميدانية لفظية وبصرية لأماكن العمل وطبيعة الورشة ذات الطابع الأسريّ في النوبة أو الحرفية في ورش القاهرة، ونمط التعليم بطريقة التلمذ التقليدية بدقة تفصيلية.
- استقصاء المعلومات الحية من صناعها في مصفوفة الاستبيانات التي تمّ تصميمها كما سبقت الإشارة .

### الخلاصة

إستهدف البحث إلقاء الضوء على منظومة المتاحف الشعبية الحية التي تقوم بإعادة إحياء صروح ومبانٍ وإحياء وظائفها التاريخية لتخدم الحياة المعاصرة والمستقبلية وبعث

الحرف الفنّيّة التقليديّة المعرّضة للاندثار، كمدخل لتوظيف الأفكار والمفاهيم المرتبطة بالتربية المتحفّيّة المعاصرة، التي تنادي بانفتاح المتاحف على المجتمع بصورة ديمقراطيّة تخدم شرائح متعدّدة من أبناء المجتمع وتقدّم لهم فرص الاستمتاع والتذوّق والمعرفة والمشاركة والتدريب والبحث.

ولقد قدّمنا ملخصاً لمشروعات قمنا بها في السنوات القليلة الماضية، أوّلها حول تنمية وبعث تراث الحرف الفنّيّة التقليديّة المعرّضة للاندثار في كلّ من النوبة والقاهرة، ومشروع الحمّام الشعبيّ العموميّ كمسرح لفعاليّات متحف حيّ، يتعايش الزوار والمريدين فيه مع ماضي مهجور، واستشراف آفاق إحيائه كجزء متمم للحياة المعاصرة، يسهم في تأكيد الهوية الثقافيّة من ناحية، والاقتراب المستنير من تراث الماضي لتحويله إلى واقع حاضر ومستقبليّ.



- بن حمودة؛ محمد، ٢٠٠٨: السوق الفنية وصناعة المحتوي (سوق المنتجات الرمزية وتوطين الكيان من خلال أستيعاب التخيلي ضمن مقياس التشكيل)، الندوة الفكرية الدولية، وزارة الثقافة والفنون والتراث، مركز الفنون البصرية، قطر.

- BISHOP Robert & WEISSMAN Judith Reiter, 1983: The Knopf Collectors» Guides to American Antiques: Folk Art. Knopf.

- CHATTOPADHYAY K., 1969: The Crafts as an Embodiment of the great Folk Art Tradition, The Art and men, UNESCO, UN. Paris, France. Educational, Scientific, and Cultural Organization, Paris.

- ELOISE Lee, 1983: «The Pros and Cons of «Living History» and some of the unpredictable hazards». Christian, Science Monitor.

- EL RAZZAZ Mostafa F, 1979: A Formative and summative taxonomy of The Elements of The Folk Arts and Art Education. Doctor of Philosophy. State University of N.Y. at Buffalo.

- FINDLEN Paula, 1989: “The Museum: its classical etymology and renaissance genealogy”. Journal of the History of Collections, 1 (1).

- JYOTINDRA Jain, 1979: Folk Arts and Crafts Museum, United Nations Leiterman.

- ROEDE Lars, 1993: «The Open-air Museum Idea. An Early Contribution». Conference Report of the Association of European Open Air Museums. Stockholm.

- SIDKY Saria & MOUTAW Moushira, 2011: Systemic Thinking and Assessment in the Revival of Islamic Culture through Museum.

- Education, In SEA World Congress, Budapest Smithsonian American Art Museum, 2011: Slide show of 73 works of folk art with brief descriptions. Retrieved, July 6,

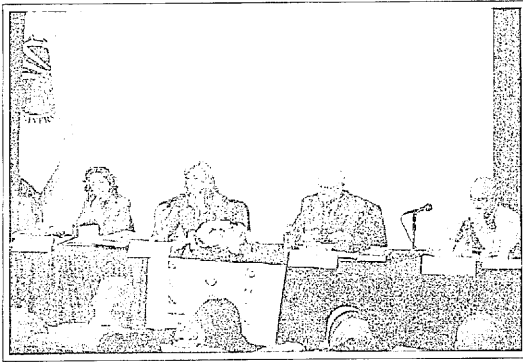
- BENNET Tony, 1995: the Birth of the Museum, New York: Routledge Press.



المحور الثامن

## المتحف والذاكرة

### في مقاربات متنوعة



رئيس الجلسة

الدكتورة زهيدة درويش جبور  
(الجامعة اللبنانية والمنسقة العامة لمنظمة اليونسكو)

المحاضرون

المحاضرة الأولى

المواقع السلوكية: متحف «بيت التراب» في تربل البقاع  
المحاضرة د. مكي العلوف (الجامعة اللبنانية)

المحاضرة الثانية

المجتمع المدني ودوره في تنمية المتاحف  
المحاضر د. نزيه كباره (رئيس المجلس الثقافي للبنان الشمالي)

المحاضرة الثالثة

«التاريخ يكتب للسلطة الحاكمة، والسلطة لديها العسكر والمال... أما الذاكرة فيكتبها الفقراء»  
المحاضر الأستاذ جان حجار (جامعة الحكمة)







## المواقع السلوكية:

### متحف «بيت التراب» في تربل البقاع

الدكتورة ماكي المعلوف<sup>(1)</sup>

#### ملخص

إن ملاحظة الأنساق الاجتماعية بشكل مباشر ومتكرر، على مختلف الأصعدة، تحتاج إلى مقارنة شاملة. فهذه الأخيرة تمكن من فهم السلوك الإنساني وبخاصة علاقاته بالإطار المكاني، إضافة إلى المسارات الإدراكية والانفعالية المرافقة له. فمقاربة المواقع السلوكية تنوّه بالتداخل الحاصل وبالترابط بين البيئة (المتحف، المرصد، المدينة، الحي...) والسلوك الإنساني. هذه الرؤية، التي نحاول الاضائة عليها في المؤتمر العالمي الأكاديمي للجامعة اللبنانية، تركز على اعتبار أن الموقع السلوكي هو وحدة بيئية وسلوكية. فالدراسات الحالية Barker تسهّل فهم المواقع السلوكية من منظار اجتماعي ودينامي، ارتكازاً إلى الأبعاد المكانية والزمانية، وإلى التغيرات الممكنة في المواقع، وإلى الإدراكات لا سيّما منها دوافع المشاركين وأهدافهم (زائرون، عاملون، موظفون، إداريون، كبار، صغار، أفراد، جماعات، ذوو حاجات خاصة،...).

(1) الدكتورة ماكي المعلوف: أستاذة علم النفس - اجتماعي في معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، باحثة لها العديد من المقالات المنشورة. maguymaalouf@yahoo.com

فمن شأن السلام القياسية أن تسمح بقياس السلوك في المواقع عبر عشرة عناصر (Bechtel, 1987) منها الجمالية والترفيه والإدارة والعلاقات الاجتماعية... إنها تساهم في اكتشاف أهم أشكال السلوك في موقع ما، لتتمكّن تاليًا من تعديل الاطار الماديّ وتكييفه وفقًا لها. فهذه المداخلة تسعى لتؤكد أنّ الأمكنة من متاحف ومراكز ثقافية، من ناحية أولى، وسلوك الأفراد والجماعات من ناحية ثانية، بات يُنظر إليها على أنّها عناصر متداخلة ببعضها البعض ومتصلة ومترابطة. محتوى الدراسة :

- العناصر المكوّنة للموقع السلوكي
- الأهمية المنهجية للمواقع السلوكية
- الكثافة المرتفعة/المتدنية (الحشود)
- التعرف إلى المواقع السلوكية

## مقدّمة

تستدعي ملاحظة الأنساق الاجتماعية بشكل مباشر ومتكرّر، وعلى مختلف الأصعدة، مقارنة منهجية شاملة. فمن ميزات هذه الأخيرة المساهمة في اكتشاف السلوك الإنساني، وبخاصة علاقات الأفراد بالحيز المجالي، وفهم ما يرافقها من مسارات إدراكية وانفعالية ملازمة. فمقاربات المجال الاجتماعية والبيئية تنوّه بالتداخل الممكن وبالترابط بين السلوك والبيئة، بما في ذلك المجال من مدن (Marchand, 2005) وأحياء و متاحف ومساكن مستحدثة (Robin, 2005) وشوارع وساحات عامّة (المعلوف، ٢٠٠٨). في هذا الإطار، طوّر روجر باركر مفهوم "الموقع السلوكي" الدال إلى التفاعل الإنساني، وإلى تأثير الحيز المجالي في البعد السلوكي (Barker, 1968). إنها المقاربة الايكولوجية - السلوكية - الاجتماعية التي أثار اهتمامنا و حاولنا تفصيلها في المؤتمر الأكاديمي، المنظم بالاشتراك بين الجامعة اللبنانية (معهد العلوم الاجتماعية) وجامعة بلنمند. تركزت المقاربة على قاعدة تعتبر الموقع السلوكي وحدة بيئية وسلوكية حيث يتلوّن سلوك الفرد بالتفاعلات الممكنة بين مواصفات الحيز المادية ومعطياته الثقافية. فالفرد، إذ يسعى للتكيف مع المجال البيئي وفي داخله، يتبنى تاليًا سلوكًا ملائمًا للتوقعات الثقافية والمجالية. من هذا المنطلق، تعدّدت محاولات الإحاطة بالموضوع في الميادين الايكولوجية والمجالية والسلوكية، وأظهرت نتائج الدراسات أهمية إدراك المواقع السلوكية من منظور

اجتماعي ودينامي. تركز في ذلك إلى الأبعاد الجغرافية والزمانية، وإلى التغيرات المحتملة في المواقع، وإلى الإدراكات، وبخاصة منها أهداف المشاركين ودوافع كل منهم من زائرين وعاملين وموظفين وإداريين، أو كبار وصغار وأفراد وجماعات ونساء وعائلات وذوي احتياجات خاصة....

فالدراسات التي أُجريت في هذا الإطار، أظهرت إمكانية إخضاع السلوك الإنساني للقياس، في المواقع المتنوعة بما في ذلك المجالات الثقافية والتراثية، عبر اعتماد مجموعة من المعايير العلمية (Bechtel, 1987) كأساس للتصنيف مثال الجمالية والترفيه والادارة والعلاقات الاجتماعية والمهنية في التطبيق والتشريعات أو القوانين والصحة... إنها تساهم في اكتشاف أهم أشكال السلوك في موقع ما، لتتوصل تاليًا إلى تعديل الإطار المادي وتكييفه وفقًا لها.

تسعى الدراسة الحالية إلى التفكير بالترابط الممكن بين الأبعاد الفردية والأبعاد البيئية في المجالات الثقافية، ولا سيما منها المتاحف في لبنان، وتحديدًا متحف "بيت التراب" في تربل البقاع: فالحيز المجالي للمتحف، كإطار ثقافي مادي ولا مادي، على تعدد أشكاله، من ناحية أولى، وسلوك الأفراد والجماعات، من ناحية ثانية، تتفاعل كعناصر متداخلة ومتراصة وتؤثر تاليًا بعضها على بعض.

فاستنادًا إلى ما تقدّم ذكره، ونظرًا لأهمية المفاهيم الملازمة للمقاربة، وبهدف تحقيق الربط بين الإطار النظري والعملي، تم اختيار المتحف البيئي، أي متحف "بيت التراب" في بلدة تربل، من قضاء زحلة في محافظة البقاع، كحقل ميداني. فاستدعى الأمر وصف الحيز المجالي للمتحف لاكتشاف مواصفات البيت الترابي، ومميزات السكن فيه، والتعرف إلى تقنيات الهندسة التقليدية التي سادت آنذاك، إضافة إلى أشكال المواد الطبيعية والموارد الايكولوجية التي كانت توظف في عمارة البيوت. علاوة على ذلك، يسلط الضوء على المتاحف اللبنانية التي تمتاز بمعايير دولية بهدف إبراز دور المؤسسات الفاعلة في إحيائها، مثال اللجنة الوطنية للمتاحف والمؤسسة الوطنية للتراث. وعليه، يأتي مضمون الدراسة متمحورًا حول العناصر التالية:

- خطوات الدراسة المنهجية.

- ماهية الحيز المجالي.

- علاقة الفرد والبيئة.
- انتشار المتاحف الوطنية (في لبنان).
- تربل البقاع.
- تقنيّة بناء البيوت الترابية.
- متحف «بيت التراب» في تربل البقاع.
- الحارطة السلوكية.
- العناصر المكوّنة للموقع السلوكي.
- تنظيم النسق.
- الكثافة المرتفعة/المتدنية (الحشود).
- في كيفية قياس المواقع السلوكية.
- آلية التعرّف إلى المواقع السلوكية.
- اقتراحات عمليّة.

## خطوات منهجية

ترتبط دوافع اختيار متحف «بيت التراب البيئي»، كحقل تطبيقي بمعطيات ثلاثة: يكمن السبب الأول في حداثة نشأة المتحف، وفي فرادته من حيث السعي إلى حماية العمارة التقليدية للبيت الترابي، إضافة إلى المحافظة على الأشياء من أدوات وأوانٍ وقطع تاريخية وتراثية معروضة في أرجائه. ويتعلّق المنحى الثاني بطابع المتحف البيئي الذي يحاكي الطبيعة، من حيث الموادّ الموظّفة في عمارة البيوت، علاوة على التقنيات الطبيعية المعتمدة في تنفيذ البناء. ويتمحور الدافع الثالث حول الذاكرة التي يهّم المتحف الحفاظ عليها من ناحية نمط المعيشة الزراعية والعائليّة التي سادت في البيوت الترابية، من زمن ليس ببعيد الأفق. هذا إضافة إلى القلق من جراء الاندثار التدريجي الذي أصاب البيوت التقليدية نتيجة استبدالها بمنازل حديثة أكثر رفاهاً ورخاءً، وأقلّ عناءً. ففي محاولة استقصائية لرصد البيوت الترابية التي ما زالت مأهولة في تربل حتى الوقت الحاضر، أي في خلال العام ٢٠١٢، تبين أن عددها لا يتجاوز الخمس.

إنّ متحف «بيت التراب» يشكّل إذاً مجالاً وظيفياً عابراً ذا أبعاد ثقافية، يقصده العاملون فيه والزائرون والمتطوّعون لفترات زمنية محدّدة، ولأهداف جليّة. فالجهود في هذا المجال التراثيّ تصب في قنوات الإدارة والتصنيف وجمع المواد والاستكشاف وسبل الحماية بهدف المحافظة على الذاكرة الاجتماعية، بما في ذلك الذاكرة السكّنية وذاكرة الحياة اليومية القروية، منزليّة كانت أو زراعيّة.

فإلى أيّ مدى ينجح الأفراد في نسج علاقات متميزة مع مجال وظيفي عابر كالمجال المتحفّي؟ ما أبعاد تلك العلاقات من حيث طرق التعامل مع المجال إدراكياً وانفعاليّاً؟ ما هي مواصفات العلاقة بالمجال المتحفّي؟ كيف يمكن تفسير الربط بين الحيز المجالي للمتحف والسلوك؟ وتالياً، كيف يتأثّر السلوك (الفردّي/الجماعي) في الأطر الماديّة – البيئيّة والثقافية للمجال المتحفّي؟ هل يشكّل متحف «بيت التراب» موقعاً سلوكياً؟ ثمّ تتألّف العناصر المكوّنة للموقع السلوكيّ للمتحف؟ كيف تتشكّل الخارطة السلوكيّة لمتحف بيت التراب؟ استناداً إلى التساؤلات المطروحة يتوضّح أنّ الهدف من الوقفة العلميّة أمام «بيت التراب» يكمن بدراسة التفاعل والتأثير بين الحيز المجالي للمتحف والسلوك الإنساني، وذلك عبر استيضاح علاقة الأفراد بالمجال والأشكال الممكنة لتلك العلاقة وانعكاسها على السلوك. باختصار، إنّها محاولة هادفة إلى دراسة الترابط المحتمل في المجالات الثقافية بين الأبعاد الفرديّة والاجتماعيّة والأبعاد البيئيّة.

في الواقع، تطلّب الاستقصاء المنهجيّ لتلك الطروحات العودة إلى الدراسات المتخصّصة في الميادين البيئيّة والسوسيولوجيّة والثقافيّة والمجاليّة لاستقاء المفاهيم التي من شأنها تشكيل قاعدة نظريّة للدراسة. فاستدعت المعالجة، تالياً، اللجوء إلى مقارنة شاملة تجمع بين علم النفس البيئي وعلم النفس الاجتماعي والثقافة والتاريخ وعلم الاجتماع.... وعليه، لم يقتصر جمع البيانات على المراجع النظرية، بل شمل أيضاً المعطيات الميدانيّة التي تمّ جمعها بواسطة التقنيات البحثيّة النوعيّة، ولا سيّما منها تقنيّتي المقابلة والملاحظة، في خلال الفترة الزمنيّة الممتدّة من حزيران ٢٠١١ لغاية آذار ٢٠١٢. جرت المقابلات مع نوعين من الأفراد من سكان تريل، منهم المتطوّعون في تدبير المتحف، ومنهم الذين ولدوا في بيوت تراثيّة وعاشوا فيها لفترة زمنيّة طويلة الأمد. فالجزء الأول من المقابلات تمّ داخل المجال المتحفّي وخارجه، في حين نظّم القسم الثاني في

منازل الأفراد المعنّيين الذين استقبلونا برحابة صدر. أما مجال متحف «بيت التراب» فقد خضع للملاحظة المتكرّرة التي سمحت بجمع البيانات على أصدعة ثلاثة. أولاً، اكتشاف مجالات البيت المتعدّدة وتقسيماته الداخليّة، والتعدّيلات التي أدخلت عليه، ومميزات بنيته العمرانية وموادّ البناء التي يرتفع عليها. ثانياً، التعرّف إلى محفوظاته التي تحصى بالمئات، والتي تشمل الأواني المنزليّة والأدوات الزراعيّة والقطع الأثريّة وعدّة صيانة منازل التراب، علاوة على الفخاريّات والنحاسيّات وأشياء أخرى ذات صناعة يدويّة من القشّ والقصب والجفصين والخشب والجلد والحجارة. ثالثاً، رصد الأحداث والأنشطة والاحتفالات التي تنظّم في أرجاء المتحف، لشرائح اجتماعيّة متنوّعة، في الفصول الدافئة. فمنها ما يطال الأولاد وبخاصّة منهم تلامذة المدارس وطلاب الجامعات والأفراد الذين ينتمون إلى منظّمات منوّعة من كشيّة واجتماعيّة... ومنها ما يفسح المجال لكافة فئات المجتمع حيث تبرز مشاركة النساء بشكل لافت في تحضير بعض أشكال المؤونة القرويّة. هذا، وإنّ مقارنة المواقع السلوكيّة نظرياً تستدعي أيضاً التعمّق بمعاني المفاهيم المرافقة لها.

## ماهية الحيز المجالي

يشار إلى الحيز المجالي بأشكال متعدّدة: فهو مكان، ونقطة استدلال ومعلم. فيه تجري أمور منوّعة، وتنتج الأحداث، وتمارس الأنشطة. يدلّ المجال أيضاً على أنماط السكن، وعلى الاستعمالات المختلفة، إضافة إلى المعنى أو المعاني التي يستحوذ عليها. فهو، إذًا، وسط منظّم أو إطار موضوعي لتأثير العوامل الاجتماعيّة حيث يتفكك الوسط إلى ميكرو أوساط تسمح بفهم تعدّد الربط بين المجتمع والفرد. من هذا المنظار، يتعدّد على الباحث الفصل بين المميزات المادّية للمكان وأبعاده الاجتماعيّة. فكل مساحة هي إنتاج اجتماعي، وتبرز تاليًا صورة عن ثقافة المجتمع إذ تتحكّم بالعلاقات بين الأفراد من ناحية، وبين الأفراد وبيئاتهم المتعدّدة، من ناحية أخرى.<sup>(٢)</sup> فعلم النفس الاجتماعيّ يحاول فهم تلك العلاقة من زاويتين: تكشف الأولى عن تأثير البيئة على سلوك الإنسان انطلاقاً من القيم التي يستبطنها. وتوضح الثانية جهود الفرد في سبيل تنظيم وسطه، وإعادة

(٢) للتوسع في مفهوم الحيز المجالي واكتشاف دينامية العلاقات التفاعلة البيئية لا سيما في المجالات الانتقالية مثال القنارات ومراكز حماية النساء والمؤسسات الاجتماعيّة، أنظر في المرجع التالي: ROBIN, M et RATIU, E. 2005: Transitions et rapports à l'espace, France, L'Harmattan

إنتاجه وفقاً لعوامل مختلفة ومنوعة منها التربية ومحاولات التكيف والمعايير الاجتماعية والاقتصادية....

تمّ المقاربة على مستويين، أحدهما ماكرو نفس-اجتماعي، والآخر ميكرو نفس-اجتماعي. فاهتمام الأول ينصبّ على دراسة المجتمع بمجمله حيث يظهر التحليل، على سبيل المثال، أنّ المجتمعات الصناعية تتميز في تحولات الوسط الذي ينتج أنواعاً من التنظيم مختلفة جذرياً عن الوسط «الطبيعي».

أما الميكرو وسط، -وهو محيط الفرد المباشر أحياناً-، فيستلزم توأصلاً ثابتاً، نوعاً ما، مع مكان واحد. في هذا المعنى يتمّ التكيف في الميكرو وسط، في المجال الذي يشغله الفرد ويقيم فيه، في حقبة زمنية محدّدة، كالمنزل أو قاعة محاضرات في جامعة، أو غرفة عناية في مستشفى، أو صالة معروضات في متحف. فالميكرو وسط إذا، يطال الأماكن الصغرى والمحدّدة من مجالات السكن والتنقل والعمل والترفيه والثقافة. والمجال السكني المأهول، على سبيل المثال، لا يدلّ على ملء حجم معين، أو تعبئة مساحة ما، وإنما يترجم بالتعبير عن الانفعالات وعن الثقافة وعن المعاش حيث يصبح المجال شخصياً.

### العلاقة مع المجال كإطار وظيفي

على هذا المستوى، حيث ينشط المجال، وفي آن معاً، كأداة وظيفية وكثقافة، يظهر أنّ الدليل الأول لوجود الفرد هو سكن الحيز المجالي، كما رأى لو كوربوزيه Le Corbusier. لقد اعتاد المهندسون المعماريون والمدّيون والمصمّمون النظر إلى الأشكال البيئية المأهولة، كالمنازل ومكاتب العمل وقاعات الدراسة والحدائق والمتاحف والساحات والشوارع، انطلاقاً من المعايير الوظيفية التي تلبي الاحتياجات الأولية للمجموعات الإنسانية. فتنظيم الحيز المجالي يستلزم التمحصّ في سلوك الأفراد وفي علاقاتهم. في الأمر إشارة إلى كون الحيز المجالي يشكل عاملاً مؤثراً في تكيف الأفراد واندماجهم. فالمنهج العلمي يقضي بدراسة الحيز من خلال العلاقات الوظيفية، وذلك انطلاقاً من الاحتياجات الإنسانية الكونية. هذا، وإن المجال الشخصي يرتكز إلى الخبرات اليومية (الفردية والجماعية) حيث تؤدّي الثقافة دوراً اندماجياً تكاملياً يطبع سلوك الفرد والجماعات. فالمجال إذاً، كحقل ديناميكي، تشكّله العلاقات التي تطال ليس فقط المستوى الوظيفي، وإنما تعكس أيضاً أهمية الخبرة المعاشة.

## العلاقة بالحيز المجالي المعاش

لإدراك العلاقة بالمجال المعاش، لا بدّ من الارتكاز إلى أساليب استعمال المجال وطرق التعامل معه انفعاليًا وإدراكيًا. وعليه، يجوز الحديث عن المجال المعاش والموظف في الخبرات العاطفية والاجتماعية والحسية. نتيجة التفاعل الدينامي، ترشّح عن الحيز المعاش مجموعة من المعاني المحملة بالقيم الثقافية. وعليه، لا ينحصر الحيز الهندسي بالمواصفات المادية، وإنما يتعداها ليخبر عن سيرة الفرد الذاتية، كما عن تاريخ المجموعة التي ينتمي إليها. بذلك، يصبح المجال وسيلة تعبير: إنه يعبر عن أسلوب الحياة والزي والعمل، وعن أنواع العلاقات الاجتماعية، كما يعبر عن هموم الأفراد وطموحاتهم وحاجتهم إلى التقدير ومآسئهم الاجتماعية لاسيما منها مشاعر العزلة والإبعاد والتهميش....

ينعكس كل ذلك في الحيز المكاني عبر سلسلة من المظاهر الملموسة، والتي نذكر منها للمثال لا الحصر ما يلي: إهمال العناية بالمجال، ومراكمة النفايات فيه، وتشويهه بالخربشات الجدرانية وعبارات الغضب والرسوم المرمزة. هذا علاوة على إتلاف الأثاث والممتلكات العامة من متاحف وشوارع ومقاعد وخلّيات هاتف ومحطات نقل ووسائل اتصال... جميع تلك المظاهر وغيرها أيضًا تتحدث عن تدهور علائقي مع الحيز المجالي. فهنا، تصنّف العلاقة البيئية في إطار الخبرة الاجتماعية حيث يتحوّل المجال إلى لغة معبرة تكشف عن دينامية علائقية متداخلة. فالحيز المجالي يصنع الأفراد الذين بدورهم يشكلونه. فكل حيز منظم بطريقة تولّد ظروفًا معينة، وتحدّد أطرها: في هذا المسار برز مفهوم «الموقع السلوكي» الدالّ على الدعامة الطوبولوجية اجتماعيًا وثقافيًا حيث يتطور السلوك متأثرًا بالتفاعلات بين مواصفات المجال المادية والبيئية ومعطياته الثقافية.

## علاقة الفرد بالبيئة

البيئة، بما في ذلك مجموعة العناصر الطبيعية منها، وغير الطبيعية كتلك التي صنعها الإنسان، تشكّل إطارًا للحياة البشرية. لتفصيل العلاقة المتبادلة بين أفراد المجتمع ومكونات البيئة، وظّف علماء الاجتماع كلمة "إيكولوجيا" في دراساتهم البيئية-الاجتماعية (رشوان، ٢٠٠٦). فالإيكولوجيا تدلّ، ليس فقط على البيئة المادية، وإنما أيضًا على مساحة الأرض (المجال) المأهولة وغير المأهولة، وعلى المرافق العامة (حدائق، شوارع، مياه، كهرباء...)، وعلى الخدمات (مؤسسات تعليمية وتجارية وثقافية وتراثية...) والنظم



المجتمعية السائدة (اقتصاد، سياسة...). هذا، علاوة على أساليب الاتصال والمواصلات وعلى مصادر الخطر التي تقلق صحة الإنسان وتهدد تاليًا التوازن الايكولوجي. فالفرد، كعضو فاعل ونشيط، يدرك بيئته، ويشعر بها، كما يتمثلها ويعكس ذاته فيها. وهو إذ يشكل جزءًا منها، بوجوده الفعلي أو الافتراضي، يعدل في إطار حياته، الثابت والعاير، ويطوّعه وفق حاجاته ورغباته وطموحاته. فهو إذا منتج البيئة حيث تنعكس مجمل الخيارات والتفضيلات فردية كانت أم جماعية. وعليه، يتبين أن البيئة ليست مجرد هندسة خارجية، أو مجموعة عناصر مادية؛ فهي قائمة على التفاعل الذي يتعدى العناصر الحسية، ليطل أيضًا الأفراد الآخرين حيث التواصل مستمرّ والشراكة ممكنة بين بعضهم البعض.

لدراسة علاقة الأفراد بالمجال المعاش، على الباحث العودة إلى مجموعة اعتبارات أهمها أمران أساسيان، هما البعد الثقافيّ والبعد الزمنيّ. فعملية التفاعل الحاصلة مع المجال الماديّ والاجتماعيّ تحدث وفقًا لثقافة الأفراد الخاضعة، بدورها، للعلاقات المميزة مع المجال، والتي تسجّل في البعد الزمنيّ.

### البعد الثقافيّ

عمليًا، يتقاسم الأفراد والجماعات الحيز المجالي بواسطة أساليب متنوّعة. لهذه الأخيرة انعكاسات على إدراكاتهم وتمثلاتهم الاجتماعية، وعلى انفعالاتهم وسلوكهم: فالمجال إذًا، محمّل بالمعاني وبالقيم. وعليه، تخبر طريقة إنتاج المجال وتعديله وتنظيمه عن كيفية تقييم الطبيعة الإنسانية. فيتحوّل المجال المنتج تاليًا إلى دليل حول هوية الفرد، وواجباته وحقوقه، وتاليًا سلوكه المتوقع. إذًا، فالمجال، أولًا وقبل كل شيء، يمدّ الأفراد والجماعات بالمعنى والهوية استنادًا إلى موقع كل منهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

إنّ المتطلّبات المتعلقة بنوعية الحياة والحاجات المرافقة لها ليست موحّدة على الصعيد العالمي. فالحاجة إلى المساحة في المجال (ضيّق/واسع)، وتحديدًا إلى مسافة فاصلة بين الأفراد (طويلة/قصيرة) تختلف باختلاف الثقافات (Hall, 1985)، وتؤثّر بموقع الفرد في دورة الحياة. وأيضًا، فالحاجة إلى الخصوصية تشير إلى ظروف مختلفة ومتباينة ليس فقط على الصعيد الفرديّ وإنّما أيضًا على المستوى الثقافيّ. من هذا المنطلق، اقترح «كانت» (Kent, 1991) تصنيفًا لمجموعات ثقافية متباينة مستندًا في ذلك إلى عملية إحصاء أنماط استعمالاتها للمجال المنزليّ. فالتفضيلات على مستوى تنظيم المجال وإعداده، وعلى

مستوى المتطلّبات من أمتعة وتجهيزات وما يرافقها من طرق الاستعمال تشكّل جميعها ثوابت نوعيّة. فعندما يظهر تقسيم المجال أو توزيع التجهيزات متعارضاً مع ثقافة جماعة ما، تعتمد هذه الأخيرة إلى إعادة تأهيل المجال وتكييفه بالشكل الذي يتطابق مع ضرورات حياتها ومتطلّباتها الثقافية.

علاوة على ذلك، يصلح تطبيق القاعدة المذكورة أيضاً على مفهوم التفضيلات في الحيز السكني: ففي حين يعتبر الميل للسكن في منازل منفردة ظاهرة مفضلة لدى بعض الشعوب (الأوروبية والآنكلوساكسونيّة)، تميل شعوب أخرى (أميركا اللاتينيّة والدول العربيّة مثلاً) إلى تفضيل المجمّعات السكنية، لدوافع أمنيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة. يظهر، مما تقدم ذكره، أنّ معاني مفهوم الرفاه تتباين وفقاً لتعدّد الثقافات واختلافاتها. فلكي تنجح المجموعات المتنوّعة، على تفاوت ثقافاتهما، في قبول مجالاتها البيئيّة المتميزة، والتماهي بها، يجب أن يتوفّر فيها ما يشبع حاجاتها المتنوّعة ثقافيّاً ورغباتها.

### البعد الزمني

من الملاحظ أنّ البنى الاجتماعيّة تتطوّر، فتطال التبدّلات، أيضاً، البنى المجاليّة، إضافة إلى العلاقات الفرديّة والجماعيّة مع البيئة. بذلك، تتعدّد أنماط الحياة في الحضرات الكبرى حيث تتداخل إيقاعات الحياة، فتتعرّج الفواصل وتكاد تختفي الحدود. فمن ناحية، يلاحظ بأنّ تعاقب الزمن بين الليل/النهار يفقد من حدّته، ويصبح أكثر ليونة وأقل وضوحاً وصراحة. هذا إضافة إلى حتمية الانعكاسات المجاليّة من جرّاء إطالة دوام العمل في قطاع الخدمات (مخازن كبرى، مطارات، وسائل النقل...). ومن ناحية أخرى، وفقاً إلى البعد الزمني، ونظراً لتطوّر وسائل الاتّصال، تأخذ بعض المصطلحات مثال «الجوار» («والأرض») معاني جديدة. فدراسة علاقة الفرد-البيئة تبيّن دور البعد الزمني في رفاه الفرد وفي إدراك المجال وامتلاكه وتقويمه وسبل استعماله. كلها أمور تحدث في الزمن، وترتبط بدورة الحياة، وتخضع لتأثير المتغيّرات مثال ذلك الموقع الاجتماعيّ والمهنة والوضع العائليّ ودوافع الفرد إضافة إلى مشاريعه المستقبلية.

علاوة على الوقت الحاضر، يشمل البعد الزمنيّ الوقت الماضي أيضاً، أي ماضي المجال الذي يسمح في فهمه في الحاضر، كما يشمل المستقبل الذي يوجّه الأفراد. وعليه، يدخل البعد الزمنيّ في صلب بناء هويّة الفرد من خلال التاريخ السكني، وامتلاك المجال:

أمران أساسيان في علاقة الفرد بالبيئة، ولن نتوقف لشرحهما بالتفصيل في سياق هذه الدراسة.

خلاصة القول، إنَّ الحيزَ المجالي يشكّل وحدة اجتماعية تعكس سلوك الفرد التكيفي في الوحدة البيئية. فكما الجماعات، يسعى الفرد للتكيف في إطاره البيئي الخاص، ويتبنّى سلوكاً ملائماً لما يجب أن يكون عليه وأن يفعله في المجالات الحياتية المتعددة، الثابتة منها والانتقالية.

### المتاحف في لبنان

قبل منتصف القرن العشرين (١٩٤٦)، حضنت العاصمة الفرنسية (مدينة باريس) محاولة إنشاء منظمة غير حكومية: فتأسس، إثر ذلك، المجلس الدولي للمتاحف أو الإيكوم (ICOM). يسعى الإيكوم إلى الحفاظ على إرث الشعوب الطبيعي والثقافي، المادي وغير المادي، وحماية الحاضر منه والمستقبل، بهدف تأمين استمراريته وتعريف المجتمعات عليه (وزارة السياحة، ٢٠٠٩). يتفرّع من المجلس الدولي للمتاحف لجان في عدد من البلدان (١١٨ بلداً) منها لبنان، حيث تأسست في الرابع والعشرين من شهر تموز من العام ٢٠٠٣، «اللجنة الوطنية للمتاحف». بعيداً عن المتغى التجاري والريحي، تنشط هذه الأخيرة لتنفيذ برامج المجلس الدولي للمتاحف في لبنان ولإدارة مصالحه. فتسعى، بناء على ذلك، إلى جمع المتاحف اللبنانية التي تتميز بالموصفات التي حددها المجلس الدولي للمتاحف<sup>(٣)</sup> والتي تعكس المعايير الدولية المنشودة. على سبيل المثال، نذكر بعضاً من المتاحف الوطنية في اللائحة أدناه، إضافة إلى تحديد مجالات انتشارها الجغرافي على الأراضي اللبنانية، ومضمون معروضات كلّ منها.

- المتحف الوطني في شارع المتحف، بيروت: يعرض المتحف الوطني القطع الأثرية المكتشفة في لبنان طيلة الفترة الممتدة من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر المملوكي بما في ذلك العصر البرونزي والحديدي والروماني والبيزنطي. وتشمل المعروضات الفسيفساء والمجوهرات والزجاج والمسكوكات والفخاريات...

(٣) في عملية تصنيف المواقع التراثية، تعتمد الإيكوم في قراراتها على مجموعة معايير منها المجانية والمنفعة العامة والأبحاث... وعليه فهي تصنّف متحفاً كل مؤسسة دائمة لا تتوخى الربح، وتنشط لمصلحة المجتمع وتطوره، وتستقبل الجمهور، وتنظم الأبحاث عن بقايا الإنسان والبيئة، المادية منها وغير المادية..

- متحف الجامعة الأميركية في شارع بليس، بيروت: يضمّ المتحف مجموعة من القطع الأثرية التي تمّ اكتشافها في لبنان وفي الدول المجاورة. وهي تظهر تطوّر الحضارات المتتالية من حقبة ما قبل التاريخ لغاية العصر الإسلامي.
- موقع بعلبك في رأس بعلبك، البقاع: يعرض الموقع معبد جوبيتر وثمانيل وفسيفساء وعناصر هندسية تشير إلى الحقبة الرومانية. هذا إضافة إلى آثار المدينة العربية والفخاريات والنقوش والكتابات.
- قصر بيت الدين في الشوف: يحتفظ القصر بمجموعة من القطع الأثرية والتراثية التي يمتدّ تاريخها من الحقبة التاريخية لغاية القرن التاسع عشر. وتشمل الفخار والنواويس والألبسة والمجوهرات...
- متحف موقع جبيل في قلعة جبيل: يختصّ المتحف بالتعريف عن المدينة والحفريات وحياة الأقدمين وأنشطتهم...
- متحف كيليكيا في أنطلياس: يعرض المتحف آثاراً فنية أرمنية يعود بعضها إلى القرن الثالث عشر.
- متحف دير مار أنطونيوس الكبير في قزحيا في شمال لبنان: يحتفظ المتحف بأول مطبعة في الشرق الأوسط ذات حروف سريانية، إضافة إلى مجموعة مميزة من الأواني الكنسية والأدوات الزراعية.
- متحف عصور ما قبل التاريخ في لبنان، في شارع جامعة القديس يوسف في بيروت: يهتمّ المتحف بالتعريف بتراث وطني قديم يعود إلى ما قبل مليون سنة.
- المتحف العلمي للطيور والحيوانات في بلدة القبيات: يسمح المتحف باكتشاف الثروة الحيوانية في لبنان ومنها مجموعة من الفراشات والحيوانات والطيور المحطّطة.
- متحف قصر دبانة في صيدا: يختصّ هذا القصر بالحقبة العثمانية إذ يحتفظ بذاكرة الإرث المعماري من ناحية، وبذاكرة الحياة الاجتماعية من ناحية أخرى. يسمح المتحف باكتشاف فنّ العمارة والهندسة التقليديّة للدار العربية المتأثرة بالمملوكيين وبالعثمانيين.
- كوكب الاكتشاف للأولاد في وسط بيروت: إنّه متحف علمي يمكن الأطفال والشباب من اكتشاف أسرار العلم.

- متحف الحرير في بسوس: يقع المتحف في كرخانة قديمة كانت مخصصة لتربية دود القز حيث يستطيع الزائر التعرف إلى كيفية إنتاج الحرير ومراحل تصنيعه.
- متحف الصابون في صيدا: يتخصص المتحف بعرض تقنيات إنتاج الصابون والأدوات والمواد المستخدمة في تلك الصناعة، فضلاً عن إبراز طقوس النظافة والاسترخاء والحمام.
- متحف سرسق في الأشرفية: يضم المتحف مجموعة من الرسومات والنحوتات والقطع ذات الفن الإسلامي وغيرها تعود إلى القرن التاسع عشر.
- متحف روائع البحر في جديدة المتن: يضم المتحف مجموعة من الأسماك الحية والمجمدة إضافة إلى منوعات من الأصداف ومن معدّات الملاحه.
- متحف معوض الخاص في زقاق البلاط: يحتوي المتحف على مجموعات متميزة من الخزف والفخار والمخطوطات والمجوهرات والتيجان التي تعود إلى الحقبة الرومانية والبيزنطية.
- متحف بيت التراب في تربل من قضاء زحلة، في محافظة البقاع: إنه متحف بيت الطين الذي ارتكز بناؤه على مواد بيئية منها التراب والماء والخشب والقصب. يعرض المتحف مجموعة واسعة من الأواني المنزلية والأدوات الزراعية التي كانت تستعمل في المجال السكني وفي النشاط الزراعي وفي الحرف اليدوية والمهن المختلفة. من أين انطلق مشروع متحف بيت التراب؟ ما هي ظروف تأسيسه والدوافع التي آلت إليه؟ بماذا تتميز البيوت الترابية؟ لماذا ارتبط المتحف ببلدة تربل تحديداً؟ وتاريخياً، كيف تكوّنت تربل؟ وماهي مواصفاتها البيئية-الجغرافية؟ من أين استقت تربل عناصر ومواد بناء المنازل التقليدية؟ كيف تزاوجت مكونات البيئة المحلية مع عمارة البيوت، أي مع بيوت التراب؟ لا بد من معالجة هذه التساؤلات من خلال توظيف البيانات الميدانية والنظرية.

## تربل البقاع

أولاً، تركّز اهتمام الدراسة حول مواصفات البنية الهندسية للبيت التقليدي أي لمتحف البيت الترابي، واقصر جمع البيانات، من خلال المقابلات والملاحظة والتوثيق النظري، على تلك المرتبطة بالموضوع مباشرة. إلا أنّ مناقشة النتائج مع بعض الزملاء،

أثارت تساؤلات حول موقع بلدة تربل الجغرافي وتاريخها وثرواتها ومكوناتها البيئية. فإدراك الشواغر أدّى إلى معالجة موجزة للنقص، لا سيّما وأنّ تربل تفتقر إلى الدراسات العلميّة من سكانية واقتصاديّة ومونوغرافية واجتماعيّة وتاريخيّة.<sup>(٤)</sup>

يشكل البقاع إحدى أكبر المحافظات في لبنان. وهو يتميّز باختلاف تضاريسه ويتعدّدها حيث يغلب الطابع الزراعي، رغم المحاولات المختلفة التي سجّلتها المبادرات الفردية في سبيل تطوير القطاع الصناعي. علاوة على موقعه الجغرافي وعلى ثرواته المائية<sup>(٥)</sup> والزراعية - التي تعاني إشكاليات عدّة - يشهد البقاع، في الوقت الراهن، جملة تبدّلات وتغيّرات تطال الأرض والقطاعات المنتجة والبنى الاجتماعية والمجال السكني، إضافة إلى السلوك الاجتماعي.<sup>(٦)</sup> امتاز البقاع بتركيبه ديموغرافية مميّزة جمعت في مجالاته فسيفسائية متعدّدة الوجوه للنسيج السكاني والاجتماعي والديني والسياسي والولائي.

قام سكان البقاع، عبر العصور، بأدوار تاريخية هامّة منها، للمثال، تلك المرتبطة في مراحل تكوين دولة لبنان الحديث. بناء على ذلك، شكّلت المنطقة البقاعية مجالاً للصراع بين طرفين تاريخيين هما أمراء جبل لبنان من ناحية أولى، والدولة العثمانية من ناحية ثانية. فكان السكّان في شمال البقاع من الموالين لدولة العثمانيين، في حين أدّى البقاع الأوسط وبخاصّة مدينة زحلة (بعائلاتها القيادية) دوراً وسيطاً مع أمراء الجبل. أما البقاع الغربي فقد ارتبط بزعامات محليّة أخرى في كل من مناطق الجبل وبيروت (عاصي، ٢٠٠٦). على الصعيد الإداري والسياسي، شكّلت مدينة زحلة جزءاً من جبل لبنان وكانت تابعة له (صليبا، ٢٠٠٤). ففي إشارة إلى أمراء الجبل، يذكر التاريخ أنّه إثر معركة عين دارّة تحول الحكم في كل من المتن وزحلة إلى أمراء أبي الممّع، في مطلع القرن الثامن عشر، أي منذ العام ١٧١١.

(٤) في خلال العام ٢٠٠٧، كانت مبادرة نشر «دراسة» خاصة بالبلدة تحت عنوان «تاريخ تربل: ١٧٨٠-٢٠٠٧». مزج الكاتب بين المناهج والتفتيات المعتمدة في جمع المواد، وأساليب التعبير الذاتية عن المعاش وعن الأحداث، والمواقف الذاتية إذ استغرق جمع البيانات خمس عشرة سنة. نعرفة المزيد من التفاصيل حول تاريخ بلدة تربل وتقاليدها والأحداث التي عرفتها، وحول تاريخ العائلات التي استقرت فيها، إضافة إلى طرق المعيشة وأساليب الزراعة والمهن، وثرواتها والتغيّرات الجغرافية وغير ذلك، أنظر: نعمّة الصغيبي، ٢٠٠٧: تاريخ تربل: ١٧٨٠-٢٠٠٧، بيروت.

(٥) لمزيد من المعلومات حول مواصفات البيئة في البقاع وغناء بالثروة المائية لدرجة أن المؤرخ عيسى اسكندر المعلوم وصفه بالمستنقعات أو بالبحيرة، أنظر: عيسى اسكندر المعلوم، ٢٠٠٤: دواني القطوف في تاريخ بني معلوف. دار حوران للطباعة والنشر، سوريا.

(٦) نلتعرف إلى التبدلات الشاملة التي طالت محافظة البقاع في المجالات الاقتصادية والسياسية والديموغرافية، إضافة إلى تغيّرات الأدوار العائلية والنسبية والنسائية، وانكسارها على سلوك الفرد الاندماجي والمهني، وعلى معدلات الإقبال على العلم والثقافة، وقرار الارتباط بعقد زواج أو تفضيل العزوبة، أنظر: إني بونس، عاصي، ٢٠٠٦: البقاع اللبناني، واقع وتحولات دار الخلد، لبنان. ص. ١٣٤-١٨١. ففي كتابه، يعالج الباحث التحولات البقاعية بدقة إحصائية معتمداً في ذلك على الأرقام من نسب وتكرارات نتجت عن دراسة ميدانية منهجية للموضوع.

أما الأمير يوسف من آل أبي اللمع فقد أصبح حاكمًا لولاية البقاع في العام ١٧٧٤، بناءً على رغبته في ذلك، أي بعد أن عبّر صراحة وكتابة عن أمنيته في الحصول على ذلك المركز.<sup>(٧)</sup> على ضوء هذه الإشارة المقتضية لواقع الانتماءات السياسية في البقاع، أصبح من الممكن تفسير ظروف نشوء بلدة تريبل وتأسيسها، وشرح دوافع وصول العائلات الأولى إليها عبر الدلالة على ولائها لأمراء الجبل.

يعود تأسيس تريبل إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، عندما استقرت فيها عائلات<sup>(٨)</sup> قادمة من بلدة فالوغا في جبل لبنان، وتحديدًا في خلال العام ١٧٨٠. أما دوافع قدومها إلى البقاع فتنسب إلى شكاوى وردت إلى الأمير يوسف أبي اللمع تنفيذ عن سلوك أحد المواطنين الذي يهدّد سلامة السكان في البقاع الأوسط، ويخلّ بالأمن من ناحية أولى، ويتمردّ ممتنعًا عن دفع حقوق الأمير الضريبية، من ناحية أخرى. إذاً، أمام هذه الفوضى، أوفد الأمير يوسف رجلين<sup>(٩)</sup> من فالوغا بمهمة تقضي باسترجاع حق الأمير. وإثر المعركة التي دارت بين الطرفين وأتباعهما نتيجة الكمين الذي نصبه المتمرّدون في أرض «كسار العبد» لوفد الأمير، ربح رجال الأمير المعركة بالتخلّص من الرأس المتمرّد. ولدى عودتهما، حظيا بتقدير الأمير يوسف عبر حصولهما على هبة أو مكافأة (الصغيني، ٢٠٠٧، ص ٦٩) بدافع الاخلاص له، والتضحية في سبيله. أما المكافأة فكانت أرضًا، في البقاع الأوسط، مؤلفة من «تلّ وغاب وجبيلة ورأس عين»، بهدف تطوير الزراعة. فتلك الأرض المتعددة التضاريس، والغنية بتربتها ومياهها، أصبحت بلدة تريبل في الوقت الراهن. فسكن هؤلاء، أولاً، في خيم نصبها على التل، ثم استقدما عائلتهما، وقامت كل عائلة ببناء مساكن لها بحيث أمست مكان إقامة دائمة للجميع، وبذلك ولدت بلدة تريبل.

تقع بلدة تريبل في محافظة البقاع الأوسط حيث تحدّها زحلة من الغرب، ورياق من الشمال، في حين تحدّها من الشرق قرى عين كفرزبد وقوسايا ودير الغزال ورعيت.

(٧) يشير المؤرخ عيسى إسكندر المعلوف، ١٩٨٤، في «تاريخ زحلة»، إلى أن حكم ولاية البقاع انتقل إلى أمير يوسف من آل أبي اللمع. وذلك في خلال العام ١٧٧٤. بعدما أفرق الأمير يوسف كتابًا إلى محمد باشا المعظم في ولاية دمشق يطلب منه إسناد ولاية البقاع إليه. وهذا ما حصل عليه، إذ استجاب الأخير لورغبته. (ص ٩٩-١٠٠)

(٨) عائلات من «آل الرامي» و«آل عاصمي».

(٩) هما: مراد عاصمي ونصر الرامي.

تبعد تربل عن العاصمة - بيروت - مسافة ٥٨ أو ٦٠ كلم، وتعلو ٩٠٠ متر عن سطح البحر. في البدء، امتدّت تربل، سهلاً وجبلاً، على مساحة شاسعة تقدر ب ١،٦٦٧ هكتاراً (مرهج، ١٩٨٧)، أي ما يوازي أكثر من "ستّة عشر دُماً" من الأراضي. كما ورد أعلاه، قامت تربل على تلة، في وسط أراضيها، يرجّح أنّها كانت مقبرة للملوك قديماً. تعدّدت التفسيرات حول معاني التسمية (تربل) التي نذكر منها اثنين. في التفسير الأول، تعود كلمة تربل إلى الأصول السريانية، أي tur - bel التي تعني «جبل الاله بيل» (مرهج، ١٩٨٥). وفي ذلك إشارة إلى جبل في تربل يقع في الجهة الشرقية من البلدة، يسمى "جبيلة". عثر في الجبيلة على نواويس عدّة محفورة في الصخور، كما وجدت فيها أيضاً بقايا قلعة قديمة العهد تعود إلى الحقبة الرومانية، كانت قصرًا لبنت الملك. ولا يرى المؤرّخون في الأمر غرابة بأن تنسب الآثار إلى الرومان رغم كون الحضارة السامية سابقة للعصر الروماني (مفرج، ٢٠٠٥). فمن المحتمل أن يكون قد تمّ بناء تلك القلعة على أنقاض آراميّة أو سريانيّة لمعبد «إيل» الذي أعطى المكان اسمه.

أما التفسير الثاني لتسمية تربل، فيرجع أصول الكلمة إلى اللّغة الفرنسيّة "Terre belle"، التي تعني «الأرض الجميلة» (زغيب وعبود، ٢٠٠١)، وذلك بسبب خصائص التربة المميزة، ولونها الأحمر الداكن، وغناها بالثروة المائية. فمياه رأس العين كانت تتجمّع في بركة شاسعة تبلغ مساحتها نحو أربعين دونماً. لهذه الأسباب تميّزت البلدة بخصوبة أراضيها، وتعدّد مزارعها وتتنوّعها إذ جمعت بين الخضار والفاكهة والحبوب والقمح والشعير...

### ثروة بيئيّة في العمارة

للثروة البيئية أثر على سلوك السكان وعلى أنماط الحياة وأساليب المعيشة وأشكال العمارة والهندسة. فالعودة إلى تاريخ تربل بهدف التعرّف إلى مكوّناتها الطبيعيّة والجغرافيّة تظهر غناها بمرافق متعدّدة أهمّها التراب الأحمر والمياه (رأس العين والبركة) والجبيلة (حجارة وصخور) والغاب (أشجار وأعشاب). استفاد السكان من وفرة تلك الموارد الطبيعيّة ووظّفوها تاليًا في بناء البيوت التقليديّة أي بيوت التراب. نتيجة دمار القلعة القديمة، تحوّلت الجبيلة إلى بيئة غنية بالحجارة التي وجدت لها مكانًا مناسبًا في



أساسات البيوت، كما وظفت أيضًا في بناء الكنائس والعنابر. علاوة على ذلك، شكّل التراب والماء عنصرين أساسيين في صناعة قوالب اللبن التي كانت تقوم عليها عمارة المنازل بما فيها الجدران.

أما الغاب، فقد كان غنيًا بأشجار الحور والصفصاف وبعض الأعشاب مثل «الحلفي» و «السيقان»<sup>(١٠)</sup> فاستعملت أخشاب الحور والصفصاف في صناعة الأبواب والنوافذ إضافة إلى سقوف المنازل وجسورها والعواميد والأطراف الخارجية للسطوح (الصغيني، ٢٠٠٧). فبينما كانت أخشاب الصفصاف تستعمل في إقامة جسور البيوت، كانت أخشاب الحور، بالمقابل، توظف في مجال إنشاء السقوف وتركيبها بمهنية منهجية. فكانت الأغصان - أي أغصان الحور والصفصاف - تفرش فوق أخشاب الحور، ومن ثمّ صفّ فوقها القصب بشكل متراصّ ليغطّي الكل، بعد ذلك، بالتراب. علاوة على ذلك، استثمرت الاخشاب (الأشجار) أيضًا في صناعة الأواني المنزلية والأدوات الزراعية التي نذكر منها للمثال لا الحصر ما يلي: كراسي الجرار والأباريق والمقاعد وطاولة الخبز أي طبلية رق الخبز، ونير الفلاحة (من خشب السنديان) والصمد والمسّاس<sup>(١١)</sup> وعصا الشوكة والمجرفة<sup>(١٢)</sup> والرفش، والمسحاية (لتقسيم الأرض)... بالمقابل، تم الاعتماد، أيضًا، على بعض أنواع المزروعات البرية مثل أعشاب الحلفي والسيقان لتحضير الأثاث المنزلي. فمن تلك الأعشاب الجافّة، كانت تحاك الحصر التي تفرش على أرض البيت. وكانت الأعشاب أيضًا تشكل أساسًا في حشوة المدّة والمساند، إذ كانت الأولى تستعمل للقعود إما على الطرز وإما على الأرض، في حين كانت الثانية (أي المساند) تيسّر على القاعدين الاتكاء والراحة.

مؤخرًا، أي في خلال العام ٢٠١١، وبهدف حماية البيئة الجبلية في تربل - أي الجبيلة - من التصحّر، تعاونت قوى المجتمع المدني مع المهندسين الزراعيين لإنجاز مشروع يبني على أرضها. عمليًا، قامت رمزية المشروع على غرس الفين وخمسماية (٢٥٠٠) نسبة من أشجار الصنوبر المثمر في «الجبيلة»، على شكل هندسي مماثل لشكل

(١٠) تبتت أعشاب الحلفي والسيقان على ضفاف مجاري المياه، وتمتاز بصلابتها (قاسية) وبطولها.

(١١) المسّاس هو قضيب طويل يستعمل لوخز الأبقار لحثها على متابعة السير.

(١٢) استعملت كل من المجرفة والشوكة والرفش في النشاط الزراعي من أجل «نقب» الأرض المزروعة، أي نكش التراب وتقليبه وتسهيل مجاري المياه أثناء عملية ربي المزروعات.

خارطة لبنان. ومن ثم عمدت إلى إنارتها، وذلك على مساحة جغرافية مصغرة لمساحة لبنان، بلغت ١٠٤٥٢ م<sup>٢</sup>.

### متحف «بيت التراب»



١. متحف بيت التراب مغطى بالتلوج في آذار ٢٠١٢ - (تصوير إيلي الرامي وطوني المعلوم)

برزت الأفكار حول تحويل بيت التراب (صورة -١-) إلى متحف إثر مبادرات المؤسسة الوطنية للتراث<sup>(١٣)</sup> وتطوّرت المحاولات بفعل الجهود المزدوجة بينها وبين المجتمع المدني من شاغلي المنزل<sup>(١٤)</sup> ومالكه<sup>(١٥)</sup> والسكان المحليين وفريق من المتطوّعين والمحترفين والمهندسين.

تحققت فكرة المشروع بفعل توقّر عاملين اثنين: تجلّى العامل الأول بتجاوب السكان المحليين<sup>(١٦)</sup> مع فكرة إنشاء متحف في تربل، وبرغبتهم بعرض ممتلكاتهم التراثية ومجموعاتهم التاريخية والرمزية في أرجائه. وعليه، تخلّى عدد كبير من العائلات عن أشياء وأغراض وأوانٍ وأدوات موروثة، في سبيل إنجاز المتحف. أما العامل الثاني، فارتبط بوجود بيت ترابي معمر يعود تاريخ بنائه إلى القرن الثامن عشر، أي إلى تأسيس البلدة. فوافقت العائلات المذكورة أعلاه على مشروع تحويل البيت إلى متحف، رغم أنّه كان ما يزال مأهولاً<sup>(١٧)</sup> وقرّرت بكل سخاء تقدمته في سبيل إنجاز المتحف. منذ بنائه، تعاقبت أجيال عدة على السكن في البيت الواسع حيث حضنت صغارها في حناياها التي كانت شاهدة على نموهم، ومن ثمّ على انطلاقتهم كباراً. تتجاوز مساحة أرض المتحف

(١٣) في الوقت الراهن، تشرف المؤسسة الوطنية للتراث على إدارة متحف بيت التراب البيتي في تربل.

(١٤) عائلة جرجس الرامي.

(١٥) عائلة آل شعبا الرامي.

(١٦) كان نعمة الصغيبي، من مواليد تربل، يملك أشياء وأدوات وأواني تراثية استعملت في الحقول والمنازل والنشاط الحرفي. وبعد أن رم قسمًا من منزل عائلته القديم، في حي «القطبية» في تربل، بهدف عرض الأشياء التي جمعها، عاد ووضع مجموعته في خدمة تجسيد مشروع متحف بيت التراب، عبر المؤسسة الوطنية للتراث، بناء على اتفاقية بين الطرفين لمدة أربعة عشر عامًا. هذا، إضافة إلى الأشياء من أوانٍ وأدوات تقدم بها سكان البلدة من أجل تنفيذ المشروع... لمعرفة المزيد من التفاصيل حول الاتفاقية وأسماء بعض الذين قدّموا ممتلكاتهم للمتحف، أنظر المرجع التالي: نعمة، الصغيبي، ٢٠٠٧: تاريخ تربل: ١٧٨-٢٠٧، بيروت، ص ٣٧٤-٣٧٦.

(١٧) من مقابلة أجريت بتاريخ ٩ آذار ٢٠١٢، مع جان جرجس الرامي الذي كان آخر الساكنين في المنزل حينذاك.

الاجمالية ألفي متراً مربعاً (٢٠٠٠ م<sup>٢</sup>): فهو يتكوّن من مجالات داخلية متعدّدة ومختلفة، وتحوط به حديقة شاسعة، استحدثت فيها مؤخرًا أنواع مختلفة من المزروعات. وبعد سلسلة لقاءات ودراسات، بدأت المؤسسة الوطنية للتراث بإنجاز المشروع عبر ترميم ذلك البيت التاريخي وتأهيله، في خلال العام ٢٠٠٣. إنه نموذج عن البيوت التقليدية الترابية التي انتشرت في سهل البقاع لقرون خلت، وبدأت بالاندثار في سبعينات القرن العشرين. نتيجة الجهود الهادفة، تأسّس متحف «بيت التراب»، وصنّف متحفًا بيئيًا، وتم افتتاحه في العشرين من شهر أيار من العام ٢٠٠٤. فالمشروع أنتج متحفًا مزدوج الأبعاد، أحدهما عمراي-هندسي، والآخر زراعي-منزلي-حرفي. فالبعد الأوّل للمتحف يبرز النسق المعماري الذي يحاكي البيئة والذي ساد في إنشاء البيوت. والبعد الثاني يظهر أهميّة توظيف البيئة واستثمار مواردها في مختلف مجالات النشاط الإنساني. أما عن مواصفات البيت الترابي وتقنيات بنائه، فستحدّث لاحقًا، أي إثر التعرّف إلى بعض الأشياء التي وجدت مكانًا لها في المتحف، وتحوّلت بفعل ذلك إلى رموز محمّلة بالمعاني، في الذاكرة الاجتماعية لبيت التراب.

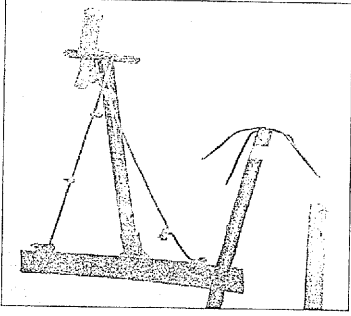
يقدر عدد الأشياء التي يحتوي عليها المتحف بالمئات، وهي تجمع في موادّها بين الفخار والقصب والقشّ والخشب والنحاس والحجر. وقد تمّ، قديمًا، توظيفها جميعًا إمّا في الأعمال المنزلية وفي صيانة المباني، وإمّا في تربية المواشي وفي النشاط الزراعي (في الحقول وعلى البيادر)، إلى جانب استخدامها في مختلف مجالات الإتقان الحرفي. من الأشياء التي وظّفت في العمل المنزلي وفي صيانة البيوت نذكر للمثال لا الحصر



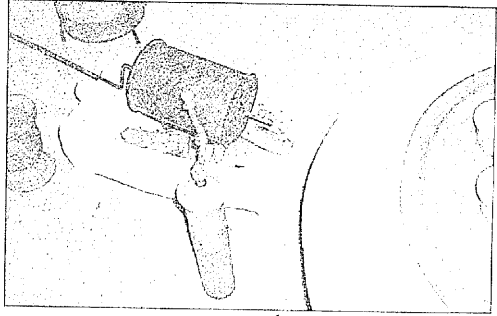
٢. جرن ومدقّة كبة (حجر وخشب)

ما يلي: الهاون، مدقّة الكبة، جرن الكبة (صورة -٢-)، محمصة البنّ ومطحنة البنّ (صورة -٣-)، النملية للأطعمة (صورة -٦-)، الخضاضة،<sup>(١٨)</sup> الدست، الصاج، التنور، خوابي الفخار، معجن الفخار (للعجين والكشك)،<sup>(١٩)</sup> الضرف،<sup>(١٩)</sup>

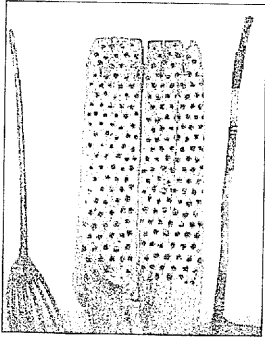
(١٨) تكون الخضاضة جرة من الفخار لها فتحة واسعة تغطى بجلد الماعز، وتُستعمل في خض اللبن yaourt.  
(١٩) يستعمل الضرف في عملية تصفية اللبن yaourt، وهو كيس من جلد الماعز.



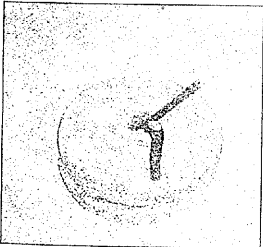
٤. المسحاية



٣. محمصة بن وهاون ومطحنة بن (نحاس)



٥. المدراية



٦. الجاروشة

الكاراة (للخبز)، أباريق الشاي، طناجر النحاس، بابور الكاز، القناديل<sup>(٢٠)</sup> (ومنها قنديل نمرة ٤ وقنديل بو شريط)، المحادل ذات الحجارة البيضاء أو السوداء، وما إلى ذلك...

ومن الأدوات التي استعملت في العمل الزراعي نشير، على سبيل المثال، إلى ما يلي: الجاروشة<sup>(٢١)</sup> الصمد، النير، السريجة (من القش)، المساس، المورج، الميزان، منجل الحصيدا (لحصاد القمح)، منجل أرمنية (لحصاد الحبوب)، المسحاية (صورة ٤-)، المدراية (صورة ٥-)، القاشوش<sup>(٢٢)</sup>، الغريال، المد، القحف للحصاد، المصرد<sup>(٢٣)</sup> المورج، البلطة، الحاشوشة<sup>(٢٤)</sup>...

ومن الأغراض التي كانت تستعمل في تربية المواشي وفي النشاط الحرفي نشير إلى ما تحتفظ به ذاكرة المتحف

من عدّة إسكافي، ومنشار، وموس حلاقة، ومقدح يدوي، وملقط شد مكانس<sup>(٢٥)</sup> ومحشاية سيفان، ونول، وخرج، وخيشة تبين من شعر الماعز<sup>(٢٦)</sup> وغير ذلك...

(٢٠) يعلق القنديل نمرة ٤ على الحائط ويكون ضوءه أقوى من القنديل نمرة ٣، في حين قنديل بو شريط يحمل يدوياً.

(٢١) تتكوّن الجاروشة من حجرين مستديرين تستعمل لجرش الحبوب من عدس وباقي وكرسنة وحمص وقمح وذلك عبر الطحن لتصبح طعاماً للحيوانات.

(٢٢) للقاشوش يد خشبية، وهو يستعمل لجمع القمح والشعير وما إلى ذلك.

(٢٣) يستعمل غريالاً للحبوب.

(٢٤) من حيث الحجم، تكون الحاشوشة أصغر من المنجل، وتستعمل لقطع الأعشاب والحشائش.

(٢٥) يعود هذا الملقط إلى «جرجيس حميمص»، جدي لأمي، الذي كان يتقن عملية شد المكانس. كنت أراقبه وهو يعمل بجهد ومثابرة، عندما كنت أזור

بيت جدي في الصغر.

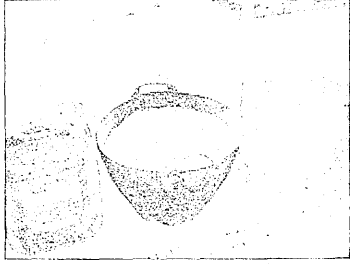
(٢٦) كيس يوضع فيه التبين، وتقدر سعته بمئة كيلغرام.

هل يحمل مشروع المتحف فائدة اجتماعية ثمينة؟ وكيف يساهم متحف البيت الترابي في قراءة علاقة الإنسان بالبيئة؟ فالمتاحف من حيث إنها تجسد حاجة الإنسان، من شأنها المحافظة على الرابط بين الأزمان والأجيال. فهي تحتفظ بالماضي الذي منه يتشكل الحاضر، وتسمح للأفراد بقراءة الماضي من أجل رسم خطوط المستقبل. فالمتحف هو ذاكرة المجتمع الذي يتعذر عليه الاستمرار حيال فقدانها أو اندثارها. وفي حماية الذاكرة من خلال الأشياء والأدوات والطقوس والأفلام والكلمات والأشكال والصور والأثاث تتأصل الهوية لتمييز بين الشعوب وبين فئات المجتمع والعائلات والأفراد.

ففي حين أمسى الاحتفاظ بذاكرة الحروب مطلبًا (مسرة، ٢٠١١)، ولما علا النداء ملجأ لإنشاء متاحف في القرى وأخرى خاصة بالبلديات، ألا يأتي «متحف البيت» ليلبي حاجة الانتماء، ويشبع رغبة إعلان الهوية السكينية؟؟ فمشروع المتحف يحمل في ذاته طموحًا يكمن بحماية الذاكرة الهندسية والثقافية والاجتماعية للمنازل التقليدية، وللحياة اليومية والعائلية والزراعية والحرفية التي كانت منتشرة في سهل البقاع. وعليه، فالجهود التي بذلت في سبيل تحويل البيت إلى متحف، أدت إلى إنقاذ شكل من أشكال العمارة التقليدية وذلك من خلال الإضاءة على مزاياها، وإثارة الاهتمام بها، وإظهار سلامة المواد المختارة في عمارة البيوت. هذا، إضافة إلى الإضاءة على نشاطات الحياة اليومية التي سادت آنذاك، ورصد السلوك الاجتماعي من جرّاء التعرّف إلى نمط المعيشة اليومية وأساليب النشاط الزراعي. بما في ذلك الأشياء والأدوات المنزلية والحرفية والزراعية والتجميلية. أما، ما هي تحديداً مواصفات بناء البيوت الترابية؟ وكيف كان البناء؟ ينفذون مراحل البناء؟ وبماذا تتميز مجالات المنازل الداخلية بما فيها الجدران والسطوح؟ وماذا يمكن للزائر أن يقرأ في عمارة البيوت الترابية؟

### بناء البيوت التقليدية: أنموذج «بيت التراب» متحفًا

تكشف زيارة متحف «بيت التراب» للزائر، للوهلة الأولى، طبيعة المواد التي كانت تستعمل في بناء البيوت التقليدية الترابية، في البقاع. فهي ليست إلاّ مكونات من نتاج الطبيعة، غير مصنّعة، وتالياً، فهي مصنّفة صديقة للبيئة. من أبرز تلك المواد نذكر التراب والتبن (صورة -٧-) والقصب والخشب والماء والحجارة. أما تقنيات البناء



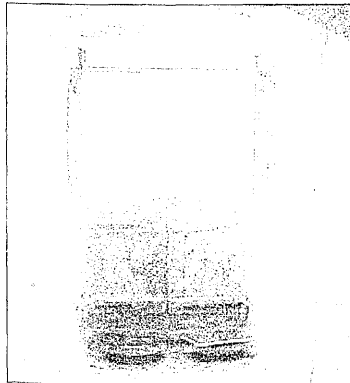
٧. بعض مواد البناء

«الطبيعية»، فتتلاءم أيضاً مع مكوناته المذكورة من حيث الاعتماد كلياً على اليد العاملة البشرية، وعلى القوالب الخشبية، وعلى توظيف موارد الطاقة الطبيعية من شمس وماء وهواء واستثمارها على مختلف الأصعدة.

فجدران المنازل كانت تقوم على تراصف

قوالب اللبن<sup>(٢٧)</sup> الناتجة من مزيج من التبن المجبول بالتراب والماء. بعد ذلك، تُترك القوالب في الهواء الطلق إلى أن تجف، بفعل أشعة الشمس وحرارتها وأثير الهواء. ومن ثم تستعمل اللبنة كمادة أساسية فريدة في العمارة حيث يركز البناء على تماسك الأجزاء من خلال طلائها بالطين. وإلى أن تصبح خالية من الشوائب وناعمة الملمس، تخضع الجدران لعملية صقل دقيقة، تنتهي بطلائها (أو طرشها) بالكلس الملوّن من أبيض وأزرق وأصفر. وفي مسعى فني وجمالي، يهتم البعض بإنجاز الرسومات النافرة على إطارات النوافذ والأبواب والفجوات الجدارية، مستعملين في ذلك مادة الجفصين.

أما الميزة الأخرى التي تُنسب إلى الجدران فهي سماكتها أي عرضها الذي يتراوح بين ستين وسبعين سنتراً (صورة ٨-). هذه الكثافة الترابية شكّلت عاملاً عازلاً للحرارة على تعاقب الفصول: بفعل الكثافة وطبيعة مواد البناء، كانت البيوت تحافظ على حرارة معتدلة في الفصول الباردة كما في الحارة منها، وتحمي بذلك سكانها من مفاجآت التبدلات المناخية وانعكاساتها الصحية.



٨. يظهر عرض الجدران عبر النوافذ

تمرّ عملية إنجاز سقف المنازل بمراحل متتالية تبدأ مع تغطية السقف بخشب الحور، يليها فرش آخر من الأغصان الرفيعة المترابطة جنباً إلى جنب.

(٢٧) أولاً، يتم مزج التراب والتين مع المياه، ثم يخضع المزيج لعملية خلط متكررة عبر دعس جيداً في الأرجل. ثم يترك في الهواء الطلق لمدة أسبوع أو أسبوعين بهدف التخمر والتنشيف حيث يرش يوميا بالماء. وبعد ذلك، يستعمل في البناء إما بواسطة قالب ذك وإما بواسطة اللبن التي تماسك مع بعضها البعض بإضافة الوحل المجبول بالتين بينها.

ثم يضاف فوقها القصب الذي يغطي بعدها بالتراب المجهول بالتبن، بحيث لا تقل سماكة التراب عن ٢٠ سنتمترًا، ويرش فوقها التبن في النهاية. هذا، ويحتاج إنجاز السطوح إلى تخطيط مسارات تكون ممرات تيسر عملية تصريف مياه الشتاء: إنها المزاريب.

للحصول على بناء متراص وقوي، يخضع سطح البيت لمحاولات حدل منهجية ومتكررة. وفي خلال فصل الشتاء، مع مواسم هطول الأمطار والثلوج، كانت تتكرر عمليتا جرف الثلوج ومن ثم الحدل، بواسطة الزحف أولاً، وباستعمال المحدلة ثانياً: من شأن الحدل أن يجعل أجزاء السطح أكثر تماسكاً، ويمنع رشح المياه إلى داخل البيوت، أو يجنبها الدلف. هذا الواقع، أثار الاهتمام بالمحدلة التي أصبحت وسيلة ضرورية لصيانة السطوح ووقايتها من خطر الانزلاق. فهي تالياً، توفر حماية للسكان وتحميهم من عواقب تسربات مياه الأمطار والثلوج، لذلك، كانت المحادل ترتب على سطوح المنازل بصفتها جزءاً لا ينفصل عنها، بالإضافة إلى السلالم الخشبية التي ترفع السكان إلى السطوح، لكونها تربط المنخفض المرتفع، والسفلي بالعلوي.

وللسطوح الترابية وظائف متعدّدة نذكر منها للمثال لا الحصر اثنتين. فالوظيفة الأولى تكمن بتحويلها، عمداً في فصل الصيف، إلى مجال آمن لتشميس المؤونة وتجفيفها. والوظيفة الثانية تظهر، تلقائياً، في فصل الربيع حين تنبت أعشاب «البابونج»- ذات الأزهار الصفراء العطرة- التي تجمع بعد أن تصبح يانعة لتشكل، هي أيضاً، جزءاً من المؤونة التي تدرّ على المستهلك منها فوائد صحية جمّة.

يبدو مما سبق ذكره أنّ مراحل البناء المذكورة أعلاه كانت ممزوجة بالجهد والخبرة واختبار تقنيات البناء التقليدية، التي يمكن وصفها بالايكولوجية في العصر الراهن. أما الخطوة التالية، ولو تطلّبت القليل من العناء مقارنة بالمرحل السابقة، فهي بالمقابل محمّلة بالكثير من المعاني: إنّها مرحلة إقامة عتبة البيت من الوحل والتبن المجهول بالماء. فبعد فرش أرض مجالات المنزل المتعدّدة بهذا المزيج تمدّ فوقها الترابه البيضاء وتصلق أخيراً. تكون العتبة أقل انخفاضاً من مستوى أرض البيت وفيها قطعة حجرية واحدة تسمى البرطاش. تعود أصول كلمة البرطاش إلى التركيّة حيث يشير إستعمالها إلى «حجر واحد». وهي مؤلّفة من كلمتي «بير» و «طاش» إذ تعني الأولى «واحد»، والثانية «حجر» (الفاخوري، ٢٠٠٣، ص ٣٢١). فاستقبال الضيوف بدعوتهم لاجتياز العتبة لدليل إلى رحابة صدر

سكان المنزل، ومناسبة لإظهار صفات الكرم والبجوحة والتعبير عن محبة الآخرين من خلال أصول الضيافة. أما تجاهل الضيوف في وضعية انتظار عند حدود العتبة، وإهمال دعوتهم للولوج داخل المسكن فمؤشّر إلى بخل السكان وعدم رغبتهم بالتواصل الاجتماعي.

على هذا الصعيد، لا بدّ من الإشارة إلى اللّحمة الاجتماعية التي بموجبها كان يتعاون السكّان المحليون، مداورة، على بناء بيوتهم، احتراماً لمبدأ «العونة» الذي كان سائداً آنذاك. وتظهر الدراسات السوسيولوجية والأنتروبولوجية أن هذا التعاون (القسري-الارادي) أو التآزر على بناء المنازل وعلى إنجاز غيرها من النشاطات والمشاريع والأعمال الزراعية، قد تأسّص في الكثير من المجتمعات حيث كان أشبه أو أقرب إلى مؤسّسة جماعية (Bourdieu, 2000).

يشتمل البيت الترابي على تقسيمات داخلية مختلفة، أي على مجالات أو غرف (٢٨) أبرزها اللبوان والمطبخ والمربع أو الدار والاصطبل والتبّان (٢٩) والتّور أو غرفة الخبز والكواراة (٣٠) أو مكان تخزين القمح. يضاف إلى ذلك غرفة المؤونة المخصّصة لحفظ الطحين والكشك والبرغل والفاكهة المجفّفة من زبيب وجوز ولوز، إضافة إلى الحبوب على اختلاف أنواعها، (٣١) والمربيات مثال دبس العنب والتين. وجميعها من أشكال المؤونة التي كان النشاط العائلي، في خلال فصل الصيف، يتمحور حول جمعها وإعدادها، عبر مراحل طويلة ومتكرّرة تستغرق كمّاً من الوقت، وتستهلك نوعاً من الجهود والمثابرة، في سبيل تخزينها لموسم الشتاء، وحفظها من التلف.

أمّا اللبوان، (٣٢) أو الايوان فهو فناء خارجي مسقوف (Kfoury, 1999)، يفصل بين أجزاء المنزل، وفيه تطلّ أولاً أقدام الزائرين. كان يستظل به أهل البيت ويجلسون فيه على مقاعد وتخوت. تأخذ غرفة «المربّع» أي «الدار» مكان الصدارة في البيت: هي محوره لكونها تشغل وظائف عدة. فقد كانت مهيةً لاستقبال الزائرين، وللالتهاف حول النار في

(٢٨) كان يشار إلى «الغرفة» بلفظة «أوده» أو «أوضه» وهي كلمة تركية الأصل. أما كلمة «غرفة» فهي حديثة الاستعمال.

(٢٩) إلى جانب الاصطبل، كان يوجد التبّان حيث كان يوضع التين أو علف الحيوانات، عبر فجوة في السقف تسمى قفاعة.

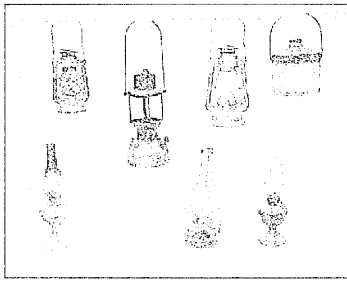
(٣٠) تكون الكواراة من حائطين متوازيين ومرقعين، تفصل بينهما ستيمترات عدّة تشكل فجوة تستعمل لتخزين التمتع. يتكون الحائطان من ألواح خشبية متوازية ومرتعة بدناً من مستوى الأرض، إلا أنها تكون أقلّ انخفاضاً من السقف. لها غطاء علوي وطلاقة صغيرة سفلية تقفل بالأقمشة أو بالخشب.

(٣١) للتوسع أكثر في موضوع تقسيم البيت القروي، والمؤونة القروية، أنظر المرجع التالي: أنيس فريجه، القرية اللبنانية: حضارة في طريق الزوال، لبنان، جروس برس.

(٣٢) تعود لفظة «لبوان» إلى أصل فارسي.

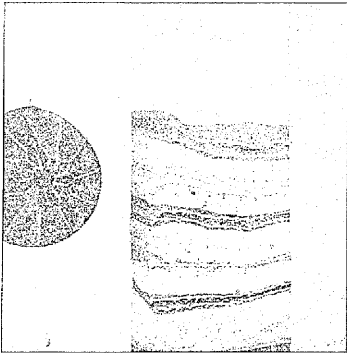


الفصول الباردة، وللسمر وتداول الحكايات. إذًا، لتلبية جملة من الاحتياجات، تشغل الدار وظائف متنوعة منها الاستقبال والاجتماع واللقاء والتدفئة وعرض الأواني<sup>(٣٣)</sup>... بشكل عام، كان يحتوي «المربع» على القناديل (وسيلة الإضاءة) (صورة -٩-) والمدفأة (بابور - صوبيا أو مدخنة على الحطب أو الزبل)، والحصر والجلود (من جلد الماعز والأغنام)، والبسط المنسوجة من الصوف والتي كانت تميّز الميسورين من أفراد المجتمع، إضافة إلى الطزر.<sup>(٣٤)</sup> فالطزر هو مقعد ترابي طويل، منخفض الارتفاع، توضع فوقه



٩. نماذج من القناديل

الطراحت، ويغطي بالشراشف البيضاء المشغولة يدويًا بفن الدنتيل المنمّق الجميل. هذا إضافة إلى أشياء أخرى تعرض بهدف التباهي والتفاخر: فافتناؤها يرمز إلى الهوية الاجتماعية إذ يعكس مستوى العائلة الاجتماعي والاقتصادي مثال ذلك صندوق العروس والأواني الثمينة لاسيما النحاسية منها والفخارية وغير ذلك.



١٠. البيوك

في البيوك<sup>(٣٥)</sup> كانت توضع الفرشات واللحف والأغطية والمخدّات أثناء النهار (صورة -١٠-)، حيث كان يسدل عليها ستار جميل يحجبها عن الأعين. أما في الليل، فكانت تتحوّل الأرض إلى حاضنة دافئة لأفراد العائلة إذ كانت تُمدّ الفرشات أرضًا، بهدف الخلود إلى الراحة وإلى النوم.

هذا التفصيل الوصفي يبيّن بعض وظائف مجالات المنزل المختلفة ويصوّر تقسيمات البيت التقليدي بما في ذلك الخارطة الجغرافية والتصميم الداخلي للبيت الذي تحوّل إلى متحف حالًا. إلا أنّ الدراسة ترغب بتسليط الضوء على زوايا أخرى من المجال المتحفّي

(٣٣) بهدف التعمق في وظائف البيت، بشكل عام، واكتشاف المعاني التي يحملها السكّان، قصداً أو سهواً، لكل جزء من أجزائه المتعددة، ولطابع الخصوصية التي يوفرها، أنظر: SERFATY- GARZON Perla, 2005: Chez soi: Les territoires de l'intimité. France, Colin.

(٣٤) يرتفع الطزر خمسين سنتيمتراً عن مستوى الأرض. (٣٥) يعود أصل كلمة «البيوك» إلى التركية ويشير إلى فجوة عميقة في الحائط، يتم فرزها أثناء عملية البناء، بحيث يكون عرضها نحو ستين سنتيمتراً. يستعمل كمكان لترتيب الفرشات أثناء النهار، ويغطي بستار جميل يحجب رؤية محتوياته.

تطال علاقة الأفراد بالحيز المتحفّي اليوم، والأشكال الممكنة لتلك العلاقة، وانعكاس ذلك على السلوك، والتوسّع بعرض المفاهيم الملازمة، منهجياً ونظرياً، على مستوى نفسي-اجتماعي-بيئي.

## الخارطة السلوكية

تشير عبارة «خارطة» إلى معنيين: يدلّ الأوّل على خريطة تحدّد مساحة مجال ما أو منطقة معيّنة؛ ويبيّن الثاني كيفية تشغيل المكان، أي يصف واقعاً غير جغرافي. فالخارطة السلوكية تقدّم، إذًا، وصفًا بيانيًا لتوزّع السلوك جغرافيًا، بهدف استنتاج حركة العلاقات (للأفراد والجماعات) التي تربط السلوك بمميّزات المجال. بادئ الأمر، استعملت عبارة «خارطة سلوكية» في دراسات الباحثين إيتلسون وريفلان وبروشانسكي (Ittelson, Rivlin & Proshansky 1970) الذين عملوا على تحديد الأسس النظرية والمنهجية للعبارة ارتكازًا إلى مبدأ مفاده أنّ السلوك يحدث في مكان ما من الحدود الجغرافية الملموسة. فاعتبروا أنّ الخارطة السلوكية هي منهج لرصد السلوك في المجال المادي، وللدلالة على كيفية حدوثه وتطوّره. وعليه، أشاروا إلى وجود عناصر ضرورية في المنهج، حصروها بثلاثة: تكمن هذه الأخيرة بوصف المشاركين، أولاً، وبملاحظة سلوكهم في المجال الجغرافي قيد الدراسة، ثانيًا، وبكشف موضع السلوك في المجال، ثالثًا. وبناء عليه، أظهرت أبحاثهم فرقًا بين ما سمي «الخارطة السلوكية» للأمكنة، من ناحية أولى، وتصميم المجالات أي خارطتها الجغرافية، من ناحية ثانية. فالرسم الهندسي لمبنى ما وتقسيماته الداخلية والوظائف التي تنسب إلى كل قسم فيه تختلف، تاليًا، عن خارطته السلوكية. لو أخذنا مثالًا على ذلك «متحف تربل البيئي»، لوجدنا أنّ خارطته السلوكية، مختلفة عن هندسته أي عن خارطته الجغرافية. فعلى صعيد الهندسة الداخلية، توصف أقسام المتحف وفقًا لوظائفها المألوفة ولاستعمالاتها الاصطلاحية المعتادة: اللبوان، الدار، بيت المؤونة، الكوارة،<sup>(٣٦)</sup> المطبخ، صالات العرض، القاعة السمعية-البصرية، اليوك، الثنور، غرفة العدة، الحديدية...

(٣٦) مكان تخزين القمح الذي يؤخذ وفقًا للحاجة عبر فوهة في أسفل الكوارة، ويتم إغلاقها بخشبة أو بقماشة لمنع تدفق القمح خارجًا بعد ذلك.

أما تكوين الحارطة السلوكية لمتحف بيت التراب، فاستدعى ملاحظة منظّمة للسلوك نتج منها وصف مجالات البيت وفقاً للاستعمالات الفعلية. إذ، من المحتمل أن تنحرف هذه الأخيرة، وبشكل ملموس، عن الاصطلاح الوظيفي الذي ألفه الأفراد من زائرين وعاملين ومتطوّعين ومنظّمين... عملياً، يترجم هذا الانحراف على صعيد السلوك التفاعلي، أي في أنماط التعامل مع المجال من حيث معدّلات الإقبال عليه، أم هجره، أم استحداث وظائف جديدة، أم استبدال الوظائف القديمة بأخرى حديثة، الخ... من هنا، وفي قراءة أساليب استعمال المجالات بشكل عام، تُسجّل عمليات متعدّدة ومتباينة منها هجر مساحات محدّدة رغم أنها مخصّصة للعامة، أو ارتياد أماكن «خاصة» من قبل العامة، أو الإقبال على مجالات وظيفية بتواتر تفوق نسبتها المعدّل المعتاد، أو أيضاً استنباط وظائف جديدة لبعضها الآخر. فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر السلوكيات التالية: إجراء اتّصالات هاتفية في قاعة العرض، وتناول المشروبات في الليوان عوضاً عن الكافيتيريا، والجلوس على الأدرج أي السلا لم للتجمّع والتحدث... فضلاً عن دورها الوظيفي، تأخذ قاعة العرض دوراً إضافياً يجعل منها، أيضاً، ملاذاً آمناً للمحادثات الهاتفية الخاصّة، بعيداً من ضغوط الآخرين، مما يرفع معدّل الأفراد الذين يقصدونها لهذه الغاية. أما الأدرج فتحظى بوظيفة اصطلاحية تكمن بتأمين المرور والعبور صعوداً أو نزولاً، بهدف الانتقال من مجال إلى آخر. فالدرج الذي هو مجرد مجال وسيط، وفاصل-واصل بين مجالات أخرى، يستحدث له الزائرون وظيفة أخرى تقوم على الجلوس عليه لتبادل الأحاديث والاستراحة وتناول الطعام. وبالمقابل، يلاحظ أنّ الكافيتيريا التي من شأنها أن تؤدّي دوراً وظيفياً يتمثل بالجمع بين الغذاء المادي والاجتماعي، تخلو من الزائرين وتحوّل تالياً إلى مكان شبه مهجور اجتماعياً، أو سريع الوظيفة (الشراء فقط).

علاوة على ذلك، تنوّع استعمالات المجال من قبل الفئات الاجتماعية التي تقصده إمّا بصفة زائر وإمّا بصفة دليل، تماماً كما يتوضّح من خلال الأنشطة التالية. ففي خلال شهر أيار من العام ٢٠٠٩، نظّمت المدرسة «ب» زيارة إلى المتحف، لتلامذة تتراوح فئاتهم العمرية بين التاسعة والحادية عشرة. تضمّن البرنامج مرافقة مجموعات التلامذة في زيارة للمتحف، تخللتها شروحات مفصّلة حول المتحف ومحتوياته، من

ناحية أولى، وحول أشكال المؤونة القروية وتقنيات إعدادها، من ناحية ثانية. في هذا الإطار، كان التلامذة زائرين يرغبون باكتشاف متحف البيت الترابي وملحقاته. أمّا في اليوم التالي، فاستلم أهالي التلامذة رسائل تدعوهم فيها المدرسة إلى زيارة المتحف، بهدف الاستكشاف. فما هي أسباب دعوة الأهل للزيارة بعيد الزيارة الاستكشافية التي قام بها أبناؤهم؟ وما هو دور التلامذة في هذا النشاط الثقافي-التراثي؟ هنا تبدّلت الأدوار، وتحوّل كلّ تلميذ إلى دليل سياحي تقوم مهمّته على تقديم شروحات للأهل حول المتحف، وتزويدهم بالمعلومات المرتبطة بمحتوياته. هذا، إضافة إلى التفسيرات المفصلة التي قدّمها التلامذة حول سبل إعداد المؤونة القروية وأشكالها المتعدّدة من برغل وكشك ومربيات وكبيس وما إلى ذلك... لتحقيق هذا المشروع المزدوج-تلامذة وأهالي- تنقل الزائرون كما الدليلون في مجالات المتحف المتعدّدة من صالات عرض إلى ليوان إلى دكان إلى حديقة وساحة خارجية بحيث شكّل نشاط كل فريق منفصلاً خارطة سلوكية متميزة عن خارطة الفريق الآخر. ففي هذا الإطار، اختلفت أنواع الأنشطة، وتعدّدت مواضع السلوك في المجال المتحفّي، وتنوّعت أسباب تشغيل المجال بتنوّع الفئات العمريّة.

على صعيد مختلف، ومن خلال التفاعل مع بيت التراب، يظهر أنّ المتحف يشكّل عامل جذب للزائرين من حيث الرغبة في اكتشاف الأطباق القروية التقليدية وتذوّقها. وفي هذا السياق سجّل المتحف زيارات عدّة لمجموعات، من خارج لبنان، كان دافعها الثاني، إثر زيارة المتحف، تذوّق المأكولات التقليدية. وعليه، شكّل التدخّل النسوي في القرية أساساً لبلوغ الهدف: فتعاونت النساء لتحضير أبسط المأكولات القروية التي نذكر منها للمثال لا الحصر خبز الصاج وخبر التّور، والمناقيش بالزعر وبالکشك والتبولة والفتوش... في هذا الاختبار المزدوج، اختلفت المجالات المأهولة إذ استقطبت صالات العرض الزائرين في نشاط اكتشاف المتحف، في حين تركّز نشاط التذوّق في الحديقة وفي الباحة الخارجية للمتحف.

وفي مسار دراسة أشكال استعمال المجال المتحفّي، وطرق التعاطي مع البيئة المادّية لبيت التراب، نذكر مشروع التعرف إلى مواد البناء، ومن ثم العمل بها لاستخراج «اللبن» عبر عمليّات المزج، والصبّ، وهندسة الأشكال، والتشميس... نظّمت المشروع الجامعة

(ج) بدعوة طلاب قسم الفنون الجميلة، في السنة المنهجية الثانية، إلى زيارة المتحف. هدف المشروع إلى اكتشاف المواد المستعملة في عمارة البيوت، ومن ثم التعامل مع المواد، ومزجها باتباع قواعد علمية دقيقة للحصول على لبن صالح للاستعمال. ومن مميزات هذا المشروع أن الطلاب صمّموا مصنوعاتهم وفقاً لأشكال متعددة وذات رمزية خاصة بكلّ منهم. لإنجاز المشروع، تركّز النشاط التطبيقي في مجال أحادي، وهو الحديدية التي تحوّلت إلى مختبر آني.

استناداً إلى ما ورد أعلاه حول مجموعة القراءات التطبيقية للسلوك في المجال المادي لمتحف بيت التراب، يبرز، فعلياً، الاختلاف بين الخارطة السلوكية للمتحف والخارطة الجغرافية. وعليه، من منظور علم النفس البيئي، تشكل البيئة مكوّناً مستقلاً للأفعال. فهي ليست، إذًا، خلفيّة تعكس السلوك، إذ يستدعي ذلك تحديد دورها بهدف فهم أثرها (Moser & Uzzel, 2003). فتعدّد الأنشطة، وتميّز الفئات العمرية، واختلاف المجالات الداخلية المشغولة في إنجاز كل نشاط، يولّد تعددًا في المواقع السلوكية، رغم ثبات الخارطة الجغرافية. هذا التداخل بين المجالات البيئية والاجتماعية بما فيها المظاهر السلوكية للاتصال بالأمكنة والتفاعل يستوقفنا، وي طرح تاليًا تساؤلات حول المواقع السلوكية وحول ماهية مكوّناتها.

### العناصر المكوّنة للموقع السلوكي

بناءً على ما تقدّم ذكره، يمكن الاستنتاج أنّ الموقع السلوكي لا يشير إلى مكان، وإنّما إلى التفاعلية أي إلى مجموعة التفاعلات الحاصلة داخل مجال محدّد ومع ذلك المجال. فالموقع السلوكي يصبح رسمًا سلوكيًا مرتبطًا بمكان ما ويظهر في فترات منتظمة. هذا، ويعرفه بشتل (Bechtel, 1987) على أنه نسق، ذو نظام ضابط، وحدود واضحة، ويتألف من مجموعة عناصر إنسانية وغير إنسانية، في آن معًا. إذًا، داخل الحدود الجغرافية والآنية لهذا النسق، تتفاعل المكوّنات المتنوّعة من أفراد وأشياء ماديّة. لذا، تعتبر المواقع السلوكية مصدرًا لعمليات التحكم بالسلوك لكونها تؤثر على سلوك عدد مرتفع من الأفراد.

فالموقع السلوكي يختلف عن البيئة الموضوعية بمقدار ما تحدده العناصر البيئية والإنسانية، وتاليًا السلوك الفردي بشكل واسع. في حال التغاضي عن ذلك، يظهر

حينها التأثير وكأنه أمر حتمي. فالسلوك الفردي يساهم، من دون شك، بالتأثير على السلوك الجماعي. وعليه، تأتي المعايير السلوكية الجماعية لتسهل عملية التعرف إلى الموقع السلوكي ومميزاته ومواصفاته. للمثال، إذا لاحظنا بيئة هندسية مغلقة مؤلفة من جدران وسقف ونوافذ، لأحصينا فيها عددًا متنوعًا من السلوك وفقًا لاستخداماتها: فإذا كان هذا المجال قاعة مخصصة للمحاضرات لبرزت فيها مجموعة سلوكيات مختلفة تمامًا عن تلك التي تظهر في متحف «بيت التراب» أو في معمل أو في ملعب رياضي.... ففي حالات كهذه تشير المواقع السلوكية إلى سلوك الجماعة أكثر منه إلى السلوك الفردي، لكون الجماعة مرتبطة بالموقع: فمعرفة موقع معين من شأنها المساهمة في توقع السلوك المحتمل حدوثه في الواقع.

فالسلك، كما أظهرت الدراسات (Barker & Wright, 1949) يتغير تبعًا للبيئة حيث تؤدي الظروف البيئية دورًا حاسمًا في ذلك. لدى دراسة سلوك مجموعات مختلفة من الأطفال، في عدد من المجالات المتشابهة اعتمد الباحثان على تقنية الملاحظة. فأظهرت النتائج أوجه شبه بين سلوك الأطفال إذ أتى متقاربًا إلى حد ما، رغم اختلافاتهم وتميزاتهم الفردية. وعليه، توصلنا إلى استنتاج يكمن بإمكانية توقع سلوك الأفراد عند اكتشاف ظروفهم البيئية، أكثر منه لدى معرفة مواصفاتهم الفردية. فعندما يغادر الأفراد المجال، تبقى البيئة المادية كما هي على حالها، أي أنها لا تتبدل، إلا أن الموقع السلوكي، بالمقابل، يزول، لأن الخارطة السلوكية غابت هي أيضًا.

فهل يخضع الموقع السلوكي للتبدلات والتحويلات؟ كيف يمكن تاليًا الحصول على ذلك؟ بهدف إجراء تعديل في الموقع السلوكي، لا بد من إحداث تغيير في أحد العنصرين التاليين: أولاً، الخط السلوكي، وثانياً، البيئة المادية. مثال أول: إن تنظيم مشروع قوالب «البن» لطلاب الهندسة في الجامعة الأميركية، في حديقة متحف «بيت التراب»، في العاشر من شهر نيسان من العام ٢٠١٠، يشكل موقعًا سلوكيًا؛ أما تنظيم محاضرة حول موضوع أهمية «المتاحف البيئية»، في المكان ذاته، في العاشر من شهر كانون الأول من العام ٢٠١٢، فيشكل موقعًا سلوكيًا آخر.

مثال ثان: إن اهتمام المدرسة «أ» بتنظيم حلقات تدريبية لتلامذة في سن العاشرة، في حديقة المتحف، بهدف اكتشاف المواد المستعملة في بناء البيوت الترابية، وطرق

مزجها، وكيفية استعمالها، بتاريخ الخامس من شهر آذار ٢٠١١، يشكل موقعاً سلوكياً. أما استقبال مجموعة سائحين، في حديقة المتحف، لتذوق الأطباق اللبنانية التراثية، أيضاً، في الخامس من شهر آذار ٢٠١١، فيشكل موقعاً سلوكياً آخر. فالمكان هو هو، لم يتغير، إلا أنه برز موقفان سلوكيان متميزان، في كل من المتالين، لأن الخط السلوكي الذي يحدده الموقع ويفرضه يختلف هو بدوره. من هنا، تبرز أهمية رسم الحدود، في دراسة الايكولوجيا السلوكية، أي الحدود الجغرافية والزمنية بحيث تكون واضحة المعالم. في المثال المذكور أعلاه، بقيت الحدود المجالية كما هي، وكذلك الحدود الزمنية، إلا أن فئات المشاركين بالحدثين وأعمارهم اختلفت هي أيضاً. فعندما يتلاءم مكان واحد مع مواقع سلوكية عدة، تساهم أوقات التشغيل (أي الاستعمال) بجعل الحدود أكثر وضوحاً.

وعليه، في إطار هذه المقاربة يبقى العنصر الإنساني هو المكوّن الأكثر أهمية: فمرتادو المكان من مشاركين وزائرين وموظفين ومتطوعين وناشطين هم مصدر إنتاج السلوك، وهم تالياً الصفة الرئيسة للموقع. وعليه، يكون الحفاظ على الموقع على ارتباط بعامل الكثافة البشرية أي بعدد الأفراد. من ناحية أولى، ترتبط المحافظة على الموقع بعامل وجود حد أدنى من الزائرين، يسمح باستمرار المتحف. وترتبط من ناحية ثانية، بعامل توفر عدد أقصى من المرتادين بحيث يتلاءم مع قدرة الموقع على الاستيعاب وعلى تلبية الاحتياجات. لو شئنا إعادة النظر بنظرية باركر، لوجهنا إليها نقداً يكمن بأن الأفراد، رغم أهميتهم، ورغم كونهم يشكلون عنصراً أساسياً في العملية، فهم قابلون للاستبدال بآخرين. فالأفراد الذين يشغلون مراكز محددة داخل المواقع لا يحظون بأهمية؛ فلا تعطى الأولوية للأفراد وإنما إلى المجال من حيث إنه مسكون أي مأهول، ومن حيث إن الوظائف الأساسية فيه ليست بشاغرة.

بالتوازي مع ذلك، فعلى الموقع السلوكي أن يتلاءم ومتطلبات الزائرين وحاجاتهم لكي يستمرّوا في أنشطتهم وإلا، في الطرف المعاكس، هجروا المكان وفقد الموقع تالياً علة استمراريته. من هنا، يصبح مصير العناصر غير الملائمة إما الرفض والنبذ وإما التعديل: ذلك بأن الموقع السلوكي عن نسق حيوي وذاتي الضبط يعرض برامج أنشطته على الأفراد والأشياء المكوّنة له، وعلى هذه أن تطابق سلوكياتها كي تتناسب وتحقق بذلك توازناً نسقياً.

## تنظيم النسق

إذاً، يقوم النسق على نظام ذاتي داخلي هو أقرب إلى التشغيل الميكانيكي التلقائي بحيث يحظى كل موقع بأليات (ميكانيزمات) متخصصة في تأمين الأنشطة الأساسية. فعندما يستقبل ميكانيزم الاستقصاء، مثلاً، جملة بيانات حول ما يحدث في الموقع، تتواصل هذه مع الميكانيزم التنفيذي الذي بدوره يصدر حكماً على الأحداث فيقرر قبولها أو نبذها.

يرتكز النسق أيضاً إلى عناصر غير بشرية: مثال ذلك آلة رصد دخان السجائر التي تستقبل المثيرات وتحدد مدى ملاءمتها، أو أيضاً كاميرا تصوير المسافة الفاصلة بين الأفراد وبين الأشياء المعروضة في المتحف، والتي يجب على الأفراد احترامها. إلا أنه بشكل عام، يمكن لقاطني الأمكنة القيام بأنفسهم بتلك الوظائف بحيث تعمل العين والأذن والأنف فتشكّل أليات لرصد السلوك، في حين ينشط الدماغ كأولية تنفيذية.

أما عندما تصبح بعض الأحداث مصدراً للقلق، فتفرز عوامل تهديد مؤثرة على برنامج الموقع أو على رضا الأفراد، تنشط حينها ميكانيزمات الصيانة: كأن تقرر التدخل لتنفيذ خطة عمل محددة بهدف معالجة الخلل المستجد. فميكانيزمات الصيانة تسعى إما إلى تصحيح الخطأ، وإما إلى التصدي للعنصر المخرب، وإما إلى إبعاده من الموقع. هذا التنظيم الذاتي يستدعي تأمين الموارد الضرورية لمعالجة الأعطال الطارئة. فأحد أهداف التنظيم الذاتي للموقع يكمن بالمحافظة على علاقة ملائمة بين السلوك والبيئة المادية والاجتماعية. هذا يشير إلى التوافق بين الفرد وبيئته أي بين الإطار المكاني والأنشطة التي يرغب الفرد بممارستها. إنها تظهر مجدداً أهمية التداخل بين السلوك والبيئة حيث يتعسر اعتبار الواحد بمنأى عن الآخر. فهي، على كل حال، قابلة للتغيير، داخل كل موقع، بحكم المتغيرات الفردية (تكيف الفرد وفقاً لأشكال سلوكه)، والمتغيرات الايكولوجية (عبر إجراء تعديلات على الموقع ذاته).

تلقي فكرة التطابق هذه تأويلات متنوّعة عبر نظريات التعلم أو الأبعاد التفاعلية لعلم النفس الاجتماعي والبيئي. فعلى مستوى الفرد يظهر التطابق كنتيجة لعملية التعلم المرتبطة بملاحظة سلوك الآخرين: يتم التعلم عن طريق التشبه لا سيما في المواقع السلوكية غير الاعتيادية حيث يشكل سلوك الآخرين المصدر الأهم للمعلومات، وتالياً للاقتداء.



يمكن أيضًا لعملية تعلّم السلوك أن تتم عبر اعتماد طريقة المحاولة والخطأ: فالأحداث الناتجة عن السلوك تمكن الأفراد من تقدير ملاءمة السلوك للموقف أو العكس. هكذا يصبح بإمكانهم قبول تكرار الأفعال ذاتها، أو رفض تكرارها في مواقف أخرى مماثلة.

بالمقابل، تشكل الإشارات الصادرة عن الوسط البيئي حوافز تمييزية لتقويم عواقب كل سلوك غير ملائم. فالمواقع السلوكية تؤدي دور المحفز الذي يدي إشارات معبرة حول ما هو مقبول، وحول ما هو مرفوض في المواقع. فلدى الولوج إلى موقع ما، يجد الزائر نفسه مزوداً بجملة من الإشارات والتعليمات التي تملي عليه نمط السلوك.

فالإدراك البيئي الناجح مرتبط أيضاً بمدى ملاءمة السلوك والبنية المادية والاجتماعية: فالفرد الذي يدرك حدود المواقع السلوكية يمكنه تعديل سلوكه كي يتكيف والمواقع المتنوعة. هذا ما يظهر من خلال تحليل المشكلات الناجمة عن خرق قوانين المناطق الخالية من التدخين مثلاً، الأمر الذي يصبح مصدرًا للصراع الاجتماعي وللنزاعات (Gibson & Werner, 1994) في كثير من الأحيان. فخرق قانون الحد من التدخين في الأماكن العامة هو سلوك مرفوض وغير متوقع من برنامج الموقع. إلا أن المعضلة، وفقاً للباحثين المذكورين جيبسون ووارنر، تكمن في غموض البرنامج أو في نقص الوضوح، وتالياً في غياب الشفافية حول السلوك المتوقع. ذلك لأن الحدود بين المنطقتين (تدخين/خالية من التدخين) غالباً ما تكون غير واضحة المعالم في غياب الحدود والإشارات. هذا إضافة إلى خلل في الإشارات البيئية حيث التعليمات ناقصة وغير جلية، هي أيضاً. في هذا الإطار، أظهرت الأبحاث أن معدل احترام القوانين يرتفع عندما تكون حدود المناطق واضحة، وعلاماتها البيئية جلية المعالم، مثال ذلك عدم وجود منافض في مكان خالٍ من التدخين، أو غياب المقاعد في أمكنة مجهزة بهدف العبور السريع فيها، لا الجلوس.

فضلاً عن ذلك، يلاحظ أن الأفراد غير المدخنين يلومون بسهولة أكبر غيرهم من الأفراد، إذا أشعلوا سجاثرهم داخل منطقة خالية من التدخين، أكثر منه إن وجدوا على أطرافها أو قريباً من حدودها. فمعيار الوضوح، ووضوح الحدود، يؤدي دوراً رئيساً في تسهيل احترام برنامج المواقع، ويساهم تالياً في تجنب النزاعات، وأيضاً في فضها.

أخيراً، يلاحظ أن اختيار الموقع يستند إلى معيار قدرات الأفراد، ورغبتهم في المشاركة في الأنشطة التي ينظمها، أو تلك التي يشجعها. بالمقابل، وبشكل عفوي، ينتقي

الموقع من يبقى فيه من أفراد أو من يغادره: إنه تبادل اجتماعي بين طرفين - لا بين فردين - هما الإنسان من ناحية، والموقع السلوكي من ناحية أخرى، إذ تجري بينهما عملية تقويم متبادلة ومستمرّة. هذه التفاعلية تجعلنا نتساءل حول مدى الأهمية العددية، و حول ما إذا كانت الكثافة تشكّل عاملاً مؤثراً في استمرار الموقع أم في زواله.

### الكثافة البشرية في المواقع الأثرية

تشير عبارة «الكثافة البشرية» إلى عدد الأفراد الذين يشغلون موقعاً ما وإلى المراكز الأساسية التي يتخذونها فيه. فكما ذكرنا أعلاه، للمواقع السلوكية قدرة التصدي للأخطار التي تهدد سير البرامج. من عوامل الخطر تلك نذكر، للمثال لا الحصر، النقص كما الفائض في عدد الأفراد أو الناشطين الموكول إليهم إنجاز البرامج. يستدعي توضيح هذا المفهوم التمييز بين صنفين من الأفراد:

يضمّ الصنف الأول الأفراد القائمين على الموقع أي الذين يتقاسمون المسؤوليات، أو أقله الذين يؤدّون دوراً ناشطاً في تحقيق البرامج (الموظفون والمتطوعون)؛ أما الصنف الثاني فيقوم على جميع الأفراد الخارجين عن الموقع والذين لم يوكل إليهم أي نوع من المسؤوليات.

فيمكن أن تظهر الكثافة البشرية (الزيادة العددية)، والنقصان، في أحد الصنفين المذكورين، وفي الحالتين يشكّل الحدث تهديداً لديمومة الموقع. فانخفاض عدد الأفراد إلى ما دون الحد الأدنى، أو ارتفاعه إلى ما فوق الحد الأقصى يستدعي اتخاذ إجراءات وقائية تحدّ من الخطرين المحتملين ألا وهما: الفائض البشري في الحالة الأولى، والخلو من السكان، في الحالة الثانية.

فتدني العدد يستوجب، عملياً، جملة من الإجراءات الهادفة إلى حماية الموقع وحفظ استمراريته: منها نذكر، للمثال لا الحصر، بذل جهود مضاعفة، وتكريس وقت إضافي لتشغيل الموقع، إضافة إلى تنفيذ مهامّ متعدّدة ومعقّدة وأكثر أهمية. باختصار، يتوجب على كل فرد من العاملين في هذا الميدان القيام بأدوار مضاعفة، والقبول بتحمّل مسؤوليات إضافية، علاوة على نشاطاته الأساسية. بناء على ذلك، تصبح مساهمة الجميع وتعاونهم أمراً ضرورياً لانتظام عمل الموقع بحيث عليهم أن يواجهوا عدداً أكبر

من الطلبات. إلا أنهم، بالمقابل، يعجزون عن تلبية مجمل حاجات الزبائن، إذ يتدنّى معدّل استجاباتهم لرغبات هؤلاء، وذلك بسبب ضغوط المهام المتنوّعة ومحدوديّة القدرات الإنسانيّة الفرديّة. إنّها إحدى انعكاسات الإرهاق أو إتلاف القدرات الشخصيّة نتيجة التوظيف المكثّف لليد العاملة واستثمارها الزائد.

لو شاء القائمون على المواقع التصديّ لهذا النوع من الأخطار لأمكنهم التفكير بإعادة تنظيم مزدوجة الأبعاد. على الصعيد الأول، من الممكن التفكير بتعديل نظام الدخول الذي يطبّق على المشاركين من زائرين وضيوف والذي يشمل تخفيض بعض الشروط كترخيص أسعار بطاقات الدخول، وتعديل أوقات تشغيل الموقع، واعتماد دوام عمل جديد... وعلى الصعيد الثاني، يلجأ الفريق إلى تخفيض مستوى الصيانة ليتلاءم مع انخفاض عدد الزائرين، فيلجأ تاليًا إلى تعديل برنامج الموقع.

في محاذة ذلك، من الممكن أن يظهر أيضًا الوجه المعاكس والذي يكمن بالكثافة البشريّة أي بارتفاع معدّل الزائرين إلى ما يفوق قدرة الموقع على الاستجابة. تولّد هذه الحالة أيضًا انعكاسات سلبية على سلوك الأفراد، من ناحية أولى، وعلى نوعية تشغيل الموقع، من ناحية ثانية. فينجم عن ذلك أقلّه ضعف في التواصل والاتّصال، ونقص في تبادل المعارف مرفقًا بتدنّي معدّل الاهتمام بالزبائن كما في نوعيّة التشغيل. إذا، تستوجب الكثافة المرتفعة، تمامًا كتنديّ الكثافة عمليّة ضبط تفاوتات نتيجتها بين الحدّ من عدد المشاركين في الموقع، أو رفع قدرة الموقع على الاستيعاب وبين إطالة دوام العمل وتوسيع المجال أو بناء موقع جديد محاذ للأوّل، وما إلى ذلك من تعديلات...

لقد تمّ توظيف نظريّة الكثافة في ميادين متعدّدة منها المجال المهنيّ وذلك بهدف رفع مستوى أداء الأفراد. فإتلاف القوى مرتبط بمتغيّرات متنوّعة تختلف باختلاف معدّل الكثافة البشريّة في مواقع العمل، ومستوى الدعم الاجتماعي الذي يحظى به الأفراد من زملاء العمل والمسؤولين والرؤساء، أو أيضًا نوعيّة العناية بالمهامّ التي ينجزها الفرد. إلا أنّ نظريّة الكثافة لا تكفي لفهم تشغيل المواقع السلوكيّة (Wicker, 1987)، من هنا أهميّة إعادة النظر بها على ضوء حوافز الأفراد وأهدافهم وأشكال العلاقات الاجتماعيّة التي يتمّ رصدها داخل المواقع. بغضّ النظر عن معدّل الكثافة، من الممكن أن يلتزم الموظّفون بمهامّ تتجاوز حدود مسؤوليّاتهم - كما ذكرنا أعلاه - حيث يكون دافعهم إلى ذلك حوافز

فردية، والتحلّي بدرجة عالية من الالتزام المهني. يمكن أيضاً تفسير الحوافز على ضوء الملاءمة بين الفرد والبيئة، مما يعني أنّه من شأن الأهداف الفردية أن تتناسب مع الاشباع البيئية من تشجيع وثناء ومكافآت وما إلى ذلك... فهناك الفرد يتوقف على التطابق بين البيئتين الفردية والايكولوجية. ومن شأن اللحمة القوية بين أعضاء فريق العمل أن تنتج توزيعاً أنسب للمهام وتواصل أفضل. فهذه الأبعاد الفردية والاجتماعية التي أهملها باركر، تستدعي الاهتمام، وتستوجب مزيداً من التفكير والتحليل. انطلاقاً مما تقدّم، تتساءل حول قابلية السلوك للقياس في المواقع السلوكية، أي إمكانية إخضاعه للقياس الموضوعي؟ وما هي، تالياً، الوسائل الملائمة لإنجاز قياس السلوك؟

### في قياس المواقع السلوكية

بشكل عام، من الممكن اختبار السلام القياسية عبر تطبيقها ميدانياً بهدف قياس السلوك. وقد عمل باركر على استنباط سلم يعتمد بانتظام في مجال قياس السلوك في المواقع. وهو تالياً يسمح بالاستدلال إلى أهم أشكال السلوك في موقع ما، والتوصل، بعدها، إلى تعديل هندسة الموقع وتكييفها وفقاً لذلك. حدّد باركر معايير عملية يتمّ ترميزها بسهولة وفقاً لاحتمالات ثلاثة هي: (١) الحضور، (٢) الغياب، (٣) النشور. بلغ عدد المعايير التي اختارها باركر وأولها أهميّة العشرة، وهي التالية:

- الجمالية: (يشار إلى الجمالية بالسلوك الهادف إلى تحسين مظهر البيئة المادية)؛
- التبادل والتجارة: (تبادل الأشياء والممتلكات والخدمات)؛
- التربية: (مما في ذلك التعليم)؛
- الدولة/المنظمات: (تمثّل بالقوانين التي تشرّعها المؤسسات)؛
- المظهر الشخصي؛
- الصحة؛
- المهنية: (تفرض تحديد أجور العاملين في المتحف وسلسلة الرواتب والقواعد المرعية الاجراء)؛
- الترفيه؛
- الدين؛
- العلاقات الاجتماعية.

إضافة إلى القياس المذكور، نشير إلى وجود سلم آخر، يتم تطبيقه بهدف اكتشاف مدى «استقلالية الموقع». باستطاعة قياس الاستقلالية هذا الكشف عن مدى مسؤولية الأفراد في اتخاذ القرارات التي تساهم في ضبط الموقع السلوكي. مثال ذلك معرفة كيفية اتخاذ القرارات المرتبطة بقيادة الموقع أو بالمديرين، وكيف يتم قبول الأعضاء، ومن يحدد شروط الانتساب وتعريفه الدخول، ومن هو المسؤول عن برمجة المشاريع وعن اختيار التوقيت...

### ألية التعرف إلى المواقع السلوكية ووصفها

من أجل التوصل إلى دراسة المواقع السلوكية على نطاق واسع (المدن) كما فعل الباحثان باركر ورايت، أو على نطاق أضيق، (مبنى مثلاً...)، على الباحث، أولاً، إحصاء كل المواقع السلوكية العامة، وذلك في إطار الحدود الزمنية والمجالية للدراسة قيد الإنجاز. فالتعرف إلى المواقع السلوكية يقتضي جدولة جميع الأنشطة المنظمة في الأماكن العامة، من ثم تحليلها لمعرفة ما إذا كانت تتحلّى بمواصفات المواقع السلوكية. بمعنى آخر، من المهمّ التفتيش عن وجهات الشبه بين السلوك والمواصفات البيئية الظاهرة ضمن أطر المكان والزمان المحددة مسبقاً.

من أجل الاستدلال إلى نواحي الشبه، على الباحث، التجوّل ميدانياً لتسجيل جميع المجالات التي تخترقها أو تحدها الحواجز المادية والفواصل (حائط، سور، شبك...). كما يمكنه، في مرحلة ثانية، الاطلاع على الصحف المحلية التي تغطّي الأحداث وتنشر الإعلانات. وفي خطوة ثالثة، يهتمّ بتوجيه أسئلة إلى المشاركين في المواقع السلوكية للتعرف إلى مروحة الأنشطة التي تنظم في المكان، واكتشاف ما إذا كانت تشكل مواقع سلوكية متشابهة أم مواقع سلوكية متغايرة. علاوة على ذلك، يحاول إظهار حدودها الزمنية، ومميزات المشاركين فيها وخصوصياتهم. أما المرحلة الأخيرة، فتقوم على عملية مقارنة تلك المواصفات بجمعها اثنتين اثنتين، وذلك بهدف التأكد من استقلاليتهما أو معرفة مدى ارتباطها، عبر تفحص العمليات التالية:

- انعكاس أحد الأنشطة على الآخر

- اشتراك الأفراد ذاتهم في نشاطين

- حدوث النشاطين في مكان واحد

- ظهور سلوك مشابه في النشاطين

من الممكن اكتشاف أوجه شبه في أحد العوامل المذكورة أعلاه، وأوجه اختلاف في عوامل أخرى من دون أن يشكل ذلك موقعاً سلوكياً واحداً. مثال ذلك، تنظيم حفلتين في مكان واحد على مسرح ((وزارة الثقافة والتعليم العالي)): فإذا اهتمت الأولى بمناهضة العنف ضد المرأة، ونظمت الثانية عرضاً مسرحياً راقصاً لأوبرا "عائدة" للمؤلف الموسيقي «فيردي»، يشكل الحدثان موقعين سلوكيين منفصلين. فرغم أن الحدثين ينظمان في مكان واحد، فلا يكفي ذلك لاعتبارهما موقعاً سلوكياً واحداً. فالمجال الجغرافي إذاً، لا يحدد بالضرورة الموقع السلوكي.

بالمقابل نجد أن تنظيم سهرتين قرويتين في حديقة متحف «بيت التراب» تفصل بينهما مدة ثلاثة أشهر، ويشارك فيهما الأفراد ذاتهم، يشكل موقعاً واحداً. لمزيد من الدقة اعتمد باركر تطبيق مقياس (K21) لاكتشاف الارتباط على أصعدة سبعة هي التالية:

- المجال: (استعمال مجال واحد أو مجالات محاذية).

- الزمان: (اختيار فترات زمنية واحدة وتوقيت واحد).

- السكان: (لا يتبدل الذين يشغلون الأمكنة والمشاركون).

- القيادة: (لا تتغير القيادة).

- الأشياء والأدوات: (استعمال الأشياء ذاتها).

- السلوك: (لا يتبدل السلوك).

- وحدات العمل (تتابع العمل في موقعين).

بهدف قياس الارتباط، قام باركر بترميز هذه العناصر على سلم بدءاً من الرقم (١) وصولاً إلى الرقم (٧)، وذلك وفقاً لدرجة التشابه. فالرقم (١) يشير إلى أكبر قدر من التشابه، في حين يعتبر الرقم (٧) مؤشراً إلى ضعف التشابه أو اضمحلال التشابه. بعد التعرف إلى المواقع السلوكية، يعتمد الباحث حينها وصف المواقع كمياً، للتمكن من المقارنة. لجأ باركر ورايت إلى وصف المواقع عبر أربعة أبعاد أساسية:

- التكرار: (عدد الأيام التي يكون في خلالها الموقع ناشطاً أثناء إنجاز الدراسة).

- المدة: (عدد الساعات التي يكون في خلالها الموقع ناشطاً أثناء إنجاز الدراسة).

- السكّان : (عدد الأفراد الذين يقوم عليهم الموقع).
- مدّة التشغيل (عدد الساعات التي يمضيها الفرد في الموقع).

## خاتمة

يعتبر المنهج الذي نادى به باركر مقارنة سلوكية تتمحور من جهة، حول الفرص البيئية، وحول أشكال استخدام الحيز، من جهة أخرى. انطلاقاً من هذا التحليل البيئي عاد باركر وطوّر تفسيراً اجتماعياً يسمح بالحصول على معطيات حول الأبعاد الاجتماعية للجماعات البشرية. تخضع تلك الأبعاد للوصف الكميّ من خلال معرفة نسبة المواقع السلوكية التي تمتاز بمواصفات محدّدة، أو عدد الأفراد المشاركين في المواقع المختلفة.

فعلى سبيل المثال، إنّ رصد نسبة مرتفعة من المواقع السلوكية المخصّصة للنساء، يشير إلى التقدير الذي تحظى به المرأة في مجتمع محدّد، وإلى الثقة بقدرتها على تحمّل المسؤوليات الموكلة إليها. وأيضاً، فمعرفة نسبة المواقع السلوكية التي تستقبل فئات اجتماعية متنوّعة مثال ذوي الاحتياجات الخاصّة أو الأطفال أو الأحداث أو ذوي الدخل المحدود أو العائلات أو كبار السن، تسمح بقياس الأفضلية المعطاة لها في مجالات مختلفة داخل المدن والبلدات والأحياء والمتاحف... هذا إضافة إلى إمكانية تقدير معدّلات الإقبال والمشاركة والالتزام. وعليه، تتحوّل مجمل الأرقام والنسب إلى مؤشّرات دالة، مثلاً، على سياسات المدينة/البلدة، وعلى أثر المؤسسات، وعلى أنشطة المنظمات في ميادين اجتماعية متنوّعة داخل البلديات والأحياء والشوارع والمراكز الثقافية والمتاحف. فمن شأن ذلك، في نهاية الأمر، أن يسهّل عملية تحليل البنى التحتية التي تقترحها، والحاجات السكانية التي بإمكانها تلبيتها.

بههدف المحافظة على الذاكرة الاجتماعية للخبرة المعيشية اليومية في البيوت الترابية في سهل البقاع، ولنمط النشاط الزراعي الذي ساد آنذاك، تثير بعض الاقتراحات والتوصيات. فمن شأن هذه الأخيرة، إن وضعت في التنفيذ، أن تحافظ على استمرار التواصل بين الأجيال، وتقوية اللحمة بين شرائح المجتمع المحلي، وإثارة الاهتمام بأسلوب الحياة التي عاشها الجدود، وعليه نقترح ما يلي:

### اقترح أول

بالاعتماد على التقنيات التكنولوجية الحديثة ولا سيما منها السمعية والبصرية والالكترونية والافتراضية، السعي لإنجاز فيلم إثنوغرافي حول متحف «بيت التراب» وربطه مباشرة بالشبكة العنكبوتية بهدف بناء علاقة تفاعلية بين الماضي والحاضر. فتصوير المتحف بمجالاته المختلفة والمتعددة، الداخلية منها والخارجية، من شأنه إبراز التقسيمات المجالية للبيت التقليدي الترابي، وإظهار وظائفها المتنوعة، من ناحية أولى؛ ومن ناحية ثانية، تضيء الصورة على المواد المستعملة في بناء البيوت، والتي لم تتجاوز نطاق المواد الطبيعية والموارد الايكولوجية للطاقة: فجميعها مصنفة مواد وموارد صديقة للبيئة لكونها محصورة في الخشب والقصب والتراب والتبن والقش والماء والهواء والشمس. ففي ذلك إشارات بيئية إلى ضرورة الاعتماد على الموارد المتجددة، في عصر بات المجتمع فيه يعاني كثافة التلوث البيئي وانعكاساته السلبية على الصحة العامة وعلى سلامة الكرة الأرضية.

### اقترح ثان

جغرافياً، يتصل متحف «بيت التراب»، في جزء منه من ناحية الحديقة، بحدود بيت ترابي آخر، بات مهجوراً، بعد أن سكنته عائلة من آل معلوف لغاية منتصف الثمانينات من القرن العشرين. من هنا، نقترح، أولاً، تأهيل ذلك البيت بإجراء الأعمال المناسبة للترميم وصيانة الجدران ودعامة بنيانه إلى أن يصبح صالحاً للسكن. ومن ثم تحويله إلى متحف حيّ أو منزل عابر (لو كندا)، حيث يمكن للزائرين الإقامة فيه، بهدف اختبار الحياة اليومية في بيت ترابي. فيقضون بذلك ليلة في أرجائه أو بضعة ليال معتمدين، في خلال إقامتهم، أسلوب المعيشة وأنواع الطعام ونمط التدفئة التي سادت آنذاك.

### اقترح ثالث

نظراً للتحوّلات العمرانية والمعيشية التي طالت البلدة، تظهر ضرورة تنظيم ورشات عمل مع السكان المحليين الذين سكنوا، آنفاً، او ما زالوا يقيمون، في الوقت الحاضر، في بيوت ترابية. يكمن الهدف من المشروع العمل على كتابة الذاكرة الجماعية لاختبار الحياة المعيشية اليومية والزراعية في البيت الترابي. وذلك من



خلال التعبير عن المعاش والانفعالات، ورواية الأحداث والأنشطة والاحتفالات التي كانت البيوت الترابية والسهول مجالات ملائمة لها وشاهدة على ديناميتها. إن لكتابة الذاكرة المرتبطة بالبيت الترابي دلالة لكونها تضيء، أولاً، على التحوّلات التي طالت أنماط السكن والمعيشة والزراعة والحياة المجتمعية، في بلدة تربل. كما أن لكتابة الذاكرة السكنية دوراً في تقوية التماسك الاجتماعي وتغذية اللحمة بين أفراد المجتمع، إضافة إلى انعكاسها الإيجابي على النظرة إلى الذات وإلى الخبرات السكنية السابقة.

أخيراً، وفي سياق جمع البيانات، استرعى اهتمامنا أمران. تجلّت الواقعة الأولى أثناء المقابلات التي تمّت مع آباء وأمهات سكنوا البيت الترابي. فهؤلاء عبّروا عن صعوبة الحياة اليومية، آنذاك، في البيت الترابي، وعمّا رافقها من جهود مضاعفة وتعب<sup>(٣٧)</sup> في صيانة البيت ونظافته وتأمين المؤونة. وقد شكّل انتقالهم إلى البيوت الحديثة تحوّراً من أعباء لظالما أثقلت كاهلهم. أما الملاحظة الثانية، فتعود إلى جيل أولادهم الذين أمضوا طفولتهم في بيوت التراب وهجروها مراهقين أو يافعين. لقد كان لهؤلاء مع البيت علاقات متميزة اتّصفت بمشاعر الحبّ والتعلّق والديمومة إذ استمرّت، رغم البعاد، عبر الذكريات المرافقة. هذه الوقائع تثير تساؤلات حول أسباب اختلاف الخبرة السكنية بين الأجيال! فمتى تتحوّل الخبرة السكنية إلى حدث إيجابي وبناء لهوية الفرد؟ لماذا وكيف تختلف تبعات الخبرات السكنية من جيل إلى آخر؟ وهل يجسّد متحف بيت التراب ذكراً النسيان الطوعي بالنسبة إلى الجيل الأول، في حين يجهد الجيل الثاني لإحياء الذاكرة وإنقاذها من النسيان؟

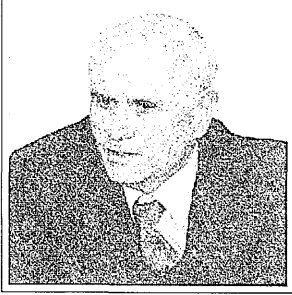
(٣٧) من مقابلة مع جلييلة حميمص المعلوم، بتاريخ ٦ كانون الأول ٢٠١١.

## المراجع

- رشوان؛ حسين، ٢٠٠٦: البيئة والمجتمع: دراسة في علم اجتماع البيئة. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر.
- زغيب؛ الياس وعبود؛ فادي، ٢٠٠١: لبنان من الألف إلى الياء، جزء ٢.
- صليبا؛ عزيز، ٢٠٠٤: البقاع في التاريخ والمنطقة. دار الفارابي، بيروت.
- الصغيني؛ نعمة ٢٠٠٧: تاريخ تريبل: ١٧٨٠-٢٠٠٧، بيروت.
- عاصي؛ بولس ٢٠٠٦: البقاع اللبناني: واقع وتحولات. دار الحدائث، بيروت.
- الفاخوري؛ عبد اللطيف، ٢٠٠٣: منزل بيروت. بيروت.
- فريحة؛ أنيس، (ب.ت.): القرية اللبنانية: حضارة في طريق الزوال. لبنان، جروس برس، طرابلس.
- مرهج؛ عفيف، ١٩٨٥ - ١٩٨٧: إعرف لبنان، موسوعة المدن والقرى اللبنانية، الجزء الثالث، والعاشر، بيروت.
- مفرج؛ طوني، (ب.ت.): موسوعة قرى ومدن لبنان. جزء ٧، نوبلس، لبنان.
- مسرة؛ أنطوان، ٢٠١١: إشكالية التاريخ وبناء الذاكرة في المجتمعات التعددية: الخبرة اللبنانية. أنظر المرجع التالي ذكره:
- Annales de philosophie et des sciences humaines, Vol 27, (p.p. 5-12). Pusek, Liban.
- المعلوف؛ عيسى اسكندر، ١٩٨٤: تاريخ زحلة. زحلة الفتاة، زحلة.
- المعلوف؛ مكي، ٢٠٠٨: الساحة العامة بين الخصوصية السكنية والقيم المجتمعية: دراسة ميدانية نفس-اجتماعية في بيروت (لبنان)، في عطية وكيال، المدينة العربية بين التغيرات الاجتماعية وتحولات المجال، ص ٣٩٢-٤١١، منشورات مركز الأبحاث، معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، بيروت.
- المؤسسة الوطنية للتراث، ٢٠٠٤: متحف تريبل: بيت التراب (كراسة). البقاع.
- وزارة السياحة، ٢٠٠٩: متاحف في لبنان (كراسة). الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- Annales de philosophie et des sciences humaines, 2011: Vol 27. Mémoire et Oubli. Pusek, Liban.
- BARKER R.G. 1968: Echological psychology: Concepts and methods for studying the environment of human behavior. Stanford, Stanford University press.
- BARKER R.G.; WRIGHT H.F., 1949: Psychological ecology and the problem of psyhosocial development. Child Development, 20, 131-143.
- BECHTEL R.B., 1987: Ecological psychology. In R.B. Bechtel and R.W. Marans (eds), Environmental and behavioral research (p. 191-215), New York, Van Nostrand Reinhold Co.

## الهـرأجـع

- BOURDIEU P., 2000: Les structures sociales de l'économie. Paris, Seuil.
- EIGUER, A., 2004: L'inconscient de la maison. Paris, Dunod.
- GIBSON B.D.: WERNER C., 1994: Airport waiting areas as the role of legibility cues in communicating the setting program. *Journal of Personality and Social Psychology*, 66 (6), 1049-1060.
- HALL E. T., 1985: Le langage silencieux. Paris, Seuil.
- ITTELSON W.H.; RIVLIN L.G.; PROSHANSKY H.M., 1970: The use of behavioral maps in environmental psychology. In H.M Proshansky, W.H. Ittelson & L.G. Rivlin (ed.). *Environmental psychology: People and their physical settings* (p. 658-668). New York, Holt, Rinchart and Winston.
- KENT S., 1991: Partitioning space: Cross cultural factors influencing domestic special segmentation. *Environment and Behavior*, 23, 438 - 473.
- KFOURY S., 1999: Maisons libanaises. Liban, Alba.
- MAALOUF Maguy, 2005: L'enfant Libanais vivant hors de sa famille; Une comparaison entre des enfants hébergés soit en Villages d'enfants soit en Institutions Sociales. In Robin, M & Ratiu, E. (Eds). *Transitions et rapports à l'espace*. Pp. 161-185, France, L'Harmattan.
- MARCHAND D., 2005: La construction de l'image d'une ville : représentation de la centralité et identité urbaine. In Robin, M & Ratiu, E. *Transitions et rapports à l'espace*. Pp. 243-272, France, L'Harmattan.
- MOSER G., 2003 : Questionner, analyser et améliorer les relations à l'environnement. In Moser, G. & Weiss, K. (Eds). *Espaces de vie; aspects de la relation homme – environnement*. (Pp 11-42). Armand Colin, Belgique.
- MOSER G., Uzzel, D.L. 2002: Environmental psychology. In *Comprehensive Handbook of psychology*, Vol 5: Personality and social psychology. (p. 419-446). New York, Wiley and Sons.
- ROBIN M. & RATIU E., 2005: *Transitions et rapports à l'espace*. France, L'Harmattan.
- ROBIN M., 2005: Le rapport à l'espace résidentiel des nouveaux parents en région parisienne. In Robin, M & Ratiu, E. *Transitions et rapports à l'espace*. Pp. 25-46, France, L'Harmattan.
- SERFATY-GARZON P., 2005 : Chez soi: Les territoires de l'intimité. France, Colin.
- WICKER A. W., 1987: Behavior settings reconsidered: Temporal stages, resources, internal dynamics, context. In D. Stokols & I. Altman (eds), *Handbook of environmental and psychology* (Vol. 1, p. 613-633). New York, Wiley and Sons.



## المجتمع المدنيّ ودوره في تنمية المتاحف

د. نزيه كباّرة<sup>(١)</sup>

### ملخص

تتناول هذه الورقة البحثية دور المجتمع المدنيّ في صون تراثه، وتبيّن إنجازاته المطلوبة التي استطاع تحقيقها في مدينة طرابلس، كما ترصد القوانين التي تحمي الممتلكات الثقافية وتنظّم إدارتها.

قد يبدو الحديث عن المجتمع المدنيّ ودوره في إنشاء المتاحف مستغرباً، بل مدعاة للسخرية في ظلّ الأوضاع المتردية التي تعيشها طرابلس، وفي ظلّ الحراك العربيّ الذي أطلق عليه اسم الربيع العربيّ. ولكنّ الحياه لا تتوقّف. وما لا يمكن تحقيقه اليوم، ممكن في المستقبل بوجود الوعي وإدراك الحاجة الى إنشاء متحف، بل متاحف، لأهميّة المتاحف في تجسيد حضارة الشعوب وإبداعها خلال التاريخ، ووجود الإرادة والعزم والتصميم. وهنا يبرز دور المجتمع المدنيّ بالتعاون مع البلدية ووزارة الثقافة والمنظّمات غير الحكوميّة وغيرها.

(١) الدكتور نزيه كباّرة: رئيس المجلس الثقافيّ للبنان الشماليّ، أستاذ متقاعد (الجامعة اللبنانية).

- وحتى لا يبقى الكلام في إطار التنظير، سأتناول في مداخلتني العناوين التالية:
- حاجة طرابلس إلى متحف وأكثر من متحف واحد؛
  - أنواع المتاحف؛
  - المجتمع المدني وإنجازاته في طرابلس؛
  - الإرهاسات الأوليّة من خلال السعي لجمع ممتلكات تراثيّة والمحافظة عليها؛
  - الخطوات اللازمة لإنشاء متحف (خارطة طريق)؛
  - جمعيّة العاديات بحلب نموذجًا.

### حاجة طرابلس إلى متحف وأكثر من متحف واحد

طرابلس مدينة تاريخيّة ومن أقدم الحواضر في العالم. فيها القلعة والأسواق القديمة والأبراج والحمامات والمساجد والتكايا والمدارس والكنائس والخانات... وتستحق أن يكون فيها متحف وأكثر. فالمتاحف تشكل عنصر جذب للسياح لأنّها تعكس حضارة الشعب وطريقة حياته وتطوّراتها عبر الحقب، فضلاً عن كونها وسيلة تثقيفيّة.

### أنواع المتاحف

المتاحف في العالم متعدّدة الأنواع والأسماء، منها: متحف الكائنات البحريّة، المتحف الحربيّ، متحف الحياة الاجتماعيّة، متحف الفنون التشكيليّة، متحف الآثار والمكتشفات الأثريّة، متحف العلوم الطبيعيّة، المتحف التاريخيّ، متحف المصنوعات الخزقيّة والزجاجيّة، متحف المصنوعات الخشبيّة، متحف الخطوط العربيّة... الخ والسؤال أيّ متحف يمكن إنشاؤه في طرابلس؟ وهل بمقدور المجتمع المدني أن يقوم بذلك؟

### المجتمع المدني وإنجازاته في طرابلس

للإجابة عن السؤالين السابقين نقول: لقد سبق للمجتمع في طرابلس - قبل ظهور مصطلح المجتمع المدني - أن حقّق إنجازات مهمّة، من الأمثلة عليها:

- مشروع جرّ مياه رشعين إلى طرابلس والميناء وزغرّتا، والإصرار على إنشاء مصلحة رسميّة لإدارته واستثماره بدلاً من تلزيمه لإحدى الشركات الفرنسيّة في عهد الإنتداب (١٩٣٤) وقد نجح في ذلك.
- مشروع إنشاء الملعب البلديّ في طرابلس أيام كان المحافظ نور الدين الرفاعيّ

رئيساً للبلدية، ومن طريق مساهمات الأهالي المادّية، أمكن إنشاء الملعب البلدي ومدرجاته، (من شراء أوراق اليانصيب التي رخص له باستعمالها).

- التجمع الوطني للعمل الاجتماعي ودوره خلال الحرب الأهلية: ممثلون عن الجمعيات الأهلية تداعوا لتشكيل تجمع، للقيام بمهام تأمين حاجات المدينة خلال الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٧٦) في غياب مؤسسات الدولة وإداراتها الرسمية. وقد نجح في ذلك واستمرّ قائماً حتى مطلع التسعينات.

- مشروع إنشاء المباني الجامعية في الهيكلية (مون ميشال). وقد شكّلت لجنة من ممثلين عن الجامعة اللبنانية ومن الجمعيات الناشطة، والنقابات. وتمكّنت من طرح الموضوع على المسؤولين وإقراره.

- مؤتمر «الانصهار الوطني والمتقفون». وهو المؤتمر الذي أقيم في العام ١٩٨٨ بجهود ١٢ جمعية ثقافية واستغرق تنفيذه حوالي الشهرين. ودارت محاور المؤتمر حول الموضوع التالي: (أي لبنان نريد؟) وخرج بتوصيات هامة.

- تحرك بعض ممثلي الجمعيات والروابط والأندية للاعتراض على كيفية تنفيذ بعض المشاريع في المدينة، أو على بعض الممارسات التي ليست في صالح طرابلس من قبل بعض الجهات الرسمية (مشروع سقف مجرى نهر أبو علي، مشروع ترميم وإعادة تأهيل سوق البازركان، مشروع الأوتوستراد الدائري وغيرها...)

### الارهاصات الأولى من خلال السعي لجمع ممتلكات تراثية والمحافظة عليها

وبموازاة هذه الانجازات، وفي الربع الأخير من القرن العشرين، جرت محاولات للمحافظة على تراث المدينة، والسعي لجمعه، ولعرض بعض عناصره. من هذه المحاولات التي يمكن عدّها إرهاصات بفكرة إنشاء متحف ما في المدينة، نذكر:

- إنشاء جمعية للمحافظة على التراث في العام ١٩٨٢. وقد أقامت معرضاً لبعض المكتشفات الأثرية في مركز رشيد كرامي الثقافي البلدي (قصر نوفل سابقاً)، ولكن الجمعية لم تستمرّ في نشاطها بل توقّفت (رئيسها د. أكرم الخطيب).

- إنشاء جمعية أخرى للمحافظة على التراث عام ١٩٨٠، وترأسها في حينه الأستاذ فضل المقدّم، واقتصر عملها على جمع بعض المحفوظات والمطبوعات القديمة، وانجزت عملاً واحداً هو نشر كتاب «تاريخ طرابلس الشام» لحكمت شريف يكن.

وقد حقّقه الدكتور منى يكن والأستاذ مارون عيسى الخوري. واسم الجمعية (رابطة إحياء التراث الفكرّي في طرابلس والشمال).

- إقامة معرض تراثي في مركز رشيد كرامي الثقافي البلديّ على هامش مهرجانات طرابلس التي جرت لأول مرّة بعد الأحداث ١٩٩٣ بهمة كاتب هذه السطور وبالتعاون مع بلدية طرابلس بشخص رئيسها آنذاك د. سامي منقارة. وقد ضمّ المعرض مجموعات قديمة من الأسلحة والمحفوظات والنقود والمسكوكات المعدنية والورقيّة، ووثائق عثمانية، وملبوسات وصور قديمة وأدوات منزليّة وأدوات صنع الطرايش وغيرها. وقد افتتح المعرض وزير الثقافة آنذاك الأستاذ ميشال إدّة.

- من خلال جمعية طرابلس السياحية التي أنشئت في العام ١٩٩٩، وكان رئيسها رئيس البلدية السابق العميد سمير شعراي، جرى التفكير بترميم حمام النوري وتأهيله وتحويله إلى متحف تراثي - وهو تحفة معماريّة فريدة - لم تنجح الفكرة لبروز مشاكل تتعلق بملكيّة الحمام (ملك الأوقاف الإسلاميّة).

- في السبعينيّات من القرن الماضي، قامت جمعية التضامن الاجتماعيّ التي كان يرأسها الدكتور وهيب نيني، وضمّت عددًا من الشخصيات المهتمّة للشأن العام، وبالتعاون مع المجلس الوطنيّ لإنماء السياحة، بتأهيل الحمام الجديد وتجهيزه وتمّ افتتاحه. غير أنّ الجهود ذهبت هدرًا وبلا طائل، بسبب احتلال عصابة أحمد القدور للحمام في مطلع السبعينيّات، ولم يخرج منه إلا بمحاصرة الجيش اللبنانيّ له، واعتقاله وزجّه في السجن.

- أثناء زيارة وزير الثقافة السابق الدكتور غسان سلامة للرابطة الثقافيّة، للاجتماع بالهيئات الثقافيّة في طرابلس، والتداول معها في ما يمكن عمله على الصعيد الثقافيّ، طرحت فكرة إنشاء متحف للحياة الاجتماعيّة القديمة في طرابلس، مستوحيا ما رأيته في شنغهاي في الصين. وذلك في أحد أجنحة قلعة طرابلس. فلم يوافق الوزير على الفكرة بحجّة أنّه لا يجوز «دقّ مسمار» في جدار القلعة، وانتهى الموضوع عند هذا الحدّ.

- إقامة معرض صور بالتعاون بين المجلس الثقافيّ للبنان الشماليّ ومؤسسة الصفدي في شباط من العام ٢٠١٠. وضمّ المعرض ١٣٥ صورة لأهمّ الأحداث

والشخصيات خلال القرن العشرين. واشتمل المعرض على كتاب توضيحي وزّع على زوّار المعرض.

يبدو من خلال هذه الأمثلة الواقعية أنّ فكرة جمع تراث المدينة وعرضه والمحافظة عليه لم تكن غائبة عن بعض المهتمين للشأن العام من المجتمع المدني. من هنا، يمكن التفاؤل بأنّ السعي لإقامة متحف في المدينة وربما أكثر من متحف سيلاقي صدى إيجابياً وتأيداً. هذا ما نأمله.

في ضوء ما تقدّم يطرح السؤال. ما الخطوات التي يجب القيام بها لإنشاء متحف أو أكثر من متحف في طرابلس؟

### الخطوات اللازمة لإنشاء متحف (خارطة طريق)

إنّ الخطوات المطلوب اتخاذها لإنشاء متحف في طرابلس هي التالية:

- اقتناع المجتمع المدني بأهمية إنشاء متحف وأكثر من متحف. وأعتقد أنّ هذا الأمر متوفّر.

- العمل على إنشاء جمعية أصدقاء المتحف وهذه الجمعية من المستحسن أن تضمّ، في البدء على الأقلّ، عناصر موثوقة ومؤهلة ومتحمّسة لتنفيذ المشروع، من أصحاب الاختصاصات التالية: علم الاجتماع، علم التاريخ، علم الآثار، القانون، أستاذ على الأقلّ من مركز الدراسات العليا المتخصّصة في الترميم والحفاظ على الأغراض والمواقع التاريخية - ممولّين لدعم الجمعية ونشاطاتها، متطوّعين من الشباب ومهتمين...

- تقديم طلب إلى مديرية الممتلكات الأثرية المنقولة (التابعة لوزارة الثقافة) لإيداء الرأي في إنشاء المتحف، بعد تحديد نوعه.

- في حال الرأي الإيجابي، العمل على إبلاغ وزارة الداخلية بإنشاء الجمعية - حسب الأصول.

- اختيار أحد المباني الأثرية في المدينة بالتشاور مع إدارة مركز الدراسات العليا المتخصّصة في الترميم... والسعي لتأهيله ليكون صالحاً كمتحف.

- الاستفادة من التحديد شبه الشامل الوارد في القانون رقم ٣٧ تاريخ ١٦/١٠/٢٠٠٨ للممتلكات المنقولة (يراجع الملحق) وللماكنات التي ينتجها



هذا القانون في مجال إدارة الممتلكات الثقافية وحمايتها حيث نصّت المادة ٣ فقرة ٣ منه على الآتي:

- « يمكن لوزارة الثقافة أن تعقد اتفاقيات مع بلديات أو مؤسسات عامة أو جمعيات لا تتبغى الربح لإدارة هذه الممتلكات، على أن تصدّق هذه الاتفاقيات بموجب قرارات تصدر عن مجلس الوزراء» .

- كما نصّت المادة ١٧ من القانون رقم ٣٥ تاريخ ١٠/١٠/٢٠٠٨ (تنظيم وزارة الثقافة) على صلاحيات مديرية الممتلكات الأثرية المنقولة، وفيها هاتان الفقرتان:

- إبداء الرأي بشأن الطلبات المقدمة لإنشاء متاحف خاصة للآثار والتراث.

- التعاون مع إدارة المتاحف في سبيل الاستفادة القصوى من مجموعات المديرية في المتاحف الأثرية المعتمدة.

- دعوة الأهالي الذين يمتلكون أشياء تراثية لتقديمها إلى المتحف على أن يذكر تحت كلّ من الممتلكات اسم الشخص أو الهيئة التي قدّمته.

- التعاون مع البلدية، لا سيّما في مجال تعيين الموظفين اللازمين لإدارة المتحف وصيانته وخدمته، علماً أنّ قانون البلديات ينصّ على أن من صلاحية المجلس البلديّ إنشاء المتاحف.

### جمعية العاديات بحلب نموذجاً

تأسست جمعية العاديات في العام ١٩٢٤ وكان الدافع الى تأسيسها سرقة محتويات قلعة حلب في عهد الانتداب. فلقد تداعى أبناء المدينة إلى تأسيس جمعية تحت اسم «جمعية أصدقاء القلعة». ولما كان هناك مسعى لإنشاء متحف في بهو القلعة، فقد أصبح اسم الجمعية «جمعية أصدقاء القلعة والمتحف».

بدأت الجمعية تتلقّى التبرّعات لتطوير عملها. وشرعت تصدر النشرات الأثرية وتقوم بالرحلات وتنظيم المحاضرات. وأثمرت مساعيها عن صدور القرار ١٣٦ لعام ١٩٢٦ القاضي بإنشاء متحف حلب. ثم تمّ تعديل اسم الجمعية بحيث صار «جمعية العاديات». والمقصود بالعاديات الأشياء الموغلة في القدم. فكأنها من أيام قبيلة عاد المنقرضة.

### غاية الجمعية

السعي لجمع ما تيسّر من الآثار والعاديات وحفظها في متحف حلب والاهتمام

بترميم الآثار الخرية والمتداعية حفظاً لها من الاندثار لا سيّما قلعة حلب.  
التوسّل بكلّ وسيلة لدى الحكومتين الوطنيّة والمنتدبة لتوسيع نطاق حركة السياحة  
في سورية الشماليّة وتشويق السياح وتنشيطهم لزيارة آثار هذه الجهة التاريخيّة.

#### نشاط الجمعية

يغطي نشاط جمعية العاديات أكثر أراضي الجمهوريّة العربيّة السوريّة. ولها فروع  
نظاميّة مرتبطة بالمقرّ الأمّ في حلب.

#### أعضاؤها

تضمّ الجمعية في حلب أكثر من ٢٥٠٠ عضو منذ نشأتها وحتى اليوم (١٩٩٩) أي  
بعد ٧٥ سنة على إنشائها. وهم موزعون على الشرائح الاجتماعيّة التالية:

- أكثر من ٤٥٠ أستاذاً جامعياً
- أكثر من ٣٥٠ من رجال القانون بين قاضٍ ومحام
- أكثر من ٢٠٠ طبيب من اختصاصات مختلفة
- أكثر من ٤٠٠ من حملة إجازات التعليم: لغات، تاريخ، فلسفة، علوم....
- أكثر من ٢٥٠ من حملة شهادة الاقتصاد من تجّار وموظفين.
- عدد كبير من الفنّانين والإعلاميين وأصحاب الفعاليّات المختلفة. وتعتبر جمعية  
العاديات بحقّ الوجه الثقافيّ والتراثيّ لمدينة حلب وللقطر العربيّ السوريّ.

#### البرنامج الثقافيّ للعام ٢٠٠٢ كنموذج لنشاطها

في البرنامج المنشور خمس وخمسون محاضرة في موضوعات ثقافيّة مختلفة، أذكر  
منها ما له علاقة مباشرة بالمتاحف والآثار:

#### - رقم المحاضرة

- ١١- الحفاظ على التراث الحضاريّ في المواقع الأثريّة (بالتعاون مع نقابة المهندسين)؛
- ١٢- الاستثمار السياحيّ للآثار؛
- ٢٢- تطوّر السكن من المغارة إلى العمارة؛
- ٢٥- المسكوكات العربيّة الإسلاميّة وتطوّرها؛
- ٣٣- دور الكيمياء في الكشف عن الآثار وحفظها؛
- ٤٤- المشربيّة وشاعريّة المكان؛

٤٧ - أسواق حلب: التبدلات الطارئة والتغيرات المرتقبة الأثرية ( بالتعاون مع نقابة المهندسين)؛

٥٢ - الخلفية التاريخية لعلم الأتروبولوجيا.

- ملحق

من القانون رقم ٣٧ تاريخ ١٦/١٠/٢٠٠٨ (الممتلكات الثقافية)

المادة ١: الممتلكات الثقافية نوعان:

- غير المنقولة: الأماكن والمواقع الأثرية (فلاع - حصون - كنائس - مساجد)

- الممتلكات المنقولة: وهي التي تكون تعبيراً عن الإبداع البشري أو شاهداً على تطوّر الطبيعة والتي تكون لها قيمة أو أهميّة أثرية أو تاريخية أو فنيّة أو علمية أو تقنيّة، سواء أكانت دينية أو مدنيّة.

وعلى سبيل المثال:

نتائج أعمال التنقيب والحفريات الأثرية الأرضية والتي تجري تحت سطح الماء.

الأشياء الأثرية والتراثية: الأدوات والأواني الفخارية والمعدنية والنقوش وقطع النقود والأختام والمجوهرات والأسلحة والمخلفات الجنائزية.

الممتلكات التي تتعلّق بالتاريخ بما في ذلك تاريخ العلوم والثقافات والتاريخ العسكري والاجتماعي، وبحياة الشعوب وحياة الزعماء والمفكرين والعلماء والفنانين الوطنيين، وبالأحداث الهامة التي مرّت بها البلاد.

- الممتلكات ذات الأهميّة الفنيّة مثل: الصور واللوحات والرسوم المصنوعة كلياً باليد، أيّاً كانت المواد التي استخدمت في صنعها، أو الركيّزة التي نفذت عليها. أعمال النقش والوشم estampes والصور الفوتوغرافية والملصقات الإعلانية وما إليها.

- أعمال النحت أيّاً كانت المواد التي استخدمت في صنعها.

- نماذج فريدة من منتجات الفنون والحرف التقليدية المصنوعة من مواد مثل الزجاج والخزف والمعادن والخشب والجلد والقماش وغيرها.

- الأفلام السينمائية وسائر الأشرطة المسجّلة بالصوت أو بالصورة أو كليهما معاً.

القطع ذات الأهميّة كمجموعات النقود والميداليات والطابع البريدية والمالية.

- القطع ذات الأهمية: من الملابس والأثاث والنجود والبسط والسجاد والآلات الموسيقية.
- المحفوظات والمجلدات والمدونات المحفوظة والكتب المطبوعة.
- وثائق المحفوظات بما في ذلك النصوص المكتوبة والخرائط والصور الفوتوغرافية، والأفلام السينمائية، والتسجيلات الصوتية، والتسجيلات متعددة الثقافات والوثائق المحوسبة.
- القطع والنماذج والمجموعات الجيولوجية والنباتية والحيوانية النادرة أو التي تعبر عن تطوّر البيئة المادّية.
- المنشآت والمباني المخصّصة بصفة رئيسة لعرض الممتلكات الثقافية المنقولة مثل المتاحف والمكتبات ومستودعات التحف والمحفوظات وما إليها.
- إدارة الممتلكات الثقافية وحمايتها
- المادة ٣ فقرة ٣:
- «يمكن لوزارة الثقافة أن تعقد اتفاقيات مع البلديات أو مؤسسات عامة أو جمعيات لا تبغى الربح لإدارة هذه الممتلكات، على أن تصدق هذه الاتفاقيات بموجب قرارات تصدر عن مجلس الوزراء».
- من القانون رقم ٣٥: تنظّم وزارة الثقافة - تاريخ ١٠/١٠/٢٠٠٨:
- المادة ٥: تخضع لوصاية الوزير كلّ من:
  - المكتبة الوطنية
  - الهيئة العامة للمتاحف
  - المعهد الوطني للموسيقى
- المادة ١٧: من صلاحيات مديرية الممتلكات الأثرية المنقولة فقرتان:
  - إبداء الرأي بشأن الطلبات المقدّمة لإنشاء متاحف خاصّة للآثار والتراث.
  - التعاون مع إدارة المتاحف في سبيل الاستفادة القصوى من مجموعات المديرية في المتاحف الأثرية المعتمدة.



«التاريخ يكتب للسلطة الحاكمة،  
والسلطة لديها العسكر والمال...  
أمّا الذاكرة فيكتبها الفقراء»

الأستاذ جان حجار<sup>(١)</sup>

## ملخص

تتطرق هذه الورقة لموضوع الذاكرة وعلاقتها في تطوير العمل لبناء تنمية تشبه الناس فيما هم وما يريدون أن يصبحوا عليه وليس فقط ما أراد لهم الممولون والخبراء والسياسيون... أردت أن أقول «الشركاء». ولكن قبل ذلك أودّ أن أتوجّه بالشكر لمنظّمي هذا المؤتمر وخاصة الدكتورة مها كيبال التي شرفنتني بالدعوة ولللقاء مداخلتني أمامكم وأتمنّى أن تكون مساهمة بناءة في عملية التفكير والتعلّم المشترك الذي يصبو إليه هذا اللقاء.

أريد أن أتوجّه بالشكر العميق والمحبة الصادقة إلى كلّ المناضلين والمناضلات الذين تعلّمت معهم في المغرب وفلسطين وفرنسا... وخاصة الأخ يوسف حجي ولطيفة وكريمة عبد الجليل... وكلّ الشباب والنساء إن في أزقة المدن أو في السجون أو في الأرياف البعيدة...



في الواقع فإنني تفاجأت كثيراً عندما عدت للعيش في لبنان بعد إحدى عشرة سنة في المملكة المغربية، بأنّ الجمعيات في بلد «المجتمع المدني والنضال الاجتماعي» أي لبنان، أضحّت، وبأغلبها مشاريع متعدّدة ومتفرّقة تماشى إرادة الممولّ الخارجي أو

الطرف السياسيّ الذي «تبخر له صورة زعيمه»، وأمست مكتنّظة «بالمستفيدين» وشبه خاوية من الرؤية النضاليّة والمتطوّعين. الجميع عنده صفة الخبير والمدرّب وأغلب رؤساء أو رئيسات الجمعيات «يسوق» للمشروع الذي ينفّذه بأنّه يحصل للمرّة الأولى، فالغالبية «أولى»، وأنا أتمنّى أن ألتقي ببعض الذين يعتبرون أنّهم «ثاني»، وهنا تكمن قضيتنا في إعادة الاعتبار لذاكرة التنمية الغنيّة والنضال الاجتماعيّ في لبنان. كيف لا يكون هذا هو منطق الواقع وجمعياتنا لم تتجرّأ على أن تكتب ذاكرة الحرب كي تساهم في تخطّي المجتمع لها والتعلّم منها... بناء المستقبل لفهم الحاضر بطريقة نقدية لن يحصل من دون كتابة الذاكرة: ذاكرة الناس وليس تاريخ المتحاربين.

إنّ أيّ تنمية لا تراعي البعد الثقافيّ للإنسان لا تستطيع أن تبلّغ مبلغها من الناس، ولا أن تحقّق أيّاً من مطالبهم السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. إذ البعد الثقافيّ في المقاربة التنمويّة ركيزة أساسية تمكّن الناس من توسيع نطاق خياراتهم، وممارسة مواهبهم وطموحاتهم، من دون الإحساس بالتضييق والإكراه.

## التنوع الثقافيّ مدخل للسلام الاجتماعيّ

إنّ قضية السلام قضية محوريّة في عملية التنمية المستدامة، فالتنمية تحتاج إلى مناخ من الاستقرار والأمن، فلا يمكن أن نتحدّث عن مناخ ملائم وجوّ من الاستقرار السلميّ، إلّا في ظلّ إقرار حقيقيّ بحقّ كلّ إنسان أن يعبر عن مكوّنات ثقافته والغنى في تركيبته الثقافيّة.

## التنمية والمقاربة الشاملة

هناك علاقة وثيقة بين المكوّن الثقافيّ، وبين التنمية البشرية وفق المنظور الجديد لمفهوم التنمية، المتجاوز للأفق الاقتصاديّ الضيّق.

بات مسلّمًا الآن أهميّة العمل على صياغة وبلورة وبناء نموذج تنمويّ حضاريّ مستقلّ في مفاهيمه ووسائله يجسّد كلّ المعطيات الخاصّة بالمكوّنات القيمية والاجتماعية والتراثية والثقافية ويلبّي تطلّعاتها وطموحاتها نحو النهوض الحضاريّ. من هنا تبدو أهميّة ارتباط التنمية بالهوية الحضارية.

وخلاصة ما سبق أنّ التنمية هي عملية شاملة لمختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقّق رفاهية الإنسان وكرامته، والتنمية أيضًا بناء للإنسان وتحرير له وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته للعمل البناء، والتنمية كذلك اكتشاف موارد المجتمع وتميئها والاستخدام الأمثل لها من أجل بناء الطاقة الانتاجية القادرة على العطاء المستمرّ.

الهدف الرئيس من كتابة الذاكرة : «استماع وصياغة جماعيان إلى ذاكرة جماعية هي جزء من ذاتنا الجماعية طالها النسيان، نحن مطالبون برعايتها والإنصات إليها ومن ثم إعادة انتاجها لبناء الحاضر والمستقبل». دورنا في مشاريع كتابة الذاكرة هو أن «نقوّي صوت ضجيج الناس الذي يهمس في زوايا حياة المجتمعات المهمشة». إنّ مشاريع كتابة الذاكرة الجماعية تستوجب استحضار التاريخ غير المعبر عنه والتمثّلات التي تدور حول التاريخ المعبر عنه .

في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة في فترة التسعينيات وحتى يومنا هذا، اتخذت إشكالية الذاكرة ومختلف رهاناتها مركز الصدارة في التنمية الثقافية والاجتماعية. إذ شكّلت محور اهتمام الهيئات المدنية والفكرية.

في مختلف مجالات العلوم الإنسانية، ساهمت العديد من المنشورات في العقود الأخيرة، بتغيير مفهوم الذاكرة والإدراك المرتبطة بها، وسلط الضوء على أهميتها الأساسية في تطوّر الهويات الفردية والجماعية، وبناء الشخصية.

إذا كانت وظيفة الذاكرة تتمحور حول بناء الحاضر، وما يمكن تصوّره للمستقبل، فإنّ التطوّر الحاصل في هذا الإطار يشمل البعد السرديّ والتكوين لنظم القيم الاجتماعية والثقافية في المجتمع.

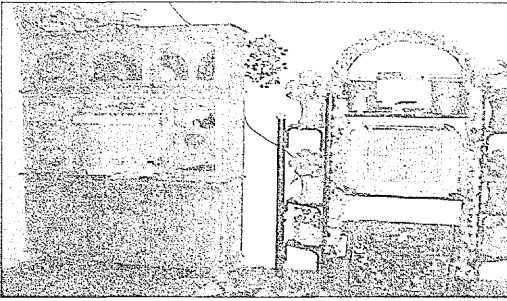
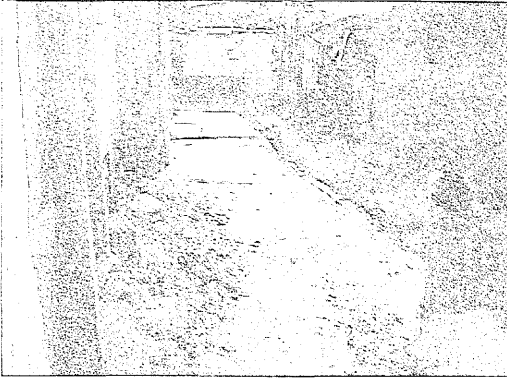
إنّ كتابة الذاكرة تلامس أسس المعاش الماضي بترابط مع الحاضر والمستقبل، كما تبني الإقرار للتمثّلات حول الواقع في فترة زمنيّة محدّدة. أي سؤال حول الذاكرة يقود المرء إلى هناك حقيقة ما، أو على الأقل، تصوّر حول الحقيقة الكامنة في الخطاب المعبر عنه في تلك الفترة.

حاليّاً، تشكّل ورش عمل الكتابة حالة «موضة» في كلّ مكان، وفي جميع مناحي الحياة. عندما بدأنا ورش عمل للكتابة، لم تكن هذه حالتنا، وخصوصاً في «عالم الشارع»: السجناء، الأحياء الفقيرة، مراكز الحماية الاجتماعيّة في أفقر المدارس، مع السجناء والمعتقلين، السياسيّين السابقين، النساء المتعلّقات والشباب اللواتي والذين يعيشون صعوبات في التعلّم / نحو أميّة - دعم مدرسيّ، مغنيّ الراب في المناطق المحرومة والمهمّشة، الحرفيّين، الفتيات المعرّضات للخطر... ولدت لدينا ورش العمل نتيجة "تلاقي المصلحة" مع واقع تهميش اجتماعيّ معيّن مع إمكانيّات التغيير والتطوير الفرديّة والجماعيّة.

في الواقع، تمّ إيجاد هذا الفضاء للملاءمة في استيعاب الحوار والتبادل، لصياغة وتنفيذ مشروعنا كإطار مؤسس لممارسات «جديدة» في بناء عمليّة التغيير. وقد تمّ ذلك استناداً إلى سيرورة مهنيّة موجهة لتنشيط وتفعيل ورش عمل الكتابة. اقترحت الموضوعات بشكل تشاركي، ولكن العمل لم يقتصر على التعبير عن المواضيع، بل تعدّاه إلى «أشكال الكتابة» بحيث يمكن لأيّ شخص أن يجد نفسه في ما يكتب ويعبر عنه. وسرعان ما أصبحت كتابة حلقات العمل مكاناً للفرد وللمجموعة في آن. وتلقائيّاً أضحت ورش عمل الكتابة مكاناً للبحث والمتعة لأولئك الذين يستمتعون بالكتابة أو يرغبون في تطوير كتاباتهم، وذلك رغم الصعوبات للقيام بذلك عند البعض. وليس هناك من تقسيم حسب المستويات داخل ورشة العمل الواحدة، فالكلّ «يحاول» التعبير عبر الكتابة، يقول باولو فريري: «أنا أحاول، فإذا يحقّ لي الانتظار»: يتمّ وضع الجميع في موقع واحد «نتعلّم ونعلم» فيكشفون معاً مختلف أشكال الكتابة، في مجالات مثل الذاكرة، الواقع المعاش أو المتخيّل.

وحيث نتخطّى وطأة صعوبات الحياة اليوميّة، تبدأ وتتواصل حقيقة التعبير الحرّ وإظهار المكونات وبلورتها من خلال أنشطة الكتابة التي توفّر فرصة لتحقيق الأهداف





المشتركة والمسطرة في المشروع:  
فرصة أن نقدم من ذواتنا وتشارك  
المعرفة المشتركة لبنني الواقع  
الذي نصبو إليه... أوليس هذا  
هو الهدف الأساس من التنمية؟  
وذلك بدلاً من التمسك بصورة  
المهمش، أو الفقير، فإننا نصبح على  
صورة "الكاتب" الذي يعطي،  
يقترح على الآخرين وعلى نفسه،  
فتتبدل الصورة عن الذات وفي  
الوقت نفسه نكتشف آفاقاً جديدة  
ونبدع. تجدر الإشارة هنا، إلى أننا  
لاحظنا أنّ الكثير من الآثار النفسية  
السلبية كالانطوائية أو العدائية

مثلا، تخفّ وطأتها وتكاد تضحلّ، والتي تشكّل أساساً الموانع الرئيسة لبناء الشخصية.  
كما أصبحت الصورة الجديدة تساعدهم على تخطي الكثير من رواسب تربوية وسلوكية  
نتيجة لحياتهم اليومية (مثال الشمكاراة، وأطفال مخيم العين/ مشاريع توفير الدخل من  
خلال بيع الكتب بلغات عدّة ضمن الاقتصاد التضامني). هنا نشدّد على أنّ شروط التعلّم  
تصبح بيد المتعلّم الذي يسعى لإبداع أشكال وأنماط متجددة، بدلا من التلقّي السلبي  
المتمحور حول التكرار، وغالبًا تكرار الخبرات الفاشلة... اليوم يتعامل الفرد مع الفشل  
«كمحاولة نجاح غير مكتملة».

إنّ أهمّ ما يميّز غالبية الشباب الذين التقيناهم، هو أنّ هذا النوع من العمل حرّك  
الإنسان الموجود في داخلهم. الشريحة الأكبر تعيش مجموعة من الصعوبات والفشل  
(العاطفي، الأكاديمي، المهني...)، والمشاكل الصحية (الجسدية والنفسية)، والاندماج  
الاجتماعي (نقص أو عدم التدريب، الخارجين من السجن أو مراكز استشفاء وتأهيل من  
مشاكل تعاطي كحول، مشاكل نفسية، مدمني مخدرات...).



وتأتي مشاريع التنمية الخاصّة بهؤلاء الشباب محصورة في عمليّة المساعدة والدعم الماديّين في أحسن الأحوال، وتلامس بشكل خجول قضيّتي العمل والسكن، وبالتالي فهي لا ترقى إلى الحدّ الأدنى من تطلّعاتهم من جهة، وتكرّس «الصورة والصيت» داخل الجمعيّة والمجتمع. في الواقع،

مشاكلهم هي أكثر وجوديّة منها ماديّة، ولكنّ تأنيب الضمير الجماعيّ يشعر القائمين على البرامج التنمويّة وحتى الجمعيّات بأنهم مجبرون على القيام بشيء ما للناس، فيكتفون بشعارات تنمويّة باطنها شفقة أو «كرسيّ في اللجنة» على حساب الناس.

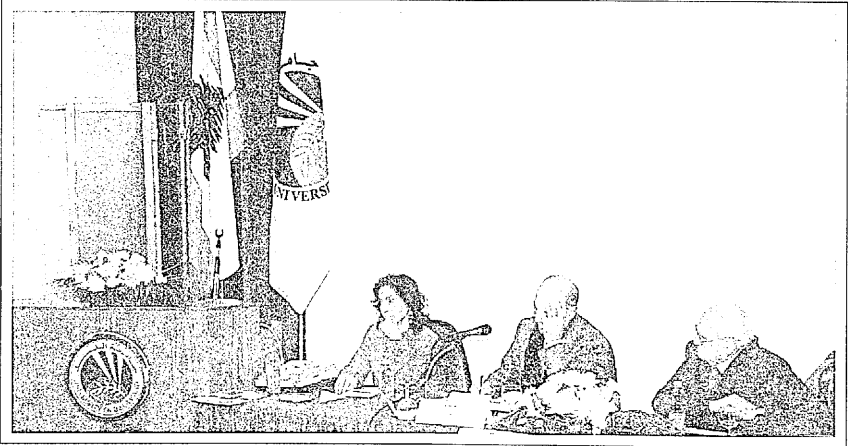
إنّ طريقتنا في العمل مع هؤلاء الناس تدور حول الشقّ العلائقيّ، وبالتالي تنصب جهودنا للذهاب أعمق وإظهار القدرات الكامنة، المنسيّة أو غير المدركة، عبر استنباط باطن ذاكرتهم الفرديّة والجماعيّة، والتكامل بينها، تمهيداً لإعادة الاعتبار للناس كذوات اجتماعيّة كاملة، أنتجت الكثير من الإيجابيّات في الماضي وما تزال قادرة على إعادة الكرّة اليوم وغداً. ولا سيّما من خلال أنشطة (مؤتمرات، مناقشات، اجتماعات، حفلات، المناسبات، النشرات الصحفيّة، ورشة عمل الكتابة، مقاهي الذاكرة،...) . الكتابة هي نشاط من بين الكثير من الأنشطة، جميعها تتكامل ضمن سيرورة العمليّة التنمويّة (مثل دوار الحجر، الحيّ المحمديّ، من الأميّة إلى الابداع، أصوات شابّة من خلف القضبان/ منتدى شهرزاد).

تشكّل مشاريع كتابة الذاكرة إمكانيّة لتخفيف ثقل الماضي بكلّ أشكال معاناته ولإعادة الاعتبار للمنجزات واستثمارها في تطوير الحاضر وبناء المستقبل. ضمن هذا النهج التشاركيّ يكون العمّال الاجتماعيّون والفاعلون المدنيّون منخرطين بفاعليّة في اختيار المواضيع، والصياغة وتقديم العمل بشكل محترف. لذلك، فإنّ قضيّة التدريب المستمرّ للتعليم وتحسين المهارات المهنيّة لا يمكن أن تكون «مرتجلة» في أغلب الأحيان وحسب طلب الممولّ. كما تجدر الإشارة إلى ضرورة اندماج الجامعة، وخاصّة معاهد

العلوم الاجتماعية في هذه السيرة لضمان نوعية العمل وتطوير الدراسات والأبحاث حول المنتجات المكتوبة. وفي النهاية أودّ التشديد على أهميّة وجود وتفعيل «المراصد الثقافية» وأهميّة أن تكون «مستقلة» عن «سلطة المال والسياسة» لضمان مصداقيتها ودورها.

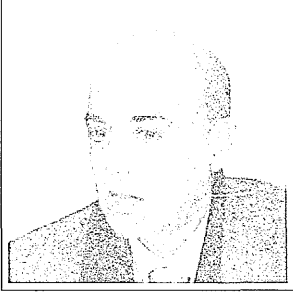
الجلسة الختامية

# اقتراحات لبناء شراكة مؤسسية هدفها الرصد الثقافي والتنمية الثقافية المستدامة



أدار النقاش وصاغ الاقتراحات

الدكتور علي الموسوي  
(الجامعة اللبنانية)



## منطلقات واقتراحات إدارة النقاش وصياغة المقترحات

د. علي الموسوي<sup>(١)</sup>

- انعقد مؤتمر «المرصد الثقافي وسياسة المتاحف»، بتنظيم من معهد العلوم الاجتماعية (الفرع الثالث) في الجامعة اللبنانية وبالتعاون مع جامعة البلمند، طيلة أيام ثلاثة وأقيمت فيه ٢٦ محاضرة. وقد تمحورت محاضرات المرصد الثقافي حول:
- الرصد الثقافي وأهميّة الشراكة المؤسّساتيّة
  - التصنيفات النظرية والإجرائية لمواضيع الرصد الثقافي
  - طرق وتقنيات الرصد الثقافي
  - و محاضرات سياسة المتاحف حول:
  - المتاحف وطرق إدارتها
  - البناء المتحفّي وكيفية حفظ وصون المادّة المتحفّيّة
  - المتحف والذاكرة

(١) الدكتور علي الموسوي: أستاذ التنمية في الجامعة اللبنانية، له العديد من المؤلفات والدراسات البحثية [aamouss@hotmail.com](mailto:aamouss@hotmail.com)

توصّل المجتمعون في مسار أعمال المؤتمر إلى التأكيد على منطلقات عامّة، كما حدّدوا في الجلسة الختامية بعض الاقتراحات الإجرائية التي تساعد على إطلاق المرصد الثقافيّ في بلديات اتحاد الفيحاء ووضع موضع التنفيذ:

### منطلقات عامّة

- التأكيد على دور المجتمع المدنيّ وعلى مبادرته في التصديّ للموروث الثقافيّ.
- التأكيد على التشبيك والتعاون محليّاً ووطنياً وعربياً ودولياً، بما يخدم الرصد الثقافيّ وبناء وإدارة وحفظ المادّة المتحفية.
- وعي إشكالية الرصد الثقافيّ في مجتمع متنوّع والعمل على إبراز القيم والممارسات الثقافية المبلورة للهوية الوطنية والمرتبطة بالتاريخ الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ.
- وعي أهميّة العلاقة بين الرصد الثقافيّ والتنمية البشرية المستدامة.
- وعي أهميّة الربط بين الرصد الثقافيّ والبحث العلميّ.
- الانطلاق من تجربة المرصد الثقافيّ في مدن الفيحاء في مشروع رائد لمرصد ثقافيّ على مستوى المناطق اللبناية كافة.

### اقتراحات

في البعد المؤسسيّ:

- ضمّ المرصد الثقافيّ إلى مرصد البيئة والتنمية القائم في اتحاد بلديات الفيحاء، وهي خطوة تسرّع في إطلاق المرصد، وتؤمّن رزمة من العلاقات الضرورية لتسهيل إطلاقه واستمراريّة عمله (تؤمّن العلاقة بين المرصد والاتحاد البلديّ، والتي بدورها تسهّل العلاقة مع المؤسسات الحكومية من جهة ومع المؤسسات الدولية من جهة ثانية).

- تشكيل هيئة تأسيسية خاصة بالمرصد الثقافيّ وسياسة المتاحف من ذوي الاختصاص (المكتسب علمياً أو بالخبرة) بالموضوعات المتنوّعة الأساسية التي يشملها الموروث الثقافيّ، ومن بينها موضوعة الذاكرة الجماعية. على أن تمارس عملها من خلال لجان متابعة للمرصد الثقافيّ (مثلاً إمكانية تشكيل لجنة للرصد الموسيقيّ الميدانيّ، على أن تتشكّل من متخصصين علميين موسيقيين، لوضع الهيئات لكيفية القيام بعملية

الرصد السليمة من دون أن ينقص شيء من المادّة المرصودة ليصار إلى توظيفها في المرصد علمياً وعملياً وإعلامياً إلخ..).

- ربط المرصد الثقافيّ بمركز أبحاث يهتمّ بالقضايا النظرية الثقافية وعلاقتها بالتنمية، ومن مهامّه الأساسية تحديد الموروثات الثقافية.

- الاستفادة من التجربة السينماتوغرافية بما يخصّ الأفلام الاتنوغرافية حول التراث المادّي واللامادّي والعمل على نشرها على المستوى الجامعيّ، والسعي لإيجاد تمويل للمختبرات السمعية المرئية للتصوير والمونتاج وللتجديد الدوريّ في هذه التقنيّات.

- تفعيل بروتوكول التعاون الموقع بين الجامعة اللبنانية واتحاد بلديات الفيحاء بما يخدم إقامة المرصد وتشغيله.

- تفعيل البروتوكول بين الجامعة اللبنانية وجامعة البلمند وتوسيعه ليشمل الجامعات الأخرى الموجودة في الشمال ومؤسّسات أخرى مهتمّة (IFPO و UNESCO مثلاً) وتطويره ليشمل الجوانب الثقافية التي يطرّحها المؤتمر.

- التعاون مع البلديات والعمل معها من أجل بناء متحف المدينة وإقامة متاحف شعبية متنوّعة ومتخصّصة، والاهتمام بإيجاد الصيغ الكفيلة بتأمين ديمومة المؤسّسات المنشأة.

- السعي لإنشاء فرقة أو أكثر في الإطار التراثيّ في طرابلس (من أبناء طرابلس أو مع خارجها) تعنى في تقديم الأمسيات الموسيقية التراثية. وكذلك لإنشاء فرقة لعرض المسرحيات ذات الطابع التراثيّ والرقصات التراثية إلخ..

في البعد التربويّ:

- العمل على تأسيس اختصاص «التراث الشعبي» (الفولكلور) والعمل على تخريج اختصاصيين في المجال.

- تنظيم حلقات دراسية وورش عمل حول «المؤشّرات الثقافية للتنمية» وحول التراث الشعبيّ في مدن الفيحاء والشمال اللبنانيّ من أجل جذب اهتمام السكان عموماً، والشباب خصوصاً، بالتراث الشعبيّ.

- البناء على التراث الثقافيّ الدوليّ والعربيّ والمحليّ والاستفادة من كلّ ما أنجز في هذا الصدد (وخصوصاً التجربة المصرية وأبحاث الطلاب إلخ).

- العمل على إقامة تعاون بين البلدان الثلاثة المشاركة تونس ومصر ولبنان، والعمل للحصول على شراكة مع اليونيسكو، أو اليوروميد لتنظيم تبادل أساتذة مختصين وطلاب من البلدان الثلاثة سواء للتخصص أو للتدرّب في ثلاثة مجالات تراثية متكاملة:

- تونس: يمكن أن تدرس المحافظة الوقائية والعلاجية والترميم وكذلك الهندسة التراثية.

- مصر: يمكن أن تدرس التراث اللاماديّ أي الفولكلور طرق جمعه وجرده أو خزنه...

- لبنان: يمكن أن يدرس التصرف في هذا التراث والسياحة الثقافية أو كيفية استقطاب الجمهور المحليّ والأجنبيّ وقانون المتاحف.

- تأسيس لجنة في المرصد الثقافيّ هدفها التنسيق بين المدارس والمتاحف لتحسيس التلامذة بأهميّة الفنون الثقافية على أنواعها، والعمل على إقامة توأمة بين مؤسّسة ثقافيّة في إحدى مدن الفيحاء (أو الشمال عمومًا) مهتمّة بالتراث وبالمروروث الشعبيّ وبين مدارس مدن وبلدات وقرى الشمال.

- تحويل دور المتاحف عمومًا، والمتاحف الشعبيّة خصوصًا، إلى دور تربويّ عبر تشجيع تلامذة المدارس بالذهاب إليها.

- تشجيع التلامذة والطلاب على جمع بعض مواد المروروث الشعبيّ بأنفسهم (يمكن للجنة التنسيق بين المدارس والمتاحف أن تهتمّ بذلك عبر ضمّ مهتمّين من المنطقة التربويّة والمدارس الخاصّة إلى اللجنة).

- إعادة النظر من قبل الاختصاصيين ببعض النصوص في الكتب المدرسيّة (عبر الإضافة أو الحذف) أو على الأقلّ الاستفادة من النشاطات اللاصفيّة بما يهدف إلى تحسيس الطلاب وتوعيتهم وترغيبهم بالتعرّف إلى التراث الشعبيّ الماديّ وغير الماديّ.

في البعد الإعلاميّ:

- العمل على إقامة المتاحف الشعبيّة الافتراضيّة، لسهولة إقامتها، ومجانيّة دخولها، ودورها التربويّ في تحسيس الشباب عمومًا والتلامذة على أهميّة التراث الشعبيّ.



- الاستفادة من وسائل الإعلام الوطنيّة والمحليّة ووسائل بلديّة على أنواعها لعرض أفلام قصيرة عن حرف وعادات وتقاليد وعرض لمنحوتات وآثار الخ...
- التواصل الدائم مع المؤتمرين باحثين ومشاركين في النقاش والحضور، ومن بينهم الطلاب، والجهات الراعية والممّولة والمساعدة للمؤتمر، وإعلامهم بكلّ الخطوات المتعلقة بموضوع المؤتمر واستنهاض مساهماتهم على أنواعها (أفكار، مشاركة في إجراءات معيّنة، عطاءات الخ)، واعتماد طريقة كرة الثلج عبر تواصل كلّ من هؤلاء مع شبكاتهم الخاصّة لتوسيع دائرة المهتمّين والمطلّعين على أعمال المرصد.

#### خطوات إجرائيّة مقترحة:

- تشكيل لجنة مصغرة من الهيئة التأسيسية (من مرصد التنمية والبيئة ومن معهد العلوم الاجتماعيّة لوضع المشروع الأولي لتأسيس المرصد الثقافي وتحديد الطاقات البشريّة اللازمة والوسائل المطلوبة والكلفة والتمويل ومصادره...).
- الارتكاز إلى استراتيجية التنمية لمدن الفيحاء وتحديد مشروع محدّد من قبل الهيئة التأسيسية للمرصد والبدء بتنفيذه كمشروع رائد.
- المباشرة برصد وإعداد لوائح حصر التراث الثقافي غير المادّي لمدن اتحاد الفيحاء وتحديد العناصر المهدّدة وحاملها واعتباره كمشروع رائد.
- الاستفادة من تراكم الخبرات الموجودة في مدن الفيحاء والعمل على رصد كلّ الأنشطة المتعلّقة بالتراث الشعبي والتي شهدتها هذه المدن (رصد الـ ١٢٥ جريدة ومجلة على مدى ١٠٠ سنة، والتجربة المسرحيّة، والمعارض المؤقتة،...) والاستفادة من تلك المبادرات والنشاطات ومن خبرة القائمين بها وكذلك العمل على تجنّب الصعوبات التي واجهتهم.
- العمل على استنباط أساليب لاستدراج عطاءات السكّان (من تراثهم المادّي والشفهي) من أجل إبراز التراث الشعبي.

# الفهرس



٥ ..... توطئة

١١ ..... كلمات الإفتاحفة

المسور الأول

المرصء الثقافف وأهمفة الشراكة المؤسساتفة



الدكتورة مها كفال

٣٣ ..... المرصد الثقافف وسفاسات المئاحف بف حفظ التراث والتنمية المسءامة

الدكتور سمفح شعلان

٤٧ ..... المأءورات الشعبفة .. وقضفة الموضوع

الدكتور عفاف عطفة

٦٩ ..... لباس المرأة من التقليء الاجءماعف إلى التعبفر عن الهوففة

المحور الثاني

مواضيع وطرائق في خدمة الرصد الثقافي

الدكتور هيفاء ياسين

٩١ ..... الموسيقى في بعدها الاجتماعي؛ وجه من أوجه الرصد الثقافي

الدكتورة سعاد سليم

١١٥ ..... الوثائق ودورها في التاريخ المعاش

الدكتور عبد الشفي عماد

١٣١ ..... الذاكرة الجماعية، تجربة مركز إحياء التراث الوثائقي في طرابلس

المحور الثالث

البحث الافتراضي والتوثيق النوعي والرصد الثقافي

الدكتور نديم منصور

١٤٧ ..... الرصد الثقافي للمجتمع الافتراضي

المهندس عاطف نوار

١٧٥ ..... التوثيق والتحليل النوعي للمادة الثقافية المجمعّة. تجربة الأرشيف المصري للحياة والمأثورات الشعبية

الدكتور يوسف كفروني

١٩٩ ..... البحث النوعي باستخدام Atlas-Ti

المحور الرابع

التراث اللامادي الشفوي: أهميّة دلالاته وطرائق جمعه

الدكتورة آني طعمه ثابت

٢٢٣ ..... اتفاقية اليونسكو لعام ٢٠٠٣ وقوائم حصر التراث الثقافي غير المادي

الدكتور ساري حنفي

٢٣٩ ..... المتذكر والمنسي والمقومع: ملاحظات منهجية من عملية التأريخ الشفوي الفلسطيني

الدكتور علي بزي

٢٦١ ..... الكنوز البشرية الحية سباق لرصد الهوية الثقافية

الدكتور نادر سراج

٢٧٧ ..... ذاكرة بيروت في الحفظ والصون: قراءة عصرية لموروث ثقافي متجدد

الدكتور هشام حيدر

٢٨٢ ..... المرصد الثقافية ودورها في رسم السياسات الثقافية والعمرانية

المهندسة ديمة حمصي

٢٨٧ ..... مرصد اتحاد بلديات الفيحاء: التكوين والدور والطموح في تغطية البعد الثقافي

الدكتورة مارلين حيدر نجار

٣٠١ ..... السياسات الثقافية ومنهج التنمية المستدامة

الدكتور مصباح رجب

٣٢٥ ..... المرصد الثقافي ودوره في مسار التخطيط الاستراتيجي

الدكتور خالد عمار

٣٣٢ ..... في تاريخية المتاحف وطرائق إدارتها

الدكتور الحبيب بن يونس

٣٤٧ ..... إدارة المتاحف مشروع مادّي ولا مادّي

الدكتورة نادين بنايوت هارون

٣٥٣ ..... المتاحف كعامل للتماسك الاجتماعي، دراسة حالة: المتحف الاثنوغرافي في جامعة البلمند

الدكتور جمان توما

٣٦١ ..... الهويات الحرفية في المدن البحرية

الدكتور زهير العبد

٣٦٦ ..... أنساق العمارة، شروط البناء المتحفّي، والمادة المتحفية

الدكتورة سماح الصرارفي

٣٧٩ ..... المحافظة الوقائية وشروط البناء المتحفّي





